المقالات

الكتاب الأول

12.2.2022



مشيل دو مونتيني

ترجمة: فريد الزاهي

معنى
MANA

المقالات

الكتابُ الأوَّل

MANA.NET

المقالات

الكتاب الأول

تأليف: مشيل دو مونتيني

ترجمة: فريد الزاهي

الطبعة الأولى: 2021
ISBN: 978-603-91637-1-8
رقم الإيداع: 1443/952

هذا الكتاب ترجمة لـ:

Michel de Montaigne,
Essais
Traduction en français moderne
de texte de l'édition de 1595 par Guy Pernon Michel de Montaigne,

Cover portrait: Portrait of Montaigne by an unknown painter

الآراء والأفكار الواردة في الكتاب تمثل وجهة نظر المؤلف

معنى MANA

الناشر:
دار معنى للنشر و التوزيع

www.mana.net | info@manaa.net | @ManaPlatform

المحتويات

تقديم الناشر

أنفع الكتب ما كان وقودًا للتفكير، لا خزانة لتحنيط المعلومات. وخير الأسْفار ما شحذ ألباب القراء، لا كان وسيلة للإلهاء، وإزجاء أوقات الفراغ. عزيزنا القارئ، ليس هذا من الكتب التي تقرأها وأنت مضطجع؛ فهو ليس من المصنَّفات سريعة الهضم، التي تُبْلغ مراميها من القراءة الأولى؛ بل هو من المؤلَّفات التي تبعث على التفكّر، وتفتح باب التأمل. وهو من أعزِّ كتب التفلسف قدرًا، وأرفعها ذكرًا، وأذيعها أثرًا.

هذا الكتاب الذي نقدِّم له، من أمهات الكتب لدى أمم الغرب، ألفه حكيمٌ من أعاظم حكماء الأمة الفرنسية، من العصر الذهبي للنهضة الأوروبية. وبفضله ترك تأثيرًا لا يُجْحَد، في طائفةٍ من أنْبه عقول أوروبا، وفي صدارتهم فلاسفة عصر التنوير، ويكفي أن نحيطك علمًا -إن كنتَ لا تعلم- بأسماء نفرٍ منهم، لتقف على قدْر الكتاب، وفضل مؤلفه.

ونذكر من جملة هؤلاء النبغاء الذين تأثروا بهذا الكتاب: فرنسيس بيكون، الذي بلغ من تأثير الكتاب فيه أن صنَّف كتابًا على مثاله، بالعنوان نفسه، ضارَع فيه أسلوبه! ووليام شكسبير، الذي اقتبس منه مشهدًا في مسرحيته «العاصفة»؛ وديكارت، الذي كان لهذا الكتاب تأثيرٌ لا تخطئه عين، في نظريته في المعرفة، ونزعته الريبية وتحرره من الأحكام المسبقة. كما لا نغفل فولتير، الذي نافح بشراسة عن الكتاب وصاحبه ضد منتقديه، وعلى رأسهم بليز باسكال، الذي أزْرى بمؤلف الكتاب، بيْد أن ذلك لم يمنعه هو أيضًا من أن يتمثَّل به ويأخذ منه في براهينه، لا سيّما في رهانه الشهير.

ومن أولئك النبهاء أيضًا: مونتسكيو، الذي كان يحتفظ بنسخةٍ قديمةٍ منه في خزانته، وقد ظهر تأثره به في تحليله المقارن للقانون؛ وديدرو، الذي أعجب به أيَّما إعجاب، وتوسّع في النقل منه ضمن موسوعته، وكثيرًا ما استلهم منه تأملاته حول علاقة العالمين القديم والجديد؛ وجون جاك

روسّو، الذي استمد منه فكرة «الهمجي النبيل» التي أقام عليها بعض فلسفته، ناهيك عن تأثره به في تحرره وجرأته في سرد سيرته؛ وديفيد هيوم، الذي طبعه الكتاب على نزعته الشكية، وكان له فضلٌ في نقده للسلطة والاعتقاد؛ وآدم سميث الذي استرفد منه في تحليله النظام الاجتماعي؛ وفريدريك نيتشه، وهو ربما أشد الألمان افتتانًا بالكتاب وبصاحبه، إذ دأب على قراءته منذ سن الخامسة والعشرين. وغيرهم كثيرٌ من أساطين الفكر، وأرباب البيان، ممن لا يحيط بهم إحصاء.

هذا الكتاب، الذي نقدِّم له، إنما هو جمْهرة مقالات الحكيم الفرنسي مشيل دو مونتيْني (1533 – 1592 م)، وهو فيلسوف كبير، وأديب قدير، طوى بذراعيه الفلسفة القديمة، واستوعب آداب الأوَّلين؛ إذ هيّأ له اتقانه اللغة اللاتينية وإلمامه باليونانية، أن ينهل الفلسفة من مواردها، ويأخذ الأدب من مظانه، ولا أدلَّ على ذلك من هذا الكتاب، وهو أهم كتبه طرًّا، خاض به لجج الفلسفة، وفتح منه صفحات التاريخ، وقطف فيه أزاهير الأدب.

كان مونتيني عضوًا في برلمان بوردو، وفي سن السابعة والثلاثين استعفى من منصبه، وفزع إلى العزلة، وزهد عن الدنيا، وانقطع إلى الدرْس في مكتبته، والتزم القراءة والتأمل والكتابة، وفحص حياة الإنسان وأحواله، وتنقل بين آثاره وأفكاره، وقلَّبه وجهًا على ظهر، حتى انتهى إلى هذه الخَطَرات، التي أودعها كتابه بعد شروعه في تأليفه سنة 1572 م وهو حينئذٍ ابن تسعٍ وثلاثين سنة، فنشر أول جزأين من كتابه سنة 1580 م، ثم تلاه الجزء الثالث سنة 1587 م، وقد امتدت إليه يده بالزيادة والتصحيح حتى وافته المنيّة سنة 1592م، وعليه فقد أنفق مونتيني في كتابة مقالاته ثماني سنوات، لكنه استغرق في تنقيحها عشرين سنة، وهكذا فإن الكُتَّاب العظماء ليسوا سوى مُنقِّحِين دائبين.

وكان من مثالب تطاول الأمد في تحرير المقالات، وعددها مئة وسبع مقالة، أن أتى بعض ما ورد فيها متناقضًا أو متعارضًا في مضمونه، ذلك لأن عقل المرء دائم التطور، والفكر يطرأ عليه التغير، فالإنسان مثل نهر هيراقليتوس، قد لا ينام ويصحو بالذهن نفسه. لكن لعلّ مونتيني قد

أفاد من هذه السمة: فاستحال العيب ميزة؛ إذ أجمع على حبه القراء على اختلاف مذاهبهم. وفي الوقت نفسه تمَّ له بعض ما عقد عليه عزمه، من جهة الاشتمال الذي أراده لكتابه، بعدما جمع فيه فأوعى، وأودعه خلاصة تجربته، وملأه بصفوة معارف عصره.

وناهيك عن سمة التناقض في مقالات مونتيني، فإنها تتفاوت في ما بينها تفاوتًا بيّنًا من جهة الحجم، فبعضها شذرة لا تتجاوز سطورًا معدودة، وبعضها الآخر يكاد يكون رسالة؛ كما أنها تتباين من حيث المضمون، إذ إن بعضها شخصي يمس حياة مونتيني، وبعضها الآخر عام، يحاول إجابة سؤال وجودي، الإنسان فيه علامة استفهام.

ومقالات مونتيني أصدق صورة لأدب عصر النهضة، وخير من يمثّله؛ فيها احتفاءٌ بآثار السلف من الإغريق والرومان، وولوعٌ بالنقل عنهم، وهي مكتوبة بالفرنسية لغة الشعب، لا اللاتينية لغة الصفوة؛ لنشر التنوير بين العامة، والنهوض بهم من حمأة الأوهام. وهو في طليعة المبشرين بالتنوير، بحسب طائفة المفكرين الموسوعيين، ومقالاته أول أناجيل الحداثة، إذا جاز القول. لكن على أية حال، ليست غاية هذا التقديم التعريف بمونتيني؛ ففي متن هذا الكتاب مندوحة عن ذلك، فهو لا يتحدث إلا عن نفسه، هوذا يقول: «أنا، أيها القارئ، مادة كتابي»؛ ولكن حسْبنا من هذا المقام التعريف بمكانة كتابه.

والحق أن كتاب مونتيني، الذي بين أيدينا الآن، كتابٌ فذٌّ من وجهين: أولًا، المقالات التي يضمُّها هي أولى المقالات في تاريخ الأدب. فمونتيني مخترع فن المقالة، وهو من ابتكر مصطلح المقالة «essai» (يعني حرفيًا «محاولة») في الفرنسية، وسرعان ما اقترضته الإنجليزية؛ فهو من هذا الوجه يجوز أن يكون فيلسوفًا في رداء أديب، بقدر ما يكون أديبًا في رداء فيلسوف، والفلسفة إذا تمثَّلت أدبًا استساغتها النفوس، وأقبل عليها عموم القراء.

وثانيًا، هذا الكتاب هو أول مؤلَّف أدبي فلسفي بلغة عامية في تاريخ الآداب الأوروبية. وهو ما يرقى بصاحبه إلى مصاف زمرة المجدّدين من الأدباء المتفلسفين، من طراز: أفلاطون في اليونانية، وابن المقفع في العربية،

ودانتي ألّيجييري في الإيطالية، وتشوسر في الإنجليزية، وهلم جرًا من أئمة هذا الطراز، ومن يدخل في طبقتهم.

وهذا الكتاب وإن كان فريدًا في بابه، جديدًا في أسلوبه، بالنسبة للأمم الغربية إبّان صدوره، فإنه قريب الشبه، من كتب المنتخبات المبوَّبة المعروفة في تراثنا العربي، من أمثال: عيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه. فقد جمع فيه مؤلِّفه طرائف الأخبار، وروائع الأشعار، وبدائع الخطب، وفوائد الكتب. حتى إذا قرأتَ كتابه حسبته فرد الدنيا الذي ضنَّ الزمان بنظيره، فهو كثير التحصيل، واسع الدراية والرواية، قوي الحافظة، حاضر الشاهد، أخذ من كل فنٍ بطرف، ونتف من كل أدبٍ أفضله، وقطف من كل شعْرٍ أجوده، وانتخب من كل قولٍ أحكمه.

وليس للكتاب موضوعٌ على وجه التعيين، بل هو أضغاثٌ من موضوعاتٍ شتى، تفيض بالحكايات والخطرات، الحافلة بالأفكار والتأملات، فيها معانقة الفلسفة والأدب، ومزاوجة التاريخ بالتراث الشعبي، وربما كان هذا من أسباب ذيوع هذا السِفْر الجليل؛ فالناس مولعون بالنادر من الخبر، ويتحرّون طرائف السير، لهذا صادف هذا الجنس من الكتابة هوًى في نفوس القراء، فكأن مونتيني أراد أن ينفق بضاعة الفلاسفة في السوق الكاسدة.

ولم يكن مونتيني من طائفة المفكرين الذين يغلب علمهم عقلهم؛ فرغم تقديره الذي يبلغ حد التبجيل لأعلام نبلاء الإغريق والرومان، وولعه بالنقل عنهم والتمثّل بهم -وهي عادة تأصلت منذ عصر النهضة- لكنه لا يقنع بالنقل دون إعمال العقل، بل نجده قد يستدرك على شاهدٍ، أو ينقد رأيًا مال عن جهة الصواب، أو يرد حكمًا زاغ به الشطط، فهو لا يقبل شيئًا إلا بعدما ينقده بعقله ويغربله بحكمه، اللهم إلا في القليل، ما ينبئ عن بحَّاثةٍ دؤوبٍ، ونقَّادةٍ مُتقِنٍ. فالنُقول في مقالاته تخدم أفكاره، وهي مطيّة أغراضه، التي يبلغ بها مقاصده.

وأمثال مونتيني لا ينقلها نقل المختال بذخائر خزانته، التي حَوَت نحو ألفٍ من الكتب، وقد يحدث أن من يتفلسف يتعجرف، أو يسرف في

التعظُّم، بيد أن مونتيني لم يكن هذا دأبه، فهو على سعة اطلاعه، وقوّة حافظته، كثير الاعتذار عن نفسه، فتجده يشكو ضعف ذاكرته، ويندب وهن ذهنه، منتحلًا لنفسه كل عذرٍ عن أي خطأ زلَّ فيه قلمه. وهو كثير الاحتياط في أحكامه، ويؤثر تعليقها دون تحقيقها، وخير دليلٍ على ذلك عنوان كتابه، الذي سمّاه «محاولات» (أي تحتمل الصواب والخطأ) فقد نأى بقلمه عن الفصل في كل مسألة، تاركًا فسحة ذلك لقرائه.

لقد كتب مونتيني مقالاته وكأنه يكتب للجِبِلة البشرية، لا لمواطني بلده وعصره فحسب، وهذه آية من أراد تسطير اسمه في لوح القدر؛ فالكتابة الخالدة ما كانت مجردة من الزمان، محررة من قيود الجغرافيا. وهو مع ذلك لا يتكلم من موقع المراقب المحايد، بل يتحدث بلسان المتورط الخبير؛ فيصف نوازع الذات، ويتوسع في استعراض الآراء، وسرد الأحداث، دون الشعور بأي غضاضة، أو الوقوع في إثم الغلو، أو التحيز لرأيٍ يمليه الهوى.

بقي أن نقول إن تحرر عقل مونتيني، وانفتاحه على كل الأفكار، حتى أسلمه إلى الريبية، كان له ضريبته أيضًا، وقديمًا قالوا: عثرة الوثّاب شديدة، إذ رغم ما شهده كتابه من وقعٍ عظيمٍ بُعيْد نشره في فرنسا، وما أصابه من رواجٍ هائلٍ فور ترجمته في بريطانيا، ومن ثم انتشاره في ربوع أوروبا؛ فإن هذا الرواج كان وبالًا على الكتاب؛ فبعض آراء مونتيني التي سبق بها عصره، والجرأة التي انماز بها سرده، لم يتحمَّلها بعض أهل زمانه، واستفظعها بعض سدنة الكنيسة، فحدث أن دانت محكمة التفتيش الكتاب، ووضعته في قائمة الكتب المحظورة سنة 1676 م، وظلّ في القائمة حتى إلغائها عام 1966 م، لكن نواميس التطور أخذت مجراها، وانتصر التنوير، وانتشر الكتاب رغم أنف خصومه، حتى أثناء حظره، في بقاع البسيطة من أقصاها إلى أقصاها، وتُرجم حتى الآن إلى ما ينيف على ثلاثٍ وخمسين لغة.

والآن نزفُّ إليك، عزيزنا القارئ، الترجمة العربية الأولى لهذا الكتاب القيّم، وقد مضى على صدوره أول مرة، زهاء أربعة قرون ونصف القرن، وهي ترجمة نعدّها أمينة، دبّجها الدكتور فريد الزاهي، فأدّى المعنى وحفظ الأسلوب، وأخلص الغرض، وعني فيها بالتزام أسلوب مونتيني في الكتابة،

من حيث السبْك والصياغة، حتّى لكأنك تقرأ الكتاب بلغته.

والنسخة التي ترجمها مترجمنا القدير هي النسخة التي حققها السيد جي دو بيرنو (Guy de Pernon) ونشرها سنة 2010 م، بالاعتماد على نسخة سنة 1595 م، وهي أول النسخ المنشورة بعد وفاة مونتيني، وقدَّمتْ لها ابنته بالتبني ماري دو غورنيه، فهي بذلك أكمل النسخ التي خطَّها المؤلف، وأقربها عهْدًا به.

ولقد كان في التصدي لترجمة هذا الكتاب جُرْأة تهيبتها دور النشر العربية، فهو مع ضخامة حجمه، وجزالة لغته، وكثرة شواهده وأمثلته، التي تربو على ألفٍ وثلاث مئة شاهدٍ ومثالٍ، من نصوصٍ بلغاتٍ شتى، منها: اللاتينية واليونانية والإيطالية والغاسكونية (إحدى اللغات الرومانية بفرنسا) -وهي في الأصل بخطٍ مائلٍ، وبخطٍ عريضٍ في الترجمة العربية- فهو موسوم كذلك بغزارة الأعلام المبثوثة فيه، من أسماء أشخاص وأماكن وقبائل وشعوب ومؤلّفات إلخ، وقد بلغت ألفًا وسبع مئة وسبعة وأربعين علمًا، أكثرها من غير الفرنسية كاللاتينية واليونانية والإيطالية والإسبانية إلخ، وثلةٌ من هذه الأعلام غير مألوفٍ للقارئ العربي - جميعها وغيرها أمورٌ تفرض على ترجمة هذا الكتاب ومراجعته وضبطه، صعوبة سائرة إلى الاستعصاء.

ولقد اضطلع مدققنا الأستاذ الفاضل محمد وهبة، بهذه المهمة؛ فقد دقق النصّ من كافة نواحيه، مع ضبط الهوامش وعلامات الترقيم، واستدرك على ما يلزم، وعني بتدقيق الأعلام التي تربو على الألف، كان منها ما هو محرّف في الأصل الفرنسي، لإغفال المحقق عنها، وهي من أعصى الأعلام على الضبط، مثل: بسامينيت (Psammenite) والصواب بسماتيك (Psammétique). ومنها ما هو مختصر بحروف الابتداء؛ فافتقرت للاكتمال، مثل: «ت. كورينكانيوس» وهو«تيبيريوس كورونكانيوس». ومنها ما هو مبهم وبحاجة للتوضيح، لكن المحقق أعفى نفسه من تجشم مؤونة تحديدها، منها مثل: شخصٌ يُدعى «أوكتافيوس» جاء غفلًا في أحد السياقات، وتبيّن بعد مراجعة بعض المصادر أن المقصود به القنصل جنايوس أوكتافيوس (توفي 87 ق.م).

وقد استعنا على تدقيق أغلب هذه الأعلام بمقابلة نسخة جي دو بيرنو على نسخة المكتبة الفرنسية العامة (Librairie Générale Française) الصادرة سنة 2001 م، والنسخة التي حققها البروفيسور مايكل سكريتش (Michael Screech) وترجمها لدار بنجوين، طبعة سنة 2003 م، فضلًا عن الرجوع إلى بعض المصادر والمراجع الأخرى، للتثبت من الأعلام المحرفة أو المبهمة في النسخ الثلاثة.

وبعد أن أفرغنا وسعنا في التصحيح، وضبطنا جميع الأسماء كما تُنطق في لغاتها، باستثناء ما قد يبلبل القارئ، ويصرف ذهنه عن الاسم المراد؛ عمدنا إلى إثبات ما رأيناه ضروريًا للقارئ العربي في حواشي الكتاب، من تعليقاتٍ أو تراجمَ مختصرةٍ لطائفةٍ من الأعلام؛ رفعًا للالتباس وإتمامًا للفائدة، وإشباعًا لنَهْمة القارئ المستزيد، وميّزناه بعلامة (*).

ثم عمَدنا في نهاية الكتاب إلى إدراج ملحقٍ يأخذ القارئ الكريم إلى مكتبة مونتيني، ويريه ذلك المكان الذي خرج منه هذا الكتاب، لا سيّما وأن مونتيني من زمرة المؤلفين القلائل الذين يرتبط بهم القارئ كأشخاص، ويشعر تجاههم بنوعٍ من الألفة، وشيءٍ من الفضول نحو حياتهم وزمانهم، فأدرجنا صورًا للمكتبة من جوانب مختلفة، وصورًا للنقوش المحفورة على عوارض سقفها، مع ترجمة بعض تلك النقوش. وكذلك أدرجنا رابطًا يأخذ القارئ إلى جولة ثلاثية الأبعاد فيها.

ونهاية القول، لمَّا كانت حركة الترجمة في عالمنا العربي أقرب إلى الركود منها للانتعاش، كان من لُطْف الأقدار أنْ قَيَّدت دار «معنى»، لتتصدى لهذه الغاية، وتضرب بسهمٍ لسدّ هذه الثلمة، ولتبعث الترجمة العربية من مرقدها، وتبُث فيها نسمة الحياة، بعد أفولٍ دام أمده، وانفراجٍ طال انتظاره، لاستنهاض أمجاد الأسلاف، واستدراك ما فات الأوائل، منذ عصر النهضة العربية.

وإننا إذ نزجي للمكتبة العربية هذا الكتاب القيّم، ليكون مبتدأ سلسلةٍ من الكتب النفيسة، التي تُتَرجَم إلى العربية للمرة الأولى، الكتاب في عُنق الكتاب، راجين له ولما يتلوه من الكتب، القبول الحسن بين جمهور القُرَّاء؛

لا يفوتنا إهداء الشكر لسمو الأمير محمد بن سلمان، ولي عهد المملكة العربية السعودية؛ فلولا مساعيه المحمودة في دعم نهضة المملكة وتنشيط الحراك الفكري والثقافي فيها، ما كان لنا أن نُخرج هذا الكتاب، وبقية إصداراتنا، إلى النور.

الناشر

الرياض - 2021

تقديم المترجم

لا يخفى على أحد الموقعُ الذي تبوّأه فكرُ الأنوار في الفكر العربيّ منذ أواسط القرن الماضي، بما يحمله من فكرٍ عقلانيٍ ومناهضةٍ للغيبيّات وارتكازٍ على قُدراتِ الفرد وطاقاته في التغيير والتقدُّم الاجتماعيّ. وإذا كانت فلسفة سبينوزا ولوك ونيوتن وراء هذا الفكر فإنَّ طابعَه الفلسفيّ سوف يمنَحُ في القرن الثامن عشر الخلفيةَ التي ستنطلِق منها الثورة العلمية والصناعية والسياسية في فرنسا بالأخصّ. لقد كان الفكر العقلانيُّ المبنيُّ على الفردانيّة وولادة الذّات أيضًا وراء ظهور الجماليّات التي منحَتْ للذّات والذّوقِ الفرديِّ موقعَهما في العلاقة بالطبيعة والفن.

بَيْدَ أنَّ فكرَ الأنوار هذا الذي تبلور مع فكر مونتسكيو وميشلي وغيرهما، لم يكُنْ مُمكنًا من غير سيرورة فكرية سوف تجد أصولَها في فكر روني ديكارت قرنًا قبل ذلك، وبعده بقليل بليز باسكال. إنَّ ديكارت وباسكال كانا فيلسوفيْن «نمطيَّيْن»، أي إنَّ مسيرهما الفكريّ كان يبتغي صياغةَ تصوُّرٍ ونظرية تنبني على الرياضيات أو الطبيعيات لبناء منظور للعالَم يكون مرجعيًّا ويُعيد النظر في الفكر السابق عليهما، انطلاقًا من صرحٍ فكريٍ متكامل ومَبنيٍّ بشكلٍ منهجيٍّ، بخاصة لدى ديكارت.

لهذا السبب بالضبط، وبالرغم من الأهمية الفكرية التي اكتسبتها مقالات مشيل دو مونتيني (1533-1592)، فإنها لم تحظَ بالأهمية التي تُمكّنها من أن تُعتبَر مَصدرًا من مصادرِ فكرِ الأنوار، بالشَّكل نفسه الذي لم تحظَ به كتابات مين دو بيران (1766-1824) بالأهمية التي تستحقّها في ظهور علم النفس، وهو الذي كان مثل مونتيني يُبلور مفهومًا للذات بعيدًا عن التصوّرات السابقة عليه. لذا فإن موقع مونتيني في تاريخ الفكر الغربي يظل في منزلة بين منزلتين: منزلة الفكر اليوناني السابق على سقراط والفكر الأفلاطوني وتوابعه، المبنيّ على المجاز والشعر

والأسطوريات، ومنزلة الفكر العقلاني الذي يُعتبَر بشكلٍ ما (مع أخذ المسافة الزمنية والفكرية بالاعتبار) امتدادًا للفكر الأرسطي، كما هو لدى ديكارت وغيره. وبما أن مونتيني لم يكن أرسطيًّا إلّا فيما ندر من شواهده، فإن كتابه جاء عبارة عن شذرات، تُحاكي بشكلٍ أو بآخر فكْرَ الفلاسفة الإيليّين الذين كانت له بهم معرفة عميقة والذين كان يكِنُّ لهم كامل التقدير.

مونتيني: جسر التحولات

ينطلق مونتيني في مقالاته هذه من موقفٍ واضحٍ يتخذ له قدوة الفكر اليوناني والروماني في عظمته الباهرة. يقول بهذا الصدد: «أَدين بغرامي بالكتب للمتعة التي وجدتها من قراءة كتاب أوفيديوس «التحولات»؛ ذلك أني حين بلغت حوالي السابعة أو الثامنة من العمر تخلّيتُ عن المسرّات جميعًا من أجل متعة قراءة هذا الكتاب، خصوصًا أنّه مكتوب بلغة هي أقرب إلى أن تكون لغتي الأم، وهو أسهل كتاب عرفته يومها، والأنسب بمحتواه لِسنِّي» (المقالات، الكتاب الأول). إنه يبني جسرًا ينتقل فيه على هواه بين القرن السادس عشر وفكر المنطلقات فيما قبل الميلاد. وهو وإن كان يُدير وجهَه هنا وهناك ليكتشِف أسماء تُقارب ذوقَه الجمالي، فإنه لا يذكر من بينها إلّا القليل من الأعلام كدانتي ورابليه ورونسار ودو بيلاي. وفي هذا الخضمّ كانت له علاقة صداقة مع الكاتب دو لابويسي في أواخر حياته، وخصص لهذه الصداقة الأنموذجية صفحات طويلة من «المقالات». لا يُخفي مونتيني أنه طيلة كتابه هذه لا يكتفي فقط بنثار من الفكر اليوناني والروماني، بل يزرعه في خلفية الكتاب كما في واجهته. إنه لحمته الكبرى التي منها ينطلق وإليها يؤول في تقويماته الأخلاقية، كما في إسناد تجاربه الشخصية في تفاصيلها الأدق.

وهو بذلك يندرج في تقليد للكتابة يُذكّرنا في جانب منه بالكتابة في العصور الوسطى. والأمر لديه ليس فقط بحثًا عن سند مرجعي فقط يمنحُ للقدماء قيمةً تُجاوز قيمةَ المعاصرين، وإنما أيضًا قفزٌ

على السكولائية التي يَكيلُ لها من النَّقد ما يجعله يعتبر أرسطو الأصل وأرسطو السكولائي بدايةَ القطيعةِ مع الفكر الذي يمْتحُ مِنه نَسغَه. كما لا يُخفي مونتيني ولعَه بسقراط (الشخصية الأفلاطونية الممثلة للفكر المثالي وأخلاقياته)، وبالفكر ما قبل السقراطي. بَيْد أنّ حسه النقدي ينبثّ هنا وهناك مُعارِضًا بين ديمقريطس وهيرقليطس، وبين أفلاطون وأرسطو، وبين شيشيرون وبلوتارخوس، ذلك أن مونتيني لا يعتبر القدماء مرجِعًا إلا بمقدار ما يفجرون حسّه النقدي. فهو يكره لدى شيشيرون كما لدى بلاينوس مثلًا جعلَهما الكتابةَ وسيلةً للمجد والخلود.

يجد مونتيني لدى القدماء فضاءً للنهل المستمرّ ومجالًا لبلورة نقد يمنحه إمكان التميّز الذاتي. فبالرغم من أن الرجل قد نذر جزءًا من حياته للشؤون العامة، بحيث كان قاضيًا لمدة 15 عامًا ثم شغل لمرتين متتاليتين منصبَ عمدةِ مدينة بوردو، وبالرَّغم من أنه لم يكن قطّ ضد أن يشتغل لصالح ملك أو أمير، فإنه قد كرّسَ حياتَه للخلوة والزهد في المناصب وتفادي الدخول في الصراعات التي أنهكت القرن السادس عشر الذي عاشه طولًا وعرضًا. ومع أنّه يُتقن اللغة اللاتينية ويعتبرها لغتَه الأم فإنَّ كتاب «المقالات» يمكن اعتباره أحدَ المعالم المؤسسة للغة الفرنسية مع كتابات الفرنسيين الكلاسيكيين كرابليه ورونسار وغيرهما.

إنَّ الانتقال من التعبير باللاتينية إلى الفرنسية ومن الفكر الكلاسيكيّ إلى الفكر الحديث ومن اللّاهوت إلى الذّات الناشِدة للحرّية لم يكن له أن يتمّ من غير استعادة الفكر القديم بزخمه وحريته. ونحن إذا كُنَّا نُلاحظ لدى رابليه حريةً بالغةً تتمثل في نقد النزعة الكهنوتية واستخدام المقالب والهزل والدعوة إلى فكر تنويري مبنيّ على الأفلاطونية ضد العقلانية السكولائية لأرسطو، فإن بعضًا من هذه السمات سوف نعثر عليها في «أسلوب» مونتيني الذي ينبني على مجموعة من المفارقات التي تخلخل عنجهية الذات الكاتبة وسلطويتها. فالكتابة فعلٌ ذاتيٌّ لديه محفوفٌ بغيابِ النسقيّة وبالشّذريّة وبالتكرار وبالتناقُض أحيانًا وبالتطوّر. إنه

انسيابُ الذّات التي نراها تتشكّل أمامنا في قوتها وهشاشتها وفي قدرتها على تسليتنا بمرحها أحيانًا.

تبدأ تلك المفارقات بالحديث المطنب عن ضعف الذاكرة. «الذاكرة وعاء المعرفة. وبما أن ذاكرتي ضعيفة فليس لي أن أشكوَ من أني لا أعرف شيئًا كثيرًا. أعرف عمومًا أسماء المباحث والعلوم، وما تتناول من مواضيع، لكني لا أسير أبعد من ذلك. وأنا أتصفّح الكتب ولا أدرسها؛ وما يتبقّى منها في ذهني هو ما لا أعرف أنه صادر عن شخص آخر، ومن هذا فقط استفاد عقلي، أي البراهين والأفكار التي تشرَّبها. واسم المؤلف ومكانه والكلمات والتفاصيل الأخرى كلها أمور أنساها أيضًا. فأنا ماهر في النسيان إلى درجة أني أنسى أيضًا كتبي نفسها، مثلها مثل الباقي. غالبًا ما يتم الاستشهاد بكتاب «المقالات» في حضرتي من غير أن أنتبه لذلك. ولمن يرغب في معرفة من أين آتي بالأمثلة والأشعار التي راكمتُ هنا، فأنا سيصعب عليَّ تذكّر ذلك؛ ومع ذلك فأنا لم أتسوّلها إلا من الأبواب المعروفة والشهيرة، غير مُكتفٍ بأن تكون نادرة أو مشهورة، فشهرتها تضاهي حكمتها. ليس من الغريب إذن أن يحظى كتابي بمصير الكتب الأخرى، وأن ينساب من ذاكرتي ما أكتب، مثله في ذلك مثل ما أقرأ وما أمنح وما أتلقّى» (المقالات، الكتاب الثاني). إنها ذاكرة تمكن مونتيني أيضًا من التصرُّف في استعمال الشواهد والإحالات، وتمكّنه من تأويلها. وهو أمر يحيل بالأخص إلى تصوره لعلاقة الإنسان بالمعرفة. ففي مواطن عديدة من المقالات نراه يُوجّه نقدًا لاذعًا للتربية المعرفية التقليدية المبنية على الحفظ والخزن في الذاكرة. فلديه «الرأس المبني بشكل جيد أفضل من الرأس المليء بالمعارف». إنها معرفة تنبني على التأويل والشكّ وتعدّدية الحقيقة. وهي أمور إن كان مونتيني يستقيها من الحكمة القديمة فإنّه يمنحها طابعًا شخصيًا. ومبدأ الشك -الذي سيجد فيما بعد تقعيده الأكبر على يد ديكارت- يجد مرتعه في كتاب مونتيني كمبدأ أمثَل للمعرفة، وكحماية ضد الدوغمائية وقبول للاختلاف وممارسة التسامح مع الفكر المغايِر.

بيد أن هذا «المكوّن» الذي يغدو مبدأً للمعرفة والكتابة والتأويل

يندرج في إطار مكوّنات شخصية أخرى: «وعَدا عيب ضعف الذاكرة، لديَّ عيوب أخرى تساهم كثيرًا في جهلي. فأنا لي عقل ثقيل وحافٍ، إذ إن أبْسط غيمة توقفه في الطريق، وبحيث إني مثلًا لم أقترحْ عليه لُغزًا قطّ، مهما كان سهلًا، استطاع أن يحلّه. وليس ثمة من أمر دقيق لا يخْرجني. ففي الألعاب، التي يأخذ العقل فيها حصته، كالشطرنج والورق والضامة وغيرها، لا أفهم منها إلا القواعد الأولية. ففهمي بطيء ومُشوَّش؛ غير أنه ما إن يمسك بشيء ما حتى يمسك به جيّدًا ويحضنه بعمق وقوة، ما دام مُمسِكًا به. عيناي بصحة جيدة وفي حال حسن، ونظري جيّد حتى عن بُعد، غير أنه يتعب بسرعة في العمل بحيث يتضبَّب. لهذا لا أستطيع أن أقرأ طويلًا الكتب من غير الاستعانة بشخص آخر» (المقالات، الكتاب الثاني).

إن فردانية مونتيني ليست ضربًا من الأنانية، كما أنَّ حُبَّه للثقافة القديمة ليس رفضًا لرياح الوقت المعاصرة، وارتيابيّته ليست إنكارًا للحقيقة، وإنما دفاعٌ عن الاعتدال والوسطية. وإيمانه بالمسيحية ودفاعه عنها ليس إنكارًا للعوائد الأخرى حتى الوثنية منها. ولا أدَلّ على ذلك من مديحه الطويل لعوائد الهنود الحمر واعتباره لحضارتهم قمةَ الحضارة البشرية وإنكاره الواضح والقاطع للاستعمار في وقت كان فيه ذلك أمرًا مُسلَّمًا به. إنَّ فكر مونتيني ينبني على إنسية وفلسفة إنسانية شغوفة بالمسؤولية والحرية، وتبشر بشكل واضح بعصر الأنوار قرنيْن قبل ذلك.

صعود الجبل ووعورة المسالك

ترجمة مونتيني أشبه بتسلُّق جبل صخري. يغريك تارة بالصعود وتارة أخرى يدخل في نفسك الرعب والتوجّس. إنه جبلٌ جميع مسالِكه وعرةٌ، وتسنناته حادّة، ومخاطره لا تُحصى. لكن ما إنْ تشرع في معاندته ومشاكسة وعورتِه حتى تستحلي المغامرة، من غير أن تُفكّر لا في عواقبها ولا في محاسنها. إنه جبل مجهول، أغلب من عرفوه رأوه من بعيد رؤيةَ

العين أو أطلوا على حوافيه من جبال أخرى قريبة... تأخذ زادَك وعدَّتَكَ وصبرَك وعنادَك وتُمسك بقلبك بين يديْك، وتنطلق في المغامرة.

وحين يومًا تجد نفسك في القمة، أقرب إلى الملكوت المطلق، تُطلِق صرخةً مدويةً تنبُع من أعماق أحشائِكَ لتردّ صداها الجبال الأخرى التي تسلَّقتَها قبلًا بالكثير من المغامرة والصبر والأناة وبالأكثر من الحب لنشوة المجهول...

ترددتُ في ترجمة هذا الكتاب، لا لأني جاهل بتاريخ الفكر الغربي ولا بالنصوص المثيلة، فقراءاتي للفلسفة تمنحني عضدًا وتؤازر مسعاي في خلفية تلك الرغبة. ولا لأني لم أتعوّد على النصوص الممتنعة على الترجمة، أو المتمنعة عنها، فقد سبق لي أنْ ترجمتُ بعضًا من أعْوصها وأكثرها تأزيمًا للغة الضاد... لأقُلْ إني ترددتُ لأمورٍ هي: إن مونتيني كتب مقالاته باللغة الفرنسية القديمة التي تختلف شكلًا وفحوى عن الفرنسية الحديثة والمعاصرة. فالعديد من كلماتها المستعصية تعرضتُ للتحوير والتبسيط والتيسير، والعديد من مفرداتها دخلت في باب المهمل غير المتداول، والعديد من تراكيبها صارت غير مفهومة والعديد من إحالاتها الثقافية وأمثالها ومرجعياتها تنتمي لعصور غابرة. وهو أمر له متخصصوه اللغويون والفكريون الذين يقومون بعمل تحقيقيّ أشبه بتحقيق رسالة الغفران للمعري.

والكتاب يتكون من ثلاثة أجزاء ضخمة تُبدّد همة المترجم المتفرّغ (وهو ما ليس حالي أبدًا) وتجعل قواه تخور عند بداية ترجمة الكتاب الثاني إلا إذا أسعفه في تقاسم هذه المهمة مُترجِم أو مترجمان موثوق بعملهما(1).

ثم إنّ هناك الصعوبة المركبة، بل البلورية، التي تتصف بها طريقة تحرير الكتاب، بالإحالة المتجددة للفلاسفة والكتاب اليونانيين

(1) كان من المفروض أن يتكلف بترجمة كتاب المقالات مترجمان، وقد تكفّل الصديق المترجم القدير عبد الهادي الإدريسي بترجمة مائتي صفحة من الكتاب الأول، غير أن ظروفًا قاهرة لم تسمح لنا بالاستمرار في ذلك. فله موفور الشكر والامتنان على ذلك.

والرومانيين، من الذين لا تخلو صفحة من الكتاب من أشعارهم وحكمهم وأقوالهم التي تستعصي أحيانًا على الترجمة لاقتطاعها من سياقها وإدماجها في سياق جديد، قد يكون أحيانًا موازيًا. من ناحية أخرى، تكون هذه الشواهد الغزيرة الوفيرة أحيانًا مستقاة من ذاكرة المؤلف لا من مظانها، ومن ثم يتم تحويرها وتطويعها أحيانًا كي تتماشى مع مبتغاه وتعضّد قوله.

تتجلى أيضًا صعوبة في تناقضات هذا الفكر الذاتي الجنيني الذي تعبر عنه المقالات. فالمترجم يجد نفسه أمام تفكيرٍ لاهوتيٍّ متجذرٍ يحتل مئات الصفحات، تدعو أحيانًا إلى الملل، وهامشٍ صغيرٍ مُتولّدٍ تحتلّه الذاتُ بحرّيتها الشخصية الساعية إلى توسيع منطقة فاعليتها. والحقيقة أنَّ هذا الجانب اللاهوتي لا يُشكّل أهمية كبرى للثقافة العربية المعاصرة، غير أنّه ضروري لفهم التحوّلات التي عرفها فكر ما قبل الأنوار والتقلّبات التي ستطرأ عليه.

صعوبة أخرى تتمثل في الغموض واللبس الذي يشوب العديد من المقاطع، وطابعها التجريدي المستعصي على الإدراك والفهم، وتداخل المعارف فيها بشكل يجعل متابعة فكر صاحبها أمرًا عسيرًا. وهو ما تجيب عليه بنته بالتبني في تمهيدها للكتاب بقولها: «أما ما يأخذونه على كتابنا «المقالات» من غموض، فلن أجيب عنه سوى بشيء واحد: لما كانت مادة الكتاب غير موجهة للمبتدئين، كان من الطبيعي أن يتلاءَمَ أسلوبُه مع فحوى الخطاب... إنه ليس بالكتاب الذي ينتفخ له عقل القارئ ويُتخَم، بل حَقُّه أن يُهضم رويدًا ويُستساغ. إنه آخر كتاب ينبغي للمرء أن يفتحه، وآخر كتاب ينبغي له أن يفارقه» (المقالات، مقدمة الكتاب).

الأمر الأخير، أسلوب المقاطع والشذرية يجعل الكتابَ بأجزائه الثلاثة ينتقل على هواه بين الموضوعات، يسْترسِلُ في بعضِها ويُجْمِلُ في البعض الآخر، وينتقل من الذاتي إلى الموضوعي ومن الميتافيزيقي واللاهوتي إلى الواقعي والسياسي. وما إنْ تنتهي من قراءة موضوع ما حتى تجده يعود إليه مع بعض التكرار، وأحيانًا بعض التناقض فيما يلي ذلك... إلى حدٍّ يجعلُ المترجم أمام لعبة مرآوية تتصادى فيها الأفكار

وتتوارد على سجيتها وتختلف وتتناسخ تبعًا لحال المؤلف وتقلبات رأيه، خاصةً أن كتاب «المقالات» قد حُرِّر على مدى ثماني سنوات. بل إن المؤلف وفي كل طبعة يشطب ويحوّر ويعمد إلى التعديل مما يعسر معه على المحقِّق المترجِم الركون إلى نَصٍّ ثابتٍ ونهائيٍّ أحيانًا.

المفارقات الفاتنة

حين سيطّلع القارئ على هذا النص في تمامه في لغة الضاد، سيحس بما أحسسته تقريبًا وأنا أقْدم أخيرًا على التصدّي لهذه الترجمة. إنها تحدٍّ باهر لقدرات المترجم من جهة، واستنبات لفكر قريب من فكر عصر النهضة لدينا من جهة ثانية، وتوكيد على تداخل الأدب بالفلسفة بالفكر الاجتماعي والسياسي ما أحوجنا إليه حاليًّا بعد أن خرَّبَ توالي المناهج فكرَنا العربيَّ المعاصِر.

إنَّ الترجمة باعتبارها تحدّيًا لا تتلخّص فقط فيما قُلناه سابقًا. إنها تحْيين لتاريخ التفاعل الثقافي بين الثقافة العربية والثقافة العالمية، وسدٌّ لثغراته، وتعميق للانفتاح على التاريخ الثقافي الغربي المؤسِّس للفكر المعاصر الذي فُتِنّا به استلهامًا وترجمةً منذ الستينيات، غافلين عن الأسس التي عليها يقوم تطوُّرُ ذلك الفكر، من ناحية، وعن الثغرات الكبرى التي تشوب تبلور الفكر العربي وتؤدي إلى هشاشته. الترجمة بهذا المعنى قراءة لتاريخية الثقافة العربية ومسحٌ نقديٌّ لمعوقاتها ووضعٌ للإصبع على ثغراتها وكبواتها... إنها فكر نقدي لا يكتفي بالنقد بل يُمارس فعل إنتاج بتحويل العبور نحو الآخر إلى عبور مُفكَّر فيه مليء بالدروس والعِبَر.

لهذا فإن ترجمة «المقالات» هذه ترجمة تدعو إلى اليقظة التحقيقية بخصوص المرجعيات الفلسفية الوفيرة التي ينهل منها نصُّ «المقالات» كيانَه وتحاليلَه ورؤاه الفكرية والأخلاقية، وبخصوص تقاطعاتها وتفاعلاتها وتناقضاتها. فمونتيني ليس سكولائيًّا بل هو معادٍ للطرائق

التي بها حوَّلَت السكولائية غنى الفكر الفلسفي إلى مقولاتٍ جاهزةٍ ومسكوكاتٍ يتمُّ تردادُها من غير عمقها الفكري الفلسفي؛ بل هو قارئٌ موسوعيٌّ يسترسل كما كان يسترسل الجاحظ في سرد المعارف وتبيان أهميتها سواءٌ أكان بإثباتها حرفيًّا أم بالاستدلال بها في نوع من التمكُّن التضميني.

ولأن مونتيني يكتب على سجيّته في ضرْب من الحرية الراقصة، فإنه يمنح لنفسه حرية تامة في التنقل لا بين الموضوعات فحسب، وإنما بين الأفكار والقضايا أيضًا، وبوعيٍ تام منه. بل إنه يجعل من هذه الحرية الذاتية في الكتابة صورةً لحرية أخرى هي حرية الحديث عن الذات وعن التجربة الحياتية، الأمر الذي لم يسبقه إليه أحدٌ بهذا العناد والوثوق الفكري. فأسلوب «المقالات» تعبير عن ذات قلقة مترددة أحيانًا تبحث بشغف عن موطن لها في سماء الفكر والوجود. والحديث عن الذات يرتبط فكريًّا لدى مونتيني بأمرين: الشك والتأويل؛ أعني الشك في يقينيات الفكر الكلاسيكي، وتأويل الذات والوجود والفكر انطلاقًا من الإحساس و«اليقين» الذاتي المتولد عن الإيمان بالأنا. إن هذا الوعي الذاتي في حكيه وسبل تفكيره، كما في قلقه الوجودي هو ما منحَ أهميةً لمونتيني في إيمانه بالفرد وبِحُرِّيته وبضرورة الحديث عن الذات والاعتراف بها من خلال سردها وكتابتها. هنا بالضبط تكمن بؤرة الجاذبية التي يمارسها علينا مونتيني، في شعريته الذاتية وصرامته الفكرية، كما في تمكُّنه التام من الفكر القديم وبنظرته الثاقبة لمؤلِّفِي عصره، كما برؤيته النقدية الثاقبة لفتن عصره. إنه فكر نقدي تحرري جنيني يجعل الذاتَ الحرّةَ النقّادة موطنَ الوجود. بل هنا أيضًا نحس بحداثة هذا المفكر لا في طريقة كتابته فقط وإنما أيضًا في انفتاحه البالغ على أفق لا يزال هو أفق الفكر العربي، ذي الحداثة المحجوزة.

فريد الزاهي

تمهيدٌ للمقالات

بقلم ماري دو غورنيه، بنت مونتيني بالتبنِّي

1. إذا سألت أحدًا من النَّاس عَمَّنْ هو يوليوس قيصر، فسيجيبك بأنَّه جنرالٌ رومانيٌّ شهيرٌ، لكن لو لم تُسَمِّ له قيصر بل اكتفيت بأن تصفه له كما كان، بعزَّة نفسه وتفانيه في العمل، ويَقظتِه وإصراره، وحبِّه الشديد للنظام، وقدرتِه العجيبة على تنظيم الوقت على فرض محبته وخشيته على الآخرين، وطبعه الصارم، وقراراته الحكيمة أمام الأحداث المفاجئة وغير المتوقعة؛ أقول إذا أنت بعد أن استثرت إعجابه بهذا الوصف، سألته عن الرجل من يكون، فلا أخاله إلا مجيبًا إياك بأنه يرى فيه أحد الفارِّين من معركة فارْسالوس.

2. إن الحُكْمَ على جنرالٍ كبيرٍ يقتضي أن يكون صاحب الحكم نفسه جنرالًا، أو أن يكون قادرًا على أن يصبح كذلك بالعمل والدراسة، وإنَّ مِن ضياعِ الجَهد أن يستعرض البطل الرياضي عضلاته على حصانٍ، ليوحي له بقدرته على هزيمة خصومه في المصارعة؛ لأن الحصان عاجزٌ عن معرفة، ما إذا كان يجوز شدُّ الشَّعَر في المصارعة أم لا يجوز.

3. ثم اطلبْ من صاحبك أن يدليَ إليك برأيه في أفلاطون، فستجده يمدحُ الرجلَ مدحًا يليق بفيلسوفٍ عظيمٍ، لكن ناوِله محاورة «المأدبة»، أو محاورة «دفاع سقراط»، فستراه يستعملُ أوراقَ الكتابِ لتغليف أوانيه. أما إذا دخل هذا الرجل معرِض أبيليس*(1)، فسيخرج منه حاملًا لوحةً، لكنه لن يكون قد اشترى إلا اسمَ الرَّسامِ دونَ رسْمِه.

4. هذه الاعتبارات هي ما جعلتني، على الدوام، أشك في قيمة الكتبِ والعقولِ، التي تُعْجِبُ بها العامة -ولا أتحدَّثُ هنا عن القدماءِ الذين نُجلّهم، لا من تلقاء أنفسنا، بل لاعتراف أصحاب العقول الألمعية

(1) * رسام إغريقي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد.

بفضلهم قبلنا- فالنجاحُ والنباهةُ قلَّما ضمَّهما بيتٌ واحدٌ معًا، كما أني ألاحظ أنَّ من يجتمعُ له الكثير من المعْجبين، لا يمكن أن يكون عظيمًا حقًّا؛ لأنَّ اجتماعَ عددٍ من الحُكَّام للمرء، يقتضي أن يكون هناك الكثيرون ممن يشبهونه، أو على الأقل ممن يقاربون مرتبته.

5. إنَّ عامةَ الناسِ جمعٌ من العُميان، ومن يُفاخر بإعجابهم به إنما يُفاخر بمن أُعجِب به ولم يَرَهُ قطّ، وإنها لإساءة بالغة للمرء أن يحوزَ إعجابَ قومٍ لا يحبُ أن يكون منهم. فما الرأي العام في نهاية المطاف؟ إنه ما لا يقبل عاقلٌ أن يقولَه، ولا أن يؤمنَ به، وما النباهة؟ إنها الثِّقلُ المعادل للرأي العام، ومن يبتغي العيش سعيدًا، فعليه أن يَفِرَّ من مثال العصر وذوقِه، بمقدار اتباعه الفلسفة واللاهوت. لا ينبغي مخالطة العامَّة إلا من أجل الخروج من بينهم. وإن التَّفاهة قد فشت في النَّاس، حتى لتجد في المجتمع من الأفاضلِ، أقلَّ مما تجد من الأمراء.

6. أيها القارئ، لا شك أنك قد خمَّنتَ رغبتي في الشكوى من الاستقبال البارد الذي لَقِيَتهُ «المقالات». ولست أراك إلا مؤاخذًا إياي على شعوري بالمرارة، وكيف لا والمؤلف نفسه قال إن إعجابَ الناس هو ما دفعه لإكمال كتابه.

أجل، لو أننا كنا من الذين يرونَ في إنكار المرء لنفسه خيرَ الفضائل لقلتُ إنه اعتَقَدَ، في سعيه للاتِّصاف بالتَّواضع، أنَّ شهرةَ هذا الكتاب ستكون كافيةً، لتجلب له الإعجاب والمديح، غير أننا لا نكره شيئًا كرهنا للساحرة القديمة لاميا[1]، العمياءِ في بيتها والبصيرةِ خارِجَه. ولمَّا كُنَّا نعلمُ أن المرءَ إذا لم يعرفْ نفسه جيدًا، فلا حظَّ له في أن يجعلَ الناسَ يُقدِّرونَ مقامَه، فسأقولُ لك -أيها القارئُ- إن ما ذكره المؤلف من إعجاب الجمهور، ليس هو ما كان بالفعل يعتقدُ أنه يستحقه، بل كان يرى نفسه يستحق إعجابًا أكملَ وأمثَلَ، إلا أنه بقدر استحقاقه له، بقدر عدم توقعه إياه.

(1) ساحرة ذكرها بلوتارخوس، كان بوسعها اقتلاع عينيها، وإرجاعهما إلى مكانهما كما تشاء.

وإني لأحمدُ للقدر أنه جعل يَدًا لها خبرةُ يد يوستوس ليبسيوس*[1] وشهرتها، هي التي تفتح لكتاب «المقالات» سبيلَ الإعجابِ والمديح، وإذا كان هو من اختاره القدر، كي يكون عنها أولَ متحدث، فذلك لأنه أراد أن يمنح للكتاب علينا درجةً، وأن يُنبهنا إلى أن علينا الإصغاء له والإنصات، كما يُصغي التلميذ لمعلمه ويُنصِت.

7. لقد كادوا يُداوونَني بالخَربَق[2]: لأن كتاب «المقالات» الذي وقع في يدي، وأنا في أواخر طفولتي، قد ملأ نفسي إعجابًا، وقد كادوا يفعلون، لولا أني ذكَّرتهم بالمديح الذي قاله يوستوس ليبسيوس عن الكتاب قبل سنواتٍ قليلةٍ، وما علمتُ بهذا الأمر إلا بعد ما التقيتُ -إثر انتظارٍ دامَ سنتين- بمؤلف الكتاب نفسه، الذي أُفاخر بأن أدعوه أبي، والذي شملني بعطفه، كما شمل آخرين أثَّرَ فيهم ذلك أيَّما تأثيرٍ.

8. يقول ليبسيوس في الرسالة الثالثة والأربعين، من كتاب «طاليس الغالي»: «ها هو إذًا كتاب الناشر كريستوف بلانتان[3]، الذي أنصح بقراءته نُصحي بقراءة كتاب «طاليس الغالي»...». إلخ. ثم يضيف بعدئذٍ بقليلٍ قائلًا: «من الواضحِ أنَّ الحكمةَ لم تتخذْ لنفسِها مقامًا بيننا». وعلّق في الحاشية قائلًا: «وهاكُم الدليل: كتاب من كتب الحكمةِ لميشيل دو مونتيني». ثم نجده في الرسالة الخامسة والأربعين، يُحدِّث نفسه قائلًا: «نحن لا نَكِيل لبعضنا المديح، وأنا أقدّرك كما وصفتَ نفسك بكلماتك، وأضعك بين الحكماء السبعة القدماء، بل أضعك فوقهم».

9. أحسنتَ قولًا يا ليبسيوس، ولقد كانت «المقالات» كفيلةً بمنحك كذلك ما تستحقه، وأن تستحق هي هذا الشرف العظيم، بمثل هذه العقول النَّيرة يشتهي المرءُ أن يُشَبَّه، ومِن مثلها يجتهد في الحصول على الثناء.

---

(1) * يوستوس ليبسيوس (1547م – 1606م) فيلسوف وفقيه لغة فلمنكي.

(2) كنايةٌ عن شكهم في إصابتها بالجنون، لما اشتهرت به هذه النبتة آنئذٍ، من قدرةٍ على شفاء هذا المرض، من بين أمراضٍ أخرى.

(3) ناشرٌ ومُنجِّدٌ فرنسي شهيرٌ من القرن السادس عشر. [المترجم]

10. ما أشد أسفي أيها القارئ! لكوني لا أستطيع إطْلاعك على الرسائل التي كتبها إليه السيد أرنو دوسا حول هذا الموضوع ذاته، ولمن لا يعرفون ذلك أقول: إن هذا الرجل الغاسكوني كان في الأراضي الإيطالية التي عاش فيها، أحبَّ الناس إلى أبي وأحْوَزَهم على تقديره واحترامه، واعلم أيها القارئ، أني لا أملِك أن أقول سوى «أبي»؛ لأني لست شيئًا إلا أن أكون ابنتَه.

11. يعودُ الفضل في الاكتشافِ السريعِ لهذه النصوص الأخيرة بين أوراق الراحل، إلى السيدة دو مونتينْي، التي أوْلَتْ عنايةً فائقةً للبحث، ثم بعثتْ لي بهذه النصوص من أجل النشر، وجميع من عَرَفها يشهد بأنها أبانت عن حبٍ لا نظيرَ له رعْيًا لذكرى زوجها، فلم تبخل في سبيل ذلك بجهدٍ ولا بمالٍ، لكن يمكنني أنا أن أشهد بخصوص هذا الكتاب، بأن صاحبه نفسَه لم يُولِه من العناية ما أوْلَته له هي، خصوصًا وأنه كان لها اليوم في ما هي عليه من حزنٍ ودموعٍ وألمٍ لفقدانه، ما يغنيها عن ذلك خيرَ غَناءٍ وأشرَفَه.

12. هل سنقول عن تلك الدموع إنها كانت مؤلمةً لا تُحتمَل، أم سنقول إنها كانت مطلوبةً ومرغوبًا فيها؟ إذا كان الخالقُ قد ابتلاها بأشد ما تُبتلى به أرملةٌ من الألم، فإنه في الآن ذاته قد وهبها خير لقبٍ يمكن أن تحمله امرأةٌ، ولن توجدَ امرأةٌ فاضلةٌ ذات خُلُقٍ، لا تتمنى أن يكون مثل هذا الرجل زوجها، من دون الرجال جميعًا.

13. إنه لفضلٌ عظيمٌ، أن يكون ما هيَّأها له الخالق، شيئًا لا يزال من الممكن تحصيله بالسعادة، وإن الجميعَ لمدينون لها، إن لم يكن بالشكرِ والعرفان، فعلى الأقل بمثل ما أُكيله لها أنا من مديح؛ ذلك أني أريد إلى الآن أن أحتضنَ من جديدٍ رمادَ زوجها، وأدفئَه في داخلي، لا لكي أتعلق به، بل لأصير صورةً أخرى منه، وأبعث في تلك الصورة عند موته حنانًا لم تعرفْه إلا بالسماع، ولعلي بذلك أُعيد لها صورةً جديدةً في امتدادٍ لما كان يكنُّه لي من صداقةٍ ومودّة وعطفٍ.

«المقالات» كاشِفًا عن طبائع الناس

14. لطالما اتخذتُ من «المقالات» ميزانًا أَزِنُ به عقولَ الناس، فكنتُ أسأل الكثيرينَ عن الرأيِ الذي يليق بي أن أراه فيها، وبناءً على جواب كل واحدٍ منهم، كنت أُكوِّنُ لنفسي فكرةً عن المقام الذي ينبغي أن أضعه فيه. إنَّ الحُكمَ على الآخرين من حق الجميع، غير أن الناس يمارسون هذا الحق بطرقٍ تختلف أيَّما اختلافٍ، ولعل خير هَديةٍ يمكن أن يهديهم الخالق إياها؛ هي أن يوفقهم إلى حُكمٍ واحدٍ صائبٍ، فكل المزايا حتى أرفعَها منزلةً وأعلاها شأنًا، لن تُجدِيَهم فتيلًا، إنْ هم لم يُؤتَوْا الحكمَ الصائب، والفضيلة ذاتُها رهينةٌ بذلك. إن الحُكْمَ الصائب هو وحْدَه ما يرفع البشر على من الحيوان مرتبةً، ويجعل سقراط فوق باقي البشر، ويجعل الرب فوقهم جميعًا، والحكم الصائب هو وحدَه ما يصلنا بالخالق، فإما أن نعبده وإما أن نتركه.

15. هل تريد أيها القارئ أن تستمتع بخيبة مناوئي «المقالات» ومُنتقديه؟ حدِّثهم إذًا عن كتب الأوائل، لا أقصد أن تسألهم هل كان بلوتارخوس أو سينيكا ذَوَيْ باعٍ طويلٍ في فنِّ الكتابة؛ لأن شهرةَ الرجلين هي ما يصنع رأيهم فيهما، بل اسأل بِمَ كان الرجلان عظيمَيْن، أبحكْمهما أم بعقلهما؟ واسألْ عن أيِّهما كان بحكمه أشدَّ وثوقًا في هذا الشأن أو ذاك؟ وما الغاية النبيلة التي كانا يتوخيان من الكتابة؟ وما أسمى مقاصد الكتابة ذاتها؟ وأي مؤلَّفٍ من مؤلفاتهما يقدرون على نسيانه غير آسفين عليه، وأيها لن يتردّدوا في الدفاع عنه أكثر من غيره، ولماذا؟ ثم اجعلهم بعد ذلك يدقّقون في المقابلة بين الفائدة من مذهبيهما، والفائدة من مذاهب الكتاب الآخرين، وفي الأخير اطلب منهم أن يدلُّوك على من يحبون منهم أن يشبهوهم، ومن ليسوا يرضَون أن يُشبَّهوا بهم، فمن يُجِبْ جوابًا شافيًا على هذه الأسئلة، له أن يجعلني أُغيِّر رأيي في «المقالات».

في احتقارِ النِّساء

16. ستكون من المحظوظين السُّعداء -أيها القارئ- إن لم تكن من جنسٍ حُرِم كلَّ شيءٍ، لا من الحرية فحسب بل وكذلك من كلِّ الفضائل؛ بحُكمِ أن الفضيلة لا تُولَد إلا من استعمالٍ معتدلٍ لسلطة القرار، فيما حُرم ذلك الجنس من هذه السلطة، فلم يتركوا له فضيلةً ولا وجهًا من أوجهِ السَّعادةِ إلا في الجهل والألم.

17. طوبى لمن أدركَ الحكمةَ بلا جُرم! فجنسه يُتيح له كل شيءٍ، ويجعل الناس يصدقونه، أو على الأقل يُصغون إليه.

18. أما أنا، فإن شئتُ أن أُخْضِع ذويَّ لهذا الاختبار، فهناك كما يقال أوتارٌ ليس ليدِ المرأة أن تلامسها، وإلا فسيكون عليَّ أن أستعير حُجج الفيلسوف كارنياديس القوريني فأقول إن أرذلَ الناسِ وخامل الذكر منهم لن يعْدمَ أن يستثير إعجاب من حوله، إن هو أضاف ابتسامةً أو هَزَّةَ رأسٍ أو طُرفةً بعد أن يقول: «هذا كلامُ امرأةٍ». ومن يلوذ بالصمت ازدراءً، يُعجِب الجميع برصانته، غير أنه قد يذهلهم بالنقيض، إذا أجبرْتُه على تحرير القليل مما يود قوله ردًا على هذه المرأة، لو كانت رجلًا. أما الآخر، الذي يقاطع في وسط الكلام عيًّا، بدعوى تأبّيه على إحراج خصمه؛ فسرعان ما يُدعى منتصرًا ويوصف بالتهذيب. وذاك الذي لا ينطق إلا هذرًا، سينتصر لأن له لحية. فهو لا يشعر بالضربة إذا جاءت من امرأة، فإذا شعر بها شخص غيره، فإنه يحيل المحادثة إلى سخرية، أو بالأحرى إلى وابل من الثرثرة دون أن يبالي بالرد؛ أو يصرف الحديث عن وجهته، ويشرع هازئًا بالتلفظ بكثير من الكلام المعسول الذي لم يطلبه منه أحد، وهذا الذي يعرف كم هو سهلٌ يسيرٌ في استمالة أسماع الحضور، غير أنه قلَّما يكون بوسعه الحكم على نظام المناقشة وسيرها ولا على قوة المتحاورين، وقلَّما يفلح في منع نفسه من الانبهار بالعلم غير النافع الذي يتفوَّه به، وكأن المطلوب منه أن يستعرض درسًا قد حفظه، لا أن يُجيب على كلامِ مُخاطِبه، فكيف

له أن يعلم متى تكون هذه المناورات فِرارًا وهربًا؟ ومتى تكون دليلًا على الانتصار؟

19. ثم ذلك الآخر تجده يتباهى بشجاعته أمام المرأة، ولو أنه لقي جدّته لأقنعها أنه إنما ترك هرقل حيًّا رحمةً به وشفقةً، يكفيه من النصر ما تفاداه من ضرباتٍ، ومن الفخر ما جنَّب نفسه إياه من عناءٍ، فإن تظاهر بالشجاعة، فإنما يفعل ذلك أمام امرأةٍ حظها من الفطنة قليل، ابتُلِيَتْ إلى ذلك بعقلٍ بطيء الفهم، خامل الخيالِ، ضعيف الذاكرة، وتلك أسبابٌ ثلاثةٌ تجعلها ضعيفةً عاجزةً أمام الخَصم الذي تبتغي إفحامه، وترُدُّها إلى واقعها البائس وإلى موقفٍ لا أحطَّ منه ولا أرْذل.

20. وإني لأحملُ من الكراهية العمياء لهذا النقص الذي يجرحه، بحيث يلزم عليَّ أن أكيل له الشتائم أمام الملأ، وإني لأغفر للذين يهزؤون من ذلك، لأنْ ليس لهم أن يكونوا في مهارةِ الفيلسوف أريستبّوس[1] أو المؤرخ كسينوفون، حتى يروْا خلفَ وجهٍ مُضَمَّخٍ بالحُمرَة شيئًا آخر غير الغباءِ والخضوع، كما أني أغفر لهم أن يعتقدوا أن اعترافاتٍ كهذه هي من قبيل الجنون؛ لأن الاعتراف إذا كان من شأن المجنون والحكيم معًا، فإنه عند الحكماء يرتقي إلى درجةٍ لست أستطيع مجاراتهم فيها.

لغة «المقالات»

21. ورجوعًا إلى كتابنا «المقالات» والمآخذ التي يأخذونها عليه، أقول: إني لن أنتقصَ من قدره إرضاءً لمؤاخذيه، وإنما أريد فحسب التوجه بكلمةٍ إلى بعض العقول النيِّرة التي تستحق التنبيه لِئَلَّا تتعثر كما يتعثر الآخرون.

22. إنهم يأخذونَ على لغةِ الكتاب في المقام الأول استعماله لعباراتٍ وألفاظٍ

(1) أريستبّوس (435 ق.م تقريبًا – 356 ق.م تقريبًا) هو مؤسس مدرسة اللذة الكلبية في الفلسفة، وكان تلميذًا لأرسطو.

لاتينيَّةٍ. ولستُ أجادلهم في ذلك إن هم استطاعوا أن يسْردوا أسماءً، مثل: أبٍ، وأمٍ، وأخٍ، أو أختٍ، وأفعالًا، مثل: شرب وأكل، وسهر ونام، وراح وجاء، ورأى وأحس، وسمع ولمس، أو ما يختارونه مما يجري على الألسن كل يومٍ من عباراتٍ وألفاظٍ، فلا يكون كلامهم في ذلك لاتينيًّا! إن الحاجةَ للتعبير عن تصوراتنا هي ما يدفعُنا لاستعمال ما نستعمله من كلماتٍ، ولهذا السبب -لا لغيره- اضطُرَّ صاحب «المقالات» لاستعارة كلماتٍ وعباراتٍ جديدةٍ للتعبير عن تصوراته ومقاصده؛ لأنها أبعَدُ شَأوًا وأعمَقُ غَورًا من تصوراتنا نحن.

23. أنا أعلم جيدًا أن أفضلَ الكتبِ قد تُرجِمت إلى لغتنا، وأن المترجمين كانوا أقلَ جُرأةً على التجديد والاستعارة، لكن ما لا يقوله أحدٌ، هو أن «المقالات» تُجَمِّعُ في سطرٍ واحدٍ ما يُمَطِّطُه الآخرون في أربعة أسطُرٍ. وإننا -أنا ومن يقولون هذا الكلام- لسنا على درجةٍ من المعرفة تُتيح لنا أن نقول هل كانت ترجماتهم -بخصوص النصوص جميعًا- كثيفةً كثافة نص المؤلِّف؟

24. أحب أن أقول: «مصارعٌ روماني»، وأن أقول أيضًا: «مُسايِفٌ مُفرطٌ في المسايفة»، وهو الأمر نفسه الذي نجده في «المقالات»، غير أني لو خُيِّرتُ بين العبارتيْن لاخترت «المصارع الرومانيّ»؛ لكونها أقصر وأوجَز، وإني لأعلم جيدًا أن على الكاتب أن يقتصد في التجديد والاقتباس، لكن أليس من الغباء المطلق أن يقولَ القائلُ إنه إنما يدين اللجوء إليها من دون ضابطٍ، وإن «المقالات» إنما تستحقُ النَّقدَ والتقريعَ من أجلِ ذلك، على حين أنه لا يجد شيئًا من ذلك يأخذه على «رواية الوردة»! علمًا أن هذه الرواية لم تكن في يومئذٍ أحوج للتصحيح منها إليه اليوم؛ فالناس قبل تأليف هذا الكتاب القديم كانوا يتحدثون ويفصحون عن مقاصدهم كما يشاءون، وحيث يَقصُرُ العقل فإن الكلمات لا تقصر أبدًا، وعلى العكس من ذلك أتساءل إن كان أفلاطون وسقراط -رغم سَعة اللُّغة الإغريقية وغناها- لم يصادفا مثل هذا النقص كثيرًا أثناء ممارستهما الكتابة؛ إن الكلمات الجارية على الألسن تُسعف فقط في التعبير عن الأفكار الجارية مجراها، أما من لديه أفكارٌ تخرج عن المألوف فلا مناصَ له من البحثِ عن الألفاظ التي تُحقق له مراده.

25. عدا ذلك فإن ما ينبغي المؤاخذة عليه هو التجديد الذي يأتي في غير مَحِلّه، لا الذي يسعف في إجادة التعبير عن الأشياء. وما أتفه حُجة هؤلاءِ الذين يَرَوْن التجديدَ وَقْفًا على اللسان الفرنسيِّ! ولو كان الأمر كذلك لشنَّع الخطيب إيسخينيس واللاهوتي جون كالفِن به في لغتهما. ناهيك عن أن ما يبدو عيبًا ونقصًا في عين هذا، قد يبدو جمالًا وكمالًا في عين ذاك، وأن هذا هو ما يجعل الفهمَ سهلًا على بعض الناس مُتعذِّرًا على غيرهم، فكأننا إزاء قِرْدٍ يَلوذُ بالفِرار خوفًا من أن يمسكوا به من ذيله؛ فقط لأنهم قالوا له إنهم قد أمسكوا قبله ثعلبًا من هناك.

26. أُسائلك أيها القارئ، أليس متهافتَ الحُجَّة من يعجبه أن يحصيَ ثمان أو عشر كلماتٍ تبدو له غريبةً، أو سبيلًا في التعبير يراه غاسكونيًّا في هذا الكتاب الرائع في غير ذلك من المواضع جميعًا؟ لا أراهم يفعلون في قضية اللُّغة إلا كفعلِ من يقف أمام تمثال فينوس العاري فلا يبدي إعجابًا ولا يَنْبِس بكلمة، حتى إذا رأى أو خال نفسه يرى خيطًا ملونًا على حزام التمثال، ألفَيتَ لسانَه ينفَلِتُ من عِقَالٍ، وألفَيتَه يجد في ذلك دافعًا ومبررًا للانتقاد والجأْرِ بالشكوى!

27. حين أدافع عن الكتابِ ضد مثل هذه الانتقادات، فإنني إنما أُمارس السُّخرية والاستهزاء، فلنسأل مُنتقديه إن هم أرادوا الإمعان في كشف عيوبه، أن يعارضوه في ما أتى به من فعل، فليأتونا بمئة لفظٍ مستحدثٍ، شريطةَ أن يأتينا أحدهم بثلاثة ألفاظٍ أو أربعٍ من جاري الكلام، على أن تكون حروفها اللينة صائِتَةً حيث تكون الأخرى صامتةً، وليقترحوا علينا ألف جملةٍ جديدةٍ، تختصر في نصف سطرٍ الموضوعَ والنتيجة ومديحَ شيءٍ ما، وتكون في الآن ذاته جميلةً رقيقةً تعُج بالحياة وتبثها في القارئ، وليأتونا بألف مجازٍ في جمال مجازات «المقالات» وغرابتها، وألف استعمالٍ لكلمات مُعَزَّزَةٍ ومعمَّقةٍ للتعبير عن ألف معنًى جديدٍ مختلفٍ!

28. ذلك هو التجديد الذي أجده في «المقالات»، والذي إن كان -بفضل الله-

هو ما يُخشى فهو ليس مما يُرغب في تقليده، وليفعلوا ذلك كله دون أن يجد القارئ في ما كتبوه مأخذًا يأخذه عليهم سوى التجديد، لكنه تجديدٌ فرنسيٌ صِرفٌ، ولهم حينئذٍ أن ينسبوا إلينا كتاباتهم كي يتخلصوا من العار الذي لا شك سيلحقهم إن هم لحقوا بزُمْرةِ المؤلفين.

29. كلما كان الاشتغال على إثراء لغةٍ من اللغات أكثر إثارةً للإعجاب، قلَّ عدد القادرين على ذلك، كما كان يقول أبي. وإن بعض المتزلّفين -ناهيك عن كثيرٍ من الكتاب- هم من ينبغي أن يُدفع لهم مالٌ كي يكفوا أيدِيَهم عن ذلك، فَهُم لا يبحثون عن التجديد كي يُحسِّنوا ويُصلِحوا، بل هم يفسدون ويُقَبِّحون في بحثهم عن التجديد، لا بل وتجدهم يستبعدون في ذلك ألفاظًا قديمةً هي إمَّا أفضل مما يأتون به، وإما مثلُه لكنها تَفضُلُهُ في الاستعمال، ثم إن تلك الألفاظ لا يمكن استبعادها إلا على حساب تعليم لغتنا للأجانب، الذين لن يتقنوها حينئذٍ أكثر من ببغاء، وذلك لا يمكن إلا أن يفسد الكتب التي استعملت تلك الألفاظ.

30. ومهما فعلوا فلن يُجديهم ذلك نفعًا، وسيهزؤون من غبائنا نحن متى نقول «هيئته»، و«جيدُه»، و«الرقّ» عوضًا عن ألفاظهم الجديدة، مثل: «لباسه»، و«عنقه»، و«عبوديته»، وغيرها من التصحيحات المهمة، لكن متى وصلوا مع الزمن إلى انتقاد كُتَّابٍ فرنسيين من قبيل جاك أميوت أو بيير دو رونسار من أجل هذه الكلمات، فليترقَّبوا الهزيمة النكراء.

31. إن وصف لغة «المقالات» يقتضي رسمَ تلك اللغة؛ فهي لا تصيب القارئ بالملل إلا حين تصمت، وكل شيءٍ فيها كاملٌ مكتملٌ مثاليٌّ عدا النهاية، فإما أن الآلهة قد مكَّنت هذا الكتاب من لسانها، وإما أنها صارت اليوم تنطق بلسانه، إنه الوتد الذي بفضله سيُشَدُّ عِقال لغتنا بعدما ظل سارحًا طليقًا لحد اليوم، وسوف يعلو صيته يومًا بعد يومٍ إلى السماء؛ حتى لا يُقال يومًا عما نقوله اليوم إنه كلامٌ قديمٌ أكل الدهر عليه وشرب؛ لأنه هو سيظلُّ ينطق بهذا الكلام، فيَستَجيدُه الناسُ لأنهم سيجدونه فيه.

الحُبُّ في «المقالات»

32. وتراهم يأخذون على الكتاب أيضًا انطلاقه في مهاجمةِ الآداب العامة، غير أنه بما قاله في هذا الصدد، فقد ثأر لنفسه وكفى الآخرين مؤونة ذلك؛ وهكذا فلسنا نجرؤ على قول إن كنا نعتقد أن رجلًا آراؤه بهذه الفظاعة والحرج، قمينًا بإقامة علاقة حب شرعية تتحلى بالشرف والبركة. وصفوة القول نحن لا نخالفهم في أن بسط اللسان في هذا الموضوع أو إصغاء الآذان إليه، إنما هو أمر خبيث ومقيت وملعون؛ لكن أن يكون [دو مونتيني] فاحشًا، فهذا ما لا نقرهم عليه. فعلاوةً على أن هذا الكتاب يُدين بقوةٍ علاقةَ التَّسرِّي أو المعاشرة الحرة، التي تنسبها قواعد الآداب العامة إلى الإلهة فينوس، فعن أي احتشامٍ يا تُرى يُبدي هؤلاء الكُتَّاب المُغالون في امتداح تأثيراتِ الإله كيوبيد، حين تجدهم يسعون إلى إيهام الشباب بأن المرء لا يمكنه حتى أن يسمع عنها دون أن يداخله من ذلك اضطرابٌ؟ وإن هم حدثوا نساءً في ذلك، ألا تكون النساء على حقٍ إن هنَّ احتَطْن لعفتهن من فاسقٍ يدَّعي أن الإنسان لا يمكنه سماعُ حديثٍ يدور حول أصنافِ الطعام دون أن يفسد ذلك صومه؟

وسقراط الذي استعصم إزاء لهيب الحب الفاتن والباهر، الذي ما كانت بلاد الإغريق لتشهد مثيله كما يُقال، هل تضعضعت عفته لأنه رأى وسمع ولمس أكثر من طيمون الذي كان يهيم على وجهه وحيدًا في البرية؟

33. لقد كانت ليفيا أم الأباطرة على حقٍ -حسب رأي الحكماء- وهي تتحدث مثل سيدةٍ عظيمةٍ ذكيةٍ، وكذلك كانت حين قالت: «إن منظر رجلٍ عارٍ ليس عند المرأة العفيفة سوى صورةٍ كغيرها من الصور» كانت هذه السيدة ترى أن على العالم أن يطرد الحب وأمه فينوس خارج حدوده، فإن لم يفعل واحتفظ بهما داخل تلك الحدود، فسيكون من قبيل الغش والخداع تَصَنُّعُ العفة لاحتوائهما باللسان والعينين والأذنين، أو حتى من قبيل الكذب المجرد والادعاء عند من لا يَتَصَنَّعونها، ويزيدُ

قولَنا صدقًا، إنه إذا كان حديثُ المرء عما سمعه وما رآه لا يُعتدُّ به، فإنهم لا ينكرون أنهم -ولو بطريقةٍ مفترضةٍ- يسهمون في ذلك عن طريق الزواج، وما يُدرينا لعل ليفيا هي أيضًا لم تكن لتتردَّد في القول إن تِينَكَ اللواتي يصرخنَ مشتكيات من تعرضهنّ للاغتصاب من آذانهن وعيونهن، إنما يفعلن ذلك عن قصدٍ حتى يجوزَ لهنّ بعد ذلك القول، إن الجهل هو ما جعلهن لا يحفظن جيدًا أماكن أخرى من أجسادهن؟

34. والموقف الأسلم إزاء هذا الأمر، هو أن يخاف عليهن المرء من أن يُؤتَينَ من هناك بالذات، لكن عليهنَّ أن يخجلنَ من اضطرارهنَّ للاعتراف بأنهنَّ لا يشعرنَ بالثقةِ في أنفسهن حتى حدود ساعة الحقيقة، ولا يشعرنَ أنهنَّ محتشماتٌ إلا لجهلهن بما كان الفحش يقتضي منهنَّ أن يفعلن.

35. إن في الهجوم لمخاطر على المُحارب، غير أن فيه كذلك مَجدًا للمنتصر، ولا بد للفضيلة من الامتحان، حتى لَكَأَنَّها تستمد من المواجهة روحَها وكيانها. إن أعظم المصائب عند بوليداماس[1] وثيوجينيس[2] ، هي ألا يجدا من يحسد ذاك على قوته في المصارعة وهذا على سرعة العدو؛ كي يقيم لهما بذلك من المجد تمثالًا.

36. إن المرأة الحكيمة رغبةً منها في إظهار فضيلتها، لا تفر من وجه من يتودد إليها، بل إنها لمعرفتها بضَعف الطبيعة الإنسانية تستجلبُ لنفسها ذلك التودد؛ لأنها لا تكون على ثقةٍ من عفتها إلا متى استطاعت أن تقول: «لا» للمال والجمال والهدايا ولغرائزها هي نفسها، فلتتركْ من يلاحقها يهمس في أذنها ويشتكي ويتوسل ويصرخ؛ لأن الطبع الجاد الذي يقف حائلًا دونها ودون السقوط في فخ الاقتناع بالخطأ، تلك الرذيلة السخيفة الغبية الملازمة للأفهام السطحية، ودون ارتكاب خطايا في حق دين آبائها وأجدادها قمينٌ بأن يحميها من مثل تلك المحاولات.

---

(1) قائد حربي يوناني [المترجم].

(2) عداء ورياضي يوناني شهير [المترجم].

37. أما ما يأخذونه على كِتابنا «المقالات» من غموضٍ، فلن أجيب عليه سوى بشيءٍ واحدٍ: لما كانت مادة الكتاب غير موجهةٍ للمبتدئين، كان من الطبيعي أن يتلاءم أسلوبه مع فحوى الخطاب. فلا يمكن الحديث في جليلِ الأمور وعظيمها حديثًا يراعي ذكاء العامة؛ لأن فهم الناس قلّما يجاوز حدود خيالهم. ليس هذا الكتاب بالمسند المختصر الموجه للمتعلمين، بل هو قرآنُ المعلِّمين ونسغُ الفلسفة. إنه ليس بالكتاب الذي ينتفخ له عقلُ القارئ ويُتخَم، بل حَقُّه أن يُهضم رويدًا ويُستساغ. إنه آخر كتابٍ ينبغي للمرء أن يفتحه، وآخر كتابٍ ينبغي له أن يفارقه.

38. ويأخذون على الكتاب أيضًا عباراته المقتضبة المتقطعة النارية، التي لا تعالج بالضرورة مسألةً بتمامها، ولست أراهم إلا مُتَّهِمينَ إياي بما اتهموه به بعد مرورهم بهذه الباقة من الأفكار الحالمة المتنوعة؛ لذلك أرجوهم أن يخطُّوا لي على هواهم لائحةً بعددٍ من المواضيع يعادل ما جاء به الكتاب، ثم فليقولوا في شأن كل موضوعٍ اقتداءً به كلمةً واحدةً فحسب لا كلامًا طويلًا، شريطةَ أن تكون تلك الكلمة خيرَ ما يمكن أن يُقال في الموضوع المعني، مثلما فعل أبي، حينئذٍ أعِدهم ليس بأن أغفر لهم فحسب، بل وأيضًا بأن أعتبرهم معلميَّ، تمامًا كما كان سقراط معلمًا للقدماء.

ديانة «المقالات»

39. إن أولئك الذين يشكّكون في إيمان دو مونتيني فقط لأنه كان له الفضل في رفع أحد الهراطقة إلى مصافّ أفضل شعراء عصرنا، أو لأي سببٍ تافهٍ آخر، إنما يقيمون بأنفسهم الدليل على كونهم يبحثون عن رفاقٍ لفسْقهم في هذا المجال.

40. أنا الوحيدة التي أملك الحق في الحديث عن هذا الأمر؛ لأني أنا وحدي التي كنت على معرفةٍ تامةٍ بهذا العقل العظيم، وينبغي تصديقي بحسن نيةٍ، حتى وإن كان هذا الكتاب لا يفصح عن ذلك بوضوحٍ؛ ذلك أني

قد تخليت عن تلك الفضائل الرائعة الرنانة اللطيفة التي يفخر بها الجميع؛ كي أستحق اللوم على سذاجتي من قبل صويحباتي؛ وحتى لا يكون لدي شيء أشاطره الآخرين سوى البراءة والصدق.

41. أقول إذًا -وهي الحقيقةُ لا مراء في ذلك- إن الأرض لم تحمل قطُّ رجلًا يكره الديانات الزائفة والكاذبة كُرهَهُ إياها، ولا خصمًا أشد عداءً منه لكل ما ينتقص من الاحترام الواجب للدين الصحيح، الذي كان دليلُه على صحته -كما تعلن «المقالات» عن ذلك، وكما هو دليلي أنا صنيعتُه- هو شريعة الآباء المقدسة.

42. مَنْ ذا الذي يستطيع إذًا احتمالَ هؤلاء العمالقة المتسلقين عنان السماء، الذين يحسبون أنهم يستطيعون الوصول إلى الله بوسائلهم الخاصة، وحصر أعمال الخالق في حدود عقلهم؟ نحن نقول على عكس ذلك، إن الأشياء الأبعد عن التصور والأصعب على التصديق هي التي تنطق خيرًا من غيرها على قدرة الخالق وخلْقه، وإن هذا الخالق لا يوجد في هذا المكان أو ذاك إلا متى كانت هناك معجزةٌ.

43. هنا بالذات ينبغي الإنصات إليه بتمَعُّنٍ، والحرص على تجنب الانفعال أمام هذه الطريقة المتحررة الصادمة اللامبالية، بل والمتواضعة أحيانًا في ما يبدو لي، في استفزاز الشخص المفتري، بحيث إنه -علاوة على كونه إنسانًا شريرًا وبالتالي بغيضًا- يفضح غباءه كذلك بتأويله المتهافت، فنَسعَد إذ نراه يرزح تحت نَيْرِ رذيلتين عوضًا عن رذيلةٍ واحدةٍ.

44. فهل أستمتع بعض الوقت لتوضيح قواعدَ للتقدم في هذه القراءة؟ تكفيني في شأن ذلك كلمةٌ واحدةٌ: لا تتدخلْ في الأمر، أو دعْ عنك هذا. فالحمد لله على أنه قد شاء، أمام الفوضى وكمِّ العقائد المغالية التي تخترق كنيسته وتزرع فيها الاضطراب، أن يعززها بدعامةٍ في مثل هذه القوة والصلابة؛ فلما أرادت مشيئته تقوية إيمان البسطاء أمام مثل هذه المخاطر، رأى أنْ ليس هناك أفضل من خلق روحٍ لم يُخلق مثلُها

منذ أربعة عشر أو خمسة عشر قرنًا، تضمن ذلك الإيمان وتقوّيه بإذنه وعنايته.

45. لو أن الدين الكاثوليكي -يوم رأى مونتينْي النور- كان يعلم كم سيكون له شأنٌ عظيمٌ ذات يومٍ؛ لكان خشي أشد الخشية أن يصبح الرجل له ذات يومٍ خصمًا، ورجا أحرَّ الرجاء أن يكون من مُناصريه، كان سيسعى في ذلك لصالحه طبعًا، غير أن الخالق ساعتئذٍ كان يتساءل: هل يستحق قرنٌ حقيرٌ كهذا القرن هديةً ثمينةً كهذه الهدية؟ أم هل سيكون من رحمته به أن يضع بين يديه قدوةً حسنةً لعله بذلك يدفعه إلى أن يصبح أفضل.

46. ما كان لأحدٍ أن يتصور أن هناك خطأً في الديانات الجديدة لو أن مونتيني العظيم أقرَّها وقبِل بها، حتى أولئك الذين بإمكانهم الانتباه إلى الأمر لم يكن أحدٌ منهم لِيتصورَّه، وما كانوا ليشعروا بأدنى خجلٍ من ارتكاب هذا الخطأ بعده لو أنه ارتكبه، ولقد أقام الدليل على صحة أطروحته القائلة: «إن هناك مؤمنين صالحين بين صفوف النوابغ وبين صفوف البسطاء من أمثالي، وأن الصالحين يوجدون على هذين الطرفين معًا».

ذكاءُ «المقالات»

47. أنا من الذين يعتقدون أن الرذيلة من قبيل الغباء، وأن المرء كلما زاد قُربًا من الذكاء ازداد بعدًا عنها. فمن «ذو العقل» الذي لن يقبل أن يستأمن أفلاطون على ماله وأسراره إن هو قرأ كتبه؟ هذا ما جعلني أحتقر اتهامهم إياي بالتهور والغلوّ حين رأوني أبدي إعجابي الشديد به وميلي إليه بعد قراءتي كتابه وقبل أن أعايشه، ولطالما أجبته قائلةً: «إن الصداقة كل صداقة إنما تقوم على عوَجٍ إن هي لم تقم على الذكاء والفضيلة».

48. والذكاء في «المقالات» ليس يفصح عن نفسه فحسب، بل إنه يفعل ذلك بطريقةٍ لا تدع للرذيلة مكانًا، وبالتالي فلم يكن هناك فائدةٌ في تأجيل الإعجاب حتى ساعة اللقاء، اللَّهم إلا لمن يبحث عن الحب لا عن الصداقة، أو لمن يخجل من أن يُقال عنه إن عقله أقوى من حواسه حين يتعلق الأمر بربط عَلاقةٍ بينه وبين أحد، وإنه يستطيع فعل ذلك مُغمَضَ العينين.

49. نحن نجد لدى كل الفلاسفة القدماء دلائل على أن فضيلتهم كانت في مستوى ذكائهم، الذي بفضله عاشوا بعد موتهم وظلوا بعد كل هذه القرون يمثلون قوانين للكون، ونحن نجد ذلك إما في كتبهم، وإما في روايات رفاقهم، بخصوص من حَرَمنا الزمنُ من كتبهم، وأستثني من كل هؤلاء يوليوس قيصر؛ لطبعه الذَّكي المحتال، وإني لأعلم أنهم سيسألونني هل كان من بين هؤلاء العظماء من لم يختر مهنة الأدب، فلنُجِبْ على السؤال: إن الطبيعة، في كرهها للعبث، لا تحب لعناصرها الفراغ والبطالة، بل ولا يمكنها حتى أن تترك تلك العناصر تتعاطى عملًا لا يدفعها إلى أقصى حدود إمكاناتها، وحاول -على سبيل المثال- منع ميلونوس الجبَّار من ممارسة أعنف التمارين الرياضية، أو منع أخيلوس الرشيق من الإبانة عن خفته وحماسته!

50. والآن يتعين علينا أن نتساءل: هل كان هناك شيءٌ عدا الحكمة -كما كانوا يسمون الفلسفة- بإمكانه أن يشغل ذهن سقراط وإيبّامينونداس؟[1] أهو إصدار قرارٍ في نهاية محاكمةٍ؟ أم هو دراسة الأشكال في بلاط ملك الفرس؟ أم هي الحرب؟ أم هو يا ترى القيام بشؤون الدولة؟ هذه كلها أشياء جيدةٌ، لكن الناظر فيها عن قربٍ لن يَعدم -في رأيي- أن يكتشف سريعًا أن مثل هذه العقول، متى انتهت من القيام بكل هذه المهام، ستجد بعد ذلك ما يكفي من الوقت، وأنها في وقت الحرب تبقى معطّلة بما أن أغاممنون كان قادرًا على القيام بأعبائها لوحده، وقُل الشيء نفسه عن شؤون الدولة؛ إذ كان برياموس بارعًا في إدارتها.

(1) قائد حربي يوناني.

51. يخطئ الناس حين يعتقدون أن الرجل لا يبقى بريئًا متى تصوروه مسلحًا بالقدرات، وحين يقولون إن أشرار الناس أمهَرُهم، وما ذلك إلا لأنهم يرون قادة الجيوش والسياسيين المشاهير، وكذا أشهر المنجِّمين والمناطقة واللصوص والراقصين يتصرفون تصرف الأشرار. ونحن نعتقد أن هذه العقول هي الأرفع والأسمى؛ لأننا لا نستطيع أن نذهب بأبصارنا أبعد مما تذهب، تمامًا كالقروي الذي لم يرَ البحر قطُّ فتجده يحسب كل جدولٍ بحرًا محيطًا!

52. إن في ذلك تضييقًا ما بعدَه تضييقٌ لحدود المعرفة؛ فالقيام بهذه المهام لاشك يقتضي أن يكون المرء ماهرًا حاذقًا، غير أن الكمال يتطلب منه أكثر من ذلك؛ إذ يجب أن يكون قادرًا على التمييز بين الخير والشر، غيرَ خاضعٍ لطغيان العادة، متمكنًا من فنِّ التقدير بما يكفي للتبصُّر في مدى اتساع رقعةِ فهمنا وتقديره تقديرًا صحيحًا، قادرًا على كبح جماح فضوله، غيرَ مستسلمٍ لدواعي الرذيلة، راضيًا بأن تنحني قوته أمام حرية الآخر، عارفًا متى يكون الانتقام مباحًا، وحتى أيِّ مدًى يمكن للعرفان بالجميل أن يكفي، وقُصارى ما يشترى به رضا الجمهور والحكم الصائب على أعمال البشر، عارفًا متى يُصدِّق ومتى يشك، ومتى يحب ومتى يكره عن درايةٍ وعن معرفةٍ، قادرًا على التمييز بين ما يَدين به هو للآخرين وما يدينون به له، وغير ذلك كثير من الحالات التي ينبغي فيها للمرء أن يصوِّب حياته، حيث يليق بها أن تُصَوَّبَ، وتلك لعَمْري مهمةٌ لا أشقَّ منها ولا أصعب.

53. ليست الأذن سوى جزءٍ يسيرٍ منا، لكني لن أصدق أبدًا أن ما أنجزه بيروس*[1] والإسكندر الأكبر من عظيم الأعمال وجليلها، قد اقتضى منهما ما يقتضيه الاستعمال الصحيح لهذا العضو من جهدٍ ومن ذكاءٍ؛ فليس من السهل بدايةً أن تمنع الكلام المفترَى من ولوج الأذن؛ لأن بعض الخبث الذميم اللئيم الملازم لحب النميمة قد يهيئ له السبيل، بل وقد يجعله في غالب الأحيان عاجزًا بكل بساطةٍ عن تمييز الصواب من الخطأ، هكذا تتسلل الأخبار الكاذبة، التي تبدو أحيانًا قابلةً للتصديق

(1) * هو القائد الإغريقي بيروس الإبيري.

منتشرةً بين الناس انتشارًا، ومثلها نصائحُ السوء والآمالُ الخادعة.

54. والحرص على هذا كله ليس إلا قسطًا من المهمة، ولن أعود للكلام فيه وقد تكلمتُ آنفًا في حماقة السذاجة وغبائها. لكن ماذا هناك يا ترى على الطرف الآخر؟ هناك يقبع التشنيعُ على كل الفضائل التي تقع خارج مرمى أبصارنا أو تجربتنا أو متناولنا وإنكارُها، وهناك يَثوي السبُّ والقذف في حق كثيرٍ من الناس الشرفاء الذين نقلوا إلينا تلك القصص، إنه احتقارٌ خطيرٌ للنُّذُر، وتَشَكُّكٌ في المعجزات، بل هو في نهاية المطاف الكفرُ والإلحاد.

55. ومن العَجَب أن الناس لا يستطيعون التخلص من رذيلةٍ إلا ووقعوا في نقيضها، فلا يجتنبون التملق إلا بأن يرموا كل واحدٍ بحجرٍ، ولا يتخلصون من اختلال الأخلاق والعادات إلا بالوقوع في العبودية، ولا من الشره إلا بمعاناة الجوع، أما الذين يعتقدون أنهم أذكياء بما يكفي كي يعرفوا إلى أي مبلغ قد يذهب الكذب، فإنهم يجهلون إلى أي حدٍّ قد تذهب الحقيقة.

مونتيني والنساء

56. لن تعدم بنات جنسي أن يقدمْنَ لي أمثلةً تناقض ما أعتقده وما أشهد به؛ فهل هنَّ في ذلك على خطأٍ أم هل هن على صوابٍ؟ يمكن أن أقول إن الصفة التي أتحلَّى بها، وهي صفة من صنيعة مونتينْي العظيم، ستضمن ذلك؛ فأنا لفرط التأمل فيمن لا يعرف كيف يصدق ولا يصدق حين ينبغي له ذلك، أرى نفسي عاجزةً عن فعل أي شيءٍ آخر، وما كنت لأثق في انطباعي -حتى وإن بدا صادقًا- لو أنه خدعني مرةً واحدةً، ورغم أني لا أرى نفسي ملزمةً بذلك، فلا أحد حتى اليوم أنكر عليَّ ما رأيته وسمعته بوضوحٍ، دون أن يجعلني بذلك أشك في معرفتي وأنطلق في مراجعةٍ جديدةٍ.

ونحن نلتزم الحيطة كذلك في حكمنا على فكر الآخرين، ولئن كنا نستسلم طواعيةً لذلك حين تفرضه الضرورة، فإننا لن نشعر بأننا قد خُدعنا إذا أفضى بنا ذلك إلى ما لسنا نرضاه؛ لأننا قبل أن يصل بنا الأمر إلى ذلك قد توقعنا حدوثه، ولذلك فإنهم إنْ أفلحوا في غِشنا فلن يفلحوا في خِداعنا. قد يخالط الحكيم كثيرًا من الناس ويتعامل معهم، لكنه لا يولي ثقته إلا للقليل منهم؛ لأن عدد المسائل التي تتطلب المعالجة أكبرُ من عدد الناس الشرفاء.

57. إذا كان هناك من شيءٍ يعزّيني عن كلام الهازئين الذين سخروا من علاقتي بمونتينْي، أو الذين لا يضمرون لي ولا لبنات جنسي سوى الاحتقار؛ فهو أنهم فضحوا جهلهم وغباءهم حين ادعوا أن مونتينْي نفسه كذلك؛ لأنه رآني مستحقةً لا للتقدير فحسب بل وكذلك -بإذنٍ من عقلٍ كعقله- للانضمام للشّالة التي كنا نُكوِّنها معًا طيلة ما شاء الله ذلك. غير أننا نحن معشر النساء؛ لكوننا نحيلاتٍ ضعيفاتٍ، كثيرًا ما نمثل هدفًا مباشرًا للشجاعة الخارقة التي يتمتع بها هذا الصنف من الرجال! لكني مع ذلك أنصحهم نصيحة صديقٍ بأن يتجنبوا الاحتكاك بمن يتقنون حرفة القلم؛ فهؤلاء ينبغي قتلهم قبل جرحهم، واستلاب كل قواهم دون استفزاز شجاعتهم، وإن تعيَّن عليك أن تسلبهم شيئًا فعليك بالرأس أولًا؛ لأن من الغباء أن تستثير غضبهم وتترك لهم في الآن نفسه الحديقة التي تنبت فيها أفكار الانتقام؛ فمن يستجلب غضب عقل عبقري إنما يهيئ نفسه عن دراية للتوبة والتراجع عن خطئه، وإننا لَنعرف جيدًا كم أدى مينوس *[1] الثمن غاليًا يوم تجرأ على استفزاز قريحة الأثينيين البلغاء.

58. أما نحن معشر النساء المسكينات، فلا نهددهم أبدًا في هذا المجال؛ لأنهم يجتهدون في أن يكون أعلى مستوى نبلغه هو أن نُشبِهَ أحقرَ الرجال شأنًا! أجل، إن أصحابنا من صناع القدْح والتشهير أنفسهم قد تمنوا أن يحكموا العالم بهذه الأسلحة، لكنهم على خطأٍ لأن الهجاء لا يبلغ مبلغه متى كان بلا حياة؛ ولأنه لا يمكنه الحياة إلا متى كانت لغته قويةً

(1) * ملك كريت الأسطوري.

سلِسةً متَّسقةً، وألفاظه مستخرجةً من كتابٍ قيِّمٍ. لكنهم لا يهتمون بالبصق على الاسم اهتمامَهم بالبصق على الفستان، ولا بالكلام إلا متى كانوا على قربٍ منا.

59. لو لم يكن لملك جزيرة كريت أعداءٌ غيرهم لأعفيناه من الانتصاب حَكَماً للعفاريت والأشباح الملعونة، إنَّ من كان ذا قدْر وقيمة لا يخشى القدح؛ لأنه يعرف أنَّ من هو حاذق النفس سليم التربية لن يهاجمه أبدًا، وأن من يجرؤ على التجريح فيه سيلقى مصير النحلة التي تترك شوكتها في موضع اللسعة؛ فيتّضح للعالَم منها ما كان حتى ذلك الوقت يشك فيه، حيث إن مثل هذه النية السيئة ليس لها أن تصدُر سوى عن متبجِّحٍ مغرورٍ، ومهما يكن، كيف لعقلٍ سليمٍ ألَّا ينتصر على عدوه، ونحن نعلم أن الانتقام لا يُعجز حتى الفتيات الضعيفات الرقيقات، غير أن أشكال الانتقام هذه تكون أقل قسوةً من نظيرتها لدى هؤلاءِ الكُتَّاب الفاشلين بقدر ما تكون أقل حدةً، وبقدر ما يكون دافعها رأبُ الصَدعِ وجَبرُ الضرر، لا لجعل الضفادع تعطش من فرط تهليلهم للمعجزة أمام علمهم، كما يفعل الآخرون. إنها أشكالٌ من الانتقام رقيقةٌ رِقَّتَهن لطيفةٌ لُطفَهُنَّ، كما تشهد به هذه القصة الشهيرة:

60. كانت بعضهن في منطقة بيكاردي متضايقاتٍ من موقف إحداهن التي لم تكن تولي اعتبارًا للغبيات من أمثالنا، تظاهرن بأنهن يُرِدنَ الرقصَ معها أمام جمعٍ غفيرٍ من الناس، حتى إذا بدأ الكمان يطلق ألحانه، انسحبن وتركنها تدخل الرقص وحيدةً، كانت رشيقة القوام ذكية النفس، جميلة الوجه لا تخطئها الأعين، لكنها مع ذلك بدت كالميتة لفرط ما كان يبدو للعيان من انخراطها في مسرحيةٍ بشخصيةٍ وحيدةٍ، أما البنات فانفجرنَ ضاحكاتٍ.

61. ورجوعًا إلى ما كنت بصدد قوله عن المغفَّلين الضاحكين، فقد كان أحدهم ممن ابتسم له الحظ، يفتخر بقدرته على أن يمنح شخصًا معينًا ميزات لا ينكرها أو يشكك فيها إلا غبيٌّ متهورٌ، مثل تنصيبه

حاكمًا على إحدى مدن بلادنا أو منحه منصبًا شرفيًّا أو غير ذلك من المسؤوليات العمومية، بعدئذٍ جاء يهتف بالرجل المخدوع وهو ينفجر ضاحكًا أنه إنما صدقه؛ لأنه قال له ذلك، كل هذا وهو لا يعلم من الأمر شيئًا ولا هو صادق، فأي ضمانٍ للحقيقة لم يستقِه من تجربته حتى يعتقد أن على الناس في كل مكانٍ أن يقدموا له فروض التكريم! أو أن يأتوا بدافع الطموح فيقدموا له أنفسهم قبل الآخرين! تصوزْ أنه كان يمكن تصديقه في أشياءَ سريةٍ ومشكوكٍ فيها؛ لأنه كان يعرف كيف يخبرنا هكذا عن أبسط الأمور وأكثرها شيوعًا بين الناس، وكذا إدخال جيشٍ إلى أيّ بلدٍ، تحت قيادة مُدَّعٍ يشهد زورًا بقواته وأسلحته وجنوده وذخيرته ومساره وشجاعته وانضباطه، كما يشهد بحسن سلوك الحاكم الذي يقوده، فليتذكرْ يومًا ما كلَّفه الانسياقُ وراء غروره، حتى رفض أن يصدق أن أعداءه -بعتادهم الجيّد وأصولهم النبيلة وشجاعتهم- يمكنهم أن يجرؤوا على مهاجمته، وليتذكرْ ما جرَّه بذلك على جيشه من هزيمةٍ ساحقةٍ والمعركة لما تبدأ، أو لينظرْ كيف أنه على العكس من ذلك يستجلب لنفسه السخرية حين يصغي -في كل وقتٍ وبتقلُّبٍ مدهش- لكل قصةٍ تُروى له، شريطةَ أن يكون فيها ما يجرح الناس، ولألف كِذبةٍ وكِذبةٍ يسمعها فيصدقها وينشرها بنفسه، لا لسبب إلا لأنها رُويت له، وهذا بالذات ما يأخذه هو على غيره.

62. إن من يُشيع عن غيره أنه يصدّق كل ما يسمعه، وهو يعرف جيدًا أن المعني ليس على ما يصفه به من فظاظةٍ وغلظةِ طبْعٍ، إنما يبيّن أنه هو نفسه كذلك؛ لأنه عاجزٌ عن أن يدرك أن مثل هذه السذاجة لا يمكنها أن تجتمع مع ذرةٍ واحدةٍ من العقل، ولكَمْ أودُّ ألا يكون هناك أناسٌ يمتهنون مهنةً من أكثر المهن جديةً، لكنْ يُفسدهم خليطٌ مثلُ هذا الخليط من النَّوازِع الضارة، فبعد أن يصدقوا ويدَّعوا كذبًا أن هذه المدينة أو تلك لن تلبث أن تسقط، تراهم يتصورون أن باستطاعتهم إعطاء كلامهم وزنًا من جديد بالسخرية من روايةٍ ليست بالمدهشة حقًّا ولا بالنادرة، جاء بها أحدنا نحن معشر المساكين من مكانٍ لعله يبعد عن هناك بخمسين فرْسخًا، فكأن المرء لا يمكنه الشفاء من الغرور إلا بأن يصبح سليط اللسان، وكأن هناك قدرًا من السخافة في قبول نفيٍ كاذبٍ أقلَّ منها في

قبول خبرٍ زائفٍ، وفي اعتبار أن ما يأتي به المرء نفسُه أوْلى بالتصديق مما يأتيه به غيره، وحتى ولو افترضنا أننا من الغباء بحيث يكون هناك قدْرٌ من الصواب في المآخذ الموجَّهة إلينا بخصوص ما نقوله، فإن غفلتنا بتصديقنا لهذا لأننا سمعناه، لن تكون أكبر من غفلتهم هم بتكذيبهم إياه؛ لأنهم لا يعرفون عنه شيئًا، فهل يا ترى من المهم بهذا القدر تصديق الحكايات الغامضة المدهشة وحتى العجيبة؟ أنا لا أرفضها باعتبارها كاذبةً، غير أني أرفض تصديقها؛ لأنها ليست مما أقيمَ عليه الدليلُ.

الانتقادات الموجهة إلى «المقالات»

63. لكن، لنعُدْ إلى ما كنا فيه، إن الانتقاد الذي يوجهونه أكثر من غيره إلى الكِتاب، يدور حول كون مؤلِّفه يصف نفسه فيه بطريقةٍ خاصةٍ به، وما ألقوْا بالًا إلى ما لَفَظَهُ من جميلِ القول وهو يفعل ذلك! ولو أني دُفعت دفعًا إلى الرغبة في احترام الكراهية التي يكنُّها عموم الناس لكل ما هو جديد فريد، حتى إنهم لا يعبدون الله نفسه إلا في صورته البشرية، لقلت متسائلةً: هل كان القدماء يفعلون غير ما فعله مؤلِّفُنا حين كانوا ينقلون للآخرين أقوالهم وأفعالهم حتى الصغير التافه منها؟ غير أني لا أكاد أهتم لهذه المؤاخذة؛ لأنها لا تعني سوى أولئك الذين يجهلون العالم ويخشون لجهلهم ألَّا يشبهوه، أو أولئك الذين يسعون إلى هلاكهم بأيديهم إذ يسارعون إلى مُمالأَتِه والتَّمَلُّقِ له، فيا للعجب! لو أننا نزلنا بأرض أولئك القوم الذين يقول عنهم المؤرخ الروماني بلينيوس إنهم يعيشون بالروائح فقط، هل سيكون من الجنون أن يمدّ اذلمرءُ منا يده فيتناول طعامًا؟ ثم خبِّرني، أليس السيدان القائدان بليز دو مونتلوك وفرنسوا دو لانو، هما أيضًا في أيامنا هذه يوصفان ويُقدَّمان للناس من خلال حكاياتٍ عن أعمالهما وصنائعهما التي أنجزاها وقدماها لوطنهما؟ إنهما عن هذا يستحقان الشكر مرتين: مرةً لكدِّهما وعملهما، والثانية لكونهما صبَّا ذاك الجهد على هذا الموضوع؛ ذلك أنهما ما كان لهما أن يكتبا شيئًا أصحَّ مما فعلاه هما أنفسُهما، ولا أنفع مما فعلاه فأحسَنا فعله.

.64 لست أتحدث هنا عن القضية التي يدافع عنها لانو فحسب، بل عن قيمة أعماله وإنجازاته العسكرية ونوعيتها، إنهم يرون أن من المعقول والمبرَّر أن يلقوا الضوء على أعمالهم العمومية، لا على ما يتصل منها بحياتهم الخاصة، ولئن كانوا يفسحون مكانًا لهذه -حتى إنهم ليرْون أحيانًا ما رأوه في الأحلام- إلا أنهم لا يعتبرون أن العمل العمومي والخاص يستويان، ولا أن ما هو عمومي موجَّهٌ فقط للفرد الخاص؛ إن فنّ العيشِ في رأيهم فنٌّ من السهولة بحيث يكون من الغباءِ التام أن يفصح المرء بين الناس عن سبيله في تطبيقه، كما أنهم يدركون جيدًا أن أطفالهم ما كانوا ليعرفوا كيف يرقصون، ولا كيف يسوسون الخيل، ولا كيف يُجيدون تقطيع اللحم، ولا حتى كيف يسلمون على الناس لو لم يعلمهم أهلهم ذلك، أما الطريقة التي سيعيش بها هؤلاء الأطفال حياتهم فلم يكونوا يرون أنهم سيحتاجون فيها إلى رأي أحدٍ، أجل! إن الانتصار أسهل من العيش وأيسر، وإنك لتجد من المنتصرين أكثر من الحكماء. وقد رأى أبي أن لا شيء يمكنه تعليمك -أيها القارئ- أفضل من معرفة نفسك واستخدامها، تارةً بالتفكير والتحليل المنطقي وتارةً بالاختبار والامتحان. فإن كان وصفه رديئًا أو غير صائبٍ فلَكَ أن تَجْأَرَ منه بالشكوى، لكن إن كان جيدًا صحيحًا فعليك شكره؛ لأنه لم يشأ أن يَحرِم تَعَلُّمَكَ من أهم مقوماته وأكثرها فائدةً على الإطلاق، أي المثال الحي، وقد كانت حياته هو خير مثلٍ حيٍّ يُضرب في أوروبا، وحين يأخذ عليه أعداؤه أنه روى حتى أخَصَّ التفاصيل في تَعَلُّمه، فإنما كان ينبغي لهم أن يحمدوا له ذلك؛ لأن الزمان لم يجُد قبله بمُعلمٍ يعطي مثل هذا الدرس القيِّم الضروريّ للنجاح في الحياة، ليس فحسب لأن عظائم الأمور رهينةٌ بصغائرها، ولكن أيضًا لأن الحياة نفسَها ليست سوى تجميعٍ لعددٍ لا حصر له من النقط الصغيرة التي تكاد لا تُرى.

.65 وانظرْ إلى مجلس الملوك كيف أنه كثير ما يجتمع لمناقشة مسألة الأسبقية بين امرأتين، لقد أخطأ المؤلفون الآخرون؛ إذْ لم يكلّفوا أنفسهم تعليمَنا انطلاقًا من أعمالٍ مهما تكن صغيرةً مع كثيرين يمكن أن يعانوا منها، ولا أحد يمكنه تفاديها، ولا يمكن لأمرٍ ذي أهميةٍ أن يكون صغيرًا، فإذا كان أمرٌ ما يَمَسُّكَ فهو بالتأكيد أمرٌ مهمٌ، ولقد كان

أبي حقًّا على صوابٍ في إفصاحه لنا عن طريقة تصرفه في أمور الحب والمحاورة والمائدة وحتى الحمَّام، ما دام كثيرٌ من الناس قد أخطأوا الطريق لكونهم لم يعرفوا كيف يتصرفون على المائدة، أو أثناء الحوار، أو في الحب، أو حتى في الحمَّام.

66. هل يبدو لك مثاله صالحًا لأن تقْتدي به؟ إذًا فاشكرِ المصادفة التي أوقعته بين يديك، أم هل بدا لك مثالًا سيئًا لا ينبغي لك احتذاؤه؟ لا عليك حينئذٍ؛ إذْ لن تجد الكثير ممن سيتَّبعونه. ماذا؟ أتلومه لكونه تكلم عن نفسه، ولا تحمد له أنه لم يأتِ شيئًا لم يجرؤ على ذكره، ولا أنه بلغ درجة الحقيقة في ما يقوله المرء حين يتحدث عن نفسه، وهي أعلى درجات الحقيقة وأحقها بالمديح والثناء؟ وإنه لمن المثير للشفقة أن ترى أن الذين يأخذون عليه رسمه لصورةٍ صادقةٍ عن نفسه، لا يريدون، أو لعلهم لا يجرؤون على فعل الشيء ذاته مع أنفسهم، ثم يدَّعون أنه سيكون غباءً أكثر منه غرورًا إن هم فكروا في أن يكشفوا للناس عن أنفسهم، ولست أدري هل كان مونتينْي مُحقًّا في كشفه لنفسه عاريًا[1] أمام الناس، لكني في المقابل أعلم أنه لا يحق لأحدٍ أن يرميَه بذلك، اللَّهم إلا من لا يستطيع مجاراته في فعله! أما أنت الذي تجد لذةً قصوى في أن يُرِيَكَ الناسُ قائدًا عسكريًّا أو سياسيًّا عظيمًا، فإنك تعلم كم ينبغي للمرء أن يكون رجلًا نزيهًا صادقًا قبل بلوغ تلك المرتبة حقًّا. وهذه «المقالات» بالذات تُعَلِّم كيفية بلوغها، فمن لا يريد التسلق بلا سُلَّمٍ لابد له من الخضوع لاختبارها، ثم أليس هذا الكتاب مدرسةً قائمة الذات للتكوين في شؤون الحرب وفي شؤون الدولة معًا؟ وفي الأخير هاك عقدة هذه الخصومة: إذا كان كسينوفون يصف نفسه عبر وصف الحرب والسياسة، فإن مونتينْي يصف الحرب والسياسة من خلال وصفه لنفسه.

(1) في إشارة لقول مونتيني في «إلى القارئ»: «لكشفتُ دون تردد عن نفسي كاملاً وعاريًا».

المديحُ الكاذب

67. هناك من بين مُحبي «المقالات» نوعٌ آخر من النقّاد غير المرغوب فيهم، وأعني أولئك الذين يجيء مديحهم للكتاب باردًا، فمن يقول عن سكيبّيو الإفريقي إنه كان قائدًا حربيًّا لطيفًا، وعن سقراط إنه كان رجلًا ظريفًا، إنما يسيء لهما أكثر ممن يجهلهما تمام الجهل؛ فالرجلان إذا لم تمنحهما كل شيءٍ فعليك أن تنزع عنهما كل شيءٍ، لا يمكن أن تمدح رجلين كهذين الرجلين وأنت تبدي في ذلك تحفُّظًا؛ فالمرء قد يخطئ في تقدير كمية الشهادات ونوعيتها؛ ذلك أن الإتقان والإحسان لا يحدهما شيءٌ بما في ذلك حدود المعقولية، فلا يقفان إلا عند حدود المجد وحدها، ولن أتردَّد في القول إن من يقدحون في «المقالات»، ومن لا يمدحونها إلا ببرودٍ هم في جهلهم بها سواءٌ، المديح إنما يُكال لغير «المقالات»، أما هي فلا يليق بها سوى الإعجاب، ولئن كنت لم أرَ بين من رأيت من الناقدين إلا قليلًا ممن هم قادرون على الدفاع عن وجهة نظرهم، فلا أظن أن هناك الكثيرين منهم بين مَن لم أرهم بعد، وإني لأقول هذا واثقةً؛ إذ لو كان هناك من يعرف «المقالات» حق المعرفة لكان قد هلَّلَ للمعجزة حتى سمعه من في الأرض جميعًا، أما الذين أتحدث عنهم فيتصورون أنهم ينقذون ماء الوجه بالقول: «إنه كتابٌ شائقٌ»، حاسبين أنهم بذلك يمدحونه، وبئس المدح! ويقولون كذلك: «إنه كتابٌ رائعٌ، غير أن بمقدور طفلٍ ذي ثمان سنين أن يأتي بمثله»! وأنا أسال هؤلاء فيمَ بالذات يرونه رائعًا وإلى أي حدٍ هو كذلك، وإلى أي حدٍ يرون أنه يَبُزُّ خيرَ ما كتبه القدماء، وفيمَ تراه يفوقهم، وفيمَ يستحق وإياهم المديح مما لا يتشابهون فيه؟ أريدهم أن يقولوا لي أي قوةٍ تفوقت على قوته؟ وأي حُججٍ وتحليلاتٍ منطقيةٍ وأحكامٍ يمكنها أن تضاهي حججه وتحليلاته وأحكامه؟ أو فليخبِّروني على الأقل مَن منهم تجرأ على أن يضع نفسه موضع الاختبار، ويقف عاريًا أمام القارئ مثلما فعل مونتيني؟ ومن كاد ألّا يترك مجالًا للشك في موقفه، وكاد ألَّا يترك لنا شيئًا نطالب بمعرفته منه؟ ولست أتحدث هنا عن أناقته ولا عن طلاوته، فهاتان لن تعدما أن تجدا لهما غيري من النقاد، لكن وكيفما كان الحال، فلوْ أنه عاش في زمن أولئك العظماء القدامى لجاز

أن يكون إعجابنا به أدنى مما هو اليوم؛ لأننا ربما كنا نجد له حينذاك أنْدادًا، أما والعقول ضعيفةٌ ضعفها اليوم، وأربعةَ عشر قرنًا أو خمسة عشر قد صارت تفصلنا عن آخر كتابٍ يمكنه أن يدَّعي مضاهاتَه، فلي أن أقول بكل ثقة إنه ما كان له إلا أن يثير شديد الإعجاب لدى كل من كلَّف نفسه مثلي عناءَ معرفته.

68. إذا شاع بين الناس خبر وحْشٍ مخيفٍ أو رجلٍ أطول أو أقصر من العادة، أو حتى بهلوان يقدم عرضًا جديدًا أو لعبةً سحريةً، سترى كيف أنهم جميعًا -حتى الحاذقون الأذكياء منهم- يسارعون إليه وكأنَّه حريقٌ متأجّجٌ، وحين يرجعون من فُرجَتِهم رأيتَهم لا يلاقون أحدًا من المعارف ولا الجيران إلا حسبوا أنفسهم مُجبرين -من قبيل الصداقة- على إعطاء وصفٍ مفصّلٍ دقيقٍ لمن لم يشهد منهم الحادثة، معتقدين أن من فاته تفصيلٌ دقيقٌ من تفاصيل الحدث هو إنسانٌ جديرٌ بالرثاء، هذا ونحن نعلم أن مثل تلك الحوادث والمشاهد هي مما يصادفه المرء كل يومٍ، فكيف يريدوننا أن نعتقد بأن قرّاء الكتاب إذا هم تذوقوه، حقَّ تَذَوُّقِه، لن يسارعوا من كل حدبٍ وصوبٍ إلى لقاء صاحب العقل الذي ألَّفه؟ ليس مثل هذا العقل بالنادر ولا بالشائع بين الناس، بل هو عقلٌ فريدٌ لم يشهد العالم له نظيرًا منذ قرونٍ طويلةٍ مضت! فكيف يصحُّ أنَّ من لم يتمكّنوا من القدوم عليه لتحيته شخصيًّا، لم يجدوا وسيلةً لمدحه ورفعه فوق الناس جميعًا في المكانة التي تليق به؟ لقد كان شهرٌ واحدٌ من مُخالَطَتِهِ كافيًا لجعل أصداء إعجاب يوستوس ليبّسيوس الشديد به تتردَّد في كافة أنحاء أوروبا؛ فلقد أدرك الرجل بأن الأمر لا يتعلق بإنصاف الكُتَّاب فحسب، بل وأيضًا بشرفه هو؛ لأن قراءة أي كتابٍ هي اختبارٌ للقارئ أكثر مما هي اختبارٌ لما يقرأه.

69. إن خير اختبارٍ للعقول هو النظر في مُصنَّفٍ جديدٍ، هذا ما يجعلني أكره أشد الكراهية أولئك الذين يسرقون كتب الآخرين؛ ذلك أن الزمان لو جاد علينا اليوم بكاتبٍ جيدٍ، فإننا -لكثرة هؤلاء السارقين وانتشار الأمثلة عنهم- لن نعدمَ أن نتهمه بأنه أخذ كلامه عن غيره، ولما كُنّا بفعل جهلنا عاجزين عن أن ندرك أن الأمر ليس كذلك، فإن النتيجة هي أننا

-بعدم تقديرنا إياه حق التقدير- سنُبين عن غباءٍ مطلقٍ لا نظير له، فحين يقرأ امرؤٌ كتابًا ثم لا يمدح كاتبه، فإما أن الكاتب مُتَبَجِّحٌ مغرورٌ، وإما أن القارئ هو المتبجِّح المغرور.

70. و«المقالات» لا يلحقها مثل هذا الشك؛ إذْ من السهل على المرء أن يرى أنها محرَّرةٌ بقلم واحدٍ لأنه كتابٌ جديدٌ، فكل الكتب -حتى كتب الأقدمين- ترمي إلى إعْمال العقل، بحيث لا تصادف الحُكم فيها إلا عَرَضًا، أما هذا الكتاب فإنه على العكس من ذلك يقترح إعمال الحكم، وفي القليل النادرِ إعمالَ العقل، ذلك المنبع الدائم لمصائب الأخطاء الشائعة بين الناس، إذا كان غيرَه يُعَلِّم المعرفة، فهو يجتهد في استفزاز الغباء من مخابئه، وإنه لمُحِقٌّ إذ يريد إفراغ الإناء من الماء الراكد الآسن، قبل أن يَصُبَّ فيه ماءً معطَّرًا! إنه يكشف مئة كذبةٍ وكذبةٍ جديدةٍ، فكم بينها من كذبةٍ لم يكن لمفتخرٍ أن يفخر بها؟ لا شك أنه لم يسبق لأحدٍ أن قال أو تفحَّص ما قاله هذا الكتاب وتفحصه من الأعمال والأهواء البشرية، وليس من المؤكد أن أحدًا غيره كان سيقول هذه الأمور ويفحصها لو لم يفعل هو، وكتب الأقدمين -مهما بلغت عظمتها- لم تبلغ قطُّ مبلغ استنفاذ مَعِينِ العقل، أما هذا الكتاب فيبدو أنه وحده الذي استطاع استنفاذ معين الحكم؛ فهو أجاد الحكم حتى لم يترك لأحدٍ بعده حكمًا ينطق به.

71. ولما كنت لا أعرف لروحي فضيلةً غير تلك المتمثلة في الحكم والتفكير المنطقي بهذه الطريقة -لأن الطبيعة شاءت أن تشرفني بأن جعلتني بهذا القدر أو ذاك شبيهة بأبي- فإني لا أستطيع أن أخطوَ خطوةً في الكتابة ولا في الحديث دون أن أجد نفسي أحذو حذْوه، حتى ليحسب المرء أني إنما أقلده تقليدًا، ولعل عزائي الوحيد في ذلك هو أني وجدت في الطبعات الأخيرة لهذا الكتاب أمورًا عدة كنت قد تطرقتُ لها قبلًا فجاءت على قلمي منظومةً بطريقةٍ لا تختلف كبير اختلافٍ عنها، رغم أني لم أقرأها من قبل.

72. ليس هذا الكتاب في نهاية المطاف سوى العرش الذي يُصدر العقل من فوقه أحكامه، لا بل إنه عرش النفس وترياق الجنون البشري، إنه الشاهد على نضج العقل وبعثِ الحقيقة، وهو كاملٌ في ذاته، مجسِّدٌ للكمال لغيره، ومن شاء أن يسبرَ غَورَ معاني هذه الكلمات، فلينظرْ أي معالجةٍ خصَّصها لها وهو يشرِّحها في كثير من المواضع تشريحًا.

73. لكنْ، رجوعًا إلى الأشخاص الذين جرى حديثي عليهم آنفًا، أقول إنهم إن لم يبحثوا عن لقاء هذا العقل العظيم؛ فربما كان ذلك لرغبتهم في أن يختبروا على أنفسهم الأطروحة الفلسفية، التي مفادها أن الحكيم يكتفي بنفسه عن الآخرين. نعم حقًّا، لكن شريطة ألا يكون في العالم غيرهم، قال لي أبي يومًا وهو يمازحني إنه يُقَدِّرُ أنَّ هناك -في المدينة الكبيرة حيث كان وقتئذٍ يعيش- ثلاثين رجلًا على الأقل ممن يَعدِلونه حَصافةً ورَجاحَةَ عقلٍ، وكان مما أدليت إليه به من الحُجج لأدحض كلامَه قولي لو كان هناك بالفعل رجلٌ واحدٌ من هؤلاء لكان حتمًا قد جاء إليه ليحييه، واستطردت بمرحٍ، إنه حتمًا ليقدّم له فروض العبادة، وقلت له أيضًا إذا كانت أعدادٌ كبيرةٌ من الناس تستقبله، فإنما تفعل ذلك بوصفه سليلَ عائلةٍ عريقةٍ، وكذا لسمعته الطيبة وخصاله الحميدة، لكن لا أحد منهم يستقبله بما هو مونتينْي، فهل تعتقد أيها القارئ أن زمننا هذا يسعى سعيًا إلى البحث عن العقول الكبيرة؟ لست أراهم إلا يعتقدون أن صداقتهم أو حتى مجرد مخالطتهم إياه تحطُّ من شأنهم إن هم لم يجدوا له خصالًا. ولو أن سقراط بُعِثَ بيننا اليوم حيًّا لوجدتَ بين الناس البدينَ البليدَ الذي يخجل من مجرد ذكر زيارته له، فإذا دفعه الفضول إلى اللقاء به، رأيتَه يكتفي بلقاءٍ واحدٍ، كالذي يزور معرضًا للوحات، ثم يعود أدراجه فرِحًا بكونه أرضى رغبته في لقاء عقلٍ حصيفٍ، وهو لم يرَ ولا عَرَفَ منه إلا مرأى الجمجمة التي تحتوي ذلك العقل.

74. لا يحتاج المرء إلا لبرهةٍ ليرى السماء، لكنه يحتاج الكثير من الوقت لرؤية عقلٍ حصيفٍ قدر ما يُحتاج منه لتعليمه، ومن لا يعاشر سوى ذوي «الصفات الحسنة»، يُبين من خلال ذلك أنه لا يهتم إلا «للصفة»،

ولو كان ذا خلقٍ وأدبٍ أكثر مما هو «سيدٌ نبيلٌ»، لكان يبحث عن ذي خلقٍ وأدبٍ مثلِه لا عن «سيدٍ نبيلٍ»، لكن ملوك الدولة الأتالِّيَّة وبطليموس هم من كان يُعرف عنهم تقريبهم لذوي العقول الحصيفة وتكريمهم إياها؛ ذلك أنهم كانوا هم أنفسهم على قدْرٍ من العلم والمعرفة لا يتيح لهم الحديث إلى من ليس ذا عقلٍ عبقريٍ، كما أنهم كانوا من الشهرة وحُسن الذكْر بحيث كانت ستجعلهم يخسرون أكثر مما سيخسره أصحابهم لو أنهم لم يتخذوا أصدقاءً، ممن هم قادرون على إحياء ذكرهم لدى الأجيال المتتالية.

75. ومع ذلك، ولمَّا كان هذا النزوع إلى حكر التقدير على من هم في صفهم ورتبتهم، واحتقارِ من هم دونَهم رتبةً ليس من شِيَمِ الملوك ناهيك عن كبار الملوك، فإن مثل هذا الموقف في نظري علاوةً على غبائه وخوائه، يسيء إلى من يقوم به أكثر من إساءته للآخرين؛ فهو سلوكٌ يضعه على قدم المساواة مع ملايين من الرؤوس الخاوية الشريرة الغبية التي تعيش حول العالم وتحتل مرتبة مثل مرتبته، مهما بلغ من النباهة والذكاء، ثم لن يجعله ذلك معصومًا من احتقار كثيرين آخرين يفوقونه في موقفه، أليس من المخجل ألَّا يقدِّر المرء نفسه إلا من أجل أمرٍ واحدٍ، وأن يكون ذلك الأمر بالذات مَدعاةً لاحتقار الملايين من الناس له؟ ومنْ هذا الرجل الشريف الذي سيقبل صداقة من يعترف بأن كثيرًا من الناس لو صادقوه لكانوا خجلوا من صداقته؟

الوحْدَة والصداقة

76. وعوْدًا إلى حديثنا أقول إن العقول الكبيرة تبحث عن العقول الكبيرة مثلها وتحبها وتُغرم بها؛ فكأن كيانها ينبع من تلك الحركة، الحركة الأولى التي تدفع بهم إلى لقاء أمثالهم، قم بتفكيك مكونات ساعة حائطٍ فستجدها تتوقف عن العمل، ثم قم بإعادة تركيبها دون تغيير مادتها ولا شكلها، وانظرْ، فسترى أن تلك المكونات تحتاج إلى أن تكون في تلك الوضعية الفريدة كي تعطي صورةً عن الحياة بحركتها الدائبة،

إن من الغلوِّ أن يحاول المرء أن يكون حكيمًا ووحيدًا في آنٍ معًا، متى لم يبخل عليه القدر برفيقٍ، صحيحٌ أن الصديق ليس رفيقًا فحسب، وأن الصداقة ليست مجرد عَلاقةٍ أو وشيجةٍ، بل هي حياةٌ يعيشها المرء مرتين: فأن تكون صديقًا يعني أن تكون مرتين، ليس هناك من رجلٍ يستطيع العيش وحيدًا، والويل لمن تستطيع الوحدة أن تنتزع منه صديقًا إن لم يكن هو نفسه رجلًا عظيمًا[1]، أما من يعيش وحيدًا فليس يعيش سوى نصف حياةٍ، غير أن من لم يعُد سوى نصفٍ واحدٍ، بَعدَ أن فَقَدَ نصفه الآخر، فهو أكثر بؤسًا بكثيرٍ من الذي لم يكن له نصفٌ آخر قط، وهناك ألفُ حُجَّةٍ وحُجَّةٍ يمكن أن تُلقِيَ بها إلى من يدعي أن روحًا ذكيةً يمكنها أن تعيش سعيدةً دون أن تتحالف وتتَّحد مع روحٍ ذكيةٍ مثلها؛ فهم يقولون مثل هذا الكلام أملًا منهم في تبرير الغباء الذي يمنعهم من البحث؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لما عرفوا كيف يَجنُون منه أدنى فائدةٍ، فمَن يطيق ذلك سيتشوَّف إلى هذا الانتشاء الخاص بالعقل، وهو انتشاءٌ يتربَّع -نظرًا لعلاقته بالعقل، أسمى أعضاء الجسم البشري- ذروَةَ الملذات البشرية جميعًا، ولا يتحقق جُلُّهُ إلا من خلال مخالطة المرء لأمثاله.

77. ليست الرغبة في إرضاء الذات ولا في التأسي هي ما يدفع النفس إلى هذا البحث، بل هي الضرورة الملحة الدافعة إلى الخروج من الصحراء، غير أنها لا تكون عظيمةً ما لم تبدُ لها جموعُ الخلقِ صحراءَ خاليةً، فلِمَن تريدها أن تقدم المعرفة التي لديها عن نفسها إن هي لم تجد لنفسها مثيلًا ونظيرًا تقدمها له؟ ومن لا يهتم بالتعريف بنفسه، لعجزه عن ذلك، ألا يحتاج مع ذلك لأن يرى نفسه مُفَضَّلًا على غيره من الناس محبوبًا معشوقًا؟ ولِمَ لا يكون معبودًا أيضًا؟ ولنتصورْ أن ملكًا من الملوك وجد نفسه فجأةً ضائعًا وسط الزحام لا يُعير أحدٌ لمكانته اعتبارًا، فصار هو والحمَّال سواسيةً، ألا ترى أنه سيتمنى ساعتئذٍ من كل وجدانه أن يجد بين هؤلاء الناس رجلًا يراه؛ فيَتَعَرَّفُ عليه ويصيح هاتفًا: «إنه الملك!»، معيدًا إليه بذلك مكانتَه واعتبارَه؟ مَن يقنِعني بأنَّ في العيش بين العُميان جمالًا، أو يقنِعني بأن أغَنِّيَ للصُّمِ وحدَهم دونَ الناس

(1) هذه الجملة غير واضحة في النص الأصل.

وقد وهبتني الطبيعة صوتًا رخيمًا رخامةَ صوتِ نيرون*[1]؟ أن تكون مجهولًا غير معروفٍ وألَّا تكون البتّةَ، هما شيئان يكادان يستويان: ذلك أن الكينونة تستند إلى العمل، ولستُ أرى عملًا كاملًا مكتملًا لمن لا يعرف كيف يتذوَّقه، ولئن كان بالإمكان ذكر الطموح ها هنا، فإننا لا نشعر بما يكفي من الخجل منه كي ندينه؛ فالحكيم يتألّم متى وجد نفسه عاجزًا عن اتخاذ رجلٍ حصيفٍ شاهدًا على صفاء فِكرِه قياسًا إلى وحل المبتذَل، وعلى المسافات التي يتخذها من الأخطاء الشائعة والخاصة التي يعشقها عموم الناس، وعلى كونه أقرب إلى الله منهم، وكونه قادرًا على إتيان الكثير من الشرور لكنه يتجنب ذلك، وكون الرجوع إليه أوْلى من الرجوع إلى غيره، وكيف أن بمستطاعه إسعادَ صديقه وفداءه بنفسه، فلمن تريده أن يُلقِيَ يا تُرى بمثل هذه الدُّرَر؟ لمن تريده أن يُفضِيَ بمكنوناته ويتحدث، والحديثُ هو اللذَّةُ الوحيدة التي إنْ هي لم تُشبع الروح إشباعًا فهي على الأقل تشُدُّها وتَستَبقِيها؟ لمن يا تُرى، إن لم يكن لمن يضاهيه مقدرَةً فيعادله؟ إن شخصًا منبوذًا وسط صحراء الجزيرة العربية لن يشكوَ من شيءٍ شكواه من غياب نظيرٍ له يشبهه ويَعرِف له حقَّه ويفهمه، لمن سيبوح بكل هذه الأشياء التي يعادل كتمانُها عنده الاكتواءَ بنار جهنم، والتي لا يمكنه النطق بها سعيًا لفائدةٍ -من أثر الاستبداد الذي تمارسه العادة على العقل، أو غير ذلك من الموانع- إن لم يبُحْ بها للأذن الجديرة بذلك؟ من يا ترى سيسخر معه من غباء البشر؟ هذا الغباء العظيم الذي يُلحق بصاحبه من الضرر ما يجعله يبدو كمن أمضى وعزم على ذبح نفسه من أجل إلحاق جرحٍ بغيره! فهو لا يمتدح أبدًا حكمةَ جاره إلا متى كانت هذه الحكمة مانعًا له هو نفسه من السعادة، فمعرفته بهذا الواقع البشري البائس، الذي لا يتيح له التأكد من أن أفعاله خيِّرٌ وأن أحكامه صائبةٌ، من دون أن يشهد له بذلك شاهدٌ عظيمٌ، هي ما يدفعه إلى تَمَنِّي أن يكون له مثلُ ذلك الشاهد، أم هل يا ترى نريد له بعد هذا أن يستفيد من موقفه، وطلاوة حديثه، وإيمانه، وثباته، ونوازعه، ووظائفه؟

78. يقول أصحاب الرأي المعارض هنا إنهم ينشرون ذلك على العامة

(1) * نيرو أو نيرون (37 م – 68 م)، خامس أباطرة الرومان، اشتهر بالقسوة والفجور واضطهاد للمسيحيين.

للحصول على مفعولٍ أكثر شمولًا، غير أن الواقع عكس ذلك، فهم إما لا يُحصِّلون من ذلك شيئًا لأنفسهم، وإما أنَّ ما يحصِّلونه يبدو لهم هزيلًا بحيث لا يولونه اهتمامًا. فما يعطيه المرء للجميع لا يهم أحدًا بذاته، ولا أحد يمنحه كبير اعتبارٍ، ثم إن لا شيء يثبت أن هذه الهدية التي يرونها جديرةً بأي حَمَّالٍ، يمكنهم أن يروها في ما بعد جديرةً بأفلاطون. أجلْ، لا مفرَّ من أن تعير نفسك للعامة، لكن لا تمنح نفسك إلا للفضيلة وحدها، والفضيلة التي يستطيع العامة تَمَلُّكَها لا يمكن أن تكون فضيلةً عظيمةً، ثم إنها -من جهةٍ أخرى- لا يمكنها أن تضم أجزاءً فارغةً دون أضرارٍ، أضرارٍ في كيانها ذاته، شريطة أن تكون نشيطة. تصورْ معي ماذا سيبقى من ميلونوس*[1] لو أنك قيَّدتَ يديه فمنعته من المصارعة! ثم إن من يعرف مدى الأفضال والانجذاب الذي يجده الحكيم لدى نظيره الحكيم، يعرف أيضًا مدى النفور والكراهية اللذين يستثيرهما هذا الحكيم عند البليد الجاهل، إنه المعيار الذي به يُعرف خالص الذهب من زائفه؛ لأنه يكشف لك من تكون أنت تبعًا لما تبحث عنه. إن ما أوتِيَهُ هذا العقلُ من حيوية يَسعَد بها ذوو الألباب، هو بالذات ما يُزعج الغبي البليد ويجرحه، وحصافة عقلٍ آخر لا تروق لذي القيمة والمقام بأكثر مما تزعج من لا مقام ولا قيمة له. إن كنت تعرف هذا الرجل فإنك تدمره؛ لأن خير ما فيه أن يحسب المرء أنه غيره، هذا هو ما يجعلني -متى علمت أن هناك تفاهمًا وثيقًا بين شخصين- أكتفي بأن أعرف أحدهما كي أعرف الاثنين معًا؛ فالطيور كما يقولون على أشكالها تقع، ولا يمكنك أن تربط إلى عربةٍ واحدةٍ حصانين أحدهما قويٌّ متينٌ والآخر ضعيفٌ هزيلٌ؛ لأنهما سيضايق أحدُهما الآخرَ ويُتعب أحدهما الآخر، وهذا مثالٌ يمكن أن ينسحب حتى على شؤون الحب، فأن يمرَّ رجلٌ نبيهٌ بالفيلسوفة ثِيانو[2] مرور الكرام ويقفَ عنده الغبي البليد، هما شيئان يستويان عندي في الاستحالة. إن جِلد الغبي أشدُّ سُمكًا من أن تخترقه سكينٌ لطيفةٌ كهذه، ولا يمكنك الإمساك بثورٍ متوحّشٍ بأُنشُوطَةِ حبلٍ، ولكن يمكنك فعلُ ذلك بطائر

(1) * ميلونوس الكروتوني مصارع عاش في أواخر القرن السادس قبل الميلاد بمستعمرة كروتوني الإغريقية جنوبي إيطاليا، اشتهر بشغفه بفن المصارعة.

(2) فيلسوفة يونانية، من تلاميذ الفيلسوف فيثاغوراس، شبه بها الفيلسوف يوستوس ليبسيوس السيدة ماري دو غورنيه في رسالة إلى الأخيرة.

العنقاء.

79. أخيرًا، واستكمالًا لفكرتنا، أعتقد أن أبي ما كان إلا ليعتنق الفكرة القائلة بأن أغلب الناس يفضلون حكمة سقراط نفسه على صداقةٍ مثاليةٍ، غير أنهم لو خيَّرَهم الله بين الأمرين، لما عرفوا فيمَ تُعطى الحكمة؟ ولا كم تُساوي الصداقة؟ أو لما عرفوا كيف يستفيدون من هذه أو من تلك؟ ولا جدال في أن من يستطيع أن يحب وأن يكون محبوبًا حقَّ الحب لن يُعجزَه شيءٌ. إن البائس سيئ الطالع الذي تضيع منه حكمة سقراط يتكبَّد خسارةً ليس من المتعذر تعويضها، أما من كان له صديقٌ حقيقيٌ ثم أضاعه، فلم يعد لديه ما يرجوه ولا ما يخافه؛ لأنه قد عرف الجنة والجحيم معًا. ولو أنك التقيت بيثياس بعد أن مات دونه دامون[1] لقال لك إنَّه إنْ لم تكن نفسُه قد ضاعت منه كلها بموت صديقه، فقد ضاع نصفُها الذي كان يتيح له امتلاك النصف الآخر، ومن حينئذٍ لم تبق حياته حياةً بل استحالت عناءً وألمًا؛ لأنه لا يبقى منه بعدئذٍ سوى مصابه وألمه، فهو لم يعد موجودًا بالمعني الحقيقي للكلمة، وإن بقي موجودًا؛ فإنما يكون حالُه حالَ المشلول الذي يتحمل العيش محرومًا من خير وظيفةٍ لأطرافه. ذلك أن كيانه لم يكن قريبًا من كيان صاحبه لَصيقًا به فحسب، بل كان الكيانان مختلطين ممتزجين امتزاجًا، حتى إرادتُه نفسُها وحريتُه وعقلُه، كلها تبقى في يده كَسَقطِ المتاع لا فائدةَ تُرجى منها ولا نفع، لفرط ما اعتاد أن ينتفع بها جميعًا بأيدي شخصٍ آخر غيرِه، ولأنه تعلم من ذلك الاستعمال اللطيف أنْ ليس بإمكانه التصرف فيها بخير ما يفعل تحت عناية صديقٍ محبٍّ وفيٍّ. أجلْ، لَكَأنَّه لم يعد موجودًا؛ لأنه إن كان صديقًا أكثر مما كان إنسانًا وكيانًا قائم بذاته، وإن كان قد تحول -بصفته إنسانًا وبصفته كيانًا قائما بذاته- إلى صديقٍ، فكيف هو اليوم إذ لم يَعُدْ كائنًا بصفته صديقًا؟ ما بقي منه لا يعني سوى ذلك العقل العزيز؛ لأنه إن كان قد أضاع نفسه فلكي يجدها في غيره، أن تكون صديقًا يعني أن تكون غيرَ مالكٍ لنفسك، بل فقط مؤتَمَنًا عليها. إن أكبر ألمٍ قد يعانيه المرء في حياته هو أن يعرف السعادة الحقّة يومًا، وقد عرفتها في شخص أبي

(1) فيلسوفان يونانيان كانا معروفين بصداقتهما الحميمة [المترجم].

الرائع، ما دام المرء ملزمًا بأن يدفع ثمن ما أضاعه وحرم منه حرمانًا أبديًّا. ولَكَمْ رفض عقلي الانصياع للفكرة التي كانت تجول في ذهني بأن أكتب كلمةً عن «المقالات»، متذرعةً بعجزه عن ذلك من أثر الهاوية التي جعلته آلامي وأحزاني يتردَّى فيها. ولا مجال هنا للحديث عن الصحبة المباركة التي انتزعني الموت منها، ولا عن القدرة التي كانت لديه في الحديث عن كل شيءٍ آخرَ.

80. أيها القارئ، لا تَتَّهِمَنَّه بالتهور إذ تراه يُصدِر حكمًا يرفعني به مرتَبَةً، وإن كنت قد لمستَ بعد قراءتك هذه السطور أني لست أستحق من مديحه شيئًا؛ فذلك لأنه حين كان يمدحني كنت أمتلكه -فأنا وهو- وأنا من دونه شخصان مختلفان. لم أستفد منه لأكثر من سنواتٍ أربع، ليس أكثر مما استفاد هو من إيتيان دو لابويسي، أم أن القدر -رحمة منه بالآخرين-يجعل مثل هذه الصداقات حبيسةً مثل هذه الحدود، حتى يكون في ازدرائهم لنعمةٍ يرونها زائلةً ما يقيهم من معاناة آلام الحرمان؟ بيدَ أن كثيرًا من الناس سيُبدون رغم ذلك عن شكوكهم: فالجميع -إن هم شاءوا- يستطيعون السخرية من اندفاعنا وقلة صبرنا، ووضعَنا أمام تحدي الثبات. فلا أحد لديه ما يخسره مثل ما لدينا. ويتساءلون عن مكان العقل من كل هذا. وما علِموا أن العقل في مثل هذا الصنف من الصداقة هو المحبة. وما كل واحدٍ يُرثى له من مصيبةٍ كهذه؛ لأن البند الوحيد في عَقد الصداقة المثالية هو ما يلي: أنا وأنت نَهَب نفسينا لبعضنا البعض؛ لأننا لسنا نجد نفسنا خيرا مما نجدهما ونحن معًا.

تحقيق النَّص

81. توفيّ مونتيني في عمر التاسعة والخمسين سنة 1592م، بطريقةٍ فيها من الروعة والكمال ما يغنيني عن بسط الحديث في ذلك. ولعلي أرجع يومًا إلى ذلك لأرْويَ الظروف الخاصة التي حدثت فيها الوفاة، متى عرَفتُ تفاصيلها الدقيقة من أفواه من سمعوها مباشرةً؛ لأن كثيرًا من الشهود الآخرين لم يستطيعوا أن يؤكدوها لي، والذين سمعوها

وسمعوا الوداع اللطيف الذي طلب أن يصلني على يد السيد دو لابروس أخيه. أما ابن عمه السيد دو بوساغي -الذي يحمل عن جدارة لقب عائلة مونتيني، ويمثل دعامتها القوية بعد أن فقدت في أبي دعامتها الأقوى- فلم يستطع إفادتي بشيءٍ يوم ذهبت إلى لقائه لهذا الغرض في مدينة شارتر، حيث كانت أعماله التجارية قد قادته منذ سنواتٍ خلت، لكن الأكيد أنه لم يحضُر الوفاة. أضف إلى ذلك أن أعمال تصحيح هذا الكتاب وطباعته، بالنظر إلى الطريقة الرديئة التي جرى بها إنجازها في ما تعلق بالكتب الأخرى التي لم تطبع في حياة مؤلفها، كما يشهد بذلك الكتاب الذي حققه أدريان تورنيب، سيبين إلى أي مدًى اعتبره ملاكٌ من ملائكة الرحمة جديرًا بالعناية. فلا الحرص الشديد للمطبعيّين، الذين غالبًا ما يجري تحميلهم المسؤولية عنها، ولا الحرص الأشد الذي أبان عنه بعض الأصدقاء، ما كان ليكفي. فعلاوةً على الصعوبة الطبيعية التي يمثلها تصحيح «المقالات»، فإن هذا المخطوطة كانت تعجّ بالصعوبات إلى درجةٍ جعلت من العسير قراءتَها قراءةً صحيحةً، والحرصَ على ألا يتولد عن هذه الصعوبة أو تلك تأويلٌ خطأ أو إسقاطٌ أو سهْوٌ.

82. ولما كانت إجادة العمل، حسب ما أسلفتُه، تتطلب مُشرِفًا جيدًا، فسأغامر بالقول، حتى ولو عُدَّ ذلك مني تفاخرًا وتباهيًا، إن هذه المهمة لم تكن لتجد من ينجزها خيرًا مني؛ لأن تعاطفي ومحبتي كانا قادرين على سَدِّ ما قد يُحدِثُه جهلي وعجزي من ثغراتٍ، وإني لممتنَّةٌ للسيد دو براك*[1] على دعمه الدائم في تلك الظروف للسيدة مونتيني، ذلك الدعم الذي تخلى من أجله عن إتمام الديوان الشِّعري الذي كان يخصصه لزوجته، فلم يكتفِ بالانتصار على القرن الحالي والقرون الماضية، بوصفه الزوج الفريد بفضل المجد الذي خص به زوجته الراحلة، بل جاوز ذلك إلى الاتصاف بالصديق النبيل، بما أسداه من خدمةٍ يزيد من نُبلِها أنها موجهةٌ إلى رجلٍ راحلٍ، ثم إني اقتفيت نواياه بكل عنايةٍ، ولم أتردَّد، كلما بدا لي ما يمكن تصحيحه، في إخضاع نفسي وخطابي لاعتبارٍ واحدٍ لا ثاني له، لأنَّ من أراد أن يكون الأمر كذلك هو «أبي»، ولكونه

(1) * الشاعر الفرنسي بيير دو براك (1668 - 1739م).

هو مونتيني أقول: هذا لكيلا يسارع أولئك الذين سيصادفون جملةً أو تعبيرًا يبدو لهم غامضًا فيتوقفون عنده، إلى انتقاد هذه الطبعة كما لو أنها خانت المؤلف، وكَيلا يصرفهم ذلك عن البحث عن الثمرة التي لا يمكن إلا أن توجد فيه، بحكم أن الطبعة نَسَخَت كلام المؤلف نسخًا صادقًا أمينًا، وإن باستطاعتي أن أتخذ -شاهدًا على ذلك- نسخةً أخرى من الكتاب ما زالت في بيت المؤلف، لو أني خشيت أن يشكك أحدٌ في إخلاصي لمونتيني وعنايتي بكتابه.

83. فمن لم يجد في نفسه القدرة على الغوص في هذا النص واستيعاب معانيه؛ فلا يلومَنَّ إلا نفسه، أما أنا فلم أصادف فيه سوى مقطعٍ وحيدٍ لم أستطع فهمه[1]، ولعله يصادف يومًا من هو أصوَبُ مني تأويلاً فيفتح لي ما استغلق عليّ من معناه، وأخيرًا، فرغم أن هذه الطبعة، التي أنهيها في سنة أربع وتسعين وخمسمئةٍ وألف في باريس، ليست بالكمال الذي كنت أرجوه لها، إلا أني أريد لها أن تكون هي المرجع، سواءٌ أتَعَلَّقَ الأمرُ بقارئٍ عالِمٍ مُطَّلِعٍ يَعلَمُ إلى أي حدٍّ ينبغي لكتاب «المقالات» أن يُعرَف على حقيقته دون تحريفٍ، أو بناشرٍ يبتغي إعادة طبع الكتاب في بلدٍ أجنبيٍّ، ذلك أن هذه الطبعة، علاوةً على كونها ليست بعيدةً عن الكمال بالقدر الذي يُخشى معه، أن تقترب الطبعات التالية منه بأكثر مما اقتربت هي، فإنها على الأقل تصحح أخطاء التحريف بالإشارة إليها، اللهم إلا بضع هفواتٍ هي من الصغر بحيث إنها تصحِّح نفسها بنفسها، وخشيةَ أن يرفض أحدهم بعض لمسات الريشة التي تصحّح خمسة حروفٍ أو ستة، معتبرًا إياها من قبيل الإضافات المتهورة، أو أن يتخذها آخر ذريعةً لإضافة لمساتٍ أخرى، فإني أشير إليها بالتحديد[2]، فلم أُغفِل منها إلا ما ليس ذا خطرٍ، فلست أملك أن أبالغ فأتجاوز الحدَّ في العناية والحرص على كتابٍ له هذه القيمة، فضلًا عن أنه ليس كتابي.

وداعًا أيُّها القارئ.

---

(1) لا يعلم أحدٌ على وجه الدقة أين هذا المقطع المقصود؟ ويرى بعض النقاد أنها فعلت ذلك من باب التدلل، إشارةً للمقطع الذي يمتدح فيه مونتيني السيدة دو غورنيه (الكتاب الثاني، الفصل 17، الفقرة 69)، غير أن بعضهم الآخر يعتقد أن المقطع إياه هو بقلم السيدة دو غورنيه نفسها.

(2) كلماتٌ باللغة الفرنسية لا مجال لذكرها [المترجم].

إلى القارئ

هذا كتابٌ خُطَّ بحسن نيةٍ أيها القارئ، فهو من البداية ينذرك بأني لا أتوخّى من كتابته هدفًا معينًا عدا هدفٍ شخصيٍّ خاصٍ، فلم أهتم فيه بأن أقدم لك خدمةً، ولا بأن أبنيَ لنفسي مجْدًا؛ لأن قُوايَ لا تسعفني في ذلك.

لقد كتبته خصّيصًا لأهلي وأصدقائي حتى يستطيعوا، بعد فراقي -وهو ما لن يتأخر كثيرًا- أن يجدوا فيه ملامح سلوكي وطبعي؛ وحتى يمكنهم أن يعتنوا بالمعرفة التي لديهم عني، ويحفظوا ذكرها حفظًا أصدق وأشمل.

ولو كان الهدف الحصول على رضا الناس، لرأيتَني أستعير لنفسي من الزينة أنواعًا وأصنافًا[1]، لكني أريد أن أظهر فيه كما أنا، ببساطتي وعفويتي وسلوكي العادي، دون تنميقٍ ولا تزويقٍ؛ لأني إنما أرسم فيه نفسي، وستبدو فيه عيوبي عاريةً مكشوفةً، ومعها نقائصي وسبيلي في العيش، بقدر ما سمح لي بذلك احترامي للجمهور.

ولو أني عشت بين شعب من تلك الشعوب التي يقولون عنها، إنها ما زالت تعيش بحسب قواعد الحرية الفائقة بحسب نواميس الطبيعة، لكنت قد كشفت دون تردّدٍ عن نفسي كاملًا عاريًا.

إني أنا نفسي مادةُ كتابي أيها القارئ، فليس من المعقول أن تشغل وقت فراغك بموضوعٍ تافهٍ فارغٍ كهذا الموضوع.

وداعًا إذًا.

دو مونتيني، في يوم 12 من يونيو سنة 1588م.

(1) لقد غير المؤلف صيغة هذه الجملة مرارًا في النسخ المختلفة.

الفصل الأول

في ما هو نافعٌ وما هو نَزيه

1. إن أقرب وسيلةٍ لجبْر خاطر أولئك الذين أسأنا إليهم -متى مكنّتهم الظروف من الانتقام- هي أن نستحث لديهم الشفقة والتعاطف بإبداء الخضوع لهم، غير أن الإسهاب في الكلام والثبات على الموقف والتمسّك بالعزم والتصميم، التي هي نقيض ذلك كله، قد تفضي إلى النتيجة ذاتها.

2. تلقى إدوارد، أميرُ الغال الذي تربع طويلًا على كرسيّ الحكم في أرضنا في غويانا، إهانةً كبيرةً من سكان منطقة الليموزين، ويوم استولى على مدينتهم لم يرق قلبه لصرخات الشعب وبكاء الأطفال والنساء وهم يركعون عند أقدامه طالبين العفو، لكن، وفيما هو يتقدم داخل المدينة، أثار انتباهه مشهد ثلاثة فرسان فرنسيين وقد وقفوا وحدهم بكل شجاعةٍ واستماتةٍ في وجه جيشه المنتصر، استثارت شجاعة هؤلاء الثلاثة إعجاب الأمير وتقديره، فانطفأت جذوة غضبه، وأصدر عفوه عن الشجعان الثلاثة، قبل أن يشمل العفو أهل المدينة جميعًا.

3. كان إسكندر بك -أمير إبيروس بالبلقان- يلاحق أحد جنوده لقتله، وبعد أن حاول الجندي دون جدوًى استثارة عطف الأمير بإبداء آيات الخضوع والتضرّع، انبرى له حاملًا سيفه، فخمد غضب الأمير أمام إقدام الرجل وعفا عنه، لكنْ صحيحٌ أن من لم يعرف شجاعة هذا الأمير وقوته الجبارة قد يعطي تأويلًا آخر لموقفه.

4. يوم حاصر الإمبراطور كونراد الثالث الدوق فلف السادس حاكم بافاريا، لم يقبل الإمبراطور أن يتنازل عن شرطٍ واحدٍ من شروطه مع إمعان الدوق في التذلُّل والخضوع، غير أنه في مقابل ذلك سمح للنساء المحاصَرات مع الدوق أن يخرجنَ بسلامٍ دون أن يعترضهن أحدٌ، وأن يحملن معهن ما يطقن حمله من متاع، فما كان من السيدات إلا أن حملن أزواجهن وأطفالهن على ظهورهن وخرجن يحملنهم، راع المنظر الإمبراطور حتى دمعت عيناه تأثرًا لنبل هذا الموقف، واستحال الغلُّ الأسود الذي كان يحمله للدوق تعاطفًا ورحمةً، فعامله وذويه من ساعتئذٍ برفقٍ وكرمٍ.

5. أما أنا فإني وإن كنت لن أمانع في احتذاء هذا السبيل أو ذاك، إلا إني إلى العطف والرحمة أميل، حتى أني أرى نفسي أقرب للانسياق وراء التعاطف مني للاستسلام للإعجاب، غير أن الرحمة عند الرواقيين شيءٌ مذمومٌ؛ إذ كانوا يرون أن المرء إذا كان ينبغي له أن يُغيث المنكوب ويساعد المحتاج، فليس عليه أن يذهب إلى حدّ مقاسمتهم أحزانهم وآلامهم.

6. ما يبدو لي أدعى للإقناع في الأمثلة السابقة، هو أنها تعرض لنا شخصياتٍ وطبائعَ بشريةٍ تجد نفسها أمام موقفين، فتقاوم أحدهما وتستسلم للآخر، ويمكن القول إن الاستسلام للعطف هو استسلام للسهولة والطيبة والضعف، وهي -كما نعلم- خصالٌ لصيقةٌ بالضعفاء كالنساء والأطفال والدَّهماء ومن جرى مجراهم أكثر منها بغيرهم، لكن أن يحتقر المرء الآهات والدموع، ثم يتنازل أمام الشجاعة إجلالًا لها ووفاءً، فهذا يكشف عن نفسٍ قويةٍ وطبعٍ حادٍ يُعجب بالإقدام والحزم، ويكنُّ لهما الإجلال والاحترام.

7. غير أن الدهشة والإعجاب قد يكون لهما الأثر ذاته على نفوس أقل سموًّا ونبلًا، كما يشهد بذلك ما وقع لشعب طيبة يوم قام يطالب العدالة بإعدام رؤسائه المتهمين بمواصلة ممارسة مهامهم بعد انقضاء المدة المتفق عليها، فلم يغفر الشعب إلا بصعوبةٍ بالغةٍ لبيلوبّيداس، الذي واجه التهم الثقيلة الموجهة إليه بالتضرع واستجداء الرحمة.

أما إبّامينونداس الذي استرسل -عكس ذلك- في استعراض إنجازاته فخرًا منه وعجرفةً، حتى أخجل سامعيه، فلم تسعف أحدًا من الحاضرين نفسُه على المطالبة بالاستفتاء في شأنه، بل انفض الجمع والملأ يتذاكرون معجبين بشجاعة المتهم وقوة شكيمته.

8. أراد ديونيسيوس الأكبر، إثر استيلائه على مدينة ريجي بعد حصارٍ طويلٍ مريرٍ، أن يجعل من القبطان فيتون -وهو رجلٌ جديرٌ بالاحترام دافع عن مدينته بكل استماتة- عبرةً للآخرين ومحلًا لانتقامه الشديد،

بدأ الحاكم بإخبار الرجل أنه كان قد أمر البارحة بإغراق ابنه الوحيد وأهله جميعًا، فأجابه بكل بساطةٍ أنهم بذلك إنما سبقوه إلى السعادة بيومٍ، حينئذٍ أمر الحاكم بأن تنزع عنه ثيابه، ثم سلمه إلى الجلادين وأمر به، فسحبوه في أزقة المدينة، وهم يجلدون ظهره بلا رحمةٍ بالسياط، ويرمونه بأقذع أنواع السباب، غير أن البائس عرف كيف يحافظ على رباطة جأشه وعزة نفسه.

9. لا بل إنه بقي يردّد برباطة جأشٍ أنه يموت ميتةً شريفةً؛ لأنه إنما يموت دفاعًا عن بلدته ورفضًا لتسليمها إلى الطاغية[1]، وزاد بأن أنذر عدوّه بعذابٍ قريبٍ من السماء، وكان من المفترض أن تثير حفيظةَ الجنود وقاحةُ هذا المنهزم وجُرأتُه على القائد المنتصر واحتقارُه له، إلا أنهم على عكس ذلك أعجبوا أيّما إعجابٍ بشجاعته النادرة، وفكروا في العصيان بل وفي انتزاع الرجل من أيدي جلاديه، وقرأ ديونيسيوس الأكبر الأمر في أعين جنوده فأمر بكفّ التعذيب عن الأسير، حتى إذا جنَّ الليل أمر به خاصته فأغرقوه في البحر سرًّا.

10. إن الإنسان لمن الخواء والتلوُّن والتعرُّج بما يجعل من المتعذر إصدار حكمٍ ثابتٍ ودائمٍ في شأنه، فها هو بومبّيوس يغفر للمامرْتيين ويتجاوز عنهم؛ اعتبارًا لما أبان عنه المواطن زينون من فضيلةٍ ومن سخاءٍ بالنفس، حين حمل وحده خطأ أهل البلدة جميعًا، وقدّم نفسه لتلقي العقاب دونهم، بيد أن ضيف سولّا -الذي أبدى في مدينة بيروجيا عن شجاعةٍ مماثلةٍ- فلم يُجده ذلك شيئًا لنفسه ولا لغيره.

11. وعلى عكس ما سبق من أمثلةٍ، يأتي مثالُ الإسكندر الأكبر، رغم ما هو معروفٌ عنه من تسامحٍ إزاء المهزومين، فيوم استولى على غزة بعد قتالٍ عنيفٍ، وجد الجنود قائدها باتيس، الذي كان الإمبراطور قد أُعجب بقيادته للمقاومة خلال الحصار، كان الرجل وحيدًا قد تخلى عنه أنصاره، محطم السلاح مثخنًا بالجراح مكسوًّا بالدماء، إلا أنه

(1) انظر: ديودوروس الصقلي، ص 16-29. [سبعة كتب من تاريخ ديودوروس الصقلي جرت ترجمتها مؤخرًا إلى الفرنسية].

بقي رغم ذلك يقاتل المقدونيين الذين أحاطوا به وراحوا يناوشونه.

12. تقدم منه الإسكندر، الذي كان منهكًا غاضبًا من نصرٍ أدى ثمنه غاليًا؛ إذ أصيب هو أيضًا في المعركة بجرحين، فقال له: «لن تموتَ كما شئت يا باتيس، واعلم أنك ستلقى أشد ما يلقاه أسيرٌ من عذابٍ وتنكيلٍ».

13. تلقّى الأسير التهديد ليس فقط بثباتٍ ورباطة جأشٍ بل بتعالٍ واحتقارٍ، وبقي لازمًا الصمت، أما الإسكندر الذي أفحمه هذا السكوت فبقي يحدث نفسه متسائلًا:

«هل يا ترى اصطكت ركبتاه؟ هل نبست شفتاه بأدنى كلمة استعطاف؟ لأقهرنَّ هذا الصمت، ولئن لم أستطع أن أنتزع منه كلمةً، فلأنتزع على الأقل آهةً».

استشاط الإمبراطور غضبًا، وسرعان ما استحال غضبه نقمة، فأمر بالرجل فثُقِب عقِب قدميه، وسُلك فيهما حبل ثم رُبط إلى عربةٍ سحبته خلفها حتى أضحى جسده أشلاءً.

14. فهل فعل الإسكندر الأكبر ما فعله لأن الإقدام عنده شيءٌ مألوفٌ بديهيٌّ لا يجلب لصاحبه تقديرًا ولا احترامًا، ولذلك لم يقدِّره عند باتيس حق تقديره؟ أم هل تراه كان يجد في الإقدام شيئًا مخصوصًا به ووقْفًا عليه، بحيث لا يستطيع أن يرى أحدًا يضاهيه فيه، دون أن تثور لذلك ثائرته غضبًا وغيرةً؟ أم هل يا ترى لم تتحمل طبيعة غضبه النارية المشتعلة أن يقف في وجهها أحدٌ؟

15. والحق أن الإسكندر الأكبر لو كان له أن يكبح جماح غضبه، لكان دون شكٍ قد كبحه يوم دخل مدينة طيبة منتصرًا، وعُرض على السيف أمامه آلافٌ من الرجال الشجعان الذين لم يعد بأيديهم سلاح يدافعون به عن أنفسهم، قُتل يومئذٍ ستة آلاف رجلٍ، لم يفكر أحدٌ

منهم في الفرار ولا هو طلب الرحمة، لا بل إن بعضهم كان يستفز العدو المنتصر استفزازًا؛ كي يلقى على يديه ميتةً كريمةً، ولم يكن منهم رجلٌ إلا ورأيتَه -وهو في آخر لحظات حياته- يسعى للانتقام سعيًا، يدفعه اليأس إلى الثأر لموته بقتل بعض عدوه. لمْ توقظ شجاعتهم واستماتتهم ذرة رحمةٍ في قلب إسكندر، لم يكن يومٌ كاملٌ من القتل كافيًا لإخماد غضب الإمبراطور، فبقي السيف يعمل في أهل المدينة حتى لم يدع هناك قطرة دمٍ لم تُرَقْ، ولم يسلم منه سوى العزَّل من العجائز والنساء والأطفال، الذين اجتمع منهم يومئذٍ ثلاثون ألف أسيرٍ.

الفصل الثاني

في الحزْن

1. لست أعرفُ شيئًا عن هذا الإحساس، فأنا لا أحمل له حبًّا ولا تقديرًا، وذلك على الرغم من أن الناس، كأنما عن اتفاقٍ مسبقٍ، قد اعتادوا على أن يولوا له مكانةً خاصةً، فهم يَكسون به الحكمة والفضيلة والضمير، وما أخْواه وأغباه كساءً! وقد أحسن الإيطاليون فعلًا إذ أعطوا اسمه للخبْث[1]، فالحزن هو سبيلٌ في العيش يكون على الدوام ضارًّا وأزْعن، وقد كان الفلاسفة الرواقيون يعتبرونه علامة جبنٍ وخسةٍ، فكانوا يحظُرون على تلامذتهم الشعور به.

2. لكن يُحكى أن بسماتيك*[2] ملك مصر، بعد أن هزمه قمبيز ملك الفرس وأخذه أسيرًا، شاهد ابنته وقد ألبسوها ملابس الخدم وأرسلوها لتستقي الماء، فلم يحرك ساكنًا رغم أن أصدقاءه جميعًا كانوا يبكون ويتأوّهون من حوله، بل بقي مُطرقًا لا يَنْبس ببنت شفة، وكذلك فعل حين رأى ابنه يُساق إلى الموت، لكنه عندما أبصر أحد خدمه مقيَّدًا بين الأسرى لم يستطع تمالُكَ نفسِه، فراح يلطم رأسه في حزنٍ شديدٍ.

3. ويمكن أن نقارن هذا بما رأيناه مؤخرًا من أحد أمرائنا، فقد بلغ مسامعَ هذا الأمير-وهو في ترينتو- خبرُ وفاة أخيه الأكبر، الذي كان عماد الأسرة، ثم تلاه بعد ذلك بفترةٍ قصيرةٍ نبأ وفاة أحد إخوته الأصغر منه، فبقي محافظًا على رباطة جأشه أمام المصيبتيْن، غير أنه بعدئذٍ بأيامٍ علم برحيل أحد أعضاء بلاطه، فانهارت مقاومته واستسلم للحزن والندم حتى أردياه قتيلًا، وقد ذهب بعض الناس إلى القول إنه إنما تأثَّر لهذا الحدث الأخير وحده، والحقُّ أن قلبه كان قبل ذلك يحمل من الحزن ما جعله ينهار عند أدنى مصيبةٍ جديدةٍ وتنهار مقاومته.

4. كان من الممكن إذًا -في ما يبدو لي- مقارنة هذه القصة بسابقتها، لولا أن هذه الأخيرة تُضيف، أن قمبيز سأل بسماتيك لماذا لم يُبد حزنًا على ابنته ولا على ابنه فيما بكى لمصير خادمه؟ فأجاب الملك الأسير قائلًا:

(1) كلمة tristezza الإيطالية قد تعني بالفعل الخُبث والطبع الشرير.

(2) * هو الفرعون المصري بسماتيك الثالث، آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين، دام حكمه سنة واحدة (526 ق.م - 525 ق.م).

«هذا الألم الأخير هو وحْده الذي يمكن أن يعبر عن نفسه بالدموع، أما سابقاه فهما أكبر من أن يُستطاعَ التعبير عنهما بشيءٍ». ولعله يليق في هذا الصدد أن نذكر ذلك الرسام القديم الذي أراد تمثيل ألم الناس الذين شهدوا تقديم إيفيجينيا قربانًا للآلهة، حسب الأهمية التي كان يكتسيها بالنسبة لكل واحدٍ منهم مقتل تلك الفتاة الجميلة البريئة. فاجتهد في رسم تقاسيم الألم على الوجوه واسْتنفد في ذلك مَعين فنه، حتى إذا جاء إلى والد الفتاة رسم له وجهًا مغطًى، وكأنْ ليس هناك من تعبيرٍ فنيّ بإمكانه الوفاء بدرجة الألم الذي لا شك كان يشعر به الأب المكْلوم.

5. هذا ما يجعل الشعراء يتصورون أن نْيوبي*[1] البائسة، بعد أن فقدت بَنِيها السبعةَ ثم مِثلَهم من البنات، لم تستطع تحمل المُصابَ فتحولت إلى **«صخرةٍ متحجِّرةٍ من الألم»**[2].

سعيًا منهم للتعبير عن ذلك الغباء الكئيب الأبكم الأصمّ، الذي يستولي علينا حين تتكالب علينا مصائبُ الدهر، فتُحَمِّلنا من العناء ما لا طاقة لنا به.

6. والحقُّ أن الألم لكي يبلغ مداه يجب أن يحتلَّ مساحة الروح كلَّها، فلا يتركَ لها من الحرية مجالًا، هذا ما يقع لنا حين يبلغنا نبأٌ حزينٌ جدًّا يصعق الكيان ويجعل المرء كالمشلول لا يستطيع حَراكًا؛ إذ تستسلم الروح بعد ذلك للدموع والشكوى، فكأنها تتحرر وتنطلق من عِقالٍ لتنفس عن مكنونها وتنشرح.

«وأفسح ألمه الطريق أخيرًا لصوته»[3].

7. في أثناء الحملة العسكرية التي قادها الملك فرناندو ضد أرملة يانوش زابوليا ملك هنغاريا، لاحظ الجميع -في معْمعةٍ حدثت خارج مدينة

(1) * في الأساطير اليونانية نيوبي هي ابنة تنتالوس ملك فريجيا، كان لديها سبعة أبناء وسبع بنات، وسخرت من الإلهة ليتو لأن لديها ابن وابنة فقط، فعاقبتها الربة بأن قتلت أبناءها جميعًا.

(2) Ovide, **Les Métamorphoses**, VI, 304.

(3) Virgile, **Énéide**, I, XI, 151

بودا- سلوكًا نبيلًا جدًّا بَدَرَ عن أحد المحاربين، وهو رجلٌ امتدحه المادحون لسلوكه، ورثاه الناس لأنه قُتل في تلك المعركة، غير أنه بقي لديهم مجهولًا لا يعرفه أحدٌ، واهتم لأمره خصوصًا نبيلٌ ألمانيٌّ يُدعى رايسياك، أثارت شجاعة الرجل إعجابه. اقترب النبيل من الجسد المسجّى الذي أتوه به، فأزاح عن وجهه الخوذة ليرى وجهه، فإذا به يتَعَرَّفُ فيه على ابنَه.

8. ارتجَّ الحضور لمرأى الشاب القتيل، أما والده فلم يَنْبس ببِنت شفة، بل استقام واقفًا وظل يتأمل في حزنٍ جسد ابنه، حتى بلغ الحزن منه مبلغه وجاوزت أمواجُه أبراجَ روحه، واعتصرت قواه، حتى استنفدتها فوقع بقرب ابنه صريعًا.

«لم يعرفْ ما الصبابة من يستطيع وصف صبابته»[(1)].

كما يقول العاشقون لوصف حبٍ قويٍ جارفٍ:

«ما أشدَ تعاستي
وقد فقدت حواسي جميعًا!
لأني ما إن رأيتك
يا ليسْبيا *[(2)]، حتى فقدت صوابي
وانعقد لساني
واتّقدت أطرافي نارًا
وطنّت مني الأذنان
وغشِي ظلام الليل عيني»[(3)].

9. ومن ثَمَّ فإن اللحظة التي يكون فيها الحماس بالغًا مداه، ليست هي خير لحظةٍ نستطيع فيها إسماع شكوانا واستعمال قوة الإقناع لدينا؛ لأن الروح تكون حينئذٍ مثقلةً بأفكارٍ عميقةٍ، والجسد متهالكًا قد أنهكه الحب.

(1) Pétrarque, **Canzoniere**, CLXX, 14.

(2) * ليسبيا هو الاسم المستعار لمحبوبة الشاعر الروماني جايوس فاليريوس كاتولوس (84 ق.م – 54 ق.م) وهو صاحب الأبيات.

(3) Catulle, **Poésies**, LI,2.

10. من هنا يأتي أحيانًا ذلك الشعور المفاجئ بالضّعف، الذي يأخذ المحبين على حين غرة، أي ذلك الشعور بالصقيع الذي يكتنفهما فجأةً من أثر الحماس المفرط، فيفسد عليهما لذتهما نفسَها. ما من عشقٍ يتيح لصاحبه استساغته والالتذاذ به إلا وهو عشقٌ ناقصٌ.

«الأحزان الصغيرة ناطقة، أما الكبير الجليل منها فصامِتٌ لا ينطق»[1].

وقُلْ مثل ذلك في اللذة غير المتوقعَّة، التي تأخذ الروح على حين غِرَّةٍ فتجعلها ترتجُّ وتضطرب.

«ما إن رأتني ورأت جيوش طروادة
حتى فقدت صوابها وبدت وكأنها تهذي
وبعينين جامدتين ووجهٍ ممتقعٍ، وقعت مغشيًا عليها
فلم تستعِدْ صوتها إلا بعدئذٍ بوقتٍ»[2].

11. وهناك أيضًا تلك السيدة الرومانية، التي ماتت مصعوقةً من الدهشة وهي ترى ابنها يعود سالمًا من معركة كاناي، وسوفوكليس وديونيسيوس الطاغية اللذين ماتا ارتياحًا، وتالْفا الذي سقط ميتًا في كورسيكا حين بلغه خبر التكريم الذي خصه به مجلس شيوخ روما، وحتى في زمننا هذا، فإن البابا ليو العاشر يوم جاءه نبأ سقوط ميلانو، التي كان ينتظر سقوطها بفارغ الصبر، بلغ منه الفرح مبلغًا جعله يصاب بالحمى ويموت من أثر ذلك، ولمن شاء شهادةً أبلغ عن الغباء البشري، أقول إن القدماء قد سجلوا منذ زمنٍ بعيدٍ أن ديودوروس الكرونوسي مات فجأةً؛ بسبب الخجل الشديد الذي أصابه بعد أن عجز -في مدرسته وأمام الناس- عن الرَّد على اعتراضٍ ساقه إليه بعضهم.

12. لستُ شخصيًّا ممن تَعرِضُ لهم مثل هذه الانفعالات العنيفة الجامحة؛ فأنا لست ذا طبعٍ حساسٍ، كما أني أزيد كل يومٍ من سُمك دِرْعي عن طريق التفكير المنطقي.

(1) Sénèque, **Hyppolite**, A II, sc. 3, 607.
(2) Virgile, **Énéide**, I, III, 306 sq.

الفصل الثالث

سُبُلنا في العيش تدوم بعدنا

1. إن الذين يلومون الناس على اللهْث وراء المستقبل، داعين إيانا إلى الاستمتاع بالحاضر والعيش فيه لأننا لا نملك سلطة على المستقبل ناهيك عن الماضي، إنما يشيرون بالإصبع إلى أكثر الأخطاء البشرية انتشارًا وعمومًا بين الناس؛ فهم يجرؤون على إطلاق اسم الخطأ على ما تدفعنا إليه الطبيعة نفسُها سعيًا منها إلى تخليد صُنعها، حيث توحي إلينا بهذه الفكرة الخطأ وكثير من أمثالها، غير مهتمةٍ في ذلك بمعارفنا قدْر اهتمامها بما نأتيه من أفعالٍ تأثُّرًا بما توحي إلينا به.

2. نحن لا نعيش أبدًا في أماكننا بل نعيش دومًا في ما وراءها، إن الخوف والرغبة والأمل تحدونا جميعُها إلى الارتماء نحو المستقبل، فتُعمي بذلك أعيُنَنا عما هو كائن؛ كي تلهينا عما سيكون؛ حتى بعد ألا نبقى على قيْد الحياة.

«ويلٌ لعقلٍ مهمومٍ بِغدٍ»[1].

كثيرًا ما نصادف هذا المبدأ لدى أفلاطون: «**افعلْ ما عليك فعله واعرفْ نفسك**»[2]. كل واحدةٍ من هاتين اللفظتين تشمل كلَّ ما علينا فعله، كما أنها تشمل اللفظةَ الأخرى أيضًا.

3. إن من عليه الاهتمام بشؤونه الخاصة سيرى أن أولَ ما ينبغي له فِعلُهُ أن يعرفَ من يكون هو وما هو خاصٌّ به، ومن يعرف من يكون لن يعتبر بعدئذٍ أن ما لغيره هو له؛ إذ سوف يحب نفسه ويعتني بها أولًا، ويرفض المشاغل الزائدة، والأفكار والآراء غير النافعة، وإذا كان الحُمقُ لا يكتفي بأن يُعطَى ما يطالِب به، فإن الحكمة تقنع بما لديها ولا يخيب ظنها في نفسها أبدًا، والحكيم عند إبيقوروس لا يحتاج إلى أن يحتاط ولا أن ينشغل بالمستقبل[3].

---

(1) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, 98.

(2) هذا المبدأ مُستقى من تيمايوس، آخر محاورات أفلاطون.

(3) Cicéron, **Tusculanes**, III, XV, 32.

الخضوعُ والتقْدير

4. يبدو لي أن من بين أهم القواعد التي تخص الموتى تلك القاعدة القائلة، إنه ليس على المرْء الحكْم على أعمال الأمراء إلا بعد وفاتهم؛ ذلك أنهم إن لم يكونوا أسياد القوانين فهم على الأقل رفاقٌ وأندادٌ لها؛ ولذلك فما عجز القضاء عن تحميلهم وِزْرَه في حياتهم، فلا بأس من تحميله لسمعتهم من بعدهم، وكذا لممتلكات ورثتهم، والممتلكات كما نعلم أحب إلى الناس من الحياة نفسها، إنها عادةٌ مناسبةٌ جدًّا للأمم التي تتَّبعها، ومرغوبٌ فيها لكل الأمراء الذين يشتكون من كون ذكرى الأشرار تلقى العناية ذاتها التي تلقاها ذكراهم، ونحن ندين بالطاعة والخضوع للملوك جميعِهم على قدم المساواة؛ لأن ذلك يدخل في صميم مسؤولياتهم، أما التقدير مثله مثل التعاطف، فلا ندين به إلا لقيمتهم ذاتها لا لوظيفتهم.

5. لا بأس من أن نتحملهم بصبرٍ في ما هو سياسيٌّ، حتى وإن لم يكونوا أهلًا لذلك، وأن ندعَم أعمالهم التافهة ما دامت سلطتهم تطلب دعمنا، لكن متى انقطعت صلاتنا بهم لا يبقى لدينا سببٌ لأن نضِنَّ على القضاء، ولا على حريتنا بالتعبير عن عواطفنا الحقيقية، أضفْ إلى ذلك على الخصوص أن حرمان الرعايا الطيبين المطيعين من المجد الذي حققوه بخدمتهم ووفائهم لسيدٍ يعرفون نقائصه خير المعرفة، فيه حرمانٌ للأجيال التالية منهم من الاطلاع على مثالٍ ما أفيَدَه لهم!

6. أما الذين يدفعهم احترامهم لالتزامٍ خاصٍّ إلى أن يستمروا بغباءٍ في إحياء ذكرى أميرٍ يستحق اللوم لا المديح، فإنهم يضعون مصلحةً خاصةً أمام الصالح العام، وقد كان تيتوس ليفيوس*[1] محقًّا حين قال: «إن خطاب الناس الذين تربَّوا في الممالك يظل على الدوام مليئًا بالتباهي والرياء الفارغ والأحكام غير المأمونة؛ لأن ما منهم أحدٌ إلا وتجده يرفع ملِكه، أيًّا كان هذا الملك، إلى أعلى مقامٍ يتأتَّى لملِكٍ أن يدركه».

(1) *المؤرخ الروماني تيتوس ليفيوس (59/64 ق.م - 17/12 م).

7. يمكن ألَّا نقبل بعزة النفس التي أبدى عنها هذان الجنديان اللذان تجرآ على أن يواجها نيرون بعيوبه. فأما الأول الذي سأله الطاغية لماذا أراد به سوءًا، أجاب قائلًا: «لقد كنت أحبك طالما كنت جديرًا بهذا الحب، أما وقد أصبحتَ قاتلًا لأمك، مضرمًا للنيران، مهرّجًا، قائدًا لعربات الحرب، فقد صرتُ أكرهك كما تستحق».

8. وأما الثاني، فلما سأله نيرون: «لماذا أردت قتلي؟»، أجابه: «لأني لم أجد غيرَ القتلِ دواءً لشرورك المتوالية».

بيْد أن الشهادات الشعبية والعالمية على جبروته وطغيانه الكريه جاءت بعد موته، بما لا يدعُ مجالًا لأن يرُدَّها عاقلٌ لبيبٌ.

9. لستُ أقبل الجمعَ بين حكومةٍ نبيلةٍ نُبل حكومة إسْبَرطة وبين احتفالٍ مصطنعٍ، كذاك الذي كان يقام عند موت ملكٍ من ملوكهم؛ إذ كانت كل الشعوب الحليفة والجارة، وكل جنود الجيش الإسبرطي، وكذا الرجال والنساء جميعًا، يجرحون جباههم بالسكاكين علامة على الحداد، وبين آهةٍ وأخرى وصرخةٍ وأخرى، كنتَ تسمعهم يردّدون أن الملك الراحل كان أفضل الملوك قاطِبَةً، حتى وإن لم يكن كذلك على وجه الحقيقة، كانوا بفعلهم هذا يمنحون لمكانة الشخص في المجتمع ما كان يليقُ بهم منحه لخصاله، فيرْمون بالاستحقاق الحقيقي إلى المكان الأخير.

10. تساءل أرسطو -الذي كان يتساءل عن كل شيءٍ- عن قول سولون إننا لا يمكننا الحكم على أحدٍ بأنه سعيدٌ إلا بعد موته. هل الرجل الذي عاش ومات حسب القواعد يمكن أن يُقال عنه بعد موته إنه كان سعيدًا، إنْ هو خلَّف من ورائه ذكرًا سيئًا وذريةً خاملةً.

11. إن بمقدورنا، ما دمنا أحياءً، أن نلقي بخيالنا وتفكيرنا إلى حيث شئنا من الزمان والمكان، غير أننا حين نكف عن العيش نفقد الصلة بما هو كائنٌ، ألم يكن من الأجدر إذًا أن يقال لسولون إن الإنسان لا يمكنه أن

يكون سعيدًا أبدًا ما دام لا يتأتّى له ذلك إلا متى لم يعد كائنًا؟

«نحن لا تُنزع جذورُنا من الحياة
بل إننا نفترض -حتى عن غير علمٍ منها-
أننا نترك شيئًا منا خلفنا
فلسنا نتميز عن الجثة المسجّاة هناك»[1].

12. مات بيرتراند دو غيكلان أثناء حصار راندون، قرب لو بّوي في إقليم أوفيرني، فلما استسلم أهل المدينة بعد ذلك بقليلٍ أجبرهم المنتصرون على حمل مفاتيح المدينة فوق جثة النبيل القتيل، ومات بارتولوميو دالفيانو، وهو جنرالٌ في جيش مدينة البندقية، أثناء الحرب في بريسيا، وحُمل جثمانه إلى البندقية عبر بلاد فيرونا في أرض العدو، وقد كان أغلب الجنود موافقين على طلب إذنٍ بالمرور من جيش فيرونا، لكن تيودور تريفولتسيو كان له رأيٌ آخر؛ إذ فضّل المرور اقتحامًا دون إذْن، مستعدًا في سبيل ذلك لخوض معركة إن لزم الأمر؛ وذلك لأنه كما قال لهم لا يرى من اللائق برجلٍ لم يخشَ العدو قيْد حياته أن يبدوَ خائفًا منه بعد موته.

13. وفي الحقيقة، وفي موضوعٍ مقاربٍ، نقول إن القوانين اليونانية كانت تحكم بالهزيمة على من يطلب من العدو أن يعيد إليه جثمانًا ليدفنه، فلا يكون له الحق في تشييد بناء يخلد به ذكرى نصره؛ لأن النصر يكون حينئذٍ من نصيب الآخر، بهذه الطريقة فقد نيكياس الامتياز الكبير الذي كان قد حازه ضد الكورنْثيين، وبعكسها قوَّى أجيسيلاوس من امتيازه ضد البيوتيويين.

14. كانت هذه الجوانب من المسألة ستبدو غريبةً كل الغرابة، لولا أننا معشر البشر اعتدنا منذ الأزل، ليس فحسب أن نمُدَّ أطراف العناية بأنفسنا إلى ما وراء نهاية حياتنا؛ بل وكذلك أن نعتقد بأن العناية السماوية كثيرًا ما ترافقنا إلى القبر، لا بل وتحيط أيضًا ببقايانا،

(1) Lucrèce, **De la Nature**, III, 890 sq.

والأمثلة في الماضي -ناهيك عنها في زمننا- من الكثرة بما يغنيني عن تقديم المزيد منها هاهُنا.

15. لاحظ إدوارد الأول، ملك إنجلترا، أثناء الحروب الطويلة التي خاضها ضد روبرت ملك أسكتلندا، أن حضوره أثناء معركةٍ من المعارك كان على الدوام مصحوبًا بانتصارٍ، فصار يجعل الفضل في النصر راجعًا إلى حضوره الشخصيّ، فلما حضرته الوفاة أخذ على ابنه عهدًا قاطعًا أمام الشهود بأن يَغلِيَ جثمانه بعد موته حتى يفصل اللحم عن العظام، وأن يدفن اللحم ويحفظ العظام ليحملها معه كلما قاد معركة ضد الإسكتلنديين، فكأن القدر قد رَبَطَ النصرَ بأعضاء جسمه ربطًا لا يَنفَصِم!

16. طلب يان جيجكا الذي زرع الكثير من الفتن في بوهيميا دعمًا منه لأفكار جون ويكليف الخطأ، أن يسلخوا عنه جلده بعد موته، ويصنعوا منه طبلًا يضربون عليه كلما خاضوا حربًا ضد أحد أعدائه، كان الرجل يعتقد أن ذلك سيساعد في إدامة النصر الذي كان يحرزه على الأعداء كلما قاد جيشه بنفسه، وكذلك كان يفعل بعض هنود أمريكا؛ إذ يرفعون في وجوه الجنود الإسبان عظام جدٍّ من أجدادهم كان محظوظًا في المعارك قيْد حياته. وكثيرٌ من الشعوب في هذا العالم يحملون معهم إلى المعركة أجساد رجالٍ شجعانٍ ماتوا أثناء القتال، مُعتقدين أن وجود تلك الأجساد معهم سيَكُون لهم فألَ خيرٍ ودعمًا وسَنَدًا.

17. رأينا كيف أن الأمثلة الأولى كانت تكتفي بربط القبر بالسُّمعة التي اكتسبها بعض الناس بفضل ما مضى لهم من أعمالٍ، لكن الأمثلة الأخيرة زادت على ذلك، بأن شاءت أن تجعل للرُّفات كذلك قدرةً على الفعل، أما القبطان بايار فقد كان أكثر اتزانًا؛ إذ أصابه سهمٌ خلال المعركة إصابةً قاتلةً، فنصحه أصحابه بأن ينسحب من المعْمعة، لكنه رفض قائلًا إنه لن يدير ظهره للعدو، وهو اليوم يُحتَضَر، فهذاما لم

يفعله قطُّ طوال حياته، ثم واصل القتال، حتى إذا سرى الضعف في جسده، ولم يعد ثابتًا على ظهر حصانه، وشعر أن نهايته أوشكت، أوحى إلى رئيس خدمه بأن يُضجِعَه إلى جذع شجرة على أن يجعل وجهه في مواجهة العدو، وكذلك كان.

18. سأضيف هنا مثالًا آخر يبدو لي أنه ليس أقلَّ في وجهة نظري من أيٍّ من سابقيه، كان الإمبراطور ماكسيمليانوس -جَدُّ الملك فيليب الحالي- أميرًا ذا مزايا عديدةٍ، من بينها أنه كان في غاية الوسامة، بيْد أنه كان يتَّبع عادةً مناقضةً لما عُرف عن الأمراء من لجوئهم -متى تَعَيَّن النظر في شأنٍ مهمٍ طارئٍ- إلى استعمال كرسيٍّ مثقوبٍ عرشًا يجلسون عليه للنظر في الشأن الهام وقضاء حاجتهم إن هي أدركتهم؛ ذلك أنه لم يتخذ قطُّ وصيفًا قريبًا منه قُربًا يتيح له أن يدخل عليه مخدعه[1]، كان يختبئ إذا أراد التَبَوُّلَ، حريصًا حرص العذراء على ألَّا يرى منه طبيب ولا غيره من الناس ما جرت العادة بإخفائه.

الحياء

19. رغم الوقاحة التي تَراني أتحدث بها، إلا أني محتشمٌ بطبيعتي، وعَدا أن تجبرني الضرورة على ذلك أو أن يجرّني إليه الانسياق خلف الشهوة، فإني لا أكشف لأحدٍ عضوًا مني ولا عمَلًا مما تفرض علينا تقاليدنا إخفاءه، فأنا أجد في الكشف عنها من الحرج ما لست أراه لائقًا برجلٍ، وخصوصًا بمن يحترف حرفتي.

20. وعودةً بنا إلى الإمبراطور، فقد وصل به هَوَسُه بالحياء إلى أن أمر في وصيته بأن يُلبسوه عند الوفاة تُبَّانًا قبل دفنه، ولعله كان يجدر به أن يضيف بندًا في الوصية يأمر فيه أن يكون من يقوم بإلباسه التُّبَّان معصوبَ العينين!

(1) كان للمخدع أيضًا مكانًا يوضع فيه الكرسي للثقوب وهو ما يعادل مراحيضنا اليوم، ونلاحظ أن مونتيني يرى أن هناك مبالغةً في الاحتشام في امتناع الإمبراطور عن كشف نفسه لوصيفه، والحق أن الناس في ذلك الزمن لم يكونوا يرون في قضاء الحاجة شيئًا يتعين الانفراد لفعله.

21. أما وصية كورش لأبنائه بألّا يدَعوا أحدًا يرى جثمانه بعد وفاته أو يلمسه، فلا أظنها إلا راجعةً إلى نوعٍ من التقوى، فمعلومٌ أنه ومؤرِّخَه[1] كانا يوصفان -من بين خصالٍ عديدةٍ أخرى- طيلة حياتهما بالعناية الشديدة الكبيرة بالدين واحترامه.

22. أزعجني ما رواه لي شخصٌ ذو مكانةٍ عن أحد أقربائي، وهو رجلٌ معروفٌ وقتَ السِّلمِ ووقتَ الحربِ معًا، فقد أبلغني أن الرجل -وهو شيخٌ يُحتضر، يعتصره الألم من كُليتيه المصابتين- قضى في ما يبدو آخر ساعات حياته في تنظيم حفل جنازته، فقد طلب من كل النبلاء الذين جاؤوا يَعُودونه في مرضه، أن يعِدوه بحضور الجنازة، وكتب إلى النبيل الذي نقل إليَّ الكلام والذي حضر وفاتَه، يضرَعُ إليه أن يُجبِرَ خاصَّته جميعًا بحضورها، مُدلِيًا في ذلك بأمثلةٍ وحُججٍ متنوعةٍ، يريد بها إقامةَ الدليل على أن رجلًا مثلَه يستحق ذلك التكريم، ويبدو أنه مات راضيًا بعد أن وعدوه بما شاء، وبعد أن نظم حفل جنازته كما حَلا له، وذلك لعمْري غرورٌ عنيدٌ لم أَرَ له مثيلًا.

23. هناك نوعٌ آخر من العناية الخاصة أملك له أمثلةً كثيرةً بين معارفي، يبدو لي أقرب ما يكون لسابقه، وأعني أن يهتمَ المرء وينشغل في آخر ساعات حياته بتنظيم جنازته بتقتيرٍ زائدٍ، يجعل الجنازة تنعقد بخادمٍ واحدٍ يحمل مصباحًا، وأرى الناس تمتدح هذا الموقف، كما تمتدح وصية ماركوس أيميليوس ليبيدوس لورثته[2]، بألاَّ ينظموا له تأبينًا ولا جنازةً مما تجري به العادة في مثل تلك الظروف.

24. هل من قَبيل الزهد والتقشف فعلًا أن يتفادى المرء المصاريف والملاذَّ التي يظل بلوغها ومعرفتها بعيدًا عن متناوله؟ ما أيسره وما أرخصه إذًا مِن بَدَل! ولو تعيَّنَ التشريع لأمرٍ كهذا لكان رأيي أن كل إنسانٍ -في مثل هذه الظروف كما في غيرها من مواقف الحيا - إنما يتبنى قاعدةً للسلوك تتناسب مع ظروفه، وها هو الفيلسوف ليقون يوصي

(1) يتعلق الأمر بهيرودوتس.

(2) Tite-Live, XLVII.

أصدقاءه بكل حكمةٍ بأن يدفنوا جثمانه حيث بدا لهم أن يفعلوا، وأن يكونوا معتدلين في جنازته، فلا يسرفوا فيها فيجعلوها باذخةً كل البذخ، ولا يُقتِّروا فيها تقتيرًا.

25. سأترك الناس ينظمون جنازتي حسب ما جرت عليه التقاليد، وأتوكّل على بصيرة من ستقع عليهم قبل غيرهم مسؤولية تجهيزي للدفن. «**إنها عناية يجدر بالمرء ألّا يلتفت إليها، فيما لا يليق بذويه أن يهملوها**»[1]. وما أحسن قول القديس: «**إن العناية بالجنازة والدفن والمأتم هي كلها عزاءٌ للأحياء أكثر مما هي نجدةٌ وعونٌ للموتى**»[2].

أما سقراط، فحين سأله كريتون كيف يريد أن يُدفن، أجاب بكل بساطة: «كما تشاؤون».

26. لو كان لي أن أهتم للأمر أكثر من هذا لكان من الأَلْيَق في نظري أن أتشبَّه بأولئك الذين يبتّنون لأنفسهم قبرًا فخمًا وهم أحياء، فيستمتعون برؤية اسمهم مخلدًا محفورًا على الرخام، فطوبَى لمن يعرف كيف يُرضي أحاسيسه، ويُشبعها بانعدام الإحساس! وكيف يعيش موته وهو لا يزال حيًّا يُرزق!

27. أكاد أشعر بمقْتٍ لا ينطفئ إزاء كل شكلٍ من أشكال الهيمنة الشعبية، رغم أنها تبدو لي أكثر أنواع السلطة عدلًا وقربًا من الطبيعة، حين أتذكر الظلم الفظيع الذي ارتكبه شعب أثينا يوم قرر إعدام قادته العسكريين الكبار دون رحمةٍ، وحتى دون إعطائهم الفرصة للدفاع عن أنفسهم. ومعلومٌ أن هؤلاء القادة كانوا قد حققوا لتوِّهم النصر ضد الإسبرطيين في معركة جزر أرجينوس، وهي أكبر وأشْرس معركةٍ خاضها اليونانيون في البحر بقواتهم الخاصة. وما حصل هو أن أولئك القادة، بعد انتصارهم على العدو، فضلوا الاستفادة من الفرص التي توفرها لهم قوانين الحرب عِوضًا عن أن يتوقفوا لجمع جثث قتلاهم ودفنها، وما

---

(1) Cicéron, **Tusculanes,** I, 45.

(2) Saint Augustin, **La Cité de Dieu,** I, 12.

يجعل ذلك الإعدام أكثر فظاعةً هو حالة القائد ديوميدونوس.

28. كان هذا الرجل من بين المحكوم عليهم بالإعدام، وهو رجلٌ نبيلٌ وقائدٌ عسكريٌّ وسياسيٌّ كبيرٌ، فبعد أن استمع إلى قرار الإعدام، وجد فرصة للكلام فتقدم ليتكلم، لكنه عِوضًا عن اغتنام الفرصة للدفاع عن نفسه، وإقامة الدليل على الظلم البيّن الذي انطوَى عليه ذلك الحكم القاسي، عبَّر فقط عن انشغاله بأمر أولئك الذين أدانوه، ضارعًا إلى الآلهة أن تجعل ذلك الحكم في ميزان حسناتهم، ثم أخبرهم عن النُّذور التي نَذَرَها ورفاقَه لشكر الآلهة على الحظِّ العجيب الذي آتهم إياه في المعركة، مذكِّرًا إياهم بضرورة الوفاء بتلك النذور تلافِيًا لغضب السماء، بعد ذل -ودون أن يضيف كلمةً أخرى- سار مرفوعَ الرأس إلى حتْفِه.

29. وقد ردَّ القدرُ الصاعَ صاعين للأثينيين بعد ذلك ببضع سنين؛ ذلك أن الأميرال الأثيني خابرياس، وبعد انتصاره على بولّيس أمير الإسبرطيين في جزيرة ناكسوس[1]، أضاع على نفسه ثمار النصر في تلك المعركة الحاسمة خوفًا من أن يلقى مصير القادة الذين تحدثنا عنهم في المثال السابق؛ فقد انشغل بالتقاط بضع جثثٍ لأعدائه كانت طافيةً في البحر، فترك الكثير منهم ينجون أحياءً، وسيجعله هؤلاء في ما بعد يدفع غاليًا ثمن ذلك التَّطَيُّر الوخيم.

«هل تريد أن تعرف أين ستكون بعد الموت؟
حيث يوجد أولئك الذين لم يولدوا بعد»[2].

هنا نجد أن الإحساس بالراحة منسوب إلى جسدٍ لا روح فيه.

«ألا يكون له قبرٌ يثْويه
ولا محملٌ حتى يستطيع جسمه -وقد أُنيخَ عنه وزر العيش-
أن يستريح في منأًى عن الآلام»[3].

(1) حدثت هذا المعركة، حسب ديودوروس الصقلي (15-9)، في سنة 376 قبل الميلاد.

(2) Sénèque, **Les Troyennes**, II, 30.

(3) Cicéron, **Tusculanes**, I, 44.

30. لكنْ صحيحٌ أن الطبيعة ترينا كيف أن من الأشياء الميتة ما يظل مرتبطًا بالحياة بوشائج خفيةٍ، فالنبيذ يتحول في الأقباء حسب الفصول التي يمر بها الكْرمُ الذي أنتجه، كما أن لحم الطرائد يغير من لونه ومذاقه في الممالِح تبعًا لقوانين اللحم الحيّ في ما يقال.

الفصل الرابع

كيف يتهجَّمون على مواضيعَ زائفةٍ عجزًا منهم عن تناول المواضيع الحقيقية

1. كان أحد أصدقائنا يعاني من داء النّقْرس، فأراد الأطباء أن يمنعوا عنه أكل اللحم المقدَّد، فأجابهم مازحًا إنه لا بد له من شيءٍ يلعنه وينسب إليه آلامه، وأنه حين يلعن طبق المخّ تارةً، واللسان أو لحم البقر أو لحم الخنزير تارةً أخرى، فإن ذلك يجعله يشعر ببعض الراحة، والحق أننا مثلما نشعر بألمٍ حين نريد أن نضرب بيدنا، لكن اليد لا تجد شيئًا تضربه، فكذلك على المنظر الطبيعي -لكي يكون جميلًا- ألَّا يدع البصر يتيه بعيدًا أو يتشتت، بل عليه أن يجعل شيئًا ما يعترضه ليوقفه ويحصره في مجالٍ معقولٍ.

«تمامًا كالريح إن لم توقفها
الغابات الكثيفة، تضيع في الفراغ»[1].

كذلك يبدو أن العقل باضطرابه الدائم وحركته الدَّؤُوبِ يمكن أن يتيه داخل نفسه، إن لم يُؤتَ شيئًا يستند إليه، ويمارس عليه نشاطه.

2. يقول بلوتارخوس عن أولئك الذين يُغرَمون بالقِرَدَة أو بالكلاب، إن الجزء العاشق فينا، إذ لا يجد لنفسه موضوعًا مشروعًا ينصَبُّ عليه، وخِيفَةَ أن يظلّ عاطلًا لا موضوعَ له، يصطنع لنفسه موضوعًا حتى ولو كان متهافِتًا لا معنى له، كما أننا نلاحظ أن العقل يخدع نفسه بنفسه في نَوازِعِه إذ يختلق لنفسه مواضيع خيالية لا تمَتُّ للواقع بِصِلَةٍ، كيْلا يبقى بلا موضوعٍ ينتصب ضده.

3. وكذلك ترى الغضب الأعمى يقود الحيوان إلى مهاجمة الحجر أو السهم الذي جرحه، منتقمًا لنفسه بأنيابه ممَّا سَبَّبَ له ألمًا.

«صارت الدُّبَّة أكثر هياجًا حين رماها
الليبيُّ بسهمه ذي الحزام الرفيع
تكوَّمت على جرحها، وبكل غضبٍ
حاولت أن تعض السهم الذي أصابها
مهاجِمةً النَّصلَ الذي راح يدور معها»[2].

(1) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, VI, 20.
(2) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, VI, 220.

4. ما أكثر ما نختلق الأسبابَ لِما يحُلُّ بنا من مصائب! وما أكثر ما نبحث عن حقٍّ أو عن باطلٍ، عن أهدافٍ نهاجمها، فقط ليكون لدينا شيءٌ نهاجمه! فلا الخصلاتُ الشقراء التي تنتِفُها، ولا بياض هذا الصدر الذي تلطِمُه في أَلَمِكَ بكل قسوةٍ، يُسألان عن مقتل ذلك الأخ المحبوب برصاصةٍ مشؤومةٍ، وليس عليهما ينبغي لك أن تَصُبَّ غضبك!

5. يقول تيتوس ليفيوس في معرِض حديثه عن الجيش الإسباني بعد مقتل أخوين كانا كبيرَيْ قادته: «**وصار الجميع حينئذٍ ينتحبون ويلطمون رؤوسهم**»[1]، وهذه عادةٌ جاريةٌ؛ فقد قال الفيلسوف بيون مُتَنَدِّرًا، وهو يتحدث عن ذلك الملك الذي كان ينتف شعر رأسه علامةً على الحِداد: «هل تُراه يحسَب أن في النتف تخفيفًا من الألم؟» ومن منا لم يَرَ لاعبَ قِمارٍ يمضغ من الخيبة أوراق لعبه، أو يبتلع مكعبًا من مكعبات النَّرد انتقامًا لما أضاعه من مالٍ؟

6. أمر خشايارشا*[2] بضرب البحر بالسوط وكتب كتاب تَحَدٍّ إلى جبل آثوس، أما كورش*[3] فَشَغَلَ جيشًا بكامله لأيام عديدة في الانتقام من نهر جيندوس؛ بسبب الخوف الذي اعتراه وهو يقطع النهر، وأما كاليغولا*[4] فأمر بهدم بيتٍ جميلٍ جدًّا؛ بسبب المتعة التي عاشتها أمه فيه[5].

7. كان الناس يرْوون في شبابي أن ملكًا من ملوك الأقاليم المجاورة، قرر أن ينتقم من الإله بعد أن تلقى منه عقابًا، فأصدر أمره إلى شعبه بأن ينقطع لمدة عشر سنين عن عبادته وذكره -بل وفي حدود ما كانت سلطة الملك تتيح له ذلك- حتى الإيمان به. وكان أهل بلدي يذكرون هذا لا

---

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXV, 37.

(2) *هو الملك الفارسي خشايارشا الأول (518 ق.م – 465 ق.م) المعروف باسم أحشويروش لدى اليهود، وزركسيس عند الإغريق.

(3) * هو الملك الفارسي كورش الكبير (600 ق.م تقريبًا – 530 ق.م).

(4) * الإمبراطور الروماني كاليغولا (12 م – 41 م).

(5) يعتقد بعض الناشرين المحدثين أن الأمر يتعلق بتصحيف؛ لأن أم الإمبراطور -حسب ما يذكره سينيكا- قد أبقيت فيه سجينة. غير أن نسخة 1588م، التي كانت لدى مونتيني، تشير بوضوحٍ الى أن الأمر يتعلق بالمتعة. فهل استقى ذلك من مصدرٍ آخر؟

ليُبَيِّنوا به غباء الأمة المذكورة بقدر ما كانوا يبيّنون به طبائع أفرادها المغرورين المنتفخين على هباءٍ، والحق أنهما عيبان متلازمان لا يتَّصِف إنسانٌ بأحدهما دون الآخر. غير أن مثل هذه المواقف يشي بالوقاحة أكثر مما يشي بالغباء.

8. تعرَّض أغسطس قيصر*[1] لعاصفةٍ بحْريةٍ بينما كان مُبحِرًا، فجعل يتحدى نبتون إله البحر، وأمر في حفلة افتتاح ألعاب السيرك أن تُنزَعَ صورة ذلك الإله من بين صور الآلهة الأخرى نِكايَةً به وانتقامًا منه، وهو بفعله هذا لا يُعذر إلا بأقل مما يُعذر سابقوه، وبأقل مما يُعذر به يوم بلغه خبر هزيمة كوينتيليوس فاروس*[2] في معركةٍ بالأراضي الألمانية؛ إذ جعل يلطم برأسه الحائط يأسًا وألمًا وهو يصرخ: «أعِد إليّ جنودي يا فاروس!». فالذين يؤاخذون الله نفسه أو يؤاخذون حتى القَدَر -وكأن للقدر آذانًا تسمع شكواهم- إنما يذهبون إلى أبعد من الجنون العادي؛ لأنهم يضيفون ضَعف التقوى إلى ما يفعلون.

9. وهكذا يفعل أهل تراقيا، الذين يسارعون، حين تُبرِق السماءُ أو تُرعِد، إلى السهام يطلقونها نحوها، وكأنهم بذلك يريدون أن يَرُدُّوا الله إلى الصواب، في موقفٍ انتقاميٍّ يليق بالعماليق، أو كما يقول بلوتارخوس نقلًا عن شاعرٍ قديمٍ:

«ليس لنا أن نغضب من الحوادث
فهي لا تهتم لغضبنا
لكننا لن نكون أبدًا صارمين بما يكفي ضد اختلال عقولنا».

(1) *هو أول أباطرة الرومان (63 ق.م - 14 م).
(2) *هو القائد والسياسي الروماني بوبليوس كوينتيليوس فاروس (46 ق.م - 9 م).

الفصل الخامس

هل ينبغي لقائدِ مدينةٍ مُحاصَرةٍ أن يخرج منها للتفاوض؟

1. أراد لوكيوس ماركيوس -ممثل البابا لدى الجيش الروماني- خلال الحرب ضد بيّرسيوس ملك مقدونيا، أن يربح الوقت الضروري لتنظيم جيشه، فتقدم باقتراحاتٍ بهدف التوصل إلى اتفاقٍ، وسقط الملك في الفخ فقبل الهدنة لأيامٍ، معطيًا بذلك لعدوه الفرصة والإمكانية لتنظيم جيشه وتسليحه ومتسببًا في استجلاب الهزيمة لنفسه.

2. استنكر الشيوخ القدامى -وهم يتذكرون تقاليد أجدادهم- هذا التصرف الذي بدا لهم مناقضًا لعاداتهم المتوارثة، التي كانت تقضي أن يحارب الجندي بشجاعته، لا بالحيلة، ولا بالمباغتة، ولا بالكمائن في الظلام، ولا بالكرّ والفرّ، وألّا يدخل الجيش في قتالٍ إلا بعد إعلان الحرب، وفي غالب الأحوال إلا بعد تحديد مكان المعركة وزمانها.

3. من هذا المنطلق أعادوا إلى بيروس الإبيري طبيبه الغادر المحتال[1]، وإلى الفالسكيين معلمهم المخادع[2]، كانت هذه هي الأشكال الرومانية الحقيقية، لا حيل اليونان ولا خداع البونيقيين، الذين يرون أن النصر المُحرَز بالقوة يجلب مجدًا أقل من النصر المحصَّل بالخداع.

4. يمكن للخداع أن يفيد في حينه، لكن لا يَعُدُّ نفسه منهزمًا إلا من انهزم لا بالغدر ولا بالحظ، بل بالقتال جيشًا لجيش في معركةٍ نزيهةٍ لا غدر فيها ولا احتيال، ويبدو جليًّا من كلام هؤلاء الناس المحترَمين أنهم لم يكونوا قد آمنوا بعد بالحكمة القائلة: «**الخديعة أو الشجاعة في مواجهة العدو، ما الفرق بينهما؟**»[3].

5. يقول بوليبيوس*[4] إن الآخيين كانوا يكرهون اللجوء إلى الخديعة في حروبهم، فلا يعُدُّون النصر نصرًا إلا متى لم تعدْ لدى العدو قدرةٌ على القتال.

---

(1) كان قد وعد الأعداء بأن يسمّم بيروس (ملك إيبروس باليونان).

(2) يروي تيتوس ليفيوس (5-27) أنه أخذ أطفال النبلاء الفالسكيين إلى الرومان ليسلمهم إليهم.

(3) Virgile, **Énéide**, I, II, v. 390.

(4) * مؤرخ وسياسي يوناني (200 ق.م تقريبًا – 118 ق.م تقريبًا).

«فليعلم الرجل الكريم الحكيم أن النصر الحقيقي هو الذي يُحرَز دون إخلالٍ بالشرف ولا بالمروءة»[1].

ويقول آخر:

«إن كان القدر قد أعدَّ العرش لي أو لك
فلتحكم الشجاعة بيننا في ذلك»[2].

6. جرت العادة عند أهل مملكة تيرنات، وهم من الأمم التي ما أسهل ما نسميها بربرية، ألَّا يدخلوا حربًا أبدًا إلا بعد إعلانها، بل ويضيفون كذلك كل التفاصيل المتعلقة بالوسائل التي ينْوون اعتمادها في تلك الحرب، من تعداد الجنود إلى ذخيرتهم وأسلحتهم الدفاعية والهجومية. غير أنهم بعد أن يفعلوا ذلك كانوا يبيحون لأنفسهم أن يستعملوا في حربهم -دون أن يخشوا في ذلك لَومَةَ لائمٍ- كل ما من شأنه أن يساعدهم على النصر.

7. كان سكان فلورنسا القدماء أبعد ما يكونون عن فكرة مباغتة العدو للانتصار عليه، حتى إنهم كانوا ينذرون أعداءهم شهرًا كاملًا قبل المعركة، ولا يكفون خلال ذلك الشهر عن قرع جرس يسمونه «مارتينيلا».

8. أما لدينا نحن، فلا نُبدي حرصًا كبيرًا بهذا الصدد، ونعطي مجد النصر لمن استفاد من المعركة، وصرنا نقول بعد ليساندروس*[3] إن جلد الأسد إذا كان لا يكفي فلا بأس في ترقيعه بقطعةٍ من جلد الثعلب؛ فإن فرص المباغتة الأكثر شيوعًا إنما تأتينا بفضل هذه العادة. كما أننا نقول إن القائد لا ينبغي له أن يكون أحدَّ بصرًا ولا أكثر حذرًا منه حين يخوض مفاوضة أو يعقد اتفاقًا، ولهذا السبب بالذات -كما سيؤكد لكم ذلك كل رجالات الحرب في زمننا- لا ينبغي أبدًا لحاكم مدينةٍ محاصَرةٍ أن يخرج بنفسه للتفاوض.

---

(1) Juste Lipse, **Politiques,** V, 17.

(2) Ennius, **De finibus,** in Cicéron, **de Officiis,** I, 12.

(3) * قائد الأسطول الإسبرطي، مات سنة 395 ق.م.

9. وقد وجه الناس اللوم على هذا -في أيام آبائنا- إلى حاكمي مونتمور وآسيني، اللذيْن كانا يدافعان عن موسون في مواجهة كونت ناسو، لكن قد يلتمس المرْء عذرًا لمن خرج في مثل هذه الحال متخذًا من الاحتياط ما يجعل الأمان والامتياز في جانبه، وهذا ما فعله في مدينة ريجي الكونت غيٌّ دو رانجون على ذمة جواشان دو بيليه؛ لأن فرانتشيسكو غويتشارديني يقول إنه هو مَن فعل يوم اقترب منه حاكم ليسكو ليتفاوض معه؛ إذ ابتعد بمسافةٍ قليلةٍ جدًا عن حصنه، فلما حدث اشتباكٌ أثناء المفاوضات لم يسفر ذلك فحسب عن مقتل أليسّاندرو تريفولتسيو، ولكن حاكم ليسكو نفسه وجد أنه في عددٍ قليل؛ فاضُطر لأن يتبع الكونت ليحتمي -بناءً على وعدٍ منه- داخل المدينة.

10. كان يومينيس*[1] مُحاصرًا في مدينة نورا من قبل أنتيغونوس*[2]، الذي ألح على خصمه كي يخرج إليه مفاوضًا، محتجًا بأن المسألة عادية، بحكم أنه (أنتيغونوس) كان الأعظم والأقوى، فما كان مِن يومينيس إلا أن أجابه قائلًا: «لن أعتبر أبدًا أن هناك من هو أعظم مني وأقوى، ما دام سيفي في يدي»، ولم يقبل بعرض خصمه إلا بعد أن سلم إليه هذا ابن أخيه بطليموس رهينةً كما طلب.

11. بيْد أنك تجد قادةً خرجوا من حصونهم فأفادهم الخروج بعد أن أعطاهم المحاصِر وعدًا بالأمان، وكذلك فعل هنري دو فو، وهو فارسٌ من شامبين، يوم حاصره الإنجليز في قلعة كوميرسي، فقد أمر بارتيليمي دو بون قائد الحصار، بهدم أساسات السور المحيط بالقلعة، حتى لم يبْق إلا أن يوقدوا تحتها نارًا لتنهار، ثم أرسل إلى عدوه يخبره بذلك ويطلب منه الخروج للتفاوض، وهو ما فعله هنري إذ خرج في ثلاثةٍ من أصحابه، فلما أراه العدو ما فعل بسور الحصن وأدرك أن النهاية وشيكةٌ، لم يملك إلا أن يبدي امتنانه لهذا الخصم النبيل ويضع نفسه رهن إرادته مع جيشه، بعد ذلك أوقدوا النيران تحت السور فاحترقت دعائمه الخشبية وانهار الحصن بأكمله.

(1) * قائد عسكري إغريقي، أعدم سنة 316 ق.م.
(2) * هو الملك المقدوني أنتيغونوس الأعور (382 ق.م – 301 ق.م).

12. أنا أثق بكل سهولةٍ ويُسرٍ بوعود الآخرين، لكني أجد في ذلك صعوبةً كلَّ الصعوبة، إذا كان ذلك سيجعلني أبدو كما لو أني أفعله يأسًا أو جبنًا، لا بحرّيةٍ وثقةٍ في إخلاص صاحب الوعد.

الفصل السادس

ساعة المفاوضات محفوفةٌ بالمخاطر

1. رأيت مؤخرًا، في جِواري بموسيدان، أن أولئك الذين أخرجهم جيشنا من ديارهم بالقوة كانوا يصرخون منددين بالغدر والخيانة؛ لأنهم أُخِذوا على حين غِرَّةٍ وتشتت جمعهم فيما كانت المفاوضات جاريةً للبحث عن اتفاقٍ، وفيما كانت المعاهدة السابقة ما زالت سارية المفعول، ولو أن ذلك حدث في زمن آخر فربما كان لاحتجاجاتهم نصيبٌ من الصحة والصواب، غير أن عاداتنا اليوم صارت -كما قلتُ آنفًا- بعيدةً عن القواعد التي يُحيلون عليها، فلم يعد ينبغي اليوم إيلاءُ الثقة لأحدٍ إلا بعد أن يوضَع الختم الأخير على نص الاتفاق، وحتى بعد ذلك يتعين التزام جانب الحيطة والحذر!

2. وعلى كلِّ حالٍ فقد كان دائمًا من قبيل المجازفة الاتكال على الجيش المنتصر لاحترام الوعد الذي قطعه قادته لمدينة سلَّمت إليهم نفسها بعد أن مالت إلى الصلح، وأخطر من ذلك ترك المجال مفتوحًا لجنود ذلك الجيش لدخول المدينة ما دامت القضية ساخنةً لم يهدأ أُوَارُها بعد.

بعد أن تعب الحاكم الروماني لوكيوس إيميليوس ريجيليوس[(1)*(2)] من إضاعة الوقت في محاولة اقتحام مدينة فوجا بالقوة؛ بسبب المقاومة الشديدة التي أبدى عنها سكان المدينة، أبرم مع السكان اتفاقًا يصبحون بموجبه معدودين ضمن أصدقاء الشعب الروماني، شريطةَ أن يفتحوا له أبواب مدينتهم ليدخلها كما يدخل أي مدينةٍ من مدن الاتحاد، دون أن يخشى أحد الطرفين من الآخر غدرًا، لكنه بعد أن دخل المدينة في موكبه مع جيشه مبالغةً منه في إظهار قوته، لم يتمكن -رغم كل جهوده- من التحكم في الجنود الذين عاثوا في المدينة فسادًا فخربوا ونهبوا جل بيوتها وأسواقها أمام عينيه، ذلك أن الطمع وحب الانتقام غَلَبا لدى هؤلاء الجنود على سلطة قائدهم، وأنسياهم ما كان له عليهم من طاعةٍ وانضباطٍ.

---

(1) * قائد عسكري روماني عاش في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد.

(2) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, 32.

3. كان كليومينس يقول: «إنك مهما تُلحِقْ بِعَدُوِّك من الضرر في الحرب، فإن ذلك الضرر ليس من قبيل العدالة بل هو يرتقي فوقها، سواءٌ أكانت عدالة الآلهة أم عدالة البشر» فبعد أن أبرم معاهدة هدنة لسبعة أيامٍ مع الآرجيين؛ إذ به يهاجمهم في الليلة الثالثة من الهدنة وهم نيامٌ، فهزمهم وشتت جمعهم، بدعوى أن الهدنة كانت بحسب نصها تشمل الأيام لا الليالي، غير أن الآلهة لم تلبث أن عاقبته على هذا الفعل الشنيع الغادر.

4. في أثناء المفاوضات -وفي حين كان سكان مدينة كاسيلينوم يتناقشون في الضمانات التي يريدون الحصول عليها- دخل الأعداء المدينة فجأةً عن طريق المباغتة، وقد جرى ذلك للعلم، في زمن أكثر القادة العسكريين عدالةً، وأعلى مراتب الفن العسكري الروماني مكانةً، ذلك أنه ليس من المسلَّم به أن المرء لا ينبغي له أن يستفيد من غباء خصومه بقدر ما يستفيد من جبنهم، ومعلوم أن للحرب امتيازات أكثر «معقولية» من العقل نفسه، هنا لا يبقى مكانٌ للقاعدة القائلة[1]: «لا ينبغي لأحدٍ أن يحاول استغلال جهلِ غيره». غير أني أستغرب تَوَسُّعَ كسينوفون في تلك الامتيازات بالقول وبالإنجازات المختلفة لمن يسميه «إمبراطوره الكامل»، وهو الرجل الكاتب المميَّز الذي جمع بين القيادة العسكرية والفلسفة، بحكم أنه كان من أوائل تلامذة سقراط، وأنا لا أوافقه رأيه دائمًا في ما يراه مباحًا.

5. بينما كان السيد دوبيني يحاصر كابو بعد قصفٍ طويلٍ مدمّرٍ، صَعد السيد فابريس كولون -القائد العسكري للمدينة- إلى أعلى أحد الأبراج للتفاوض، فرآه جنوده فتراخوْا بعض الشيء في الدفاع، فما كان من جنُدنا إلا أن اغتنموا الفرصة ليدخلوا المدينة ويُمعِنوا فيها نهبًا وتخريبًا[2]، وأقرب إلينا زمنًا نجد أن السيد جوليان روميرو -حاكم إيفوي- خرج في خطوةٍ غير محسوبة العواقب ليفاوض قائد القوة المحاصرة، فلما عاد وجد أن العدو استباح مدينته واحتلها.

(1) Cicéron, **De Officiis**, III, 17.

(2) Guichardi, **Histoire d'Italie**, V, 2.

6. لكن هذا في المقابل ما وقع لماركيز مدينة بسكارا*[1] عند حصاره لجنوة[2]، التي كان يحكمها الدوق أوكتافيان فريجوزي تحت حمايتنا، فبعد أن قطع الطرفان شوطًا طويلًا في التفاوض حتى بدا وكأن الاتفاق قد أُرسِيَ وحتى حان وقتُ إبرامه، فإذا بالإسبان يتسلّلون إلى المدينة ويَجوسُون في دروبها وكأنهم في مدينةٍ احتلوها بقوة السلاح، ثم هاكَ ما وقع بعد ذلك في ليني-أون-بارروا، التي كان يحكمها الكونت دو بريان؛ إذ كان الإمبراطور يقود الحصار بنفسه، فقد خرج بيرتْوي نائب الكونت للتفاوض مع المحاصِرين، فإذا بالمدينة تؤخذ بالمباغتة في أثناء تلك المفاوضات.

«النصر على الدوام خليقٌ بالمديح
سواءٌ أجاءَ بالنصرِ الحظُّ أم المهارة، في ما يقال»[3].

7. أما الفيلسوف خريسيبّوس فما كان ليوافق على هذا الرأي، وما كنت أنا أيضًا لأوافق عليه؛ فقد كان يقول إن للمتنافسين في سباق العدْوِ أن يبذلوا كل ما في وسعهم للفوز، إلا أنه لا يحق للواحد منهم أن يمسك بخصمه ليعوقه عن الجرْي، ولا أن يمدَّ ساقه أمامه ليُسقطه. وأنبل من هذا موقف الإسكندر الأكبر حين نصحه بوليبيرخون باغتنام الظلام ليباغت داريوش بالهجوم، فأجابه: «كلا، لست ممن يسعون إلى نصرٍ مسروقٍ»، «لَأَنْ أشتكي من سوء الحظ خيرًا لي من أن أحمَرَّ خجلًا من انتصاري»[4].

«لم يرضَ بأن يضرب «أورود» في فراره
ولا أن يصيبه بسهم لا يراه الرجل متجهًا نحوه
بل سار إليه يجري، وواجهه مواجهة الرجال للرجال
وهاجمه وجهًا لوجه؛ لأنه لا يريد أن يكون الأفضل
بفعل المباغتة، بل بقوة السلاح»[5].

---

(1) * وهو فرناندو فرانتشيسكو دافالوس.

(2) Guichardin, **Histoire d'Italie,** XIV 5.

(3) L'Arioste, **Orlando Furioso,** XVI, 1.

(4) Quinte-Curce, **Histoire d'Alexandre le Grand,** IV, 13.

(5) Virgile, **Énéide,** I, X, 732.

الفصل السابع

إنما الأعمالُ بالنيَّات

1. يقولون إن الموت يجعلنا في حِلٍّ من كل التزاماتنا، غير أني أعرف أناسًا كان لهم في الأمر رأيٌ آخر، فقد اتفق هنري السابع ملك إنجلترا مع دوم فيليب ابن الإمبراطور ماكسيميليانوس -أو أبو الإمبراطور كارلوس الخامس، إن شئنا له تعظيمًا- على ما يلي: يدفع فيليب إلى الملك الدوق سوفّولك دو لاروز بلانش، عدوّه الذي كان قد فرّ منه والتجأ إلى بلاد الأراضي المنخفضة، على أن يعده هنري بألّا يعتدي على حياة الدوق، وكذلك كان، غير أن الملك حين شعر باقتراب أجله أمر ابنه بوصيةٍ مكتوبةٍ بأن يعدم الدوق حال مفارقته هو الحياة.

2. ومؤخرًا، في غمار تلك المأساة التي أرانا إياها دوق ألب في بروكسل، بخصوص الكونت دو هورن والكونت ديغمون، حدثت أشياءُ رائعةٌ فعلًا، من بينها أن الكونت ديغمون المذكور، الذي جاء الكونت دو هورن بناءً على وعدٍ منه بالأمان ليسلم نفسه إلى دوق ألب، حين رأى في هذا الأخير نيَّة الغدرِ بصاحبه، طالب بإلحاح بأن يُعدموه أولًا؛ حتى يكون في حِلٍّ من العهد الذي قطعه لصاحبه على نفسه، هكذا يبدو أن الموت لم يجعل الملك هنري متحرّرًا من التزامه، في حين كان الكونت ديغمون في حِلٍّ من وعدٍ لم يستطع الوفاء به، حتى ولو لم يمتْ في سبيل ذلك.

3. لا يُعقل أن نؤاخذ على عدم الوفاء بعهدٍ يقتضي الوفاء به ما يتجاوز قدراتنا وإمكاناتنا؛ وذلك لأن الحوادث والأعمال مستقلةٌ عنا، وأن كل ما باستطاعتنا هو الإرادة، التي على أساسها تقوم وتنبني بالضرورة كل القواعد الخاصة بواجبات الإنسان، وبذلك فإن الكونت ديغمون -الذي أبقى عقله وإرادته ملتزمين بالوعد الذي قطعه على نفسه لصديقه فيما هو لا يملك الوفاء بذلك العهد- كان في واقع الأمر في حِلٍّ من وعده حتى ولو أنه بقي حيًّا بعد الكونت دو هورن. أما ملك إنجلترا، الذي نكث عهده بكامل إرادته، فلا يمكن التماس العذر له في كونه أخّر إلى ما بعد موته تنفيذ خطته الغادرة، ومثله «البَنَّاء» الذي يتحدث عنه

هيرودوت[1]، والذي احتفظ طيلة حياته بسرّ كنز سيده ملك مصر، لكنه أفشى السر لأبنائه عندما أحس بدنوّ أجله.

4. أعرف كثيرًا من الناس من أهل زمني، كانوا مستولين قيد حياتهم على أموال تعود لغيرهم، دفعهم توبيخ الضمير إلى أخذ تدابيرَ لإرجاع تلك الممتلكات إلى أهلها بعد وفاتهم، وهم بهذا يسيئون صنعًا، سواء بتأجيلهم أمرًا لا يحتمل التأجيل، أو بظنهم أنهم يكفِّرون عن خطئهم بأقل قدرٍ ممكنٍ من الندم ومن الضرر، وكلما كان دفع الثمن صعبًا ومرْهقًا كان رضاهم معقولًا ومحمودًا، فالكفَّارة تقتضي أن يكون للإنسانِ وِزرٌ يَنقُضُ ظهرَه.

5. وأسوأُ من هؤلاء آخرون ينتظرون ساعة الاحتضار ليعترفوا بكراهيتهم لقريبٍ من الأقرباء، بعد أن أخفوا كراهيتهم طيلة الحياة. فهم بذلك يقيمون الدليل على أنهم لا يهتمون إلا قليلًا لشرفهم إذ يستثيرون عند من يجرحونه بذلك الكلام ضغينةً سيحملها لهم بعد وفاتهم، كما أنهم لا يهتمون لضميرهم؛ إذ هم لم يعرفوا كيف يحترمون الموت نفسه بجعل نواياهم السيئة تموت معهم، بل جعلوا حياة أحقادهم وضغائنهم تمتد إلى ما بعد حياتهم، وبئس القاضي الذي يؤجل النطق بحكمه إلى اللحظة التي يصبح فيها عاجزًا عن تنفيذه! وسأحرص ما استطعت على ألَّا يقول موتي شيئًا لم تقله حياتي قبله بكل صراحةٍ ووضوحٍ.

(1) في الواقع أن الرجل كان مهندسًا لا بنّاءً، وكان الملك قد أراد إخفاء ثروته فأمره ببناء غرفةٍ سريةٍ في القصر لذلك الغرض، وقد فعل المهندس ما أمره به الملك غير أنه حرص على أن يجعل إحدى أحجار الجدار غير ثابتةٍ في مكانها، بحيث يستطيع رجلان أو حتى رجل واحد أن يقتلعها فيفتح مدخلًا إلى الكنز، وقد ظل الرجل محتفظًا بالسر، حتى إذا حضرته الوفاة أفضى به إلى ابنيه.

الفصل الثامن

في الكسلِ والخمول

1. من المعلوم أن الأراضي البَوار، متى كانت غنيةً خصبةً، تمتلئ بالأعشاب البرية غير النافعة، وأن الحفاظ عليها صالحةٌ للزراعة يقتضي العناية بها وزرعها بما يفيد، كما أننا نرى النساء يُخْرِجْنَ من أجسادهنَّ قطعًا وكتلًا من اللحم لا شكل لها[1]، وأنه للحصول على خَلْقٍ طبيعيٍّ مكتملٍ، لا مفر من تطعيمهن بنطفةٍ من الخارج.

2. ولنقلِ الشيء نفسه عن عقولنا، فإن نحن لم نشغلها بما يكبح من جماحها ويعصمها من نفسها، فإنها سوف ترتمي دون ضابطٍ هنا وهناك في ميدان الخيال الواسع المبهم.

«كما في قاع جرَّةٍ من البرونز
تعكس صفحة الماء المهتزة صورة الشمس أو القمر المنير
يترامى الضوء في كل اتجاهٍ، ويتعالى في الهواء
ويضرب في الأعلى أخشاب السقف»[2].
«وليس هناك جنونٌ ولا هذيان لا يأتون به
في اضطرابهم المجنون ذاك، ويصطنعون لأنفسهم أحلامًا
تشبه الأحلام المريضة»[3].

متى كان العقل بلا هدفٍ ضاع وتشتت، كما يقال:

«من يكنْ في كل مكانٍ فهو في لا مكان»[4].

3. لزمت بيتي مؤخرًا[5] وقد قررتُ أن أجتهدَ ما استطعت في ألا أفعل شيئًا سوى أن أقضي ما بقي لي من أيامٍ في عزلةٍ وراحةٍ؛ ذلك أني رأيتُني لا أملك ما أسديه لعقلي من إحسان، فكان خيرًا من أن أتركه حرًّا يغذّي نفسه ويتوقف ويتراجع في داخل نفسه، وكنت أرجو أن أجده مستطيعًا فعل ذلك بأسهل مما كان يفعل، بحكم أنه أصبح مع الزمن

(1) Plutarque, **Préceptes de mariages**, XIV.
(2) Virgile, **Énéide**, VIII, 22-26.
(3) Horace, **Art Poétique**, 7.
(4) Martial, **Épigrammes**, VII, 3.
(5) في سنة 1571م، قرر مونتيني اعتزال الناس ولزوم بيته؛ لهذا يمكن أن نستنتج أن هذا الفصل كتب بعد ذلك التاريخ، وهو للإشارة لا يحمل أي تصحيح ولا تعديل.

أكثر اتزانًا ونضجًا، لكني اكتشفت أن **«الفراغ يشتت العقل دومًا في كل اتجاه»**[1].

4. وأنه على العكس من ذلك، تمامًا كحصانٍ فارٍّ من حظيرةٍ، يجد من العناء مع نفسه أضعاف ما كان يَتَجَشَّمُهُ من أجل الآخرين، كما أنه أخرج لي من الوحوش والكائنات الغريبة المتراكمة بعضها فوق بعض بلا نظامٍ ولا ترتيبٍ، ما جعلني مجبرًا -من أجل النظر على مهلٍ في غرابتها وخوائها- على تقييدها كتابةً، راجيًا أن يفلح ذلك مع الزمن في جعله يخجل من نفسه.

(1) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, IV, 704.

الفصل التاسع

عن الكذّابين

«خيانة الذاكرة»

1. أنا آخر من يحقُّ له الحديث عن الذاكرة في من أعرفهم ، ذلك أني لا أكاد أجد عندي أدنى أثرٍ لها، ولا أعتقد أن هناك في العالم ذاكرةً أوْهى وأضعف من ذاكرتي، ولئن كانت كل قدراتي متهالكةً واهنةً لا يُقام لها اعتبار، فإني أرى نفسي -في ما تعلق بالذاكرة- استثنائيًّا نادرًا ندرةً تجعلني حقيقًا بأن تذكرني الأجيال وتضربَ بي الأمثال.

2. وعلاوةً على الضيق الطبيعي الذي يسببه لي هذا الضعف -فأفلاطون كان محقًّا؛ نظرًا لأهمية الذاكرة، في وصفها بالإلهة العظيمة القادرة- فإن الناس في بلادي، عندما يريدون وصف شخصٍ ما بأنه لا عقلَ له، يقولون بأنه لا ذاكرة له، وحين أشكو لهم ضعف ذاكرتي يجادلونني في ذلك ويرفضون تصديقي، وكأني أتهم نفسي بالحمق؛ لأنهم لا يرون فرقًا بين الذاكرة والذكاء.

3. وهو أمرٌ يزيد من سوء حالي بقدر ما يضرُّ بي؛ لأن التجربة والملاحظة تبين أن الذاكرة القوية تكون عادةً من نصيب ذوي العقول الضعيفة، والأدهى من هذا والأنكى أنني، في حين لست أُحسن شيئًا إحساني توطيد الصداقة، أجدهم يستعملون الألفاظ نفسها لوصف حالي ووصف نكران الجميل! وهم بهذا يتهمون عواطفي مقدارَ اتهامهم ذاكرتي، فيجعلون من عيبٍ في تكويني عيبًا في ضميري، فتجدهم يردّدون أني نسيت هذا الطلب أو ذاك الوعد، وأني لم أعد أذكر أصدقائي، وأني سهوت عن قولٍ أو فعلٍ أو كتمان شيءٍ ما إرضاءً لهذا أو ذاك.

4. صحيحٌ أني قد أنسى بسهولةٍ ويُسرٍ، لكني لن أهمل أبدًا مهمةً كلفني بها صديقٌ، فليكتفوا بما أعانيه من إعاقةٍ دون أن يجعلوا منها شَرًّا كامنًا في النفس! هذا مع أنه شرٌّ ما أبعده عن طبْعي! على أني إلى ذلك أجد بعض العزاء إذْ أُحدِّث نفسي أني قد استطعت على الخصوص أن أجعل من عيبي وسيلةً لتصحيح عيبٍ آخر أسوأ منه، وهو عيبٌ ما كان أسهل أن يتطور عندي ويتضخم -وأعني الطموح- ذلك أن الإعاقة التي

أعانيها تُعَدُّ من الموانع لمن يريد دخول مجال العلاقات العامة.

5. وكما يظهر ذلك من عددٍ من الأمثلة من هذا الصنف، حيث تعمل الطبيعة عملها، فإن هذه القدرة كلما ضعفت زادت بضَعفها قوة قدراتٍ أخرى: فما كان أسهل عليَّ أن أترك عقلي يرتاح ويتكاسل، مثلما يفعل الآخرون، وأن أمتنع عن ترويضه، لو أن الذاكرة كانت تزودني بالأفكار الجديدة وتُنبِئُني بآراء الآخرين ومواقفهم، وخطابي من أثر ذلك يكون أكثر اعتدالًا: لأن مخزن الذاكرة أكثر امتلاءً بكثير من مخزن الإبداع، ولو أن الذاكرة كانت تسعفني لرأيتَني أصُمُّ آذان أصدقائي بثرثرتي؛ لأن كثيرًا من المواضيع، إذا هي أيقظتْ فيَّ تلك القدرة التي أملك على معالجتها، كانت لتستفز مني حينئذٍ الخطاب وتحركه.

6. وهذا لَعَمري أفضل! فأنا أرى دليل ذلك عند بعض أصدقائي، الذين تسعفهم ذاكرتُهم بالأشياء كاملةً غير منقوصةٍ وكأنها حاضرةٌ أمامهم عِيانًا، فتجدهم يستهلّون حكيهم من نقطةٍ بعيدةٍ إلى الوراء، ويحملونه بقدرٍ من التفاصيل غير المفيدة، بحيث إن ما يحكونه متى كان جيدًا يصبح مختنقًا مشوهًا، ومتى كان رديئًا يجعلك تلعن بسرعةٍ إما نوعية ذاكرتهم، وإما ضَعف حكمهم وتهافُتَه.

7. ما أصعب أن ينهي المرء عرضًا ويقطعه وقد انطلق فيه! وإن خير وسيلةٍ للحكم على جودة حصانٍ هي أن تجعله يتوقف فجأةً مكانه، وحتى بين أولئك الذين يحسنون الحديث ويضعون الكلام في مواضعه، أرى منهم من يريد التوقف فلا يستطيع إلى ذلك سبيلًا. وبينما الواحد منهم يبحث عن مكانٍ يتوقف عنده، تجده ينطق هذرًا ويزحف زحفًا كأنه يتهاوى من الوهَن. والمسنون في هذا أكثر خطرًا؛ إذ يتذكرون الأحداث الماضية لكنهم ينسون أنهم قد ذكروها من قبل للناس، ولكم رأيت من حكايةٍ جميلةٍ تصبح مملةً على لسان شخصٍ عظيمٍ، لفرط ما سمعها الناس منه من قبل مراتٍ تلو مراتٍ!

8. وإليك مَزِيَّةً أخرى من مزايا ذاكرتي الضعيفة: أنا أنسى بسهولة ما أتعرض

له من إهانةٍ وأذًى، كما قال أحد الكتاب القدامى، حتى إني لأحتاج في ذلك إلى مثل ما احتاجه داريوش من مساعدٍ للذاكرة؛ إذ أمر بأن يأتيه غلامٌ كلما جلس للأكل ليهمس في أذنه: «سيدي، لا تنْس الأثينيين!»[1]، أما أنا فإن الأماكن والكتب التي أراها من جديدٍ تتجلى لي دومًا بألوان الجِدَّة الزاهية.

9. لم يخطئ من قال إن ضعيف الذاكرة لا ينبغي له أن يكذب، وإن من شاء أن يكون كذوبًا فعليه أن يكون ذَكورا. وأنا أعرف جيدًا أن النُّحاة يفرقون بين اسم الكذب وفعله، فيقولون: إن الكذبة شيءٌ غير صحيحٍ اعتقده الناس صحيحًا. أما أصل فعل «كذب» فيرون أنه في اللاتينية التي جاءت منها لغتنا الفرنسية، يعني: «المضي ضد اتجاه الضمير»، وأن ذلك بالتالي لا يُقصد به إلا من يقولون ما يعلمون أنه غير صحيح، وهم بالذات من أقصد بكلامي، وهؤلاء إما أنهم يختلقون كل شيءٍ من لا شيءٍ، وإما يموِّهون ما كان في أصله صحيحًا ويغيّرونه.

10. وهم إذ يموِّهون ويغيرون تجدُهم -متى دعوتَهم مراتٍ تلو مراتٍ إلى تَكرارِ حكايتهم- يلْقون الكثير من العناء في تفادي افتضاح أمرهم، ذلك أن ما عرفوه لأول وهلةٍ وحُفر في ذاكرتهم واستقر بها عن طريق المعرفة والتعلم، يأتي بالضرورة في المقدمة إلى المخيلة طاردًا النسخة المزورة التي لا يمكنها بطبيعة الحال أن تكون راسخةً في الذاكرة رسوخَ سابقتها، وحين ترجع تفاصيل النسخة الأصلية إلى الذهن، فإنها سُرعان ما تُنسي ذكرى ما ليس سوى قطعٍ مستعارةٍ أو مزوَّرةٍ أو محرَّفةٍ.

11. أما حين يختلقون كل شيءٍ من البداية للنهاية، فلا تكون هناك آثارٌ لقولٍ صحيحٍ ينقض في ذهنهم ما ينطقون به من قولٍ مزيّفٍ، فإنك تجدهم في أمانٍ من التناقض، بيد أن ما يختلقونه -لما كان غير ذي جسمٍ واضحِ التقاسيم يمكن الإمساك به- سرعان ما ينفلت من عِقال الذاكرة إن لم تكن قويةً بما يكفي. ولكَم استمتعت بمثل ذلك على حساب أولئك الذين يريدون ألا يعطوا لخطابهم إلا الشكل الضروري لما يعالجونه من مسائل، والحَقيق بأن يحوز

(1) Hérodote, **L'enquête**, V, 105.

إعجاب الكبار الذين يخاطبونهم، فلما كانت الظروف التي يريدون أن يربطوا بها التزامهم وضميرهم دائمة التغير، لزمهم أن يغيروا في كل مرةٍ ما يقولونه.

12. من ثمَّ تجدهم يسمون الشيء الواحد أبيضَ تارةً وأسودَ تارةً أخرى، وتجدهم يقولون الشيء نفسه لهذا بطريقةٍ ولذاك بأخرى، وهَبْ أن هؤلاء الناس حكوا لبعضهم ما يعرفون بتلك الأشكال المتناقضة، فإلى ماذا يا ترى سوف يَؤُول ذلك المظهر البراق؟ هذا ناهيك عن أنهم كثيرًا ما يناقضون أنفسهم بأنفسهم؛ إذ مَن له ما يكفي من الذاكرة ليستعيد كل الأشكال المختلفة التي نسجوها حول موضوعٍ واحدٍ؟ ولقد عرفت في زمني الكثيرين ممن تمنَّوا لو تكون لهم الشهرة التي تحقِّقها هذه المهارة الجذابة، ناسين أن مثل هذا الأمر فيه من الشهرة بقدر ما ينقصه من الفعالية.

أهميةُ الكلام

13. الحق أن الكذب رذيلةٌ بغيضةٌ؛ لأننا لسنا بشرًا ولسنا مرتبطين بعضنا ببعض إلا بالكلام، ولو أننا عرفنا ما في الكذب من بشاعةٍ وما يمثله من وِزْرٍ لتحرّيناه كي نعاقب مقترفه بالنار، ولكُنَّا في ذلك أعدلَ منا حين نعاقب على غيره من الجَرائر وإني أرى أننا كثيرًا ما نضيع وقتنا في عقاب أخطاءٍ بريئةٍ لدى الأطفال عقابًا في غير محله، ونعذبهم من أجل أفعالٍ طائشةٍ طيش الطفولة لا تترك أثرًا ولا عواقب وخيمةً لها. بيْد أن الكذب، وكذا التمادي فيه، وهو شرٌّ أدنى منه منزلةً، يبدوان لي من الرذائل التي يتعيَّن علينا محاربة ظهورها والحيلولة دون رسوخها في النفس؛ ذلك أنها رذائل تنمو مع الأطفال وتكبر معهم. ومتى تركت اللسان يتخذ لُكنةً مستقْبحةً وجدت كبير العناء في تخليصه منها، ولهذا السبب تجد أناسًا لا تلطخ نصاعة سيرتهم إلا وصمةُ الكذب. وإن لي خيّاطًا لست أعرف له عيبًا خَلا أنه لم ينطق يومًا بحقيقةٍ واحدةٍ، حتى ولو كان النطق بها يخدم مصلحته!

14. ولو أن الكذب كان كالحقيقة ليس له غيرُ وجهٍ واحدٍ لهان الأمر، ولكفانا

ساعتئذٍ أن نعتبر الحقيقة نقيضَ ما ينطق به الكاذب، لكن نقيض الحقيقة له ألف وجهٍ ووجهٍ، وأمامه مجالٌ للفعل لا نهاية ولا حدود له. ولقد كان الفيثاغوريون يرون أن الخير معروفٌ ومحدودٌ، وأن الشر مجهولٌ ولا حدود له، وأنت ترى أن ألف سهمٍ يخطئ الهدف ولا يصيبه منها سوى واحدٍ. ولست أنكر أني أمام الخطر العظيم الماحق قد ألجأ للكذب أمام الملأ فأفحش فيه، وقد قال أحد الآباء القدماء[1]: إن المرء يرتاح لرفقة كلبٍ يعرفه أكثر من ارتياحه لرفقة رجلٍ لا يعرف لسانه، «بحيث إن الغريب عند البشر ليس بشرًا»[2]. وإن الكلام الخادع لأَشَقُّ سبيلاً في التواصل من الصمت نفسه!

15. كان الملك فرنسوا الأول يتفاخر بكونه أوقعَ في التناقض فرانسيسك تافيرنا -سفير فرنسوا سفورزا دوق ميلان- وهو (أي السفير) الرجل المشهور ببراعته في فنّ الحوار، فقد جاء تافيرنا مبعوثًا من الدوق ليعتذر للملك بشأن أمرٍ جليل الخطر، وقد حدث ذلك على النحو التالي: كان فرنسوا الأول حريصًا على الحفاظ، رغم كل شيء، على تحالفاتٍ سريةٍ داخل إيطاليا التي طُرد منها قبل ذلك من زمنٍ غير بعيدٍ، وخصوصًا في دوقية ميلانو، وسعيًا لهذا الهدف رأى الملك أن يختار لنفسه رجلًا من أنصاره يتخذه سفيرًا سريًّا لدى الدوق، على أن يبدو هذا الرجل وكأنه هناك بصفةٍ شخصيةٍ ولأغراضٍ شخصيةٍ، ذلك أن الدوق الذي كان مرتبطًا بالإمبراطور أكثر من ارتباطه بالملك، والذي كان على وَشْكِ إتمام صفقة زواجٍ من ابنة أخي الإمبراطور (ابنة ملك الدانمرك والآن أرملة اللورين الثرية)، لم يكن بمستطاعه أن يُظهر دون خطرٍ على نفسه أن له علاقاتٍ ومراسلاتٍ معنا معشر الفرنسيين، وقد وجد الملك أن خير من يصلح لهذه المهمة، مهمة السفير السري لدى الدوق، رجلٌ من ميلانو كان يعمل في إسطبل الملك، يُدعى ميرفاي.

16. أرسل الملك إذًا ميرفاي، مُرفقًا بأوراق اعتمادٍ سريةٍ، ولكن أيضًا برسائل توصيةٍ إلى الدوق بخصوص أعماله الخاصة إمعانًا في التمويه، غير أن الرجل استقر به المقام لدى الدوق فبقي زمنًا حتى ساورت الإمبراطور شكوكٌ بشأنه أفضت إلى ما يلي، حسب ما بلغني: فقد لفق

(1) Saint Augustin, **La Cité de Dieu**, XIX, 7.

(2) Pline l'Ancien, **Histoire naturelle**, VII, 1.

الدوق لميرفاي قضية قتلٍ حُسِمت في يومين بقطع رأسه ليلًا.

17. لذلك ما لبث السيد فرانسيسك أن وفَدَ على الملك، مصحوبًا بروايةٍ طويلةٍ كاذبةٍ عن الأحداث؛ لأن الملك كان قد توجه إلى أمراء المسيحية جميعًا، بمن فيهم الدوق نفسه؛ يطالبهم بإحقاق الحق في هذه القضية، وقد استمع الملك في جلسة الصباح إلى السفير الذي جاء لدعم موقفه برواياتٍ جميلةٍ عن الحدث قدمها في تلك الجلسة.

18. ادعى الرجل أن سيده لم يكن يرى في الضحية المسكين سوى تاجرٍ كغيره من التجار، وواحدًا من رعية الملك قَدِمَ إلى ميلانو لأغراضٍ خاصةٍ؛ لأنه لم يقدم نفسه قطّ بصفةٍ غير صفته تلك، وأنكر معرفة الدوق بكون الرجل من بلاط الملك بل وحتى معرفته به شخصيًّا، ناهيك عن أن يعرف أنه سفيرٌ للملك، حينئذٍ انبرى له الملك محاصرًا إياه بالأسئلة والاعتراضات ومهاجمًا إياه من كل صوبٍ؛ لينتهي به إلى مسألة الإعدام ليلًا وخلسةً، متسائلًا عن دواعي هذا الخفاء، وهو ما أَرْبَك السفير الذي أجاب منتحلًا دور العارف بقواعد البروتوكول: إن الدوق، احترامًا لجلالته، ما كان ليرضى بأن يجري ذلك الإعدام في واضحة النهار! وللمرء أن يتخيل الجواب الذي تلقاه الرجل بعد أن فضح نفسه على هذه الشاكلة، وخصوصًا من رجلٍ له ما كان لفرنسوا الأول من رهافة حدسٍ وثاقب نظرٍ.

19. كان البابا يوليوس الثاني قد أرسل مبعوثًا إلى ملك إنجلترا ليحرِّضه ضد الملك لويس الثاني عشر، فلما استفسر منه الملك عن مهمته، وتوقف عند كلامه عن الصعوبات التي كان يجدها في الإعداد لمحاربة ملكٍ قويّ كالملك لويس الثاني عشر، وأسباب تلك الصعوبات، أجاب الرجل غيرَ دارٍ بخطورة كلامه: أنه قد انتبه إليها من جهته ونبَّه إليها البابا وشرحها له، فمن هذا الرد، البعيد كل البعد عمّا جاء المبعوث يقترحه، استخلص ملك إنجلترا أولَ قرينةٍ على ما اكتشفه بالفعل في ما بعد، من أن الرجل كان ذا ميلٍ شخصيّ إلى فرنسا، وقد أخبر بذلك البابا فأمر بالحجز على ممتلكاته، بل وكاد يأمر بقتله.

الفصل العاشر

عن الردِّ المفحِم، ما يأتي منه سهلًا مطْواعًا وما يتأخَّر به صاحبه

«ما أوتي الناسُ جميعهم كافّة الأفضال يومًا قط»[1]

1. هكذا نرى أن الناس يختلفون في ما يخصُّ حسن الجواب وسرعة البديهة، فمنهم من متَّعته الطبيعة بطلاقة لسانٍ وصواب ردٍّ يجعل من يسمعه يحسبه قد أعد لكل مقامٍ مقالًا، ومنهم البطيء العييّ الذي لا يكاد يَفوه بقولٍ ما لم يُعِدَّه من قبل إعدادًا ويشبعه تمحيصًا. ولئن كان الناصحون ينصحون النساء بتعاطي الألعاب والرياضة الجسمانية التي تفيدهنَّ في تنمية أجمل ما يملكنه (أي أجسادهن) فإني لو أتيحت لي الفرصة لإعطاء رأيي في هاتين الميزتين المختلفتين من ميزات البلاغة، التي يبدو أن الدُّعاة والمحامين على الخصوص قد جعلوا منهما مهنةً تُمتَهَنُ، لرأيتُ العييَّ البطيء المتريث أقربَ إلى مهنة الدعاة، والآخرَ إلى مهنة المحامين أقرب.

2. وذلك أن مهمة الأول تتيح له من الوقت ما يكفيه للاستعداد، وأنه حين يمارس عمله يتحدث فلا يقاطعه أحدٌ ولا يضيع منه خيط الكلام، على حين أن الفرص التي تتاح للمحامي تجعله يجد نفسه مجبرًا على دخول السباق في كل ساعةٍ، والأجوبة غير المتوقعة التي يأتي بها الخصم تخرج به عن مسير الحديث وتقطع تسلسل أفكاره، مما يرغمه على رسم خطةٍ جديدةٍ في الحين.

3. بيْد أن ما وقع بالمقابل خلال لقاء البابا كليمنت[2] مع الملك فرنسوا في مرسيليا جاء على عكس ذلك؛ فقد جرى تكليف السيد بوّيّي -وهو محامٍ قضى حياته في المرافعات، واكتسب من ذلك سمعةً طيبةً- بإعداد خطابٍ يلقيه أمام البابا، فمكث في إعداد خطابه زمنًا، حتى لقد قيل إنه جاء به من باريس جاهزًا.

4. وما حدث هو أن البابا، في اليوم الذي كان سيلقي فيه السيد بوّيّي خطابه، خشي أن يقال أمامه ما يسيء إلى سفراء الأمراء الآخرين الذين

(1) من قصيدة لدو لا بويسي.

(2) جرى هذا اللقاء بين البابا كليمنت السابع والملك فرنسوا الأول في عام 1533 م.

كانوا حاضرين، فأخبر الملك بالموضوع الذي يرى أنه الألْيق بالزمان وبالمكان، وهو موضوعٌ كان لسوء حظِّ المحامي بعيدًا كل البعد عن الموضوع الذي أمضى أسابيع في إعداده! من ثمة أضحى الخطاب بلا فائدة، وصار على المحامي أن يؤلف غيره في الحال، لكنه استعصى عليه ذلك فلم يستطع إليه سبيلًا، حتى أُضطر السيد جون دو بيليه إلى التكفل بالأمر بنفسه.

5. إن دور المحامي أصعب من دور الداعية، غير أننا رغم ذلك نجد من الضعيف الكليل بين المحامين ما لا نجده بين دعاة الدين، وذلك على الأقل عندنا في فرنسا.

6. يبدو أن ردّ الفعل السريع المفاجئ هو من شأن الذهن، وأن الجواب البطيء المتريث هو من شأن العقل، لكن الذي يبقى أبكم إن لم يُؤتَ الوقت للاستعداد، وكذا الذي وإن أوتي الوقت تجده لا يعرف كيف يستغله لتركيز ذهنه وتقوية حُجَّته، هما شخصان يستويان في غرابتهما. ويقولون عن كاسيوس سيفيروس[1] إن لسانه أكثر انطلاقًا إذا ما هو تكلم على البديهة، وإنه يعتمد في ذلك على الحظ أكثر من اعتماده على موهبته، وإنه كان أوْقد ما يكون ذهنًا، وأقوى ما يكون حُجةً حين يقاطَع في كلامه، وإن خصومه كانوا يتحاشون استفزازه خشية أن يزيده الغضب بلاغةً وفصاحةً.

7. أعرف عن تجربةٍ هذا الطبع الذي لا يحتمل التفكير المسبق المتأني المضني، فتجده إن لم يتصرف على البديهة لا يُحسن شيئًا. ونحن نقول عن بعض الكتب إنها تفوح عرَقًا، وإنما نقولها بسبب تلك القسوة والمرارة اللتيْن يطبع بهما الجَهد الشاق كل الأعمال التي احتل فيها مكانًا كبيرًا. لكن علاوة على هذا فإن الرغبة في الإتقان، ذلك التوتر الذي يعانيه العقل حين يفرط في تركيزه على قصده، يكسر العقل ويعاكسه، تمامًا كالماء: إذ تعوقه كثرته وعنفه عن إيجاد مخرجٍ كافٍ حتى ولو كان هناك مخرجٌ.

(1) خطيبٌ وكاتبٌ ومؤرخٌ رومانيٌّ، مات في المنفى في 33 قبل الميلاد.

8. لا يحتاج الطبع الذي أتحدث عنه إلى أن يخضَّ ويرجَّ بانفعالاتٍ قويةٍ مثل غضب كاسيوس؛ لأن في مثل هذا الخضِّ والرَّجِّ عنفًا لا يناسبه، بل يحتاج إلى أن توقِده وتيقظه أسبابٌ خارجيةٌ آنيةٌ وخاضعةٌ لمحض المصادفة، فإن أنت تركته وشأنه رأيته متراخيًا مكتئبًا.

9. لست أجيد التحكم في نفسي؛ فالمصادفة تقوم في حياتي بدورٍ أكبر وأهم من الذي أقوم أنا به، والفرصة التي تتاح، وما يحيط بي من رفاق، بل وحتى تموّجات صوتي، كل هذا يفيد من عقلي أكثر من إفادته منه متى رحت أسبر أعماقه وأروم استعماله بنفسي؛ لذلك تجد كلام عقلي خيرًا من كتابته، هذا إن كان لا بد من عقد المقارنة بين شيئين لا قيمة لهما.

10. ويقع لي أحيانًا ألا أجد نفسي حيث أبحث عنها، حتى إذا وجدتها ألفيتُني أدين بذلك للمصادفة أكثر مما أدين به لتفكيري وحكمي، فلنفترض أني وُفِّقت في التعبير عن معنًى دقيقٍ وأنا أكتب، وليكنْ ذلك المعنى تافهًا عند غيري شريفًا عندي أنا، لكن دعْنا من هذه الاحتياطات الخطابية؛ إذ كلّ واحدٍ يعبر عن ذلك كما يستطيع التعبير، فما أن أرسل ذلك الكلام حتى يضيع مني معناه فلا أعود أدري ما كنت أقصد قوْله! لا بل إن الرجل ذا اللسان الغريب قد يكتشف معناها قبل أن أكتشفه أنا، ولو أني أشَّرت بضربة مقصٍ على كل مكانٍ وقع لي فيه مثل هذا، لَأَكَلَ المقصُّ ما كتبته كله! وستأتي المصادفة مرةً أخرى لتوضح كل هذا اتّضاح ضوء النهار، فأتعجب حينئذٍ مما فَرط مني من تردُّد.

الفصل الحادي عشر

في النُّبوءات

1. بخصوص المنجِّمين، لا جدال في أنهم قبل ميلاد المسيح بزمنٍ بعيدٍ دخلوا في مرحلة الاضمحلال والانحطاط، حتى إن ماركوس توليوس شيشرون تساءل في زمنه عن أسباب تراجعهم، وها هي كلماته في هذا المعنى: «ما السبب في انقطاع الوحي عن الكهنة في معبد دلفوي، ليس اليوم فقط بل منذ زمنٍ بعيدٍ، حتى لم يعد هناك شيٌء أحوَزَ للاحتقار من ذلك؟»[1].

2. وسواءٌ تعلق الأمر بالتنبؤات المستنبطة من البحث في أحشاء الحيوانات عند تقديم القرابين -وهي تنبؤاتٌ كان أفلاطون يرى أنها تحدّد جزئيًّا الترتيب الطبيعي للأحشاء-[2] أو من مراقبة اضطراب الصيصان أو تحليق الطيور -فنحن نعتقد أن بعض الطيور إنما خُلقت لخدمة فن النبوءة- أو من رصْد صواعق البرق ودوامات الأنهار أو غير ذلك. يرى الراؤون من الأشياء كثيرًا، ويتوقع العرافون أمورًا عديدة، وما أوفر الأحداث التي يتنبأ بها المتنبئون، ويتكهن بها الكهان وتكشفها الرؤى والأعاجيب وغيرها الكثير من ضروب الكهانة. وهي كلها تنبؤاتٌ كانت الإنسانية في القديم تبني على أساسها أغلب مشاريعها الخاصة منها والعمومية، وقد جاء ديننا فأبطل هذا كله[3].

3. لكن تبقى لنا رغم ذلك بضع وسائل للتنبؤ، من خلال النجوم، والأرواح، وأشكال الجسد، والأحلام وغيرها، ويا له من مثالٍ بليغٍ عن طبعنا الفضولي الذي يقضي وقته في الانشغال بقادم الأحداث والأمور، وكأن حاضر هذه الأحداث والأمور ليس كافيًا!

«لماذا شئت يا سيد الآلهة
إضافةَ هذا القلق إلى آلام البشر
حتى صاروا يعرفون مآسيهم المقبلة عبر نبوءاتٍ قاسيةٍ؟
فليضربهم قدرك المحتوم على حين غِرَّةٍ!
لتكنْ أرواحهم عمياء عن أقدارهم!
ليكونوا قادرين على الأمل وسط معْمعة المخاوف!»[4].

(1) Cicéron, **De Divinatione**, II, 57.

(2) هذا المقطع غير واضح المعنى في النص الأصل.

(3) Cicéron, **De natura deorum**, 64.

(4) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, II, 4, 5, 6, 14 et 19.

«لا فائدة من معرفة ما سيأتي به المستقبل، وإنه لمن البؤس أن يعذب المرء نفسه دون فائدةٍ»[1].

غير أن التنبؤ لم يعد له ما كان من قوةٍ ومن تأثيرٍ.

4. هذا ما جعل مثال فرانتشيسكو ماركيز سالوزو يبدو لي مثيرًا للاهتمام: فقد كان الرجل مساعدًا للملك فرنسوا الأول في حربه في إيطاليا، وكان ذا حظوةٍ عظيمةٍ عند أهل البلاط ومَدينًا للملك بلقبه نفسه (ماركيز)، بعد أن انتُزع هذا اللقب من أخيه. فرغم أن الفرصة لم تتح لذلك، ورغم أن نزوعه نفسه كان يحرّم عليه ذلك، إلا أنه شعر برعبٍ كبيرٍ -وقد اتضح هذا بعدئذٍ- من التنبؤات التي كانت تأتي من كل حدبٍ وصوبٍ عن غَلَبَة الإمبراطور كارلوس الخامس علينا -حتى إنهم في إيطاليا، حيث لقيت هذه التنبؤات رواجًا كبيرًا، وضعوا مقدارًا كبيرًا من المال للصرف، موقِنين بإفلاسنا الوشيك- وقد بلغ الهلع بالرجل حدًّا جعله، بعد أن اشتكى طويلًا لأهله من المصائب، التي كان يرى أنها ستحل دون ريبٍ بالتاج الفرنسي، وبأصدقائه هو في فرنسا، ينقلب ويغير خندقه، وقد كان في ذلك ما ألحق به عظيم الضرر، بغض النظر عن الكوكبات التي كانت ساعتئذٍ تزين كبد السماء.

5. بيْد أنه تصرف كما يتصرف رجلٌ تَتَنازَعُهُ أهواءٌ متضاربةٌ: لأن جيش العدو، تحت قيادة أنطوان دي ليفي، كان على خطواتٍ منه، ولأننا في جهلنا بانقلابه علينا كنا فريسةً سهلةً فكان باستطاعته أن يلحق بنا من الضرر أكثر بكثيرٍ مما فعل، فخيانته لم تكلفنا رجلًا واحدًا ولا مدينةً واحدةً عدا فوسانو، وحتى هي لم تُنتزَع منا إلا بعد كبيرِ عناءٍ.

«عن بصيرةٍ تجد إلهًا يخفي
حوادث المستقبل في الظلام
وتجده يضحك ساخرًا من هذا الإنسان
الذي يقلق أكثر مما ينبغي له

(1) Cicéron, **De natura deorum**, III, 6.

هو سيّد نفسه ذاك الرجل الذي
يقول عن يومه: لقد عشته!
ولا يهم إن كان الربّ في الغد
سيجعل السماء حبلى بعاصفةٍ
أو يهبنا شمسًا مشرقةً!»[1].
«إن العقل الذي يرضى بحاضره
ليس يخشى من غَدِه شيئًا»[2].

6. وعلى العكس فمخطئٌ من يؤمن بهذا الكلام: «يقوم حجاجهم على ما يلي: إذا كانت هناك نبوءات فهناك آلهة، وإذا كانت هناك آلهة فهناك نبوءات»[3].

وقد كان باكوفيوس*[4] أكثر حكمةً بكثيرٍ حين قال:

«لأن أولئك الذين يفهمون لغة الطيور
أولئك الذين يتعلّمون من كبد حيوان ما لا يتعلمونه من عقولهم
هؤلاء خيرٌ للمرء أن يسمعهم من أن يصدقهم»[5].

7. أما فن النبوءة الذي اشتهر به التوسكانيون فهكذا ولد: ضرب أحد الفلاحين الأرض بمعوله، فأحدث فيها ثقبًا عميقًا خرج له منه تاجيس، وهو نصف إلهٍ بوجه طفلٍ لكنه يحمل حكمة الشيوخ، فلما تسامع الناس به جاؤوا يتسابقون لرؤيته، وأخذوا عنه كلامه وعلمه المحتويَيْن على مبادئ هذا الفن ووسائله، واحتفظوا به قرونًا، بذلك كان الميلاد على شاكلة ما سيليه. وإني لأفضِّل أن أحل مشاكلي بلعب النَّرد على أن ألجأ في ذلك إلى مثل هذا الهراء.

8. صحيح أن الناس في كل الدول أعطوا دائمًا للمصادفة أهميةً كبيرةً،

(1) Horace, **Odes**, III, XXIX, 29-32 et 41-45.
(2) Horace, **Odes**, II, 16.
(3) Cicéron, **De Divinatione**, I, 6.
(4) * ماركوس باكوفيوس (220 ق.م تقريبًا – 130 ق.م) كان شاعرًا رومانيًا اشتهر بقصائده المأساوية.
(5) Pacuvius, in Cicéron, **De Divinatione**, I, 57.

فأفلاطون في التنظيم السياسي الذي تصوره على مهلٍ[1]، يعطي للمصادفة القرار في عدد من المجالات المهمة، فهو يريد على سبيل المثال أن يُعقد القِران عن طريق إجراء القرعة بين الأخيار، وهو يعطي لهذا الاختيار بالقرعة أهميةً كبرى، حتى إن الأطفال المولودين من تلك الزيجات يجب أن يربوا في البلاد، على حين ينبغي أن يطرد منها الأطفال المولودين من زيجاتٍ بين «الأشرار»، لكن إن استطاع أحد هؤلاء المطرودين أن يبرهن على أنه قد يُتوسَّم منه خير، فمن الممكن السماح له بالرجوع، وعلى عكس ذلك يمكن أن يُنفى طفلٌ من أولاد «الأخيار»، إن هو خيب بمراهقته الآمال الموضوعة فيه.

9. وإني لأرى أناسًا يقضون وقتهم في دراسة التقاويم وتدوين ملاحظاتٍ عليها، جاعلين كل ما يجري مرتبطًا ورهينًا بها، غير أن الكلام الكثير لا بد أن يتضمن حقائقَ وكذبًا. «من ذا الذي يقضي نهاره في التصويب فلا يصيب الهدف مرةً واحدةً على الأقل؟»[2] وليست إصابتهم الصواب أحيانًا هي ما سيجعلني أزداد لهم تقديرًا.

10. ولو أن القاعدة عندهم كانت هي الكذب لكان في كلامهم بعض الصواب، خصوصًا وألَّا أحد يسجل عليهم أخطاءهم لكثرتها واعتياد الناس عليها منهم، ورغم ذلك تجد من يرجع إلى تنبؤاتهم لكونها نادرةً وصعبة التصديق ومدهشة. فلما كان دياغوراس (الملقب بالملحد) على جزيرة ساموتراس، قال له الرجل الذي كان يريه في المعبد عددًا من الصور الدينية والهدايا المنذورة من الناجين من الغرق: «أنت الذي تعتقد بأن الآلهة لا تُلقي بالًا إلى مسائل البشر، ما قولك في هذا العدد الكبير من الناس الذين أنقذتهم الآلهة؟» فأجابه دياغوراس قائلًا: «لكن لا أحد رسم أولئك الذين ماتوا غرقًا، والذين هم أكثر من الناجين بكثير».

11. يقول شيشرون إن كسينوفانيس الكولوفوني كان، من بين جميع الفلاسفة الذين سلَّموا بوجود الآلهة، الوحيد الذي حاول القضاء

(1) Platon, **La République**, V. 5.

(2) Cicéron, **De Divinatione**, II, 59.

على كل أشكال النبوءة؛ ولذلك فلا غرابة أن تجد اليوم بعض العقول النابهة لدينا تعطي أهميةً لهذه الترّهات، ناهيك عن أنها لا تجني من وراء ذلك أي فائدةٍ.

12. وددت لو أني رأيت بأم عينيَّ شيئين رائعين، أما الأول فكتاب يواقيم الفلوري، رئيس دير كالابريا، الذي تنبأ في ما يقولون بكل باباوات المستقبَل بأسمائهم وأوصافهم، وأما الثاني فكتاب الإمبراطور ليون[1] الذي تنبأ بأباطرة اليونان وبطاركتها، لكن ما رأيته بأم عينيَّ -على عكس ذلك- هو أن الناس في فتراتِ الاضطرابات الاجتماعية، في ارتياعهم مما يحصل لهم، يقلبون أبصارهم في السماء، كجميع المتطيرين، بحثًا عن أسبابٍ لمصائبهم ونذائر لها.

13. وهم للعجب يفلحون في ذلك في أيامنا هذه إفلاحًا كبيرًا، حتى إنهم انتهوا إلى إقناعي بأنها لعبةٌ جُعلت للعقول الثاقبة العاطلة، وأن الذين اعتادوا على هذا الفن المتمثل في معالجة وكشف معاني النصوص، قادرون على أن يجدوا في نهاية الأمر ما يريدون في أي نصٍّ كان، على أنهم في واقع الأمر لا يجدون كبير صعوبةٍ في ذلك؛ لأن كُتاب النصوص التنبؤية لا يعطون لكلامهم الغامض المبهم أي معنًى واضحٍ، حتى يستطيع الناس من الأجيال اللاحقة أن يُضفوا عليها ما شاءت لها الأحداث من معانٍ.

14. ولعل شيطان سقراط كان ضربًا من زَخْم الإرادة يأتيه من دون أن يحتاج في ذلك إلى الكلام. وفي عقلٍ نَيّرٍ كعقل سقراط، حنّكه المِران من أثر الممارسة المستمرة للحكمة والفضيلة، متى أتته مثل هذه النُّذُرُ، حتى وإن كانت سابقةً لأوانها ومبهمةً غير واضحةٍ، فإنها لأهميتها كانت على الدوام تستحق أن تُتَّبَعَ، وما منّا أحد إلا وشعر يومًا في دواخله بهذا النوع من الاضطرابات التي تحدثها فكرةٌ، وهي تمر بالذهن بطريقةٍ عنيفةٍ مباغتةٍ، وعليَّ حينئذٍ أن أمنحها بعض السلطة. أنا الذي لا أكاد أعطي للحكمة أيَّ سلطة.

---

(1) لعله الإمبراطور ليون الأول، الذي حكم من 454 إلى 474 م.

15. وقد عرفت شخصيًّا مثل هذه الحالات التي ليس فيها من التفكير مثل ما فيها من الإقناع أو الردع العنيفيْن، والتي كانت كثيرًا ما تقع لسقراط في ما يُقال، فاستسلمت لها لما كان فيها من النجاعة والفائدة ما يمكِّن من اعتبار أن لها علاقةً ما بالإلهام الإلهي.

الفصل الثاني عشر

في الثَّبات

1. إن قاعدة العزْم والثبات لا تقتضي عدم ضرورة أن نعمل على حماية أنفسنا -قدر إمكان ذلك- من الآلام والصعوبات التي تهدّدنا، لا بل إن جميع الوسائل النزيهة للتحصن ضد الآلام والمصائب هي ليست فحسب مباحةً بل محمودةً. أما الثبات فيتمثل بالأساس في أن يتحمل المرء بشجاعةٍ ما لا يستطيع ردَّه ولا علاجه من مصائب، ومن ثمَّ فليس هناك من حركاتٍ بالجسد ولا من اتِّقاءٍ بالسلاح يمكن اعتباره رديئًا ما دام يحمينا من ضربةٍ موجهةٍ لنا.

2. كانت كثيرٌ من الأمم المحاربة في الماضي تستعمل في معاركها تقنية الكرِّ والفرِّ، فكان المحاربون وهم يولون ظهرهم لعدوٍّ أشدَّ بأسًا منهم وهم يواجهونه، وقد بقي لدى الأتراك بعض من هذا الفن، بل إن سقراط سخر في كتاب أفلاطون من لاخيس، الذي كان يُعرِّفُ الشجاعة بأنها هي الثبات أمام العدو: «ماذا؟ هل يكون إذًا من قبيل الجُبْن هزيمة العدو بتمكينه من المكان؟»، ثم ذكر سقراط كلام هوميروس وهو يمتدح فن الكرّ والفرّ عند البطل إينياس.

3. فلما تراجع لاخيس واعترف بأن فن الحرب ذاك كان معمولًا به لدى قبائل السكوثيين، بل وفي نهاية المطاف لدى جميع الفرسان، ضرب له مثلًا آخر بمشاة جيش إسبرطة، وهي الأمة المعروفة بين جميع الأمم بمحاربيها الأشداء، يوم اتخذوا -في معركة بلاتيا- قرارًا من هذا النوع، فقد رأى المشاة أن التحام الفُرْس في كتيبة متراصة يجعل من الصعب اختراق صفوفهم، فتراجعوا مُفسحين أمامه المجال وموحين له بانهزامهم أمامه، وهو ما أتاح لهم الالتفاف خلف الجيش الذي شتت صفوفه انطلاقُه وراءهم، والفوز عليه في تلك المعركة.

4. وعلى ذكر السكوثيين فَمِمَّا قيل فيهم[1] أن داريوش ملك الفرس حين خرج إليهم لإخضاعهم، أكثر عليهم من لوم ملكهم الذي كان يتراجع أمامه متفاديًا الالتحام، فلما بلغ ذلك أسماع إيدانثيرسوس (هكذا كان

(1) Hérodote, **L'enquête**, 6-7.

اسمه) أجاب قائلًا: إنه لا يتراجع خوفًا منه ولا من غيره، وإنما يفعل ذلك لأن تلك كانت عادةُ قومه، الذين لم تكن لهم أراضٍ زراعيةٌ، ولا مدن ولا قرى يخشون عليها من العدو، لكن إذا كان الفُرْس يريدون التناحر فعلًا فما عليهم إلا أن يقتربوا من مدافن القوم القديمة وسيجدون عندئذٍ خصمًا شرسًا.

5. بيْد أن المرء متى كان معرَّضًا لضرب المدافع، كما يحصل ذلك كثيرًا في أيام الحرب، فلا ينبغي له أن يتحرك تحت تهديد الضربة؛ لأن عنفها وسرعتها يجعل من المتعذر اتّقاءها، وما أكثر مَن لم يتمالك نفسه فرفع يدًا أو خفض رأسًا، فكان أقل ما ناله من ذلك ضحك رفقائه منه.

6. أثناء الحملة التي أطلقها الإمبراطور كارلوس الخامس ضدنا في منطقة الجنوب الفرنسي، ذهب ماركيز غواست إلى مدينة آرل ليطَّلع على منظومة دفاعها، فبينما هو يتفقد المكان خرج عن نطاق المخبأ الآمن الذي كانت توفره له طاحونة هوائية، فلمحه السيد دو بونفال ومندوب الملك عن منطقة دو لاجوني، اللذان كانا يتجولان في المسرح الروماني بالمدينة ، فما كان منهما إلا أن دلَّا عليه السيد فيلييه قائد المدفعية، الذي سارع بتوجيه مدفعٍ خفيفٍ نحوه، ورماه بطلقةٍ جيدة التصويب، إلى درجة أن الماركيز لو لم يفْطن بالعملية ويرتمِ جانبًا قبل انطلاق القذيفة لكانت أصابت منه بلا شكٍ مقتلا[1].

7. ومثل ذلك ما وقع قبلها بسنواتٍ لدوق أوربينو لورينزو دي ميديشي (والد الملكة الأم) حين كان يحاصر مدينة موندولفو في إيطاليا، في الأراضي المسماة «الأراضي النيابية». فحين لمح الدوق جنديًا من العدو يُشعلُ فتيلةَ مِدفعٍ موجهٍ نحوه، ارتمى بلا تردد كما ترتمي البطة في الماء، فجنى من ذلك أعظم الفائدة؛ لأن القذيفة التي حاذت رأسه كانت ستصيبه حتمًا في الصدر.

(1) Guichardi, **Histoire d'Italie**, XIII, 2 ; M. Du Bellay, **Mémoires...**, VII.

8. والحق أني لا أظن مثل هذه الحركات تأتي بعد تفكيرٍ، فكيف تريد من المرء في موقفٍ كهذا الموقف تجيء فيه الأمور بهذه الفُجاءة، أن يحكم هل المصوب بالتصويب عاليًا فينحني؟ أم هل إنه يصوب للأسفل فيقفز عاليًا؟ يبدو لي من الأقرب للتصديق أن الحظّ قد كافأ هلَعهم، وأن ما أتوه من حركةٍ كان في ظروفٍ مخالفةٍ قد يفضي إلى التعرض للطلقة، أو إلى تفاديها على وجه السواء.

9. لا أستطيع منع نفسي من الارتجاف حين أسمع صوت انطلاق بندقيةٍ تُطلق على مسمعٍ مني، وفي مكانٍ لا سبب يجعلني أنتظر ذلك فيه، ولقد شهدت مثل هذا من أناسٍ كُثُرٍ يفوقونني شجاعةً وفضلًا.

10. حتى الفلاسفة الرّواقيون أنفسهم لا يطلبون أن تكون روح حكمائهم قادرةً على مقاومة أوائل الرؤى والتصورات التي تأتيها، بل إنهم يسلِّمون بأنه من الطبيعي أن ينفعل الحكيم لهديرِ رعدٍ أو فرقعةِ انهيارِ مبنًى، حتى يمتقع لذلك وجهه وتنكمش نفسه رعبًا، وقُلْ مثل ذلك في غيرها من الانفعالات، فلا عيب فيها جميعًا ما دام رأي الحكيم يظل سالمًا من العيب ومن النقص، وما دام فكره لا يناله من ذلك شيءً من الخلل، وما دام هو نفسه لا يعير أدنى اهتمامٍ لخوفه ولا لألمه. أما لدى من لا يُعَدُّ من الحكماء، فإن الشقَّ الأول من هذه القاعدة يظل صحيحًا، وليس كذلك شقُّها الثاني؛ ذلك أن الانفعالات عند غير الحكيم لا تظل سطحيةً بل تخترقه حتى تبلغ مكان العقل منه فتصيبه وتفسده، حينئذٍ تجده يحكم انطلاقًا منها ويخضع لها، وها هي بكل وضوحٍ وشمولٍ حال الحكيم الرواقي عند الانفعال:

«يظل ذهنه قويمًا لا انثناء له، فيما دموعه تسيل بلا فائدةٍ»[1].

أما الحكيم عند المشَّائين فليس بمنجى من هذه الاضطرابات، غير أنه يعرف كيف يكبح من جماحها.

(1) Virgile, **Énéide**, IV, 449.

الفصل الثالث عشر

في احتفالية لقاء الملوك

1. ليس هناك من موضوعٍ -مهما قلّ شأنه- لا يستحق أن يُذكَرَ في هذه «المقالات»؛ فالقاعدة السائدة تُفتي بأن من قلة الأدب -متى تعلق الأمر بنظيرٍ لك، ناهيك عن أن يكون شخصًا ذا شأنٍ- ألا تكون في بيتك وقد ضرب لك موعدًا فيه، وكانت ملكة نافارّا تضيف إلى هذا الكلام قائلةً إن من قلة الأدب للشخص المهذب أن يخرج إلى لقاء من يأتي لرؤيته، مهما بلغ هذا الضيف من القوة والنفوذ، وإن الأليَقَ والأنسب أن ينتظره ليستقبله في البيت، على الأقل خوفًا من أن يضيع منه في الطريق، ويكفيه بعد ذلك أن يرافقه ليشيّعه متى شاء الرحيل.

2. أما أنا فكثيرًا ما أغفل عن هذين الواجبيْن اللذين لا طائلَ من أحدهما ولا من الآخر، مثلما أُبعِدُ عن بيتي ما استطعت ضجيجَ الحفلات وأجواءها، ولئن وجد بعضهم في هذا إساءةً فلست أملك له شيئًا، فَلَخَيرٌ لي أن أسيء إليه أو إلى غيره مرةً من أن أسيء إلى نفسي في كل يومٍ مرةً! ولو فعلت لكان في ذلك استعبادٌ دائمٌ لا نهاية له، ولماذا يفر المرء من عبودية البلاطات إذا كان سيجلبها بيده إلى عرينه؟

3. ومن القواعد الجارية كذلك في كل التجمعات أن أقل الناس شأنًا وأضعفهم جانبًا، هم من ينبغي لهم أن يكونوا أوائل الحاضرين في الموعد، على حين أن ذوي الشأن والمكانة لهم ما يشبه الحق في أن يجعلوا الآخرين ينتظرونهم، لكن ما جرى قُبيْل اللِّقاء الذي جمع بين البابا كليمنت الخامس والملك فرنسوا الأول في مرسيليا[1]، هو أن الملك بعد أن أمر ببدء الاستعدادات خرج من المدينة مبتعدًا، وترك يومين أو ثلاثة لضيفه كي يستريح من وَعْثاءِ السفر ويستقر في مكانه، قبل أن يأتي لمقابلته، وكذلك وقع حين وصل البابا والإمبراطور إلى بولونيا، حيث سمح الإمبراطور للبابا بأن يسبقه ثم لحق به.

4. ومن قواعد اللقاء العادية عند الأمراء في ما يقولون أن أكبرهم هو من ينبغي أن يصل قبل الآخرين، وحتى قبل المضيف نفسه؛ كي يتبين

(1) هذا اللقاء جرى في 1533 م.

للناس أن الأكبر هو من يقصده الأصاغِرُ ويتوجهون إليه، وأنهم هم طالِبو اللقاء به وليس العكس.

5. كما أن لكل بلدٍ طابعه الخاص في الاحتفالات، بل إن لكل مدينةٍ وكل مهنة احتفالاتها الخاصة، وقد رُبِّيتُ على هذا خيرَ تربيةٍ مُنذ الصِّغر، وعاشرتُ أناسًا لا يدعك العيش معهم تجهل قواعد اللياقة عندنا معشر الفرنسيين، لا بل إن باستطاعتي تلقين تلك القواعد للناس، وإني لأحب أن أتَّبعها، لكن ليس بطريقةٍ فيها من الخوف ما يجعل حياتي سجينةً لها، ولئن كانت لها بعض الجوانب الشاقة المرهقة، فإن التغاضي عنها قصدًا، وليس نسيانها بالخطأ، لا يُقَلِّلُ من مكانةٍ ولا ينتقص من منزلةٍ، ولطالما رأيت رجالًا جعلهم الإفراط في الكياسة يبدون عديمي الأدب، وآخرين صيَّرهم الإفراطُ في التملق والمجاملة داخلين في باب اللجاجة والإلحاح البغيض.

6. وتظل مهارة التعامل مع الناس جانبًا مُهمًّا من المعرفة؛ لأنها مثلها في ذلك مثل الأناقة والجمال، تسهّل الاتصال الأول بين الناس في المجتمع وتهيئ للتقارب والحميمية، وهي بالتالي تتيح لنا أن نتعلم من أمثلة الآخرين، وأن نُدْلي إليهم بأمثلتنا إن كان فيها ما يفيد وما يمكن إبلاغُه إياهم.

الفصل الرابع عشر

في عقابِ من يُصرّ على الدفاعِ عن حِصْنٍ حتى ولو كان الدفاع غيرَ مُجْدٍ

1. إن للشجاعة -مثل غيرها من الفضائل- حدودًا متى تجاوزها المرء صار إلى الرذيلة أقرب؛ فالعابر من بيت الشجاعة قد يُفضي إلى التهور والعناد والجنون إن لم يعرف حدودها حق المعرفة، وهي حدود يصعب في الواقع تحديدها على جوانب هذه الرذائل الثلاث، من هذه الاعتبارات تولَّدت العادة التي نتَّبعها في الحروب؛ إذ نعاقب أحيانًا حتى بالإعدام من يصرّ على الدفاع عن مكانٍ محصنٍ، تُبيّنُ القواعدُ العسكرية أنه لن يستطيع الصمود للحصار طويلًا؛ ذلك أنه لولا خوف العقاب لكان بإمكان كل ساكنِ كوخٍ أن يقف بكوخه في وجهِ جيشٍ عَرَمرَمٍ!

2. حين حاصر الدوق دو مونتمورنسي مدينة بافيا، وكان مكلفًا باجتياز نهر تيسان لينزل في ضاحية سانت أنطونيو، وقف في وجهه برج يقع في طرف الجسر فأعاقه طويلًا عن العبور، فلما استطاع في آخر المطاف اقتحامه أمر بشنق كل من وُجد فيه من المدافعين.

3. وقد عاد الدوق إلى مثل ذلك من بعد، حين كان برفقة السيد ولي العهد في رحلته إلى إيطاليا، فقد استولى الفرنسيون على حصن فيلان، وقَتل الجنود كل من كان بالحصن حتى القائد ومساعده، اللذين أمر الدوق بخنق أحدهما وشنق الآخر للسبب ذاته، ومثل ذلك ما فعل القائد مارتان دو بيليه -وهو وقتذاك حاكم تورينو، في إيطاليا أيضًا- حين أمر بشنق القائد سانت بوني، بعد أن أباد المهاجمون حامية الحصن إثر اقتحامه.

4. لكن، ولمّا كان للحكم بقوةٍ أو ضعفٍ مكانٌ معينٌ، إنما يقوم على أساس تقدير القوات التي تهاجمه؛ لأن من المنطقي مقاومة مهاجمٍ يملك مدفعيْن خفيفيْن، لكن يتعين أن يكون المرء مسعورًا كي يقف في مواجهة ثلاثين مِدفعًا ثقيلًا، ولمّا كان ذلك الحكم يأخذ في الحسبان أيضًا أهمية الأمير الغازي وسمعته والاحترام الواجب له، فمن الوارد أن نجعل كفتيْ الميزان ترجِّحان هذه الجهة على تلك.

5. ولهذه الأسباب ذاتها تجد بعض الناس المعجبين بأنفسهم وقدراتهم لدرجةٍ تجعلهم لا يتصورون أن باستطاعة أحدٍ أن يقف في وجوههم، يلاقون بالحديد والنار كل مقاومةٍ تقف في طريقهم، ما لم تدُر الدائرة عليهم، ومثل هذا ما نجده في أشكال الإنذارات والتحدّيات التي كان أمراء الشرق ما زالوا يُلقون بها بعضًا إلى بعض، بعجرفتها وتعاليها ومحتواها المتوحش العنيف.

6. وفي المنطقة التي هاجم منها البرتغاليون جزر الهند الشرقية وجد المهاجمون أمامهم دولًا تتبع القاعدة الكونية الثابتة، التي مفادُها أن كل عدوٍ يهزمه الملك بنفسه أو بنائبه لا يمكن أن يتمتع بأي اتفاقٍ على فدْيةٍ أو عفوٍ، ولذلك فأهم ما ينبغي للمرء الحرص عليه ما استطاع هو ألّا يقع في يد قاضٍ يكون عدوًّا منتصرًا مسلَّحًا.

الفصل الخامس عشر

في عقوبةِ الجُبْن

1. سمعت يومًا أميرًا كبيرًا وقائدًا عظيمًا يقول إن الجندي لا ينبغي له أن يُعدم بتهمة الجُبْن، وقد قال هذا الكلام بعد أن رووْا له وهو على المائدة قصة حاكم فيرفان[1]، الذي حكموا عليه بالإعدام لكونه سلَّمَ بولونيا، والحق أن الصواب يقتضي أن نقيم فارقًا كبيرًا بين الأخطاء التي تأتينا من ضعفنا، وتلك التي يبتلينا بها خبثُنا.

2. إننا بهذه الأخطاء الأخيرة نكون قد خالفنا عن عمدٍ ما وضعته الطبيعة فينا من قواعد للعقل، بينما يبدو لي أن لنا -بخصوص الأخطاء الأولى- أن نلقي بالتَّبِعَة على الطبيعة نفسها التي جعلتنا على هذه الحال من النقص والضعف؛ لذلك تجد كثيرًا من الناس يعتقدون أننا لا ينبغي أن نُلام إلا على ما نأتيه من فعلٍ لا ترضاه ضمائرنا، وعلى هذه القاعدة يقوم جزءٌ من رأي أولئك الذين يندّدون بعقوبات الإعدام المنفذة في حق الهراطقة والكفار، والرأي الذي يرى أن المحامي والقاضي لا يمكن أن يُدانا إذا تبين أنهما أخلّا بواجبهما عن جهلٍ لا عن قصدٍ.

3. أما في ما تعلق بالجُبْن، فما من شكٍ في أن أشهر عقوبةٍ له هي الخزي والعار، ويقولون إن هذه القاعدة قد سُنَّت من قبل المُشرِّع خاروندداس، وأن قوانين اليونان قبله كانت تعاقب بالإعدام الجنود الفارين من المعركة؛ فقد أمر خاروندداس بأن يُكتفى في حق هؤلاء بجعلهم يقفون لثلاثة أيامٍ متتاليةٍ في ساحة المدينة وهم يرتدون ملابسَ نسائية، وكان يرجو أن يعيد إليهم بهذه المعاملة المهينة بعض شجاعتهم؛ فيفيد منهم بعد ذلك في خدمته. **«خير لك أن تجعل الدم يصعد إلى وجه رجلٍ من أن تريقه»**[2].

4. ويبدو أيضًا أن القوانين الرومانية كانت في ما مضى تُعاقِب بالإعدام كل من فرّ من المعركة؛ لأن أميانوس مارسيلينوس يقول إن الإمبراطور يوليانوس حكم على عشرةٍ من الجنود كانوا قد أداروا ظهورهم خلال هجومٍ على البارثيين بالخفض من رتبهم ثم بالموت طبقًا -حسب قوله-

(1) أوردها الأخوان دو بيليه، مرجع مذكور، 10.

(2) Tertullien, **Apologétique**, IV, 9.

للقوانين القديمة، لكننا نجده في مكان آخر، ومن أجل خطإٍ مشابهٍ، يحكم على آخرين فقط بأن يوضعوا مع المساجين ولا يُقام لهم أكثر مما يقام للمتاع من اعتبارٍ.

5. والحكم القاسي الذي أصدره الشعب الروماني على الجنود الذين فرّوا من معركة كاناي، وأثناء الحرب ذاتها ضد أولئك الذين انهزموا مع جنايوس فولفيوس، هذا الحكم لم يبلغ درجة الإعدام، لكن ما يُخشى ساعتئذٍ هو أن يصيبهم العار باليأس، فلا يُصابوا باللامبالاة فحسب، بل ربما عُدُّوا من بين الأعداء.

6. في أيام أجدادنا، يرْوون أن السيد دو فرانجي، الذي كان في ما قبل رئيسًا لديوان السيد الماريشال دو شاستيون، عيَّنه السيد الماريشال دو شابان حاكمًا لفوينتيرابيا عِوضًا عن السيد دو لود، فأعاد هذا الحِصن إلى الإسبان، وعُوقب على ذلك بأن حُكم عليه بالتجريد هو وذريته من ألقابهم النبيلة، وأُعلن بين الناس أنه صار من السُّوقة العَوام، وأُخضع للضريبة السنوية كعامة الشعب، ومُنع من حمل السلاح، وقد نُفِّذ هذا الحكم القاسي في مدينة ليون.

7. من يومئذٍ، جرى تطبيق هذه العقوبة في حق النبلاء الذين كانوا في مدينة غيزا ساعة دخول الكونت دو ناسو إليها، وفي حق آخرين غيرهم بعد ذلك، لكن في حال الوقوف على مقدارٍ من الجهل أو الجُبْن يجاوز غيره وضوحًا وخِسَّةً، فمن العدل اعتبار ذلك بمثابة دليلٍ على الشر والخبث، ومعاقبته بناءً على ذلك.

الفصل السادس عشر

بخصوصِ بعض السُّفراء

1. خلال أسفاري، ورغبةٌ مني في التعلّم على الدَّوام من محادثاتي مع الناس -وتلك واحدةٌ من أعظم المدارس نفعًا- كنت أحرص على أن أعود دائمًا بمُحادثي إلى المجال الذي يتقنه.

«فليتكلم القبطان عن الرياح
والفلاح عن الثيران
والمحارب عن جراحه
والراعي عن القطعان»[1].

2. ذلك أن الناسَ كثيرًا ما يرغب الواحد منهم في الحديث عن مهنةٍ ليست مهنته، متصورًا أنه يصنع لنفسه بذلك مجدًا جديدًا، والدليلُ على ذلك ما أخذه أرخيداموس على بيرياندروس حين قال له إنه تخلى عن مجد الطبيب البارع ليستبدل به مجد الشاعر الرديء.

3. وانظرْ كمْ يبذل يوليوس قيصر من الوقت في إبهارنا بابتكاراته في مجال بناء الجسور وآلات الحرب، وكم تجده على العكس من ذلك كَتومًا متحفظًا متى تعلق الأمر بالجوانب الخاصة بمهنته وشجاعته وقيادته لجيوشه؛ فإنجازاته تدل على أنه كان قائدًا عسكريًّا عظيمًا، لكنه يريد لنفسه سمعةَ المهندس البارع، وهما أمران كما ترى مختلفان!

4. كان ديونيسيوس الأكبر قائدًا عسكريًّا عظيمًا كما كان ينبغي لرجل في رتبته، غير أنه كان يبذل عظيمَ الجهد في حمل الناس على منحه صفة الشاعر، في حين أنه لم يكن يفْقه في الشعر شيئًا.

ويروون أن أحد رجال القانون كان في زيارةٍ لديوان به مكتبةٌ تضم أصنافًا من الكتب في تخصصه وفي تخصصاتٍ أخرى، فلم يجد شيئًا يقوله، لكنه توقف طويلًا ينتقد انتقاد الخبير المتشدّد درابزين وضِعَ على السُّلم قبالة الديوان، والحال أن مئة جنديٍّ وقائدٍ كانوا يعبرون من هناك يوميًّا، ويرون الدرابزين دون أن يلاحظوه فبالأحرى أن يستاءوا منه!

(1) أبياتٌ إيطاليةٌ مترجمةٌ عن بروبرس، 2-1-43

«يتمنى الثور السَّرْج فيما يحلم الحصان بالحرث»[1].

لكن مثل هذا السلوك لا يُجدي نفعًا أبدًا.

5. لذلك ينبغي الاجتهاد دومًا في الرجوع بالمهندس والرَّسام والرَّفَّاء وغيرهم كُلٌّ إلى مجاله، وبهذا الخصوص فقد اعتدت عند قراءة كتب التاريخ، التي يكتبها أناسٌ من جميع الأصناف والأنواع، أن أبحث عن الكاتب من يكون، فإنْ كان الرجل لا يشتغل بالأساس إلا في مجال الأدب أخذتُ عنه الأسلوب واللغة، وإن كان طبيبًا وجدت متعةً في الاستماع إليه وهو يتحدث عن الهواء وعن صحة الأمراء ومزاجهم وعن الجراح والأمراض، فإن لقيتَ رجالَ القانون فتعلَّمْ منهم أشياءَ عن الخلافات القانونية والقوانين والتنظيم السياسي وغيرها، أو رجالَ الدين فخذْ عنهم معرفةً بشؤون الكنيسة والقوانين والضوابط الكنَسيَّة والرُّخَص وحفلات عقد القران، أو رجالًا من البلاط فأسرارَ البروتوكول والحفلات، أو رجالَ حربٍ فما هو من شأن مهنتهم، وعلى الخصوص حكايات الإنجازات الحربية التي حضروها شخصيًّا، أو سفراءَ فالمشاريع والأسرار والعمليات وكيفية قيادتها.

6. ولهذا السبب فإن ما كنت سأمرّ عليه مرور الكرام فلا ألتفت إليه عند شخصٍ آخر، توقفت عنده وسجلته حين وجدته مدوَّنًا في كتاب التاريخ للسيد دو لانجي[2]، الذي أعرف له خبرته العميقة بمثل هذه المسائل.

وإليكم ما يرويه: كان الإمبراطور كارلوس الخامس قد قام، خلال المجلس الكنسيِّ المنعقد بروما وبحضور أسقف ماكون والسيد دو فيلي، بتوجيه كلامٍ قاسٍ إلى سفرائنا، ضمَّنه أقوالًا جارحةً في حقنا، من بينها أن جنوده وقادَته لو لم يكونوا أكثر إخلاصًا ووفاءً وأكثر معرفةً بفن الحرب من جنود الملك، لكان ربط حول عنقه حبلًا وتوجَّه إليه متوسلًا رحمته -ويبدو أنه كان مقتنعًا بهذا الأمر كامل الاقتناع؛ لأنه ردده ثلاث مرات في حياته- بل وذهب الإمبراطور إلى أن تحدّى الملك في مبارزةٍ بالقميص والسيف والخنجر على ظهر سفينة.

---

(1) Horace, **Épîtres**, I, 14.

(2) هو غيوم دو بيليه، مؤلف «المذكرات» رفقة أخيه مارتان.

7. وقد أضاف السيد دو لانجي وهو يروي هذه الحكاية، أن السُّفراء وهم يقدمون تقريرهم إلى الملك عن هذا الأمر أخفوا عنه أكثره بل وكتموا عنه النقطتين الأخيرتين، والحال أني أستغرب أن يكون للسفير حق الاختيار بين ما سيبلغه لسيده وما سيكتمه عنه، خصوصًا حين يتعلق الأمر بكلامٍ خطيرٍ كهذا الكلام، قد نطق به شخصٌ مثل الإمبراطور أمام جمع من الناس.

8. ما أراه هو أن مهمة الخادم هي أن ينقل الأشياء كما حدثت دون زيادةٍ أو نقصانٍ، حتى تبقى حرية التصنيف والحكم والاختيار للسيد وحْدَه دون غيره؛ فإخفاء الحقائق عن شخصٍ أو إبلاغه إياها مشوهةً خشيةَ أن يتناولها على غير وجهها أو أن يتخذ قرارًا غير صائبٍ، وتركه جاهلًا طرفًا من أموره، يبدو لي أنه من شأن من يصدر القانون لا من يتلقاه، أي من شأن الوصي والمُعلِّم، لا من شأن الذي ينبغي له أن يعتبر نفسه في مرتبةٍ أدنى من حيث السلطة والحكمة وحسن التصرف، ومهما يكن فلست أود أن يخدمني الناس بهذه الطريقة حتى في حالي المتواضع.

9. نحن لا نتردد في الانفلات من السلطة بهذا المبرّر أو ذاك، مختلسين بذلك بعضًا من سلطة السيد، فالنزوع الطبيعي عند الناس للحرية والسلطة يجعل خيرَ ما يفيد به الخادم سيده طاعتَه البسيطة والفطرية له.

10. إن الذي يخضع للسلطة بالعقل لا بالطاعة يُفسِدُ على الحاكم سلطتَه، ويروون أن كراسوس -الذي عَدَّ له الرومان خمس إنجازات كبرى حين كان قنصلًا في آسيا- طلب يومًا من مهندسٍ يونانيٍّ أن يأتيَه بكبرى ساريتيْن عظيمتيْن رآهما في أثينا؛ كان يريد استعمالهما في صنع عربة مدفعٍ، غير أن المهندس اطمئنانًا منه إلى علمه، أعطى نفسه الحق في الاختيار، فارتأى أن يأتيَه بصغرى الساريتيْن التي بدت له أليق للعمل المطلوب، فلما رجع إلى كراسوس أنصت إليه هذا بكل هدوءٍ فيما هو يشرح له وجهة نظره، حتى إذا انتهى من كلامه أمر بجلْده، موليًا إلى النظام والانضباط أهميةً أكبر من أهمية العمل نفسه.

11. وقد نعتبر من جهةٍ أخرى أن مثل هذه الطاعة العمياء المطلقة إنما تُطلَب متى كان الأمر الصادر عن السيد أمرًا واضحًا أُعطِيَ للخادم مسبقًا. أما السُّفراء فلهم بعض الحرية في مهامهم؛ إذ كثيرًا ما يرتهن القرار بتقديرهم وحده، وهم بذلك لا يكتفون بالتنفيذ بل يشكلون ويوجهون أيضًا، بالآراء التي يصدرونها، إرادة السيد ورأيه. ولقد رأيت في زمني أناسًا كانوا مكلَّفين بالقيادة، فتلقوا اللَّوم والتأنيب على كونهم نفذوا أوامر الملك بحذافيرها عِوضًا عن أن يتصرفوا وَفْقَ ما كان يمليه عليهم الوضع كما عاشوه.

12. ما زال الناس ذوو الرأيِ السَّديد ينتقدون حتى اليوم ما كان يسير عليه ملوك الفرس، من جعل أوامرهم إلى قادتهم ورجالهم دقيقةً إلى حدٍ يجعل هؤلاء مجبرين على الرجوع إلى الملك كلما جدَّ جديدٌ ولو كان تافهًا؛ ففي إمبراطوريةٍ واسعةٍ مترامية الأطراف كالإمبراطورية الفارسية، كان لا بد للتأخر في التواصل الناجم عن بُعد المسافات أن يتسبب في إفساد الكثير من أمورهم. وكراسوس، وهو يكتب للمهندس شارحًا له الغرض الذي كان يبتغيه من السارية، ألم يكن يبدو كأنه يطلب منه وجهة نظره ويستحثه لاتخاذ موقفٍ شخصيٍّ من الأمر؟

الفصل السابع عشر

في الخوْف

«بقيتُ كالغبي البليد، وانتصبَ شعرُ رأسي
وتوقفَ صوتي في حلقي»[1].

1. لستُ بالعَالِمِ بشؤون الطبيعة ولا بأسرارها، كما يقولون، ولا أدري بأي طريقةٍ يعمل الخوف فينا، لكن مهما يكن فإنه من أغرب ما يصيب المرء من حالاتٍ، وليس هناك -حسب قول الأطباء- حالةٌ تؤثر في رجاحة عقولنا وتذهب بصوابنا مثلما يفعل الخوف، ولقد رأيت بالفعل بأمِّ عيني أناسًا جُنُّوا خوفًا، وحتى لدى أكثرهم ثباتًا ورباطة جأشٍ فإن الخوف يولِّد أوهامًا مرعبةً. وأنا هنا لا أتكلم عن عامة الناس، الذين يجعلهم الخوف تارةً يرون أجدادهم بارزين من الأجداث متلفِّعين بأكفانهم، وتارةً يرون مُسُوخًا ووحوشًا وعفاريت. وحتى لدى الجنود، المفروض أن يكون تأثير الخوف فيهم أدنى. ألم نرَ مراتٍ عديدةً كيف أن الخوف صنع من قطيعٍ من النِّعاج فيْلقًا من المقاتلين الأشداء، ومن القصب والخيزُران جنودًا ورمَّاحين، ومن أصدقائنا أعداءً، ومن الصليب الأبيض صليبًا أحمرَ[2]؟

2. حين دخل السيد دو بوربون روما فاتحًا، أُصيب أحد حمَلة الأعلام -الذي كان مكلَّفًا بحراسة حصن بورغ سان بيير- عند سماع الإنذار الأول بهلعٍ بلغ من الشدة أن جعله يقفز من ثقبٍ في السور حاملًا رايته، فخرج عند العدو وهو يحسب نفسه قد ارتمى إلى داخل الحصن[3]، ولم يدرك الرجل خطأه إلا حين رأى جنود السيد دو بوربون يتخذون وضع القتال للاشتباك معه، حاسبين بدورهم في بادئ الأمر أنه طليعةُ فرقةٍ عسكريةٍ خارجةٍ من المدينة لمحاربتهم، فاستدار وولى هاربًا حتى دخل من حيث خرج، بعد أن قطع أكثر من ثلاثمئة خطوةٍ دون أي حمايةٍ.

3. أما حامل راية القبطان جول فلم يحظَ بمثل ما حظي به صاحبه من حُسن

(1) Virgile, **Énéide**, II, 774.

(2) كان «الصليب الأبيض» هو صليب البروتستانتيين.

(3) G.et M. Du Bellay, **Mémoires...**, II, p. 30.

الطَّالع، يوم انتزع منا الكونت دو بور والسيد دو ريو مدينة سان بول[1]، فقد دفع الرجلَ هلعُه إلى الارتماء خارج المدينة حاملًا رايته، فقطعته سيوف المهاجمين أشلاءً، وخلال هذا الحصار ذاته نذكر ذلك الرجل النبيل الذي اجتاحه الرعب اجتياحًا صعقَه وجمَّد الدمَ في عروقه، فوقع ميتًا قرب إحدى شرفات السور دون حتى أن يُصاب بأدنى جرح.

4. وقد يصيب مثل هذا الجنون مجموعةً من الناس معاً، فخلال إحدى معارك جيرمانيكوس ضد الألمان، اتخذت كتيبتان عظيمتان من الجُنْد، تحت تأثير الهلع، طريقين متقابلين، فكانت إحداهما تفر من المكان الذي كانت الأخرى في الآن نفسه تتوجه إليه.

5. أحيانًا يطلق الخوف سيقاننا للريح، مثل الحالتين اللتين ذكرناهما، لكنه أحيانًا يجعلنا نتجمَّد في أماكننا عاجزين عن الإتيان بأي حركةٍ، ومثل هذا ما يروونه عن الإمبراطور ثيوفيلوس، الذي أصابه الرعب في نهاية معركةٍ خسرها أمام الهاجريّين، فلم يقْوَ حتى على الفِرار بجلده.

«لَفَرطِ ما يرتعب الخوفُ حتى من النجدة»[2].

حتى جاءه مانويل الأرمني (أحد كبار قادته) فأمسك به وخَضَّه بعنفٍ كمن يريد إيقاظه من سُباتٍ عميقٍ، وقال له: «إنْ لم تأتِ معي فسأقتلك؛ لأن من الخير لك أن تموت على أن نفقد الإمبراطورية بوقوعك أسيرًا في أيدي الأعداء».

6. ويبلغ الخوف أقصى درجاته حين تراه يعيد إلينا الشجاعة التي سلبها من واجبنا ومن شرفنا، ففي المعركة الحقيقية الأولى التي خسرها الرومان ضد حنبعل*[3]، وهم بقيادة القنصل سيمبرونيوس، استولى الهلع على فرقةٍ من الجنود المشاة تفوق العشرة آلاف رجلٍ، فلم يجدوا من وسيلةٍ يصرِّفون بها جبنهم وخوفهم غير الارتماء في قلب

(1) مدينة استولى عليها الإمبراطور كارلوس الخامس ودمرها تماما في سنة 1537م.
(2) Quinte-Curce, **Histoire d'Alexandre le Grand**, III, XI, 12.
(3) * حنبعل أو هانيبال (247 ق.م - 183-181 ق.م تقريبًا) قائد عسكري قرطاجي.

جيش العدو، فاخترقوه وأحدثوا في القرطاجنيين مجزرةً عظيمةً، فدفعوا بذلك ثمنًا لفرارهم المخجل ما كانوا سيدفعونه ثمنًا لنصرٍ باهرٍ مشرفٍ. إن أكثر شيءٍ أخشاه هو الخوف! ذلك أنه يتجاوز في حدته وفظاظته كل ما عداه من المصائب.

7. وأي انفعالٍ يا تُرى يمكنه أن يكون أقسى وأصْوب في الآن ذاته من انفعال أصدقاءِ بومبّيوس، وهم يشاهدون من على ظهر سفينته تلك المجزرة الرهيبة؟[1]

8. بيْد أن الخوف من الأشرعة المصرية التي كانت تقترب منهم خنقه بطريقةٍ جعلت الآخرين يلاحظون ذلك، فلم يعد لهم من شاغلٍ سوى حثِّ الجدّافين على الإسراع في الجدف حتى أفلتوا بذلك من العدو، لكن ما أن وصلوا إلى مرفأ طور، وتخلصوا من كل خوفٍ، حتى أحسوا بالخسارة الكبيرة التي مُنوا بها، فأطلقوا العنان للعويل والدموعِ التي كان انفعال الخوف القوي قد حبسها. «**عند ذلك انتزعَ الخوفُ من قلبي كل أثرٍ للحكمة**»[2].

9. في الحروب، يعود القادة بجنودهم إلى المعركة بعد أن تكون معركة الأمس قد أنهكتهم، فيدخلونهم الميدان من جديدٍ وجراحهم ما زالت تنزف، أما الذين خافوا من العدو فلا يُسمح لهم بعدئذٍ بأن يقفوا في وجهه لكيْلا يرى عيونهم المليئة خوفًا! أولئك الذين ترعبهم فكرة فقدان أملاكهم، أو الاضطرار للمنفى، أو الوقوع في براثن الاستعباد، يعيشون رعبًا دائمًا يُفقدهم شهية الطعام والشراب، ويُذهب عن أعينهم النوم. أما الفقراء والمنبوذون والخدم، فكثيرًا ما تجدهم يعيشون سعداءَ سعادة الآخرين مسرورين سرورَهم، وإن في كل أولئك الذين لم يعودوا يطيقون وخزَ الخوف وهَمزَه، فمنهم من شنق نفسه، ومنهم من أغرقها، ومنهم من ألقى بها من علٍ؛ لخيرُ دليلٍ على أن الخوف قد يكون أصعبَ من الموت ذاته، وأشقَّ على النفس.

---

(1) حدثت أثناء معركة فارسالوس، ويبدو أن مونتيني استقى حكايته هذه عن شيشرون.

(2) Ennius, **De finibus**, in Cicéron, Tusculanes, IV, VIII, 1919.

10. كان اليونانيون يعرِّفون صنفًا آخر من الخوف، يقولون عنه إنه لا يتولد عن خطإٍ في التقدير، وليس له سببٌ ظاهرٌ، بل إنه يأتي كحافزٍ ذي أصلٍ إلهيٍّ، ويقولون إنه كان يصيب شعوبًا بأكملها وجيوشًا برمتها، كما حصل في قرطاج، حيث تسبب هذا النوع من الخوف في خرابٍ شديدٍ[1]. لم يكن يُسمع في المدينة سوى صرخات الرعب؛ كنت ترى السكان يخرجون من بيوتهم وكأنهم مستنفَرون لحربٍ، فيهاجمون بعضهم، ويصيب بعضهم بعضًا بالجراح، ويقتل بعضهم بعضًا، كما لو أن عدوًّا قد اقتحم مدينتهم واختلط بهم ليأخذ المدينة. سادت الفوضى والخراب حتى استطاع بعض القوم، بالدعاء والصلوات وتقديم القرابين، إخماد غضب الآلهة، وكانوا يسمون هذا الخوف «الذعر المرعب».

(1) Diodore de Sicile, **Sept livres des Histoires...**, XV, 7.

الفصل الثامن عشر

لا ينبغي الحكم على سعادتِنا إلا بعد الموت

يجب دائمًا انتظار الساعة الأخيرة للرجل

«ولا يمكن القول عن إنسانٍ إنه كان سعيدًا قبل وفاته وجنازته»[1].

1. الأطفال بهذا الصدد يعرفون قصة[2] الملك كرويسوس، فحين وقع أسيرًا في يد كورش وحُكم عليه بالإعدام، وحانت لحظة تنفيذ الحكم، صرخ بأعلى صوته قائلًا: «سولون، يا سولون!» فلما بلغ الخبر أسماع كورش سأله عما قصد بذلك، فأجابه كرويسوس أنه كان ساعتئذٍ يتحقق من صحة التحذير الذي وجهه له سولون في الماضي، حيث قال له: «إن المرء مهما كان القدَر سخيًّا معه، لا ينبغي له أن يقول إنه سعيدٌ قبل نهاية اليوم الأخير من حياته؛ لأن شؤون البشر هي من التذبذب والتنوع بحيث إن أدنى تغييرٍ قد ينقلب بها من حالٍ إلى حالٍ، بل وقد يقلبها رأسًا على عقِب».

2. وهذا ما أجاب به أجيسيلاوس شخصًا قال له، إن ملك الفرس رجلٌ سعيدٌ لأنه بلغ في سن الشباب تلك المرتبة العظيمة: «أجل، لكن الملك برياموس أيضًا كان سعيدًا في مثل هذه السن».[3] وبين ملوك مقدونيا من سلالة الإسكندر العظيم تجد نجّارين وكُتاب ضبطٍ في روما وطواغيت في صقلية ومعلمين في كورنثوس، «ففاتح نصف العالم، وقائد الجيوش الجرارة، انقلب إلى متوسلٍ بائسٍ عند أقدام موظفي ملك مصر الفاشلين، هذا ما كلفت بومبّيوس الأكبر إطالة عمره لخمسة أشهر أو ستة»[4].

3. وفي زمن أجدادنا، ها هو لودوفيكو سفورزا، الدوق العاشر لميلانو، الذي بعد أن قضى سنواتٍ في تحريض الإيطاليين ضدنا، أنهى أيامه سجينًا في لوش، لكن بعد قضاء عشر سنواتٍ كاملةٍ في السجن، وهو

(1) Ovide, **Les Métamorphoses**, III, 135.

(2) Hérodote, **L'Enquête**, I, 86.

(3) Plutarque, **Œuvres morales**, trad. Amyot, **Dits des Lacédémoniens**, 27.

(4) بعد معركة فارسالوس، فرّ بومبيوس إلى ملك مصر بطليموس الرابع عشر لاجئًا، لكن الملك بعد أن أجاره لمدة أسابيع، قتله وقطع رأسه وبعث بها إلى يوليوس قيصر.

أسوأ ما كان يمكن أن يقع له[1]. ثم ألمْ تمت أجمل الملكات[2] -زوجة أكبر ملوك المسيحية- على يد الجلاد منذ زمنٍ قريبٍ، في مشهدٍ من القسوة المتوحشة الشائنة؟ ويمكن سرد آلاف الأمثلة من هذا القبيل؛ إذ مثلما تجرح بناياتنا اليوم برؤوسها المشرئبة كبرياء العواصف والأعاصير، فكذلك يبدو أن هناك في السماء أرواحًا تغار ممن على الأرض من بشرٍ عظام الشأن؛ لكثرة ما نرى قوى غامضةً تطيح بقوى البشر.

«فتدوس بالأقدام كبرياء الحزم والفؤوس القاسية
وتجعل منها موضوعًا للتندر والسخرية»[3].

4. يبدو أن القدر ينتظر بالذات اليوم الأخير من حياتنا؛ كي يبين لنا أنه قادرٌ على أن يهدم في لحظةٍ ما بناه في سنواتٍ طويلةٍ، وعلى أن يجعلنا نصرخ على إثر لابيريوس: «لا شك أن هذا اليوم يومٌ من حياتي زائدٌ عن اللزوم»[4].

5. هكذا يمكن أن نفهم تحذير سولون، لكن لما كان الرجل فيلسوفًا وأن الفلاسفة لا يرون في ابتسام القدر ولا في عبوسه أفراحًا ولا مصائب، وأن العظمة والقوة إنما هما حَدَثان عارضان لا يؤبه لهما، أرجح أنه كان ينظر أبعد من ذلك بقليلٍ، وأن ما كان يقصده هو أن السعادة في الحياة، التي تبقى رهينةً بهدوء عقلٍ نابهٍ وراحته، وبتصميم روحٍ قويةٍ وعزمها، لا ينبغي أن تُنسب إلى رجلٍ ما لم نشاهده وهو يلعب آخر فصول مسرحيته، الفصلَ الذي يكون في غالب الأحيان أصعب الفصول وأشقّها جميعًا.

6. فنحن في كل ما هو دون ذلك قد نجد التصنع والتظاهر، فإما أن هذه الخطابات الفلسفية الجميلة ليست فينا سوى نزوعٍ باهتٍ، وإما أننا -ما دمنا بمنأى عن مصائب الحياة- نحافظ على انفراج أسارير نا، لكن متى

(1) لودوفيكو سفورزا (المعروف بلودوفيكو الأسمر) وقع أسيرًا في يد الفرنسيين إثر خيانةٍ من بعض خاصته في 1500، فصار سجينًا عند الملك لويس الثاني عشر، ومات في سجنه عام 1507.

(2) ماري ستيوارت، زوجة فرنسوا الثاني، التي أعدمت بقطع رأسها في 18 فبراير 1587.

(3) Lucrèce, **De la Nature**, V, 1233.

(4) Macrobe, **Les Saturnales**, II, VII, 3.

ما حان أجل المشهد الأخير بيننا وبين الموت لا يبقى ثمّة مجالٌ للتظاهر، بل يتعين الكلام الصادق وكشف ما بقاع الإناء من جيدٍ وواضحٍ.

«فحينئذٍ فقط ننطق بكلامٍ صادقٍ يخرج
من أعماق القلب، ويزول القناع ولا يبقى سوى الحقيقة»[1].

7. لذلك، فإن هذه اللحظة الأخيرة هي المحك والاختبار لكل أعمالنا الأخرى في الحياة: إنه اليوم الأكبر، اليوم الذي يحاكم كل الأيام الأخرى ويصدر حكمه عليها. وكما قال أحد القدماء، فإن ذلك اليوم «هو الذي سيحكم على كل سنواتي الماضية»[2]، وإني أعهد للموت باختبار ثمرة دراساتي، وسنرى حينئذٍ هل سترِدُ هذه الكلمات الجميلة على لساني وهل ستخرج من أعماق قلبي.

8. ولقد رأيت الكثيرين ممن أعطوا بموتهم سمعةً طيبةً أو مشينةً لحياتهم كلها، وها هو سكيبيو الإفريقي (والد زوجة[3] بومبيوس)، قد محا بميتته الشريفة كل السمعة السيئة التي لاحقته حتى يومئذٍ، وقد سألوا إبامينونداس يومًا عمّن يبدو له الأفضل بين ثلاثة رجال: هو وخابرياس وإيفيقراطيس، فأجابهم قائلًا: «يجب أن ترونا ونحن نموت قبل أن تقرروا مَن بيننا الأفضل». والحق أننا نظلم كثيرًا مَن نحاكمه دون أن نأخذ في الحسبان ما أبدى عنه ساعة الوفاة من شرف نفسٍ ومن جلال قدْرٍ.

9. إن الله يفعل ما يشاء، لكن في زمني، فإن الأشخاص الثلاثة الأكثر استحقاقًا للمقت الذين عرفتهم في حياتي؛ لكون حياتهم كانت فظيعةً شنيعةً كريهةً، حظوا جميعًا بموتٍ مرتبٍ منظمٍ في أدق تفاصيله حتى درجة الكمال.

10. يأتي الموت أحيانًا بوجهٍ جميلٍ سارٍّ، وقد رأيت الموت يقطع خيط حياة

(1) Lucrèce, **De la Nature**, III, v. 57.

(2) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, XXVI et LXXXII.

(3) أخطأ مونتيني هنا، فالذي فضّل الموت على الوقوع أسيرًا هو زوج ابنة بومبيوس، لا والد زوجته.

شخصٍ موعودٍ بمستقبلٍ زاهرٍ، ورأيته يوقف بغتةً مسار شخصٍ في صعودٍ ويُمنٍ طالعٍ، فيرسم له نهايةً فيها من السموّ والشرف، ما يجعلني أعتقد أن مراميه الطموحة الشجاعة ما كانت لتبلغ مرتبة وشرف الميتة التي قطعتها؛ فقد بلغ مراده دون أن يتعب في ذلك، وبلغه بمجدٍ ونبلٍ لم تصورهما له نوازعه ولا مُناه، وأصبح بسقوطه أعلى مرتبةً وأرفع مقامًا مما كان يسعى ويطمح إليه بعمله[1].

11. حين أريد الحكم على غيري أنظر دائمًا كيف كانت نهايته، وأهمّ ما يشغلني بشأن نهايتي أنا، هو أن تكون حسنةً، أي أن تحدث في هدوءٍ وصمتٍ.

(1) عمّن يتكلم مونتيني هنا يا ترى؟ لعله يقصد دو لابويسي.

الفصل التاسع عشر

أن تتفلْسف معناه أن تتعلم كيف تموت

1. يقول شيشرون إن التَّفلسفَ ليس سوى استعدادٍ للموت؛ ذلك أن الدراسة والتأمل تخرجان روحنا بشكلٍ من الأشكالِ إلى خارج كياننا وتشغلها بعيدًا عن الجسد، مما يشكل نوعًا من تَعَلُّم الموت ويكتسي بعض الشبه به، أضف إلى ذلك أن كل حكمة العالم وتفكيره يمكن أن يلخَّصا في هذه النقطة: تعليمنا كيف لا نخشى الموت.

2. وللحقيقة، فإما أن العقل يسخر منا، وإما أن كلَّ همِّه إرضاؤنا وكل عمله ينبغي أن يصبَّ في آخر المطاف في جعلنا نعيش عيشةَ رغَدٍ وأن نعيش كما نشاء، كما جاء ذلك في الكتب المقدسة، وما من تصورٍ عن العالم إلا ويفضي بنا إلى هنا: المتعة هي هدفنا، حتى وإن تعدَّدت وسائل الحصول عليها وتنوعت، فإن لم تكن تلك الوسائل كذلك، دفعناها بعيدًا عنا؛ إذ من سينصت لشخصٍ يضع لنفسه هدفًا يتمثل في ألمنا وشقائنا؟

3. إن الخلافات بين المذاهب الفلسفية حول هذا الموضوع خلافاتٌ لفظيةٌ ليس غير «فلنتجاوز سريعًا هذه التفاهات الدقيقة البارعة»[1]. هناك قدْرٌ من العناد ومن المضايقات لا يليق بمهنةٍ نبيلةٍ هذا النبل، لكن أيًّا كانت الشخصية التي يريد المرء أن يتقمَّصها فلن يفعل ذلك إلا وهو يتقمص شخصيته هو أيضًا في الآن ذاته[2]، ومهما يقال فإن الهدف الأخير لمساعينا، حتى في الفضيلة، هو المتعة. ولكَم يعجبني أن أقرع مسامعهم بهذه الكلمة التي تضايقهم أيَّما مضايقةٍ؛ إذ إنها إذا كانت تعني اللَّذة المطلقة والرضا الفائض، فليس من سبيلٍ للحصول عليها أفضل من سبيل العفة[3].

4. فإذا كانت هذه الشهوة قويةً مُلهبةً آسِرَةً قويةً مسيطرةً، فإنها لا تكون إلا أكثر إمتاعًا، وكان علينا أن نسميها «اللَّذة»، وهي كلمةٌ لطيفةٌ طبيعيةٌ بسيطةٌ، عِوضًا عن أن نطلق عليها اسم قوةٍ (أي الفضيلة) كما فعلنا[4].

(1) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, 117.

(2) يقول المثل بهذا الصدد: لا يغلب الطبعَ التطبعُ.

(3) هذه الفقرة والتي تليها غامضتان أشد الغموض، وقد حاولت هنا أن أقدم تأويلاً شخصيًا لهما مثلما فعل السابقون.

(4) هذه الفقرة والتي تليها غامضتان أشد الغموض. وقد اخترت - عوض الالتفاف على الأمر بترجمة كلمات مونتيني كما جاءت - أن أقدم قراءتي الخاصة.

5. ولو أن هذه الشهوة استحقت اسم اللذة الجميل، لما كان ذلك نتيجةً لمزيَّةٍ بل لتنافسٍ وتسابقٍ؛ لأني أجد لها من المساوئ والصعوبات ما لست أجده للفضيلة. فعلاوةً على مذاقها اللحظي المتموج الهش، فإن لها سهادها وصيامها وأعمالها، وإن لها تبعاتٍ من العرق والدم، هذا دون أن ننسى آلامًا مبرِّحةً من كل الأنواع، وبجوارها شَبَعٌ ثقيلٌ بحيث يبدو كأنه كفَّارةٌ.

6. نحن نخطئ عظيم الخطأ حين نعتقد أن ما يسبق المتعة ويصاحبها من متاعب يحفز حلاوتها ويزيد فيها، تمامًا كما نرى في الطبيعة أن النقيض بنقيضه يحيا ويتقوى، وتمامًا حين نقول عن الفضيلة إن تلك العواقب والمصاعب ترهقها، وتجعلها عابسةً متزمتةً صعبة المنال لا تدرَك، فهذه الصعوبات في حال الفضيلة أكثر منها حَال المتعة ترتقي وتسمو باللذة الإلهية الكاملة التي تعطينا إياها، فتبلغ بها عنان السماء.

7. إن من يضع ذوقه في مقابل الربح والفائدة لا يستحق مخالطة الفضيلة؛ لأنه لا يعرف لا محاسنها ولا حسن استعمالها، ومن يقولون لنا إن إدراك الفضيلة صعبٌ شاقٌّ والاستمتاع بها حُلوٌ لذيذٌ، هل يقولون سوى أنها على الدوام مُستَقبَحَةٌ بغيضةٌ؟ فبأي وسيلةٍ بشريةٍ يا تُرى بلغ أحدنا قطُّ درجة الاستمتاع بالفضيلة؟ إن أقربنا للكمال لن يَعدُوَ أن يطمح إليها ويقاربها دون أن يدركها أبدًا.

8. لا، بل إنهم واهمون؛ فمِن بين جميع المُتع التي نعرفها، تكون ملاحقة الفضيلة هي في ذاتها ممتعةٌ؛ وإن نوعية عملٍ معينٍ ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنوعية موضوع هذا العمل وهدفه؛ إذ إن تلك النوعية تمثل قسمًا معتبرًا من الأثر المطلوب، وهي من طبيعته نفسها، والسعادة والنعيم اللذان يلمعان في جبْهة الفضيلة، يملآن كل حواشيها وكل الطرق المؤدية إليها من المدخل الأول إلى آخر حاجزٍ من حواجزها، وأحد أهم فوائد الفضيلة احتقار الموت، ما يعطي لحياتنا هدوءًا لطيفًا ويتيح لنا تذوُّقها وحبها، وهو ما تظل كل شهوةٍ من دونه فاترةً لا مذاقَ لها.

9. لذلك تجد أن القواعد الأخلاقية كلها تنصبُّ على هذا الاحتقار للموت وتجتمع حوله، ورغم أن هذه القواعد تقودنا -بلا خلافٍ- إلى احتقار الألم والفقر وغيرهما من المصاعب والمتاعب التي تعترض الحياة البشرية، إلا أن الشاغل والهمّ مختلف؛ إذ إن تلك المساوئ ليست مما لا يتأتّى تفاديه ولا مناص منه؛ فأغلب الناس يقضون حياتهم دون أن يعرفوا للفقر طعمًا[1]، وغيرهم لا يعانون في حياتهم من مرضٍ ولا من ألمٍ، مثل كسينوفيلوس الموسيقي، الذي عاش مئة وستًّا من السنين في تمام الصحة والعافية. ثم في كل حالٍ، إذا لم ينفع دواءٌ ولا انفرجت الحال فيبقى هناك دومًا الانتحار، الذي باستطاعته أن يضع حدًّا لآلامنا وأحزاننا. أما الموت ذاته فلا مفر لأحدٍ منه.

«نحن جميعًا مدفوعون دفعًا نحو مكانٍ واحدٍ
مصائرنا أعواد تدور في قدحٍ، وعاجلًا أو آجلا
سيخرج عودنا ليجعلنا نمتطي مركب خارون[2]
نحو الموت الأبدي»[3].

10. وبالتالي فإذا كان الموت يخيفنا فإنه يمثل في الآن ذاته -من أثر كونه لا مناص منه- مصدرًا دائمًا لعذاب لا بَراءَ منه ولا شفاء، فليس هناك من مكانٍ لا يدركنا فيه الموت. ولنا أن نتلفت يَمنة ويَسرة كالغريب في بلدٍ مُوحِشٍ، «فسيظل هو الصخرة المعلقة دومًا فوق رأس تانتالوس»[4] [5].

11. كانت مجالسنا التشريعية كثيرًا ما ترسل المجرم المُدانَ ليُعدم في المكان الذي ارتكب فيه جريمته، وأثناء الرحلة من السجن إلى مكان الإعدام لك أن تمر بالرجل على أرفع البيوت فتُقَدَّم له فيه أشهى المأكولات

(1) يقول مونتيني: «أغلب الناس»، ونحن نعلم كم كان الفقر سائدًا في عصره! واضح أن الرجل إنما يقصد بقوله: «الناس» أمثاله وأقرانه فما فوق.

(2) في الميثولوجيا الإغريقية، خارون هو قائد المركب التي تعبر بالأرواح المعذبة صوب الجحيم.

(3) Horace, **Odes**, II, 3, 25.

(4) تانتالوس ملك أسطوري من ملوك اليونان، أفشى للبشر سر الأولمب، فعاقبته الآلهة بعقاب أبدي بحيث يظل في روايةٍ واقفًا وفوق رأسه صخرةٌ تهدد بسحقه، وفي روايةٍ أخرى يظل واقفًا والماء يبلغ عنقه لكنه لا يستطيع الشرب، وفي روايةٍ ثالثةٍ يقف في حديقةٍ مثمرة لكن لا تمتد يده إلى ثمرة فاكهةٍ حتى يرتفع الغصن بعيدًا عنه.

(5) Cicéro, **De finibus**, I, 1818.

«فإن أطباق صقلية الرفيعة لن يكون لها في فمه مذاقٌ
ولن يستطيع شدو العصافير ولا شذْو القيثارة أن يجلب إلى
عينيه نعاسًا»[1].

12. فهل تظن أنه يكون بمقدور المجرم ساعتئذٍ أن يستمتع بتلك الأطباق، وأنَّ نهاية رحلته وهي تتراءى لعينيه باستمرارٍ لا تفسد عليه اشتهاءه لتلك الأصناف الرفيعة؟

إنه يتساءل عما بقي من المسير، ويعد الأيام.

«ويقيس حياته بطول الطريق الباقية
وفكرة العقاب التي تنتظره تستبدّ به»[2].

13. الموت نهايةُ رحلتنا جميعًا ومصيرُنا المحتوم، فإذا كنا نخافه فكيف نتقدم خطوةً واحدةً إلى الأمام دون أن تنتابنا الحُمَّى من أثر ذلك؟ إن دواء الشيء المبتذل يكمن في تجاهله، لكن أي غباءٍ مطلقٍ هذا الذي يمكن أن يجعله بهذا القدْر من العمى؟ فكأنك تضعُ اللِّجام لذَنَب الحمار.

«هو الذي حدثته نفسه بأن يتقدم متراجعًا إلى الخلف»[3].

14. لذا لا غرابة أن تراه كثيرًا ما يقع في الفخ، وأنت ترى أننا نخيف الناس بمجرد ذكر الموت باسمه أمامهم، وأكثرهم يرشمون[4] عند سماع اسمه كما لو أنه سمع اسم الشيطان، ولما كانت فكرة الموت حاضرةٌ في الوصية فإن أغلب الناس لا يشرعون في كتابةِ وصيتهم إلا حين ينذرهم الطبيب باقتراب ساعتهم، واللهُ وحدَه يعلم أي حكمٍ صائبٍ يبقى لامرئٍ يستبدّ به الخوفُ والألم!

15. ولأن هذه الكلمة كانت تقرع أسماع الرومان قرعًا مؤلمًا، ولأنها بدت لهم غير مناسبةٍ، فقد عملوا على التخفيف من حدتها عن طريق

(1) Horac, **Odes**, III, 1, 18.

(2) Claudien, **Œuvres**, In **Ruffinum**, II, 137.

(3) Lucrèce, **De la Nature**, IV, 472.

(4) في الأصل يرسمون الصليب على صدورهم [المترجم].

التوْرية، فتسمعهم عِوضًا عن أن يقولوا: «مات» يقولون: «لم يعد حيًّا» أو «لقد عاش»، معتبرين أن دخول فكرة الحياة -ولو بصيغة الماضي- على تعبيرهم كافٍ لجعلهم في أمانٍ واطمئنانٍ.

تسعٌ وثلاثون سنةً

16. لكن، لعل الأمر يستحق الذكْر، لقد ولدت شخصيًّا بين الحادية عشرة والثانية عشرة من ظهر اليوم الأخير من فبراير سنة ألفٍ وخمسمئةٍ وثلاثٍ وثلاثين -مما نَعُدُّ اليوم ببدء السنة في يناير-[1] وقد أكملتُ تسعًا وثلاثين سنةً منذ خمسةَ عشرَ يومًا فحسب، وما زلت أطمع في مثلها على الأقل؛ لذلك سيكون من قبيل الجنون أن أفكر اليوم في شيءٍ؛ لا بد أنه ما زال بعيدًا. لكن، ألا يغادر الشباب والشيوخ الحياة معًا بالطريقة ذاتها؟ لا أحد يغادرها بغير الطريقة التي خرج بها آخر قد دخلها للتو. أضف إلى ذلك أنك لن تجد إنسانًا، مَهما بلغ من الشيخوخة والضعف، لا ينتظر من الحياة عشرين سنةً أخرى، حتى يبلغ سن متوشالح![2] ثم من حدَّد لك -أيها المجنون البائس- نهاية حياتك؟ أنت تعتمد في ذلك على ما يقوله الأطباء، وقد كان الأَوْلى بك أن تنظر إلى ما يُمليه الواقع وتبينه لك التجربة، ونظرًا إلى ما هو عليه الواقع، فلك أن تعتبر أن بقاءك حيًّا هو في حد ذاته جانبٌ من الحظ وافِرٌ أُنعِمَ به عليك.

17. لقد جاوزت في الواقع النهاية الطبيعية لحياتك! وإن شئت الدليل فما عليك إلا أن تَعُدَّ من بين من تعرفهم كم منهم لم يبلغوا عمرك؛ لتجد أنهم أكثر بكثيرٍ ممن جاوزوها، ثم عليك بالذين تميزت حياتهم بالشهرة، عُدَّهُم وأراهنك أنك ستجد أن أكثرهم ماتوا قبل إتمام الخامسة والثلاثين، ولئن كان من المعقول ومن علامات الإيمان أن نتخذ حياة المسيح الإنسانية قدوةً وأُسوةً، فلا يجب أن ننسى أن حياته لم تتجاوز ثلاثةً وثلاثين عامًا، وأعظم البشر قدرًا -لكنه بشرٌ فحسب-

(1) في سنة 1567 م، صار أول شهرٍ في السنة الميلادية هو يناير، بعد أن كانت بداية السنة هي عيد الفصح.
(2) هو من بلغ أكبر سنٍ بين شخصيات العهد القديم، إذ تقول التوراة إنه عاش 969 عامًا.

هو الإسكندر الأكبر، وقد مات في السن ذاتها هو أيضًا.

مِيْتَاتٌ غيرُ عاديَّةٍ

18. كمْ للموت يا تُرى من وسيلة يفاجئنا بها؟

«ضد الخطر الذي يتعين تفاديه
لا يحكِم المرء الدفاع في كل ساعةٍ»[1].

وأترك جانبًا نوبات الحمى وداء ذات الجنْب، من كان يتصور أن دوقًا من دوقات بريطانيا قد يموت كما مات هذا[2]، مختنقًا وسط الحشود، عند وصول جاري[3] البابا كليمنت إلى ليون؟ وألمْ نَرَ أحد ملوكنا يلقى حتفه وهو يمارس أحد الألعاب؟[4] وألمْ يمت أحد أسلاف هذا الملك نفسه إثر اصطدامه بخنزيرٍ؟[5] وآيسخيلوس الذي خرج من منزله خوفًا من أن يقع المنزل عليه، فإذا به يتلقى على أم رأسه جثة سلحفاة أفلتت من مخالب نسرٍ كان مارًّا فوقه فأردته قتيلا[6]. وذلك الآخر الذي مات بسبب حبة عنبٍ[7]. والإمبراطور الذي مات من جرحٍ أصابه به مشطه وهو يصفف شعره[8]. ولقد مات أيميليوس ليبيدوس بعد أن ارتطمت قدمه بعتبة داره، ومات أتيوس توليوس أوفيديوس*[9] بعد أن ارتطم وهو يدخل بباب غرفة المجلس.

---

(1) Horace, **Odes**, II, 13.

(2) المقصود هنا جون الثاني.

(3) هنا إشارةٌ إلى كون البابا كليمنت الثاني (وهو الفرنسي برتراند دو غو)، كان في البداية أسقفًا لمدينة بوردو، علاوةً على أنه من مواليد فيلاندرو، الواقعة على بعد كيلومتراتٍ قليلةٍ من قصر مونتيني.

(4) هو هنري الثاني، الذي مات في سنة 1559 متأثرًا بجرحٍ أصيب به في عينه أثناء لعبة مبارزة.

(5) فيليب ابن لويس السادس (1081-1137م)، الذي مات إثر اصطدام حصانه بخنزير في الشارع.

(6) هذه واحدةٌ من قصصٍ عديدةٍ تروى عن موت آيسخيلوس، لها جميعًا مؤدى واحد مفاده ألا مفر من الموت.

(7) هو أناكريون، حسب فالير ماكسيم، 9-12.

(8) يقدم رابليه في «الكتاب الرابع» لائحةً بعددٍ من الميتات غير العادية، يستعيد مونتيني هنا بعضها، وهي كلها حكاياتٌ كانت متداولةً في عصره. وإن كان هناك من أمرٍ ينبغي الانتباه إليه، فهو أن مونتيني، على ما اشتهر به من تشككٍ، كان كغيره من بني عصره يصدق كل ما يبلغه، وخصوصًا إذا كان مكتوبًا.

(9) * قائد عسكري وسياسي فولسكي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، تحالف مع القائد العسكري الروماني كوريولانوس ضد روما، وهو أحد شخصيات مسرحية «كوريولانوس» لشكسبير.

19. أما الذين باغتهم الموت بين أحضان النساء فنذكر منهم كورنيليوس غالوس (وهو حاكمٌ رومانيٌّ)، وتيجينيلوس (وهو قائد حرس روما)، ولودوفيكو (ابن جيانفرانشيسكو جونزاجا ماركيز مانتوفا)، بل الأدهى من هذا وذاك موت سبيوسيبّوس (وهو فيلسوفٌ أفلاطونيٌّ) وأحد باباواتنا[1]. أما بيبيوس المسكين (وهو قاضٍ)، فكان قد أعطى للتوّ أجل ثمانية أيامٍ لأحد المتقاضين فإذا بالموت يختطفه؛ لأن أجله هو قد انصرم، وها هو كايوس يوليوس (وهو طبيبٌ) كان يعالج عينيْ مريضٍ فإذا بالموت يغلق عينيه هو.

20. وإن شئت أن أسردَ لك مثالًا من حولي فهذا ما وقع لأحد إخوتي، القبطان سان مارتان[2]، الذي كان وهو ابن الثالثة والعشرين يعد بمستقبلٍ زاهرٍ، فقد كان يلعب يومًا لعبة الكف[3]، فأصابته الكرة فوق أذنه اليمنى إصابةً لم تحدث جرحًا ولا أثرًا، لذلك لم يولِ للأمر بالًا واستمر في اللعب دون أن يرتاح، لكنه بعد ذلك بخمس ساعاتٍ أو ستٍّ سقط ميتًا بسكتةٍ دماغيةٍ سببتها له الضربة، فمع هذه الأمثلة وغيرها مما نراه كل يومٍ ويحدث حولنا كل ساعةٍ، كيف لنا ألَّا نفكر في الموت حتى ليبدو وكأنه يمسك بخناقنا؟

21. أراك تقول لي: وما أهمية الطريقة التي سنموت بها، ما دمنا لا نهتم لذلك. وأنا أوافقك الرأي، وأيًّا كانت الوسيلة التي نتّقي بها ضربات الموت، ولو تصوَّرنا في صورة عِجل، فلست ممّن يتراجعون، فيكفيني أن أعيش أيامي كما أشاء، وأن أغترف من الحياة ما استطعت، غيرَ مبالٍ إن أنا بدوت لك من أثر ذلك خاملًا لا أستحق أن يُضرب بي المثل.

«إني لأفضل أن يراني الناس أحمق أو عاجزًا
إذا كانت عيوبي تعجبني أو ترضيني
على أن أكون حكيمًا فيما دمي يفور غضبًا»[4].

---

(1) المقصود هنا البابا يوحنا الثاني عشر (937-964).

(2) هو أرنو إيكيم دو مونتيني (1541-1564).

(3) هي أصل لعبة كرة المضرب اليوم، وكانوا يترامون الكرة بأكفهم ومن ثمّ اسم اللعبة.

(4) Horace, **Épîtres**, II, 2, 126.

الاستعدادُ للموت

22. إنه لضربٌ من الجنون أن يتصور المرء النجاح في مسعاه بهذه الطريقة؛ فالناس تروح وتجيء وتمرح وترقص، ولا حديث أبدًا عن الموت، ما من شيءٍ إلا ويبدو جميلًا، حتى إذا جاء الموت بغتةً فاختطفهم، أو اختطف لهم زوجةً أو ابنًا أو صديقًا دون أن يستطيعوا له ردًّا، رأيتَهم يندبون ويشقون الجيوب، ويَتَنازَعُهُم اليأسُ والغضبُ! فهل بِرَبِّك ترى ذُلًّا كهذا الذل وتَغَيُّرًا كهذا التغير وارتباكًا كهذا الارتباك؟ لا بل يجب الاستعداد لهذا قبل وقوعه بزمنٍ؛ ذلك أن مثل هذه اللامبالاة، التي هي من شأن البهائم -وعلى افتراض أنها استطاعت التمكن من ذهن إنسانٍ عاقل، وهو ما يبدو لي مستحيلًا- يكون ثمنها باهظًا.

23. لو تعلق الأمر بعدوٍّ يمكن تفاديه، لأوصيت باستعمال أسلحة الجبناء، لكن لمَّا كان هذا مستحيلًا، ولما كان الموت يدركك لا محالة سواءٌ كنت جبانًا رِعْديدًا يفر من المعركة، أم كنت شجاعًا صِنْديدًا=

«فهو يلاحق الجبان الذي يفرّ ولا يعفي الأعقاب
ولا ظَهْرَ شبابٍ لا شجاعة له»[1].

«ولما لم يكن هناك من درْعٍ يمكنها أن تقيك
فمهما تواريت تحت الحديد والزَّرَد
لن يلبث الموت أن يخرج هذا الرأس من مخبئه»[2].

24. =علينا أن نتعلم كيف نقف في وجه هذا العدو وكيف نحاربه، وأول ما ينبغي البَدء به – من أجل حرمانه من أكبر أسلحته ضدنا- هو أن نتَّبع سبيلًا مختلفًا عن ذاك الذي نتبعه عادةً، أي أن نحرمه من غرابته ونمارسه ونألفه ونستحضره باستمرارٍ، وأن يطوف بخيالنا دومًا، وأن نضعه على كل الوجوه، ومتى كَبا حصانٌ أو انزلقت قطعة قِرميدٍ

(1) Properce, **Elégies amoureuses - Cynthia,** IV, 18.

(2) Horace, **Odes,** II, 2.

من على سطحٍ وحتى لدى أقل وَخْزَةٍ بشوكةٍ، فلنقلْ لأنفسنا: «طيبٌ، وماذا لو كانت هذهِ هي وخزة الموت نفسها؟»، ولْنَشُدَّ أنفسنا عند ذلك ولْنَتَماسَك بثباتٍ.

25. حتى ونحن في فرحٍ وسرورٍ وانبساطٍ، علينا أن نستحضر باستمرارٍ هذه اللازمة التي تذكرنا بطبيعتنا وحالنا، وأن نتجنب الانسياق خلف المتعة انسياقًا ينسينا ما يسكن جوانب تلك المتعة من وجوه الموت، وفي كمْ مكانٍ يتهدَّده ذلك الموت، وهذا ما كان المصريون القدماء يفعلونه حين كانوا يأتون -في وسط الحفل وأثناء تقديم أشهى أصناف الطعام- بهيكلٍ عظميٍّ يطوفون به على القوم تحذيرًا لهم وتنبيهًا.

«تصورْ أن كل يومٍ هو آخر أيامك
وستسعد بكل ساعة عيشٍ لم تكن لترجُوها»[1].

26. لما كنا لا نعرف متى ينتظرنا الموت، فخير ما نفعله هو أن ننتظره نحن. إن التفكير في الموت تفكيرٌ في الحرية، ومن تَعَلَّمَ كيف يموت فقد تحرّر من رقِّ الموت وعبوديته، فلا شيء سيئٌ في الحياة في عين من أدرك أن الحرمان من الحياة نفسها ليس بالشيء السيئ. إن استعدادنا للموت ويقيننا من قدرتنا على مواجهته، يحررنا من كل عبوديةٍ وكل إكراهٍ، وقد ردَّ إمليوس بولس على الرجل الذي أرسله إليه أسيره البائس ملك مقدونيا يستعطفه ألاَّ يعْرضه بين الأسرى في موكب النصر، فقال له: «ما عليه إلا أن يطلب ذلك من نفسه!»[2].

27. والحق أنه لولا تَدَخُّلُ الطبيعة في كل شيءٍ، لما كان للفن والمهارة أن يفضيا إلى غايةٍ، وأنا نفسي لست عَكِرَ المزاج، لكني أميل إلى الانسياق خلف الأحلام المستحيلة، وليس هناك شيءٌ حدّثتُ فيه نفسي أكثر مما حدثتها بالموت، وذلك حتى في عنفوان الشباب وخفته=

«يوم كانت حياتي في زهرتها تستمتع بالربيع»[3].

(1) Horace, **Épîtres**, I, 4.

(2) القصد فليقتل نفسه إن هو شاء الإفلات من العرض.

(3) Catulle, **Poésies**, LXVIII, 16.

=يحسبني من يراني بين النساء والألعاب منشغلًا بهضم غَيْرةٍ ما في دواخلي، أو التسليم بشكٍّ امتزج عندي بأمل، فيما أنا منشغلٌ بالتفكير في شخصٍ فاجأته الحمى قبل ذلك بأيامٍ، وفي النهاية التي كُتِبَت له: إذ مات وهو يخرج من حفلٍ شبيهٍ بحفلنا ذاك، وأقول لنفسي إن مثل تلك النهاية قد تكون قابعةً بانتظاري.

«قريبًا سيصبح الحاضر ماضيًا
ولن نستطيع تذكره أبدًا»[1].

28. لم تكن فكرة الموت لتجعل جبيني يَتَجَعَّدُ أكثرَ من فكرةٍ غيرها. أجل، ليس من الممكن تفادي الشعور بالوخزة الأولى لمثل هذه الأفكار حين تراودنا لأول مرةٍ، غير أننا بطول المعالجة والاجترار نتوصل دون شكٍ إلى الاستئناس بها، وإلا لكنت شخصيًّا أعيش في رعبٍ واضطرابٍ لا نهاية لهما؛ لأني لا أعرف رجلًا يستخف بحياته استخفافي بها، ولا رجلًا يستكين إلى الأوهام حول طول عمره استكانتي لها: لا الصحة التي استمتعت بها حتى اليوم -والتي نادرًا ما خانتني- ستطيل في عمري، ولا الأمراض ستقصِّره. يُخَيَّلُ لي في كل لحظةٍ أني أتهاوى، ولا أني أقول لنفسي إن ما يمكن القيام به يومًا ما يمكن فعله اليوم. والحق أن مصادفات العيش ومخاطره لا تقرِّبنا إلا قليلًا من نهايتنا أو لا تقربنا البتة منها، ولو أننا فكرنا للحظة في الآلاف من الحوادث والمخاطر الأخرى المعلقة فوق رؤوسنا، علاوةً على الخطر الذي يتهدَّدنا أكثر من غيره، لوجدنا أننا في حال الصحة كما في حال المرض، وفي أعالي البحر كما على أسِرَّتِنا داخل البيوت، وفي حال الحرب كما في حال السلم، قريبون من الموت القرب نفسه.

«ليس هناك من إنسانٍ أقرب من غيره للعطب، ولا أكثر نأيًا مِن جاره من أعطاب المستقبل»[2].

29. يبدو لي الزمن دائمًا أمامي غير كافٍ لإنجاز ما أريد إنجازه قبل أن أموت، حتى إنْ لم يتطلب ذلك العملُ من الزمن سوى ساعةٍ، ولقد عثر أحدهم

(1) Lucrèce, **De la Nature**, III, v. 915.

(2) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, XCI.

ذات يومٍ -وهو يقلِّب بين أوراقي- على كلمةٍ خطَطتُها أوصي فيها أهلي بشيءٍ يفعلونه بعد وفاتي، فلما سألني صاحبي عن ذلك أجبته، وكنت في جوابي صادقًا، أني كتبتها على عَجَلٍ وأنا على أقلَّ من فرسخٍ من البيت، في تمام الصحة والعافية، لعدم يقيني بأني سأبلغ البيت رغم صحتي وعافيتي حيًّا. أنا رجلٌ مغلَّفٌ بأفكاره، وفي الآن ذاته يحتويها في داخله، وبالتالي فأنا مستعدٌّ مقدار استطاعتي، والموت إن جاء بغتةً لن يأتيني بجديدٍ.

30. ينبغي للمرء أن يكون في كل وقت منتعلًا حذاءه مستعدًّا للرحيل بقدر ما أمكنه ذلك، والحرص بالخصوص على ألَّا يشغله شاغلٌ عن نفسه في تلك اللحظة.

«ما بالنا نجري بلا تعبٍ
ونرسم في حياتنا القصيرة الكثير من المشاريع؟»[1]

فنحن في تلك اللحظة سنكون منشغلين بما يكفينا عن أي شغلٍ آخر، فهذا يشتكي الحرمان من نصرٍ باهرٍ أكثر من شكواه من الموت، وذاك يجهر بالشكوى لاضطراره إلى الرحيل قبل أن يزوج ابنته أو يربي أطفاله، وهذا يتألم لفقدان زوجته وذاك لغياب ابنه، وقد كانا مِلح حياتهما ومدار وجودهما كله.

31. وأنا الآن بحمد الله في حال تجعلني مستعدًّا للرحيل متى شاء لي ربي فلا أندم على شيءٍ، إني أحل كل ما يربطني بالدنيا، وقد ودَّعت الجميع سوى نفسي، ولا أعرف رجلًا قبلي استعد للرحيل عن هذا العالم رحيلًا مطلقًا وتامًّا مثلما أنا مستعدٌّ، ولا من رجلٍ انفصل عن العالم انفصالي التام عنه، وإن خير الميتات ميْتَةٌ ميِّتَةٌ.

«ما أتعسني! ما أتعسني! يقول كلٌّ لنفسه
يومٌ واحدٌ ينتزع مني كل ما أملك
والكثيرَ من زينة الحياة»[2].

(1) Horace, **Odes**, II, 16, 17.

(2) Lucrèce, **De la Nature**, III, v. 898.

فيما يقول البَنَّاء:

«صروحي تظل غير مكتملةٍ
حيطانٌ ضخمةٌ تهدّد بالانهيار»[1].

32. لا ينبغي لنا رسم مشاريع طويلة الأمد، أو على الأقل ألا نفعل ذلك بحماسٍ زائدٍ يجعلنا نألم ونأسى إن نحن لم نستطع إتمامها، فنحن مخلوقون للعمل.

«حين تحين ساعتي
أريد أن يُفاجئني الموت في عزِّ عملي»[2].

أريد أن نعمل وأن نطيل أعمالنا في الحياة ما استطعنا ذلك، أريد أن يجدني الموت وأنا أزرع خَضْرَاوَاتٍ، فلا أهتم بها ساعتئذٍ ولا بحديقتي غير المكتملة. ولقد رأيت أحدهم يشتكي، وقد حان أجله، من كون الموت سيقطع عليه حبل الرواية التي كان قد أعدَّها عن الخامس عشر أو السادس عشر من ملوكنا.

«ولا نضيف: وإن الحسرة على كل ممتلكاتك
لن تتبعك ولن تظل عالقةً ببقاياك»[3].

33. يجب التخلص من هذه الأفكار المبتذلة الضارة، وكما قال ليكورغوس[4]، فإننا نجعل المدافن قرب الكنائس وفي الأماكن المطروقة من المدن، ليعتاد الشعب والنساء والأطفالُ رؤيةَ الأموات دون خوفٍ، ولكي يكون في منظر العظام والقبور والجنازات ما يذكِّرنا بواقعنا ومصيرنا.

«بل أكثر من هذا، كانت العادة قديمًا إدخال الفرح على الحفلات
بمشاهد القتل، والمنظر الرهيب
لمبارزات المصارعين، الذين كانوا كثيرًا ما يسقطون
حتى على الكؤوس؛ فيلطخون الموائد دمًا»[5].

---

(1) Lucrèce, **De la Nature**, III, v. 898

(2) Ovide, **Les Métamorphoses**, II, 10, 3636

(3) Lucrèce, **De la Nature**, III, 90.

(4) خطيب وسياسي أثيني (390-324 ق.م)، تلميذ لأفلاطون، دبّر بمهارة الشؤون المالية لمدينته ومؤل العديد من الصروح.

(5) Silius Italicus, **La Guerre punique**, XI, 51.

34. كان قدماء المصريين يحرصون -في نهاية حفلاتهم- على إتحاف ضيوفهم بصورةٍ مرهبةٍ عن الموت[1]، إذ يأمرون أحد الخدم بأن يصرخ مردِّدًا: «اشربْ وفزْ بالسرور، لأنك هكذا ستكون يوم تموت». لذلك آليت على نفسي ألَّا يغيب الموت -لحظةً لا عن خيالي فحسب ولكن كذلك عن شفتيَّ، وليس هناك شيءٌ أحب السؤال عنه كما أحب السؤال عن موت الناس: ما الكلام الذي تلفظوا به ساعة الرحيل؟ وما التعبير الذي اكتساه وجه كلٍ منهم؟ وما مدى رباطة جأشهم في تلك الساعة؟ وحين أقرأ قصةً فإن المقاطع التي تتحدث عن الموت هي التي تشد انتباهي أكثر من غيرها، ولا شك أن القارئ قد لاحظ -من خلال الأمثلة التي يعجُّ بها هذا النص- أن لي ميلًا واضحًا إلى هذا الموضوع، ولو أني كنت من مؤلفي الكتب لحرّرت سجلًّا يضم كل أصناف الميْتات وتعليقاتي عليها، فمن يعلِّم الناس كيف يموتون يعلِّمهم في الآن ذاته كيف يعيشون، وقد أقام الفيلسوف ديكايارخوس سجلًّا من هذا النوع لكن لهدفٍ آخر أقل فائدةً.

الاعتيادُ على الموت

35. سيقول قائلٌ إن حقيقة الموت تجاوز الخيال إلى درجةٍ تجعل أي نزالٍ معها بالمسايفة -مهما كان بديعًا مثيرًا للإعجاب- يبدو تافهًا لا معنًى له متى بلغ المرء ذلك المبلغ، لكن لنتركهم يقولون ما يشاؤون؛ لأن في التأمل المسبق رغم كل شيءٍ عظيمَ الفائدة، ثم أليسَ بأمرٍ هامٍ أن يبلغ الإنسان هذا المدى على الأقل من دون عوائق ولا حوادث؟ لا بل وهناك ما هو أكثر من ذلك: إن الطبيعة ذاتها تمدّ إلينا يدها وتشجعنا، فإذا كان الموت عنيفًا مفاجئًا، لا تتاح لنا الفرصة للخوف منه، أما إذا جاء على غير ذلك فإني ألاحظ أنني كلما أوغلت في المرض ازددت استخفافًا بالحياة واستهانةً بفراقها، وقد أدركت أني أجد صعوبةً في أن آلفَ فكرة القبول بالموت وأنا بصحةٍ جيدةٍ أكثر بكثيرٍ مما أجد وأنا في حال المرض، ولما كانت ملذات العيش وشهواته لم تعدْ تغريني اليوم وقد بدأت أفقدها رويدًا، وأصبحت في كل يومٍ أفيق وأنا أعجَزُ مني في سابقه عن قِطافها والاستمتاع بها، فإني صرت أقل رهبة من الموت بكثير.

(1) سبق لمونتيني أن ذكر هذا أعلاه، في الفقرة 25.

36. وهذا يجعلني آمل أنني كلما ابتعدت عن الحياة واقتربت من الموت كلما أصبحت أقدرَ على استبدال هذا بتلك، كما أني قد جربت مراتٍ ومراتٍ ما قاله يوليوس قيصر[1] من أن الأشياء كثيرًا ما تبدو لنا أكبر وهي بعيدةٌ عنا منها وهي قريبةٌ منا؛ ولاحظت أني أشعر بالرعب من المرض حين أكون في صحةٍ جيدةٍ أكثر بكثيرٍ مما أشعر به حين يصيبني المرض: فالخفة والسعادة التي أكون عليها حال الصحة، والمتعة والقوة التي أشعر بها، تجعلني أرى حال المرض مختلفةً عن حال الصحة اختلافًا يدفع بخيالي إلى أن يضخِّمَ من آلام المرض ومتاعبه حتى يجعله أشقَّ عليَّ منه وأنا مصابٌ به، وإني لأرجو أن يكون هذا حالي مع الموت، فأراه اليوم أشقُّ وأضْنى مما سأراه عليه يوم يطرق بابي.

37. لننظرْ، من خلال درجات التغير والانحطاط الطبيعية التي نمر بها تباعًا، كيف أن الطبيعة تخفي عنا مشهد هلاكنا واندثارنا، فما الذي يبقى للعجوز من قوة شبابه ومن حياته الماضية؟

«وا أسفا! أيُّ حظٍّ من الحياة يبقى لمن أدركته الشيخوخة؟»[2].

38. ذات يومٍ جاء جنديٌّ متعبٌ مثخن الجراح إلى يوليوس قيصر يرجوه أن يأذن له في قتل نفسه، فأجابه قيصر: «وهل تحسب نفسك إذًا على قيد الحياة؟» لا أرانا -لو أننا انتقلنا فجأةً من حال الشباب اليافع إلى حال الشيخوخة- نستطيع احتمال مثل ذلك التغير، لكن الطبيعة هي من يمسك بيدنا فيقودنا رويدًا، عبر منحدرٍ خفيفٍ لا نكاد نشعر به، وشيئًا فشيئًا، من درجةٍ لدرجةٍ، تكسونا بهذه الحالة البائسة وتجعلنا نقبل بها ونستأنس، لذلك لا نشعر بأي رجَّةٍ حين يموت الشباب فينا، وهو في حقيقته موتٌ أشد قسوةً وإيلامًا من الموت التام بعد حياةٍ هامدةٍ، ومن الموت الذي تفضي إليه الشيخوخة: ذلك أن الانتقال من حالِ الوجود البائس إلى حال العدم، ليس بأضْنى من الانتقال من حالِ الخفة والحلاوة إلى حالِ الألم والمرارة.

(1) مقولة يوليوس قيصر هي أن «الخطر الذي لا نراه ماثلًا أمام أعيننا هو الذي تقشعر له النفس أكثر»، والمعنى مختلفٌ بعض الاختلاف.

(2) Pseudo-Gallus (Maximianus), in **Poetae Latini Minores**, I, 16.

39. وكما يصير الجسد متى انحنى واحدَوْدَبَ أقل قدرةً على حمل الأثقال منه يوم كان شابًا، فكذلك الروح، يجب تهذيب الروح وتدريبها على مواجهة قوة هذا الخَصْمِ؛ لأنه يستحيل عليها أن تجد السلام وهي تحت تهديده، لكنها إن هي تَقَوَّت وتماسكت فيمكنها أن تُفاخر -وهو ما يتجاوز في الحقيقة حدود طاقتنا البشرية- بأنها لا تجد في دواخلها قلقًا ولا اضطرابًا ولا خوفًا، بل ولا حتى أدنى استياء.

«لا شيء يهزّ رباطة جأشه
لا وجه طاغيةٍ مخيفٍ
ولا أوستر[1] وهو يصبُّ غضبه على البحر الأدرياتيكي
ولا يوبيتر ذا اليد التي ترسل البرق»[2].

40. هكذا تصبح الروح متحكمةً في نوازعها وشهواتها، فتتغلب على الحاجة والخجل والفقر وكل نوازل القدر الظالمة، فلنستفدْ من هذه المزيَّة إن نحن استطعنا، فهي الحرية الحقة المطلقة، الحرية التي تمكِّننا من تحدي القوة والظلم والاستهانة بالسلاسل والسجون.

«بأصفادٍ من حديدٍ في قدميك ويديك سأجعلك تحت حراسة
جلادٍ قاسٍ لا يرحم - سيأتي إلهٌ ليخلّصني
بلْ قل: سأموت، وفي الموت ينتهي كل شيءٍ»[3].

41. ليس لدينا من أساسٍ بشريٍّ أصح ولا أمتن من احتقار الحياة، والعقل ذاته يقود إلى ذلك، إذ كيف يعقل أن يخاف المرء من فقدان شيءٍ يعلم حق العِلم أنه متى فقده لن يكون بمقدوره الندم عليه؟ وعلاوةً على هذا، فما دمنا نقع تحت تهديد أصنافٍ وأشكالٍ من الموت، أليست مواجهة واحدٍ منها أفضل من الخوف منها جميعًا؟ ما الفائدة من أن نعرف موعد الموت ما دمنا نعلم ألَّا مفرّ منه ولا مناص؟ وقد جاء النذير إلى سقراط يقول له: «لقد حَكَمَ عليك الطغاة الثلاثون بالموت»، فأجابه الحكيم: «أولئك هم الطبيعة».

(1) إله الرياح الجنوبية في الميثولوجيا الرومانية [المترجم].
(2) Horace, **Épîtres**, I, XVI, 76-78.
(3) Horace, **Épîtres**, I, XVI,76-78.

42. ما أغبانا حين نعذب أنفسنا بخصوص لحظةٍ سنكون فيها بمنأى عن كل عذابٍ! فكما أن الأشياء جميعًا تولد مع ميلادنا، فكذلك يقتل الموت الأشياء جميعًا، ومن يبكي على كونه لن يعيش بعد مئة عامٍ من الآن، ليس أقل جنونًا ممن يبكي لكونه لم يعش قبل مئة عامٍ من الآن. إن الموت مبتدأٌ وأصلٌ لحياةٍ أخرى، ولقد قاسينا يوم دخلنا الحياة وبكينا لذلك صارخين؛ لأننا قد تَعَيَّنَ علينا التخلص من حجابنا القديم ونحن ندخلها.

43. ليس هناك شيءٌ صعبٌ صعوبةً بالغةً بالفعل، إذا كان لا يحدث سوى مرةٍ واحدةٍ، وهل هناك من سببٍ ليخشى المرء لسنواتٍ طويلةٍ شيئًا سيحدث في لحظاتٍ؟ أن تعيش طويلًا وأن ترحل صغيرًا هما عند الموت سِيَان: لأن مبدأ الطول والقِصر لا ينطبق على ما لم يعد موجودًا، وقد قال أرسطو: «إن هناك على سطح مياه نهر هيبانيس*[1] حيواناتٌ صغيرةٌ لا تعيش إلا يومًا واحدًا، فالتي تموت منها في الثامنة صباحًا تموت في عز الشباب، على حين أن التي تموت بعد العصر تموت وقد أدركها الهرم». ومن منا لن يسخر من نعيمٍ أو شقاءٍ يدوم من صباح يومٍ إلى عصره؟ أما إذا قارنا بين هذا وبين الأزل وأعمار الجبال والنجوم والشجر وحتى بعض الحيوانات، فإن الزيادة في حياتنا أو النقص فيها ستبدو لنا تافهةً زائلةً تمامًا كعمر تلك الكائنات.

خطابُ «الطبيعة»

44. والطبيعة ذاتها تفرض علينا ذلك فتقول: «اخرجوا من هذا العالم كما دخلتموه، وكما أنكم انتقلتم يومًا من الموت إلى الحياة دون خوفٍ ولا ألمٍ، فانتقلوا اليوم من الحياة إلى الموت؛ إن موتكم أحد العناصر المكونة لصَرحِ الكون، وهو أحد عناصر حياة العالم.

«ما أشبه الأموات وَهُمْ يتناقلون الحياة
بالمتسابقين وهم يتناقلون مشعلًا»[2].

(1) * الاسم القديم لنهر الكوبان بشمال القوقاز في روسيا.

(2) Lucrèce, **De la Nature**, II, 76-79.

45. لماذا سأغير من أجلكم هذا الترتيب البديع للأشياء؟ إن الموت شرط خَلْقِكُم: إنه جزءٌ منكم، وأنتم إذ تفرون منه إنما تفرون من أنفسكم، إن هذا الوجود الذي تتمتعون به مِلكٌ مشتركٌ مناصفةً بين الحياة والموت، وما يوم ميلادكم إلا الخطوة الأولى على طريقٍ يقودكم إلى الموت كما يقودكم إلى الحياة.

«الساعة الأولى وهي تعطي الحياة تنتزع منها جزءًا[(1)].
نحن حين نولد نموت؛ لأن النهاية إنما من البداية تأتي»[(2)].

46. كلُّ ما تعيشونه إنما تسرقونه من الحياة وتختلسونه، والعمل الدائب الذي لا تنقطعون عنه طيلة عيشكم إنما هو بناء الموت، أنتم في الموت ما دمتم في الحياة، طالما ستكونون في ما وراء الموت يوم لن تبقوا في الحياة، أو إن شئتَ فلنقلْها هكذا: أنت أيها الإنسان[(3)]، ستكون ميتًا بعد الحياة، لكنك في أثناء الحياة نفسها مُحتَضرٌ، والموت أقسى على المحتضر منه على الميت وأشد وقْعًا وأبعد أثرًا، فإذا كنت قد أدركت من الحياة نصيبك، فينبغي أن تكون قد شبعت منها وأن ترحل عنها راضيًا.

«لماذا لا تخرج من الحياة كما يخرج الضيف الشبعان؟»[(4)].

47. فإذا كنت لم تصب من الحياة حظًّا ولا نِلتَ منها فائدةً، فما الذي سيجعلك تأسف لضياعها؟ ما الغاية من التمسك بها؟

«لماذا تحاول إطالة وقتٍ
ستضيعه لا محالة وسينفد منك دون ثمارٍ؟»[(5)].

إن الحياة في ذاتها ليست خيرًا ولا شرًا، وإنما يحتل الخيرُ والشرُّ منها المكان الذي تعطيه لكل منهما فيها، وإن كنت لم تعش سوى يومٍ واحدٍ

---

(1) Sénèque, **Hercule furieux**, III, 874.

(2) Manilius, **Astronomica**, IV, 16.

(3) يشير المحقق هاهنا إلى أن مونتيني، لأسباب متعلقة بالتناص وما إليه، انتقل من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد، فكأن «الطبيعة» بعد أن كانت تخاطب البشر خاطبت هنا «الإنسان» بصيغة المفرد، وقد ارتأى المحقق أن يبقي على الصيغتين في نسخته، وكذلك ارتأينا. [المترجم]

(4) Lucrèce, **De la Nature**, III, 938.

(5) Lucrèce, **De la Nature**, II, 941-942.

ثم رحلت، فاعلم أنك في ذلك اليوم قد رأيت كل شيء؛ فليس هناك من ضوءٍ آخر ولا من ظلامٍ آخر، وهذه الشمس، وهذا القمر، وهذه النجوم، وهذا الترتيب الذي عليه العالم، هو ذاته الذي تمتع به أجدادك، وهو الذي كان سيتمتع به أحفادك من بعدك لو كان لك أحفاد.

«لم يرَ آباؤكم غيرها
ولن يرى غيرها الأبناء»[1].

48. وعلى كل حال، فإن توزيع فصول مسرحيتي وتنوعها يظهران في العام الواحد، ألا ترى أن حركة فصولي الأربعة تطابق طفولة العالم ومراهقته وبلوغه وشيخوخته؟ وحين تنهي تلك الحركة دورتها فإنها تعيد الكَرَّة؛ لأنها لا تدري ما تفعله غير ذلك، هكذا كان، وهكذا إلى الأبد سيكون.

«نحن ندور في دائرةٍ لا نخرج منها أبدًا[2]!
وعلى أعقابها تدور السنة حول نفسها[3].
ولست أوافق على أن أصنع لك ملاهٍ جديدةً تُزَجِّي بها وقتَك.
لم يعد عندي شيءٌ أصطنعه لك
والمتع الجديدة ستكون كالقديمة تمامًا»[4].

49. أَفسِح المكان لغيرك كما أفسحَ غيرُك المكان لك، إن المساواة أساس العدالة، ومن سيشتكي من كونه موجودًا في عالمٍ جميع الناس موجودون فيه؟ ومهما عشت طويلًا فلن تقصِّر من الزمن الذي ستكون فيه ميتًا؛ لأن ذاك ليس من هذا بشيءٍ، ستبقى على تلك الحال التي تخشاها اليوم مثلما كنت ستبقى لو أنك مِتَّ صبيًّا رضيعًا:

«أطِل الحياة بما شئت من القرون
فالموت سيبقى رغم ذلك أبديًّا»[5].

«سأجعلك في وضعيةٍ لن تجد فيها ما يسوءك»:

(1) Manilius, **Astronomica**, I, 522-523.
(2) Lucrèce, **De la Nature**, III, 1080.
(3) Virgile, **Géorgiques**, II, 402.
(4) Lucrèce, **De la Nature**, III, 944-45.
(5) Lucrèce, **De la Nature**, III, 1090-91.

«ألا تعلم أن الموت لن يتركك
هل أحد سواك، حيٌّ وقائمٌ
يبكي ما فقد؟»[1].

50. وحتى الحياة التي تندم عليها هذا الندم، لن تبقى لك أي رغبةٍ فيها.

«ولا أحد يفكر بالفعل في حياته وفي نفسه
ولا أسفٌ على أنفسنا يختلجنا فيُشقينا»[2].

إن الموت أقل استحقاقًا لرهبتنا من لا شيء، هذا إن كان هناك شيءٌ أقل من لا شيء، فالموت لا يعنينا ونحن أحياء؛ لأننا حينئذٍ نكون موجودين، كما لا يعنينا ونحن أمواتٌ؛ لأننا حينئذٍ لن نكون موجودين، لا أحد يموت قبل ساعته، والزمن الذي تتخلى عنه وأنت ترحل ليس زمنك بأكثر مما كان الزمن الماضي الذي لم تعشه قبل ولادتك، والزمن الذي سينصرم بعدك لا يعنيك بأكثر مما يعنيك به الزمن الذي انصرم قبلك.

«اعتبر أنها ليست لنا بشيءٍ
تلك اللحظات التي انقضت من قبل الأزل»[3].

51. أيًّا كانت اللحظة التي تنتهي فيها حياتك، فإنها تكون كلها مجتمعة فيها، وقيمة الحياة ليست في طولها، بل في ما نفعله بها، وكم من رجلٍ عاش زمنًا طويلًا لكنه لم يعش إلا قليلًا؛ لذا أَوْلِ اهتمامك للحياة ما دامت تنبض فيك، واعلم أن اغترافك من العيش رهينٌ بإرادتك لا بعدد سنوات حياتك. هل حسبت أنك لن تبلغ المرمى الذي كنت ترمي إليه بلا انقطاعٍ؟ فاعلم أن ليس هناك من طريقٍ لا مخرج له، وإذا كان في الرفقة ما يعينك ويخفف عنك، أليس العالم يسير كله من حولك بخُطاك نفسها؟

«ما من شيءٍ إلا وسيتبعك في الموت»[4].

52. ألا يسير العالم كله بحركتك نفسها؟ هل هناك من شيءٍ تراه حولك

(1) Lucrèce, **De la Nature**, III, 885-887.
(2) Lucrèce, **De la Nature**, III, 919 et 922.
(3) Lucrèce, **De la Nature**, III, 972-73
(4) Lucrèce, **De la Nature**, III, 968.

لا يشيخ كما شِختَ ولا يهرم كما هرمتَ؟ فألفُ إنسانٍ وألف حيوانٍ وألف مخلوقٍ آخر سيموتون جميعًا في اللحظة ذاتها التي ستموت فيها.

«ذلك أن الليل والنهار لم يتواليا قطّ
دون أن تُسمع صرخات الرُّضَّع
مختلطةً بنواح النائحات على الموتى
وأصوات الجنازات»[1].

53. «ما الفائدة من التراجع أمام الموت ما دمتَ لا تستطيع منه فِرارًا؟ لا شك أنك رأيت الكثير ممن كان لهم في الموت خلاصٌ؛ إذ أنقذهم من ضيقٍ ومن معاناةٍ، لكن هل تعرف أحدًا لم يجدْ في الموت ما يرضيه؟ إن من الغباء المطلق أن يُدين المرء شيئًا لم يجربه لا بنفسه ولا بواسطة شخصٍ غيره، لماذا تشتكي مني ومن قدرك؟ هل تُرانا نظلمك؟ هل أنت الذي يجب أن يَحكُمنا، أم هل نحن اللذان ينبغي لنا أن نحكمك؟ حتى وإن لم يبلغْ عمرك نهايته، فإن حياتك قد انتهت، والإنسان الصغير هو إنسانٌ مكتملُ التكوين كالكبيرِ تمامًا.

«ليس هناك من أداةٍ لقياسِ البشر»

54. «ليس هناك من أداةٍ لقياس البشر ولا حياتهم، لقد رفض القنطور خيرون[2] الخلودَ حين علم بالشروط التي وضعها أبوه ساتورنوس (إله الزمن) فتصور كيف ستكون الحياة الأبدية أصعب احتمالًا على الإنسان وأشقَّ من تلك التي كتبتُها له، ولولا أني أعطيتكم الموت لقعدتم طيلة حياتكم تلعنون حرماني إياكم منه، وقد جعلت فيه عمدًا بعض المرارة كي أُثنِيَكم -نظرًا لسهولة اللجوء إليه- عن تبنيهِ بعجلةٍ وبدون تمييزٍ، ولكي أبقيَكم في دائرة الاعتدال الذي أريده لكم -أي ألَّا تفروا من الحياة وألاَّ تتراجعوا أمام الموت- فقد جعلت في هذا وتلك خليطًا معتدلًا من الحلاوة والمرارة.

(1) Lucrèce, **De la Nature**, II, 578 sq.

(2) هو أحد أبناء الآلهة في الميثولوجيا اليونانية، وقد كان على عكس أمثاله خالدًا وحكيمًا [المترجم].

55. «لقد علَّمتُ طاليس -أول حكمائكم- أن الحياة والموت أمران متكافئان، لذلك فحين سأله أحدهم: «فلماذا لا تموت إذًا؟» أجابه الحكيم: «لأن ذلك لا معنى له». إن الماء والتراب والهواء والنار وغيرها من العناصر الداخلة في بناء صرْحي ليست أدواتِ حياتِك بأكثر مما هي أدوات موتك، ثم لماذا تخشى يومك الأخير؟ إنه لا يعطي لموتك معنًى أكثر مما يعطيه أي يومٍ آخر، ليست آخر خطوة نقطعها هي ما يسبّب الملل، بل هي فقط تكشف عنه وتُبينه، إن الأيام جميعها تقود إلى الموت، وآخرها يبلغه».

56. تلك هي النصائح الغالية لأمنا الطبيعة، وما أكثر ما فكرت في هذا! ما الذي يجعل وجه الموت في حال الحرب -سواءٌ موتنا نحن أو موت غيرنا- يبدو لنا أقل رهبةً بما لا يقاس من وجهه في بيوتنا؟ ولو كان الأمر على غير ذلك لصارت الجيوش جيوشًا من الأطباء المعالجين ومن الباكين والنَّوّاحين، كما أني كثيرًا ما تساءلت لماذا تَجدنا، ما دام الموت واحدًا في كل حالٍ، نلفي من السكينة في حضوره عند القرويين والناس البسطاء ما لسنا نلفيه عند غيرهم، لا أرى إلا أن عبوسنا وحزننا وما نحيط به الموت من احتفاءٍ رهيبٍ هو ما يخيفنا أكثر من الموت ذاته.

57. إنه لسبيلٌ جديدٌ في العيش ما يشكله نحيب الأمهات والزوجات والأطفال، وقومٌ يأتون للزيارة مصدومين منفعلين، وخدمٌ وحَشَمٌ يعملون في صمت بوجوهٍ ممتقعةٍ وأعينٍ دامعةٍ، وغرفةٍ معتمةٍ، وشموعٍ مضاءةٍ، وأطباءٌ وكهنةٌ عند رأس السرير، وباختصارٍ، رعبٌ وهلعٌ وخوفٌ يحيط بنا من كل جانبٍ، ثم ها نحن قد دُفِنّا وأُهيلَ علينا التراب. إن الطفل يخاف حتى من صديقه إن هو رآه مُقَنَّعًا، وكذلك الأمر بالنسبة إلينا نحن، يجب نزع القناع عن الأشياء كما عن الأشخاص، وحين ننزعه لا نجد تحته سوى ذلك الموت نفسه، الذي اجتاز حاجِزَهُ بالأمس ذلك الخادم أو تلك الوصيفة دون خوفٍ ولا رعبٍ.

وما أسعدَ الموت الذي لا يدع وقتًا لمثل هذه المهزلة!

الفصل العشرون

في قوةِ الخيال

1. «الخيال القوي يصنع الحدث»، كما يقول القُسس، وأنا من الذين يشعرون بقوة بآثار الخيال ومفعوله، فما من واحدٍ منا إلا وتصيبه تلك الآثار، لكن بعضَنا تصعقه. إن مفعول الخيال يخترقني، ولا حيلة لي إلا أن أجتهد في مراوغته والإفلات منه لعجزي عن مقاومته. إن وجود أشخاص مرحين من حولي متمتعين بصحةٍ جيدةٍ كافٍ لجعلي أعيش، غير أن مرأى أحزان الآخرين وآلامهم يشعرني بالحزن والألم الشديد، حتى أن ما يعتريني من شعورٍ، غالبًا ما يكون متولدًا عن شعور الآخرين؛ فالشخص الذي لا يتوقف عن السعال يجرح بسعاله حلقي وصدري، وإني أتثاقل في عيادة المريض الذي لي به ارتباطٌ وله عندي قيمةٌ واعتبارٌ، أكثر مما أتثاقل في زيارة مريضٍ لا أرتبط به مثل ذلك الارتباط، ولا أكن له مثل ذلك التقدير. أنا أتناول الألم فأتأمله ثم أدخله في ذاتي؛ ولذلك لا غرابة عندي في أن أرى الخيال يسبّب الحمى، بل وحتى الموت لمن يستسلم له ويشجعه.

2. كان سيمون توما في أيامه طبيبًا بارعًا، وأذكر أني صادفته يومًا في تولوز عند عجوز غني مَصدُور، وكان يحدثه عن الوسائل التي يمكنه اللجوء إليها طلبًا للعلاج، فقال له إن إحدى تلك الوسائل تتمثل في إعطائي فرصةً للسعادة برفقته، وإن هو أبقى عينيه مثبتتين على نضارة وجهي، وفِكره مركزًا على الغبطة والنشاط والقوة المنبعثة من جسدي المراهق، وإن هو أشبَعَ حواسه جميعًا من عبير زهرةِ شبابي المتفتحة، فإن حاله قد تتحسن لذلك كثيرًا، غير أن الطبيب الكبير نسي أن يقول إن حالي أنا قد تزداد في الآن نفسه سوءًا!

3. بذل غالوس فيبّيوس من الجهد في محاولة فهم جوهر الجنون ومظاهره ما جعل عقله يهرب إلى خارج دماغه، فلم يستطع بعده إعادته إليه قطُّ، هذا رجلٌ كان له أن يفخر بكونه أصبح مجنونًا من فرط الحكمة. وهناك غيره ممن ذهب بهم الرعب إلى استباق يد الجلاد، وذاك الذي فكوا وثاقه ليقرؤوا عليه خبر العفو عنه فإذا به يسقط وحده ميتًا فوق منصة الإعدام من أثر ما فعله به الخيال؛ إذ جعله يوقن بأنهم سيعدمونه. نحن نعرق ونرتعد وتمتقع وجوهنا وتتضرج حمرةً تحت شدِّ خيالنا وجذبِه، ونشعر ونحن متلفِّعون بالغطاء بأن جسدنا يرتعد من أثر حركة الخيال، حتى يبلغ بنا ذلك أحيانًا حدَّ الموت.

4. إن الإثارة تبلغ بالشباب اليافع الفَوَّار -أثناء النوم- حدًا يجعله يُشبع في الحلم شهواته الجنسية.

«كذلك يتخيل المرء أنه قد فعل
فيندفع ماء الشهوة فيّاضًا على الملابس»[1].

ورغم أنه ليس من الجديد أن نرى قرونًا تنبت في الليل فوق رأس رجلٍ لم تكن له قبلَ أن ينام قرون، إلا أن الحادثة التي وقعت لسيبوس ملك إيطاليا[2] تستحق أن تذكر؛ فبعد أن حضر الملك خلال النهار قتالاً بين الثيران استأثر كثيرًا باهتمامه، بات ليله كله يحلم بأن له قرنين، بل وأنبت قرنًا فوق جبهته بفعل قوة خياله وحده، وإن الانفعال هو ما وهب لابن كرويسوس الصوتَ الذي حرمته الطبيعة منه[3].

5. أصيب أنطيوخوس بالحمى بسبب جمال ستراتونيكي[4] الذي أبهره، وبلينيوس يقول إنه رأى لوكيوس كوسيتيوس يتحول من امرأةٍ إلى رجلٍ ليلة زفافه، ويروي بونتانوس وغيره حكاياتٍ عن تغيراتٍ من مثل هذا حصلت في إيطاليا في القرون الغابرة. فتحت وقع رغبتها ورغبة أمها الجامحة

«صارت إيفيس ولدًا بما نذَرَته وهي امرأةٌ»[5].

6. خلال مروري بفيتري-لو-فرنسوا، أُتيح لي أن أرى[6] رجلاً سماه أسقف سواسون باسم جيرمان تأكيدًا على هويته، لكنه كان معروفًا لدى كل سكان القرية، الذين عرفوه بوصفه فتاةً، وبقوا حتى بلغ الثانية والعشرين يدعونه باسم ماري، كان الرجل وقتئذٍ ذا لحيةٍ كثّةٍ، وقد

(1) Lucrèce, **De la Nature**, III, v. 1305.

(2) روى هذه القصة كثير من المؤرخين، ومونتيني ينقلها هنا كغيرها من الحكايات الغريبة وكأنه يصدقها تصديقًا. غير أن ما سيقوله من بعد (الفقرة 34) يعيد -بما لا جدال فيه- الأمور إلى نصابها.

(3) تروي الأسطورة أن ابن كرويسوس (الذي كان أبكم) نطق حينما رأى خطر الموت يهدد والده.

(4) كانت ستراتونيكي زوجة سيليوكوس المنصور، ملك سوريا (القرن الثالث للميلاد)، الذي بعد أن أخبره الطبيب بغرام أنطيوخوس بزوجته، طلقها كي يستطيع هذا الزواج بها. وقد روى هذه الحكاية كثيرٌ من المؤرخين، من بينهم كورنوليوس لُغريبا.

(5) Ovide, **Les Métamorphoses**, IX,793.

(6) يروي مونتيني هذه الحكاية في كتابه «يوميات رحلةٍ إلى إيطاليا»، غير أنه عند الحديث عمن كانت الفتيات يلقبنه «ماري الملتحية» يقول إنه لم يره؛ لأنه لم يكن ساعتئذٍ موجودًا في القرية، وهذا ما يلقي بضعة ظلال من الشك حول القصة برمتها.

شاخ لكنه لم يتزوج، وهو يروي أن ثيابه انحسرت وهو يحاول القفز على حائطٍ فانكشفت عورته. وما زالت الفتيات في القرية ينشدن أغنيةً يحذرن فيها بعضهن بعضًا المشي بخطواتٍ واسعةٍ؛ لِئَلَّا يصبحن ذكورًا مثل ماري-جيرمان، وليس من المستغرب حقًّا أن تقع مثل هذه الحوادث في كثيرٍ من الأحيان، ذلك أن الخيال إذا كان بمستطاعه أن يُوَلِّدَ مثل هذا، فإن المطالب التي تَرِدُ عليه بخصوص هذا الموضوع، هي من التوالي والكثرة بحيث تجعله -تفاديًا لاجترار الأفكار نفسها على الدوام، والوقوع من أثر ذلك تحت سيطرة الرغبة الجامحة- يُحسِنُ التخلُّصَ، إذ يزرع في أجساد الفتيات ذلك العضوَ الذكري للأبد.

7. بعض الناس يُرجعون إلى قوة الخيال نُدوبَ الملك داغوبيرتوس[1] والقديس فرانشيسكو[2]، بل ويقولون إن الخيال قد يجعل المرء أحيانًا يرتفع عن سطح الأرض ليسبح في الهواء. والفيلسوف كيلسوس يحدثنا عن راهبٍ كان يجعل جسده يدخل في حالٍ من النشوة، تجعله يظل لوقتٍ طويلٍ غائبًا عن الوعي منقطع النَّفَس، ويحدثنا القديس أوغسطينوس عن آخر كان يكفي أن يسمع صوت صراخٍ أو شكوًى كي يقع مغشيًا عليه، فلا يجيب من يناديه ولا يشعر بمن يهزه أو يقرصه أو حتى يحرقه، فيبقى هكذا حتى يُفيق وحدَه من سباته، حينئذٍ كان يقول إنه كان يسمع أصواتًا لكنْ كأنها قادمةٌ من بعيدٍ، وحينئذٍ فقط كان يكتشف الجروح والحروق التي لم يشعر بها حال غيبوبته، والدليل على أنه لم يكن يقاوم الألم بمحض إرادته هو أنه خلال النوبة لا يَنبُضُ في جسده عِرقٌ ولا يَتَردَّدُ فيه نَفَسٌ.

8. يبدو أن أهم مصداقيةٍ تتمتع بها المعجزات والرؤى والسحر وغيرها من الحالات العجيبة، إنما مرجعها قوة الخيال، الذي يكون أقوى مفعولًا لدى العامة على الخصوص؛ لأن عقولهم لخفتها يسهل التلاعب بها وتوجيهها، وقد كان من تأثير كل هذا على أذهانهم أنْ أصبحوا يتصورون أنهم يرون ما ليسوا يرونه فعلًا.

---

(1) تروي الأسطورة أن الملك داغوبيرتوس كان يحمل على وجهه ندوبًا من أثر جروحٍ أصيب بها لخوفه من القبح.
(2) قد تكون ندوب القديس فرانشيسكو هي آثار عملية الصلب.

9. وأنا أعتقد أن مسألة عَقد الإبر[1] الشهيرة، التي انشغل بها عالمنا حتى لم يعد له حديثٌ سواها، تقوم في الواقع على مفعول الرهبة والخوف، وأنا أعلم هذا من تجربةٍ مرّ بها شخص أعرفه وأثق به تمام الثقة، لا يمكن اتهامه بضعفٍ ولا بافتتانٍ، فقد حدثه صديقٌ له عن حالة فشلٍ وقعت له في لحظةٍ من لحظات العيش الحاسمة، فتأثر لهذه القصة تأثرًا جعله بعد أيامٍ من ذلك -وهو في وضعٍ مشابه- يُصاب بالفشل ذاته، وانطلاقًا من تلك اللحظة عانى صديقي من انتكاساتٍ متتاليةٍ؛ لأن الذكرى البغيضة لفشله الأول بقيت تطارده وتنغّص عليه حياته، وقد انتهى به الأمر إلى أن وجد لهذا المرض الخيالي علاجًا في الخيال، إذ صار يعترف لنفسه بعجزه مسبقًا، فيريح بذلك ذهنه، بحكم أن تلك الحالة التي تصيبه لما صارت منتظَرةً، صار الحرج منها أدنى وصار تحمُّلُها ممكنًا، حتى إذا أتيحت له الفرصة -إذ صار ذهنه متحررًا مسترخيًا وجسده متوثبًا- كي يجعل جسده يحاول ثم يجرب ثم يُفضي إلى غيره، وجد نفسه وقد شُفي فجأة[2]، ومن تفعلْ معه ذلك مرةً فلن يُعجزك أن تعيد الكرّة، اللهم إلا إذا كان ذلك عن ضعفٍ حقيقيٍّ لا وهميٍّ.

10. ثم إن مثل هذه المصائب لا يُخشى وقوعه إلا في المساعي التي يكون فيها ذهننا موزَّعًا تَتَنازَعُهُ الرغبةُ والاحترام، وخصوصًا متى كانت الفرصة السانحة مفاجِئَةً وعاجلةً، حينئذٍ لا يكاد يكون هناك مفرٌّ من ذلك المشكل، وأنا أعرف رجلًا أفاده في هذا الشأن أنْ جاء بجسدٍ نصف مشبَعٍ ليكبح من جماح تلك الرغبة، وأصبح مع السن أقل عجزًا لأنه أقل فحولةً[3]، وأعرف آخر أفاده كذلك أن أحد أصدقائه أكد له أنه يملك ترسانةً من الرُقَيَّات لحمايته من كل سوءٍ، وأرى أن أذكر هنا كيف وقع ذلك.

(1) المقصود هنا عملية «سحرية» تتمثل في أن يعقد الساحر خيطًا على إبرة فيصيب بذلك شخصًا معينًا بالعجز الجنسي، علمًا أن بمقدور الساحر أيضًا «حل» العقدة وإرجاع القوة الجنسية، وهذه الممارسة كانت شائعة في بلدان الشرق الأوسط وأفريقيا منذ قرون.

(2) هذا المقطع شديد التعقيد في النص الأصلي، والمحقق يرى أن هذا التعقيد مقصود؛ لأن مونتيني يفضي هنا بدواخل نفسه، فكأنه يقول الشيء ثم يتراجع عنه [المترجم].

(3) هذا مقطعٌ آخر شديد الصعوبة والتعقيد؛ لأن فيه حذفًا كثيرًا، والمحقق يقول إنه يرى- مثل غيره من المحققين- أن مونتيني يتحدث هنا عن نفسه [المترجم].

حالةٌ من الواقع

11. تزوج أحد أصدقائي -وهو كونت من عائلةٍ عريقةٍ- من سيدةٍ جميلةٍ كانت خلال حفل الزفاف هدفًا لغوايةٍ فاضحةٍ من أحد الحاضرين، وقد أقلق هذا الوضع أصدقاءه، ومنهم سيدةٌ عجوزٌ كانت ترأس الحفل الذي نُظِّمَ في بيتها، خَشِيَتْ أن يكون في الأمر سحرٌ فأسَرَّت إليَّ بهواجسها.

12. طلبت منها أن تترك لي الأمر، وكان عندي في صناديقي فِلسٌ ذهبيٌّ يحمل نقوشًا سماويةً يفيد في علاج ضربات الشمس وآلام الصداع إن هو وُضِعَ على شق الجمجمة مباشرة؛ ومن أجل الإبقاء على الفلس في تلك الوضعية، جعلوا له حزامًا يُربط تحت الذقن! غباءً وبلاهةً من مثل ما نتحدث عنه، وكان جاك بيلتييه- الذي يعيش عندي- قد أهداني هذه الهدية الغريبة، وقلت لنفسي إني ربما أجني من تلك القطعة الذهبية بعض الفائدة في هذا المقام، فخاطبت الكونت قائلًا له إنه فعلًا مُعرَّضٌ لخطر الفشل؛ لأن هناك أناسًا كانوا يشتهون أن يروه كذلك، لكنْ طمأنته مضيفًا أني سأبرهن له عن صداقتي بأن أستعمل لصالحه قدرةً خارقةً أتوفر عليها، شريطة أن يعدني بأن يُبقي الأمر طيَّ الكتمان بيني وبينه فلا يفشيه لأحدٍ، قلت له إنه يكفيه ساعة يحملون إليه الإفطار(1)- أن يرسل لي إشارةً خفيةً إن كان الأمر قد مضى على غير ما يشتهى، وقد كان عقل الرجل وسمعه متخمان بسماع تلك الحكايات فأصيب بالعجز ساعة الحسم بسبب خياله، وأرسل لي إشارةً في الساعة المتفق عليها.

13. همست في أذنه بأن يقوم من مكانه كأنما ليطردنا، وليأخذ على سبيل المزاح معطفي من فوق كتفيَّ ويلقيه على كتفيه (كنا بجسمين متقاربين من حيث الحجم)؛ فيبقيه عليهما حتى ينفذ تعليماتي: حين نخرج، عليه أن ينسحب بحجة التبول، وليكررْ ثلاثَ مراتٍ أدعيةً معينةً، وليقمْ بحركاتٍ معينةٍ، وليربطْ في كل مرةٍ الشريط الذي وضعته في

(1) هي عادةٌ كانت ساريةً في أوربا في الماضي، وما زالت متبعةً هناك حتى اليوم في بعض المناطق القروية، وتتمثل في إيقاظ العروسين بحمل الإفطار إليهما، وكان الغرض الحقيقي منها التأكد أن كل شيء قد مر على ما يرام، وهذه العادة معروفةٌ أيضًا في عالمنا العربي [المترجم].

يده، وليشدَّه بإحكامٍ جاعلًا القطعة الذهبية على خصره، مع جعل وجه الرمز المرسوم عليها في اتجاهٍ معينٍ. بعد ذلك، وبعد أن يُحكِم شدَّ الرباط حول خصره حتى لا ينحلَّ، عليه الرجوع إلى إنجاز العمل المطلوب، على ألَّا ينسى بأن يغطي نفسه وزوجته بمعطفي.

14. هذه الحركات البهلوانية هي العنصر الرئيس في النتيجة، فذهننا لا يستطيع التخلص من الفكرة التي مفادها أن وسائل غريبةً مثل هذه الوسائل، لا بد أن تكون وليدة علمٍ خفيٍّ. إن غباءها نفسه يعطيها وزناً واحترامًا، وباختصارٍ تَبَيَّن أن طلاسمي كانت جنسيةً أكثر منها شمسيةً[1]، ومحفزةً أكثر منها مانعةً وكابحةً، وقد كان دافعي إلى فعل ما فعلته باعثًا مفاجئًا علاوةً على الفضول، ذلك أني لا أحب الطرق الملتوية المقنَّعة، وأكره اللجوء إلى الحيلة ليس فحسب في المزاح، بل حتى ولو كان من وراء الحيلة نفعٌ يُرتَجَى وغايةٌ تُدرَك، إذا لم يكن العمل في حد ذاته شريرًا فلعل الوسيلة المستعملة فيه تكون كذلك.

15. تزوج أحمس الثاني فرعون مصر من لاديكي القورينية (وهي فتاةٌ يونانيةٌ بارعة الجمال) غير أن الملك، الذي كان في كل الظروف رجلًا لطيفًا، وجد نفسه عاجزًا عن التمتع بعروسه، فهددها بالقتل، حاسبًا أن الأمر فيه سحر، فما كان من العروس -لمَّا كان فعل الخيال واضحًا هنا- إلا أنْ أحالته على إيمانه، فلما قدَّم نذوره للإلهة فينوس، وجد نفسه في كامل قدرته في أول ليلةٍ بعد تقديم القرابين.

16. تخطئ النساء حين يستقبلْنَنا بوجوهٍ عابسةٍ مكفهرّةٍ غاضبةٍ متهربةٍ، فيخمدن بذلك جذوتنا ويطفئن لهيبنا، وقد كانت ربيبة فيثاغوراس تقول: «إن المرأة التي تضاجع رجلًا ينبغي لها أن تنزع عنها الحياء كما تنزع ملابسها»[2]، فلا تستعيده إلا حين يستعيدها. فالمهاجم يكون موزعًا بين مخاوف عدةٍ، ولذلك فسرعان ما تنطفئ شعلة الرغبة عنده، ومن جعله الخيال يعاني هذا الموقف المزْري المخجل -والخيال لا

(1) هنا تلميح إلى ما ذكره من قبل من أن القطعة الذهبية إنها تفيد «في علاج ضربات الشمس».

(2) في نسخةٍ أخرى يضيف مونتيني: «والخجل أيضًا».

يفعل ذلك إلا في المرات الأولى، حيث يكون اللقاء حارًّا والرغبة جامحةً، وأيضًا لأن المرة الأولى هي التي يخشى فيها المرء الفشل أكثر من غيرها- فمن جعله الخيال يعاني هذا الفشل يبقى من أثر تلك البداية الخائبة محمومًا حانقًا متضايقًا، ويلاحقه كل ذلك لمراتٍ متتاليةٍ بعدئذٍ.

17. أما المتزوجون -الذين يملكون كل الوقت اللازم- فلا ينبغي لهم العجلة ولا التسرع في أمرهم ما لم يكونوا مستعدين له تمام الاستعداد، وإنه لخيرٌ للمرء أن يفشل أول مرةٍ دون مَجدٍ في غزو فراش الزوجية المضطرب المحموم، بانتظار فرصةٍ أخرى أكثر خصوصيةً وأقل إقلاقًا وإرهاقًا، من أن يعاني خيبةً أبديةً من أثر اندحاره أمام الفشل الأول. فقبل الامتلاك التام ينبغي للصبور أن يعمل -عبر محاولاتٍ عدةٍ وفي أوقاتٍ مختلفةٍ- على تدريب نفسه على الأمر رويدًا، دون إصرارٍ ولا خجلٍ زائدٍ، حتى ينتهي إلى إقناع نفسه إقناعًا نهائيًا، أما الذين يعرفون في عضوهم الطاعة الطبيعية فما عليهم إلا أن يتحكموا في مخاوفهم الوهمية.

عضوٌ طائش

18. لا يخطئ منا من يلاحظ الحرية المتمردة لهذا العضو الذي يعلن عن نفسه بطريقةٍ غير مناسبةٍ بتاتًا حين لا تكون لنا به حاجة، ويتراجع منكمشًا بطريقةٍ غير مناسبةٍ كذلك متى كُنَّا في أمس الحاجة إليه، مُعلِنًا عصيانه لسلطة إرادتنا، ورافضًا بِتَعالٍ لكل الطلبات الذهنية واليدوية التي نتشفَّع إليه بها.

19. بيد أني لو حُمِّلتُ مسؤولية الدفاع عنه والترافع لصالحه، حين نوبّخه على تمرده ونتخذ من ذلك حجةً لإدانته، فَلَرُبَّما حاولتُ الإلقاء بظلال الشك على الأعضاء الأخرى (رفاقه)، فأتهمها بأنها تآمرت -حسدًا له على أهمية استعماله وحلاوته- فخاصمَتْه جميعًا وتكالبت عليه وتواطأت

على تأليب العالم عليه، مُحمِّلةً إياه وحده -بكل خبثٍ ودهاء- خطأها جميعًا[1]. وإني أسائلك أيها القارئ، هل تعرف في جسمنا جزءًا واحدًا لا يتمرد في أغلب الأحيان على إرادتنا، بل ويتصرف على عكس ما تمليه الإرادة عليه؟ إن لأجزاء الجسم جميعًا نزواتٍ وميولًا توقظها وتُدخلها في السُّبات دون إذنٍ منا ولا رخصة، ألا تأتي الحركات اللا إرادية لعضلات الوجه فتفضح الأفكار التي نحرص على إخفائها وتفشي سرنا للحاضرين؟ والدافع الذي يحرك هذه العضلات هو ذاته الذي يحرك -عن غير دراية منا- القلب والرئتين والنبض حين يقع البصر على منظرٍ مبهجٍ يوقد خفيَةً في دواخلنا جَذْوَةَ انفعالٍ محمومٍ، ألا تنتفخ تلك العروق وتلك العضلات وتتقلّص ليس فحسب دون موافقةٍ إرادتنا، بل وحتى دون موافقة العقل؟

20. نحن لا نأمر شعرنا بالانتصاب ولا جلدنا بالاقشعرار من أثرِ الخوف أو الرغبة، وما أكثَرَ ما تذهب يَدُنا إلى غير المكان الذي نرسلها إليه! وما يتكلَّس اللسان وما تقف الكلمات في الحلق بإرادتها لا بإرادتنا، وحتى حين لا يكون لدينا ما نصنع منه طبق طعام ونُحرِّم ذلك عن طيب خاطرٍ على الجوع والعطش، فإن ذلك لا يَصرِفُهما عن تحفيز أجزاء الجسم الخاضعة لهما، لا يختلفان في ذلك بشيءٍ عن تلك الشهوة الأخرى، التي تتخلى عنا بالطريقة ذاتها متى عنَّ لها ذلك.

وآخر..

21. والأعضاء المسؤولة عن إفراغ محتويات البطن تمتلك انقباضها الخاص وانبساطها، فلا تهتم في ذلك برأينا، بل وتناقضه أحيانًا، ومثلها

(1) يبدو أن مونتيني يورد هنا نوعًا من «الرد» على القديس أوغسطينوس بخصوص الصعوبة التي يواجهها الرجل في أن يفعل ما يشاء «ببعض» أعضائه. يقول القديس أوغسطينوس، في مدينة الله (14-24): «هل لأن هذه الحركة تستحيل على الرجل، سنقول إن خالقه قد عجز عن إعطائه إياها؟ أكان يُعجِز اللّه أن يخلقه بطريقةٍ تجعل الأعضاء التي لا تحركها إلا الشهوة تخضع على عكس ذلك لإرادته وحدها؟».

الأعضاء المسؤولة عن إفراغ محتوى غُددنا[1]، وقد ادَّعى القديس أوغسطينوس -في مدحه لقوة الإرادة- أنه عرَف رجلًا كان باستطاعته التحكم في مخرجه فيطرد الغازات منه كما يشاء[2]، ويزيد فيفيس مثالًا من زمنه، تنتظم فيه أصوات الضُّراط حسب وتيرة أبياتٍ شعريةٍ ينشدها المنشدون، غير أن هذا كله لا يفترض رغم ذلك طاعةً مطلقةً عمياء من ذلك العضو.

22. فهل يكون هذا العضو أكثر الأعضاء طيشًا وفوضوية؟ أضفْ إلى ذلك أني أعرف عضوًا مثله، بلغ به التمرد وقوة الشكيمة حدًّا جعله يفرض على صاحبه طيلة أربعين سنةً ضُراطًا متتاليًا غير متقطعٍ، مفضيًا به رويدًا رويدًا إلى الموت[3].

23. ويعلم الله أني تعلمت -لا عن طريق الحكايات فحسب- كيف يرفض البطن أحيانًا أن يجود علينا بأن نحدث؛ فيكاد يوردنا بذلك موارد الهلاك، أما الإمبراطور الذي أعطانا حرية أن نُحدِث فما كان عليه إلا أن يعطينا أيضًا القدرة على منع أنفسنا منه.

24. لكن إرادتنا نفسها، التي ذكرنا هذا المأخذ دفاعًا عنها، أليس الأحرى أن ننسب إليها هي التمرُّدَ والانشقاق بتهمة الاضطراب والعصيان؟ هل تُراها تريد دائمًا ما نبغيها أن تريد؟ أليست تريد أحيانًا ما نُحَرِّمُ عليها إرادته، ملحقةً بنا بذلك بالغ الضرر؟ أليست تَنساقُ خلف ما يَخلُصُ إليه تفكيرُنا المنطقي؟ وأخيرًا، ودفاعًا عن السيد مُوَكِّلي، سأطلب من المحكمة أن تأخذ بعين الاعتبار كون قضيته في هذه المحاكمة مرتبطةً ارتباطًا لا انفصام له بقضية شريكٍ له، غير أنه هو وحده من يحاكَم، وبِحُجَجٍ وبراهينَ لا تنطبق على الشريك المذكور.

(1) يستعمل مونتيني هنا كلمةً تحيل على الكُليتين كما قد تحيل على الإليتين، وقد اخترت استعمال كلمة «غدد» التي تحيل على المعنيين معًا؛ كي أبقي للعبارة على غموضها واحتشامها.

(2) يقول القديس أوغسطينوس (المرجع نفسه، 14-24): «إن من الناس من يُخرج من الأجزاء السفلية من جسده، دون رائحةٍ كريهةٍ ووقتما شاء، أصواتًا بعضها يشبه الغناء».

(3) يبدو الأمر هنا إحالةً من مونتيني على شخصه.

25. فمفعوله هو يتمثل في الإغراء من غير داعٍ أحيانًا، وعدم الرفض أبدًا، ولكنه إغراءٌ صامتٌ هادئٌ، من هنا يتضح عداء المتهمين وعدم مشروعيتهم، ومهما يكن فإننا نعلن بصوتٍ عالٍ أن للقضاة والمحامين أن يختصموا كما يشاؤون، وأن ينطقوا بما شاؤوا من الأحكام، فلن يمنع ذلك كلُّه الطبيعةَ من مواصلة طريقها، وهي لم تفعل إلا الصواب حين أعطت لهذا العضو بعض الامتياز؛ لأنه يقوم بالعمل الوحيد الخالد الذي ينجزه البشر الفانون، وقد اعتبر سقراط أن هذا العمل يكاد أن يكون إلهيًّا حين قال إن الحب رغبةٌ في الخلود، وهو في ذاته شيطانٌ خالدٌ.

26. وإليكم آخر جعلته قوة الخيال يتصور أنه شفي من البُثور التي كان رفيقه يرحل بها إلى إسبانيا[1]، ولهذا ترى ممارسي مثل هذه الأمور يطلبون أن يكون الذهن مستعدًا، وإلا فلماذا يجتهد الأطباء في كسبِ ثقة المريض مسبقًا بالكثير من وعود الشفاء الكاذبة، إن لم يكن ذلك طمعًا في أن يتدخل مفعول الخيال فيستر عورةَ دوائهم الخادع؟ وهم يعلمون حقَّ العلم أن أحد كبار معلميهم قد ترك لهم وصيةً مكتوبةً مفادها أنَّ مِن الناس مَن يكفيهم أن يروا الدواء كي يدركوا الشفاء.

27. وقد أتاني تفسير هذا الأمر العجيب مؤخرًا من أحد خدم والدي الراحل، وهو رجلٌ بسيطٌ أصله من سويسرا، تلك الأمة النشيطة الأمينة، قال لي إنه عرف منذ زمنٍ بعيدٍ في تولوز رجلًا تاجرًا كان عليلَ الصحةِ مصابًا بالمغص الكُلوي[2]، وكان كثيرًا ما يحتاج لغسيل أمعائه، فيطلب من الأطباء أن يصفوه له تحت أشكالٍ متعددةٍ حسب أعراض مرضه، فلما كانوا يحضِّرون عدَّة الغسل كانت الأمور تجري حسب العادة في مثل هذا الشأن، وكثيرًا ما كان يمدّ يده ليتحسس ما إذا كان الماء ساخنًا أكثر مما يجب، بعد ذلك كان يستلقي وينقلب على بطنه، وغير ذلك من الاستعداد لعملية الغسل، غير أنهم لم يولجوا

(1) كان الناس يعتقدون أن لملوك فرنسا القدرة على شفاء بثور مرض السل الجلدي بمجرد لمسةٍ من أيديهم، وحين كان الملك فرنسوا الأول سجينًا في إسبانيا كان الكثير من المصابين الإسبانيين يأتون إليه طلبًا للشفاء.

(2) هو مرض الحصى الكُلوي، وكانوا يسمونه «داء الحصاة»، وقد عانى مونتيني من هذا المرض طيلة حياته، وهو يذكره في عدة مناسبات في «المقالات».

قطَ إبرة المِغسل في جسده! كان الصيدلي المكلف بالعملية ينسحب ويظل المريض على هيئته كأنما غسلت أمعاؤه للتوِّ فعلًا. وهو يحس بالمفعول ذاته الذي يحسّه من غُسلت أمعاؤه حقًّا. فإذا رأى الطبيب أن ذلك لم يكن كافيًا وصف له عمليتي غسلٍ أو ثلاثًا تجري جميعها بالطريقة ذاتها، أي عن سبيل الخيال وحده. وقد أقسم لي شاهدي أن زوجة المريض، سعيًا منها للاقتصاد -لأنه كان يدفع ثمن العملية وكأنما أجريت له فعلًا- طلبت مرةً أن يُكتفى بالماء الدافئ، لكن النتيجة سرعان ما فضحت الخدعة، فاضطروا للعودة إلى الطريقة الأولى.

28. أُصيبتْ امرأةٌ بالهلع لظنها أنها ابتلعت إبرة مع مُضغة خبزٍ، فراحت تصرخ وتتلوى تحت وقع آلامٍ فظيعةٍ شعرت بها في عنقها، حيث حسبت أن الإبرة قد انغرست، لكن لمّا لم يكن يظهر عليها انتفاخٌ ولا أي عرضٍ خارجيٍّ، فقد قَدَّرَ رجلٌ نبيهٌ من الحاضرين أن ذلك لم يكن إلا من وحي الخيال، ربما من أثر وخزةٍ تركها فيها الخبز وهي تبتلعه، فطلب منها أن تتقيأ، ثم ألقى في القيء على غفلةٍ منها إبرة معوجة، فلما رأتها المرأة ذهب عنها الألم فجأة فلم تعد تشكو من شيء.

29. وقد بلغني أن رجلًا من النبلاء نظّم يومًا حفلَ عشاءٍ دعا إليه نخبةً راقيةً من المجتمع، فلما انقضت على الحفل أربعة أيامٍ راح يتندَّر مردِّدًا وهو يمزح -لأن الأمر لم يكن صحيحًا- بأنه قد أطعم ضيوفه لحم قطٍ مفرومًا، وبلغ الخبر إحدى الآنسات ممن حضر الحفل فجزعت لذلك جزعًا شديدًا، أصيبت من أثره بالمغص الشديد والحمى حتى تعذَّر إنقاذ حياتها. وحتى الحيوانات لا تملك مثلنا إلا أن تنصاع لسلطة الخيال وقوته، ألا ترى إلى الكلب كيف يترك نفسه يموت حزنًا بعد موت صاحبه؟ ونحن نرى الكلاب تنبح وتختلج أعضاؤها تحت تأثير الحلم، ونرى الخيل تصهل وتركل بقوائمها وهي نائمةٌ.

30. إلا أننا يمكننا إرجاع كل هذا إلى العلاقة الوثيقة القائمة بين العقل والجسم، اللذين يُبلِغُ كلٌّ منهما صاحبَه عما يقع له، وغير ذلك تمامًا

ما نلاحظه من أن الخيال يعمل أحيانًا، لا ضد جسد صاحبه فحسب، بل ضد أجساد غيره، مثلما يستطيع الجسد أن ينقل مرضه إلى الجسد القريب منه، مثل ما نراه حين يحلّ الطاعونُ أو الجدري أو مرض العيون، فنتناقلها بما يُعدِي بها بعضُنا بعضًا.

«إن النظر في أعينٍ مريضةٍ يجعل عينيك تمرضان
وكثيرٌ من الأمراض هكذا ينتقل بين الأجساد»[1].

31. كما أن الخيال متى تعرض لرَجَّةٍ عنيفةٍ قد يرسل سهامًا قادرةً على إصابة جسدٍ خارجيٍّ، وقد كان السكوثيون في القديم يعتقدون أن بعض نسائهم -حين يكنَّ تحت تأثير الغضب الشديد - يستطعن قتلَ شخصٍ بمجرد النظر إليه. والسلاحف والنعام تغطي بيضها بقوة النظر فحسب، مما يدل على أن لأعينها قدرةً على إطلاق أجسامٍ وتحريكها[2]، وأما السَّحَرة فيقولون إن لهم أعينًا خطيرةً ضارةً.

«لست أدري أي عينٍ سحرت خرفاني الوديعة»[3].

32. أنا أرى أن ما يفعله السَّحَرة ليس مضمون النتائج، غير أننا نلاحظ بالتجربة أن بعض النساء يرسمنَ على أجساد أطفالهن -وهم ما زالوا في البطون- آثار خيالهنّ، كما تشهد بذلك حالة تلك المرأة التي أنجبت طفلًا موريسكيًا[4]، وقد قدموا مرةً إلى الإمبراطور كارلوس (ملك بوهيميا) فتاةً من جهة بيزا لها جسدٌ مكسوٌ شعرًا منفوشًا، كانت أمها تقول إن سبب حالتها يعود إلى رسمٍ للقديس يوحنا معلقٌ فوق رأس سريرها.

33. ولدينا مثل ذلك في الحيوانات، كما تشهد به شِياهُ يعقوب[5]، والحجل

(1) Ovide, **Amours**, 615-616.

(2) هذا النوع من الخرافات هو مما نجد منه الكثير عند بلينيوس الأكبر، وقد تناقلها الناس بعده لقرونٍ طويلةٍ.

(3) Virgile, **Égloges**, III, 103.

(4) هذه طرفةٌ خياليةٌ تجد أصلها عند القديس جيروم، تناقلها الرواة والخطاطون لزمنٍ طويلٍ، وخلاصتها أن امرأةً ولدت طفلًا أسود (كان الأسود لقبًا من ألقاب الموريسكي) فاتُّهمت بالخيانة، غير أن أبقراط عزا لون الطفل إلى وجود صورةٍ لرجلٍ أسود في غرفة المرأة.

(5) جاء في سفر التكوين (30) أن يعقوب كان يحصل على شياهٍ مخططةٍ بجعلها تنظر ساعة حملها إلى عيدانٍ من الخشب كان ينصبها أمامها فيما هي ترد الماء بعد أن يزيل عنها لحاءها.

والأرانب التي يبيَضُّ لونها في الجبال من أثرِ بياض الثلج المحيط، وقد شاهدتُ مؤخرًا في بيتي قطًّا يكمن لعصفورٍ مستقرٍ فوق غصنٍ، فما إن التقت أعينهما حتى رأيتُ العصفور يسقط من تلقاء نفسه كالميت بين مخالب القط، من أثر تلاعب خياله به أو وقوعه تحت تأثير قوةٍ القطِّ الجاذبة. ومحبو الصيد بالصقور قد سمعوا بخبر الرجل الذي كان يرى الحدأة تطير في السماء فيُراهِنُ مَن حوله على قدرته على جعلها تقع أرضًا بقوة بصره وحدَها، وكان -فيما يزعمون- يفعل ذلك.

34. هذه الحكايات التي أستعيرها، أترك مسؤوليتها على عاتق من استقيتها منه[1]. إن الأفكار أفكاري، وهي قائمةٌ على براهينَ مُستَمَدَّةٍ من العقل لا من التجربة، فلكلٍّ أن يضيف إليها ما شاء من أمثلةٍ، وعلى من لا يجد أمثلةً أن يعرف أن هناك منها الكثير، نظرًا لكثرة الوقائع وتَنَوُّعِها.

35. إن لم تكن حواشيَّ جيدةً فليتفضل من يكتب غيرها مكاني؛ ففي موضوعٍ كالذي أعالجه، والذي يدور حول طباعنا وانفعالاتنا، تكون شهادة الخرافات، متى كانت ممكنة الوقوع، قابلةً للاستعمال وكأنها شهاداتُ حكاياتٍ صحيحةٍ، فأن يكون الأمر قد وقع أم لم يقع، في روما أو في باريس، لزيدٍ أو لعمرٍو، فإن ذلك يكون دائمًا مثالًا عمَّا يمكن أن يقع للبشر، الذين تُوفِّر لي عنهم الحكاية معلوماتٍ مفيدةً، وأنا أرى ذلك وأستفيد منه مباشَرَةً أو بِطَريقٍ غيرِ مباشرةٍ. ومن بين كل الروايات التي تبلغني عن الحكاية الواحدة، أختار التي تبدو لي الأكثر ندرةً والأبعد عن إمكان النسيان. هناك مؤلفون هدفُهم رواية ما وقع، أما أنا فهدفي -إن أنا وُفِّقتُ في إدراكه- الإخبار بما يمكن أن يقع.

36. من المسموح به في المدارس افتراضُ أوجُهِ شَبَهٍ حيثُ لا شَبَهَ، أما أنا فلا أفعل ذلك، وإني لأَتَجاوَزُ -من وجهة النظر هذه، وبطريقةٍ دقيقةٍ جدًّا- كلَّ أمانةٍ تاريخيةٍ. لقد حرمت على نفسي في الأمثلة التي استخرجتها هنا مما قرأته أو سمعته أو فعلته أو قلته، أن أغير حتى أتفه التفاصيل

(1) هنا تصريح يخفف قليلاً من حدة التصديق الساذج الذي كثيرًا ما أبان مونتيني عنه، لا بل إنه هنا يتجاوز مجرد الانتقاد إذ يقول بعدئذٍ إن براهينه وحججه مستمدةٌ من العقل لا من التجربة.

وأقلها أهميةً. إن وعيي لا يزوّر فيها حرفًا، وأما معرفتي نفسها فلا أدري.

هل يمكن كتابة التاريخ؟

37. وبهذا الصدد أتساءل أحيانًا: هل يمكن أن يناسب التاريخُ حقًّا عَالِم لاهوتٍ أو فيلسوفًا أو أحد هؤلاء الناس الذين حَظُوا بوعيٍ وحكمةٍ نادرين صارمين؟ كيف سَيَتَأَتَّى لهم أن يجعلوا كلامهم يبلغ وعي العوام؟ وكيف سيجيبون على أفكارٍ صادرةٍ عن أشخاصٍ لا يعرفونهم، ويقدمون ظنونهم وأوهامهم على أنها حقائق ثابتةٌ؟ لا شك أنهم سيرفضون الشهادة أمام قاضٍ بخصوص الأعمال الكثيرة المتعددة التي خالطوا أصحابها، وليس هناك من إنسانٍ قريبٍ منهم قُربًا يتيح لهم ضمان نواياه ضمانًا تامًّا، وأنا أرى أن الكتابة عمًّا جرى في الماضي تتضمن مخاطرَ أقل من الكتابة عما يجري الآن؛ إذ ليس على من يكتب عن الماضي إلا أن يكشف لنا عن الحقائق التي استقاها من غيره.

38. يطلب مني بعض الناس أن أكتبَ عن قضايا عصري؛ إذ يرون أني أقْدر من غيري على النظر إليها بعينٍ لا تخدعها الشهوة، والنظرِ إليها عن كَثَبٍ بفضل ما أتاحته لي الصدف من علاقاتٍ برؤساء مُختلِف الأحزاب، لكن ما لا يقولونه هو أني لن آخذ على عاتقي هذا العمل، حتى ولو بُذِلَ لي فيه مجد سالوستيوس نفسه[1]؛ ذلك أني عدوٌّ لدودٌ لكل ما هو التزامٌ وانضباطٌ ومثابرةٌ، وليس هناك من شيءٍ مناقضٍ لسبيلي في الكتابة أكثر من رواية قصةٍ طويلةٍ بعض الطول؛ إذ سرعان ما أتوقف مُتَقَطِّعَ الأنفاس، كما أني لستُ أملك الأسلوب ولا البهرجة اللازمين، وإني لأشدُّ جهلًا من طفلٍ صغيرٍ بالكلمات والجمل التي يستعملها الناس في أكثر الوضعيات عموميةً وابتذالًا.

39. لذلك اكتفيتُ بأن قلت ما أُحسِنُ قوله، مروِّضًا مادة الموضوع حسب

(1) مؤرخ وسياسي روماني من القرن الأول قبل الميلاد [المترجم].

مقدرتي، ولو أني اتخذت موضوعًا يكون لي دليلًا فلربما لا يكون باعي على قدر باعه، ولو كان لي مثل تلك الحرية لنشرت بإرادتي وببادرةٍ مني أحكامًا يعتبرها الناس لا مشروعةً ولا جديرةً بالعقاب، ولو سُئل بلوتارخوس عن أعماله فلا شك أنه كان سيجيب بأنها من عمل غيره إذا كانت أمثلته كلها وفي كل مكانٍ صحيحةً مبنيةً على حقائق، لكن أعماله هو تكمن في ما هو مفيدٌ فيها للأجيال اللاحقة، وفي تقديمها بشكلٍ يجعلنا ننفتح على الفضيلة.

فليس من الخطير، تمامًا كما الشأن مع دواء الطبيب، أن تكون أحداثُ واقِعَةٍ قديمةٍ قد جرت بهذا الشكل أو ذاك.

الفصل الحادي والعشرون

فوائدُ قومٍ عند قومٍ مصائب

1. حاكَمَ ديماديس الأثيني رجلًا من مدينته كان يمتهن بيع ضروريات الدفن، وأدانه بتهمة الربح الزائد الذي ما كان ليحققه لولا موت الكثير من الناس، ويبدو لي أن هذا الحكم غير عادلٍ؛ لأن المرء لا يمكنه أن يربح إلا من غيره، ولأننا إن نَسَجنا على هذا المنوال فسيتعيّن علينا أن نُدين كل نوعٍ من أنواع الربح.

2. يجني البائع أرباحًا بفضل فُسوقِ الشباب، والفلّاح بفضل غلاء القمح، والمعماري بفضل تقادُمِ الأبنية وهَرَمِها، ورجال العدالة بفضل القضايا وصراعات البشر، حتى التكريم الذي يحظى به رجال الدين، وكذا وظيفتهم، كل هذا قائم على موتنا وعلى رذائلنا. وقد قال أحد قدماء المهرجين اليونان إنك لن تجد طبيبًا واحدًا يُفرحه أن يرى حتى أقرب أصدقائه في صحةٍ جيدةٍ، ولا جنديًّا يفرح لحلول السلام في مدينته، وقِسْ على ذلك.

3. لا بل فليسألْ كلٌّ مِنَّا نفسه، وسيجد أن أمانينا العميقة تولد وتتغذى على حساب الآخرين، وقد خطر ببالي وأنا أقلِّب هذا الأمر على جوانبه، أن الطبيعة في هذا أيضًا لا تتخلى عن قاعدتها العامة، فعلماء الطبيعة يعتبرون أن ميلادَ كل شيءٍ ونموه وازدياده إنما يقابل ضمور وفساد شيءٍ آخر.

«ذلك أن الشيء حين يتحول ويخرج عن حدوده
يُفضي في الحال إلى موت الشيء الذي كان قبلًا»[1].

(1) Lucrèce, **De la Nature**, II, 753; III,519.

الفصل الثاني والعشرون

في العادات وفي صعوبة تغيير قانونٍ قائمٍ

1. هناك رجلٌ يبدو لي أنه أدرك جيدًا مدى قوة العادة، وأعني مخترع تلك الحكاية[1] التي مفادها أن امرأةً قرويةً اعتادت أن تداعب عِجلاً صغيرًا منذ يوم ولادته وتحمله بين ذراعيها، وقد استطاعت -بفعل التَّعَوُّدِ- أن تُواصِلَ حملَه بعدما أصبح ثورًا؛ ذلك أن العادة مُعَلِّمَةٌ قاسيةٌ عنيفةٌ خادعةٌ؛ فهي تزرع فينا سلطتها رويدًا ودون أن نشعر، لكن ذلك المدخل اللطيف المتواضع يعطيها بمرور الزمن رسوخًا وقوةً، فإذا بها تُبدي لنا فجأةً عن وجهٍ متسلطٍ غاضبٍ، وجهٍ لا تَعُودُ لنا حتى حريةُ رفعِ أعينِنا للتحديق فيه، ونحن نرى أن العادة في كل مرةٍ تخرق قوانين الطبيعة: «العادة أعظمُ مُعَلِّمٍ للأشياء جميعًا»[2].

2. وأنا في هذا أصدِّق ما يقوله أفلاطون في حكايته عن المغارة في كتابه «الجمهورية»[3]، وأَصْدقُ الأطباء الذين كثيرًا ما يتخلون عن طرائق فنهم خضوعًا لسلطة العادة، وهذا مَلِكٌ عَوَّدَ معدته - باتِّباع مبادئ العادة- على هضم السُّم القاتل. ويحكي ألبيرتوس الكبير[4] عن فتاةٍ اعتادت العيش على العناكب، وقد وجدوا في جزر الهند الجديدة[5] شعوبًا كبيرةً تعيش -على اختلاف كبيرٍ في المناخ- جميعها على أكل العناكب، بل إنهم يخزِّنونها ويربونها، وكذلك يفعلون بالجراد والنمل والعظايا والخفافيش. وقد بلغني أن ضفدعًا قد بيع بستة ريالاتٍ في وقتِ مجاعةٍ، وهم يطبخون ذلك ويهيئونه بأنواعٍ من الورق. كما وجدوا شعوبًا أخرى لو أكل الواحد منهم مما نأكل نحن من لحمٍ وغيره لوقع ميتًا. «ما أعظمَ قوة العادة، إن الصيادين يقضون ليلهم في الثلج فتحرقهم شمس الجبل في الصباح، أما الملاكمون الذين أدمَتْ قفازاتُ الرصاصِ الثقيلةُ وجوهَهم، فلا تَسمع لهم شكوًى ولا أنينًا»[6].

---

(1) Cf. Pline l'Ancien, XXV, 2.

(2) Pline l'Ancien, **Histoire naturelle**, XXV, 2.

(3) إشارة إلى الحكاية الرمزية الشهيرة التي نجدها في كتاب «الجمهورية» (الكتاب السابع، الفصل الأول)، حيث يعيش مجموعة من الناس في مغارةٍ مظلمةٍ ووجوههم إلى جدران المغارة، ومصدر الضوء الوحيد يوجد خلفهم، بحيث لا يرون شيئًا سوى ظلالٍ متراقصةٍ على الجدران، ويحسبون أن تلك الظلال هي الحقيقة.

(4) فيلسوف وعالم شهير من القرون الوسطى (1193-1280م).

(5) المقصود القارة الأمريكية.

(6) Cicéron, **Tusculanes**, II, 17.

التعوُّد

3. رغم أن هذه الأمثلة غريبةٌ إلا أنها ليست مستغربةً، إذا أخذنا في الاعتبار ما نتحمله عادةً وإلى أي حدٍ يدوّخُ الاعتياد حواسنا ويُبَلّدُ شعورنا، لا حاجة لأن نبحث في ما يقولونه عن جيران شلالات النيل[1]، ولا في ما يقوله الفلاسفة عن الموسيقى السماوية؛ فنحن نعلم أن الأجسام التي تدور على تلك الدوائر، بحكم أنها صلبةٌ ومصقولةٌ، وبحكم أنها تحتك بعضُها ببعضٍ في أثناء جريانها، فلا بد أن ينتج عن ذلك الاحتكاك لحنٌ جميلٌ يتغير إيقاعه ونغمه بتغير رقصة النجوم وحركاتها، ويكفي أن نعرف أن آذان مخلوقات هذا العالم، لمَّا كانت مُخَدَّرَةً بديمومة الصوت واستمراره -كآذان المصريين الذين ذكرناهم- لم تعد تستطيع سماعه مهما كان قويًّا.

4. ما كان للبيطار ولا صاحب الطاحونة ولا صانع الأسلحة أن يتحملوا الضجيج الذي يحيط بهم لو أنهم كانوا يسمعونه كما نسمعه، ورائحة الصدرية المعطرة التي أرتديها تُعْجب أنفي، لكن لو حملتها لثلاثة أيامٍ متتاليةٍ فلن تعجب تلك الرائحة سوى أنوف الآخرين من حولي، وأغرب من ذلك أن التعود يستطيع -رغم فترات الانقطاع الطويلة المتكررة- إبقاءَ حواسِّنا تحت تحَكُّمِه، كما يعرف ذلك جيدًا جيران نواقيس الكنائس، وأنا أقيم في منزلي في برجٍ فوقه ناقوسٍ ضخمٍ يعزف عند شروق الشمس وعند الغروب لحنَ صلاة مريم، كان صوت الضوضاء قويًّا جدًّا إلى حدّ أنني في البداية لم أكن أستطيع احتماله، لكنني بعد وقتٍ غير طويلٍ اعتَدتُهُ حتى لم يعد صوته يزعجني، بل وكثيرًا ما لا يوقظني حتى من النوم.

5. وبَّخ أفلاطون ذات يومٍ طفلًا كان يلعب بالنَّوى[2]، أجاب الطفل: «أنت توبخني على شيءٍ تافهٍ»، فقال أفلاطون: «إن التعوّد ليس بالشيء

---

(1) حسب شيشرون «حلم سكيبيو»، فإن هؤلاء الناس يصابون بالصمم من أثر صوت المياه المنحدرة.

(2) يورد ديوجينيس اللائرتي هذه الحكاية في كتابه (3-38)، غير أن الأمر في الواقع يتعلق بالنرد لا بالنوى.

القليل»، وأنا أرى أن أسوأ رذائلنا وعاهاتنا إنما نكتسبها منذ نعومة الأظافر، وأن تشكيل شخصيتنا يكون بين أيدي المرضعات. إن الأمهات يَتَسَلَّيْنَ بمرأى أطفالهن وهم يلوون عنق دجاجةٍ أو يعذبون قطةً أو كلبًا، وما أغبى الأب الذي يشاهد ابنه يَضرب ظلمًا أحد القرويين أو الخدم، فيرى في ذلك بشارةً بشخصيةٍ قويةٍ متسلطةٍ! أو الذي يرى في خداع ابنه لصديقه وغدره به دليلًا على حذقِه وبراعته.

6. إن ما يفعله هؤلاء إنما هو زرعُ بذور القسوة والتجبر والخيانة، التي تطلق هناك جذورها فتنمو وتتقوى، ثم تزدهر برعاية العادة وعنايتها، وإنها لتربيةٌ خطيرةٌ عظيمة الخطر، أن نغفر مثل تلك المواقف الكريهة بذريعة صِغَرِ السن وتفاهة الحادث؛ أولًا لأن الطبيعة هي من يتحدث، وأن صوتها يكون أكثر وضوحًا وسذاجة كلما كان أكثر هشاشة وجِدَّةً، وثانيًا لأن قُبح الخداع لا علاقة له بكوْن موضوع الخداع مالًا أو تبْنًا[1]، بل هو كامنٌ في الخداع ذاته.

7. وأنا أرى أن الأصْوب أن نَخلُصَ إلى ما يلي: «لماذا لن يغشَ المرء في المال ما دام قد غشَّ في التبن؟»، عوضًا عن أن نقول كما يقول الكثيرون: «إنه لا يغش إلا في التبن، وما كان ليغش لو أن الأمر تعلق بالمال». يجب أن نجتهد في تعليم الأطفال أن يكرهوا الرذيلة لذاتها ولطبيعتها، وفي إطْلاعهم على قبحها المكنون فيها، حتى لا يتهرَّبوا منها فقط في أفعالهم بل وفوق ذلك في قلوبهم، يجب أن تكون فكرة الخيانة نفسها كريهةً إليهم، أيًّا كان القناع الذي يَعتَمِرونَه.

8. لقد توخيت دائمًا، في طفولتي، المشي مستقيمًا على سُبُلٍ واضحةٍ، وكنت على الدوام أكره الغشَّ والخديعة وأشمئز منهما في ألعابي، وكما لا ينبغي أن نرى في ألعاب الأطفال ألعابًا، بل أعمالًا بالغة الجدية والأهمية، فكذلك ليس هناك من تسليةٍ -مهما صَغُرَ شأنُها- لستَ تجدني أدخلها اليوم إلا وأنا أحمل معي -بِمَيلٍ داخليٍّ فطريٍّ ودون أي

(1) استخدم مونتيني في الأصل كلمة «إبر» هنا، واختار المحقق كلمة «فاصوليا»، فارتأينا أن نستعمل «تبن» لمناسبتها للمقام [المترجم].

مجهودٍ- كراهةً كبيرةً للغش، أنا ألاعب زوجتي أو ابنتي الورق على فلسٍ أو فلسين، فسواءٌ كنتُ غيرَ مبالٍ بنتيجة اللَّعب أو على عكس ذلك متحمسًا له، فإني أَعُدُّها كما لو كان كلُّ فلسٍ منها جنيهًا، كما أني في كل أمرٍ وفي كل مكانٍ تكفي عيناي وحدهما لجعلي ألتزم بواجبي؛ لأني لست أعرف لنفسي حارسًا يَقِظًا يَقظَتَهُما، ولا أجْدر باحترامي منهما.

9. ولقد رأيتُ مؤخرًا في بيتي رجلًا قصير القامة من مدينة نانْت، وُلِدَ دون ذراعين[1]، لكنه درَّب قدميه على القيام بالمهام التي كان من المفروض أن تُوكَلَ إلى اليدين، حتى كادت القدمان من أثر ذلك تنسيان وظيفتهما الطبيعية، لا بل إنه كان يسميهما يديه؛ لأنه كان يستطيع أن يشحن بهما مسدسًا ويطلقه، وأن يُدخل الخيط في ثقْب الإبرة ويَخِيطَ ثوبه، وأن يكتب وينزع قبعته ويمشط شعره ويلعب الورق والنَّرد، فيُقَلِّبُها بين قدميه بخفةٍ وبراعةٍ تضاهي براعة أي لاعبٍ سليم الجسم مكتمل الأطراف، فلما أعطيته أجر الفرجة استلم مني المال بقدمه كما نفعل نحن بأيدينا. وقد رأيت في طفولتي واحدًا غيره كان يلعب بسيفٍ ذي مقبضين وفأسِ قِتال، ممسكًا بهما بثنية عنقه لكونه دون ذراعين، فكان يرميهما في الهواء ويتلقفهما ويرمي الفأس فيصيب مرماه، ويجعل السوط يفرقع كما يفعل أي حوذيّ فرنسي ماهر.

10. غير أن مفعول العادة يبدو أوضح حين نتأمل الانطباعات الغريبة التي تتركها في ذهننا، حيث لا تجد الكثير من المقاومة. ما الذي لا تصنعه العادة يا ترى بعقولنا وعقائدنا؟ ودعْ عنك التزوير المشين لدياناتنا، التي تثمل بها شعوب بكاملها وشخصيات من الأكابر؛ لأن الضياع والتيه في هذا المجال الخارج عن نطاق عقولنا البشرية أسهلُ وأيسرُ على المرء منه في غيره، اللهم إلا من أنارت سبيلَه العنايةُ الإلهية، ثم هل هناك من رأيٍ -مهما كان غريبًا غير معقولٍ- لم تغرسه العادة وترسخه بالقوانين حيثما عنَّ لها أن تفعل؟ ومن ثَمَّ تظل هذه الملاحظة القديمة صحيحة.

«أليس من المخجل لعالِمِ طبيعةٍ -دَورُهُ تَفَحُّصُ الأشياء وملاحظتُها-

(1) ذكر هذه الحالة الكثير من مؤلفي تلك الفترة.

أن يسأل عقولًا طَوَّعتها العادةُ شهادةً عن الحقيقة!»[1].

11. أعتقد أنْ ليس هناك من فكرةٍ خطرت ببال إنسان، مهما تناهت في الغرابة والجنون، لن تجد لها مثالًا حيًّا في العادات الجارية، وأنَّ عقولنا في واقع الأمر لا تُقِيمُ شيئًا ولا تؤسس له، وأنت تجد شعوبًا من عادتهم أن يديروا الظهر لمن يسلمون عليه، وألّا ينظروا أبدًا في عيني من يريدون تكريمه[2]، وهناك بلادٌ حين يبصق فيها الملك تمد سيدة القصر المفضَّلة يدها، وآخرون ينحني أكابر القوم لديهم ليلتقطوا براز الملك بقطعة قماش.

عاداتٌ غريبةٌ

12. لنأخذْ متسعًا من المكان كي نقدِّمَ هذه الحكاية، كان أحد الفرنسيين يتمخط في يده، وهو سلوكٌ مناقضٌ تمامًا لعاداتنا نحن معْشر الفرنسيين، وكان وهو يدافع عن نفسه بهذا الصدد -وكان رجلًا معروفًا بالمزاح- يسألني: ما الميزة التي تميز هذه الفضلات القذرة حتى نستقبلها بقطعة قماشٍ رفيعٍ؟ لا بل ونطوي المنديل ونضمه إلينا! كان يرى أن ذلك ينبغي له أن يكون مقزِّزًا أكثر من أن نفرغ تلك الفضلات في أي مكانٍ كان، كما نفعل بباقي فضلاتنا، وقد فكرت في الأمر فوجدت أن كلام الرجل لا يخلو من صوابٍ؛ فقد جعلتني العادة عاجزًا عن الانتباه إلى غرابة هذا الأمر، على حين أننا نستهجِن مثله إن هو جاءنا من بلادٍ أخرى غير بلادنا.

13. إن المعجزات إنما مصدرُها جهلُنا بالطبيعةِ لا الطبيعة ذاتها، وإن التعود يُضعِف من قدرتنا على الحكم على الأشياء، والشعوب المتوحشة البدائية لا تستغرب عاداتنا وسلوكنا بأقل مما نستغرب نحن عاداتها وسلوكها، وليس هناك من سببٍ لكي يكون الأمر على

(1) Cicéron, **Le Songe de Scipion**, VI, 19.

(2) يتعلق الأمر بجزر الهند حسب رواية غومارا، وكذا الأمر في المسألة الآتية.

عكس ذلك، كما لا شك في أن يُسَلِّمَ بهذا كل من استطاع -بعد التجول بين هذه الأمثلة المقبلة من بعيد- أن يتأمل في عاداته وسلوكه هو نفسِه ويتفحصها بعناية. إن العقل البشريَّ عبارةٌ عن مزيجٍ مستخلصٍ من مقادير متقاربةٍ من الوزن الذي نعطيه لكل آرائنا وعاداتنا، أيًّا كان شكلها، ولذلك فمادته لا نهاية لها، وكذلك تنوُّعُه.

14. لكن لنرجعْ إلى ما كنا فيه. هناك شعوبٌ لا يخاطب عندهم أحدٌ الملكَ عدا زوجته وأطفاله إلَّا عبر وسيطٍ. كما أنك تجد قومًا تكشف العذارى عندهم عوراتهن فيما تسترها النساء المتزوجات. وهناك عادةٌ أخرى لدى آخرين تقارب هذه، حيث تملك الفتيات حرية ممارسة الجنس مع من يشأْن من الرجال، فإذا حبلت إحداهنَّ أجهضوها بواسطة الأدوية، على مرأًى ومسمعٍ من الجميع، وإذا تزوج تاجرٌ عندهم يكون لجميع التجار المدعوين الحق في مضاجعة زوجته قبله، وكلما كان عددهم كبيرًا ازدادت المرأة رفْعةً وعزةً عندهم، واكتسبت سمعة المرأة القوية الصبور، وإذا تزوج ضابطٌ في الجيش فعل أصدقاؤه من الضباط كفعل الآخرين، وهلمّ جرّا، إلا إذا كان العريس فلاحًا أو رجلًا من العامة؛ إذ يكون للحاكم حينئذٍ حق مضاجعة الزوجة قبله، لكنهم على الرغم من كل ذلك يحرصون أشد الحرص على التزام الوفاء بعد الزواج.

15. هناك شعوب لديها مواخير عمومية يرتادها الرجال، بل وحتى حفلات زفاف تقام للرجال في ما بينهم، والنساء عندهم يرافقنَ أزواجهن إلى ميادين الحرب، حيث لهن حظٌّ ليس في القتال فحسب ولكن كذلك في الزعامة والقيادة[1]، وأناسٌ أُخَر لا يضعون خزائم في الأنوف والشفاه والخدود وأصابع القدمين فحسب، بل ويحملون كذلك أعمدةً ذهبيةً ثقيلةً يُولِجونَها في أعلى الفخذين وفي حلمات الأثداء، وغيرهم إذا انتهوا من الأكل مسحوا أصابعهم في أفخاذهم وفروجهم وأخمص أقدامهم. وآخرون لا يرث عندهم الأطفال آباءهم بل يرثهم الإخوة وأبناء الإخوة، وغيرهم يورِثُ أبناء الإخوة فقط، باستثناء إرث الأمير الذي

(1) أغلب الأمثلة مستخرجة من كتاب غومارا «التاريخ العام لبلاد الهند» 1605م.

ينتقل إلى ابنه. ولديك شعوبٌ تعيش على مبدأ الملكية المشتركة، فترى بعض القضاة عندهم مُكَلَّفِينَ جماعيًّا بأعمال الزراعة وتوزيع الثمار كُلًّا حسب حاجته.

16. ولديك شعوبٌ تبكي موت الطفل وتَتَّخِذُ من يوم موت الشيخ العجوز عيدًا، وآخرون يضاجع الرجالُ عندهم نساءهم جماعةً، فتجد عشرة أزواجٍ أو اثني عشر زوجًا في السرير الواحد، وغيرهم يعطون للأرملة حق التزوج ثانيةً إذا كان موت زوجها الأول موتًا عنيفًا، أما إذا كان الأمر على غير ذلك فلا. وآخرون بلغتْ بهم الاستهانة بالمرأة واحتقار شأنها حدَّ وأْد بناتهم في المهد، حتى إذا احتاجوا نساءً اشتروا حاجتهم منهن من الشعوب الجارة. وهناك قومٌ يستطيع الرجل عندهم تطليق زوجته دون إبداء أي سببٍ، على حين لا تملك المرأة حقَ مُفارَقَةِ زوجها أيًّا كان السبب. وقومٌ للرجل عندهم حَقُّ بَيعِ زوجته إذا كانت عاقرًا. وغيرهم يطبخون جثة الميت ويدُقُّونَها دَقًّا حتى تصير كالعجين الرخو، فيخلطونها بالخمر ويشربونه وآخرون لا يتمنى الرجل عندهم قبرًا أفضل من بطون الكلاب، وعند غيرهم بطون الطيور.

17. ثمَّةَ شعوبٌ[1] تعتقد أن الأرواح السعيدة تعيش بِحُريةٍ في جناتٍ وعيونٍ فيها كل ما تشتهي الأنفس، وأن الصدى الذي يبلغنا إنما هو صدى أصواتها. وآخرون يحارب الرجل عندهم في الماء، ويَرمي بالسهم فيُصيبُ وهو يسبح. وغيرهم يبدي الرجل عندهم عن طاعته بهزِّ الكتفين وطأطأة الرأس وخلعِ النَّعلين إذا دخل على الملك. وآخرون يجدعون أنوفَ الخصيان الذين يحرسون الراهبات ويقطعون شفاههم حتى لا يمكن أن تحبهم امرأةٌ، ويفقأ الرهبان عندهم أعينهم كي يتصلوا بالجن ويتلقوا النبوءات منهم. وقومٌ يصطنع عندهم الرجل إلهًا مما شاء، فالقنَّاص يعبد أسدًا أو ثعلبًا، والصيادُ سمكةً، وليس هناك من عملٍ ولا من نزوعٍ بشريٍّ إلا اتخذوا منه إلهًا معبودًا، ورؤوس

(1) واضحٌ أن مونتيني يستمتع هنا بسرد أغرب الأمثلة وأكثرها مفارقةً بالنسبة لمعاصريه، إن هناك شيئا كصدى فكرة العالم المقلوب، وهي ظرفةٌ بلاغيةٌ كانت سائدةً في القرون الوسطى، حيث تسبح الطيور وتطير الأسماك وتصب الأنهار في منابعها، بيد أن الأمر هنا يتعلق بالعادات الاجتماعية.

الآلهة عندهم الشمسُ والقمر والأرض، فترى الرجل منهم متى أراد أن يؤديَ قَسَمًا وَضَعَ يدَه على الأرض ونظر إلى الشمس وهو يقسم، وغيرهم يأكلون اللحم والسمك نيّئًا دون طهْيٍ.

18. وثمّةَ شعوبٌ يُقْسم أناسها -متى كان موضوع القسم مهمًا- باسم رجلٍ ميتٍ كان في حياته مشهورًا بالاستقامة، فيقسم الرجل منهم وهو ينطق باسم الراحل ويضع يده على قبره. وآخرون يرسل لديهم الملك إلى أمرائه وقواده شعلةَ نارٍ هديةً لرأس السنة، فإذا وصلتهم الشعلة تَعَيَّنَ عليهم أن يطفئوا نيرانهم ويستوقدوا من نار الملك، وكذلك يفعل الشعب من حولهم، إذ يُلزَمُ الجميعُ بالاقتباس منها وإلا اعتُبِرَ ذلك إساءةَ أدبٍ مع الملك. وغيرهم إذا أراد الملك عندهم أن يتنازل عن عرشه كي يتفرغ للعبادة تعيّن على وريثه أن يتخلى كذلك عن العرش للثالث في الترتيب. وشعوبٌ تغير مؤسساتها حسب ما تتطلبه الحاجة، فيخلعون الملك متى بدا لهم ذلك، ويستبدلون به مجموعةً من الشيوخ، أو يتركون السلطة في يد الشعب.

19. وثمة شعوبٌ يختن أناسها الرجال والنساء على السواء ويعمِّدونهم تعميدًا واحدًا، وآخرون متى أتى المحارب منهم بسبعة رؤوسٍ من رؤوس الأعداء خلع عليه الملك صفة النبيل هو وذريته، وغيرهم يعتنقون الرأي النادر الغريب غير المتحضر الذي يقول بفناء الأرواح. والنساء لدى آخرين يَلِدنَ من دون وجعٍ ولا خوفٍ، ولدى غيرهم يلبسن على الساقين جواربَ من نحاسٍ، فإذا عضت إحداهن قملةٌ تَعَيَّنَ عليها -من باب الشهامة- أن تعض القملةَ فقط بدورها. وآخرون لا تتزوج المرأة عندهم إلا بعد أن تهب عذريتها للملك إن هو شاء، وغيرهم يسلم عليك الرجل منهم بوضع إصبعه في الأرض ثم رفعِهِ صوب السماء. وعند آخرين يحمل الرجل حمله على الرأس وتحمل المرأة حملها على الكتفين، وتتبول النساء واقفات والرجال مُقرْفصين. وشعوبٌ أخرى يهدي لديها الرجل منهم لصاحبه شيئًا من دمه عربونَ صداقة، ويحرق البخور احتفاءً به كما يحرقه لإلهه. وآخرون يحرمون زواج القرابة، ليس حتى الدرجة الرابعة فحسب بل على جميع الدرجات.

وفي أحد البلدان يتركون الطفل عند المرضعة أربع سنواتٍ، بل وكثيرًا ما يتركونه لاثنيْ عشرة سنةً، وهم في البلد نفسه يعتبرون أن إرضاع الرضيع في يومه الأول يقتله. وآخرون يتكفل الرجال لديهم بعقاب الصبيان والنساء بعقاب الفتيات، ويتمثل العقاب في تعليقهم من أقدامهم فوق مصدرٍ للدخان.

20. وثمّة شعوبٌ يختن أناسها النساء[1]، وأخرى تأكل جميع أنواع العشب، فلا يجوز لهم الامتناع عن أكل نباتٍ مهما بدت لهم رائحته غيرَ مستحبةٍ. وآخرون لا يغلقون شيئًا، فلا يجعلون للبيوت -مهما كانت جميلةً غنيةً- أبوابًا ولا نوافذ، وليس لديهم صناديق يمكن إغلاقها، فإذا سرق السارق منهم عاقبوه شديد العقاب. وغيرهم يقتلون القملَ عضًّا بالأسنان كما تفعل القِرَدَةُ، ويتقززون أيَّما تَقَزُّزٍ مِن قَتلِهِ صَفعًا بالأصابع كما نفعل. ولدى شعوبٌ أخرى لا يَجُزُّ المرء شَعَرًا ولا يقص أُظفُرًا طيلة حياته أبدًا، وعند غيرهم يقصون أظافر اليد اليمنى ويُعفُونَ أظافرَ اليسرى علامةً على الرفعة والسمو، وعند آخرين يترك الرجل شعره ينمو على الجانب الأيمن ويُبقي على الجانب الأيسر محلوقًا، وفي ما جاورنا من الأقاليم تترك هذه شعرها يطول من الأمام والأخرى من الخلف، وتحلقان الجانب المقابل. وثمّةَ شعبٌ يُعير فيه الآباء أبناءهم والأزواجُ زوجاتِهم للضيف، لكنْ يجعلونه يدفعُ لِقاءَ ذلك مالًا، ولا يخجل الرجل منهم أن يلد مع أمه، ولا الأب أن يضاجع ابنته ولا ابنه، فإذا أقاموا حفلًا رأيتَهم يتبادلون أطفالهم للغرض ذاته دون مانعٍ من رَحِمٍ ولا وازعٍ من قرابةٍ[2].

21. وهؤلاء يأكلون لحوم البشر، وعند أولئك يبرهن الرجل على وَرَعِهِ وتديُّنِه بقتل والده متى بلغ سنًّا معينةً. وعند غيرهم يقرر الرجل وامرأته ما زالت حاملًا، هل سيُطعِمُ ما في بطنها ويحتفظ به؟ أم هل سيتخلى عنه ويقتله؟ ولدى آخرين يضع الرجل العجوز منهم زوجته

(1) مونتيني هنا يكرر نفسه، وكذلك الأمر بالنسبة للقمل أدناه.

(2) كل هذه العادات، سواء صحّت أم لم تصحّ، مأخوذةٌ عن مؤلفين مختلفين، مثل غومارا وكوينتوس كورتيوس وهيرودوتس وبلوتارخوس وغيرهم.

الشابة تحت تصرف الشباب. وعند غيرهم تُشاعُ النساء بين الجميع دون غضاضةٍ ولا حرجٍ، لا بل إن المرأة في بعض البلاد تحمل على أطراف فستانها -كعلاماتِ شرفٍ- شرائط ملونةً بعدد الرجال الذين ضاجعَتهم.

22. ألم تصنع العادة كذلك جمهوريةً من النساء؟ ألم تضع السلاح في أيديهن وتجعل منهن محاربات؟ وما لا تفلح كل الفلسفات في إدخاله في عقل أكثر الناس حكمةً، ألا تُعَلِّمُهُ العادة -بفعل التقادم والتكرار وحده- لأغلظِ العوام طبعًا وأبلدِهم ذهنًا؟

23. ونحن نعرف شعوبًا بأكملها لا تحتقر الموت فقط بل وتحتفي به، ويتحمل الطفل منهم ذو السنوات السبع ضربَ السياط حتى الموت دون أن يرفّ له جفنٌ، وآخرون يحتقرون المال احتقارًا، فيأنف أفقرهم وأرقُّهم حالًا من الانحناء لالتقاط كيسِ مالٍ مطروحٍ أرضًا. كما أننا نعرف بلدانًا لها أرضٌ خصبةٌ تنبت أجمل الخيرات، غير أن عامَّةَ طعام القوم وألذَّ أطباقهم خبزٌ وبَقَلٌ وماء.

القوةُ الجبَّارةُ للعادة

24. ألمْ تصنع العادة كذلك هذه المعجزة في خيوس[1]، حيث مرت مئة عامٍ دون أن تخلَّ امرأةٌ واحدةٌ ولا فتاةٌ واحدةٌ بشرفها؟ الحاصل في رأيي أنْ ليس هناك من شيءٍ لا تفعله العادة أو لا تستطيع فعله، ولقد أصاب بنداروس حين سماها -في ما يروون- ملكةَ العالم وإمبراطورته. والرجل الذي وجدوه قائمًا على أبيه يضربه، فلما سألوه عن ذلك أجاب بأنَّ تلك عادة أهل بيته، وأن أباه قد ضرب جده قبله، وكذلك فعل الجد مع والده وكذا دواليك، ثم أشار إلى ابنٍ له يقف جانبه، وقال: «هذا أيضًا سيضربني متى بلغ مثل سني».

(1) جزيرة في بحر إيجة تقع قرب الشواطئ التركية.

25. وهذا الأب الذي كان ابنه يسحبه ويضربه في الشارع، يتوقف عند بابِ بيتٍ ويطلب من الابن التوقف عن ضربه؛ لأنَّ هناك توقف هو بأبيه قبلها بأعوام، وأن تلك كانت هي حدود سوء المعاملة المتوارث الذي كان الأطفال يذيقونه لآبائهم في العائلة.

26. يقول أرسطو إن النساء -بفعل العادة كما بفعل المرض- ينتفنَ شعرهن ويقرضن أظافرهن ويأكلن الفحم والتراب، والرجال -بفعل العادة أكثر مِن فعلِ الطبيعة- يضاجعون رجالًا مثلَهم.

27. إن قواعد الوعي وضوابطه، التي نقول عنها إنها بنت الطبيعة، إنما هي في الواقع بنت العادة. فكلٌّ منا يُبَجِّلُ في دَواخِلِه الآراء والتقاليد السلوكية المتناقَلة والمقبولة في محيطه، فلا يفارقها دون تأنيب ضميرٍ، ولا يمارسها إلا وهو موافقٌ عليها قابلٌ بها.

28. وحين كان سكان جزيرة كريت يريدون الدعاء على أحدهم، كانوا يَضرَعُونَ إلى الآلهة كي تجعله يكتسب عادةً سيئة.

29. لكنّ أهم مفعول يكشف لنا عن قوة العادة الخارقة، هو أنها تمسك بخناقنا بطريقةٍ لا تترك لنا معها مجالًا للتخلص منها، والتفكير في ما تفرضه علينا ومناقشته إلا ببالغ الصعوبة والعسْر.

30. ولما كنا نعرف الأشياء مع حليب أمهاتنا، وكان العالم يأتينا على هذا الشكل في أول مرة نراه، فيبدو أننا قد خُلقنا لنرى الأشياء كما نراها، والآراء الشائعة التي نجدها منتشرة حولنا، والتي تدخل أذهاننا مع مَنِيِّ آبائنا، تبدو لنا من أثر ذلك طبيعيةً وكَونِيَّةً لا ينازِع في صوابها أحدٌ.

31. وينتج عن كل هذا أننا نرى خارجًا عن نطاق العقل كلّ ما هو خارجٌ عن نطاق العادة، والله يعلم كم أن هذه الفكرة غير صائبةٍ في غالب الأحيان.

ولو أن الناس تعلموا أن يفعلوا كما تعلمنا أن نفعل نحن الذين نَدرُسُ أنفسنا، فَتَساءَلَ كلٌّ من يسمع فكرةً صائبةً عما يعنيه منه فيها؛ لاكتشف أن هذه الفكرة ليست كلامًا جميلًا بقدر ما هي ضرب سوطٍ قويةٍ موجهةٍ غبائه العادي في الحكم على الأشياء، بيْد أن الواحد منا عوضًا عن ذلك يتلقى صوت الحقيقة وتعاليمها وكأنها موجهةٌ للجميع، ولا يراها أبدًا موجهةً إليه هو، وبدلًا من تطبيقها على سلوكه الخاص تَراه يُخَزِّنُها في ذاكرته تخزينًا غبيًّا لا فائدة منه، لكن لنرجعْ ثانيةً إلى قوة العادة القاهرة.

32. إن الشعوب التي تربَّت على الحرية وعلى حكم نفسها بنفسها ترى في كل نوعٍ آخر من الحكم شيئًا مرعبًا مخالفًا للطبيعة، والأمر ينسحب على الشعوب التي شَبَّت على النظام الملكي، ومهما قدم لهم القدر من السهولة واليسر في إحداث تغيير، وبعد أن يلاقوا الصعوبة الجمّة في التخلص من قبضة سيِّدٍ شديدةٍ قاسيةٍ، يسارعون إلى استبدال غيره به وتنصيبِه مكانَه، مُلاقِينَ في ذلك مثلما لاقَوا في التخلص من سابقه من عناءٍ ومصاعبَ؛ ذلك أنهم لا يستطيعون حَملَ أنفسهم على كراهَة السلطة في ذاتها، والتقاليد هي التي جعلت كُلًّا منا -بما آتته الطبيعة- فرحًا مسرورًا، وليس في تورين*[1] ما يمكنه أن يجتذب متوحشي أسكتلندا، ولا في تيساليا*[2] ما يمكن أن يهتم به شعب السكوثيين.

33. سأل داريوش بعض اليونانيين كم يطلبون مقابل أن يتبنّوا عادة الهنود في أكل موتاهم؛ لأن تلك كانت هي العادة عندهم، فهم لا يجدون لموتاهم قبرًا أكرم من ذواتهم، فأجابوه بأنهم لن يفعلوا ذلك مهما أُعطُوا من مالٍ، لكنه حين حاول إقناع الهنود باتِّباع عادة اليونان في إحراق جثث موتاهم لقيَ منهم نفورًا أكبرَ واستنكارًا أشد، إننا نتصرف كذلك لأن التعود يخفي عنا الوجه الحقيقي للأشياء.

«ليس هناك شيءٌ، مهما كان في البداية كبيرًا جميلا

(1) * مقاطعة فرنسية.

(2) * منطقة من مناطق اليونان.

لا يكف شيئًا فشيئًا عن إدهاشنا»[1].

34. ذات يومٍ، سعيًا مني إلى البرهنة على صحة إحدى عاداتنا التي كانت سائدةً حتى خارج نطاق بلادنا، ورغبةً مني في اتِّباعِ السُّنَّةِ الجارية في مثل ذلك في التسلح في سعيي بقوة القوانين والأمثلة، حدَّثَتني نفسي بأن أبحث في أصول تلك العادة ذاتها ومصدرها، فاكتشفت من ضعفِ أساسها وهشاشته ما كاد يجعلني أنا نفسي أتخلص منها، أنا الذي كانت مهمتي تقويتها لدى غيري من الناس.

35. وقد عمل أفلاطون -باستعمال هذا النوع من الوصفات التي كان يراها أساسية وناجعة- على طرد العلاقات الغرامية المنحرفة والمنافية للطبيعة التي كانت سائدةً في زمنه، أي أن ينتفض الرأي العام ضدها وأن يهجوها الشعراء وغيرهم من الناس شديد الهجاء، هكذا لن تجتذب أجمل الفتيات أباها ولا أجمل الفتيان أختَه، ذلك أن خرافات ثياستيس*[2] وأوديب*[3] ومكاريوس*[4] ستعمل رويدًا على غرس ذلك النفور المفيد في عقول الصبيان الفتية.

36. صحيحٌ أن الاحتشام فضيلةٌ رفيعةٌ لا يجهل أحدٌ فائدتها، غير أن التعامل معها وتقديمها على أنها في أساسها طبيعيةٌ أمرٌ أصعب من تقديمها حسب العادات والقوانين والمبادئ الأخلاقية، أما أسسها الأولى والكونية فيصعب تَفَحُّصُها في العمق، ومعلمونا يمرون بها مَرور الكرام، فلا يجرؤون على النظر فيها عن كَثَبٍ، بل يسارعون إلى الاختباء تحت مظلة العادة، وهناك تنفخ أقلامهم أوداجها فيحققون نصرًا سهلًا.

(1) Lucrèce, **De la Nature**, II, 1023.

(2) * في الأساطير الإغريقية، هو حاكم مدينة أوليمبيا الأسطوري الذي أحب زوجة أخيه، واغتصب أخته وأنجب منها سفاحًا.

(3) * في الأساطير الإغريقية، هو ملك طيبة الأسطوري، الذي وصل إلى الحكم بعد قتل أبيه والإنجاب من أمه سفاحًا.

(4) * في الأساطير الإغريقية، كان مكاريوس وأخته كاناكي ابنا إيولوس رب الرياح، تجمعهما علاقة محرمة، وأنجبا منها سفاحًا.

37. أما الذين لا يريدون الانسياق بعيدًا عن المنبع الأصليّ فيخطئون أكثر من الآخرين، ويجدون أنفسهم مجبرين على تبني آراءٍ مغرقةٍ في الغرابة، مثل خريسيبّوس، الذي لا يبرح يُذَكِّر هنا وهناك في كتاباته باستهانته بشأن العلاقات المحرَّمة أيًّا كان نوعها، ومن يريد التخلص من التحيز العنيد للعادة سيجد أن كثيرًا من الأشياء -التي نتلقاها بوصفها بديهيةً غيرَ قابلةٍ للنقاش- لا تملك من أساسٍ سوى الشعر الشائب والوجه المتجعّد للعادة التي تصاحبها، فما أن ينزع عنها هذا القناع وتنكشف له الأشياء تحت ضوء الحقيقة، حتى يشعر باضطراب ذهنه وحكمه على الأشياء، لكنه سيقف عندئذٍ على قاعدةٍ أشد سمكًا وصلابةً.

38. وسأسأله على سبيل المثال: هل هناك شيءٌ أغرب من أن ترى شعبًا معينًا قد فُرِضَ عليه الخضوع لقوانين لم يفهم منها شيئًا قطّ، وأُجبِرَ على أن يتَّبِعَ في كل أحواله المدنية من عقود قرانٍ، وهِباتٍ، ووصايا، وبيعٍ، وشراءٍ، وغيرها لقواعدَ لا يمكنه أن يعرفها؛ لأنها ليست مكتوبةً ولا منشورةً بلغته، فيضطر بذلك إلى شراء تأويلها واستعمالها اضطرارًا؟

39. ومن يفعل هذا فإنه لا يتَّبع في ذلك الفكرة العبقرية لسُقراط، الذي نصح ملكه بأن يجعل المفاوضات والمبادلات التجارية بين أفراد رعيته معفاة من كل الضرائب والمكوس مدرَّةً للربح الوفير، وأن يجعل خصوماتهم واحتجاجاتهم باهظة الثمن بفرض ضرائب عاليةٍ عليها، بل هو على العكس من ذلك يتَّبع توجُّهًا يفضي إلى طرح العقل نفسه في السوق وإعطاء القوانين سعر صرف كما هو الحال مع البضائع! وإني لأحمد القدر بأن جعل رجلًا من بلادي غاسكونيًا -في ما يروي المؤرخون- هو أول من وقف في وجه شارلماني، الذي كان يريد أن يفرض علينا قوانين لاتينيةً تَحَكُّمِيَّةً.

فسادُ العدالة

40. هل ثمّةَ شيءٌ أكثر غرابةً ووحشيةً من أن ترى شعبًا جرت العادة عنده

بأن يشتري وظيفة القضاء ممن يريد ممارستها، وأن يُصدر القاضي حكمَه لقاء قدْرٍ من المال، وأن يُحرَمَ من الإنصاف كل من لا يملك مالًا ليدفعه للقاضي، وأن يكون لسلعة العدالة من الأهمية ما يجعل فئةً رابعةً تتشكل داخل المجتمع، مكونةً من الذين يعرفون التلاعب بالقضايا؛ لتضاف إلى الفئات الثلاث الأخرى (الكنيسة والنبلاء والشعب) وأن هذه الفئة الرابعة -بتحكمها في القوانين وسلطتها المطلقة على الأملاك والأرواح- صارت تشكل فئةً منفصلةً عن فئة النبلاء؟

41. ومن أثر تلك الازدواجية في القوانين -قوانين الشرف وقوانين العدالة- التي تتناقض حول الكثير من النقاط؛ ذلك أن قوانين الشرف تعاقب إنكارًا مقبولًا بالصرامة ذاتها التي تعاقب بها قوانين العدالة إنكارًا جرى الانتقام له بالسلاح، ففي الحالة الأولى يُعتبر الرجل الذي يحمل السلاح ويتلقى إهانةً فلا تصدر عنه ردَّة فعلٍ، فاقدًا لشرفه غيرَ جديرٍ بطبقة النبلاء، أما في الحالة الثانية فإن من يحمل مسؤوليةً مدنيةً وينتقم للإهانة يعرِّض نفسه لحكم الإعدام، فالذي يتوجه للقانون مطالبًا بإنصافه من إهانةٍ تعرض لها شرفه يفقد بذلك شرفه، أما الذي لا يتوجه للعدالة فيتعرَّض للعقاب باسم القانون، ورغم أن هاتين الفئتين تخضعان معًا لسيدٍ واحدٍ (أي الملك)، فإن هؤلاء مكلفون بالسلام وأولئك بالحرب، هؤلاء بالربح وأولئك بالشرف، هؤلاء بالمعرفة وأولئك بالقيمة والرفعة العسكرية، هؤلاء بالكلام وأولئك بالعمل، هؤلاء بالعدالة وأولئك بالشجاعة، هؤلاء بالعقل وأولئك بالقوة، هؤلاء بلباسٍ طويلٍ وأولئك بلباسٍ قصيرٍ.

42. أما عن الأشياء الأقل أهمية -مثل الملابس- فمن يريد أن يرجع بها إلى هدفها الحقيقي (أي خدمة الجسد وراحته) التي تستمد منها جمالها وفَرادَتَها، سأدلّه على قِطعٍ منها يصعب تصوُّرُ مدى غرابتها وسُخفها، منها قبعاتنا المربعة، وذلك الذيل الطويل من القطيفة المجعدة الذي يتدلى من رؤوس نسائنا بأهدابه، وتلك القطعة عديمة الجدوى والفائدة، التي نستعملها لنلفّ بها عضوًا نستحي من ذكر اسمه لكننا نتفاخر به أمام الملأ.

43. هذه الاعتبارات لن تصرِفَ رغم ذلك رجلًا عاقلًا عن اتِّباع الأسلوب العادي، لكن في مقابل ذلك يبدو لي أن كل سبيلٍ في التصرف تطبعه المغالاة والمبالغة أو التَّفَرُّدُ، هو أقرب للجنون أو للتصنع الجامح منه إلى المنطق السليم، وإذا كان على الحكيم أن يعزل عقله داخليًّا عن العامة كي يبقى قادرًا على الحكم على الأشياء بحريةٍ، فإن عليه على عكس ذلك -متى خرج إلى الناس واختلط بهم- أن يتَّبِعَ في سلوكه وقوله وفعله الأشكال والقواعد السارية بينهم، فلا حاجة للمجتمع بما نفكر به، أما الباقي (أي أعمالنا، وشغلنا، ووضعيتنا، وحياتنا الخاصة) فينبغي لنا أن نجعلها مؤتلفةً منسجمةً مع الرأي السائد، تمامًا كما فعل سقراط يوم رفض إنقاذ حياته بعصيان السلطة العمومية، رغم ظلمها بل وجورها البيّن الشنيع[1]؛ وذلك أن على كل إنسانٍ أن يسير على ما سار عليه أهل بلده، تلك قاعدة القواعد وقانون القوانين.

«على المرء الخضوع لقوانين بلده»[2].

44. وإليكم أشياء من مَعينٍ آخر، فليس من الأكيد مطلقًا أن هناك فعلًا مقدارًا من الفائدة في تغيير قانونٍ قائمٍ، أيًّا كان هذا القانون يعادل مقدار الجوانب السلبية في زعْزعة ذلك القانون، ذلك أن البناء السياسي مثله مثل أي بناءٍ آخر، يقوم على قطعٍ عديدةٍ متراصةٍ مترابطةٍ، بحيث لا يمكن تحريك واحدةٍ منها دون أن ينعكس أثر ذلك على باقي القطع جميعًا، وقد أمر مشرع الثوريين[3] بأنَّ على من يريد إلغاء قانونٍ قديمٍ أو إرساء قانونٍ جديدٍ أن يتقدم إلى الشعب بذلك وهو يحمل حبلًا حول عنقه، فإن لم يقبل الجميع بالتجديد المقترح يُشنق فورًا، أما مشرِّع إسبرطة[4] فقد أمضى حياته ساعيًا بين قومه ليحصل منهم على وعدٍ بألَّا يخرقوا أيًّا من قوانينه.

(1) حسب كسينوفون وبعده أفلاطون، رفض سقراط الفرار من عقوبة الموت رغم أن أصدقاءه اقترحوا عليه أن يساعدوه على الخروج من السجن.

(2) Sentences grecques, éd. Crispin.

(3) الثوريون هم سكان ثوريون، وهي مدينة صغيرة في جنوب إيبر.

(4) المقصود هنا ليكورغوس.

45. وأما الحاكم[1] الذي قطع بعنفٍ الوتَرين اللذين أضافهما فرينيس*[2] إلى الموسيقى، فلم يهتم بمعرفة ما إذا كانت تلك الإضافة قد جاءت بجديدٍ إلى الموسيقى، أو حسَّنت فيها رنَّةً، أو صَفَّت فيها نغمةً، بل كَفاهُ لإدانتها كونها تمثل تغييرًا للعادة للقديمة، وهذا هو مغزى السيف الصدئ الذي جعلوه رمزًا للعدالة في مرسيليا[3].

46. لديَّ نفورٌ طبيعيٌ من كل ما هو جديد، أيًّا كان الوجه الذي تتخذه هذه الجِدَّة، وعندي أسبابٌ مُقنِعةٌ لذلك؛ لأني رأيت الكثير من آثارها الضارة، والجِدَّة التي تثقل كاهلنا وتخنق أنفسنا منذ سنواتٍ عديدةٍ[4] ليست مسؤولةً عن كل شيء، لكن يمكن القول دون خشيةِ الزَّلَلِ، إنها بطريقةٍ عرضيةٍ وليدة الصدفة، قد أنتجت كل شيءٍ وتمخضت عنه، بما في ذلك الآلام والدمار التي تقع من دونها وكذلك ضدها، وما عليها أن تلوم إلا نفسها على ذلك.

«وا أسفًا! فسِهامي هي التي صنعت جراحي»[5].

47. إن من يزعزعون أسس الدولة يكونون في الغالب أولَ من تسحقه أنقاضُها وهي تتساقط متهاويةً، والإرباك والخلخلة لا يعودان بالنفع على من يصطنعهما إلا قليلًا، فغالب الأمر لا يَعدُو أن يكون مثل من يُعَكِّرَ الماءَ لغيره ليصطاد فيه غيره. إن وحدة وبنية المَلَكية، هذا البناء الشامخ، بما جناه عليها هذا التجديد من تمزيقٍ وتَحَلُّلٍ على شيخوخةٍ وكِبَرٍ، صارت أسهل مدخلًا وأيسر مَوْئِلًا لمثل هذه الأضرار، فالجلالة الملكية تنحدر من قمة الجبل إلى منتصف سفحه بأصعب مما تنحدر من المنتصف إلى الوادي السحيق.

---

(1) كان في إسبرطة خمسة رجال قانون يسمى كل منهم «إيفوروس»، وتكافئ سلطتهم سلطة الملك ومجلس الشيوخ.

(2) * موسيقي يوناني قديم من مدينة ميتيليني بجزيرة ليسبوس، عاش في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.

(3) لاحظ فاليوس مكسيموس قبله هذا الطابع المحافظ لأهل مرسيليا.

(4) يتعلق الأمر بالإصلاح الديني البروتستانتي.

(5) Ovide, **Épîtres de Phyllis à Démophon.**

48. لكن إذا كان المجدِّدون أكثر خطرًا، فإن المقلدين أكثر إثمًا وشرًّا؛ لأنهم يقتدون بأمثلةٍ قد تحققوا قبل ذلك من فظاعتها وشرّها وأقروا العقاب على من مارسها، وإذا كان هناك درجةٌ من الشرف، حتى فعل الشر، فإن المجدّدين لا المقلدين هم من يرجع إليهم مجد الاختراع وشجاعة المجهود الأول. إن كل أشكال الاضطراب والخلل الجديدة إنما ترتوي وتتغذى على مهلٍ من مَعِينِ هذا المنبع الأول الخصب، وتجد فيه الأشكال والنماذج التي تتيح زعزعة استقرار المجتمع، ويمكن لمن شاء أن يجد في قوانيننا نفسها، التي جُعِلَت لمعالجة هذا المرض الأول، الطريقة المناسبة والمبرر اللازم لارتكاب ما شاء من سيئ الأعمال، ونحن اليوم نعيش ما قاله ثوكيديديس عن الحروب الأهلية التي شهدها زمنه، من أن الناس تعمل -سعيًا منها للتخفيف من بشاعة الرذائل العمومية- على إعطائها أسماءً جديدةً لطيفةً، وكأنهم بذلك يُضمِرون الصفح عنها وتبريرها بتمويه أسمائها الحقيقية وإخفائها، وهم إذ يفعلون ذلك إنما يفعلونه بذريعة إصلاح ضمائرنا وعقائدنا: «إن الذريعة شريفة»[1]، غير أن أفضل مبررات التجديد يحمل خطرًا؛ لأنَّك لن تجد مِن تغييرٍ يُدخَل على المؤسسات القديمة يستحق أن يُقبل ويوافَق عليه[2].

49. ولذلك يبدو لي -وأقولها توخِّيًا للصراحة- أننا نحتاج إلى كثيرٍ من العجرفة والغرور كي نعطي لآرائنا من القيمة ما يجعلنا، رغبةً منا في جعلها تنتصر، لا نتردَّد في تخريب السلم العام وجَلبِ ما لا مفر منه من المصائب، من فساد الأخلاق الفظيع الذي ينتج عن الحروب الأهلية والانقلاب الشامل للأشياء الأساسية، كل هذا يفعله المرء ببلده سعيًا إلى إقرار رأيه، أليس من سوء الحساب أن نشجع رذائل معروفةً ومؤكدةً من أجل محاربة أخطاءٍ قابلةٍ للجدل والنقاش؟ وهل هناك مِن رذائلَ أسوأ من تلك التي تصدم وعينا ومشاعرنا الطبيعية؟

(1) Térence, **Andrienne**, I, 1, 141.

(2) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXXIV, 54.

50. لقد تجرأ مجلس الشيوخ[1] على تقديم هذا التنازل إثر الخلاف الذي قام بينه وبين الشعب بخصوص مسألة الوظائف الدينية؛ إذ قرَّر أن الأمر من شأن الآلهة نفسها أكثر مما هو من شأنهم، وأن تلك الآلهة ستحرص بنفسها على ألَّا يُدنِّس أحدٌ دينها، وكذلك أجاب المتنبئ أهل ديلفوي بخصوص حربهم ضد الميديّين؛ فَخَوْفًا من اكتساح الفرس للبلاد، سألوا الإله عمَّا ينبغي لهم أن يفعلوه بكنوز المعبد المقدسة، هل يخفونها أو يحملونها معهم؟ فأجابهم أن عليهم ألَّا يلمسوا شيئًا، وأن يتركوا كل شيءٍ في مكانه ويعتنوا بأنفسهم فقط؛ لأنه قادرٌ على الاعتناء وحده بشؤونه.

51. يحمل الدين المسيحي كل علامات العدل المطلق والفائدة المطلقة، لكن ليس من بينها واحدةٌ أكثر بداهةً من توصيته الصارمة لنا بطاعة أُوْلِي الأمر منا والحفاظ على النظام القائم، وما أروع المثل الذي تعطيه لنا الحكمة الإلهية في ذلك! فمن أجل ضمانِ خلاص الجنس البشري وتحقيق نصرٍ باهرٍ على الموت والخطيئة، أبتْ تلك الحكمة أن تتصرف إلا باتفاقٍ وانسجامٍ مع نظامنا السياسي، وأخضعَت تَقَدُّمَها وسعيها إلى هدفها النبيل المخلص لِعَمَى عاداتِنا وتقاليدنا وظُلمِها، لقد تركت دماء الكثيرين ممنِ اختارتهم من الأبرياء تسيل، وقَبِلَت أن تقضي سنواتٍ طِوالًا في إنضاج هذه الفاكهة التي لا ثمن لها: «خَلاصَنا»!

52. إن هناك اختلافًا كبيرًا في وجهة النظر بين من يتَّبِعُ عادات بلده ويطيع قوانينه ومن يسعى إلى التلاعب بها وتغييرها، فأول الرجلين يتذرّع لتبرير موقفه بالبساطة والطاعة والمثال، وبذلك فمهما فعل فلن يكون فعله شَرًّا، بل قُصارى أمرِه أن يكون حادثًا سيئًا. «**فمن يا ترى يمكنه ألَّا يحترم إرثًا قادمًا من غابر القرون، حَفِظَتهُ وأقامت عليه الدليلَ أَنصَعُ الشهاداتِ وأَجْلاها وُضوحًا؟**»[2].

53. ثم إن في الاعتدال -كما يقول إيسُقراطيس*[3]- من التفريط أكثر مما

(1) يقصد مجلس الشيوخ الروماني [المترجم].

(2) Cicéron, **De Divinatione**, I, 11.

(3) * خطيب يوناني (436 ق.م – 338 ق.م) عاش في أثينا.

فيه من الإفراط، ومن يريد تغيير كل شيءٍ يجد نفسه في وضعٍ أصعب بكثيرٍ؛ لأن من يختار الدخول في شأن التغيير والاختيار يعطي لنفسه سلطة الحكم على الأشياء، وينبغي له تِلقاءَ ذلك أن يقيم الدليل على كونه يستطيع رؤية وجهِ الخطأ في ما يريد مَحوَه وإزالتَه، ووجهِ الصواب في ما يريد إقرارَه وإقامته، وها هو اعتبارٌ في غاية البساطة أقرَّني على موقفي وكَبَحَ من جماحِ شبابي نفسِه على اندِفاعِ الشباب وتَهَوُّرِه: لا ينبغي لي أن أحمل على كاهلي وِزرًا ثقيلًا كوِزرِ الحديث باسم معرفة بهذه الأهمية، ولا ينبغي لي في مضمار هذه المعرفة، أن أخاطر في مكانٍ لستُ أخاطر فيه بكل راحةٍ في المجالات التي لي بها إلمامٌ، والتي لا يفضي التهور في الحكم فيها إلى ضررٍ.

54. يبدو لي من غير الصائب أن يحاول المرء إخضاع القوانين والعادات العمومية الراسخة لِنَزَقِ العقل الفردي وخِفَّتِه؛ لأن العقل لا يكون ذا قيمةٍ إلا إذا كان فرديًا، وأن يحاول أن يفرض على القوانين الإلهية ما لا يقبل أيُّ مجتمعٍ فَرضَهُ على القوانين المدنية، إذ حتى ولو أن العقل البشري لديه وشائج أوثق مع القوانين المدنية، إلا أنها هي نفسُها تظلُّ رغم ذلك حَكَمًا مُطلَقَ السلطة على مُحاكميها، ومَعرِفَتُها الحَقَّةُ ينبغي لها أن تشرح استعمالها -كما تلقيناه- وأن تُعَمِّمَه، لا أن تُحَوِّلَها عن مَقاصِدِها وتقترحَ غيرَها.

55. وإذا كان القدَر يخرق في بعض الأحيان القوانينَ التي يفرضها علينا، فإنه لا يفعل ذلك من أجل إعفائنا منها، إنها تَدَخُّلاتٌ من يده لا ينبغي لنا أن نقلدها بل أن نقف لها إعجابًا؛ فهي معجزاتٌ خارقةٌ، مطبوعةٌ بطابع إرادته التي لا تُرَدُّ، كمثلِ تلك التي يمنحنا إياها عربونًا وشاهدًا على سلطته العليا وقوته المطلقة، والتي تقع بعيدًا جدًّا خارج نطاق قدراتنا، وإن من الجنون وضَعفِ الإيمان محاولة تقليدها، ولا ينبغي لنا أن نتَّبِعها، بل أن نتأملها والإعجابُ يملأ نفوسنا؛ إنها أمور من شأن دوْره هو لا دوْرنا نحن.

56. ولقد كان كوتّا مُصيبًا في كلامه بهذا الشأن أيَّما إصابةٍ حين قال: «إن سادتي ومعلِّمِيَّ في مجال الدين هم: تيبيريوس كورونكانيوس*[1]، وبوبليوس سكيبيو*[2]، وبوبليوس سكيفولا*[3] (الآباء الكبار)، لا زينون، ولا كليانثس، ولا خريسيبوس»[4].

57. والله يعلم أن في الخصام الكبير الذي يجعل بعضنا اليوم يقف في مواجهة بعضٍ[5]، والذي يدور حول مئة بنْدٍ من الإيمان يريدون إزاحتها والاستعاضة عنها بغيرها، كلها بنودٌ ذات شأنٍ وعمقٍ، كم واحدٍ منا يستطيع أن يدَّعي أنه قد تَفَحَّصَ عن كَثَبٍ الدوافع العميقة لهذا الطرف في هذا النزاع أو ذاك؟ وعددهم -إن كان لهم عدد- لن يكون إلا صغيرًا لا يقام له وزنٌ، لكن ماذا عن الجموع الغفيرة الباقية؟ إلى أين يا تُرى تذهب، وتحت أيِّ رايةٍ تُراها تَنتَظِم؟ إن علاجها يَفعَلُ فينا فِعلَ كل علاجٍ ضعيفٍ أُسيءَ استعماله؛ فما كان مفروضًا أن يزيله منا ويُطَهِّرَ بَدَنَنا منه، تَجِدُهُ يزيده استفحالًا وضررًا وخبثًا ويبقيه في البدن، لا يستطيع بضعفه تخليصنا مما بنا، لكنه في الآن ذاته يُضعِفُنا، بحيث إننا لا يمكننا التَخَلُّصُ منه بدوره، وأننا لا نجني من وراء تَدَخُّلِه سوى آلامٍ داخليةٍ طويلةٍ مُزمِنَةٍ.

58. ويبقى صحيحًا أن القدَر -الذي تعلو سلطته دومًا على سلطة خطاباتنا- يقدم إلينا في بعض الأحيان الضرورةَ على أساس أنها من الاستعجال بحيث لا مناص للقوانين من إفراد مكانٍ لها، وحين نقاوم تَطَوُّرَ بِدعةٍ جرى إدخالُها عَنوَةً، فإن بقاء المرء في كل مكانٍ وكل شيءٍ ملتزمًا التحفظ والاحترام إزاء أولئك الذين يتصرفون بكل حريةٍ، والذين يُحتَمَلُ من أثر ذلك أن يكونوا أوفرَ حظًّا في سعيهم لمقاصدهم، والذين لا قانون ولا قاعدة لهم سوى العمل لصالحهم، أقول إن بقاء المرء

(1) * هو قنصل روماني وقائد عسكري (مات سنة 241 ق.م) كان شخصا تقيا، ويُعتقد أنه أول معلم للقانون الروماني.

(2) * هو قنصل روماني وقائد استراتيجي محنك (236/ 235 ق.م - 183 ق.م) اشتهر بانتصاره على القائد القرطاجي حنبعل.

(3) * هو قنصل وقاضٍ روماني (176 ق.م تقريبا - 115 ق.م).

(4) هؤلاء الثلاثة الأواخر فلاسفة يونانيون رواقيون وشكّيون.

(5) يشير إلى الصراع الشرس الذي كان دائرًا ساعتئذٍ بين البروتستانتيين والكاثوليكيين.

متحفظًا ملتزمًا الاحترام إزاء هؤلاء واجبٌ خطيرٌ ومعركةٌ غيرُ مُتَكافِئَةٍ.
«فالاطمئنان إلى الغادر تشجيعٌ له على إلحاق الضرر»[1].

.59 وهذا أمرٌ صحيحٌ على الخصوص، ونحن نرى أن القاعدة العادية في الدولة الصحيحة المعافاة لا تقترح شيئًا لعلاج هذه الحادثات الخارجة عن العادة؛ لأنها تفترض جسمًا مُستَقِرَّ الأعضاء والوظائف الأساسِيَّة، وتفترض توافقًا عامًّا على احترام قوانينها والخضوعِ لها، إن السلوك المشروع سلوكٌ هادئٌ رَصينٌ مُقَيَّدٌ، ليس من طبيعته الصمود أمام السلوك المتحرر الجامح.

.60 نحن نعرف أنهم ما زالوا يلومون أوكتافيوس*[2] وكاتو الأوتيكي*[3] -هذين الرجلَيْن العظيمين- على كونهما في أثناء الحروب الأهلية لسولّا ويوليوس قيصر، ترَكَا بلادَهما عُرضَةً لأكبر الأخطار؛ لأنهما رَفَضا إنقاذَها بخَرقِ قوانينها وتغييرِ نظام الأشياء القائمِ فيها، فالمرء متى بلغ به الأمر مُنتَهاهُ، يَحسُنُ به من باب الحكمة أن يطأطئ رأسه وأن يتلقى الضربات بصبرٍ واحتمالٍ، عوضًا عن أن يمضي عِنادًا إلى ما وراء الممكن كيلا يتخلى عن شيءٍ، فيعطيَ للعنف بذلك فرصةً ليطأَ كُلَّ شيءٍ بقدميه، إن الأفضل أن نترك القوانين تنطبق على ما يمكنها فعله، ما دامت لا تستطيع فعل ما تريده، هذا ما فعله مَن أمر بتعليقها لمدة أربعٍ وعشرين ساعةً[4]، ومَن غَيَّرَ في تلك المرة يومًا في تقويم الأيام[5]، وذلك الآخر الذي جعل من شهر يونيو شهرَ مايو ثانيًا مُكَرَّرًا[6].

---

(1) Sénèque, **Œdipe**, III, 686.

(2) * المقصود هنا هو القنصل الروماني جنايوس أوكتافيوس الذي توفي عام 87 ق.م.

(3) * ماركوس بوركيوس كاتو، الشهير بكاتو الصغير، (95 ق.م – 46 ق.م)، سيناتور روماني وخطيب ينتمي للمدرسة الرواقية في الفلسفة (95 ق.م – 46 ق.م)، وهو ابن حفيد السيناتور والخطيب والكاتب الروماني الكبير كاتو الرقيب أو كاتو الكبير (234 ق.م – 149 ق.م).

(4) يتعلق الأمر بأجيسيلاوس، الذي قرر عدم العمل بقوانين إسبرطة في يوم كان تطبيقها فيه سيفضي إلى إعدام عددٍ كبيرٍ من الجنود.

(5) هو الأكبر حسب بلوتارخوس.

(6) يتعلق الأمر في ما يُقال بالإسكندر الأكبر كذلك، حيث أمر بأن يُدعى شهر يونيو «مايو الثاني»؛ كيلا يخالف ببدئه الحرب في يونيو تقليدًا كان متَّبعًا عند ملوك مقدونيا.

61. والإسبرطيون أنفسهم، وهم المعروفون باحترامهم الشديد لقوانين بلادهم، وجدوا حرجًا من القانون الذي كان يمنع من تعيين الرجل أَميرالًا لثلاث فتراتٍ متتاليةٍ، على حين كانت مصالحهم تقتضي بإلحاح تعيين ليسّاندروس من جديدٍ لشغل تلك الوظيفة، عيّنوا بالفعل رجلًا يدعى أراكوس أميرالًا، لكنهم عينوا ليسّاندروس مشرفًا عامًّا على البحرية، وقد لَجَؤوا إلى حيلةٍ مماثلةٍ يوم أرسلوا أحد مبعوثيهم ليقف أمام الأثينيين سعيًا إلى الحصول على تغييرٍ لقاعدةٍ ما. وحين تَذَرَّعَ بيريكليس بأن من المحرَّم إزالة لوحةٍ كانت تحمل قانونًا مكتوبًا، نصحه السفير بأن يكتفي بقَلْبِها وجهًا على ظهر؛ لأن ذلك لم يكن محرَّمًا[1]، وهذا ما يمتدحه بلوتارخوس لدى القائد اليوناني فيلوبويمين؛ إذ قال عنه إنه خُلِقَ ليحكُمَ؛ لأنه كان يعرف ليس فحسب كيف يحكم طبقًا للقوانين، بل أيضًا الحكم في القوانين نفسها كلما اقتضت الضرورة والمصلحة العمومية ذلك.

(1) Plutarque, **Vies, Vie de Périclès**, XVIII.

الفصل الثالث والعشرون

نتائجُ مختلفةٌ لمشروعٍ واحدٍ

1. روى لي جاك أميوت -كبير قساوسة فرنسا- هذه القصة التي أنقلها لكم، والتي ترفع عاليًا من شأن أحد أمرائنا[1] -وقد كان بالفعل من أمرائنا رغم أصوله الأجنبية- فأثناء الصعوبات التي عانينا منها في بداية حصار مدينة روان، تلقى هذا الأمير رسالةً من الملكة والدة الملك تخبره فيها بأن هناك مؤامرةً تُحاكُ لاغتياله، وقد عرف من خلال رسائلها هوية الشخص الذي كان مقررًا أن ينفذ الجريمة -كان رجلًا من المانس أو من أنجير، وكان حينئذٍ قد استطاع التسلل إلى بيت الأمير حتى أصبح من حاشيته. أبقى الأمير هذا الأمر طيَّ الكِتمان، حتى كان في اليوم التالي يتجول على جبل سانت كاترين، من حيث كانت تنطلق ضربات مدفعيتنا نحو روان التي كنا نحاصرها، وإلى جانبه أميوت وأحد الأساقفة، فإذا به يرى الرجل الذي وصفوه له، فأمر بأن يُؤتى إليه به.

2. فلما حضر أمامه لاحظ شحوبَ وجهه واضطرابَه اضطرابَ المُذنب الذي يعاني تبكيتَ الضمير، فخاطبه قائلًا: «يا سيّد فلان، أنت تعرف جيدًا ما أريد أن أحدثك عنه، وعلامة ذلك باديةٌ على محياك، ليس لديك ما تخفيه عني؛ لأني أعرف عن الأمر ما يكفي لجعلك إن أنت حاولتَ إنكاره لن تزيد موقفك إلا سوءًا وورطتك إلا استحكامًا. أنت تعرف جيدًا أن...، وأن... (فسرد له تفاصيل العناصر الأكثر سرية في المؤامرة)، ولذلك فبالقَسم على حياتك ستعترف لي بحقيقة كل هذا الأمر».

3. حين أدرك الرجل المسكين أنه قد أحيطَ به فلم يعد له مجالٌ للإنكار (وكيف له ذلك وقد خانه أحد شركائه وأفشى سره للملكة؟)، لم يجد إلا أن يجثو على ركبتيه طالبًا المغفرة، وحاول أن يرتمي على قدميْ الأمير ليقبلهما لكن هذا تراجع عنه وعاجله سائلا: «أَجِبْني: هل أسأت إليك يومًا؟ هل لاحقت قريبًا لك مدفوعًا بكراهيةٍ خاصةٍ؟ أنا أعرفك منذ ثلاثة أسابيع فقط، فما الدافع الذي دفعك إلى إضمار قتلي؟» أجاب الرجل بصوتٍ مرتعشٍ قائلًا إنه لا يملك أي سبب خاص، لكن

(1) يتعلق الأمر بفرنسوا حاكم مدينة غيز وإقليمها، وكان هذا الإقليم يوجد داخل مقاطعة اللورين، التي لم تكن يومئذٍ فرنسية، ومن ثم نعتُ مونتيني له بالأجنبي.

الأمر يتعلق بالمصالح العليا لحزبه، وأضاف أنهم أقنعوه بأنه سينجز عملًا من صميم التقوى، إن هو استطاع التخلص -بأي طريقةٍ ممكنةٍ- من عدوٍّ قويٍّ لديهم كهذا العدو.

4. تابع الأمير كلامه قائلًا: «سأبرهن لك الآن أن هذا الدين الذي هو ديني أكثرُ رأفةً من الدين الذي تؤمنون به، فدينك أوصاك بأن تقتلني دون أن تسمع دفاعي عن نفسي، رغم أني لم أسئ إليك قطّ، أما ديني فيوصيني بأن أغفر لك وأنت الآن مدانٌ بمحاولة قتلي دون سببٍ، هيا ارحل ولا تُرِني وجهك بعد اليوم أبدًا، وإن كان لديك بقيةٌ من عقلٍ فاتَّخذ لك في ما تقدم عليه مِن عملٍ شركاءَ خيرًا من شركائك اليوم».

5. كان الإمبراطور أغسطس في بلاد الغال حين بلغه خبر مؤامرةٍ يحوكها ضده لوكيوس كينّا*[1]، فقرر أن ينتقم لذلك، بدأ بأن استدعى مجلس أصدقائه ليوم الغد، لكنه قضى ليلته متقلبًا في سهادٍ، متفكرًا في ما سيقدم عليه من قتل رجلٍ شابٍ من أسرةٍ عريقةٍ؛ لأنه كان ابن أخي بومبيوس العظيم، وكان الإمبراطور في اضطرابه وحيرته يخاطب نفسه قائلًا: «هل يُعقل أن أظل فريسة للمخاوف والشكوك، وأترك المتآمر على حياتي حرًّا طليقًا يسعى في الأرض كما يشاء؟ هل يمضي ناجيًا بجلده بعد أن يغتالني، أنا الذي لم تقتلني الحروب الأهلية ولا المعارك البرية والبحرية الكثيرة التي خضتُها؟ وحين أكون أنا الذي أقررت السلام العالمي، فهل ينجو من قرّر لا فقط أن يقتلني، بل وأن يضحّي بي؟» وكان المتآمرون قد قرّروا بالفعل قتله أثناء تقديمه للقرابين.

6. صمت الإمبراطور برهةً ثم عاد يتحدث بصوتٍ أقوى، موجهًا الكلام إلى نفسه يعاتبها قائلًا: «لماذا تعيش يا هذا، ما دام هؤلاء جميعًا يريدون موتك؟ أليس هناك من نهايةٍ لانتقامك وقسوتك؟ هل تستحق حياتُك حقًّا أن تتجشّم كل هذا العناء في الحفاظ عليها؟» وشعرت زوجته

(1) * سياسي وقنصل روماني، توفي عام 84 ق.م.

ليفيا باضطرابه فخاطبته قائلة: «هل يا تُرى ستجد نصيحة امرأةٍ أذنًا صاغيةً؟ افعلْ ما يفعله الأطباء حين لا تؤتي الأدوية العادية نتيجة، إذ يستعملون أدوية مضادة للأولى، وأنت بالقسوة والصرامة لم تحصل حتى اليوم على شيءٍ، فها هو ليبيدوس*[1] قد تبع سالفيدينوس*[2]، وморينا تبع ليبيدوس، وكايبيو*[3] تبع مورينا، وإغناطوس تبع كايبيو، حاول إذًا أن ترى هل سيناسبك اللطف والرحمة، لقد ثبت الجرم على كينّا، فاغفر له وسامحه، وسيضحى عاجزًا عن مدّ يده إليك بسوءٍ، فيصبح من أخلص الناس لك».

7. سُرَّ الإمبراطور لعثوره على محامٍ يفهمه، فشكر امرأته وألغى الاجتماع مع أصدقائه وأمر أن يأتوه بكينّا كي يكلمه على انفرادٍ، فلما جاءوه بالرجل أمر بأن يخرج الجميع ودعاه إلى الجلوس ثم خاطبه قائلا: «أريد منك يا كينّا قبل كل شيءٍ أن تصغي إليّ في هدوءٍ، لا تقاطعْني لأني سوف أعطيك ما يلزم من وقتٍ لتجيبني، أنت تعرف أني أخرجتك من معسكر أعدائي؛ أنت الذي لم تصبح عدوًّا لي فحسب بل وُلِدتَ وأنت لي عدوّ لكني أنقذت حياتك، وأرجعت إليك كل ممتلكاتك، فجعلت منك في آخر المطاف رجلًا يعيش في بحبوحةٍ، جعلت المنتصرين أنفسهم يحسدون المنهزم على ما يتمتع به، وجعلتك كما طلبت كاهنًا في مجلس الكهنة الأعلى، وهو ما حرمت منه آخرين الذين طالما حارب آباؤهم معي. وبعد هذا الفضل مني عليك، ها أنت تتآمر عليَّ وتُضمِر قتلي».

8. انتفض كينّا يصرخ قائلًا إنه أبعد ما يكون عن مثل هذه الأفكار الخبيثة، لكن الإمبراطور أشار إليه بيده أن اصمت، ثم تابع قائلًا: «أنت لا تفي بوعدك يا كينّا، وقد وعدتني بألَّا تقاطعني، بلى، لقد تآمرت على قتلي في المكان الفلاني واليوم الفلاني مع شركائك فلانٍ وفلانٍ، وبالطريقة الفلانية»، ونظر إليه فوجده صامتًا أمام هذه التفاصيل، لم يعد يقاطعه لا لأنه وعد بذلك بل لأن ضميره كان يؤنبه أشد التأنيب،

(1) * تحريف جاء في النص الأصل لبيبوس Lepius، والصواب ليبيدوس.
(2) * تحريف آخر في النص الأصل Savidienus سافيديينوس، والصواب سالفيديينوس.
(3) * تحريف آخر في النص الأصل Caepion كايبيون، والصواب كايبيو.

فواصل قائلًا: «لماذا فعلت هذا؟ هل لتصبح إمبراطورًا؟ إن هناك إذًا خللًا كبيرًا في الدولة إن كنتُ أنا العائقَ الوحيد الذي يقف أمام بلوغك المرتبة السامية».

9. «لقد عجزت عن الدفاع حتى عن بيتك، وخسرت مؤخرًا قضيةً أمام عبدٍ فقط أُعتِق من وقتٍ قريبٍ، فماذا دهاك يا رجل؟ ألم يعد لك مِن سلطةٍ سوى مهاجمة سلطة القيصر؟ إذا كنت أنا العائقَ الوحيد بينك وبينها فها أنا أتخلى لك عنها، لكن هل تعتقد بأن باولوس*[1] وفابيوس*[2] والكوسيين*[3] وآل سرفيليوس*[4] سيناصرونك؟ هل ستتبعك هذه الجماهير الغفيرة من النبلاء الذين ليسوا نبلاء بالاسم فحسب، بل هم ذوو قدرٍ وقيمةٍ تُشَرِّفُ النُّبلَ نفسَه؟».

وبعد أن بقي يحدثه هكذا لمدة ساعتين من الزمن، خاطبه في الأخير يقول: «هيّا يا كينّا، أنا أغفر لك خيانتك ورغبتك في قتل من أحْسن إليك، كما غفرت لك من قبل عداوتك، ليكن هذا اليوم بدايةً لصداقةٍ خالصةٍ بيننا، ولنَرَ مَن منا سيقيم الدليل على حسن نيته؟ أنا لأني وهبتك الحياة، وأنت لأنك تلقيتها».

10. بعد ذلك أذِنَ له بالانصراف، ثم ما لبث بعدئذٍ أن منحه رتبة القنصلية وعاتبه على كونه لم يتجرأ على طلبها منه بنفسه، أصبح الرجلان صديقين، وجعل الإمبراطور من الشاب وريثه الوحيد، ومنذ هذه الحادثة التي وقعت والإمبراطور في سن الأربعين، لم تُحَكْ أي مؤامرةٍ ضده، فكان في ذلك خيرُ الجزاء على رحمته وعفوه، أما أميرنا فكان مصيره مختلفًا، إذ لم تمنعه أريحيته وكرمه من السقوط بعد ذلك في فخ خيانةٍ مشابهةٍ للخيانة التي أفلت من عواقبها من قبل؛ ولذلك

(1) * هو على الأغلب القنصل لوكيوس إيميليوس لبيدوس باولوس الذي اشترى يوليوس قيصر دعمه بالرشوة.

(2) * الراجح أنه القنصل كوينتوس فابيوس.

(3) * الكوسيين أو قبيلة الكوساي شعب بدوي كان يعيش على تخوم الإمبراطورية الرومانية، استوطنوا الجبال، وكانوا مضرب المثل في الهمجية والشراسة.

(4) * لا ريب أنه القنصل بوبليوس سيرفيليوس صديق يوليوس قيصر، الذي كان من عائلة أرستقراطية كبيرة من طبقة الأسر الحاكمة، والتي خرج منها الكثير من القناصل خلال سبعة قرون.

يمكن القول إن الحكمة البشرية شيءٌ كأشد الأشياء خواء وتفاهة، ففي وسط كل مشاريعنا، ورغم كل ما نتخذه من تدابير ومن احتياط، يظل القدر[1] دائمًا سيد الأحداث ومُوَجِّهَها.

الطب

11. نقول عن الطبيب إنه محظوظ حين يحصل على نتيجةٍ جيدةٍ، وكأن فنّ الطب هو الفن الوحيد الذي لا يستطيع الاكتفاء بنفسه، وكأن قواعده من الهشاشة بحيث لا يمكنه أن يعتمد على قوَّته وحدها، وكأنه هو الفن الوحيد الذي لا غِنى له عن الحظ كي يستطيع إنجاز عمله، لن أعترض على من يذم الطب ولا على من يمدحه؛ فالعلاقة بيني وبينه بحمد الله منعدمةٌ، أنا أتصرف على عكس الآخرين، فأحتقر الطب في أيامي العادية، وإذا مرضت لا أجثو أمامه مستغفرًا، بل أزداد له كراهيةً ومنه خوفًا، وحين يلحُّ علي المُلِحُّون في أخذ دواءٍ أجيبهم: «انتظروا على الأقل حتى أسترجع من قواي ما يتيح لي مقاومة مفعول عقاركم هذا وتَحَمُّلَ مخاطره». إني أفضّل أن أترك للطبيعة ما هو من عملها، وأفترض أن لها أظافر وأنيابًا تدفع بها عن نفسها الخطر، وتُبقي على ما ركَّبته ملتئمًا لأنها لا تريد له الشتات، وأخشى أننا حين تكون الطبيعة في صراعٍ قريبٍ وثيقٍ مع المرض، لا نساعدها بالدواء بل نساعد خصمها ونحمِّلها هي مشاغل ومشاكل جديدةً.

12. لذلك أقول إن للحظ في الطبّ -كما في فنونٍ كثيرةٍ غيره- نصيبًا كبيرًا، والإلهام الشعري الذي يجرف صاحبه ويجعله يعيش في حالٍ بين اليقظة والغيبوبة، لماذا لا ننسبه للحظ، ما دام الشاعر يعترف بنفسه بأن ذلك الزخْم يُجاوز إمكاناته وقواه، وأن ما يكتبه يبدو قادمًا من خارج نفسه، دون أن يكون له عليه أي سلطةٍ أو اقتدارٍ؟ والشيءَ نفسه يسري على الخطباء، الذين لا يدعي أحدٌ منهم التحكم في تلك الحركات والاهتزازات الغريبة التي تذهب بهم إلى أبعد من أهدافهم، ومثل ذلك

(1) يذكر أن الرقابة البابوية طلبت من مونتيني حذف لفظة «قدر»، لكنه لم يفعل.

يقع في مجال الرسم، حيث يحدث أن تنفلت ضربات الريشة من يد الرسام وتذهب إلى أبعد من تصوراته ومعارفه، فيكون أول معجبٍ بها وأول مندهشٍ لها. لكن الحظ يُبين بشكلٍ أوضح عن النصيب الذي يرجع له في كل هذا، من خلال الجمال والبهاء الذي نجده لهذه الأعمال، ليس فحسب حين يكون صاحبها لم يصنعها عن قصدٍ، بل حتى حين لا يكون داريًا بها، والقارئ النبيه كثيرًا ما يجد في كتابات الآخرين أَوجُهَ كمالٍ غير تلك التي كان كاتبها يتصور أنه وضعها فيها، ويعطيها أشكالًا ودلالاتٍ أغنى وأوسع.

13. أما الأعمال العسكرية، فلا أحد يجهل الدور الكبير الذي يرجع فيها للحظ، وحتى في تأملاتنا ومداولاتنا لا بد من أن يكون هناك خليطٌ من الحظ ومن الصدفة؛ لأن ما تستطيعه حكمتنا ليس بالشيء الكثير، إذ إنها كلما ازدادت حدةً وتَوَقُّدًا، ازداد عدد ما تكتشفه في نفسها من مواطن الضعف، فازدادت بذلك تَوَجُّسًا من نفسها وشَكًّا فيها، وأنا أوافق سولّا الرأي؛ لأني حين أنظر عن كَثَبٍ إلى أعظم الإنجازات العسكرية الباهرة يبدو لي-وهذا ما أعتقده- أن الذين قادوا تلك المعارك وحقّقوا تلك الإنجازات لم يستعملوا التفكير والتشاور إلا لإرضاء ضمائرهم، على حين أوكلوا القسْم الأعظم من العمل للحظ وحده، والثقة التي يولونها للحظ تتجاوز حدود كل خطابٍ معقولٍ، وتعتريهم في أثناء تفكيرهم حالاتٌ من الخفّة والنزق المفاجئ ومن الغضب الغريب، تدفعهم في غالب الأحيان إلى اتخاذ القرار الأقل مناسبة في الظاهر، وتزيدُ شجاعتَهم فتدفع بها إلى أبعد مما يقبله العقل، ولذلك فإن الكثير من القادة القدماء في سعيهم لإعطاء مصداقيةٍ لقراراتٍ متهورةٍ، اجتهدوا في جعل رجالهم يعتقدون بأن القرار ليس من القائد وإنما فرضه عليه إلهامٌ ما أو إشارةٌ ما من الآلهة.

14. ولهذا، وبسبب الصعوبات التي تصنعها الظروف والحوادث المختلفة المرتبطة بكل شيءٍ، فإن استحالة النظر والاختيار في ما هو أَنسَبُ لنا وأفضَلُ، تجعلنا ضحايا للشك والقلق. وأكثر السبل أمانًا -حين لا يرغمنا اعتبارٌ معينٌ على اتخاذ خيارٍ معينٍ- هو في رأيي الانتظام في

الجانب الذي نراه أكثر نزاهةً وعدلًا، ولما كنا لا ندري أيّ السبل أقصَرَ، فلنلتزمْ بالسبيل الأقْوَم، وكما هو الحال في المثالين اللذين قدمتهما، فقد كان أجمل وأكرم لمن لحقته الإساءة، أن يغفر لمن أساء له مِن أن يتصرّف على خلاف ذلك، وإذا كان الأمر لم ينته على خيرٍ بالنسبة للأول، فلا ينبغي مؤاخذته على نواياه الحسنة؛ لأننا لا ندري، لو أنه اختار أن يتصرّف على عكس ما تصرّف به، هل كان سينجو بذلك من النهاية التي كتبها القدر له، كما نعرف أنه لو فعل ذلك لأضاع على نفسه مَجدَ موقفٍ إنسانيٍّ نادرٍ.

15. نجد في كتب التاريخ كثيرًا من الناس الذين عاشوا في خوفٍ دائمٍ من الاغتيال، وقد اختار أغلبهم أن يستبق المؤامرات التي تحاك ضدهم، وأن يقابلها بالانتقام والتعذيب، لكني لا أرى إلا القليل ممن نفعهم هذا العلاج، كما يشهد بذلك مصير كثيرٍ من الأباطرة الرومان، ومن كان معرَّضًا لمثل هذا الخطر لا ينبغي له أن ينتظر عونًا من قوته ولا من يقظته، إذ كيف تحمي نفسك من عدوٍ له وجه الصديق الوفيّ المخلص؟ ثم كيف نطّلع على نوايا من يحيطون بنا ونعرف أفكارهم الخبيثة؟ ومهما يتخذ المرء من مرتزقةٍ لحمايته، ومهما يكن على الدوام محاطًا برجالٍ مسلحين، فإن من لا يعطي أهميةً لحياته يصبح دائمًا متحكمًا في حياة غيره، وهذه الريبة الدائمة التي تجعل الأمير يشكّ في الجميع، إنما تمثل له عذابًا أليمًا.

16. لذلك رأينا كيف أن ديون*[1] -يوم علم بأن كاليبّوس يتحيّن الفرصة لاغتياله- لم يمتلك الشجاعة الكافية للبحث والتقصي في الأمر، قائلًا إنه يفضل أن يموت على أن يعيش وضعًا بائسًا يتعين عليه فيه أن يحذر ليس فحسب من أعدائه بل وكذلك من أصدقائه. وهذا ما أبان عنه الإسكندر الأكبر بقوةٍ وبوضوحٍ أكبر، يوم جاءته رسالةٌ من بارمنيون*[2] تحذره من أن طبيبه المفضل فيليبوس قد تلقى رشوةً من داريوش كي يسمّمه، فقد أعطى الرسالة للطبيب كي يقرأها، وفي

(1) * هو ديون السرقوسي (408 ق.م – 354 ق.م) طاغية سيراقوسة في جزيرة صقلية.

(2) * قائد عسكري مقدولي (400 ق.م – 330 ق.م) خدم الإسكندر الأكبر.

الآن ذاته شرب الدواء الذي أعده له، ألم يكن في هذا تعبيرٌ عن تصميمٍ مفاده أن الأمير إنْ أراد أصدقاؤه موته، لا يمانع في ذلك؟ هذا الأمير هو السيّد الأكبر للأعمال الجريئة، لكني لا أعلم هل هناك في حياته سِمَةٌ أقوى من هذه السمة ولا أكثر جمالًا في جوانب متعدّدةً.

17. إن الذين ينصحون الأمراء بهذا الارتياب الشديد بذريعة حماية أمنهم إنما يدفعون بهم للهلاك والعار، فليس هناك من فعلٍ نبيلٍ لا تصاحبه مخاطر، وأعرف رجلًا كان شجاعًا جسورًا، تكالب الناس على إفساد طبيعته وقدره بمحاولتهم إقناعه بأن ينسحب ليعيش مع عشيرته، وألّا يقبل أي صلحٍ مع أعدائه القدامى، وأن يتخذ موقفًا منعزلًا، وألّا يسلم نفسه إلى أذرعٍ أقوى، أيًّا كانت الوعود التي يوعد بها والفائدة التي يراها في ذلك، وأعرف غيره ممن حَسَّن من وضعه باتخاذ الخيار المعاكس.

18. إن الجرأة التي يَضنى المرء في البحث عن اكتساب مجدها تعبر عن نفسها عند الحاجة بالشكل الفائق نفسه المثير للإعجاب، سواءٌ أكان لابسًا صدريته أو درعه، وسواءٌ في منزلٍ أو في مخيمٍ، وسواءٌ كان الذراعان متدليتيْن أو كانت القبضة مرفوعةً. إن الحذر -على لطفه ويقظته واحتراسه- هو العدو اللدود لكل المقاصد الكبرى، وقد عرف سكيبيو[1] كيف يُرضي رغبة الملك سيفاقس[2] في مغادرة جيشه والتخلي عن إسبانيا -التي كانت لا تزال غير آمنةٍ بعد أن فتحها عن قريبٍ- والانتقال إلى إفريقيا بسفينتين فقط للمخاطرة في أرض العدو التي كان يحكمها ملكٌ متوحشٌ لا يعرف أحدٌ لمن يَدين بولائه، ودون ضماناتٍ ولا رهائن مسبقين، مُسلمًا أمنه لشجاعته وحدها وحظه وأمله في أن يرى آماله الكبرى تتحقق. **«إن الثقة التي نبديها غالبًا ما تستدعي حسن النية»**[3].

19. من ثمَّ فإن الحياة الطموحة الفريدة ينبغي لها -على عكس الحذر-

(1) يتعلق الأمر بسكيبيو الإفريقي.

(2) كان سيفاقس حليفًا للقرطاجيين ثم لحنبعل في معركة زاما.

(3) Tite-Live, Annales ou Histoire romaine, XXII, 22.

أن تستهين بالشكوك والهواجس ولا تطلق لها العنان؛ لأن الخوف والتوجس يدعوان إلى المصائب كما يستدعيانها. وقد أفلح أشد الملوك حذرًا في إعادة التوازن لوضعه خصوصًا بجعل حياته وحريته بين يدي أعدائه، إذ بيَّن لهم بذلك مقدار ثقته بهم كي يثقوا هم به[1].

ويوم انتفضت الفرق العسكرية ضد يوليوس قيصر ورفعت السلاح في وجهه، لم يواجهها الإمبراطور سوى بسلطة وجهه وشموخ خطابه، فقد كان يثق في نفسه وفي حسن طالعه ثقةً جعلته لا يخشى أن يكون ذلك رهينًا بجيشٍ أعلن العصيان والثورة.

«ظهر فوق مرتفعٍ، جَسورًا واقفًا
وكونه لا يخاف شيئًا جعله مرهوبَ الجانب»[2].

20. لكن لا جدال في أن هذه الثقة البديعة لا يمكن أن يمثلها كاملةً وطبيعيةً إلا من لا يجد من فكرة الموت والنهاية المحتومة -مع كونها ممكنةً بكل حال- رهبةً ولا خوفًا، فمَن يُظهر الخوفَ والتردد والشك بُغية الحصول على صلحٍ مهمٍ إنما يأتي عملًا مُسيئًا فعلًا، بل إن خير الوسائل لربح قلب إنسانٍ وإرادته تتمثل -على العكس من ذلك- في الخضوع له والثقة به، على أن يكون ذلك بكل حريةٍ، دون أي إكراهٍ تُمليه الضرورة، وأن تكون تلك الثقة صافيةً واضحةً، وأن تكون جبهة المرء منبسطةً لا يعتريها أثرٌ مِن آثار القلق.

21. وقد رأيت في طفولتي رجلًا كان يحكم مدينةً كبيرةً[3]، واجهته ثورة شعبٍ غاضبٍ، فلكي يطفئ جذْوة الثورة في مهدها، اختار أن يغادر المكان الآمن الذي كان فيه ليخرج إلى مواجهة الجموع الثائرة، وقد ناله من ذلك سوء المصير، إذ لقي ميتةً شنيعةً على أيديهم، لكن لا يبدو

(1) يبدو أن الأمر يتعلق بالملك لويس الحادي عشر، الذي تجرأ على القدوم إلى كونفلان ثم بيرون للقاء شارل الجريء، غير أن هذا المثال ليس بالمثال الناجع، بحكم أن الملك لويس الحادي عشر قد اضطر- في نهاية الأمر- إلى قبول اتفاقٍ مهينٍ تخلى بموجبه عن مقاطعة شمبانيا لأخيه شارل.

(2) Lucain, **La guerre civile ou La Pharsale**, V , 316-318.

(3) يتعلق الأمر بالسيد موناينس (ممثل الملك في غويانا) الذي واجه في بوردو ثورةً شعبيةً ضد الضرائب يوم 21 غشت 1548، وقتل في تلك الأحداث، وكان لمونتيني يومئذٍ خمس عشرة سنةً.

لي أن خطأه كان في خروجه -كما يأخذه عليه الناس عادةً متى ذكروه- بقدر ما كان في اختياره سبيل الخضوع واللِّين، وإخماد ذلك الغضب بالانسياق وراءه عوضًا عن الأخذ بعنانه وقيادته، تفضيلٌ للطلب على الأمر. وأظن أن صرامةً هادئةً مع موقفٍ عسكريٍّ مطمئنٍ كما كان ذلك يناسب مكانته ومسؤوليته، كان من شأنها أن تفيده كثيرًا، على الأقل بجعل موته أكثر شرفًا وعزةً وكرامةً.

22. فمِن هذا الوحش الغاضب[1]، لا ينبغي للمرء أن ينتظر ذرةً من إنسانيةٍ ولا من لطفٍ؛ لأنه لا يعرف إلا الاحترام والخوف[2]، كما أني ألوم هذا الرجل لكونه -حين اتخذ قراره الشجاع أكثر مما هو متهور في رأيي- رمى بنفسه وهو في لباس البيت وفي قليلٍ من الرجال، وسط ذلك البحر العرمرم المضطرب من الثائرين الغاضبين، لم يحتفظ حتى النهاية بهذا الموقف الواثق المتعالي، فحين رأى الخطر وقد أحاط به انهار واتخذ هيئة المتواضع المتملّق، قبل أن يستبدل بها هيئة الخائف المرتعب، إذ جحظت عيناه وارتبك صوته من أثر الفزع والندم، وبمحاولته الاختباء مثل أرنبٍ مذعورٍ والإفلات من يد الجموع الغاضبة، لم يفلح سوى في جعل غضبهم يزداد احتدامًا وفي استجلابهم إليه حتى قتلوه.

23. كنا نعتزم تنظيم استعراضٍ عامٍ لمختلف الفيالق العسكرية[3]، ومثل هذه المناسبات -كما هو معلومٌ- يشكل مرتعًا رحبًا لمن يبحث عن الانتقام، إذ ليس هناك من مناسبةٍ يفعل فيها المرء ذلك بطريقةٍ أكثر يسرًا ولا أمانًا، وكانت بعض الإشارات الواضحة تبين أن بعض من كان موكولًا إليهم أمر الإشراف على الاستعراض لم يكن من مصلحتهم الوجود هناك، لذلك اختلفت الآراء بهذا الشأن، كما هو معهودٌ في كل شأنٍ هامٍّ قمينٍ بأن يكون ذا عواقب خطيرةٍ، وكان رأيي الشخصي

---

(1) يقصد جموع الرعاع الثائرة.

(2) هذه الجملة فيها بعض الغموض، وقد فهم منها البعض أن الإنسانية واللطف لا يمكن الحصول عليهما من الرعاع إلا عن طريق فرض الاحترام والخوف، فهل المعنى هو ذاك؟ أم هل هو أن المرء لا ينبغي له أن ينتظر من الشعب الغاضب إنسانيةً ولا لطفًا بل فقط احترامًا ورهبة؟ وقد اخترت شخصيًا هذا التأويل الثاني.

(3) كان مونتيني عمدةً لمدينة بوردو حين حصل هذا الاستعراض في المدينة في سنة 1585، وكانت هناك إشاعةٌ تروج وقتئذٍ، مفادها أنّ هناك خطر قيام عصيانٍ يقوده حليفٌ أريخ من قريبٍ عن القيادة.

أنه ينبغي على الخصوص تفادي إبداء أي علامةٍ على ذلك الخوف، والخروج والاختلاط بالمستعرضين برأسٍ مرفوعةٍ ووجهٍ هادئ القسمات، وأنه عوضًا عن أن نلغي أيّ قِسمٍ من الاحتفال -وهو ما كان الآخرون يريدونه- ينبغي على العكس من ذلك الإيعاز للقادة بأن يأمروا جنودهم أن يجعلوا طلقاتهم الاحتفالية كثيفةً إكرامًا للضيوف، وألّا يقتصدوا في البارود، وقد كان ذلك بمثابة هديةٍ قُدِّمت إلى أولئك الجنود المشتبه بهم، فأفضت إلى ثقةٍ متبادلةٍ بقدر ما هي نافعةٌ.

24. ويبدو لي أن السبيل الذي اختاره يوليوس قيصر كان أفضل سبيلٍ يمكن اتِّباعه في مثل ظروفه، فقد اجتهد أولًا -مسلحًا بالرحمة والتسامح- في جعل أعدائه أنفسهم يحبونه، مكتفيًا حين يأتيه خبر مؤامرةٍ بأن يقول بكل بساطةٍ إنه على اطلاعٍ بالأمر، بعد ذلك اتخذ قرارًا رائعًا، تَمَثَّلَ في أنه راح ينتظر -دون خوفٍ ولا قلقٍ- ما يمكن أن يقع له، مُتَّكِلًا في ذلك على حماية الآلهة والقدَر، وما أخاله كان إلا على هذه الحال من الطمأنينة يوم اغتالوه.

25. جاء رجلٌ غريبٌ إلى سيراقوسة يومًا فجعل يشيع بين الناس أنه يستطيع تزويد ديونيسيوس طاغية المدينة، بوسيلةٍ تجعله يعرف ويكتشف كل مؤامرةٍ يمكن أن يَحُوكَها بعض رعيته ضده، وبلغ الخبر ديونيسيوس فأمر بأن يأتوه بالرجل، فلما انفرد به سأله عن ماهية هذه الحيلة الضرورية لبقائه، فما كان من الرجل إلا أن أجاب أن الحيلة المعنية تتمثل في أن يعطيه تالونًا[1] من الذهب، وأن يشيع بين الناس حينئذٍ أنه اشترى منه سرًّا عظيمًا، وقد أعجبت ديونيسيوس الفكرة فأمر له بستمئة قطعةٍ ذهبيةٍ، ولما كان من غير المعقول أن يعطي الحاكم مثل هذا المبلغ الكبير لرجلٍ مجهولٍ إن لم يكن لمكافأته على شيءٍ ذي فائدةٍ كبيرةٍ، فقد شاع هذا الرأي بين الناس ومكّن الحاكم من إبقاء أعدائه على خوفهم منه ورهبتهم له.

(1) التالون وحدة وزنٍ يونانية قدرها 25.92 كيلوغرامًا، صارت بعد ذلك وحدة حسابٍ.

26. لذلك نرى الأمراء يشيعون ببراعةٍ ما يتلقّونه من معلومات حول المؤامرات التي تحاك ضدهم، كي يجعلوا الناس يعتقدون أن الأمير على اطلاعٍ بكل شيءٍ، وأنْ ما من شيءٍ ينويه أحدهم أو يقدم عليه إلا وبلغ الأمير خبره في حينه. وقد ارتكب دوق أثينا*[1] عددًا من الحماقات حين بسط سلطته الديكتاتورية على فلورنسا، لكن أجدر حماقاته بالذكر هي هذه: حين تلقى أول خبرٍ عن المؤامرات التي كان الشعب يحوكها ضده، كان ذلك من فم رجلٍ يدعى ماتيو دي موروزو، كان بدوره متورطًا، فما كان من الدوق إلا أن أمر به فقُتِل، رغبةً منه في التخلص من ذلك الإنذار، وتفاديًا من أن يعتقد الناس بأن هناك في المدينة من يرى أن سلطته مقيتةٌ لا تُحتَمل.

27. أذكر أني قرأت يومًا قصةَ رجلٍ رومانيٍّ ذي قدْرٍ وقيمةٍ، أراد الفرار من طغيان الحكم الثلاثي، فأفلت في فراره ألف مرةٍ من أيدي مطارديه بفضل براعة حِيَله، وقد حصل يومًا أنَّ كوكبةً من الفرسان المكلفين بالقبض عليه مرت بجوار غابةٍ صغيرةٍ كان يختبئ بها، فكادت أن تكتشف أمره، لكنه بعد أن بدأ الفرسان يبتعدون جعل يفكر في كل المتاعب والصعوبات التي طال به الزمن في تحمُّلِها للإفلات من عمليات البحث المتواصلة عنه، وفي المتع الباهتة التي بإمكانه أن يجدها في حياة مثل حياته، فقرر أن الأفضل هذه المرة أن يُقدِمَ على الخطوة الحاسمة عوضًا عن أن يبقى على حاله المتوجسة الخائفة، فخرج من مخبئه وناداهم أنْ تعالوا فبغيتكم هنا، مفضلًا بذلك الاستلام طواعيةً لقسوتهم، كي يجنبهم ويجنب نفسه المزيد من العذاب.

28. أن يدعوَ المرءُ الأعداء إليه خيارٌ فيه مجازفةٌ وتهورٌ، غير أني أراه أفضل من العيش في خوفٍ دائمٍ من حادثٍ لا يمكن اتقاؤه ولا معالجة أثره، لكن لما كانت التدابير التي يمكننا اتخاذها في مثل هذه الحال لا تخلو من شكٍ ومن قلقٍ، فالأفضل أن يستعد المرء بثقةٍ لكل ما يمكن أن يقع، وأن يحاول إيجاد بعض العزاء في كونه ليس على يقينٍ من أن المحذور سيقع.

(1) * المقصود هنا جوتيبه السادس (1304م/ 1305م – 1356م) كونت برتن وحاكم فلورنسا.

الفصل الرابع والعشرون

في التحذْلُق

1. كثيرًا ما تضايقتُ في طفولتي من رؤية الكوميديا الإيطالية تعطي للمُؤَدِّبِ على الدوام دورَ الغبي الأبله، ومن ملاحظة أن لقب المعلم عندنا لا يحظى باعتبارٍ أكبر من ذلك، ولمَّا كنتُ وقتئذٍ تحت مراقبة المعلمين وتوجيههم، أفَلَمْ يكن أقل واجبي أن أهتم بسمعتهم؟ كنت ألتمس لهم العذر في الفارق الطبيعي القائم بين العوامِ الجَهَلَةِ وبين القِلَّة النادرة التي وُهِبَت الحصافة والمعرفة، مما يجعل الفريقيْن يسيران في اتجاهين متعاكسين، غير أني كنت أحار في ذلك أيَّما حيرة وأنا أرى أن المتميزين هم أكثر الناس احتقارًا للمعلمين، كما يشهد بذلك صديقنا دو بيليه:

«إن أشدَّ ما أكرهه المعرفةُ المتحذلقة»[1].

2. وهي للحق عادةٌ قديمةٌ مُتَأصِّلةٌ، فها هو بلوتارخِوس[2] يقول: إن لفظتيْ «يونانيّ»، و«تلميذٌ» كانتا عند الرومان تحملان معاني القدح والاحتقار. بعد ذلك، ومع تقدمي في السن، أدركت أنهم على صوابٍ، وأن «أكبر العلماء ليسوا أكثر الناس حكمةً»[3]، غير أني ما زلت أتساءل كيف لعقلٍ غنيٍّ بمعرفة الكثير من الأشياء لا يصبح من أثر ذلك أكثر حدّةً وتوقُّدًا، وكيف لعقلٍ ساقطٍ مبتذلٍ أن يتبنى، دون أن يتحسن من أثر ذلك، كلام وأحكام أفضل ما حملته الأرض من عقول، وكما قالت لي يومًا فتاةٌ هي أولى أميراتنا[4] وهي تحدثني عن أحدهم: إن تشَبُّعَه بهذا الكمِّ من العقول الغريبة القوية العظيمة لا بد أن يكون قد أجبر دماغه هو على الانكماش ثم التَّقَلُّصِ؛ حتى يُفسِحَ في جمجمته المجال للآخرين.

3. قد أقول بلا ترددٍ إن عمل العقل قد يختنق من فرط الدراسة والتعلم، تمامًا كالنباتات إذا غمرها الماء أو فتيلة القنديل إذا أغرقها الزيت، وإن العقل متى كان مثقلًا مزدحمًا بقدرٍ مُتَنَوِّعٍ من الأشياء زائدٍ عن اللزوم صار عاجزًا عن التَّخَفُّف منها، فبقي محدودب الظهر مُنثنيَ

(1) Du Bellay, **Les Regrets**, 68.

(2) بلوتارخوس، **حياة شيشرون**. يقول بلوتارخوس: «إن العامة في روما كانت تطلق على شيشرون لقب التلميذ واليوناني».

(3) هذه كلمات جعلها رابليه على لسان القس يوحنا (غرغانتوا، 39).

(4) يرى ب. فيلاي أن الأمر يتعلق بكاترين دو بوربون أخت هنري الأول ملك نافارا.

الساقيْن من ثِقَلِ حمله. غير أن الواقع على خلاف ذلك؛ لأن عقولنا تزداد اتساعًا كلما ازدادت امتلاءً، ونحن نرى من أمثلة الغابرين كيف أن كثيرًا من الناس ذوي القدرة الفائقة في تسيير الشأن العام، ومن القادة العظام وكبار المستشارين في شؤون الدولة، كانوا في الآن نفسه من خيرة العلماء.

4. أما الفلاسفة الذين كانوا منعزلين عن كل شأنٍ عامٍ فقد عانوا بلا جدالٍ من احتقار المؤلفين الكوميديين من بني زمانهم؛ لأن آراءهم وتصرفاتهم كانت تجعلهم يبدون في منتهى السخافة. هل تريد منهم رأيًا في عدالة قضيةٍ أو أفعال هذا أو ذاك؟ ستجدهم مستعدين لذلك أيَّما استعدادٍ! ستجدهم ما زالوا يبحثون متسائلين هل الحياة والحركة شيئان حقيقيان؟ وهل الإنسان شيءٌ آخر غير ثورٍ من الثيران؟ وما العمل وما الألم؟ وأي نوعٍ من الوحوش هي القوانين والعدالة؟

5. يتحدثون عن قاضٍ ذي مقامٍ أو يتحدثون إليه، فيفعلون ذلك بحريةٍ لا وقار فيها ولا حشمة، ويسمعون من يمتدح أميرًا أو ملكًا فلا يرون فيه إلا راعيًا منشغلًا بِجَزِّ صوف أغنامه، وإن بطريقةٍ أكثر عنفًا وقسوةً! وتحترم أنت رجلًا لأنه يمتلك ألفيْ فدانٍ من الأراضي، فلا يُلقون هم إلى ذلك بالًا؛ لفرط ما ألفوا أن يعتبروا العالم بمن فيه وما فيه مِلكًا لهم، وتفخر أنت بأنك تَعُدُّ من بين أسلافك النبلاء سبعةً كانوا من الأغنياء، فلا يَعنَوْنَ بك ولا يحتفلون؛ لأنك لا ترى في الطبيعة شيئًا كونيًّا شاملًا، ولا تنتبه إلى أنْ ما من واحدٍ منا إلا ويَعُدُّ بين أسلافه أغنياء وفقراء وملوكًا وخدمًا ويونانيين وبرابرة[1]، وحتى ولو كنتَ الحفيد الخمسين لهرقل العظيم، فلن يروا في ذلك إلا تباهيًا معتوهًا بأمرٍ يعود فضلُه للصدفة وحدَها.

6. لذلك درَج عامة الناس على احتقار الفلاسفة، لكونهم في أعينهم يجهلون الأشياء الأساسية العادية، ويُبدون عن صلفٍ وتَباهٍ وقحٍ، غير

(1) نذكر هنا بأن لفظة «بربري» كانت عند اليونان تعني الأعجمي، أي «غير اليوناني» قبل أن تكتسب اللفظة في ما بعد معنًى غير متحضرٍ أو جاهلٍ.

أن هذه الطريقة الأفلاطونية[1] في تقديم الفلاسفة بعيدةٌ كل البعد عن الطريقة التي تناسبهم، فقد كان الناس في الواقع يحسدونهم على تعاليهم عمًّا هو مألوفٌ، واحتقارهم للشؤون العامة، وكونهم جعلوا من حياتهم شيئًا خاصًّا فريدًا من نوعه، مُتَّبعين في ذلك مبادئ عليا خارجةً عمَّا تواضع الناس عليه. أما المتحذلقون عندنا فإنهم على عكس ذلك يلقوْن الاحتقار؛ لأنهم يضعون أنفسهم في مرتبة أدنى مما هو مألوفٌ؛ ولأنهم يعجزون عن تحمل مسؤولية الشأن العام، فيعيشون حياةً وضيعةً ويتخلَّقون بخُلُقٍ وضيعٍ، مُقتدين في ذلك بالعامة من الشعب.

وهم أكره الرجال الجبناء وقت العمل، والفلاسفةَ بالكلام وحده[2].

7. وكما كان الفلاسفة عظماء بعلمهم، كانوا أكثر عظمةً بأعمالهم، يقولون إن ذلك المهندس السيراقوسي[3]، الذي انقطع عن تأملاته كي يطبق بعض علمه في خدمة بلاده، صنع آلاتٍ مخيفةً قادرةً على فعل ما لم يكن أحدٌ يتصوره، غير أنه كان يحتقر كل أعماله تلك؛ لأنه كان يرى فيها انتقاصًا من نبل فنّه، فلا يرى في ما صنعه بفضل ذلك الفنّ سوى أشياء أقرب ما تكون للّهو واللعب.

8. أنت تجد أن الفلاسفة -في مواجهة اختبار التجربة- قد اكتسبوا أحيانًا من رِفعة النظر ما يجعل أمرهم يبدو وكأن قلوبهم وأرواحهم قد تغذَّت واغتنت بالمعرفة العميقة بالأشياء، غير أن بعضهم، إذْ رأوا العاجزين يحتلون المناصب السياسية، عزفوا عن السياسة، وقد سأل رجلٌ يومًا كراتيس[4] : «حتى متى يتعيَّن الإيغال في التفلسُف؟» فأجابه: «حتى اليوم الذي لا نبقى نرى فيه ساسَةَ الحمير يقودون جيوشنا». وقد تنازل هيراقليتوس عن العرش لأخيه، فلما لامَه أهل أفسس على

(1) إشارة مونتيني هنا إلى الفلاسفة هي بالفعل نفسها التي نجدها عند أفلاطون في محاورة «ثيايتاتوس» أو «حول المعرفة».

(2) Pacuvius, in, Aulu-Gelle, **Nuits attiques**, XIII, VIII.

(3) يقصد أرخميدس، إذ يحكون أنه -خلال حصار الرومان لسيراقوسة- صنع آلاتٍ ترمي بالرماح بعيدًا جدًّا، ومرايا قادرةً على إحراق سفن العدو.

(4) هو كراتيس الطّيبي، تلميذ ديوجينيس.

كونه يقضي وقته في اللعب مع الأطفال أمام المعبد أجابهم: «أليس هذا أفضل من الحُكم برفقتكم؟».

9. وآخرون غيرهم ارتفعوا بعقولهم فوق طوارئ المجتمع وحوادثه ارتفاعًا جعلهم يحتقرون كراسيّ القضاة، بل وحتى عروش الملوك، وقد رفض أمبيدوقليس*[1] اعتلاء العرش الذي عرضه عليه أهل أغريجنتو، وكان طاليس ينتقد أحيانًا انشغال الناس بتدبير الممتلكات وجمع المال، فأجابوه بأنه يتصرف مثل الثعلب في الحكاية[2]، وأنه إنما ينتقد ما هو عاجزٌ عن فعله، وقد دفعه ذلك إلى أن يتسلى بتجريب الأمر في وضح النهار، فوضع علمه جانبًا لينصرف إلى الربح، وافتتح تجارةً ربح منها في سنةٍ واحدةٍ ما لا يربحه في العمر كله إلا أحذق التجار وأغناهم تجربةً.

10. روى أرسطو أن بعض الناس كانوا يقولون عن طاليس وأناكساغوراس وغيرهما من الفلاسفة إنهم حكماء لكنهم متهورون؛ لكونهم لم يكونوا يمنحون الاهتمام الكافي لأكثر الأشياء أهميةً وفائدةً. لكن علاوةً على أني لا أدرك جيّدًا الفرق بين اللفظتين[3]، فإن ذلك لن يكون فيه مُلتمسٌ لعذرٍ للمتحذلقين الذين كنت أتحدث عنهم، والذين متى رأى المرء ظروف الفقر والعوز التي يرضون بها جاز له أن يقول عنهم، إنهم ليسوا بأهل الحكمة ولا بأهل الحيطة والحذر.

المعرفةُ أو الذكاء؟

11. لكن لنتركْ جانبًا هذا التفسير الأول، فأنا أظن أن الأفضل أن نقول إن مصيبتهم هذه إنما تأتيهم من طريقتهم الرديئة في مقاربة المعارف والعلوم؛ ذلك أن الناظر في الطريقة التي نتعلم بها، لا يتعجب من كون

(1) * أمبيدوقليس (490 ق.م تقريبًا – 430 ق.م) فيلسوف ورجل دولة وشاعر إغريقي من مواليد صقلية.

(2) هي قصةٌ متداولةٌ عن الثعلب الذي أراد أن يأكل عنبًا من كرمةٍ، فلما عجز عن بلوغه قال إنه حامضٌ.

(3) ذلك أن لفظتي «بيدونسيا» و«سابيينسيا» اللاتينيتين كانتا معًا تعنيان الحكمة، غير أن اللفظة المقابلة للمعرفة تولدت عن الأولى فيما تولدت اللفظة المقابلة للحذر من الثانية، ومن ثمة فإن سلوك الإنسان الذي يعرف، يكون مختلفًا جدًا عن سلوك الإنسان الذي يتنبأ، والذي يكون بالتالي حذرًا.

التلاميذ والمعلمين معًا لا يصبحون أكثر ذكاءً رغم أنهم يصبحون أوسع معرفةً. والواقع أن آباءنا باهتمامهم بتعليمنا وتخصيصهم الأموال له إنما يقصدون أن يملؤوا رؤوسنا بالمعرفة، لكن دون عنايةٍ بتعليمنا الأحكام ولا الفضائل. وإذا ما قلت عن شخصٍ ما: «ما أغزر علمه!» وعن آخر: «ما أطيبه!»، فسترى أعين العامة تتوجه بالاحترام والتقدير إلى الأول لا إلى الثاني، ويُستحسن أن نضيف: «ما أعظم رأسه!»، وإننا كثيرًا ما نسأل بشأن الشخص: «هل تُراه يتقن اليونانية أو اللاتينية؟ وهل تراه يكتب نثرًا أم شعرًا؟» أما هل أصبح شخصًا أفضل أو أصوب حُكمًا، وهو الأمر الأهم، فإننا لا نعير لذلك اهتمامًا، وقد كان الأسلمَ التساؤلُ عن الأفضل عِلمًا لا عن الأغْزر علمًا.

12. نحن نتوخى شحن الذاكرة فقط، فيما نترك موضع الذكاء وموضع الوعي خاليين. وكما الطيور تحمل الحَبَّ أحيانًا في مناقيرها وتطير به المسافات دون أن تبتلعه حتى تطعمه أفراخَها، فكذلك يفعل المتحذلقون لدينا؛ إذ يلتقطون شذراتٍ من المعرفة في الكتب فلا تُجاوز شفاههم حتى يعيدوا الإلقاء بها في مهب الريح.

13. ليس من المدهش أن هذا النوع من الغباء يجد له مكانًا عندي. ألست أفعل كالآخرين في الجزء الأعظم من كتابي هذا؟ أنا ألتقط من الكتب قبَساتٍ من الحكمة تعجبني، لا لأحتفظ بها لنفسي، فلست أملك ذاكرةً أُخَزِّنها فيها، بل فقط لأنقلها في هذا الكتاب الذي لا تصبح وهي فيه ملكًا لي بأكثر مما كانت وهي في أماكنها الأصلية.

14. لسنا في اعتقادي عالِمين سوى بعلم الحاضر، أما معرفتنا بعلم الماضي فلا تزيد عن معرفتنا بعلم المستقبل، والأنكى من ذلك أن أطفالنا، وأطفالهم من بعدهم، لا يتغذون من العلم الماضي ولا يستفيدون، إذ لا يفعل ذلك العلم سوى الانتقال من يدٍ إلى يدٍ، بدون أي هدفٍ سوى عرضِه على الآخرين ونقله لهم واعتباره نقدًا دون قيمةٍ لا يصلح إلا كحجارةٍ للحساب.

«لقد تعلموا الكلام إلى غيرهم لا إلى أنفسهم»[1]. «ليس المطلوب الكلام، بل ممارسة الحكم»[2].

15. إن الطبيعة، لكي ترينا أن أعمالها خاليةٌ من العشوائية والتوحش، كثيرًا ما تجعل أبعد الأمم عن الفن وعن تذَوُّقِه، تنجز أعمالًا عظيمةً تُضاهي أفضل الأعمال القائمة على معرفةٍ بالفن وأصوله، ومثالًا على ما أقول سأسرد قولًا مأثورًا عند الغاسكونيين، مقتبَسًا من أغنيةٍ جميلةٍ يترنَّمون بها على أنغام الناي: «**انفخْ، انفخ كثيرًا، لكن حرك الأصابع أيضًا!**».

16. نحن نعرف كيف نقول: «لقد قال شيشرون هذا، وتلك هي الأخلاق عند أفلاطون، وهذه كلمات أرسطو منقولةٌ كما هي»، لكن ما الذي نقوله نحن يا ترى من عند أنفسنا؟ ما رأينا الخاص؟ إن أقل بَبْغَاء قادر على فعل ما نفعله، ونحن في هذا أشبه بذلك الرومانيِّ الغنيِّ[3]، الذي أنفق أموالًا طائلةً ليحيط نفسه بأناسٍ ذوي علمٍ غزيرٍ في شتى صنوف المعرفة، حتى إذا كان مع أصحابه وجد في تلك الزمرة العالمة من يفيده، هذا بقولٍ مأثورٍ وذاك ببيتٍ لهوميروس، كلٌّ حسب اختصاصه، فكان الرجل يعتقد أن تلك المعرفة كلها إنما هي له، بحكم أنها موجودةٌ في رؤوس رجاله، ومثله أولئك الذين يرقد علمهم كله بين رفوف مكتباتهم الغنية الفاخرة.

17. أعرف شخصًا كلما سألتُه عما يعرف طلب مني كتابًا ليريَني ذلك، فهو لا يجرؤ على أن يقول لي إن به جَرَبًا في مؤخرته، إلا بعد أن يبحث في المعجم عن معنى الجرب ومعنى المؤخرة.

18. إننا نتخّذ آراء الآخرين ومعارفَهم ودائع كالأمانات نحتفظ بها، وقد كان الأجْدر أن نتملَّكها فتصبح آراءنا ومعارفنا نحن، نحن في ذلك

(1) Cicéron, **Tusculanes**, V, XXXVI.

(2) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, CVIII.

(3) ربما تعلق الأمر بسابينوس، الذي سخر منه سينيكا في رسالته السابعة عشرة.

كالذي خرج يقتبس نارًا من عند جاره ووجد لديه نارًا عظيمةً موقدةً، فجلس إليها يستدفئ ناسيًا أنه قد جاء يقتبس منها قبسًا لبيته. ما الفائدة من أن تملأ بطنك لحمًا إذا كنت غير قادرٍ على أن تهضمه وتنبت منه لحمًا لجسمك أنت فتتقوّى به وتنمو؟ وهل تظن أن لوكولّوس*[1] -الذي اكتفى بقراءاته دون التجربة ليصبح قائدًا عظيمًا- هل تظنه كان سيصبح كذلك لو أنه سلك في تَعَلُّمِهِ السبيل الذي نسلكه نحن اليوم؟

19. إننا نتكّل على غيرنا اتكالًا يجعل قوانا تضمُر وتضعُف، هل أريد التسلح ضد الخوف من الموت؟ سأفعل ذلك على حساب سينيكا، أم هل أبحث عن عزاءٍ وسلوى لي أو لغيري؟ سأقترضه من شيشرون، ولو أنني قد عُوِّدتُ على ذلك منذ الصغر ودُرِّبتُ عليه لكنت أغترف من مَعيني لا من معين غيري، وإني لا أحب هذه القدرة المقترَضة التي تأتي كثمرةٍ للشِّحاذة.

20. وحتى لو أمكننا أن نصبح علماء من خلال علم الآخرين، فلا يمكننا إدراك الحكمة إلا من خلال حكمتنا نحن.

«أنا أكره الحكيم الذي لا تنفعه حكمته»[2].

يقول إينيوس: «ليس يعرف شيئًا من لا تفيده معرفته[3].

«إن كان طماعًا مختالًا وأجبن من شاةٍ»[4].

«ذلك أن اكتساب الحكمة لا يكفي، بل يجب الاستفادة منها»[5].

21. كان ديونيسيوس يسخر من النُحاة الذين كانوا يجتهدون في معرفة أمراض أوليس*[6] هم يجهلون أمراضهم، ومن الموسيقيين الذين يضبطون أصوات آلاتهم وينسون تسوية أخلاقهم، والخطباء الذين

---

(1) *هو القائد الروماني لوكيوس ليكينيوس لوكولّوس (117 ق.م - 57/56 ق.م).

(2) Euripide, in. **Stobée, II.**

(3) Cicéron, **De Officiis,** III, 15.

(4) Juvénal, **Satires,** VIII, 14.

(5) Cicéron, **De inibus,** I, 1.

(6) * هو أوديسيوس ملك إيثاكا الأسطوري، الذي تدور حول رحلته الأسطورية ملحمة الأوديسة.

يدرسون كيفية الحديث عن العدالة لكن لا يدرسون كيفية تطبيقها.

الغباء والادّعاء

22. إذا لم يصبح عقل الطالب عندي أرجح وحكمه أصوب، فإني أُفَضِّلُ أن يكون قد قضى وقته في لعب الكرة؛ فيستفيد على الأقل من ذلك بامتلاك جسمٍ قويٍّ متينٍ، وانظر إلى الطالب كيف يرجع بعد خمس عشرة أو ستَ عشرة سنةً قضاها في المدرسة، فستجده عاجزًا لا يستطيع لنفسه نفعًا، وكل ما اكتسبه هو أن معرفته باللاتينية واليونانية تجعله أكثر صلفًا وعجرفةً مما كان قبل دخوله المدرسة، وقد كان ينبغي له أن يعود بروحٍ مليئةٍ، فإذا به يعود بها منتفخةً؛ لأنه جعلها تنتفخ دون أن يجعلها تمتلئ.

23. إن المعلمين الذين أتحدث عنهم -وذاك ما يقوله أفلاطون عن إخوانهم السفسطائيين- هم أكثر الناس ضربًا للوعود بنفع الناس، وهم الوحيدون الذين لا يتمّون العمل الموكول إليهم على الوجه الأكمل كما يفعل النجار أو البنَّاء فحسب، بل يفسدون العمل على عكس ذلك، ويزيدون فيتقاضون لقاءَ إفسادهم مالًا.

24. كان بروتاغوراس يقترح على تلامذته أن يدفعوا له أجره كما يطلب، وإلاّ فليذهبوا إلى المعبد ويُقسِموا هناك على ما يُقَدِّرونَ به ما تعلموه منه؛ وليدفعوا له ما قدّروه(1)، ولو أن هذا القانون كان مطبقًا لساء حالُ هؤلاء المربين فيما لو اختار الطلبة القَسَمَ، حسب التجربة التي لديَّ عنهم.

25. في لهجتنا في منطقة البيريغورد، نستعمل للإشارة إلى هؤلاء المتعالمين تعبيرًا ساخرًا معناه «الذين أصابتهم الآداب بضربة مطرقة». إنهم

(1) ذكرها أفلاطون في محاورة «بروتاغوراس»، 16.

بذلك يَبدون كالنازلين إلى ما دون مستوى الحسّ السليم؛ ذلك أن الفلاح والإسكافي، إذا كانا يتصرفان ببساطةٍ لأنهما يتكلمان في ما يعرفانه، فإن أصحابنا -في سعيهم إلى التباهي بتلك المعرفة التي تطفو على سطح أدمغتهم- لا يكفون عن الوقوع في الخطأ والحرج، قد تفلت منهم أحيانًا كلماتٌ جميلةٌ، لكن، سيكون على شخصٍ آخر أن يضعها موضع التطبيق مكانَهم، إنهم يعرفون جيدًا جالينوس، لكنهم يجهلون المريض، ويقرعون مسامعك قرعًا عنيفًا بنصوص القوانين، فيما هم لم يدركوا بعد مدار الجدال ولا عَصَبَ موضوعِه، ويعرفون الكثير عن نظريات الأشياء، لكن يبقى عليك أن تجد لتلك النظريات مُطَبِّقًا!

26. وقد رأيت يومًا أحد أصدقائي، وكنا في بيتي ومعنا أحد هؤلاء المدّعين المتنطّعين وهو يصطنع كلامًا غريبًا لا معنى له من الألفاظ والعبارات المتتالية دون أدنى وشيجةٍ منطقيةٍ، كان يستقيها من قراءاته ويربط بعضها ببعضٍ ربطًا يراعي أن يستعمل فيه كلماتٍ مُتَواضعًا عليها مألوفةً عند أمثال الرجل، فقضى اليوم مستمتعًا برؤيته وهو يصارع في غباءٍ ليجد ردًّا على كل اعتراضات صديقي المصطنعة المركبة تركيبًا! ومن العجيب أن صاحبنا كان متعلمًا يتمتع بسمعةٍ طيبةٍ ويَرفُلُ في جُبَّةٍ فاخرة!

«أنتم يا ذوي المهن النبيلة
الذين لا تهتمون لما يجري خلفكم.
احذروا الوجوه التي تكشِّر في ظهوركم»[1].

27. ومن ينظر عن كثبٍ في حال هؤلاء الناس -وما أكثرهم!- يجد كما وجدت أنا أنهم في غالب الأحيان لا يفهمون بعضهم ولا يفهمون الآخرين، وأنهم إذا كانت ذاكرتهم مليئةً بالمعلومات فإن قدرتهم على التمييز والحكم منعدمةٌ، اللهم إلا من اختارت الطبيعة أن تهبه قدرةً خاصةً على ذلك! وقد رأيت هذا عند أدريانوس تورنيبوس*[2]، الذي لم يمارس قط حرفةً غيرَ حرفة الأدب، فكان في رأيي أبرع من مارسها منذ

(1) Perse, Satires, I, 61.

(2) * فقيه لغة فرنسي، كان علّامة في اللغتين اليونانية واللاتينية (1512م – 1565م).

ألف عامٍ، رغم أن ذلك لم يورثه ادعاءً ولا تحذلقًا، باستثناء ارتدائه الأثواب الرفيعة واتخاذه في السلوك أنماطًا قد تبدو غير متحضرةٍ في أعين الخدم، وهو ما لا أهمية له.

28. وإني لأكره أناسًا يزعجهم الرداء الأعوج بأكثر مما يزعجهم به العقل الأعوج، فتجدهم يُطلقون حكمهم على الشخص بناءً على طريقته في التحية أو هيئته أو حذائه. لكن رجوعًا إلى تورنيبوس، الذي كان يحمل في دواخله أرق وأرهف ما عرفته من ذكاءٍ، فلقد دفعت به مرارًا إلى الحديث في مواضيع بعيدةٍ عن مجالات اهتمامه العادية، فكنت أجده في كل مرةٍ يحيط بالموضوع ويدركه ويصدر عليه حكمه بوضوحٍ وذكاءٍ وثقابة نظرٍ، تجعل سامعه يحسبه لم يفعل في حياته شيئًا قطٌّ غيرَ النظر في شؤون الحرب إذا كان الموضوع حربيًّا، أو شؤون الدولة إذا كان الموضوع سياسيًّا، وهلم جرّا. فما أجمل وما أقوى مثل هذه الطبائع!

«التي صنع الجبّار[1] عقلها من أجود أنواع الصلصال
وزادها من أفضال فنّه»[2].

وهي تحافظ على نفسها حتى وإن ساءت التربية وفسدت، لكن لا يكفي ألَّا تُفسِدَنا تربيتُنا، بل ينبغي أن نجد منها تحسُّنًا وصَلاحًا.

29. إن بعض المجالس التشريعية عندنا حينما تريد انتقاء القضاة تسألهم فقط عن علمهم ومعرفتهم، فيما تختار مجالس تشريعية أخرى أن تضيف إلى اختبار المعلومات اختبار المنطق السليم، فتطرح على المرشح قضيةً ما وتطلب منه إصدار حكمٍ في شأنها، وأنا أرى أن هؤلاء الأواخر أفضلُ منهجًا وأصْوبُ رأيًا؛ لأن الجانبين ضروريان، لكن ينبغي أن يتوفَّرا معًا في المرشَّح، ولأن المنطق السليم إذا كان قد يستغني عن المعرفة، فإن المعرفة لا تستغني أبدًا عنه.

---

(1) هو بروميثيوس.

(2) Juvénal, **Satires**, XVI, 34.

30. وكما قال الشاعر اليوناني:

«ما الفائدة من عِلمٍ لا ذكاءَ معه؟»[1].

ومن أجل مصلحة العدالة في بلادنا، عسى أن يهب الله لهؤلاء الناس من الذكاء والوعي مثل ما وهبهم من المعرفة. «إنهم يعلموننا، لا من أجل الحياة، بل من أجل المدرسة»[2]. وما يلزم ليس هو ربط المعرفة بالعقل بل إدماجُها فيه كما تدمَج المكونات في الطعام؛ فلا ينبغي أن نصبَّ عليه سيلًا من المعرفة بل أن نجعله يَتَشَرَّبُها كما يتشرب الإسفنجُ الماء. فإذا لم تغير تلك المعرفة من أمر العقل شيئًا ولم تصلحْ من حاله وتملأْ بعضَ ثغرات نَقصِهِ، فلا شكّ أن أفضل ما يمكن فعله به هو تَركُهُ جانبًا. ذلك أن المعرفة سيفٌ بَتَّارٌ قاطعٌ، قد يعرقل صاحبه ويجرحه، إذا كانت اليد التي تمسك به ضعيفةً عن حمله جاهلةً لفنّ استعماله: «حتى يتمنى المرء لو لم يكن قد تعلَّم شيئًا»[3].

31. ولعل هذا هو السبب الذي يجعلنا نحن ورجال اللاهوت لا نطلب الكثير من المعرفة لدى النساء، وفرنسوا دوق بريتاني وابن جون الخامس، حين حدثوه عن الزواج من إيزابيل أميرة أسكتلندا فقالوا له عنها: «إنها لم تتلقَّ تعليمًا في مجال الآداب» أجابهم قائلًا: «إن ذلك هو ما يريده بالضبط، وإن المرأة يكفيها من المعرفة ما يعينها على التمييز بين سراويل زوجها وقميصه».

32. ولذلك فليس مستغرَبًا، كما يحسب بعض الناس، أن نجد أن أسلافنا لم يولوا للمعرفة كبير اعتبارٍ، وأننا حتى اليوم لسنا نجد إلا صدفةً أناسًا على علمٍ ومعرفةٍ حقيقيَيْن في أهم مجالس ملوكنا، ولو أن الاغتناء الذاتي، الذي هو الشيء الوحيد الذي تقترحه علينا اليوم العدالة والطب وعلم التربية واللاهوت، لو أنه لم يكن كافيًا وحده ليجعلنا نحترم هذه العلوم لَكُنَّا بلا شكٍ نراها بلا قيمةٍ كما كانت الناس

(1) Stobée, **Sermo** III.

(2) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, CVI, 12

(3) Cicéron, **Tusculanes**, II, 4.

دائمًا تراها، وما أشد أسفي لكونها لا تعلمنا كيف نفكر! ولا كيف نعمل!

«منذ أن ظهر المتعالمون اختفى الناس الطيّبون»[1].

33. من لا يملك المعرفة الطَّيِّبَة فإن كل معرفةٍ أخرى ستكون وَبالًا عليه، والسبب الذي كنت أبحث عنه قبل قليلٍ، ألَا يكونُ تعليمنا في فرنسا لا يكاد يرسم لنفسه هدفًا سوى السعي نحو الربح؟ فقليلٌ هم الذين يهتمون بالآداب بين من هَيَّأتهُم الطبيعةُ لوظائفَ أعلى من الوظائف المدرَّة للربح وحده وأشرف قدْرًا، وإلا فإن فعلوا ذلك فلبرهةٍ وجيزةٍ، إذ تجدهم -قبل أن يألفوا المعرفة ويتذوقوا حلاوتها- سرعان ما ينصرفون عنها إلى وظائف لا يربطها بالكتب ولا بالمعرفة رابطٌ، فلا يبقى في نهاية المطاف -ناذرًا نفسه للدراسة مُوقِفًا نفسه عليها- إلا من كان مُنحَطَّ المنزلةِ رَذيلَ الأصلِ يَبتَغِي مِن وراء التعلم رزقًا، ولما كانت عقول هؤلاء وأمثالهم خبيثةً فاسدةً من حيث طبيعتها، ومن حيث المثالُ السيئ الذي تَلَقَّتهُ من تربيتها في أمثال تلك الأوساط، فإنهم لا يعطوننا إلا صورة رديئة عن الثمار التي بإمكان المعرفة إيتاءُ صاحبها إياها.

حدود المعرفة

34. إن المعرفة لا يمكنها أن تنير من كان عقله مظلمًا، ولا أن تجعل من الأعمى بصيرًا، فدورها ليس أن تمنح المرءَ البصرَ بل أن تُرَبِّيَه فيه، وأن تنظم إيقاع سيره، شريطة أن تكون له قدمان وساقان مستويتين سليمتين قادرتين على المشي. المعرفة دواءٌ ناجعٌ، غير أنك لن تجد دواءً -مهما كانت قوّته وفعاليته- يستطيع حفظ نفسه، دون تغيُّرٍ ولا فسادٍ، من عيوب الإناء الذي يحتويه، ومن كان حادَّ البصرِ لكن أعوَجَ النظرِ فإنه حتى وإن رأى الخير لا يتَّبعه، وحتى وإن رأى المعرفة لا ينتفع بها، وقد كان أهم تدبيرٍ اتخذه أفلاطون في «جمهوريته» هو توزيع الأعباء التي تقع على عاتق مواطنيه توزيعًا يقوم على أساس طبيعة هؤلاء

(1) Sénèque, **Epitres**, II, 95.

المواطنين؛ فالطبيعة قادرةٌ على كل شيءٍ، وهي تصنع كل شيءٍ.

35. تمامًا، كما لا يصلح الأعرج للتمرينات الجسدية، فكذلك لا تصلح تمارين العقل لمن كان أعرج الدماغ، أما أبناء السِّفاح والعوامُّ الجهلة فهم غير جديرين بالفلسفة، وحين نرى رجلًا بحذاءٍ بالٍ ممزقٍ نقول إن ذلك عاديٌّ ما دام الرجل إسكافيًّا[1]، والتجربة على ما يبدو ترينا في كثير من الأحيان طبيبًا أسوأَ صِحَّةً، ولاهوتيًا أدنى خلقًا، وعالمًا أقل كفاءةً من الرجل العادي.

36. كان أرسطون الخيوسي*[2] على صوابٍ حين قال إن الفلاسفة يُلحقون الضرر بمن يستمعون إليهم؛ لأن أغلب العقول عاجزةٌ عن الاستفادة من تعليمٍ كهذا التعليم الذي إن لم تكن له آثارٌ إيجابيةٌ فلا شك ستكون له آثارٌ سلبيةٌ، فقد كان يقول: «**إن مدرسة أريستيبّوس*[3] تُخَرِّجُ خلعاءَ صفيقين ومدرسة زينون تُخَرِّجُ جهلاءَ متوحشين**»[4].

37. يقول كسينوفون في حديثه عن طريقةٍ جيدةٍ في التعليم ينسبها للفرس، إنهم يعلمون أبناءهم الفضيلة كما تعلم أممٌ أخرى الآداب لأبنائها، ويقول أفلاطون إن طريقتهم في توارث الحِكم تجعلهم يعهدون بتربية الابن الأكبر للملك لا للنساء بل للخصيان، الذين كانوا يتمتعون بأعلى السلطات في محيط الملك بسبب ما عُرفوا به من فضيلةٍ، وكان الخصيان يحرصون على أن يكون جسد الأمير صحيحًا معافًى، وعند بلوغه السابعة يعلمونه ركوب الخيل والقنص، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة أسلموه إلى أربعة: الأكثر حكمةً، والأكثر عدلًا، والأكثر اعتدالًا والأكثر شجاعةً بين جميع أفراد الأمة، فكان الأول يعلمه الدين، والثاني ألا يقول إلا الحق، والثالثُ أن يتحكم في نوازعه ورغباته، والرابعُ ألا يهاب شيئًا.

(1) استعمل مونتيني هنا تعبيرًا قديمًا موازيًا فيه كلام عن التبّان، غير أن المحقق اختار تغيير الألفاظ مع الحفاظ على المعنى المقصود، وقد احتذيت به في ذلك. [المترجم].

(2) * فيلسوف رواقي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد. وهو تلميذ الفيلسوف الرواقي زينون الإيلي.

(3) * أريستيبّوس (435 ق.م تقريبًا – 356 ق.م تقريبًا) هو مؤسس مدرسة اللذة الكلبية في الفلسفة، وكان تلميذًا لأرسطو.

(4) Cicéron, **De natura deorum**, III, 31.

38. وإليك أمرًا يستحق الاهتمام: فسواءٌ في الدستور الرائع الذي ندين به لليكورغوس المشرعَ -وهو دستور مذهل بكماله يولي أكبر الاهتمام لتربية الأطفال، ويعتبرها أولى وأهم مسؤوليات الدولة- أو في مقام الملهمات أنفسهن، لا يكاد يجري ذكرٌ للمذاهب التي ينبغي تعليمها للأطفال. فكما لو أن أولئك الشباب ذوي الأصول الشريفة والمتعالين عن كل سلطةٍ غيرِ سلطة القيم الأخلاقية، لم يكونوا يحتاجون -عوضًا عن معلمينا ذوي العلم الباهر والمعرفة الواسعة- سوى معلمين يعلمونهم الشجاعة والحكمة والعدل، وهذا المثال هو الذي يستعيده أفلاطون في كتاب «الشرائع»، كانت طريقتهم في التعليم تتمثل في طرح أسئلةٍ على الأطفال حول حكمهم على الناس وأعمالهم، فإذا هم أدانوا أو مدحوا هذا الشخص أو ذاك أو هذا العمل أو ذاك لَزِمَهُم تبرير الحكم الذي أصدروه، فكانوا بذلك يشحذون ذكاءهم فيما هم يعلمونهم الحقوق.

39. ونحن نقرأ لدى كسينوفون أن أشتويكو[1] يطلب من كورش أن يعرض عليه ما استفاده من الدرس الأخير، فيجيبه الأمير: «هاكَ ما استفدته: في مدرستنا، قام طفلٌ كبير الجسم بنزع ردائه وأعطاه لرفيقٍ له أصغر جسمًا، ثم أخذ منه رداءه الذي كان أكبر، وقد جعلني مُؤَدِّبُنا حَكَمًا في هذه النازلة، فرأيت أن الأسلم كان هو ترك الأمور على ما كانت عليه؛ لأن الفَتَيَيْنِ كانا قبل التغيير بخير حالٍ، لكن المؤدّب لم يستحسن حكمي؛ لأني توقفت عند ما بدا لي أليق، على حين كان ينبغي قبل أي شيءٍ آخر اعتبار ما هو عادلٌ، والعدل يقتضي ألَّا يخضع أحدٌ للإكراه بسبب ما يمتلكه»، وأضاف أنه تلقى ضربات سوطٍ بسبب هذا، تمامًا كما كانوا يفعلون بنا في قُرانا حين نعجز عن تصريف فعل «ضرب».

40. وإن المعلم الذي كان لي يومئذٍ كان يحتاجُ على الأقل إلى خطابٍ طويلٍ في طرائق البرهنة، قبل أن يتوصل إلى إقناعي بأن مدرسته تضاهي هذه المدرسة. فأولئك الناس أرادوا اختصار الطريق وتعليم ما يليق بذلك، ولما كانت العلوم -حتى حين نحسِن استعمالها- لا يمكنها أن تعلمنا

(1) شخصيةٌ من كتاب «تربية كورش» لكسينوفون، الذي يتحدث فيه عن تربية كورش الثالث ملك فارس.

سوى الحكمة والإخلاص والعزم، فقد أرادوا أن يتيحوا لأطفالهم باكرًا إمكانية تجريبها جميعًا، لقد أرادوا تربيتهم لا عن طريق السماع والحكايات المرْوية، بل بوضع المبادئ والتعاليم موضعَ التطبيق، فكَوَّنوهم وشَكَّلوا تفكيرهم بطريقةٍ حيةٍ، لا فقط بالتعاليم والكلام، بل فوق ذلك بالأمثلة والأفعال، حتى لا تكون التربيةُ فقط معرفةً تُشحَن بها عقولُهم، بل تصبح تلك المبادئ وتلك التعاليم سبيلًا للعقل في العيش وطريقةً في الاشتغال، فلا تبقى كشيءٍ مضافٍ إلى العقل، بل تصير عنده كالميل الطبيعي والنزوع الفطري.

وقد سألوا أجيسيلاوس يومًا بهذا الصدد عمَّا ينبغي تعليمه للأطفال، فأجاب: «ما سَيَتَعَيَّنُ عليهم أن يفعلوه يوم يصبحون كبارًا». فلا عجب لمثل هذا التربية أن تعطيَ ثمارًا طيبةً يقف لها المرءُ إجلالًا.

41. يُقال إنهم كانوا يبحثون عن علماء البلاغة والرَّسامين والموسيقيين في المدن اليونانية الأخرى، لكنهم يتجهون إلى إسبرطة متى احتاجوا مشرِّعًا أو قاضيًا أو إمبراطورًا حاكمًا. فإذا كان أطفال أثينا يتعلمون كيف يجيدون الكلام، فإنهم في إسبرطة كانوا يتعلمون كيف يجيدون الفعل والتصرف، وإذا كانوا في أثينا يعلمونهم كيفية حسن التخلص من برهنةٍ سفسطائيةٍ، وكيف يكشفون عن الخدعة تحت ستار الكلمات المتعانقة في نفاق، فإنهم في إسبرطة كانوا يعلمونهم كيف يتخلصون من إغراءات الحس، وكيف يتغلبون بفضل الشجاعة الفائقة على مخاوف القَدَر والموت، فهناك كانت الناس تشتبك بالكلام، وهنا بالأشياء، هناك استعمالٌ متواصلٌ للغة، وهنا تمرينٌ أبديٌّ للروح.

42. ولذلك فليس من المستغرب أن الإسبرطيين، يوم طلب منهم أنتيباتروس*[1] خمسين طفلاً يتخذهم عنده رهائن، أجابوه -على عكس ما كنا سنفعل نحن مكانهم- أنهم يفضلون أن يدفعوا إليه مئة رجلٍ بالغٍ، وإن في هذا لخير تعبيرٍ عن مدى تقديرهم لحجم الخسارة التي

(1) * قائد عسكري مقدوني (400 ق.م تقريبًا - 319 ق.م) خدم الملك فيليبوس الثاني المقدوني، ومن بعده ابنه الإسكندر الأكبر.

ستُمنى بها بلادهم بضياع تلك العقول الشابة، وحين طلب أجيسيلاوس من كسينوفون أن يرسل أطفاله إلى إسبرطة ليتلقوا تربيتهم هناك، فإنه لم يكن يقصد أن يتعلموا البلاغة والمنطق والجدل، بل أن يتعلموا -كما كان يقول- أنبل علمٍ على الإطلاق، علم إبداءِ الطاعة وممارسةِ القيادة.

43. من الممتع مشاهدة سقراط وهو يسخر بطريقته من هيبياس*[1]، الذي روى له كيف أنه ربح مالًا كثيرًا من ممارسة مهنة معلم المدرسة في بعض المدن الصغيرة في صقلية، على حين لم يستطع أن يربح فلسًا واحدًا في إسبرطة، قال هيبياس: «إن الإسبرطيين قومٌ جاهلون لا يعرفون القياس ولا الحساب، ولا يولون للنحو بالًا، ولا يقيمون للشعر اعتبارًا، ولا يعرفون -من صنوف الكلام ما يقضون فيه وقتهم- غير تعداد الملوك والسلالات، وذكْر قيام الدول وانحطاطها، وغير ذلك من تافهِ القول ومُبتَذَلِه، غير أن سقراط على عادته في النقاش، بدأ بأن جعل الرجل يسَلِّم -بالدليل والبرهان- بجودة الحكم عند الإسبرطيين وتفوقه، وما يرفلون فيه من سرورٍ وبُحبوحة عيشٍ، فجعله بذلك يستنتج وحده انعدام جدوى تلك الفنون التي كان حتى ذلك الوقت يدافع عنها ويُعلي من شأنها.

44. تُبيِّن لنا هذه الأمثلة كيف أن الدراسة في هذه المدينة العسكرية وفي كل نظيراتها، تجعل القلوب رخوةً ليِّنةً متكسّرة أكثر مما تزيدها قوةً وعزمًا، وإن أقوى دول العالم اليوم هي الدولة التركية، المعروف عن أهلها احترامهم للسلاح وازدراؤهم للعلوم والمعارف. وروما في تقديري كانت أكثر شجاعةً قبل أن تصبح عالمةً، وأشد الأمم تمرُّسًا بالقتال وحبًّا له -في أيامنا هذه- هي أكثرُها جهلًا وأبعدها عن التحضر، ولنا في السكوثيين والبارثيين وفي تيمورلنك ما يغني عن كل مثالٍ.

45. ما أنقذ المكتبات من النار يوم اكتسح القوط أرض اليونان، هو أن

(1) *هو هيبياس السفسطائي، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

أحدهم نشر وسطهم فكرةً مفادها أن الأفضل أن يتركوا تلك الأشياء للعدو؛ لأن من شأنها أن تصرِفَهم عن التدريب العسكري فتوهن من قواهم وتجعلهم يُضيعون وقتهم في ما لا فائدة تُرتجى من ورائه للجسد، ويوم وجد ملكنا شارل الثامن نفسه مسيطرًا على نابولي ولم يكد يحتاج لسلّ سيفه من غمده؛ فأرجع أهل بلاطه هذا الفتح السهل غير المنتظر إلى كون أمراء إيطاليا ونبلائها كانوا منشغلين باكتساب النباهة والمعرفة أكثر من انشغالهم باكتساب القوة والعزم.

الفصل الخامس والعشرون

في تربيةِ الأطفال

إلى السيدة ديان دو فوا، كونتيسة غورسون.

1. لم أرَ قط في حياتي أبًا ينكر ابنه، مهما كان الابن قبيحًا مُنفِّرًا؛ وليس ذلك لأن الأب لا يدرك ما عليه ابنه أو لا ينتبه له -اللهم إلا إذا كان الحنان قد طمس بصيرته- بل لأنه أيًّا كانت الحال ابنه فحسب. أما أنا فأرى أكثر من أي شخصٍ آخر أن ما يضمه كتابي هذا بين دفتيه لا يعدو كونه شطحاتِ رجلٍ لم يَحظَ في طفولته من العلم سوى بالقشور، ولم يحتفظ من ذلك سوى بأفكارٍ مبهمةٍ أشبه ما تكون بالرذاذ (أي قليلًا من كل شيء) لكن دون تَعَمُّقٍ في شيءٍ، تمامًا كما جرت عليه العادة عند الفرنسيين، فمجمل ما أعرفه أن هناك طِبًّا وتشريعاتٍ ورياضياتٍ تنقسم إلى أربعة أجزاءٍ[1]، كما أعرف تقريبًا لمَ يرمي كلٌّ منها.

2. ولعلي أعرف كذلك ما ترمي إليه العلوم عمومًا من أهدافٍ في خدمتنا، لكني أن أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، أو أن أقضم أظافري وأنا أدرس أرسطو -مَلِكَ العلومِ الحديثة المُتَوَّجَ- أو أن أثابر في إصرارٍ على دراسة فرعٍ من فروع المعرفة، فهذا ما لم أفعله في حياتي قط، كما أنك لن تحدثيني في فنٍّ من الفنون دون أن تجديني مُلِمًّا ولو بأوائل مبادئه، وليس هناك طفلٌ ذو تعليمٍ متوسطٍ لا يجوز له أن يقول إنه أعلم مني بهذا أو ذاك، أنا الذي لستُ بالقادرِ على مُساءلَتِه ولو في أوائل ما تَلَقَّاهُ من دروس، فإذا أُجبِرتُ على ذلك وَجَدتُني أتلمّس ما يمكن أن أستخرج منه من كلامٍ ذي موضوعٍ عامٍ أختبر به قدرته الطبيعية على الحكم والتمييز، فيكون بذلك جاهلًا بهذا الدرس جهلي أنا بدرسه.

3. ليس لي ارتباطٌ خاصٌ بأي كتابٍ مهمٍ، اللهم إلا بلوتارخوس وسينيكا، اللذين أغرف منهما وأفرغ ما غرفت، كبنات داناوس مع برميلهن المثقوب، أستخرج من الكتابين أفكارًا لكتاباتي، لكني لا أستخرج منهما شيئًا لنفسي. أما التاريخ فهو طريدتي في الكتب، وكذلك الشعر، الذي لديَّ ميلٌ إليه، فقد قال كليانثس*[2] إن الصوت إذ تضيق به قصبة

(1) هي الأصناف الأربعة المعروفة في العصور الوسطى: الجبر، وعلم الفلك، والهندسة، والموسيقى.
(2) * فيلسوف رواقي (330/ 331 ق.م - 232/231 ق.م).

الناي يخرج أقوى وأعلى درجةً، وأنا أعتقد أن الفكرة إذ تتعرض لإكراه العَروض الشعري، تخرج هي كذلك أكثر حيويةً وعنفوانًا، فيكون لها في نفسي أثرٌ أكبر.

4. أما قدراتي الطبيعية التي أعرِضها هنا للاختبار، فإني أشعر بها تَهِنُ وتضعف تحت الثقل، وأشعر أن تصوراتي وأحكامي لا تتقدم إلا ببطءٍ، ولا تخلو في تقدمها من تَرَدُّدٍ وعثراتٍ، وحتى حين ذهبت إلى أبعد ما أستطيع، لم أجد من ذلك رضًا ولا ارتياحًا؛ لأني أرى أن هناك أشياء ما زالت وراءه، غير أن بصري به غشاوةٌ، فلا يدرك منها إلا أشباحًا كالضباب لا أَتَبَيَّنُ من بينها شيئًا، وحين أشرع في الحديث بلا مبالاةٍ عن كل ما يخطر ببالي، مقتصرًا في ذلك على ما آتتني الطبيعة إياه من قدرات ووسائل، فإنني متى ما حدث -وهو ما يحدث كثيرًا- أن أقع صدفةً لدى الكُتاب المُجيدين على الأفكار نفسها التي أعالجها -كما حدث لي للتّوّ مع بلوتارخوس وحديثه عن قوة الخيال- أجدني عند مقارنة نفسي بهم، في عجزي، وقلة حيلتي، وثقل روحي، وغفوة عقلي، جديرًا بالرثاء بل وبالازدراء.

5. لذلك أهنئ نفسي على كون آرائي نالت شرف الالتقاء في كثيرٍ من الأحيان بآرائهم، وكوني أَتَتَبَّعُ آثارهم ولو من بعيدٍ عبر موافقتي على ما يقولون، كما أن لدي شيئًا لم يؤتَ الناس جميعًا مثله، هو قدرتي على تَبَيُّن الفارق العظيم القائم بيني وبينهم، والذي لا يمنعني رغم ذلك من ترك أفكاري الضعيفة المتواضعة تنساب كما جاءتني، دون أن أغطي ولا أن أصلح ما كشفته لي المقارنةُ فيها من عيوبٍ؛ لأني أدرك جيدًا كم يحتاج المرء من قوةِ الشكيمة ومن ثباتِ البُنيان للسير مع هؤلاء الناس قَدَمًا بقدمٍ. ونحن نرى كيف أن كُتَّابَ هذا الزمن المتهافتين يحرصون على أن يبُثُّوا بين صفحات كتبهم الرديئة مقاطع كاملة لمؤلفين قدماء، حاسبين أنهم بذلك يكسبون بعضَ الاحترام والتقدير، بينما هم في الواقع خاسرون؛ لأن الفارق العظيم بين ما نقلوه من سليم القول وصائِبِه وبين ما يَخُطُّونَه بأنفسهم من رديء الكلام وعَقيمِه، يجعلهم يُضيعون على أنفسهم بفعلهم ذاك أكثر مما استفادوا.

في الاستعمال السليم للشَّواهد

6. هذان مثالان عن سبيلين في هذا الصدد متعارضَين متناقضين، أما الأول فمثال الفيلسوف خريسيبّوس، الذي كان يضَمِّنُ كتبَه ليس فحسب مقاطع بل كتبًا بحذافيرها لمؤلفين آخرين، من بينها كتابٌ له ضم بين دفتيه «ميديا» يوريبيديس كاملةً، وقد كان أبولّودوروس يقول عنه: «إن كتبه لو عُرِّيَتْ مما تتضمنه من كتابات الآخرين لما بقي منها سوى صفحاتٍ بيضاء!» وأما ثاني المثالَيْن فهو إبيقوروس، الذي لم يضمن مؤلَّفًا من المؤلفات الثلاثمئة التي خلفها لنا استشهادًا واحدًا بكلام غيره.

7. وقد حدث لي أن وقعت منذ أيامٍ على مقطعٍ من هذا النوع، رحت في بدايته أسير وأنا أزحف زحفًا بين أزقةٍ ضيقةٍ للغةٍ مهلهلةٍ ضعيفةٍ مُهتَرِئَةٍ، هزيلة المبنى خُلوٍّ من المعنى لا أكاد أتبين شيئًا من كلماتها المصطفة اصطفافًا، ثم إذا بي أجد نفسي فجأة أتنعَّم بين حنايا مقطعٍ بديع النظم لذيذ المذاق ارتفع بي إلى عنان السماء، ولو أن المرتَفَع كان لطيف المرتقى فيه من الطول ما تستنيم النفس له، لالتمست للكاتب في ذلك تبريرًا وعذرًا، لكنَّ الجرفَ كان هاويًا والارتفاع عموديًا، حتى أني أدركت منذ الكلمة السادسة من المقطع الجديد أنني أحلق في ذُرى عالمٍ جديدٍ، ومن موقعي ذاك أبصرت الواديَ السحيقَ الذي كنت قبل برهةٍ أزحف على قاعه، فلم أعد أجد في نفسي مُطاوَعَةً على الانحدار إليه من جديدٍ، ولو أني زينت إحدى كتاباتي بمقطعٍ بذلك الجمال لمَاَ كان فيه إلا ما يَفضَحُ غباءَ نصوصي الأخرى وتهافُتَها.

8. إن لومي للآخرين على أخطاءٍ أرتكبها أنا لا يبدو لي أكثر تناقضًا من كوني -كما يحدث لي كثيرًا- ألوم أخطاء الآخرين في نفسي. إن حَقَّنا إزاء الأخطاء أن تُتابَعَ وتُلاحق، وأن يُضَيَّقَ عليها الخناق حتى لا يبقى لها مكان، وإني لأدرك قدْر الجسارة التي أبديها وأنا أجتهد في الارتقاء بما أكتبه إلى مستوى ما أنقله، وأن أنظِمَ كَنَظمِهِ وأَغُوصَ في المعاني

كَغَوصِه، يحدوني في اجتهادي الأملُ المتهورُ في خداع أعين القارئ للنَّصِّ الحاكمِ عليه فلا يرى الفارق بين الاثنين، لكني أستعين في ذلك بالطريقة التي أستعمل بها اقتباساتي، مثل استعانتي بما استطعته من قدرةٍ ومن قوةٍ على الإبداع، ثم إني لا أهاجم هؤلاء الرواد الأوائل في نِزالي مُجابَهَةً، بل أُناوِرُهُم في كَرٍّ وفَرٍّ حَذِرٍ مُحتَشِمٍ، فلا أَلِجُّ عليهم، ولا أجاوز تَحَسُّسَ مواطنِ القوة عندهم، ولا أذهب أبدًا إلى أبعد مما رسمت لنفسي الذهاب إليه، ولو أني استطعت مجاراتهم بعض المجاراة فسأكون من أحذق الحاذقين، لأني لا أناوئهم إلا من حيث هم الأكثر قوةً واقتدارًا.

9. وقد اكتشفت أن بعض الناس يلبسون دروع الآخرين، فيختفون داخلها اختفاءً لا يعود المرءُ يرى منهم طَرَفَ إِصبَعٍ، حتى إذا استَحكَمُوا رأيتهم يَقُودُون شؤونهم -كما يسهل فِعلُه على العالِم المتمكّن متى دخل مجالًا مطروقًا- بفضل اختراعاتٍ قديمةٍ مرقعةٍ من هنا وهناك، ومن يريد بذلك أن يخفي عن الناس ما استعاره من غيره، ويوهِمَهم أنه له هو، يكون بدءًا قد أتى عملًا ظالمًا وجبانًا؛ لأنه لمّا كان لا يملك ما يمكنه أن يصطنع به لنفسه عند الناس قيمةً، أراد اختلاس قيمةٍ ليست له، ثم إن من يستكين غشًّا وخداعًا إلى مديح الجاهلين وإعجابهم الأعمى، إنما يُبدي عن غباءٍ عميقٍ؛ لأنه يستجلب في الآن ذاته ازدراء العارفين، الذين يقطبون حواجبهم استياءً وهم يرون هذا الحشو بعناصر مستعارةٍ غير مبتَدَعةٍ، ومعلومٌ أن مديح هؤلاء هو وحده الذي له وزنٌ واعتبارٌ، أما في ما يخصني، فإن مثل هذا الفعل الشنيع هو آخر ما يمكن أن أفكر في اقترافه، ولست أجعل مؤلفًا يتكلم إلا لكي أستفيد من كلامه ما يمَكِّنني من إجادة التعبير عن نفسي.

وما أقوله هنا لا ينطبق على «السانتون»[1]، التي تُنشر على حالها، وقد رأيت منها في زمني الكثير، دون الحديث عن القديم منها العائد للأولين، ومن بينها على الخصوص واحدةٌ نُشرت تحت اسم كابيلوبوس[2]، وتلك وسيلةٌ مثل

(1) السانتون أو الثوبة: أعمالٌ أدبيةٌ تعتمد على الاقتباس من مؤلف أو عدة مؤلفين، ويُعاد فيها نظم الاقتباس بحيث يمنحنا عملًا مغايرًا [المترجم].

(2) يتعلق الأمر بقصيدةٍ شهيرةٍ لأديبٍ إيطاليٍّ معاصر لمونتيني اسمه كابيلوبوس، يسخر فيها من رجال الدين مقتبسًا لذلك أبياتًا مختارةً من فرجيليوس.

غيرها من وسائلَ لإثارة الانتباه، تمامًا كما فعل يوستوس ليبسيوس وهو ينسج في دقةٍ وبراعةٍ كتابَه وثَمرَةَ عَمَلِه الشاقِّ المضني «السياسات».

«مقالاتي»

10. ومهما يكن، وأيًّا كانت هذه السخافات، فقد قررت ألَّا أخفِيَها، كما لن أخفي عيوب صورةٍ لي برأسي الأصلع ولحيتي الشمطاء، وضع فيها الرسامُ، لا وجهًا جميلًا مثاليًا، بل وجهي أنا. ذلك أنَّ ما أُسلِمُه للقارئ هنا هو عواطفي وآرائي، أسلمها بناءً على ما أعتقده لا على ما ينبغي لي أن أعتقده. فلست أرمي هنا إلا لأن أظهر كما أنا، أنا الذي ربما أصبحت غدًا على غير ما أنا عليه اليوم إن أنا تعلمت بين اليوم والغد أشياء جعلتني أتغير، ولست أملك سلطةً تجعل القارئ يصدقني، ولا أنا أرغب في ذلك؛ لكوني أعرف أني لم أُصِبْ من العلم ما يجعلني أهلًا لأن أعلِّمَ غيري.

11. قال لي شخصٌ كان في بيتي، بعد أن قرأ الفصل الماضي، إنني كنت أُحسِن فعِلًا لو أني بَسَطتُ الكلام بعض البَسطِ في حديثي عن تربية الأطفال، فيا سيدتي، لو كان لي بالموضوع معرفةٌ لما وجدت لها استعمالًا خيرًا من أن أقدمها هدية لذلك الرجل الصغير الذي يعلن عن نزوله قريبًا بين ظهرانيكم «فأنت أنبل من أن يكون بِكرُكِ شيئًا غيرَ الذَّكَر»[1]، ذلك أني ساهمت في إبرام زواجك بقدرٍ يمنحني بعض الحق وبعض المصلحة في معرفة ما سيسفر عنه الزواج، هذا ناهيكِ عما تعرفينه من قديم إخلاصي، مما يفرض عليَّ أن أتمنى لك في كل ما يتصل بك شرفًا وخيرًا وسعادةً. وأما ما أعرفه على وجه الحق، فهو أن الحديث في الطريقة المثلى لتربية الأطفال وتأديبهم، هو في ما يبدو أهم وأصعب موضوعٍ تعالجه المعرفة البشرية.

12. إن العمليات التي ينجزها الفلاح تباعًا قبل زرع الأرض عملياتٍ دقيقةً

(1) لا جدال في مسألة أفضلية الفتى على الفتاة، حتى لدى شخص ذي عقلٍ منفتحٍ متقدمٍ على أهل زمانه مثل عقل مونتيني.

سهلةً، ومثلها عمليات الزرع، لكن بمجرد أن ينبت الزرع ويخرج للحياة، يجد الزارع نفسه أمام خياراتٍ متعددةٍ وصعوباتٍ جَمَّةٍ، وكذلك الأمر مع الإنسان، فأن تزرعه ليس بالأمر الصعب، لكن ما إن يخرج إلى الوجود طفلًا، حتى يجد الوالد نفسه أمام كَمٍّ من المشاغل والهواجس والمخاوف بشأن تربيته وتعليمه.

13. إن ميول الأطفال في سنٍّ مبكرةٍ تكون غيرَ ذاتِ صدًى ولا أثرٍ ظاهرٍ، ووعودهم مبهمةٌ خادعةٌ، بحيث لا يمكن أن نبني عليها حكمًا صحيحًا، وانظر كيف تغيرت الأحوال بكيمون[1] وثيميستوكليس[2] وغيرهم مع مرور الأيام. إن صغار الدِّبَبَةِ والكلاب تُبدي عن ميولها الطبيعية، أما البشر فسرعان ما يَتَطَبَّعون بالطَّبائِع ويألفون العاداتِ، ويقبَلون الآراءَ ويخضعون للقواعد، فيتغيرون بذلك سريعًا ويتنكرون.

14. ورغم ذلك فليس من السهل أن يغلب الطبعَ التَّطَبُّعُ؛ لذلك فإن إخفاقنا في اختيار طريقهم في الحياة اختيارًا صائبًا يجعلنا كثيرًا ما نتحمل العناءَ هباءً، ونضيع الكثير من الوقت في تعليم الأطفال شيئًا لن يستطيعوا التمكن منه، ورغم ذلك فإن رأيي -أمام هذه الصعوبة- هو أن ما ينبغي لنا فعله هو أن نوجههم دائمًا صوب الأفضل والأَفْيَدِ، وألاَّ نوليَ كبيرَ اهتمامٍ للتنبؤات والتوقعات السطحية التي نُقِيمُها على أساس تصرفٍ طفوليٍّ، وأفلاطون في كتاب «الجمهورية»، لا يبدو أنه يوليها اعتبارًا.

15. سيدتي، إن المعرفة منهلٌ لا ينضب مَعينه وأداةٌ عظيمة النفع، خصوصًا للناس الذين أكرمتهم الأقدار بمرتبة رفيعة كمرتبتك. والحق أن المعرفة لم تكن لتوضع بين أيدٍ جاهلةٍ لا تعرف وجه الانتفاع بها، وهي تفخر بأن تقدم وسائلها لقيادة حربٍ أو حُكمِ شعبٍ أو الفوزِ بصداقةِ أميرٍ أو أُمَّةٍ، أكثر من فخرها بأن تقيم حجةً جدليةً أو أن ترافع أمام محكمة أو أن تصف حبوبًا للعلاج. وهكذا فإنك يا سيدتي، أنت التي تذوقتْ حلاوة

(1) هو قائد عسكريّ يونانيّ، تأرجحت به الأحوال بين قيادة الجيش وبين الخضوع للمحاكمة في بلده [المترجم].

(2) هو قائد عسكريّ يونانيّ كذلك، حارب الفرس وانتصر عليهم في مواقع كثيرة لكنه اضطر في آخر حياته للجوء إليهم.

المعرفة وتنتسبين إلى أسرةٍ مثقفة، فنحن ما زلنا نحتفظ بكتابات الكونتات القدماء من عائلة فوا التي تنحدرين منها أنت، والسيد الكونت زوجك والسيد فرنسوا دو كاندال عمك، والتي تَخرجُ من بين ظهرانيْها كل يومٍ عقولٌ ستجعل الاعتراف بميزة المعرفة لعائلتكم يمتد لقرونٍ طويلةٍ أخرى، أقول إني لا أراك ناسيةً هذا في تربيتك لأطفالك، ولذلك سأفضي لك في هذا الشأن بالفكرة الوحيدة التي هي لي، والمعارِضة لما جرت عليه العادة، فهذا كل ما أستطيع الإدلاء به من دَلوٍ في هذا الموضوع.

اختيار المؤدِّب

16. إن مهمة المؤدِّب الذي ستختارينه لطفلك، والذي يتوقف على اختياره نجاحُ تربية الطفل، تشمل كثيرًا من الأعمال الكبيرة الأخرى التي لن أتكلم فيها؛ لأني لا أملك أن أقول فيها شيئًا مفيدًا. أما بخصوص النقطة التي أجرؤ على إعطائه رأيًا فيها فسيأخذ برأيي بشأنها إن هو رأى فيه بعضًا من منطقٍ، فحين يكون طفلٌ سليل عائلةٍ عريقةٍ مقبلًا على دراسة الأدب، لا ليربح من وراء دراسته مالًا -إذ إن مثل هذا السعي الدنيء البائس غيرُ جديرٍ برضا ربّات الإلهام ولا بنيل فضلها، وهذا على كل حالٍ شيءٌ لا يعني سوى الآخرين ولا يتعلق إلا بهم- ولا ليكسب مزايا خارجيةً، بل يعتمد على مزاياه هو ليغتني بها ويتزين من الداخل، ولما كنت أفضِّل أن أجعل منه رجلًا حاذقًا على أن أجعل منه رجلًا عالمًا، فسأوصي بالحرص على أن يكون مؤدبه ومرشده رجلًا ذا عقلٍ مستنيرٍ لا رجلًا ذا رأسٍ مليئةٍ[1]، فإذا طالبْنا المؤدبَ بالمزيَّتيْن معًا، فلنطالبْه بقدر من القيمة الأخلاقية والذكاء أكبر من قدْر المعرفة، وليتصرفْ في ممارسة مهمته بطريقةٍ جديدةٍ.

17. حين نكون أطفالًا لا يكف الكبار عن الصراخ في آذاننا، كمن يفرغ ماءً في قُمْعٍ، ويطالبوننا فقط بأن نعيد عليهم ما قالوه لنا، فأنا أريد من المؤدِّب أن يغير هذا النهج، وأن يعمل من البداية -حسب قدرة العقل الموكَل إليه تعليمُه- على وضعه على الطريق وجعله يقدِّر الأشياء ويختار بينها

(1) يُلاحظ أن مونتيني يتكلم هنا عن رأس المؤدب لا عن رأس التلميذ!

ويميز بعضها عن بعضٍ بنفسه، وأن يفتح له الطريق تارةً ويتركَه تارةً يشُقُّه بنفسه، ولا أريده أن يخترع ويتحدث ما شاء له الحديث، بل أريد أن يترك تلميذه يتكلم أيضًا وأن ينصت إلى كلامه، وقد كان سقراط وأركسيلاوس*[1] من بعده يتركان تلاميذهما يتكلمون أولاً وينصتان إليهم قبل أن يحدثاهم بدورهم. **«إن سلطة الذين يعلِّمون الآخرين كثيرًا ما تُلحِقُ الضررَ بمن يريدون التعلم»**[2].

18. من المستحسن أن يتركه يَخُبُّ أمامه كي يستطيع الحكم على حُسن سيره، وكي يعرف إلى أي حدٍّ ينبغي له النزول كي يتلاءم مع قدرات تلميذه، فإن لم يُقِم هذا التناسبَ أفسدَ كل شيء، وإن قدرة المدرب على تمييز الفارق بينه وبين تلميذه، وقدرته على جعل سلوكه متلائمًا مع ذلك الفارق، لَهُوَ مسعًى من أصعب ما أعرف من مساعٍ؛ لأن الروح الرفيعة القوية وحدها من تستطيع النزول إلى مستوى الطفل وإرشاده، مع السير إلى جانبه لا أمامَه. أقول ذلك لأني أسير بخطًى أثبت وأوثق وأنا صاعدٌ، مني وأنا نازلٌ.

19. وإذا كنا -كما نفعل عادةً- نسعى إلى تسيير عددٍ من العقول مُختَلِفَةِ الأشكال والقدرات بدرسٍ واحدٍ وطريقةٍ واحدةٍ، فلا غرابة في أن تجد في مجموعةٍ كبيرةٍ من التلاميذ، اثنين أو ثلاثة على الأكثر، ممن استطاعوا أن يستفيدوا بعض الاستفادة من التعليم الذي تلقّوه.

20. لا ينبغي للمعلم أن يكتفي بمطالبة تلميذه بأن يكرر عليه كلمات درسه، بل يجب عليه كذلك أن يُسائِلَه في معنى الدرس ومضمونه.

وليَحكُمْ على مدى استفادته من الدرس بناءً على شهادة سلوكه لا على شهادة ذاكرته، ولْيَجعَلْهُ يسترجعُ الدرس الذي تَعَلَّمَهُ بمئة طريقةٍ مختلفةٍ، مع تطبيقه على مواضيع مختلفةٍ كاختلافها؛ كي يتحقَّق من فَهمِهِ واستيعابِه له، وليضبط إيقاع تَقَدُّمِه على أساس مبادئ

(1) * فيلسوف إغريقي (315/316 ق.م – 240/241 ق.م) مؤسس للدرسة الشكية الأكاديمية في الفلسفة.

(2) Cicéron, **De natura deorum**, I, 5.

أفلاطون[1]. إن إعادة قذف الطعام على حاله التي دخل بها الجوف لَدليلٌ على أن الطعام بقي متماسكًا لم يُهضم؛ لأن المعدة إن لم تعمل على تغيير حالة وشكل ما ندفعه إليها لهضمه، فإنها لم تقم بالعمل المطلوب منها.

21. إن عقولنا لا تتحرك إلا بالعدوى، لفرط ارتباطها برغبات الآخرين وأفكارهِم وخضوعِها لها، ولكونها عبيدًا أسرى لسلطة ما يقدمونه إليها من مثال. لقد طال بنا الزمن ونحن نُقاد بالحبل حتى لم نعد نعرف ما هي مشيتنا الطبيعية، وحتى انطفأت شعلةُ قوتِنا الذاتية وحريتِنا «**إنهم دائمًا تحت الولاية**»[2].

22. وقد رأيت شخصيًّا في مدينة بِيزا رجلًا محترمًا لكنه مغرمٌ بأرسطو غرامًا جعله يتخذ في الحياة شعارًا أساسيًا، مفاده أن المعيار والمقياس الذي به توزن وتقاس الأفكار الصحيحة وكل حقيقة هو مدى مطابقتها لمذهب أرسطو. فهو يعتقد أن أرسطو قد رأى كل شيءٍ وقال كل شيءٍ، وأن كل ما عدا ذلك إنما هو مجردُ شطحاتِ خيالٍ وكلامٍ فارغٍ. وقد ناله من هذا الرأي-الذي جرى تأويله تأويلًا مفرطًا متحاملًا- حَرَجٌ بالغٌ دامَ طويلًا أمام محكمة التفتيش في روما[3].

تكوين القدرة على الحُكْمِ على الأشياء

23. ليُعلِّمْه إذن أن يزنَ كل شيءٍ بميزان عقله ويصفِّيه بغرباله، وليجتهدْ في ألَّا يعلمه شيئًا باستعمال سلطته عليه وحدها ولا باستغلال ثقته، ولتكن مبادئ أرسطو، ومثلها مبادئ الرواقيين والإبيقوريين وغيرهم،

(1) قد يتعلق الأمر -بين إمكانيات أخرى- بمقطعٍ في «الجمهورية» يتحدث عن تربية «الفلاسفة الملوك» المستقبليين (7، 536-540)، نجد فيه على سبيل المثال أقوالًا مثل: «هذا التعليم لا إكراه فيه؛ لأن الإنسان الحر لا يتعلم شيئًا وهو مستعبَدٌ»، وكذا: «لا تستعمل العنف في تربية الأطفال، بل اجعلهم يتعلمون وهم يلعبون؛ فذلك أقرب إلى أن يطلعك على الاستعداد الفطري الطبيعي الخاص بكل منهم».

(2) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, XXXIII.

(3) يبدو أن الشخص المعني هو الذي ذكره مونتيني في «مذكرات رحلة إلى إيطاليا»، وهو أستاذ للفلسفة في جامعة روما يدعى جيرولامو بورو.

لا كالعقائد، بل مجردٌ تنوعٍ في الآراء يقدمه له فيختار من بينها إن هو استطاع إلى الاختيار سبيلًا، وإلَّا ظَلّ على شكِّه. وحدهم الحمقى يكونون على يقين باتٍّ بما يقولون.

«كما أستمتع بالمعرفة فكذلك أستمتع بالشك»[1].

24. ذلك أنه إن هو تبنى آراء كسينوفون أو أفلاطون في نهاية مسعاه المنطقي الخاص، فإنها لن تكون ساعتئذٍ آراءهما بل آراءه هو، ومن لا يفعل سوي اتِّباعِ غيرِه ليس يتبع شيئًا؛ لأنه لا يجد شيئًا بل ولا يبحث عن شيءٍ.

«لسنا خاضعين لملكٍ، فليكن كلٌّ حُرًّا في نفسه»[2].

ليعلمَ على الأقل أنه يعلَم، إن ما ينبغي له هو أن يتشبع بمزاياهم الشخصية لا أن يتتبعَ تعاليمهم، له أن ينسى دون أسفٍ من أين استقى ما استقاه، لكن عليه أن يعرف كيف يَتَمَلَّكُ ما استَقى وكيف يَستَبطِنُه، الحقيقة والعقل شيئان لا يملكهما أحدٌ احتكارًا، وليس الناطق بهما أولَ ناطقٍ بأَمْلَكَ لهما ممن ينطق بهما بعده، وهذا الشيء أو ذاك ليس هكذا حسب أفلاطون بقدر ما هو كذلك حسبي أنا، انطلاقًا من اللحظة التي نرى فيها ذلك الشيء معًا ونفهمه معًا بطريقةٍ واحدةٍ. إن النحل يرعى الرحيق من هذه الزهرة وتلك، لكنه في الأخير يصنع من الرحيق عسلًا هو له لا للزهور؛ إذ لا يَعُود زعترًا ولا مرْدقوشًا، هكذا ينبغي أن يُحَوِّلَ المتعلم وأن يدمجَ العناصرَ التي استعارها من غيره؛ كي يصنع منها شيئًا يكون حقًّا له. إن قدرته على الحكم على الأشياء، هذا الحكم هو ما ينبغي أن يَنصَبَّ كلُّ الجهدِ على تكوينه، أي تربيته وطُرُق اشتغاله وقدرتُه على التعلم.

25. عليه أن يخفيَ كل ما استقى منه مادته، فلا يبديَ سوى ما فَعَلَه هو به، والناهبون كما المستعيرون يُبرزون للناس ما شيَّدوا وما اكتسبوا، لا

(1) Dante, **La Divine Comédie, Enfer,** XI, 93.

(2) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius,** XXXIII.

ما أخذوا من غيرهم، وأنت لا ترى الهدايا التي يتلقاها عضوٌ في برلمان، وإنما ترى فحسبُ الأحلافَ التي يعقدها والفوائد والامتيازات التي يحصل عليها لأبنائه. فلا أحد يفضي إلى الناس بما يتلقاه من الناس، لكن الجميع يفتخر بما اكتسب[1]. إن ما نربحه من دراستنا هو أن نكون قد أصبحنا بفضلها أرجَحَ عقلًا وأوفَرَ حكمةً.

المعرفةُ الحقيقية

26. كان إبّيخارموس*[2] يقول إن الذكاء هو الذي يرى ويسمع، وإنه هو الذي يستفيد من كل شيءٍ وينظم كل شيءٍ ويعمل ويتحكم ويسود، وأن كل ما عداه أعمًى أصمُّ لا روحَ فيه. ونحن نجعل هذا الذكاء خانعًا ضعيفًا بمنعنا إياه من أن يفعل أي شيء من عنده. فمن منا سأل يومًا تلميذًا له عن رأيه في البلاغة والنحو ورأيه في هذا الحكم أو ذاك من أحكام شيشرون؟ إنهم يرشقون في ذاكرتنا مثل السهام، وكما يفعل المتنبئون، ما تشكل الحروفُ والمقاطعُ الصوتية نفسُها مادَّتَه.

المعرفة عن ظهر قلبٍ ليست بالمعرفة، بل هي احتفاظٌ بما استودعناه الذاكرة. أما ما نعرفه فعلًا فإننا نستطيع التصرف فيه دون حاجةٍ للإحالة على أنموذجٍ ولا لإلقاء نظرةٍ على كتابٍ، وما أتفَهَها معرفةً تلك القائمةُ على الكتبِ وحدها! أريد أن تُتَّخَذَ مثلُ هذه المعرفة زينةً لا أساسًا، متَّبعًا في ذلك رأي أفلاطون الذي يقول إن العزم والإخلاص والصدق هي الفلسفة الحَقَّةُ. أما العلوم الأخرى -التي لها أهدافٌ أخرى- فتظل زينةً فحسب.

27. وإني لأتساءل كيف سيستطيع لوبّالويل أو بّومبيوس -هذان الراقصان

(1) هذا المقطع غريب بعض الشيء؛ لأن مونتيني يبدو وكأنه يدافع عن مبدأ التستر، سواءً على السرقات الأدبية، أو على ما ندعوه اليوم الرشوة. وأقل ما يمكن قوله هو أن مسألة الشفافية التي يدافع عنها الناس -ظاهريًا على الأقل- لم تكن تشغل باله، وهذا يثير التعجب حين نذكر حديثه في «إلى القارئ» عن كتاب كُتبِ بنيةٍ حسنةٍ!

(2) * إبّيخارموس (530 ق.م تقريبًا - 440 ق.م تقريبًا) هو شاعر وكاتب مسرحي إغريقي.

البارعان من معاصريَّ[1]- أن يعلمانا كيف نقوم بقفزاتٍ بهلوانيةٍ عبر الاكتفاء بإنجازها أمامنا، فيما نحن جلوسٌ في مقاعدنا! بيْد أن هذا هو بالضبط ما يفعله أولئك الذين يدَّعون القدرةَ على تثقيف عقولنا دون جَعلِه يعمل ويشتغل، وإلا فليحاولوا تعليمنا ركوب الخيل، أو التلاعب بالرماح، أو مداعبة العود، أو ترخيم الصوت، دون أن يدربونا على ذلك تدريبًا، كما يفعل هؤلاء الذين يريدون تعليمنا إصدار الحكم الصائب والنطق بالكلام البليغ، دون أن يدربونا على حكمٍ ولا على كلامٍ! والحال أننا في مثل هذا التعلُّم نجد كتابًا في كل ما تقع أعيننا عليه، إذ إن مكرَ رفيقٍ أو غباءَ خادمٍ أو كلمةً قيلت على مائدة الطعام، كلها مواضيع جديدةٌ.

28. لذلك فإن مخالطة الناس عظيمة الفائدة في التربية، ومثلها السفر وزيارة البلاد الأجنبية، لكن ليس للعودة منها فقط، كما يفعل نبلاؤنا الفرنسيون، بقياس طول ساحة «سانتا روتوندا» بالخطوات، أو لباس «السنيورة ليفيا» الداخلي الفاخر، أو كما يفعل الآخرون، الذين يقارنون صورة وجه نيرون المنقوشة على بعض الأحجار القديمة، بتلك المنقوشة على ميدالية عتيقة. لا بل إنني لتمكين التلميذ على العودة منها -على العكس من ذلك- بأخبارٍ عن طباع تلك الأمم وعاداتها، والعمل على شحذِ ذكائه عبر احتكاكه بذكاء الآخرين، أريد أن أجعله يتجول منذ نعومة أظافره، فأضرب بذلك عصفورين بحجرٍ واحدٍ، لدى الأمم المجاورة التي تبعد لغتها عن لغتنا أشد البُعد، بحيث لا يستطيع اللسان التأقلم معها إن هو لم يعتدها من سنٍّ مبكرةٍ.

29. ومعلومٌ من جانب آخر-ولا أحد يخالفني في ذلك- أن تربية الطفل في حضن والديه ليس بالشيء المفيد له، فالحب الأبوي الفطري يُليِّن عاطفة الوالدين أكثر مما ينبغي لها أن تلين، ويجعل حتى أكثر الناس تعقلًا يتساهلون، حتى لا يعود بإمكانهم معاقبة أخطائه ولا تربيته تربيةً فيها من الصرامة والاحتياط بما ينبغي له أن يكون، فالوالدان

(1) يتعلق الأمر بالإيطاليين لودوفيكو بالفالو (أستاذ الرقص الذي جاء يمارس مواهبه في بلاط الملك هنري الثاني) وبومبيوس أو بومبو دبابونو، الذي فعل مثله.

لن يحتملا رؤية طفلهما عند عودته من التدريبات وهو يَتَصَبَّبُ عرقًا وقد غطى الغبار محياه وأنهكه العطش، ولا رؤيته يمتطي جوادًا هزيلًا أو يواجه قنّاصًا ماهرًا والسيف في يده، أو وهو يتعلّم إطلاق أول طلقة بندقيةٍ له، ورغم ذلك فلا سبيل هناك غير هذا، ومن يريد أن يجعل من طفله رجلًا صالحًا، فعليه ألا يجعله يعيش في شبابه عيشة اللِّين والنعومة، بل وأن يذهب في ذلك إن لزِمَ ضد توجهات قواعد الطب.

«ليعِشْ في الهواء الطلق وليكنْ دائمَ القلق»(1).

30. لا تكفي تقوية روحه، بل ينبغي أيضًا تقوية عضلاته؛ لأن الروح متى لم تجد سَنَدًا ضَعُفَت وداخَلها الوَهَنُ؛ لأن في حملها لوظيفتها الخاصة وحده ما يكفيها ويزيد، فكيف بحمل الأخرى، أقول ذلك وأنا أعلم كيف تَكِدُّ روحي في معايشة جسدٍ في حساسية جسدي وضعفه واعتماده الكلي عليها، وكثيرًا ما أكتشفُ في قراءاتي، أن معلميَّ كانوا يعتَبِرون من قبيل الأمثلة التي تُضرب في النبل والشجاعة، ما كان في الواقع أقرب إلى سُمك الجلد وصلابة العظام! ولقد رأيت رجالًا ونساءً بل وحتى أطفالًا لا تُحدث فيهم علقةٌ بالعصا ما يُحدثه فيَّ أنا خدشٌ بسيطٌ من أثرٍ، فلا ينبسون ببنت شفةٍ ولا يرِفُّ لهم جفنٌ فيما الضربات تنهال عليهم، وحين يقلّد الأبطال الرياضيون صبرَ الفلاسفة فإنما يفعلون ذلك بقوة الجسد أكثر منهم بقوة القلب، ومعلومٌ أن الاعتياد على تحمُّل عناء العمل هو اعتيادٌ على تحمُّل الألم. «إن العمل بمثابة جلدٍ ميِّتٍ يحمي الجِلدَ الحي من الألم»(2).

31. يجب حَملُ التلميذ على اعتياد عناء التمارين وقسوتها، كي يستطيع أن يتحمل ألم التواءِ كاحلٍ أو مغص أمعاءٍ أو لسعة كيٍّ أو حتى السجن والعذاب؛ ذلك أنه ليس بمنجًى عن هاتين الأخيرتين في زمننا هذا الذي لا ينجو من أهواله شريرٌ ولا طيبٌ، ونحن نجرب ذلك في أيامنا، فما من أحدٍ يقوم ضد القوانين إلا وجَدتَهُ يهدد الناس الطيبين بالسوط وبحبال المشانق.

(1) Horace, **Odes**, III, 2, v. 5.

(2) Cicéron, **Tusculanes**, II, 15.

الاحْتراسُ من الوالدين

32. إن سلطة المؤدب، التي ينبغي لها أن تكون مُطلَقَةً على تلميذه، تعاني الانقطاع والتذبذب من حضور والديه، أضفْ إلى ذلك أن رؤية الطفل، في سنه تلك، للاحترام الذي يبديه له خَدَمُ البيت، ومعرفته بثروة أسرته وإدراكه لمكانتها الاجتماعية، كل هذا يُلحِقُ في رأيي بالغَ الضَّرَرِ بتربيته.

33. لَطالما لاحظت، في تَعَلُّمي هذا للعلاقات مع الناس، كم نخطئ بانصرافنا عن الاجتهاد في معرفة الآخرين، فلا نكاد نعمل سوى على تعريفهم بأنفسنا، مهتمين بترويج بضاعتنا أكثر من اهتمامنا باقتناء بضاعةٍ جديدةٍ، على حين أن من المعلوم أن الصمت والتواضع فضيلتان مفيدتان جدًّا في العلاقة مع الآخرين؛ لذلك سنربي هذا الطفل على اجتناب التباهي بما اكتسبه من معرفةٍ، وتجاهُلِ كل ما قد يسمعه من كلامٍ فارغٍ أو تافهٍ؛ لأن من قلة الأدب أن ينتقد المرء كلَّ ما لا يناسب ذوقه، وليَكتَفِ عوضًا عن ذلك بتصحيح أخطاء نفسه وتقويم اعوجاجها، وليَتَفادَ الظهور بمظهرِ من يلوم غيره على ما لا يحب هو فعله، وكذا الذهاب في عكس اتجاه القواعد السائدة في الأدب وحسن المعاملة. «**يمكن للمرء أن يكون حكيمًا دون بهرجةٍ ولا عجرفةٍ**»[1].

34. فليتجنبْ تلك المواقف المتعجرفة الكريهة، وتلك الرغبة الصبيانية في الاختلاف عن الآخرين للظهور بمظهر الأنيق الحاذق، وذلك السعي إلى استعمال النقد والاختلاف، وكأنهما أمرٌ صعبٌ، لاكتساب اسمٍ وسُمعةٍ معينةٍ، وكما لا يُباح لغير فحول الشعراء أن ينحرفوا عن القواعد لضرورات الشعر، فكذلك لا ينبغي لغير ذوي الألباب المتميزة الرفيعة أن يعطوا لأنفسهم الحق في امتيازاتٍ تعلو على ما هو متعارَفٌ عليه. «**إذا كان قد حدث لسقراط أو أريستبّوس أن انحرفا عن العادات والتقاليد، فلا ينبغي لأحدٍ حُسبانُ أن له الحق في مجاراتهما**

(1) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, CIII.

في ذلك؛ لأن هذين الرجلين وأمثالهما كانوا يستحقون تلك الرخصة لما خُصُّوا به من خصال استثنائية وإلهية»[1].

وليحرصْ على تعليمه ألَّا يجادل ولا يُعمِلَ الفكر إلا متى كان خصمه جديرًا بمنازلته، وحتى في هذه الحال ألَّا يستعمل من أدوات الجدال كل ما يمكن أن يصلح له، بل فقط ما من شأنه أن يكون أكثر نفعًا.

35. ولكي يُرَبَّ على التشدُّد في اختيار براهينه وحُججه وانتقائها، وعلى الاهتمام الشديد بصوابها، وبالتالي على القصدِ والاقتضاب. وليُعَوَّدْ -فوق أي شيءٍ آخر- على الاعتراف بهزيمته وتسليم أسلحته للحقيقة بمجرد أن يراها، سواءٌ أظَهَرَتْ في يد خصمه، أم لَمَعَتْ في قَرارَةِ نفسه إثر تغييره لرأيه؛ ذلك أنه لن يكون جالسًا على كرسيّ أستاذٍ يقرأ من فوقه نصًّا متواضَعًا عليه، بل سيكون خاضعًا فقط لضوابط القضية التي يدافع عنها، كما أنه لن يمارس تلك المهنة التي تباع فيها بالمال حرية تغيير الرأي والاعتراف بالخطأ[2]. **«لا تجبره أيُّ ضرورةٍ على الدفاع عن الأفكار التي قد تكون أُملِيَت وفُرِضَت عليه»**[3].

36. وإذا كان للمؤدب طبعٌ مثل طبعي، فإنه سيجعل من تلميذه خادمًا وفيًّا لأميره، لا يضِنُّ عليه بنفسٍ ولا بنفيسٍ، لكن سيَصرِفُه عن النزوع إلى الارتباط به بغير ما يقتضيه الواجب الرسمي، فعلاوةً على العدد الكبير من السلبيات الأخرى التي تُلحق الضرر بحريتنا من أثر الالتزامات الخاصة التي تترتب عليها، فإن الحكم الذي يُصدره رجلٌ أجيرٌ سيكون بالضرورة إما أقلَّ حيادًا وحريةً، وإما مطبوعًا بانعدام الكفاءة وغياب العرفان.

37. إن رجل الحاشية الحقيقي لا يمكنه أن يمتلك السلطة ولا الإرادة للحديث، أو التفكير بطريقةٍ مغايرةٍ لما يوافق قولَ سيده وتفكيرَه، هذا

(1) Cicéron, **De Officiis**, I, XLI.

(2) يمكن التساؤل عن المهنة التي يقصدها مونتيني بكلامه هنا. وقد يتعلق الأمر بمهنة رجال الحاشية أو المحامين.

(3) Cicéron, **Académiques**, II, 3.

السيّد الذي اختاره من بين الآلاف من أفراد رعيته ليتخذه صنيعةً له ويُعلِيَ مِن شأنِه بيده، فهذا الفضل وهذا الامتياز يجعلان غشاوةً على بصر الرجل ويحدَّان من حريته، وله في ذلك للحَقِّ أسبابٌ؛ لذلك تجد أن كلام أمثالِ هؤلاء الناس مختلفٌ في العادة عن نظيره الجاري في المهن الأخرى، وأنه لا يكاد يمكن الوثوق به.

38. وعلى العكس من ذلك، ليكنْ وعيُ التلميذ ومزاياه من اللمعان بمكانٍ في كلامه، وليكن العقل رائدَهما الأوحد، وليحرص على تعليمه أن الاعتراف بالخطأ الذي يكتشفه هو في تحليله المنطقي الخاص -حتى ولو كان الوحيدَ الذي اكتشفه- هو نتيجةٌ لحكمٍ منطقيّ ونزاهةٍ ينبغي لهما أن يكونا هدفَه المنشود، وأن الإصرار والجَدَل طَبعان سائدان يصادفهما المرء لدى الأنفس الأكثر وضاعةً، وأن تغيير الرأي وتصحيحه والتخلي عن موقعٍ خطأ في خضم نقاشٍ جارٍ، إنما هي على العكس مما يُعتَقَدُ خصالٌ نادرةٌ قويةٌ بقدر ما هي فلسفية.

39. وليُعَلَّم الاحتياط من النظر في كل جانبٍ متى كان بين الناس؛ لأني أرى أن المقاعد الأمامية كثيرًا ما يحتلها أراذلُ الناس، وأن الوضعيات المريحة لا تناسب إلا في القليل النادر قدراتِ من يوجدون فيها، ولطالما لاحظت أن بعض الناس يتجادلون على طرفٍ من مائدة الأكل في جمال لوحة أو مذاق نبيذٍ يونانيٍّ، فيما أفكارٌ بديعةٌ رائعةٌ تضيع في الهواء على الطرف الآخر منها.

40. وسوف يعرف كيف يَسبرُ قدرات كل من يصادفه من الناس، أكان سائسَ عُجولٍ أم بنَّاءً أم مجردَ شخصٍ يمر في الطريق، إذ ينبغي له أن يعرف أن الحياة تقتضي منه الاستفادة من كل شخصٍ حسب ما يمكنه أن يفيد به؛ لأن قطع الآلة تعمل كلها معًا فلا تستغني الآلة عن واحدةٍ منها، حتى غباء الآخرين وضعفهم سيكون مفيدًا له؛ ذلك أنه متى استطاع أن يفحص سلوكَ الآخرين وأساليبَهم في العيش سيشعر بالرغبة في ما حَسُنَ منها واحتقار ما ساء فيها.

41. ولكي يُرَبَّ عقلُه على حُبِّ استطلاعٍ نزيهٍ صافٍ يجعله توَّاقًا لمعرفة كل شيءٍ، حتى يَتَبَيَّنَ ما هو فريدٌ متميزٌ حولَه، مِن صَرحٍ مُشَيَّدٍ أو نافورةٍ فَيَّاضَةٍ أو مسرحِ معركةٍ من معارك القدماء أو مكانٍ مَرَّ منه يوليوس قيصر أو شارلماني.

«أيّ أرضٍ قد خدَّرها الصقيع
وأيها صيَّرتها الحرارة غبارًا
وأي الرياح هي الأطْيب للدفع بالأشرعة صوب إيطاليا»[1].

42. وسيستخبِر عن أخلاق هذا الأمير أو ذاك وقوَّته وتحالفاته؛ لأنها أشياء يُمتِعُ المرء تعلُّمها، وتفيدُه أيَّما فائدةٍ معرفتُها.

43. وفي مخالطة الناس هذه، أريد أن أُدمِجَ -وعلى الخصوص- أولئك الذين يعيشون بيننا بفضل ذاكرة الكتب وحدها، هكذا سيجد التلميذ نفسه محمولًا على أن يخالط -من خلال النصوص التاريخية- أفضلَ النفوس التي أتت بها أفضلُ العصور، ولعل مثل هذا النوع من الدراسة قد يبدو لبعض الناس عديمَ الفائدةِ لا نفعَ يُرجى من ورائه، لكنه في عين آخرين غيرِهم ذو فائدةٍ لا تُقدَّر بثمنٍ، وهي أيضًا الدراسة الوحيدة -كما يقول أفلاطون- التي احتفظ بها الإسبرطيون في ما يخصهم، فهل هناك من فائدةٍ لن يجنِيَها التلميذ من قراءته كتاب «الحيوات» للعزيز بلوتارخوس؟ لكن ليحرصِ المرشد على إبقاء هدفه نصب عينيه، وليَعمَلْ على أن يتذكر تلميذُه الميزات الشخصية التي كان يتمتع بها حنبعل وسكيبيو الإفريقي، أكثر مما يتذكر سنة خراب قرطاجة، وأن يتذكر المكان الذي مات فيه ماركيلّوس*[2]، أكثر من تَذَكُّرِهِ الأسباب التي جعلته غيرَ خَليقٍ بواجبه، وجعلته يموت هناك[3]. وليعَلِّمْه الحكم

(1) Properce, **Élégies amoureuses - Cynthia**, IV, III, 39.

(2) * ماركوس كلاوديوس ماركيلّوس (268 ق.م تقريبًا - 208 ق.م) كان قائدًا عسكريًا وقنصلاً رومانيًا، شارك في الحرب البونيقية الثانية، التي شنتها روما على حنبعل، ونجح خلالها في الاستيلاء على سيراقوسة وعدد من المدن الأخرى.

(3) هنا يؤاخذ مونتيني القائد العسكري ماركيلّوس على تهوره الذي كلفه حياته، ومونتيني هنا لا يتجاوز النقل عن بلوتارخوس، فرغم تحذيرات المنجمين أصر ماركيلّوس على الخروج في جماعة من الفرسان ليتعرف على الميدان الذي سيخوض فيه المعركة، لكنه وقع ضحية كمين نصبه حنبعل هناك، فمات قتيلًا فيما فر فرسانه هاربين. (بلوتارخوس، **ماركيلّوس**، 29-30).

على الحكايات أكثر من تعليمه حفظها؛ لأن تلك هي في نظري المادة التي تتناولها عقولنا أكثر من غيرها بأشد الطُّرُقِ اختلافًا وتَنَوُّعًا.

44. لقد قرأت لدى تيتوس ليفيوس عشرات الأمور التي لم يقرأها آخرون لديه، وقرأ فيه بلوتارخوس عشرات الأمور الأخرى التي لم أقرأها أنا، ولعله قرأ فيه حتى ما لم يكتبه صاحبه. فبعض الناس يروْن في ذلك فقط موضوعًا للنحْو، فيما يرى غيرهم أن لُبَّ الفلسفة ذاته يُفصِحُ فيه عن نفسه، وأن ذلك هو السبيل الذي يمكن عبره التغلغل في ثنايا أشدِّ طبائعنا خفاءً، وإنك تجد في كتابات بلوتارخوس كثيرًا من أوجُه الاستطراد والتوسع الجديرة بأن تُعرَف؛ لأنه في رأيي خيْر من تكلَّم في هذه المواضيع، لكن هناك ألف موضوعٍ آخر لم يَعْدُ أن لامسها من بعيدٍ، فهو يكتفي بأن يشير لنا بالإصبع إلى حيث يمكننا الذهاب إن نحن أردنا، بل ويقتصر أحيانًا على الإشارة إلى ذلك في سياق حديثٍ آخر، وما ينبغي لنا حينئذٍ هو استخراج تلك الإشارات واتِّباعُها، ومن ذلك قوله: «إن سكان آسيا كانوا عبيدًا لرجلٍ واحدٍ؛ بسبب أن المقطع الصوتي الوحيد الذي كانوا يعجزون عن النطق به هو «لا»، ولعل هذا ما شَكَّلَ مادةً وفرصةً للكاتب دو لابويسي لتحرير مؤلَّفه «العبودية الطوْعية».

45. إن رؤيته وهو يهتم بعملٍ تافهٍ في حياة رجلٍ، أو حتى كلمةٍ تبدو غير ذات أهميةٍ، هو شيءٌ يدفع إلى التفكير، وإنَّه لمن المؤسف[1] أن الناس الأذكياء كَلِفون إلى هذا الحد بالاقتضاب؛ لأنه إذا كان مفيدًا لسمعتهم فهو أقل فائدةً لنا، إن بلوتارخوس يفضّل أن نمدحه على صواب حكمه أكثر من مدحنا إياه على غزارة معارفه؛ ولذلك يفضِّل أن يتركنا على جوعنا على أن يرانا على شَبَعٍ، كان يعرف أن المرء حتى بخصوص الأشياء المهمة قد ينطق هَذرًا، وأن أليكساندريداس[2] كان على صوابٍ حين لام رجلاً كان ينطق بكلامٍ معقولٍ لكن طويلٍ جدًّا أمام قضاة إسبرطة، فقال له:

---

(1) لا يبدو كلام مونتيني هنا واضحًا تمام الوضوح، بل قد يبدو متناقضًا، حيث إنه بعد هذا بسطورٍ سيمتدح على العكس من ذلك خصال الاقتضاب والتحفظ، لكن عند النظر في الأمر عن كثبٍ يتضح أن ما يدينه -حسب بلوتارخوس- هو النفخ في فكرةٍ فارغةٍ أو مفلسةٍ، وإذا كان يأسف للاختصار فهو يقصد اختصار الناس الأذكياء الذين كان بمكنهم أن يقولوا لنا أكثر مما قالوا، دون حاجةٍ للمزايدة كما يقولون.

(2) هو رجلٌ إسبرطيٌ ذكره بلوتارخوس.

«أيها الغريب، إنك تقول ما ينبغي قوله، لكنك لا تقوله كما ينبغي له أن يُقال!» يقوم هزيل الجسم بملء فراغات جسمه بحشايا القطن، وكذلك هزيلُ الفكرِ يملأ فراغات فكره بحشْو الكلام.

46. إن مخالطة الناس ومعاشرتهم مفيدة جدًّا في فهم الجنس البشري، فنحن كلنا منطوون على أنفسنا، وأبصارنا لا تتجاوز أرنبة أنفنا، وقد سألوا سقراط يومًا من أين هو، فلم يقلْ من أثينا، بل قال من الدنيا، فهو بعقله الراجح على عقول الآخرين كان ينظر إلى العالم وكأنه كله مدينته، وكان يهدي معرفته وعشرته ووجدانه للجنس البشري كله، عكسنا نحن الذين لا نرى أبعد من أطراف أقدامنا، وحين كان الصقيع يُجْهِزُ على الكروم في قريتي كان كاهن القرية يرى في ذلك تجليًّا من تجليات غضب الإله على البشر، بل وكان يرى أن المتوحشين أنفسهم سيذوقون وَبال ذلك.

47. من يرَ حروبنا الأهلية لن يعْدِم أن يصرخ قائلًا إن عالمنا أصيب بالجنون، وإننا أصبحنا على قاب قوسين أو أدنى من قيام الساعة، دون أن ينتبه إلى أن كثيرًا مما هو أسوأ من ذلك قد وقع، لكنه لم يمنع القسمَ الأكبر من البشرية من العيش أثناء ذلك في فرحٍ وحبورٍ، وإنني لأتعجب، حين أرى هذه الحروب تجري في إفلاتٍ تامٍ من العقاب، من رؤيتها رغم ذلك فاترةً لطيفةً، فمن يتساقط البَرَدُ على رأسه يخال أن الدنيا جميعها تجتاحها العاصفة، وكما قال أحد سكان سافوا: «لو أن هذا المغفل ملك فرنسا عرف كيف يقود سفينته بأفضل مما فعل، لكان قد أصبح مديرًا لبيت دوقِه؛ فعقل الرجل لم يكن يتصور أن هناك وضعًا أرفع من وضع سيده الدوق».

48. ونحن نرتكب جميعنا هذا الخطأ دون أن نشعر بذلك، وهو خطأٌ عواقبه جسيمةٌ وضرره كبيرٌ، لكنَّ الذي يتصور أُمّنا الطبيعة في جلالها مثل لوحةٍ واحدةٍ، والذي يقرأ في وجهها ذلك الثبات العجيب في التنوع، والذي لا يرى في تلك اللوحة نفسَه فحسب، بل يرى مملكةً بكاملها مرسومةً بقلم دقيقٍ مرهفٍ، هذا وحدَه هو الذي يعطي للأشياء بُعدَها الحقيقي.

كتابُ العالَمِ الكبير

49. هذا العالَم الكبير، الذي يقسِّمه بعض الناس إلى أنواعٍ كثيرةٍ من فصيلةٍ واحدةٍ، هو المرآة التي يجب أن ننظر فيها إلى أنفسنا كي نرى ذواتنا جيدًا، وأنا أريد أن يكون كتاب الدنيا هو كتاب تلميذي، فهو يحمل من الطبائع والفِرق والأحكام والآراء والقوانين والعادات ما يعلِّمنا كيف نحكم على ما لدينا نحن منها بطريقةٍ سليمةٍ، ويعلِّم عقولنا كيف تتعرَّف على عيوبها وأخطائها ومواطن ضعفها الطبيعية، وهو ليس بالتعليم السهل اليسير، وما يشهده القدر المشترك من انقلاباتٍ سياسيةٍ وتغيراتٍ، كل هذا يعلمنا ألَّا نعطي لقدَرنا نحن من القيمة أكثر مما ينبغي، فتلك الأعداد الكبيرة من الأسماء العظيمة، والانتصارات الباهرة ،والفتوحات الكاسحة التي يطويها جميعُها النسيان، يجعل من السخيف التَّوْقَ إلى الخلود بالقبض على عشرةٍ من الرماة، أو احتلال مجموعةٍ من الأكواخ ما كان لأحدٍ أن يعرف اسمها لولا أنها احتُلت. والأبهة والفخامة التي نرى عليها مواكب الملوك الآخرين، والجلال الذي يلف حاشيةَ هذا ومَجْمَعَ نبلاء ذاك، كلها تقوِّي من أبصارنا وتجعلنا قادرين على النظر إلى بريق ما لدينا منها دون أن تلفّ الغشاوة أبصارُنا، كما أن في الملايين من البشر الذين رحلوا قبلنا ما من المفروض أن يشجعنا على الالتحاق بتلك الرفْقة الطيبة، وهلمَّ جرًّا.

50. كان فيثاغوراس يقول: «إن حياتنا تشبه التجمّع الكثيف الذي تشهده الألعاب الأولمبية، حيث يتمرّن قومٌ بأجسادهم كي يفوزوا بمجد الألقاب، فيما يأتي قومٌ آخرون يعرضون بضائعهم للبيع توخّيًا للربح، وهناك غيرهم أيضًا -وليسوا بالأسوأ حالًا من بينهم- ممن لا تأتي بهم سوى الرغبة في رؤية كيف ولماذا يقع هذا وذاك، والرغبة في أن يكونوا شاهدين على حياة غيرهم؛ كي يستطيعوا بذلك أن يُحسِنوا الحكم على حياتهم هم ويحسنوا تدبيرها».

51. ويمكن أن نجعل في مقابل هذه الأمثلة أكثر الاستدلالات فائدةً مما جاء

به الفكر الفلسفي؛ لأنه محكّ الأعمال البشرية التي عليها أن تتخذه قاعدةً ونبراسًا، فيقال للطفل:

«ما يمكن تمنّيه، بماذا يفيدنا؟
المال صعبُ الكسب، وما يطلبه منا
الوطن والوالدان، ما أراده الله
أن تكون، ودورك الذي رسمه لك في المجتمع
وما نحن عليه، وما شاءه القدر بجعلنا نولد»[1].

.52 يُقال له كذلك ما المعرفة وما الجهل؟ وما الذي ينبغي أن يكون هدفًا لكل دراسة؟ وما الإقدام والاعتدال والزهد والعدالة، والفارق الذي ينبغي أن يُقامَ بين الطموح والبخل، وبين العبودية والخضوع، وبين التحرر والحرية؟ وما العلامات التي بها تُعرَف السعادة الحقيقية الوثيقة؟ وإلى أي حدٍّ ينبغي للمرء أن يخشى الموت والألم والعار؟

«وكيف تتفادى أو تتحمل كل ألمٍ؟»[2].

.53 ويقال له أيضًا ما القُوى التي تحركنا، وإلى أي أسبابٍ ترجع الحركات المختلفة التي تدبّ في أجسادنا، فأنا أرى أن أوْلى التمارين المنطقية التي يجب أن نغذي بها ذكاءه، هي تلك التي تضبط سلوكه وحكمه على الأشياء، والتي تعلمه كيف يعرف نفسه وكيف يعيش ويموت كما ينبغي له. فلنبدأ -من بين الفنون الحرة- بالفن الذي يجعلنا أحرارًا.

.54 والحق أن الفنون كلها تفيدنا بشكلٍ من الأشكال في تكوين مسيرنا في العيش، مثلها في ذلك مثل الأشياء الأخرى جميعها، لكن علينا أن نختار من بينها الفن الأعمَّ والأقرب فائدةً، والذي تمثل حياتُنا هدفَه وموضوعه.

.55 لو كان باستطاعتنا أن نحصر كل الأشياء التي تهم حياتنا في حدودها الحقيقية الطبيعية، لوجدنا أن أكثر العلوم المتداولة بين الناس تقع

(1) Perse, **Satires**, III, v. 69-73.
(2) Virgile, **Énéide**, III, v. 459.

خارج نطاق تداولنا، وحتى في العلوم التي نستعملها هناك جوانب لا فائدة منها مطلقًا، من الأفضل لنا أن نتركها جانبًا، وأن نتَّبع في ذلك كلام سقراط، الذي أوصى بأن نجعل من الدراسات -التي لا فائدة نرتجيها من ورائها- حدودًا لما لنا فيه فائدة.

«تجرأْ على أن تكون حكيمًا
إن الذي يتأخر في اقتناص مباهج الحياة هو مثل القرويّ
الذي ينتظر أن يجفّ النهر ليجتازه
بينما مياه النهر تجري منذ الأزل»[1].

56. إن من الغباء المطلق أن نعلم لأطفالنا

«تأثير برج الحوت أثر برج الأسد الملتهبة
وآثار برج الجدي على الأمواج التي تضرب سواحل بلاد الغرب الأقصى»[2].

أن نعلمهم علوم الفلك وحركة القبة الثامنة قبل تعليمهم ما يعنيهم مباشرةً.

«ما الذي يعنيني في الثريا؟
وماذا يهمني في كوكبة العوّاء؟»[3].

57. كتب أناكسيمينيس*[4] إلى فيثاغوراس يقول: «كيف لي أن أُزَجِّيَ وقتي في استطلاع أسرار النجوم، على حين أرى الموت والعبودية في كل وقتٍ أمام عيني؟» وكان ذلك في وقتٍ بات فيه الفُرْس يستعدون لشنّ الحرب على بلاده، وهذا ما ينبغي لكل منا أن يقوله لنفسه: «أنا الذي يَتَنازَعُني الطموحُ والبخل والتهور والتطيُّر، كيف لي -وأنا الذي أحمل في دواخلي كل أعداء الحياة هؤلاء- أن ألقي بالًا إلى حركة العالم؟».

---

(1) Horace, **Épîtres**, I, 2.

(2) Properce, **Élégies amoureuses - Cynthia**, IV, 4, 85-86.

(3) Anacréon, **Odes**, XVII.

(4) * أناكسيمينيس الملطي هو فيلسوف إغريقي من فلاسفة المدرسة الطبيعية الأولى، عاش في منتصف القرن السادس قبل الميلاد.

58. حتى إذا جرى تعليمه ما يتيح له أن يصبح أكثر حكمةً وأفضل حالًا، أُلقِيَ إليه بمبادئ المنطق وعلم الطبيعة والهندسة والبلاغة، ولمّا كان حكمه على الأشياء قد تكوّن قبل ذلك وأصبح صائبًا، فإنه سيستوعب سريعًا العلم الذي سيختاره ولن يجد صعوبةً في الإحاطة به. وليكنِ الدرس تارةً على شكل حوار، وتارةً بالاستعانة بالكتب، فتارةً يمدّه مؤدبه بنصوص مختارة تُعنَى بالموضوع المطلوب؛ ليبحث بين صفحاته عمّا يفيده في ذلك، وتارةً يعطيه العُصارَةَ خالصةً مهضومةً. وإذا لم يكن المؤدب نفسه على درجةٍ من الأُلفة مع الكتب، تجعله قادرًا على استخراج الأفكار الجيدة التي تعج بها، فليُقرَنْ به رجلٌ أديبٌ يساعده في بلوغ هدفه، فيزوده عند الحاجة بالمادة الضرورية ليغذي بها رضيعه. ومن سيشك في أن هذا النوع من التعليم لن يكون أيسر وأقرب للطبيعة من تعليم غازا[1]؟ فليس يجد المرء في هذا الأخير سوى قواعدَ شائكةٍ لا يستكين لها الطبع، وألفاظٍ لا تحمل معاني فكأنها مجوفةٌ، بل ليس يجد المرء فيها ما يستفز فكره ولا ما يوقد جذوة عقله، أما في التعليم الذي أوصي به فيجد العقل مادة يستسيغها ويستوعبها، وهذه الثمرة التي ستكون لا شك أكبر، ستنضج رغم ذلك في وقتٍ أقصرَ.

الفلسفة

59. ما أغربَ ما وصلت إليه الأوضاع في زماننا، فأصبحت الفلسفة -حتى عند ذوي العقول النيّرة- مجرد لفظةٍ جوفاء وشطحةٍ من شَطَحات الخيال لا فائدة منها، ولا قيمة لها في أذهان الناس ولا في الواقع، وأنا أعتقد أن السبب في ذلك هو أن دروبها الكبرى ضجّت بأصنافٍ من الجدل العقيم، وإن من الخطأ الجسيم أن نصف الفلسفة كشيءٍ لا يمكن أن يدركه الطفل، وأن نقدمها بوجهٍ عابسٍ مكفهرٍّ مفزعٍ، فمن ذا الذي ألبسها هذا القناع المتقع القبيح؟ ليس هناك شيءٌ مرحٌ خفيف الروح لعوبٌ -وأكاد أقول- عابثٌ أكثر مما عليه الفلسفة؛ فهي لا تدعو

(1) ثيودوروس غازا: عالم يوناني ولد في سالونيك عام 1398 م، وقد انتقل إلى إيطاليا عام 1444 م ، وتعلم فيها اللغة اللاتينية. ومن مؤلفاته كتاب «قواعد اللغة اليونانية»، وهو الكتاب الذي يقصده مونتيني هنا على الأرجح.

إلى غير الفرح وطِيبِ العيش، أما الوجه العابس الكدِر فلا يمكن أن يكون لها مُقامًا.

60. صادفَ النحوي ديمتريوس[1] في ديلفوي مجموعةً من الفلاسفة جالسين، فقال لهم: «إما أني على خطأ، وإما أنكم لستم داخلين في نقاشٍ مهمٍ، كما يبدو من جلستكم الهادئة وهيئتكم المرحة»، فأجابه هيراقليون الميغاري قائلًا: «إن الذين يخوضون في تصريف الأفعال، وأصول الكلمات، وقواعد الكتابة، هم من يَتَجَعَّدُ لهم الجبينُ متى تحدثوا في علمهم، أما المواضيع الفلسفية فهي في العادة تُدخل السرور على قلوب مَن يعالجونها، فلا يحزن لها منهم قلبٌ ولا يكفهرّ لها وجهٌ!».

«في الجسدِ العليل تشعر بروحٍ قلقةٍ
ولكن قد نقرأ فيه دواعي سرورها
لأن الوجه مرآةٌ لهذا وذاك»[2].

61. إن من شأن الروح التي تسكنها الفلسفة أن تجعل الجسد، بفضل صحتها وعافيتها، صحيحًا مُعافًى هو أيضًا، وهي تجعل طمأنينتها وارتياحها يَرشَحان إلى الخارج، وينبغي لها أن تصنع المظهر الخارجي على منوالها الخاص، فتزينه بإباءٍ رشيقٍ وسلوكٍ نشطٍ وشكلٍ منبسطٍ تنفتح له النفس، ولعل أهم علامةٍ فارقةٍ تميز الحكمة هي الانبساط الدائم؛ ذلك أنها مثل الأشياء التي وراء القمر، تبدو دائمًا هادئةً صافيةً. إن الخوض في التُّرّهات وما انعدمت جدواه، هو ما يصيب منه الخائضَ فيه ما يشبه دخان الكير ورماده، لا الحكمة التي بالكادِ سمعوا بها، أما ما تصلح له الحكمة فهو كبحُ عواصف الروح، وجعل المرء يضحك من الجوع والحمى، ليس عبر شطحاتٍ خياليةٍ بل بناءً على حُججٍ طبيعيةٍ ملموسةٍ، وأما هدفها فهو الفضيلة، التي ليست كما يقال عنها في المدارس مغروسةً على قمة جبلٍ صعب المُرتَقَى لا يستطيع كل الناس صعودَه.

(1) لعله ديمتريوس إكسيون، وهو نحوي إسكندري ذكره بلوتارخوس في كتابه «المتنبئون الذين كفوا»، الذي ترجمه أميوت، والذي لا شك أن مونتيني اطلع عليه.

(2) Juvénal, **Satires**, IX, 18-20.

62. أما الذين قاربوا الفضيلة فيقولون عنها إنها على عكس ذلك، تقوم على هضبةٍ خصبةٍ مُزهِرةٍ، ترى من أعلاها كل الأشياء الأخرى التي تشرف عليها، ومن يعرف أين تقع تلك الهضبة بإمكانه أن يبلغها عبر طرقٍ ظليلةٍ مفروشةٍ عشبًا وزهورًا، يمضي فيها مرتاحًا؛ لأن السفح منبسطٌ والصعود لطيفٌ كصعود قبةِ السماء، وقد أخفقوا في الألفة مع هذه الفضيلة العليا الجميلة المنتصرة المحبة اللذيذة المقدامة، العدوِّ اللدود للمرارة والحزن والخوف والإكراه، التي لا دليل لها تتَّبعه إلا الطبيعة، ولا رفيق لها سوى السعادة والحبور؛ ذلك ما جعلهم لضعفهم يعطون للفلسفة تلك الصورة الحزينة المشاكسة الحانقة المهددة المكفهرة، ويضعونها على صخرةٍ منعزلةٍ بين الأشواك، كشبحٍ صُنِعَ خِصِّيصًا لإخافة الناس وإرعابهم.

الشِّعر

63. وسيحرص صاحبنا المؤدِّب -الذي يعرف أن من مهمته تكوين إرادة تلميذه بطريقة فيها من حُبِّ الفضيلة مثل ما فيها من احترامها أو أكثر- على أن يقول لتلميذه إن الشُّعراء يتَّبعون هم أيضًا المشاعر العامة، ويجعله يدرك أن الآلهة قد وضعت من العرَق في الطريق المفْضية إلى مَخدع فينوس ما لم تضعه تلك التي تؤدي إلى منزل مينرفا[1]، حتى إذا رآه قد استأنس بمثل هذه الأشياء قدَّمَ إليه برادامانتا أو أنجليكا[2] عشيقتين معروضتين على حبه، أُولاهما جميلةٌ جمالًا طبيعيًّا نشطًا سخيًّا ليس فيه رجولةٌ بل فحولةٌ، والثانية ذات جمالٍ رخوٍ نادرٍ رقيقٍ مصطنعٍ، الأولى متنكرةٌ في زَيِّ غلامٍ يعتمر قبعةً لامعةً، والثانية في زيِّ فتاةٍ تتحلى بطاقيةٍ مزينةٍ باللآلئ، وسيحكم على حبه بأنه حبٌّ

(1) تمثل فينوس الجمال فيما تمثل مينرفا الحكمة، وهما طبعان مختلفان إن لم نقل متناقضان من طباع المرأة، وهذا ما سيبسط فيه مونتيني القول في ما يلي، في أسلوب أقل ما يقال فيه أنه متحذلق.

(2) هما بطلتان في رواية «رولاندو الغاضب» لأريوستو، وترمز أولاهما إلى الجمال «الفحل»، فيما ترمز الثانية إلى الجمال «الرخو»، وقد وقعت أنجليكا «البالغة الأنوثة» التي رفضت ودّ كبار الأبطال، في حب رجلٍ مجهولٍ.

فحُل إن هو رآه اختار عكس ما اختاره ذلك المخنث قس فريجيا[1]، ثم يعلمه شيئًا جديدًا مفاده أن قيمة وعظمة الفضيلة تكمن في سهولتها وفائدتها والمتعة التي يجدها المرء فيها، وأنها من السهولة واليسر بحيث يستطيع الأطفالُ بلوغَها، مثلما يستطيع الكبار والناسُ البسطاء، مثلما يستطيع ذوو العقول الراجحة؛ ذلك أن طريقتها في الاشتغال تقوم على الاعتدال لا العنف.

64. وقد اختار سقراط، الذي كان أول من اصطفته الفلسفة، أن يتخلى عن كل جهدٍ وأن يستسلم لهذه المعلمة ويتبني منهجها الطبيعي. الفلسفة هي الأم المغذية لكل المتع البشرية؛ فهي إذ تجعلها معتدلةً تجعلها آمنةً صافيةً. وإذ تكبح من جماحها تحفظ لها لذتها وتُبقي على اشتهائها، وهي إذ تمنع عنا المتع التي تحرمها علينا تزيد من شهيتنا لتلك التي تبيحها لنا، وتترك لنا الكثير مما تمنحه الطبيعة فننهل منه حتى الشبع وإلَّا فحتى السأم، اللهم إلَّا إذا اعتبرنا أن ما يدفع الشارب إلى التوقف قبل السّكر، والآكل إلى التوقف قبل سوء الهضم، والفاسق إلى الارتداع قبل العجز، وكلها تصرفاتٌ عدوةٌ لمُتَعِنا! وإذا كانت المتعة العامة المبتذلة تنقصها، فإنها تنفلت منها أو تستغني عنها لتصنع لنفسها متعةً خاصةً بها، وهي متعةٌ ليست بالعائمة ولا التي تَميد؛ لأنها تعرف كيف تكون غنيةً قويةً عالمةً، وكيف تنام على أسِرَّةٍ معطرةٍ.

65. إن الحكمة تحب الحياة وتحب الجمال والمجد والصحة، غير أن مهمتها الخاصة تتمثل في أن تعرف كيف تستعمل هذه الخيرات باعتدالٍ وكيف تُضيعها دون أن تتغير، وهي مهمةٌ فيها من النبل أكثر مما فيها من الصعوبة، لا مَحيدَ عنها وإلَّا اعوَجَّ مسارُ الحياة وانحرف وفسد، وعندئذٍ يمكن أن نربط بها هذه العقبات والأدغال والوحوش -التي ذكرتها آنفًا. فإذا كان التلميذ من الغرابة بحيث يفضل سماع طُرْفَةٍ على الإنصات لحكاية رحلةٍ ممتعةٍ أو كلامٍ حكيمٍ متى أصبح قادرًا على

(1) يقصد بقوله هذا شخصية باريس بن برياموس الأسطورية، وكان قد منح جائزة الجمال لأفروديت (فينوس) عوضًا عن بالاس (مينرفا) أو هيرا (يونو)، وقد دفع الحنق هذه الأخيرة إلى أن تصبح الخصم اللدود للطرواديين في الحرب التي تلت اختطاف باريس للجميلة هيلينا زوجة اليوناني مينيلاوس.

فهمه، وإذا كان يفضّل على صوت الطبل الذي يستنهض هِمَمَ رفاقه صوتَ طبلٍ آخر يدعوه إلى التسلية والترفيه، وإذا كان ذوقه يجعله يَستَلِذُّ العودة من لعبة كفٍّ أو رقصة باليه -وهو يحمل الجائزة التي فاز بها من تلك الممارسة- أكثر مما يستلذّ العودة مغبَرًّا منتصرًا، فلست أرى من حلٍّ غيرِ استيداعه لدى من يعلمه صنع الحلوى في مدينةٍ ما، حتى ولو كان والده دوقًا، متَّبعين في ذلك نصيحة أفلاطون بأن نعطي للطفل مكانًا في المجتمع، ليس بناءً على موارد أبيه، بل على موارد عقله.

66. لما كانت الفلسفة هي ما يعلمنا كيف نعيش، الطفولة نفسها، كمثل جميع الأعمار، لها ما تتعلمه منها، فما المانع من تعليمها إياها؟

«الطين رخوٌ مَبلولٌ، فوَجَبَ أن نسرع
ولتُشكِّلْه العجلةُ المرنة وهي تدور»[1].

67. إنهم يعلموننا العيش حين تكون الحياة قد مضت، وكم من طالبٍ أصيب بالجُدري قبل أن يبلغ في دراسته درس أرسطو الذي يعلمه الاعتدال! وقد كان شيشرون يقول إنه حتى ولو مُنح حياة رجلين فلن يَتَجَشَّمَ أبدًا عناءَ دراسة الشعراء الغنائيين[2]، وأنا أرى أن مَن يمكن أن ندعوهم بالمتفلسفين هم أقل جدوًى وفائدةً حتى من أولئك الشعراء، والطفل الذي أتحدث عنه أَضَنُّ بوقته من شيشرون، فهو لا يَدين للتربية بغير السنين الخمس عشرة أو الست عشرة الأولى من حياته، أما الباقي فيَدين به للعمل، فانزعْ الأشياء الزائدة، مثل دقائق الكلام الجدلي التي لا أثرَ لها في حياتنا، وخُذْ إليك المسائلَ البسيطة التي تُعنى بها الفلسفة، فاخترها وعالجها كما ينبغي؛ فإنها أسهل فهمًا من حكايات بوكاتشيو[3]، وإن بمقدور الطفل استيعابها بمجرد أن يفارق مُرضعته، بأفضل وأيسر مما يستوعب دروس الكتابة والقراءة؛ فالفلسفة تعالج المسائل المرتبطة بالسنوات الأولى من عمر الإنسان، كما تعالج مسائله وهو في أرذل العمر.

(1) Perse, **Satires**, III, 23-25.

(2) Cicéron, in Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, XLIX, 5.

(3) هو كاتبٌ إيطاليٌ من القرن الخامس عشر، اشتهر بمؤلفه الرئيس الديكاميرون، الذي يُعدُّ الكتاب المؤسس للقصة القصيرة في الغرب.

68. أنا لا أوافق بلوتارخوس الرأي، فأرسطو لم يُولِ لتعليم تلميذه النجيب[1] فنَّ بناء المغالطات المنطقية أو مبادئ الهندسة من الأهمية، ما أولاه لتعليمه مبادئ الإقدام والشجاعة والكرم والاعتدال، وإعطائه الثقة التي تكون في نفس من لا يخاف شيئًا، وبهذا الزّاد أرسل الشابَّ ليُخضع العالم كله بثلاثين ألف مقاتل وأربعة آلافٍ من الخيل واثنين وأربعين ألف قطعةٍ نقديةٍ فحسب، أما الفنون الأخرى -كما يقول بلوتارخوس- فقد كان الإسكندر الأكبر يحترمها ويمتدح تفوُّقها ونبلها، لكنه رغم المتعة التي كان يجدها فيها لم يكن بالرجل الذي ينساق وراءها إلى درجة الرغبة في ممارستها.

«أيها الشباب والشيوخ، خذوا هنا قاعدة جيدة للسلوك وزادًا لسنِّ المشيب، أرذلِ العمر»[2].

69. وهذا هو ما قاله إبيقوروس في بداية رسالته إلى مينويكوس: «على أصغر الشباب سنًّا ألَّا يمتنع عن التفلسف، وعلى أكبر الشيوخ سنًّا ألَّا يملَّ التفلسف، ومن يفعل غير ذلك فكأنه يقول إن الوقت لم يَحِنْ بعدُ للعيش في سعادةٍ، أو إن وقت ذلك قد فات».

70. واعتبارًا لكل ما قلناه، لا أريد لهذا الفتى أن يُسجن في مدرسةٍ، ولا أن يُسلَّمَ إلى مُعَلِّمٍ مخبولِ العقل حادِّ الطبع سريعِ الغضب، لا أريد إفساد عقله بإخضاعه لعذاب الشغل كالآخرين أربع عشرة أو خمس عشرة ساعةً في اليوم، وكأنه حمَّالٌ في سوقٍ، فإذا لوحظ أنه غارقٌ أكثر من اللزوم في قراءة كتبه من أثر ميله الطبيعي للوحدة والحزن، فلا أرى أن من المفيد تشجيع هذه الميول لديه؛ لأن ذلك يجعل الطفل عاجزًا عن المشاركة في الحياة الاجتماعية ويَصرِفُه عن مشاغل أهم بكثيرٍ، ولَكَمْ رأيتُ في أيامي من أُناسٍ ذهب التعطش المفرط للمعرفة بحصافتهم ورجاحة عقولهم، فصاروا كالأغبياء لا يفقهون! وقد أفرط كارنياديس القوريني في ذلك إفراطًا جعله لا يجد وقتًا لقصِّ شعره ولا لتقليم أظافره!

(1) يتعلق الأمر بالإسكندر الأكبر، وسيذكره مونتيني بالاسم في ما بعد.

(2) Perse, Satires, V, 5, 64.

71. ولا أريد كذلك للفطرة السليمة للطفل أن تفسدها غِلْظة طبع الآخرين وعنفهم، وقد كانوا يقولون قديمًا عن الحكمة الفرنسية -في مَثَلٍ كان مُتداوَلًا- إنها تبدأ باكرًا لكنها لا تدوم طويلًا، ولا جدال اليوم في أن صغار الفِتْية الفرنسيين يبدون للوهلة الأولى أذكياء نابهين، لكنهم في الغالب سرعان ما يخيِّبون ما وُضع فيهم من آمال، فحين يبلغون سن الرشد لا يجد المرء لديهم ما يستحق الاهتمام، وقد سمعت أناسًا ذوي حصافةٍ ورجاحةِ عقلٍ يقولون: «إن المدارس التي يُرسل إليها أولئك الصغار -وما أكثَرَها!- هي التي تجعل منهم أغبياء بهذا الشكل».

72. وليكن لتلميذنا غرفةٌ وحديقةٌ وطاولةٌ وسريرٌ، وليكن له في الوحدة كما في الرفقة، صباحًا ومساءً، في كل ساعةٍ وكل مكانٍ قاعةٌ للدرس؛ ذلك أن الفلسفة التي ستكون أهم مواضيع دراسته -بحكم أنها هي التي تشكل حكمه على الأشياء وطبعه- لديها ميزة القدرة على التغلغل في كل مكانٍ، وقد أصاب الخطيب إيسُقراطيس حين أجاب من طلبوا منه أن يتحدث عن فنِّه خلال حفلٍ، فقال لهم: «ليس هذا وقت إظهار ما أعرف فعله، أما ما ينبغي إظهاره الآن فلست أتقنه».

73. وقد كان الرجل محقًّا؛ لأن الحديث عن الخطابات الطويلة والمقارعات البلاغية في حفلٍ اجتمع الناس فيه ليلهوا ويأكلوا ويشربوا، هو من قبيل الجمع بين شيئين مختلفين حدَّ التناقض، ويمكن أن نقول الشيءَ نفسه عن باقي الفنون والمعارف. أما الفلسفة، لما كان موضوعها هو الإنسان وواجباته وأعماله، فإن الحكماء جميعَهم كانوا دائمًا يرون أنها صالحةٌ لكل حوارٍ، وأنها لذلك لا ينبغي أن تُستبعد من قاعةِ حفلٍ ولا من ميدان لَعِبٍ. وحين دعاها أفلاطون إلى مائدته[1] رأينا كيف أنها تتحدث إلى الحضور في هدوءٍ وانسجامٍ مع الزمان والمكان، وذلك رغم أن مواضيعها دائمًا من أرفع المواضيع قدرًا وأعمِّها فائدةً.

«إنها نافعةٌ للفقيرِ نفعَها للغني
ومن أهملها، شابًّا كان أم شيخًا، لا بد سيندم على إهماله»[2].

(1) «المائدة» عنوان إحدى محاورات أفلاطون، وكان سقراط من المتكلمين في هذا الحوار.

(2) Horace, **Épîtres**, I, 1.

74. هكذا فإن دروس تلميذي ستكون أطول في الزمنِ من دروس أترابه، لكن كما أننا حين نتجول معًا في رواقٍ نخطو -بلا مللٍ- عددًا من الخطوات أكبر بثلاث مراتٍ مما كنا سنفعل لو أننا كنا نتبع طريقًا مرسومًا مسبقًا، فإنَّ دَرسَنا -الذي يأتي وكأنه جاء عن طريق المصادفة دون إكراهٍ في الزمان ولا في المكان- سيمرّ دون أن يشعر التلميذ به، حتى الألعاب والتمارين الرياضية ستكون جزءًا غيرَ ضئيلٍ من الدراسة، بما فيها السباق، والمصارعة، والموسيقى، والرقص، والقنص، وركوب الخيل، وحمل السلاح. أريد المظهر الخارجي اللائق، وطريقة التصرف في حضور الناس، ومرونة الطبع، أن تتشكل جميعها في آنٍ واحدٍ مع العقل.

75. إننا لا نكوّن روحًا ولا جسدًا بل نكون رجلًا، ولذلك فلا ينبغي أن نعالج كلًّا من الروح والجسد على حدة، وكما يقول أفلاطون: «لا ينبغي أن نعمل على تكوين أحدهما دون الآخر، بل أن نقودهما معًا بإيقاعٍ واحدٍ، كحصانينِ مشدودين إلى عربةٍ واحدةٍ» وإن نحن فهمناه جيدًا، ألا يبدو أنه يعطي للتمارين البدنية وقتًا واهتمامًا أكبر مما يعطي للتمارين الذهنية؛ لأن العقل يستفيد منها مثل استفادة الجسد، على حين أن العكس غير صحيحٍ؟

صرامةٌ لطيفةٌ

76. وفي جميع الأحوال، ينبغي أن يكون لدى رائد الدراسة صرامةٌ لطيفةٌ، وليس كما يفعلون؛ فهم عِوضًا عن أن يحببوا إلى الأطفال دراسة الآداب لا يقدمون لهم إلا مشاهدَ الرعب والقسوة؛ فانزع العنف والقوة مما يدرس الطفل؛ لأني لا أعرف شيئًا يفسد الطبع السليم بمثل ما يفسدانه به، وإن شئت للطفل أن يخشى العار والعقاب فلا تجعله يألفهما! اجعله يألف عِوضًا عن ذلك تحَمُّل العرق والبرد والريح والشمس، ويتعلم ازدراء الخطر، انزع عنه حب الأشياء الرخوة المريحة في ملبسه ومنامه ومأكله ومشربه، اجعله يألف كل شيءٍ؛ كيْلا

يكون طفلًا جميل الطلعة مُخنَّث الطبْع، بل طفلًا أخضرَ العود صُلبَهُ في آنٍ واحدٍ. وقد كنت في طفولتي وكهولتي وما زلت في شيخوختي أرى هذا الرأي. لكن -ومن بين أشياء أخرى- ينبغي أن أقول إن الطريقة التي ينتهجونها في أغلب مدارسنا لم تعجبني يومًا قطّ، ولقد كان بالإمكان التسبُّب في ضررٍ أقلَّ لو استُعمِل في ذلك بعضُ التساهل: لأن تلك المدارس على حالها ليست سوى زنازينَ حقيقيةٍ لشبابٍ أسيرٍ.

77. وهم يجعلون من هؤلاء الصِّغار فاسقينَ منحلّين بمعاقبتهم حتى قبل أن يصبحوا كذلك، ومن يحضر ساعة الدرس لن يسمعَ سوى الصراخ، صراخ الأطفال وهم يتعرّضون لسوء المعاملة، وصراخ معلميهم الغاضبين، وتلك لعمْري أسوأ وسيلةٍ لتحبيب الدرس إلى من في تلك السن اليانعة الخجولة، بملاقاته بوجهٍ متجهّمٍ ويدٍ تحْمل السَّوط! إنها مجرد عادةٍ فيها من الظلم بقدر ما فيها من الخطر، ولنُضِفْ إلى هذا ملاحظة كينتيليانوس*[1] الصائبة، التي مفادها أن تلك السلطة الغاشمة تفضي إلى مصائب، وخصوصًا ما تعلق منها بالعقوبات المطبَّقة. أليس من الألْيق أن يكون الفصل الدراسي مزينًا بالزهور والأغصان عوضًا عن قضبان الخيزُران المخضبة بالدماء؟ لو كان الأمر يعود لي لكسوت جدران فصل الدراسة بلوحاتٍ تمثل الفرح والسرور، كما فعل ذلك الفيلسوف سبيوسيبّوس*[2] في مدرسته، فما ينبغي هو أن يجد الطفل المتعة حيث يجد الفائدة. يجب أن نضع سكرًا على الطعام الذي نرجو أن ينفع الطفل، وفُلفلًا على الطعام الذي نخشى أن يضره.

78. من المثير للإعجاب ما يلاحظه المرء من اهتمام أفلاطون في كتاب «الشرائع» بمباهج شبان مدينته ومسرّاتهم، وعنايته بسباقاتهم وألعابهم وأناشيدهم وقفزهم ورقصهم، وهو يقول إن الناس كانت -في الزمن الغابر- تَعهَدُ بقيادة الشباب ورعايتهم إلى الآلهة نفسها، أي أبولّون ومينرفا وربات الإلهام، كما أنه يدفع بهذا الانشغال إلى حد أنه

(1) * ماركوس فابيوس كينتيليانوس (35م – بعد 96م) خطيب ومعلم روماني.

(2) * سيبوسيبّوس (توفي 338/339 ق.م) هو فيلسوف إغريقي، كان ابن أخت الفيلسوف أفلاطون، وترأس من بعده الأكاديمية التي أنشأها.

خَصَّ قاعات الرياضة بعددٍ كبير من التعاليم والنصائح، غير أنه في مقابل ذلك لا يولي إلا قليلَ اهتمامٍ للدراسات الأدبية، ويبدو وكأنه لا يوصي بدراسة الشعر إلا من أجل الموسيقى التي تصاحبه.

79. علينا تفادي كل نوعٍ من السلوك الغريب غير المعهود؛ لأنه عدوٌ للتواصل مع الناس ولأنه معاكسٌ للطبيعة -ومن لا يستغرب طبع ديموفون -القَيّم على قصر الإسكندر- الذي كان يعرق في الظل ويرتعد بردًا تحت الشمس؟ ولقد رأيت أناسًا ترعبهم رائحة التفاح أكثر من صوت إطلاق البنادق، وآخرين يفزعون لمنظر فأرٍ، وغيرهم يصابون بالغثيان لمجرد رؤية القشدة أو رؤية شخصٍ ينفض لحافًا من الريش، ومثلهم جرمانيكوس*[1] الذي كان لا يطيق رؤية الديك ولا صوت صياحه، ويبدو أن ذلك كله يرجع إلى نوع من الاستعداد الخفيّ، لكني أعتقد أن بالإمكان تخليص المرء منه إن تمت معالجته باكرًا[2]. وقد كان من تأثير التربية في شخصيتي أن شهيتي تنفتح لكل ما يأكله الناس عادةً باستثناء الجعة، غير أن هذا لم يأتِ من فراغٍ بل ألفته النفس مع التربية.

80. يجب العمل -حين يكون الجسم ما زال غضًّا طريًا- على إيلافه مطاوعةَ كلِّ وضعٍ وكل عادةٍ، شريطةَ أن يبقى المرء متحكمًا في نوازعه ورغباته، وألَّا نتردد في جعل الشاب قادرًا على الشعور بالارتياح في أي بلدٍ كان ومع أي رفقةٍ كان، وحتى على احتمال الاختلال والإفراط عند الضرورة. ليكنْ سلوكه منسجمًا مع ما جرت عليه العادات، وليَكُنْ قادرًا على فعل كل شيءٍ لكن كارهًا للشر عازفًا عن فعله، وقد لام الفلاسفة أنفسُهم كاليستينيس*[3] على كونه فقد الحظوة عند سيده الإسكندر الأكبر بسبب رفضه أن يشرب مثله؛ لذلك فعلى التلميذ أن يتعلم كيف يضحك ويتحامق ويساير أميره حتى في مُجونه، وحتى في المجون ينبغي له أن يُجاوز أقرانه في الحيوية والعزم، وأن يتجنب فعل

(1) * جرمانيكوس (15/16 ق.م – 19/10 م) كان قائدًا رومانيًا، وابن الإمبراطور الروماني تيبيريوس بالتبني.

(2) يبدو أن مونتيني يصف هنا أعراض الربو وما نعرفه اليوم تحت اسم «الحساسية»، غير أنه يميل إلى التعامل معها بنوعٍ من الاحتقار!

(3) * كاليستينيس (360 ق.م تقريبًا – 327 ق.م تقريبًا) مؤرخ إغريقي، كان خاله الفيلسوف أرسطو، وصحب الإسكندر في حملاته العسكرية في آسيا.

الشر لا عجزًا منه ولكن بفضل إرادته وحدها.

«إن هناك فارقًا بعيدًا بين من يمتنع عن فعل الشر ومن يجهل كيف يقوم به»[1].

81. وقد سألتُ ذات يوم رجلًا نبيلًا بعيدًا عن مثل هذه التجاوزات بقدر ما يمكن أن يبعد عنها فرنسيّ، وقد كنا يومئذٍ في صحبةٍ لطيفةٍ. سألته كم مرةٍ في حياته ثمل مضطرًا لإرضاء الملك في الأراضي الألمانية. ولم أكن أقصد بكلامي غمزًا فيه، وقد أدرك هو قصدي، فأجابني أن ذلك قد وقع له ثلاث مراتٍ حسب ما روى. وقد عرَفت من الناس من أوقعهم عجزهم عن مثل هذا في ضيقٍ وحرجٍ كبيرٍ في معاملاتهم مع تلك الأمة. ولطالما أعجبت بالطبيعة العجيبة التي كان عليها ألكيبياديس، والتي كانت تمكّنه من التحوّل بطرقٍ متنوعةٍ شديدة التنوع دون أن يخشى على صحته؛ فقد كان تارةً يفرط في الترف والبذخ حتى يجاوز بذلك ترف الفرس وبذخهم، وتارةً يُغرِق في الزهد والتقشف حتى يجاوز فيهما الإسبرطيين، فكان في إسبرطة زاهدًا بقدْر ما كان في إيونيا باذخًا. **«لقد رَوَّضَ أريستيبّوس نفسه على كل شيء، من لباسٍ وظروفِ عيشٍ وتقلُّبات حظٍ»**[2].

82. هكذا أريد لتلميذي أن يكون تكوينه.

«سيثير إعجابي من يَلتَفِعُ في صبرٍ
بمِزقَتَينِ من الثوب، إن كان يروّض نفسه على كل تغييرٍ
في حياته، وإذا كان يلعب الدورَين معًا بإتقانٍ»[3].

وهذه وصاياي في هذا الشأن، ومن يطبقها يستَفِدْ منها خيرًا ممن يكتفي بمعرفتها، فما يراه المرء يفهمه، وما يفهمه يراه.

83. وقد استنكر بعضهم -في ما يروي أفلاطون- أن تتمثل الفلسفة في

---

(1) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, XC.

(2) Horace, **Épîtres**, I, XVII, 23.

(3) Horace, **Épîtres**, I, 17, 25, 26, 29.

معرفة الكثير من الأشياء ومعالجة الآداب والفنون مع ذلك كله! «**هذا الفن الأهم من الفنون جميعًا، والمتمثل في إتقان فنّ العيش، إنما تعلّموه من عيشهم لا مما درسوه**»[1].

84. وقد سأل ليونوس أمير مدينة فليوس[2] هيراقليدس البُنطي*[3] أيّ فنٍّ أو علمٍ يمتهنه فأجابه: «لا أعرف فنًا ولا عِلمًا، بيد أنّي فيلسوف»[4].

85. وقد لام بعضهم ديوجينيس على انشغاله بأمور الفلسفة وهو رجلٌ جاهلٌ، فأجاب: «إنما يزيدني جهلي انشغالاً بها».

86. وسأله هيجيسياس*[5] يومًا أن يقرأ له كتابًا فأجابه: «أنت تضحكني يا هذا، إنّ التين الذي تأكله تينٌ حقيقيٌّ طبيعيٌّ، فأنت لا تأكل التين المرسوم على اللوحات، فلماذا لا تختار كذلك الأعمال الطبيعية الحقيقية لتتأملها عوضًا عن الأعمال المكتوبة؟».

87. لن يستعرض التلميذ دروسَه على معلمه، بل سيمارس تلك الدروس، سيستعرض درسه أعمالاً لا أقوالاً، وسنرى من خلال ذلك ما إذا كان محترسًا في أفعاله، طيبًا عادلًا في سلوكه، حصيفًا في حكمه فصيحًا في نطقه، صبورًا مقاومًا في مرضه، متّزنًا في ألعابه، معتدلاً في مُتَعِه، مرتّبًا في تدبير ماله وأملاكه، غير مبالٍ في ذوقه باللحم ولا السمك ولا النبيذ ولا الماء. «ألاّ يجعل من علمِه موضوعًا للتفاخر والتباهي، بل قاعدةً لحياته، وأن يعرف كيف يطيع نفسه ويخضع لمبادئه»[6].

88. إن المرآة الحقيقية لأفكارنا هي مسير حياتنا.

---

(1) Cicéron, **Tusculanes**, IV, 3.

(2) هي مدينة تقع في إقليم أرغوس باليونان.

(3) * هيراقليدس البُنطي (390 ق.م تقريبًا – توفي بعد 322 ق.م) فيلسوف وفلكي إغريقي، كان أول من قال بدوران الأرض حول محورها.

(4) ربما خلط مونتيني هنا بين شخصين، إذ إنّ صاحب هذه المقولة هو فيثاغوراس وقد رواها عنه هيراقليدس.

(5) * هيجيسياس القوريني، فيلسوف إغريقي، عاش في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد.

(6) Cicéron, **Tusculanes**, II, iv.

89. سأل أحدهم زيوكسيداموس*[1] لماذا لا يكتب الإسبرطيون قواعد الإقدام والشجاعة كي يقرأها شبانهم، فأجابه إنهم كذلك يفعلون لأنّهم يريدون إيلافَهم الأفعالَ لا الأقوال. ولك أن تقارن بين هؤلاء الشباب في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، وبين نظرائهم من مرتادي المدارس، الذي يستهلكون هذا الزمن كله في تعلم الكلام وحده! لقد صار العالم ثرثرةً فحسب، ونحن كثيرًا ما نتكلم أكثر مما ينبغي لنا الكلام، ونِصفُ حياتنا يمضي في مثل ذلك! وهم يأخذون من عمرنا أربع سنواتٍ أو خمسًا لنتعلم كيف نفهم الألفاظ ونركّب الجمل، ونظيرها لنتعلّم كيف نبني بنِسَبٍ محدّدةٍ مجموعةً مكوّنةً من أربع قطعٍ أو خمس، ومثلها أيضًا لنعرف كيف نجمع تلك القطع معًا ونركّبها ونعطيها شكلاً معيّنًا. فلنتركْ هذا كله لمن اتّخذوه مهنةً لهم!

90. كنت يومًا في طريقي إلى مدينة أورليان، فصادفت في سهل «كليري» رجليْن من المعلمين كانا قادمَين من مدينة بوردو، وكان أحدُهما يسيرُ على نحو خمسين خطوةً خلف الآخر، وبعيدًا خلفهما أبصرتُ كوكبةً من الفرسان وعلى رأسها السيد كونت لاروشفوكو الراحل، وقد سأل أحدُ رجالي المعلّمَ الذي كان يسير أمام الرجل النبيل الذي كان يسير خلفه، ولما كان الرجل لم يرَ بعد كوكبة الفرسان فقد حسب الكلام يدور على صاحبه، فقال: «كلا، إنه ليس برجل نبيل، بل هو نحويٌّ من النحاة، وأنا منطقيٌّ من المناطقة». أما نحن الذين لا نتوخى تكوين نحويٍ ولا منطقيٍ بل تكوينَ رجلٍ نبيلٍ، فما علينا إلا أن نتركهم يُضيعون وقتهم كما يشاءون؛ لأنّ لنا شغلاً شاغلاً غيرَ ذلك.

91. إذا كان لتلميذنا مَتاعٌ كافٍ من المعرفة والحكمة، فإنّ الكلمات لن تتوانى عن مطاوعته، فإن لم تفعل عَرَفَ هو كيف يطوّعها ويسحبها خلفه إنْ هي استعصت عليه. وإني أسمع من حين لحين رجلًا يعتذر أمام الناس لعجزه عن التعبير؛ لأنّه يريد أن يبدوَ بمظهر الرجل الذي يعرف الكثير من الأشياء المفيدة لكن تنقصه المَلَكَةُ البلاغية للتعبير عنها وبسطِها، وما ذاك إلا كذبٌ وخداعٌ، فإنْ شئتَ رأيي في الأمر قلتُ

(1) * ملك إسبرطي.

لك إنها فحسب مظاهر خارجيّةٌ لأفكارٍ مُبهمةٍ متشابكةٍ في أذهانهم، لا يستطيعون لخليطها فكًّا ولا لغموضها بيانًا في أنفسهم، فهم لذلك يعجزون عن تصريفها إلى الخارج والتعبير عنها، إنهم عاجزون حتى عن فهم أنفسهم! وانظر كيف يشْرع أحدهم في التأتأةِ بمجرد أن يحاول التمخُّض عن فكرةٍ ما، لتدرك كيف أنّ مخاضَه لم يبلغ به بعد مرحلة الوضع، بل ما زال في طور التكوين، وأنه لا يعدو أن يهدهد في البطن جنينًا غير مكتمل النموّ، وأما عني أنا فإني أرى -وقد قرَّر سقراط ذلك قبلي- أنّ مَن كانت الفكرة في ذهنه قويةً واضحةً فمحالٌ أن يعجز عن التعبير عنها باللسان الذي يتكلم به، وإلا فبالإشارة إن هو كان أبكم:

«متى كان المرءُ متمكّنًا من موضوعه
فإن الكلمات تأتيه طيِّعةً»[1].

.92 وقد قالها الآخر نثرًا لكن في أسلوبٍ لا يقل شاعريّة: «متى استحكمت الأشياء في العقل فإنّ الكلمات تأتي في يُسرٍ»[2]. وقال غيره: «إنّ الأشياء من تلقاء نفسها تجرّ خلفها الكلمات»[3].

وهذا رجلٌ لا يعرف ما الموصوف وما الصفة، ولا يميز بين بَدَلٍ وعَطفِ بَيانٍ ولا بين عُمدَةٍ وفُضلَةٍ[4]، بل ولا يعرف حتى ما النحو، وخادمه ليس بأعلم منه ولا أيضًا بائعة السمك على الجسر، لكن ثلاثتهم قادرون على الحديث إليك ما شئت الحديث، دون أن يتلعثم أحدهم في قواعد لسانه بأكثر مما يتلعثم أفضل أساتذة الأدب في فرنسا، وثمة آخر لا يعرف ما البلاغة ولا ما البيان، ولا يدري كيف يكسب ودًّ من يصغي إليه، لكنه لا يهتم لمعرفة ذلك، فهذا ليس في الواقع سوى قشورٍ زائفة الجمال، لا تلبث الحقيقة الطبيعية البسيطة أن تمحوَها بنصاعتها محوًا.

.93 إنّ مثل هذه الترَّهات لا تصلح سوى لتسلية أناسٍ غير قادرين على

(1) Horace, **Art Poétique**, v. 311.

(2) Sénèque, **Controverses et déclamations** (latin), III, Proemium.

(3) Cicéron, **De finibus**, III, v.

(4) يستعمل مولتيني هنا الحالات الإعرابية اللاتينية لإيصال فكرته، وقد ارتأينا أن نتخذ في مقابلها أمثلة مما يفهمه الناطق العربي.

تغذية عقولهم بغذاء أفضل منها وأمتن، ولنا في ذلك مثال في حكاية «آفير» لدى تاسيتوس، حيث جاء مبعوثو ساموس إلى كليومينس ملك إسبرطة وقد أعدّوا خطابًا طويلاً يستحثونه فيه على محاربة الطاغية بوليكراتس*[1]. وقد استمع إليهم الملك حتى انتهوا فقال لهم: «أما عن مقدمتكم وبسطكم للموضوع فلست أذكر منه شيئًا، وكذلك ما أفضتم فيه من كلامٍ في وسط حديثكم، وأما ما خلصتهم إليه من نتيجةٍ فأذكره لكني لا أهتم به»، وأنا أرى في هذا جوابًا مُفحِمًا، وأرى خطباء ضاع سعيهم سُدًى!

94. وإليك هذه أيضًا: كان على الأثينيين الاختيار بين مهندسَين للقيام ببعض الأشغال الكبرى، فقام أحد الرجلين -وهو رجلٌ طليق اللسان يُحسِن التعبير- فشرع يتلو على الحاضرين خطابًا منمّقا أعدّه للمناسبة، فلما انتهى بدا أن كفّته راجحةٌ وأنه ربح الجميع لصفّه، حتى قام الآخر فكسب الجولة بكلماتٍ معدودةٍ لم يزِدْ عليها، إذ قال: «أيّها السادة الأثينيون، كلّ ما قاله هذا الرجل سأفعله».

95. حين كان شيشرون يستعرض قدراته البلاغية، كان أغلب الناس يُعجَبون به، إلا كاتو الأوتيكي الذي كان يضحك منه قائلًا: «إن لدينا قنصلاً مُمتِعًا». إن المثل المفيد والكلامَ حَسَنَ النظم مقبولان في كلّ زمانٍ ومكانٍ، فإنْ لم يناسب ما سبقه ولا ما جاء بعده فإنه يكتفي بنفسه عن غيره، وأنا لست ممن يرون أن الإيقاع الجيد يصنع قصيدةً جيّدةً، فاترك الشاعر يطيل مقطعًا صوتيًا في قصيدته إن هو شاء؛ لأنّ ذلك لا أهمية له، فإذا جاءت الصور في القصيدة جميلةً وكان للعقل والحكم المنطقي فيها أثرٌ، فسأقول إنّ صاحبها شاعرٌ مُجيد لكنه لا يحسن النظم.

«إن في شِعْره طلاوة بيد أنه متكلَّف»[2].

96. كان هوراتيوس يقول: انزع عن عملٍ شعريٍّ كلّ علاقاته الداخلية ومقوماته الإيقاعية.

(1) * هو بوليكراتس طاغية جزيرة ساموس، امتد حكمه فيها ما بين عامي 535 ق.م تقريبًا و522 ق.م.

(2) Horace, **Satires**, I,4, v.8.

«انزع الإيقاع والوزن، وغيِّر ترتيب الكلمات
واجعلْ في النهاية ما كان في البداية
فستبقى أشلاء الشاعر موجودةً كلها وإنْ كانت مبعثرةً»[1].

رونْسار ودو بيليه

97. لن تفقد القصيدة قيمتها كلها؛ لأنّ قطعها المتناثرة تحتفظ بجمالها، هذا ما أجاب به ميناندروس حين نبهوه إلى اقتراب اليوم الذي وعد بأن يقدم فيه مسرحيةً فيما هو لم يبدأ تأليفها بعد، فقال لهم: «لقد انتهيت من نظمها وهي جاهزةٌ، فلم يبق إلا أن أضيف إليها الأبيات»، فلما كان الموضوع والمادة حاضرين في ذهنه، لم يكن يهتم للباقي إلا قليلًا، ومنذ أن أعطى رونسار ودو بيليه لشعرنا الفرنسي مصداقية، لم يوجدْ شُوَيعِرٍ ولا شَعرُور إلا ورأيتُه ينفخ في كلماته ويبني إيقاعه كما كانا يفعلان.

«كلامٌ فيه من الضجيج أكثر مما فيه من المعنى»[2].

وسيقول العاميّ الجاهل إنّ البلاد لم تشهد مثل هذا العدد الوافر من الشعراء قطُّ من قبل، غير أنهم بقدر ما يُلفون من السهولة واليسر في تقليد إيقاعات الرجليْن، بقدر ما يسْتعصي عليهم تقليد الوصف الدقيق عند هذا والإيحاء اللطيف عند ذاك.

98. لكن ماذا سيفعل تلميذنا فيما لو دُفِعَ به إلى الرد على مغالطةٍ من قَبيل إنّ أكل التمر يجعل المرء يشرب الماء، والشرب يُذهب العطش، ومن ثمّةَ فإنّ التمر يُذهب العطش؟[3] عليه أن يسخر منها؛ لأنّ السخرية من مثل هذا الكلام أذكى من الرد عليه وأكثر حَصافَةً.

---

(1) Horace, **Satires**, I, x, 58-63.

(2) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, 40.

(3) هنا كذلك رأينا أن نستبدل بالمثال الذي ساقه مونتيني والمستقى من الثقافة الأوربية، مثالاً من الثقافة العربية. [المترجم]

99. وليأخذ عن أريستيبّوس هذا الجواب المفحم: «لماذا سَأَحُلُّ ما يضعني في الحرج حتى وهو مربوط؟»، وقد تكلّم رجلٌ ضد كليانثس بكلامٍ فيه تَقَعُّرٌ، فقال له خريسيبّوس: «يا هذا، ادَّخر شطحاتك البهلوانية هذه للأطفال تلهيهم بها، ولا تشغل بها بال رجلٍ ناضج العقل». إذا كان هذا الجدل الأبله، «**هذه المغالطات المغرِقة في التعقيد والدقة**»[1] ستجعله يصدق ما ليس سوى كذبٍ، فإنها لعبةٌ إذًا خطرة، أما إذا كانت ستبقى دون مفعولٍ ولا أثر عليه سوى أن تجعله يضحك، فلست أرى لماذا عليه أن يتجنبها ويحذر منها. وإنّ هناك من الناس من يبلغ به الغباء والبلاهة حدًّا يجعله يقطع ربع فرسخ من أجل سماع كلمةٍ «أو ينطلق، عوضًا عن اختيار الكلمات الملائمة للموضوع، في البحث بعيدًا عن أشياء تناسبها الكلمات»[2]، وهذه أيضًا: «**إنّ من الناس من تعجبه كلمةٌ فتدفعه رغبته في التباهي بها إلى الكتابة في موضوعٍ لم يكن قد خطر له من قبل ببالٍ**»[3].

100. إني أفضّل أن أرَوّضَ حُكمًا جيدًا أو عبارة مستحسنة حتى أُطَوِّعَها لموضوعي، على أن أخرج عن جادة كلامي كي أجدَ لها مكانًا فيه، لا بل إنّ الكلمات هي التي ينبغي لها أن تخضع للفكر وتخدمه، وإن لم يفلح في ذلك ذو اللسان الفرنسي فليفعل من يتحدث الغاسكونية، أريد أن تكون الأفكار هي الأهم، وأن تملأ ذهن المستمع حتى لا يبقى في ذاكرته مُتَّسعٌ إلا لها دون الكلمات، إنّ اللغة التي أحبها لغةٌ بسيطةٌ طبيعيةٌ، سواءٌ كانت مكتوبةً على الورق أم منطوقةً باللسان، لغةٌ فيها حلاوة وطلاوة، محكمة السبْك مختصرةٌ لا استرسال فيها، تحمل من العنفوان والاقتضاب أكثر مما تحمل من التقعُّر والتحذلُق.

«إنّ التعبير يكون جيدًا متى كان أثره قويًا»[4].

101. إنها لغةٌ صعبةٌ أكثر مما هي مُمِلّةٌ، دون تصنّعٍ ولا قواعد، مفكّكةٌ لكن جريئةٌ، كلّ مقطعٍ منها قائمُ الذات يكتفي بنفسه عن غيره، لا تكون

(1) Cicéron, **Académiques**, II, 24.

(2) Quintilien, **Institution Oratoire**, VIII, 3.

(3) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, LIX.

(4) نقش على قبر لوكانوس.

متقعرةً ولا خطابيةً ولا قانونيةً، بل تكون أميَلَ إلى الطابع العسكري، كما يصف سويتونيوس*[1] لغة يوليوس قيصر؛ رغم أني لا أتبيَّن جيدًا لماذا قال ذلك.

102. وقد تعمدتُ يومًا أن أقلّد تلك اللامبالاة التي نجدها عند شبابنا، بمعطفٍ ملفوفٍ حول العنق وسترةٍ ملقاةٍ على الكتف وجوارب غير مستويةٍ، وكل ما من شأنه أن ينطق بالترفع والازدراء حيال كلّ هذه الزخارف الغريبة عنا، والاستخفاف بكل ما هو مصطنعٌ، غير أني أستحسن ذلك في طريقة الكلام، إنّ كلّ ما يثير الانتباه -وخصوصًا ذلك المرح والحرية المعروفَيْن لدى الفرنسيين- غير مستحبٍّ لدى ندماء الملك، ومعلومٌ أنّ الجميع في ظلّ الملكية ينبغي له أن يتعلم كيف يلبس لباسَ نديم الملك فيما لو دعت الضرورة إلى ذلك، ولهذا السبب لا يسوء المرءَ أن يميل بعض الميل إلى ما هو طبيعيٌ وأن يحتقر أصول اللياقة المتصنِّعة.

103. لا أحب الثوب الذي يتبين فيه الناظر بسهولة مكان القص والقطع والخياطة، وكذلك الجسد الجميل لا ينبغي له أن يبدي عظامًا ولا عروقًا، «إنّ الخطاب الذي يخدم الحقيقة ينبغي له أن يكون بسيطًا خاليًا من التصنّع»[2]، «من ذا الذي يدرّس طريقته في الكلام، إلا رجل يعتزم الحديث بتصنّع؟»[3].

إن الكلام البليغ يسيء إلى الأشياء الحقيقية؛ لأنّه يَصرِفنا عنها.

104. وكما يبدو من الصفاقة أن يتحرى المرء في لباسه التميز عن الناس وإثارة الانتباه بارتداء ملابس غير معهودةٍ، فكذلك ينمّ البحث في الكلام عن التعبيرات الجديدة والكلمات المهملة الوحشية عن نزوعٍ متحذلقٍ

(1) * جايوس سويتونيوس (69م – توفي بعد 122م) كان مؤرخًا رومانيًا، كتب تراجم لكثير من الشخصيات، ومنهم يوليوس قيصر.

(2) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, 40.

(3) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, LXXV.

مُتَصابٍ، ولَكَمْ وددتُ لو استطعت أن أستعمل فقط اللغة التي يتحدث بها الناس في سوق الخضار في باريس! وقد كان النحوي أريستوفانيس لا يفهم، وهو ينتقد بساطة ألفاظ إبيقوروس والهدفَ من فنّه الخطابي، إلا ما تعلق بالحصول على تَناسُب اللغة المستعملة مع المقام المستعملة له، وإنّ الشعب لَيَتَعَلَّم اللغة في ساعةٍ، لأنّ تعلُّم الكلام أمرٌ سهلٌ، لكن تقليد التفكير والإبداع لا يتأتى سريعًا! وما أكثر القراء الذين يعتقدون خاطئين أنهم قد أمسكوا بجسم كتابٍ وهم لا يمسكون سوى بلباسه، ولا يمكن استعارة القوة ولا العضلات مثلما يُستعار المظهر والمعطف.

105. إن أغلب من أخالط من الناس يتحدثون بالطريقة نفسها التي أتحدث بها أنا في «المقالات»، لكني لست على يقينٍ من أنهم يفكرون كذلك بالطريقة ذاتها.

106. يقول أفلاطون إنّ الأثينيين يتوخّوْن في كلامهم الإسهابَ والأناقة، والإسبرطيين الاقتضابَ، فيما يعتني أهل جزيرة كريت بخصوبة الأفكار أكثر من اهتمامهم بالكلام في حدّ ذاته، وبالتالي فهؤلاء الأواخر هم الأفضل. أما زينون فكان يقول إنّ لديه صنفين من التلاميذ؛ أولهما يهتم بالتعلم ومعرفة الأشياء، وهؤلاء هم المفضلون عنده، والثاني يهتم بالكلام وحده. وهذا لا يعني أن حُسن التعبير ليس بالشيء الجيد، ولكنه ليس بالأهمية التي نتصورها له، وأنا مستاءٌ من الطريقة التي يشغل بها هذا الأمر حياتنا كلها. أريد قبل كلّ شيءٍ أن أتعلم لغتي ولغة جيراني الذين لي معهم أوثق العلاقات وأقربها، وإنها بلا شكٍ لَحِليَةٌ جميلةٌ أن يعرف المرء اليونانية واللاتينية، ولكنها حليةٌ باهظة الثمن، وسأروي كيف يمكن اكتساب هاتين اللغتين بأدنى مما يكتسبهما به الناس عادةً، وقد جُرِّبَت هذه الطريقة عليَّ أنا، فمن شاء اعتمادَها فليفعلْ.

107. كان المرحوم والدي يتحرى بين أهل المعرفة عن طريقةٍ جيّدةٍ للتربية، لكنه صرف النظر عن ذلك؛ لأنّهم قالوا له إنّ الوقت الذي نضيعه في تعلم هذه اللغات -وهو عمل لم يكن يكلِّف القدماء شيئًا- هو السبب في

عجزنا عن بلوغ السمو والمعرفة اللذين كان عليهما الإغريق والرومان، وأنا أرى شخصيًا أن هذا ليس السبب الوحيد.

تعلُّم اللاتينية

108. ومهما يكن فإن الطريقة التي وجدها أبي هي أنه -منذ تكفّلت المرضعات بي وقبل أن ينحلَّ لساني- بإسلامي إلى رجلٍ ألمانيٍّ قد رحل اليوم بعد أن قضى زمنًا كطبيبٍ مرموقٍ في فرنسا، كان يجهل لغتنا تمام الجهل لكنه متمكنٌ من اللاتينية. وقد استقدمه والدي خصيصًا لهذا الغرض، ودفع له من المال ما كفاه ليظل باستمرارٍ في رفقتي، غير أنّ أبي استقدم كذلك مؤدبين أقل علمًا من الألماني ليساعدا هذا الأخير ويتبعا عملي، على ألاَّ يخاطباني إلا باللاتينية. أما عن باقي أهل البيت فكانت القاعدة المتبعة التي لا يزيغ عنها والدي ولا والدتي ولا أحد من الخدم هي ألاَّ يوجه إليَّ أحدٌ خطابًا بغير اللاتينية، وذلك باستعمال كلماتٍ تعلموها خصّيصًا من أجل هذا الغرض.

109. وقد كانت الفائدة التي جناها الجميع من ذلك عظيمةً، إذ تعلم والدي ووالدتي من اللاتينية ما جعلهما قادرين على فهمها، واكتسبا من المعرفة بها ما يكفي لاستعمالها عند اللزوم، وكذلك الخدم الذين كانوا ملحقين بخدمتي خاصةً. والخلاصة أننا تعلمنا جميعًا من اللاتينية ما جعلنا ننقل عدْواها إلى القرى من حولنا، حتى أنك تجدهم مازالوا إلى اليوم ينادون الصُنَّاع ويسمّون الأدوات بأسماءٍ لاتينيةٍ رسخت منذئذ في كلامهم. أما أنا، فقد بلغت السادسة وأنا لا أفهم بعدُ الفرنسيةَ بأفضل مما أفهم اللاتينية، وهكذا، دون منهجٍ ولا كتابٍ ولا نحوٍ ولا قواعد، دون سوطٍ ولا دموعٍ، تعلمت اللاتينية نقيةً صافيةً كلاتينية معلمي؛ لأني لم يكن لي أن أخلطها بغيرها مما كان سيفسدها عليَّ.

110. وحين كانوا على سبيل الاختبار يريدون إعطائي نصًا لأترجمه إلى

اللاتينية، لم يكونوا يعطونني نصًا فرنسيًا كما كان الأمر مع غيري من التلاميذ، بل نصًا مكتوبًا بلاتينيةٍ رديئةٍ، يُطلب مني إعادة كتابته بلاتينيةٍ جيدةٍ! أما مؤدبيَّ الخاصين: نيكولاس غروتشي، مؤلف «دي كوميتيس رومانوروم»، وغيوم غيرينتي، الذي حقق أرسطو، وجورج بيوكانان، الشاعر الأسكتلندي المُجيد، ومارك أنطوان موري، الذي تعتبره فرنسا وإيطاليا أفضل خطيبٍ في عصرنا؛ فطالما قالوا لي إنني كنت في طفولتي متمكنًا من اللاتينية تمكّنًا جعلها في متناولي، حتى أنهم كانوا يخشون مقارعتي فيها، وقد قال لي بيوكانان، الذي التقيت به بعد ذلك عند الراحل السيد الماريشال دو بريساك، إنه كان منشغلاً بتأليف كتابٍ في موضوع تربية الأطفال، وإنه اتخذ من تربيتي أنا أنموذجًا وأسوةً؛ لأنّه كان حينئذٍ مكلّفًا بتربية الكونت دو بريساك، الذي رأينا جميعُنا بعد ذلك مقدار إقدامه وشجاعته[1].

111. أما اليونانية التي لا أكاد أفقه فيها شيئًا، فقد ارتأى والدي أن يجعلني أتعلّمها، لكن بطريقةٍ مختلفةٍ عن السابق، وذلك عن سبيل تمارين على شكل لعبةٍ، حيث كنا نتراشق بأواخر الكلمات كما يترامى اللاعبون الكرة، فتعلمتُ على طريقة أولئك الذين يتعلمون مبادئ الجبر والهندسة فيما هم يلعبون كرة الطاولة. فمن بين النصائح التي تلقاها أبي في شأن تربيتي أن يجعلني أتذوق المعارف وأُقَدِّرُ الواجب حق قدره، وذلك دون إكراهِ إرادتي، بل باتّباع رغبتي، وأن يربّي روحي في حريّةٍ تامّةٍ ولطفٍ شديدٍ، دون صرامةٍ ولا إكراهٍ. ولما سمع الناس تقول إنّ إيقاظ الأطفال في الصباح إيقاظًا عنيفًا وانتزاعهم من النوم -الذي يغرقون فيه بأكثر مما يغرق الكبار- بغتةً ودون لطفٍ، أمرٌ من شأنه أن يشوّش على أذهانهم الهشة، فقد ذهب به الإفراط في الاحتياط إلى درجة أنه أمر بألاّ أوقَظ إلا على صوت آلةٍ موسيقيّةٍ، وعيَّن لذلك من يحرص على القيام به عند كلّ صباحٍ.

112. ويكفي هذا المثال للحكم على الباقي، ولتبيان مدى حكمة هذا الوالد العظيم وحنانه، هو الذي لا ينبغي أن يُلام على كونه لم يقطف ثمرة ما زرعه بكل عناية واهتمام، وقد كان ذلك لسببين؛ أولهما أن الأرض

(1) لقي الكونت دو بريساك مصرعه في سنة 1569، أثناء حصار موسيدان، وكان يومئذ ابن ست وعشرين سنة.

التي زرع كانت جرداء لا تنفع، فأنا وإن كنت ذا صحةٍ جيدةٍ ومزاجٍ رائقٍ، فقد كنت في الآن نفسه ثقيل الروح رخْو الجسد خامل الحواس بحيث كان ينبغي انتزاعي من الكسل والبطالة انتزاعًا، حتى ولو كان ذلك لجعلي ألعب. غير أنّ ما كنت أراه كنت أراه بوضوحٍ، وكنت أخفي وراء ذلك الخمول الظاهر أفكارًا جريئةً وآراءً أكبر من سني بكثيرٍ، كان ذهني من الثقل بحيث كان يحتاج أن يُخَضَّ كي يشرع في العمل، كان فهمي دائمًا يأتي متأخرًا، وخيالي ضعيفًا متعثّرًا، وفوق هذا وذاك كانت ذاكرتي كالشبكة واسعة الثقوب لا تكاد تحتفظ بشيءٍ.

113. لا غرابة إذًا ألاَّ يتمكن أبي من الخروج من كلّ هذا بشيءٍ، بعد ذلك -وكما يَقبَلُ المريض الراغب في عاجل الشفاء كلّ نصيحةٍ يُدلَى إليه بها- فقد انتهى الأمر بالرجل الطيب، لفرط خوفه من الفشل في موضوع كان يوليه كاملَ عنايته، إلى أن تبنى الرأي السائد، الذي يقضي باتِّباع من يسيرون في الأمام، كما يفعل البجع. إنه فعل إذًا ما يفعله الناس: لأنّه لم يعد يجدُ بجانبه من كانوا قد علّموه المناهج المستوردة من إيطاليا، والتي استعملها في البداية، فحين قاربتُ السادسة أدخلني إلى ثانوية دو غويانا، التي كانت وقتئذٍ تُعرَف بكونها أفضل مدارس فرنسا، ولا يمكن لومه على الاهتمام الذي أولاه حينئذٍ للعثور على مُعيدين مَهَرَةٍ لدعمي، ولا على العناية التي خصّ بها كلّ الجوانب الأخرى من تربيتي، وقد احتفظ في هذه التربية بمناهج خاصةٍ كثيرةٍ معاكسة لما جرت عليه العادة في المدارس، غير أنها كانت مدرسة على كلّ حال. بدأت لاتينيتي تتراجع حتى فقدتها تمامًا من قلة استعمالي لها، والفائدة الوحيدة التي جنيتها من الطريقة الخاصّة التي علموني بها تلك اللغة هي أنها أتاحت لي تجاوز المستويات الدراسيّة، إذ إنّي حين غادرت المدرسة وأنا ابن الثالثة عشرة كنت قد أنهيت برنامجي الدراسي، وإن يكن ذلك دون أيّ نتيجةٍ تستحق أن أذكرها هنا.

114. أَدين بغرامي بالكتب للمتعة التي وجدتها من قراءة كتاب أوفيديوس*[1]

(1) * بوبليوس أوفيديوس (43 ق.م – 17 م) شاعر روماني، اشتهر بكتابه «التحولات» الذي ضمنه كثيرًا من الأساطير الإغريقية والرومانية.

«التحولات»؛ ذلك أني حين بلغت حوالي السابعة أو الثامنة من العمر تخليت عن المسرّات جميعًا من أجل متعة قراءة هذا الكتاب، خصوصًا أنه مكتوبٌ بلغةٍ هي أقرب إلى أن تكون لغتي الأم، وهو أسهل كتابٍ عرفته يومئذٍ، والأنسب بمحتواه لسني. أما الكتب من قبيل «لانسلو دو لاك» أو «أماديس» أو «هيون بوردو»[1] أو غيرها مما يولع به الصغار، فلم أكن أعرف حتى عناوينها، وما زلت حتى اليوم أجهل محتواها، لفرط ما كان التعليم الذي تلقيته محدّدًا بدقّةٍ، وكان حبي للقراءة يجعلني أكثر لامبالاة بالدروس الأخرى التي كانت مفروضةً عليّ.

115. حينئذٍ؛ أسعفني الحظ بمؤدّبٍ ذكيٍّ حصيفٍ، عرف كيف يغض البصر عن هذا الجنوح من قِبَلي وعن غيره، وبفضل ذلك استطعت أن أقرأ في جولةٍ واحدةٍ «إنيادة» فرجيليوس ثم ترنتيوس وبلاوتوس والكوميديا الإيطالية، منجذبًا على الدوام خلف متعة الموضوع. ولو أن مؤدّبي كان من الغلظة وسوء الفهم بحيث يكسر نزوعي ذاك لكان كلّ ما جلبته معي من المدرسة هو كراهية الكتب، كما هو حال الغالبية من النبلاء عندنا، لكنه عرف كيف يتصرف بمهارةٍ وكيف يتجاهل الأمر، كان يشحذ همتي للقراءة بتركي ألتهم الكتب في الخفاء، مع الإبقاء عليَّ في لطفٍ على الطريق الصحيح في ما تعلق بباقي مواد الدراسة النظامية. فما كان والدي يبحث عنه لدى من كان يستودعهم إياي هو الطيبة ودماثة الخلق، ومن ثمّةَ لم يكن في طبعي من عيبٍ سوى الخمول والكسل، لم يكن يُخشى عليَّ أن أسيء فعلَ ما أفعله، بل ألاَّ أفعل شيئًا على الإطلاق، لم يكونوا يخشون مني أن أصبح شريرًا، بل أن أصير عديم الفائدة؛ كانوا يتوسَّمون فيّ الكسلَ لا انعدامَ الأمانة.

116. وإني اليوم أدرك أن ذلك هو بالفعل ما حصل، والشكاوى التي ما زال لها طنينٌ في أذني هي من قبيل «إنه كسولٌ خاملٌ، قليل الاهتمام بواجبات الصداقة والقرابة؛ أما في المعاملات العامة فهو معتدٌّ بنفسه متعجرفٌ»،

(1) تقابل هذه اللائحة ما يمكن أن نطلق عليه اليوم اسم «أفضل المبيعات»؛ لأنّ هذه الكتب كانت من أكثر المؤلفات انتشارًا بين الناس في القرن السادس عشر، وكان البالغون أشدّ ولعًا بها من الصغار، عكس ما يقول مونتيني.

حتى أكثر المنتقدين حِدَّةً لا يقولون «لماذا أخذ؟ لماذا لم يدفع ثمن ما أخذ؟»، بل يقولون: «لماذا لم يتنازل عن هذا الدين؟ لماذا لا يعطي؟».

117. سأعتبر أنّ من قبيل الإكرام ألاّ ينتظر مني أحد سوى مثل تلك المواقف، التي ليست مما يتطلّبه الناس من بعضهم في العادة، أما من يطلبون مني أكثر من ذلك فهم ظالمون؛ لأنّهم يطالبونني بأكثر مما أنا مَدينٌ به، وأكثر بكثير مما يطالبون به أنفسَهم، وهم بذلك يفسدون عملًا لا منفعة فيه ويضيعون عليّ ما كان سينالني منه من عرفان. فأنا إنْ قمت بفعل خيرٍ فسيعود عليّ نفعه رغم أني لم أستفد خيرًا مِثلَه من غيري من قبلُ قطُّ. وإنّ لي من الحرية في استعمال ثروتي لأنّها ثروتي، وفي التصرف في ذاتي لأنّها ذاتي، على أني لو كنت أهتم بتزيين أفعالي وتجميلها فلربما حاربت هذه المآخذ، وأخبرت عندئذٍ بعضهم بأنهم ليسوا حانقين عليَّ لكوني لا أفعل ما يكفي، بل لأنّ باستطاعتي فِعلُ ما هو أكثر بكثير مما أفعله.

118. ورغم كلّ ذلك فإنّ ذهني لم يكن يعدم في الآن ذاته حظًّا من الانطباعات الداخلية القوية والأحكام الواثقة المنفتحة في شأن المواضيع التي كانت تصادفه، والتي كان يتمثَّلها وحده دون أن يُشرِكَ في ذلك أحدًا، وأنا للحق أعتقد اعتقادًا راسخًا أنه ما كان ليستطيع على الإطلاق الخضوع للقوة ولا للعنف.

119. فهل سأبسط القول في هذه الميزة التي ميزتني في طفولتي -بوجهٍ واثقٍ منبسطٍ وصوتٍ مرنٍ مرونة حركتي- ومكّنتني كلها من الانسجام مع الأدوار التي اضطلعت بها؟ ذلك أني باكرًا، «وأنا لم أكد أتمّ عامي الثاني عشر»[1]، لعبت الأدوار الأولى في التراجيديات اللاتينية لكل من بيوكانان وغويرينت وموري، قُدِّمَت كلها في حفلٍ مهيبٍ في ثانويتنا (دي غويانا)، وإذا كان أندري دي غوفيا -مدير المدرسة- قد أبان حينئذٍ -دون أيّ وجهٍ للمقارنة- عن أنه أفضل مديرٍ في فرنسا -كما كان الأفضل في كلّ مهامه- فقد كان يُنظَرُ إليّ أنا حينئذٍ على أني بمثابة العمود الفقري للحدث،

(1) Virgile, **Bucoliques**, VIII.

وهذا تمرينٌ أوصي به للفتيان الصغار من أبناء الأسر النبيلة، ولقد رأيت أن بعض أمرائنا صاروا منذ ذلك الحين يُقبلون عليه مُقتدين في ذلك بسُنَّة بعض القدماء، فقاموا بذلك بكل شرفٍ واقتدارٍ.

120. بل لقد كان بإمكان المرء -عند اليونان- أن يجعل من التمثيل مهنته دون أن يخشى في ذلك لومًا ولا تقريعًا:

«كشف عن مشروعه للممثل التراجيدي أريستون، وكان هذا رجلاً رفيع القدر بأصله وبثروته، وأما مهنته، فبحكم أنّ مثل هذه المهن ليست مما يلحقه العارُ به عند اليونان، فلم تكن تنتقص من قدْره شيئًا»[1].

121. لطالما وَصَفتُ بالتسرع وقِصَرِ النظر أولئك الذين يُدينون مثل هذا الصنف من التسلية، وبالظلم أولئك الذين يمنعون الممثلين المقتدرين من دخول مُدننا ويلومون الناس على هذه المُتع العموميّة. والحكومات الرشيدة تولي بالغ العناية لتجميع مواطنيها عبر خلق أنشطةٍ جماعيةٍ وألعابٍ، يجتمعون إليها كما يجتمعون إلى حفلات الولاء الرسمية، فتتقوّى من أثر ذلك مبادئُ التعايش وأواصر الصداقة في ما بينهم. ثم إنّ السلطات لن تجد تسليةً تمنحها للشعب أفضل ضبطًا من تلك التي تجري تحت أعينها وتحت أعين الجميع، وإني لأحبذ أن يمتع الأمير بها الناسَ من حين لحين -على حسابه- في حنان وطيبة أبويْن، ولتكنْ في المدن كثيرةِ السكان أماكنُ مخصصةٌ لهذا النوع من الفرجة مَرصُودَةً له، ففي ذلك وسيلةٌ لصرف العامة عن أفعالٍ أسوأ لكنها خَفِيَّةٌ.

122. ورجوعًا إلى ما كنت فيه أقول، إنّ خيرَ ما نعامل به الطفل الاجتهادُ في فتح شهيته واستنهاض وَلَعِه؛ لأنّنا بدون ذلك لا نُكَوِّن إلا حميرًا تحمل أسفارا، فنحن نفرض عليهم بالقوة ولَسعَةِ السوط أن يحتفظوا بحقيبةٍ مُلِئَت عِلمًا، فيما المفروض، كي يحسنوا عملًا، لا أن يسكنوها في بيوتهم، بل أن يقترنوا بها اقترانًا.

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXIV, 24.

الفصل السادس والعشرون

إنّ من الغباء أن نجعَلَ الصحيحَ والخطأَ رهينَيْن بحكمِنا الشخصي

1. لعلنا لا نخطئ حين ننسب إلى السذاجة والجهل من يكون مُسارِعًا إلى التصديق وسهلَ الإقناع، فأنا أعتقد أنّي قد تعلمت في ما مضى، أنّ التصديق أشبه بعلامةٍ تنطبع على روحنا، وبقدرِ ما تكون الروحُ رخوةً ليّنةً يكون من السهل اليسير أن تطبع عليها شيئًا.

«فكما تميل كفة الميزان بالضرورة حين نضع الأوزان فوقها فكذلك ينجذب الذهن خلف ما يبدو له بديهيًا»[1].

كلما كانت الروح أكثر فراغًا كانت أعجز عن تعديل كفة الميزان وأسرع إلى الانثناء تحت أول تأثيرٍ تتعرض له؛ لذلك تجد أنّ الأطفال والعوام والنساء والمرضى كثيرًا ما يسهل اقتيادهم كما تقاد البهائم أكثر من غيرهم[2]. لكن -من جهةٍ أخرى- فإن من قَبيل الاعتداد المفرط بالذات أن نرفض بتعالٍ ونعتبرَ غيرَ صائبٍ كلّ ما بدا لنا مستعصيًا على التصديق، وذاك هو العيب الذي نصادفه عادة عند من يحسبون أنفسهم أذكى من غيرهم. وقد كنت بنفسي أفعل ذلك في الماضي، وحين كنت أسمع الحديث يدور عن الأشباح والنبوءات والسحر والشعوذة أو غيرها مما لم أكن أستطيع تصديقه=

«من أحلامٍ ورعبٍ سحريٍّ ومعجزاتٍ وساحراتٍ وتجلياتٍ في الظلام وعباقرة تيساليا»[3]...

=كنت أشعر بالشفقة على العوام المساكين الذين تخدعهم مثل تلك الحماقات، واليوم أرى أني كنت على الأقل أستحق من الشفقة مثل ما كنت أراهم يستحقون ذلك.

2. ولا يعني هذا أن التجربة قد علمتني منذ ذلك الحين شيئًا أو أشياء جاءت معاكسةً لقناعاتي الأولى، وما كان ذلك عن تفريطٍ مني في الفضول والبحث، بيْد أنّ العقل علّمني أنّ من يُصدِر حكمًا قاطعًا على شيءٍ معيّنٍ بأنه غير صحيحٍ ومستحيلٍ، فكأنه يدّعي أنّ لديه في رأسه العلامات والحدود التي هي من شأن الله ذاتِه وشأنِ أمنا الطبيعة، وليس ثمّةَ من

(1) Cicéron, **Académiques**, II, 12.

(2) هنا أيضًا نرى كيف أن مونتيني هو فعلاً ابن زمنه، حيث إن «العوام» و«النساء» هم بالنسبة له كائنات دُنيا.

(3) Horace, **Épîtres**, II, v. 208.

حماقةٍ أكبر من أن ننزل بها جميعًا إلى مرتبةٍ قدرتنا على الفهم والحكم. وإذا كنا نسمي وحوشًا أو معجزاتٍ كلّ الأشياء التي لا تستطيع عقولنا تقبُّلَها، ألسنا نرى منها في كلّ وقتٍ شيئًا؟ ولننظرْ كيف يقودوننا رويدًا عبر ضباب الجهل صوب معرفة أغلب الأشياء التي هي اليوم في متناولنا، وسنرى أنّ العادة أكثر من المعرفة هي ما نزع عنها غرابتها=

«من فرط اعتيادنا رؤية السماء المضيئة
لم يعد أحد يولي بالاً للنظر إليها»[1].

=وسنرى أننا لو قُدِّمَت إلينا تلك الأشياء اليوم للمرة الأولى، لوجدناها في غرابة الأشياء الأخرى أو أكثر غرابة منها.

«لو أنهم تجلّوا في هذا اليوم للناس
لو أنهم انبعثوا فجأةً أمام أعيننا
لما كان هناك شيءٌ أروع
ولا شيء أبعد مما كانت الناس تتصور»[2].

3. من لم يرَ نهرًا قطُّ في حياته سيحسب كلّ جدول يمرّ به بحرًا، ونحن نعتقد أنّ أكبر الأشياء التي نراها هي أكبر الأشياء التي بمقدور الطبيعة صنعها.

«حتى النهر، لمن لم ير أكبر منه
يبدو فسيحًا واسعًا
وكذلك الشجرة والرجل وكل شيءٍ من كلّ نوعٍ وصنفٍ
فما تراه عيوننا أكبر مما حولنا نحسبه أكبرَ من كلّ شيءٍ آخر»[3].

إن اعتياد الأعين رؤية الأشياء يُعَوِّدُ عقولَنا عليها، فلا تبقى تندهش لما تراه في كلّ وقت، ولا تعُود تبحث له عن سبب[4]، كما أن جِدَّةَ الأشياء هي ما يدفعنا -أكثر من عظمتها- إلى التساؤل عن أسبابها.

(1) Lucrèce, **De la Nature**, II, v.1038-10399.
(2) Lucrèce, **De la Nature**, II, 1032-1035
(3) Lucrèce, **De la Nature**, VI, 674-677.
(4) Cicéro, **De natura deorum**, II, 38.

4. ينبغي لنا أن نُظهر مزيدًا من الاحترام إزاء القوة اللانهائية للطبيعة، وأن نعترف بجهلنا وضعفنا، فكم من الأشياء التي تبدو صعبةَ التصديق يشهد رغم ذلك بصحتها أناس جديرون بالثقة، وهي إن نحن عجزنا عن التسليم بوجودها فيجب علينا على الأقل أن نترك الحكم عليها معلقًا! ذلك أنّ الحكم عليها بأنها مستحيلةٌ هو اعترافٌ -فيه الكثير من الاعتداد بالنفس- بأننا نعرف إلى أين يمكن أن تبلغ إمكانية وجود الأشياء أو عدم وجودها. ولو أننا أدركنا جيدًا الفارق بين الشيء المستحيل والشيء غير المألوف، والفارق بين ما هو معاكسٌ لنظام الأشياء وما هو مناقضٌ للرأي السائد، مع تفادي التصديق السريع وعدم التخلي في الآن نفسه بسهولةٍ عما نؤمن به؛ لاستطعنا حينئذٍ أن نتحقق من قاعدة «لا شيء فوق اللزوم» التي أعلن عنها خيلون*[1].

5. حين نقرأ عند فرواسار[2] أن الكونت دو فوا علم من الغد -وقد كان في لو بيارن- بهزيمة الملك خوان الأول ملك قشتالة في خوبيروت[3] وما ساقه حينئذٍ من تبريراتٍ للأمر، فإنّ من الممكن أن نهزأ بذلك، كما يمكن أن نهزأ بما ترويه حولياتنا من أن البابا هونوريوس، في اليوم ذاته الذي توفي فيه الملك فيليبوس أغسطس[4] في مانت، أقام له جنازةً رسميةً في روما وأعلن عن ذلك في جميع أرجاء إيطاليا. فسلطة هؤلاء الشهود قد تكون غير كافيةٍ لإقناعنا بذلك، لكن رويدًا! فإذا كان بلوتارخوس، علاوةً على الأمثلة الكثيرة التي يضربها لنا من الماضي البعيد، يقول إنه يعلم علم اليقين أن خبر الهزيمة التي تلقاها أنطونيوس في عهد دوميسيانوس في الأراضي الألمانية على بعد أيامٍ من روما قد شاع في المدينة وانتشر في العالم في اليوم نفسه، وإذا كان يوليوس قيصر يدّعي أنه كثيرًا ما وقع له أن تلقّى الخبر قبل وقوع الحدث، فهل سنقول عن هؤلاء إنهم مجرد سُذّجٍ انخدعوا كما تنخدع العامة لأنهم ليست لهم ثقابة نظرنا وبُعده؟ وهل هناك شيءٌ أكثر دقةً ووضوحًا وقوةً من حكم

---

(1) *هو خيلون الإسبرطي، أحد حكماء الإغريق السبعة، عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

(2) Froissard, **Chroniques**, III, 17.

(3) هي مدينة الخوباروتا البرتغالية، حيث لقي خوان الأول ملك قشتالة بالفعل الهزيمة في 1385 بعد حصاره لشبونة.

(4) مات فيليبوس أغسطس في 1223م.

بلينيوس الكبير -حين يروق له أن يحكم على الأشياء- وأكثر بعدًا عن الخفة والنَّزَق؟ هذا ناهيك عن غزارة علمه، التي لا أهتمّ لها كثيرًا، ففي أيّ من هاتين الميزتين نجاوزه أو نضاهيه يا ترى؟ ورغم ذلك فلن تجد تلميذًا مبتدئًا سيتردد في اتهامه بالكذب وفي إعطائه دروسًا في طريقة سير أعمال الطبيعة.

6. حين نقرأ لدى بوشي عن المعجزات التي حققتها الآثار المقدسة في سانت هيلير، فلا بأس في عدم التصديق؛ لأنّ سطوة الرجل ليست من القوة بحيث تمنعنا من معارضته، لكني أعتقد أنّ من قبيل التهور أن نعمّم هذه الإدانة على كلّ الحكايات من قَبيل ذلك؛ فها هو القديس أوغسطينوس العظيم[1] يشهد بأنه رأى عند الآثار المقدسة بكل من القديس جيرفاسيوس والقديس بروتاسيوس في ميلانو طفلًا أعمى يستعيد بصره، وامرأةً في قرطاجنة شُفيت من السرطان بفضل علامة صليبٍ رسمتها عليها امرأةٌ أخرى عُمِّدَت للتوّ مسيحيةً، كما يشهد بأنه رأى هيسبيريوس، وهو أحد مقرّبيه، يطرد الأرواح الشريرة من بيته ببعض التراب المستقْدم من قبر يسوع، ثم حين حُمِلَ ذلك الترابُ إلى الكنيسة شُفي رجلٌ مشلولٌ بفضله، وامرأةً لمست ضريح القديس إسطفانوس بباقة زهرٍ ثم مَرَّرَت الباقة على عينيها المظلمتين فصارت بصيرةً، وكثيرًا غيرها من الكرامات التي يقول القديس إنه شهدها بنفسه، فبماذا يا ترى سنتهمه هو والأسقفين القديسين أوريليوس وماكسيمينوس[2]، اللذين يذكرهما كشاهدين؟ أتُرى سَنَتَّهِمُهُم بالجهل أم بالسذاجة أم بالحمق أم بالخبث والكذب؟ هل هناك في زمننا من يدفعه غروره إلى الجرأة على مقارنة نفسه بهم، سواء من حيث ورعهم وتقواهم، أم من حيث غزارة علمهم، واتساع أفقهم، وصواب حكمهم، وقوة مقدرتهم الذهنية؟ «حتى ولو لم يقدموا لي أيّ سببٍ منطقيٍ، فسيقنعونني بمجرد سطوتهم»[3].

(1) كلّ هذه الحكايات عن «المعجزات» والخوارق وغيرها مما هو أعجب منها موجودة في كتاب «مدينة الله» للقديس أوغسطينوس، ومونتيني هنا لا يبدي عن كثيرٍ من الحس النقدي كما نرى.

(2) Saint Augusti, **La Cité de Dieu**, Livre XXII, 8.

(3) Cicéron, **Tusculanes**, I, 21.

7. إنّ من قبيل الجرأة الوقحة الخطيرة، ناهيك عما وراءها من طيشٍ ونزقٍ، أن نحتقر ما لا نستطيع تصوره. فأنت حين تضع حدودًا للحقيقة والكذب بفضل ذكائك الخارق، ثم تأتيك الصدف بما يجبرك على تصديق أشياءٍ أغرب من تلك التي كنت ترفض تصديقها، تكون عندئذٍ قد أُجبِرتَ على التخلي عن الحدود التي رسمتها بنفسك. وأنا أرى أن ما يجلب كلّ هذه الفوضى إلى ضمائرنا في هذا الزمن المضطرب الذي نعيشه، بخصوص الدين، هو هذه الطريقة التي يتخلى الكاثوليكيون بها عن جزءٍ من إيمانهم، فهم يتصورون أنهم يتخذون موقفًا ذكيًا ومعتدلًا حين يتنازلون لخصومهم في شأن مواضيع ما زالت محطّ الجدَل. لكن علاوةً على أنهم لا يدركون الفائدة التي يمثلها للخصم شروعك في التنازل له والتراجع أمامه، وكم سيشجعه ذلك على التمادي؛ فإن تلك المواضيع، التي يرونها دون كبير أهميةٍ، تكون على العكس من ذلك كبيرة الأهمية أحيانًا. فإمّا أن نستسلم في كلّ شيءٍ لسلطة الكنيسة، وإما أن نستغني عنها كليةً، إذ لسنا نحن من يحدّد نسبة الخضوع والطاعة التي نَدين لها بها.

8. وإضافة إلى كلّ هذا -يمكنني قول ذلك لأني جربته- فقد استعملت ذات يومٍ بعيد تلك الحرية في القيام باختيارٍ وفرزٍ شخصيٍ واستبعاد بعض النقاط من قاعدة كنيستنا بدا لي يومئذٍ أنها على شيءٍ من الغرابة، لكن بعد أن تحدثت في ذلك إلى أناس ذوي خبرةٍ في المجال اكتشفت أنّ تلك الأشياء التي استصْغرتها أو استغربتها تقوم كلها على أساسٍ متينٍ قويٍّ، وأنّ الغباء والجهل هما ما يجعلنا ننظر إليها على أنها أقل جدارةً بالاحترام من غيرها. فلماذا ننسى كم مرةٍ نشعر بالتناقض في أحكامنا ذاتها؟ كم من الأشياء كانت عندنا بالأمس من مقوّمات الإيمان، فإذا بها اليوم تصير في أعيننا سخيفةً لا معنى لها! إن الغرور والفضول هما آفتا روحنا، فالفضول يقودنا إلى حشر أنوفنا في كلّ شيءٍ، والغرور يغْشى أعيننا عن تبيُّنِ أيّ شيءٍ وسط الإبهام والغموض والشك.

الفصل السابع والعشرون

في الصداقة

1. وأنا أراقب الطريقة التي بها يقوم بالتصوير رسامٌ يعمل لديَّ، جاءتني الرغبة في تقليده، فهو يختار أحسن مكانٍ ومنتصف كلّ حائطٍ كي يعلق فيه لوحةً بلُورها بموهبته، ثم إنه يملأ الفضاء المحيط بها بلوحاتٍ غرائبيةٍ، وهي تصاوير بالغة البُعد عن أفهامنا بحيث لا مزيّة لها غير تنوُّعها وغرابتها. والحقيقة، أليست هذه «المقالات» نفسها سوى غرائبيات، وأجساد هجينة تتزيّا بأطرافٍ متنوعةٍ، من غير شكلٍ محدّدٍ، وليس تناظمها وتراتبها غير أثر للصدفة؟

«إنه جسد امرأةٍ حسناء، ينتهي بذيل سمكةٍ»[1].

2. وإنّي لَرسّامٌ لنفسي حتى ذلك الحدّ؛ بيْد أني أتوقف عند المرحلة التالية، التي هي أفضل جزءٍ في العمل، ذلك أن مؤهلاتي لا تسمح لي برسم لوحةٍ غنية الأشكال منتظمة الصور ودقيقة التفاصيل حسب قواعد الفن، لذا أبَحْث لنفسي أن أقتبس لوحةً من إيتيان دو لابويسي سوف تُشرّف بذلك بقية عملي. يتعلق الأمر برسالةٍ أطلق عليها اسم «خطاب في العبودية الطوعية»، لكن من يجهلون هذا الاسم صاروا يطلقون عليها من حينئذٍ -وعن حقٍ- اسم «ضد واحدٍ». وقد حرّرها المؤلف في شكل مقالةٍ في بدايات شبابه تكريمًا للحرية ضد الطواغيت المستبدين، وهي رسالةٌ تُتداول من يدٍ ليدٍ بين الناس المثقفين، وتحظى عن جدارةٍ لديهم بتقديرٍ بالغٍ؛ لأنّها رسالةٌ كريمة الأفكار كاملة المعاني، ومع ذلك فهي لا تبلغ أبدًا شأو أجود كتاباته، فإذا كان لابُويسي في عمرٍ متقدّمٍ عرفتُه فيه قد كانت له أهدافٌ ومرامٍ تشبه تلك التي تبنّيتُها، فإنا قرأنا له اليوم العديد من الكتابات لا تُضاهى، والتي ما كانت إلا لتقرّبنا من مجْد القدامى، فأنا لا أعرف كاتبًا يبلغ شأوَه، ولا موهبةً طبيعيةً تبلغ موهبته.

3. لكن، لم يتبقّ لنا منه غير هذه الرسالة -وبما يشبه الصدفة؛ لأنّه لم يرها أبدًا منذ أن انفلتتْ من بين يديه- وبعض المذكرات عن مرسوم يناير ذاك[2]، الشهير بسبب حروبنا الأهلية، والتي قد تجد في موْطنٍ

(1) Horace, **Art Poétique**, 4.

(2) مرسوم يناير 1562م، الذي كان مرسومًا للتسامح بين الأديان.

آخر مكانًا لها[1]. ذلك ما استعطت العثور عليه مما فضُل لنا منه، أنا الذي جعل مني بوصيّةٍ منه وبتقديرٍ عطوفٍ وهو على فراش الموت، وريثًا لمكتبته وأوراقه، عدا الكتاب الصغير من كتبه الذي عملت على نشره سابقًا[2]. وأنا لي تعلُّقٌ خاصٌ برسالة «ضد واحدٍ»؛ لأنّ هذا النص هو الذي مكّنني من عقد علاقة صداقةٍ وُثقى مع مؤلفه. فقد أُشير عليّ به وقتًا طويلاً قبل أن أتعرّف عليه شخصيًا، فعرّفني باسم صاحبه، وهو ما كان وراء هذه الصداقة التي وطّدناها ما شاء لها الله ذلك بتمامها وكمالها، مما لا نجد له مثيلاً في الكتب ولا بين معاصرينا، إنها صداقةٌ تتطلب تضافرًا للصدف والظروف بحيث إنها أكبر من أن يحبونا بهذا القدر مرةً واحدةً في أقلّ من ثلاثة قرونٍ.

4. يبدو لي أن لا شيء سارت بنا الطبيعة إليه أكثر من الحياة المجتمعية، وقد قال أرسطو[3] إن المشرّعين العظام قد اهتموا بالصداقة أكثر من العدل، إذ من خلال الصداقة تبلغ الحياة في المجتمع كمال أوْجها؛ فالعلاقات القائمة عمومًا على اللذّة أو الربح، وتلك التي تكون وراءها وتغذيها الحاجة، سواء كانت عامةً أو خاصةً، هي أقلُّ جمالاً ونبلاً، وأكثر منأًى عن الصداقة الحقّة، بحيث إنها تمزج بهذه الأخيرة مآرب ونتائج أبعد ما تكون عنها، ولا واحدةً من هذه الأنواع القديمة من الصداقة، أيّ الصداقة العادية والصداقة المتصلة بالشرط الاجتماعي وصداقة الضيافة وصداقة الحب، توافقها حق الموافَقة حتى لو جمعناها كلها.

5. أما بين الأب وأبنائه فالأمر يتعلق بالأحرى بالاحترام، إذ إنّ الصداقة تتغذى من التواصل، وهي لا يمكن أن تقوم بينهم نظرًا للبوْن الشاسع الذي يفصلهم، بل الأحرى بنا أن نقول إنها قد تسيء للواجبات الطبيعية؛ ذلك أن الأفكار الحميمية للآباء لا يمكن إفشاؤها للأبناء وإلا شجّع ذلك على حميميةٍ تفسد العلاقة بينهم، بقدر ما أن القرْع والتوبيخ -وهو من الواجبات الرئيسة للصداقة- لا يمكن أن يوجهها

(1) نُشرت هذه المذكرات عام 1917م في مجلة التاريخ الأدبي لفرنسا، وقد فكّر مونتيني في إدراجها في «المقالات».

(2) فعلاً، قام مونتيني عام 1571م، بطبع ونشر مجلدٍ صغيرٍ بعنوان «حظيرة كسينوفون»، قواعد الزواج لبلوتارخوس وأشعار فرنسية للراحل إتيان دو لابويسي.

(3) Aristote, **Morale à Nicomaque**.

الأبناء لآبائهم. ولقد وُجدت شعوبٌ كانت العادة فيها أن يقتل الأبناء آباءهم؛ وأخرى كان فيها الآباء يقتلون أبناءهم، لتفادي المساوئ التي يمكن أن يسببها أحدهما للآخر، وفي هذه الحال يرتهن مصير الواحد منهما بالآخر. ولقد كان بعض الفلاسفة يزدرون هذا الرابط الطبيعي بين الأب والابن، كما كان حال أريستبّوس، فحين أُلِحَّ عليه للاعتراف بالعاطفة التي يكنّها لأبنائه لأنّهم من صلبه، شرع يبصق قائلًا إنّ ذلك البصاق أيضًا من صلبه، وأننا نلد أيضًا القمل والدود، وقد صرح لبلوتارخوس الذي سعى إلى تقريبه من أخيه: «أنا لم يعُد يهمني أمره لأنّه خرج من الثقب نفسه الذي منه خرجت».

6. إن اسم «الأخ» لاسمٌ رائعٌ ومليءٌ بالعاطفة، ولهذا جعلنا منه أنا ولابويسي رمزًا لآصرتنا، بيد أنّ المزج بين الممتلكات وتقاسمها، وغنى الواحد إذ يكون سببًا في فقر الآخر، كلّ هذا يضعف كثيرًا من الرابطة الأخوية ويسير بها نحو تفكّكها. ولما كان الأخوان عليهما تدبير مسير حياتهما ومشوارهما بالسُّبل نفسها وبالإيقاع ذاته، فإنهما ينتهيان لا محالة إلى أن يصطدم أحدهما بالآخر ويزعجه مرارًا وتكرارًا. بل لماذا يوجد التعاطف والتوافق الحميم -الذي يكون في أصل الصداقة الحقّة- بالضرورة بين أخوين؟ قد يكون الأب والابن ذوَي شخصيتين ومزاجين مختلفيْن متباينيْن، وكذلك الأمر لدى الأخويْن: «إنه ابني وقريبي»، بيْد أنه وحشٌ وشريرٌ وحقيرٌ.

7. زدْ على ذلك أن هذه الصداقات تبدو كما لو أنها فُرضت علينا بفعل القوانين الطبيعية وواجباتها، بحيث إنها لا ترتهن كثيرًا بمشيئتنا واختياراتنا الحرة؛ والحال أنّ حرية اختيارنا لا شيء أقربُ إلى جوهرها من العطف والصداقة، بيد أني من هذه الناحية حُبيت بأكثر ما يمكن أن يناله شخصٌ، إذ إنّي تمتعتُ بأفضل أب في الدنيا وأكثرهم صفحًا حتى آخر أيامه، فلقد كان ينتمي إلى عائلةٍ عريقةٍ أبًا عن جدّ، وكان مثالًا يُحتذى به في ما يتعلق بالتوافق العائلي؛ بل أنا نفسي، «معروفٌ بعطفي الأبويّ تُجاه إخوتي»[1].

(1) Horace, **Odes**, II 2, v. 6.

8. ليس لنا أن نقارن الصداقة بالعاطفة التي نحسها إزاء النساء، مع أن هذه الأخيرة رهينةٌ أيضًا باختيارنا. ولا يمكننا أن نصنفها في هذه الفئة. فأنا أعترف أن حدّتها=

«لأننا لسنا مجهولين لدى الإلهة
التي تمزج بهموم الحب مرارةً لطيفةً»[1]،

=أشدُّ نشاطًا وأشقُّ حرقةً وأعتى قسوةً. غير أنّها نارٌ متهوّرةٌ وطائشةٌ، قابلةٌ للتغيّر ومتنوعة، وحمى تعرف الحدة كما الغفران، وتمسك بنا من جانب من أنفسنا. بالمقابل تكون الصداقة حرارة عامّة وكونيّة هي علاوة على ذلك معتدلة ومتوازنة. إنّها حرارةٌ ثابتةٌ وهادئةٌ تغلب عليها الرقّة واللطافة، لا عنف فيها ولا ألم.

9. زدْ على ذلك أن الحب ليس سوى رغبةٍ جامحةٍ في ما يهرب منا.

«كما القناص يلاحق الأرنب البري
صيفًا وشتاءً في الجبل والبراري
ولا يوليه اهتمامًا حين يصطاده
فقط حين تنفلت منه الطريدة
نُلفيه يهرع إلى ملاحقتها»[2].

الحب والصداقة

10. ما إن ينساب الحب في حدود الصداقة، أيّ في توافق الإرادة المتبادل، حتى يتبدّد ويتراخى؛ فالمتعة تعلن ضياعه لأنّها تشكّل غايةً جسمانيّةً وتخضع للإشباع. أما الصداقة فإنّ المرء بالمقابل يتمتع بها مقدار رغبته فيها، وهي لا تتسامى ولا تتغذى ولا تتزايد إلا في متعتها بذاتها؛ لأنّها ذات طابعٍ روحيٍّ، والنفس تتلطّف بها. ثمّةَ أحاسيس حبٍ عرَضيةٍ توطّنتْ لديّ، في ما تحت هذه الصداقة الكاملة، حتى لا أقول شيئًا عنه

(1) Catulle, **Épithalame de Thétis et de Pélée**, LXVIII, 17.

(2) Arioste, **Orlando Furioso**, X, stance VII.

يتحدث عنه بإسهابٍ في أشعاره، هذان الإحساسان تعايشا إذًا في ذاتي، يعرف أحدهما الآخر حق المعرفة، لكن من غير منافسة: الأول يحلّق عاليًا محافظًا على وجهته متمكّنًا بازدراء من لعبة الآخر، الذي يوجد بعيدًا أدناه.

11. أما الزواج، فعدا كونه صفقة يكون الدخول فيه وحده أمرًا حرًّا، أما مداه فيكون إكراهيًا ومُلزمًا لا يرتهن بمشيئتنا؛ وعدا أنه صفقةٌ تتمّ عادةً لغاياتٍ ومآرب أخرى غير الصداقة، فإنه يكون عرضةً للعديد من التعقيدات الخارجية يصعب فك خيوطها، لكنها قد تكفي لكسر الرابطة وتكدير مسير عاطفةٍ حقةٍ؛ أما الصداقة، فإنها بالمقابل لا تعرف صفقةً ولا تبادلاً لمصالح أخرى غير ذاتها، ولنضفْ إلى ذلك أن التكوين الطبيعي للنساء في الحقيقة لا يمكّنهن من الاستجابة لتلك العلاقات الحميمة التي تتغذى منها تلك العلاقة الربّانية، فأنفسهن لا تملك ما يكفي من الحزم والعزم لتحمّل ضَيق عقدةٍ بالغة الشدة والدوام، صحيحٌ أن ذلك إن لم يكن -ولو قام تواطؤٌ حرّ وإراديٌّ، حيث تنهل النفوس من اللذة التامة، وحيث الأجساد تأخذ بدورها نصيبها من المتعة، وحيث يكون الفرد ملتزمًا بتمامه- فمن الأكيد أن الصداقة ستكون في الزواج أشدّ اكتمالاً وأكثر تمامًا، لكن ليس لدينا لحدّ الوقت مثال استطاع الجنس الآخر أن يبلغه، بل الأحرى أنه ظل منذ القدم عادة مُبعدًا منه.

لدى اليونانيين

12. أما شكل العلاقة التي كان يمارسها الإغريق[1]، فهي مكروهةٌ في عوائدنا، بل إن ممارستهم لها كانت تستدعي اختلافًا بيّنًا في السن، وتباينًا في السلوك بين العشاق، بحيث لا تناسُب لها مع الاتحاد الكامل الذي إليه ندعو هنا: «فما هو بالفعل حبّ الصداقة هذا؟ ما الذي يجعلهم لا يحبون غلامًا قبيحًا ولا عجوزًا جميلاً؟»، وأكاديمية أفلاطون نفسها

(1) حب الغلمان [المترجم].

لن تكذّب رأيي في ما يبدو لي إذا ما قدمتُ صورةً عما تقوله في ذلك: هذا العشق المجنون الأول لزهرة عمر الشباب الفتيّ، الذي استُلهم فيه ابن الإلهة فينوس في قلب العاشق، والذي كان اليونانيون يُبيحون فيه كافة ضروب الجموح العاشق، والانزلاقات الجمّة التي يفضي إليها الشغف غير المعتدل، لم تكن تنبني سوى على الجمال الخارجي، وذلك الجمال لم يكن سوى تمثيلٍ زائفٍ لنماء الجسد؛ لأنّ الروح لا يمكن أن يكون لها فيه حصتها باعتبار أنها لا تزال في الخفاء، ولا تزال في حال الولادة، قبل أن يبلغ الجسد حال التفتح[1].

13. وإذا ما استبد هذا العشق بقلبٍ ذي قيمةٍ ضحلةٍ، فستكون وسائل الغواية فيه حينئذٍ هي الثروة والهدايا والنِّعم والطمع في بلوغ المسؤوليات التشريفية وغيرها من الفوائد الحقيرة، التي كان بعضهم يستنكرونها قبل ذلك، لكنه إذا استبدّ بقلبٍ أكثر نبلاً، فإن وسائل الغواية أيضًا تكون نبيلةً، من قَبيل دروس الفلسفة والحثّ على تقديس الدين وعلى طاعة الشرائع والموت من أجل الوطن، وعلى الاقتداء بنماذج الشجاعة والحكمة والعدل، حينئذٍ يجهد العاشق في أن يُقبل بزينة نفسه وجمال باطنه، أما حسن صورته فهي قد ذبلت، فنُلفيه بهذا التواطؤ الذهني يطمح لأنّ يُقيم مع المعشوق تفاهمًا أشدّ صلابةً وأوطدَ ديمومةً، وإذا كانوا لا يطلبون من العاشق أن يقوم بفعله بصبرٍ واحتراسٍ، فذلك ما يطلبونه بالمقابل من المعشوق؛ لأنّه يكون عليه أن يحكم على جمالٍ باطنٍ من العسير التعرف عليه واكتشافه، وحين يبلغ هذا المسعى مبلغه، وفي اللحظة المناسبة، تتولّد لدى المعشوق رغبةً في الروحانية تثيرها فيه روحانية الجمال، وذلك الجمال هو الذي كان أساسيًا لأنّ الجمال الجسدي ليس إلا حادِثًا وثانويًا، على عكس ما يكون لدى العاشق.

14. لهذا كان اليونانيون يفضلون المعشوق على العاشق، وكانوا بذلك يدلّلون على أن الآلهة أيضًا تفضله، ويؤاخذون بحدّة على الشاعر آيسخيلوس، في حال علاقة الحب بين أخيلوس وباتروكلوس، أنه منح

(1) Cicéron, **Tusculanes**, IV, 33.

دور العاشق لأخيلوس الذي كان في عزّ يفاعته أمردَ وأجمل فتيان الإغريق، وكانوا يقولون عن علاقة الحب هذه، التي كان جزؤها الأعلى الأكثر سموًّا ونبلاً هو المهيمن فيها، إنها كانت تنجم عنها نتائج إيجابيةٌ بالغةٌ للحياة الشخصية كما للحياة العامة؛ وأن ذلك هو ما كان يصنع قوة الأمم التي كانت تُبيح التعاطي لها، والمناعة الأساس للمساواة والحرية، وهو ما يشهد عليه حسبهم علاقة الحب البطولي بين هارموديوس وأريستوجايتون*[1]، ولهذا كانوا يعتبرونها مقدّسةً وإلهيّةً، ولا يرون خصمًا لها سوى عنف المستبدين وجبن الشعوب، وللختْم، فكل ما يمكننا قوله عن أكاديميّة أفلاطون، أنّ الأمر كان لدى أولئك الناس عبارةٌ عن حبٍ ينتهي إلى صداقةٍ، وبأنهم لم يكونوا بأبعدَ عن التعريف الرّواقي للحب: «**الحبّ هو الرغبة في الحصول على صداقة شخصٍ يستجذبنا بجماله**»[2].

15. لكني سأعود إلى وصفي للصداقة بطريقةٍ أصحّ وأدقّ: «**لا يمكننا أن نحكم على الصداقات إلا حين تكون الشخصية والأمزجة قد تكونت مع العمر وتعزَّزت**»[3].

وزِدْ على ذلك أن ما نسمّيه عادةً «أصدقاء» و«صداقات»، ليست غير علاقاتٍ أليفةٍ تُربط في ظرف معين أو لفائدة معينة، وتغدو بها نفوسنا مترابطةً، وفي الصداقة التي أتحدث عنها، تتوحّد تلك النفوس وتتمازج بشكلٍ تامٍ بحيث تمحو الخيط الذي ربط بينها وتغيّبه، وإذا ما ألحّ أحد لماذا كنت أحبّه، فأنا أحس أن الجواب لا يمكن أن يعبّر عن نفسه إلا كما يلي: «لأنه كان هو، ولأنه كان أنا»[4].

16. وعدا كلّ ما يمكنني قوله -وحتى لو أمعنت في التفاصيل- ثمّةَ قوةٌ لا

---

(1) *عاشقان مثليان كانا مضرب للمثل في الوفاء والتضحية ومقاومة الطغيان السياسي، عاشا في أثينا وقُتلا سنة 514 ق.م.

(2) Cicéron, **Tusculanes**, IV, 34.

(3) Cicéron, **De Amicitia**, XX.

(4) هذا التعبير من لدن مونتيني يذكّرنا بالحب الإلهي لدى الحلاج باعتباره اتحادًا: «أنا الحقّ والحقّ أنا» [المترجم].

تفسير لها وتعود للقدَر الذي يفعل فعله كقوّاد لهذا الاتحاد، نحن كنا نبحث عن بعضنا البعض قبل أن نرى الواحد الآخر، والكلام عن بعضنا البعض يترك علينا أبلغ الأثر، أكثر مما تتركه تلك العبارات بشكلٍ معقولٍ عادةً، وأنا أعتقد أن مشيئة السماء قد قررت الأمور على هذا النحو، ولقد كان التفوّه باسمينا كما لو تبادلنا القُبل، وفي لقائنا الأول، الذي كان بمحض الصدفة بين جمهرةٍ من الناس خلال حفلٍ كبيرٍ في المدينة* [1]، وجدنا نفسينا وقد ملك الحب جوارحنا، كما لو كنا على معرفة الواحد بالآخر من قبل، مترابطين سلفًا، بحيث لا شيء من حينئذٍ صار أقرب إلينا مما كنا قريبيْن الواحد من الآخر.

17. ولقد كتب قصيدةً هجائيةً باللاتينية نشرها، وفيها يعذر ويشرح تواطؤنا الذي بلغ مبلغ الكمال بسرعةٍ باهرةٍ، ولما كان تواطؤا قصير الأجل؛ لأنّه بدأ متأخرًا -بعد أن صرنا رجليْن ناضجيْن، وهو كان أكبر مني ببعض السنين- لم يكن أمامه من ثمَّ وقتٌ ليضيعه، بل لم يكن لذلك التواطؤ أن يسير على هدى الصداقات العادية والضحلة، التي تحتاج على سبيل الحذر للكثير من المقابلات التمهيدية، هذه الصداقة لم يكن لها من أنموذجٍ مثاليٍّ غير ذاتها بحيث لا يمكنها أن تحيل إلا إلى نفسها. ليست ملاحظةً واحدةً خاصةً ولا اثنتين ولا ثلاثة ولا ألف، وإنما نسغٌ غير محدّدٍ من كلّ ذلك المزيج استبدّ بإرادتي وسار بها للغوص والضياع في إرادته؛ ولما كانت قد استبدت بإرادته فقد قادته إلى الغوص والضياع في إرادتي، بالشهية نفسها وبالانطلاق نفسه، وأنا أقول «الضياع»؛ لأننا لم يعد لنا شيءٌ خاصٌ بنا، فلا شيء عاد لي أوْ له.

18. بعد الحكم على تيبيريوس غراكّوس، قام القناصل الرومان بمتابعة كافة من تواطأ معه في مؤامرته، وحين سأل جايوس لايليوس أمامهم جايوس بلوسيوس، الذي كان أفضل صديق لغراكّوس عمّا كان يرغب في القيام به من أجله، أجابه قائلًا: «كل شيء»، فتابع لايليوس: «كل شيء؟ كيف ذلك؟ ولو أمرك بإحراق كافة معابدنا؟» فردّ جايوس

(1) * مونتيني يتحدث هنا عن أول لقاء جمعه بالشاعر إيتيان دو لابويسي. كان ذلك بمدينة بوردو في ما يبدو، عام 1558 م أو 1559 م.

بلوسيوس: «لم يكن له أن يطلب مني ذلك أبدًا». فأضاف لايليوس: «ولو طلب منك هذا مع ذلك؟» فأجابه: «كنت سأطيع أمره». فلو كان نعمَ الصديق لغراكّوس، كما يقول المؤرخون، لما كان عليه أن يُهين القناصل بهذا الاعتراف الأخير المستفزّ، إذ ما كان عليه أن يتخلى عن اليقين الذي كان له في إرادة غراكّوس.

19. بيد أنّ من يعتبرون ذلك الجواب ضربًا من الانشقاق لا يُدركون جيدًا ذلك اللغز ولا يفترضون كما هي الحقيقة أن بلوسيوس كان يمسك جيدًا بغراكّوس تحت جناحه؛ لأنّه كان له عليه أكبر الأثر ويعرفه أشدّ المعرفة. والواقع أنهما كانا صديقيْن أكثر من كونهما صديقيْن للطموح والفتن. فلأنهما وهبا نفسيهما الواحد للآخر تمامًا، كانا يتحكمان أشدّ التحكُّم في عنان ميلهما المتبادل. فلْتقوموا إذًا بتوجيه هذا الزوج الذي يجرّ العربة بالفضيلة وتبعًا للعقل وستعرفون أن جواب بلوسيوس كان تمامًا ما وجب عليه أن يكونه. ولو أن أعمالهما اختلفتْ في ما بعد، فذلك لَعَمري سيكون علامةً على أنهما لم يكونا لا صديقيْن لبعضهما ولا صديقين لنفسيْهما.

20. وفي الختْم، فإنّ هذا الجواب لا معنى له مقدار ما لا معنى لجوابي لو رددْتُ بالإيجاب على من سألني: «لو أمرتك مشيئتك بقتل ابنتك، فهل ستقوم بذلك؟». فذلك لن يدلّل أبدًا أني قابل للقيام بذلك حقًّا، ذلك أني إن لم أشك في مشيئتي قطّ، فإني لن أشكّ أيضًا في مشيئة صديقٍ لي كذلك الصديق الذي تحدثت عنه، لن تنزع مني كافة استدلالات الدنيا اليقين الذي لي عن مقاصده وحكمه العقلي، ولا عمل من أعماله يمكن أن يقدمه لي شخصٌ ما وبأي طريقة منه، لا أخمّن ما يقف وراءه من نوايا. لقد سارت نفسانا معًا في انسجامٍ وتواؤمٍ، مُشبعتيْن بعاطفةٍ بالغة الغوْر، وكشفت إحداهما ذاتها للأخرى كما تُكشَف الأحشاء، بحيث إني لا أعرف فقط نفسَه كما نفسي، وإنما قد أستكين له أكثر مما أستكين لنفسي.

21. حذارِ من وضع تلك الصداقات الأخرى الأكثر شيوعًا في موضع ومستوى هذه. فأنا لديَّ من هذه الصداقات مقدار ما لأي شخصٍ آخر، بل ولي منها الأكثر اكتمالاً في نوعها، لكن المرء منا يمكن أن يخطئ بالخلط بين قواعدها، وهو أمرٌ لا أنصح به أحدًا، فمع هذه الصداقات، على الواحد منا أن يمشي والعنان بيده مسلَّحًا بالحذر والحيطة؛ لأنّ الرابطة لم تقم بشكلٍ يمكن معه ألا نتوسّل فيها بالاحتراس. كان خيلون الإسبرطي يقول: «فكما لو أن عليك أن تكرهه في يومٍ ما، اكرهْه كما لو أنك ستحبه في يومٍ ما». إن هذا المبدأ البالغ الفظاعة حين يتعلق الأمر بصداقةٍ تامّةٍ ومكتملةٍ، يكون صحيًا حين ينطبق على صداقاتٍ عاديّةٍ جاريةٍ، تكون أفضل مثالٍ لعبارة أرسطو: «يا أصدقائي، ليس ثمَّ البتّة من صديقٍ».

22. في هذه العلاقات ذات السمة المميزة، تكون العوامل والمحاسن التي تغذي أنواع الصداقة الأخرى غير خليقةٍ بالاعتبار أو الاهتمام، نظرًا للانصهار التام لإرادتيْنا. فكما أن الصداقة التي أحملها لنفسي لا تزداد بالمعونة التي أقدمها لنفسي عند الحاجة، مهما قال الرواقيون في ذلك، وكما لا أبالي بالخدمة التي أقدمها لنفسي، كذلك فإن اتحاد أصدقاء من قَبيل هذا حين يكون في أجَلِّ الكمال، يجعلهم يحسون بفقدان الإحساس بالواجبات من هذا النوع، فتراهم يطردون من علاقتهم عبارات الشقاق والاختلاف من قبيل: حسنة، لزوم، اعتراف، ابتهال، شكر، وغيرها من العبارات من السجلّ نفسه. فلما كان كلّ شيءٍ بات مشتركًا بينهما، من أمانيّ وأفكارٍ وأحكامٍ وخيراتٍ ونساءٍ وشرف العيش، ولم يعد لهما إلا نفسٌ واحدةٌ في جسديْن، حسب تعريف أرسطو البالغ الصواب، فهما لا يمكنهما طبعًا وأبدًا أن يعيرا أو يهبا شيئًا لبعضهما البعض.

23. لهذا فإن المشرّع -ولكي يشرّف الزواج بتشابهٍ وهميٍّ في الواقع مع هذا الاتحاد ذي الطابع الإلهي- حرّم الهبات بين الزوج والزوجة، وهو يعني بذلك أنّ كلّ شيءٍ يلزم أن يكون لكل واحدٍ منهما، وأنْ ليس عليهما أن يقسما أيّ شيءٍ أو يفرّقاه بينهما. وإذا ما كان، في الصداقة التي أتحدث عنها، على أحد الطرفين أن يهب شيئًا للآخر، فإن من يتلقى الهبة

هو المُلاطف لرفيقه. فهما معًا يسعيان سعيًا إلى أن يُسعدا بعضهما البعض بشكلٍ متبادلٍ، ومن يمنح منهما الفرصة للآخر للعطاء هو من يكون الأكْرم منهما لأنّه يمنح لصديقه تلك المتعة بأن يعمل من أجله ما يرضيه. حين كان الفيلسوف ديوجينيس بحاجةٍ للمال، كان يقول إنه يعيد طلبه من أصدقائه، ولا يطلبه منهم[1]. ولكي أبيّن مقابلًا لذلك في الواقع أسوق لكم مثالًا قديمًا ورائعًا.

24. كان للكورنْثي يوداميداس صديقان هما خاريكسيونوس وهو سيكونيٌّ[2]، وأريثيوس وكان كورنْثيًا مثله. وحين كان على وشْك الموت وهو في حال فقْرٍ وصديقاه غنيان، عمَد إلى تحرير وصيته كما يلي: «وصيتي لأريثيوس العناية بمأكل ومشرب أمي، والاهتمام بكافة حاجاتها خلال شيخوختها، ووصيتي لخاريكسينوس العناية بتزويج ابنتي، ومنحها أكبر دوطة يطيقها، وإذا ما حدث أن توفي أحدهما، فإني أكلف الآخر الحيَّ منهما بحصة صاحبه في الوصيّة». وكان أنّ من رأى الوصية في الأول قابلها بسخريةٍ، بيد أن ورثته ما إن بلغهم الخبر حتى قبلوه بكامل الرضا والحبور. وأحدهما -وهو خاريكسينوس- توفي بعد ذلك بخمسة أيامٍ. فكان من نصيب أريثيوس أن يأخذ على عاتقه حصته من الوصيّة. فسهر بعنايةٍ على مأكل ومشرب الأم. ومن الخمس (تلنْتات) من المال التي كان بملكه، منح وتلتيْن ونصف التّلنْت لزواج بنته الوحيدة، وتلتيْن ونصف التّلنْت لزواج بنت يوداميداس، بحيث إن العرسين أُقيما في اليوم نفسه.

25. إن هذا المثال لممتازٌ، وإذا كان علينا نقدُه ففي كثرة الأصدقاء الذي يتضمّنه. ذلك أن الصداقة الكاملة المكتملة التي أتحدث عنها لا تقبل القسمة. فكل واحد يمنح نفسه تمامًا لصديقه، بحيث لا يتبقّى له ما يمنح لشخصٍ آخر. بالعكس، إنه يأسف لأنّه ليس مزدوجًا وثلاثيًا ورباعيًا، أيّ أن ليس له العديد من النفوس والكثير الأكثر من الإرادات كي يمنحها

(1) ذلك ما يقول ديوجينيس حرفيًا، فتصور الفلاسفة الكلبيين الذين كانوا لا يعتبرون أنفسهم يتسوّلون المال، وانما فقط يطلبون ما لهم، أو ما يدين لهم به الغير.

(2) سيكيون مدينةٌ يونانيةٌ من بيلوبونيزيا قريبةٌ من كورنثوس.

كلها لصديقه؛ أما الصداقات العادية فيمكنها أن تنقسم، إذ يمكننا أن نحب الجمال لدى الواحد، وليونة المزاج لدى الآخر، والسخاء لدى الثالث، ومزيّة الأب لدى هذا، ومزية الأخ لدى ذاك، وهلمّ جرّا. بيد أن الصداقة التي تستبد بالنفس وتتحكّم فيها بسُلطانها، من المحال أن تكون مزدوجةً، فإذا طلب منك صديقان في الوقت نفسه نجْدتهما، فنحو أيّ منهما تهرع في الأول؟ وإذا ما أسرّ لك أحدهما بأمر لا يقبل الإفشاء مع أنه مفيدٌ معرفته للآخر، فكيف تخرج نفسك من تلك الورطة؟

26. إنّ صداقةً وحيدةً وجوهرية تحلُّ كافة الالتزامات الأخرى، فالسرّ الذي أقسمتُ ألا أفشيه لأي واحدٍ، يمكنني أن أفشيه من غير حنثٍ لمن ليس آخر، ما دام هو نفسه أنا. وإنه لأمرٌ رائعٌ أن يتمكن المرء من الازدواج والانفصام، وهو ما لا يعرف قيمته من يزعمون الانقسام إلى ثلاثة[1]، فمن له نظيره لا شيء يبدو له مغالاة، ومن سيصدق أنني من بين الاثنين أحبهما معًا على قدم المساواة، وأنهما أيضًا يحبان بعضهما البعض، وأنهما يحباني مقدار حبي لهما؟ فما هو الشيء الأوحد والأكثر اتحادًا يتضاعف ليتحوّل إلى طائفةٍ، وهو الأمر الأنْدر الذي يمكن أن نجده في الدنيا.

27. تجسّد بقية هذه القصة تجسيدًا ما سبق أن قلت: فقد منح يوداميداس لأصدقائه نعمةً أن يهبّوا لنجدته ولفضْل الإنعام عليه، فهو قد جعل منهم ورثةً لذلك السخاء الذي يتمثّل في منحهم وسيلة عمل الخير له، وهكذا فإن قوة الصداقة تبدو في حاله أوضح وأفصَح من حال أريثيوس. بالجملة، تظل تلك الأمور غير قابلةٍ للتخيل لمن لم يَخْبرها حقّ خبْرها؛ وهي تدفعني إلى أن أقدّر أكبَر تقديرٍ جواب الجندي الشاب لكورش الذي سأله عن المقدار المالي الذي به يمكنه أن يتخلى عن جوادٍ ربح به مسابقةً، وإن كان بمكْنته أن يبادله بمملكة: «لا أبدًا أيها الملك، غير أني يمكنني أن أمنحه سخاءً مني وكرمًا مقابل اكتساب صديق، إنْ أنا عثرتُ على شخصٍ يكون مستحقًا له جديرًا به»[2].

(1) إلامَ يشير مونتيني هنا؟ هل إلى «الثالوث المقدس»؟ سيكون ذلك من الجرأة بمكان. يبدو أن الناشرين والشراح لم يلاحظوا ذلك.

(2) Xénophon, **Cyropédie**, VIII, 3.

28. كان الجندي فصيحًا وهو يقول: «إن أنا عثرت»، ذلك أننا إذا كنا نصادف بسهولةٍ ويُسرٍ أناسًا ميالين للعلاقات السطحية، فإن العلاقة موضوع حديثي، التي طابعُها تواؤمٌ ينبع من أعماق القلب ولا يدرُّ شيئًا، ينبغي أن تكون أسسها كلها واضحةً أكيدةً.

29. في الشراكات التي لا تكون إلا مع طرفٍ واحدٍ، لا يكون لنا أن نهتمّ سوى بالنواقص التي تمسّ ذلك الطرف، لا يهمني أن أعرف ديانة طبيبي أو محاميَّ، فهذا الاعتبار لا علاقة له بالخدمات التي يُسْدونها لي، للصداقة التي تربطني أواصرها بهما، والأمر يسري على تدبير البيت الذي يهتم به مَن هم في خدمتي: فأنا لا أميل كثيرًا إلى معرفة إذا كان خادمٌ ما عفيفًا؛ وإنما إن كان مجتهدًا متقنًا لعمله، وأنا أفضّل بغّالاً لعوبًا على بغّالٍ أهْبل، وطباخًا يقسم بأغْلظ القسَم على طباخٍ جاهلٍ، لا أدعي القول إني أشير على العالم بما عليه فعله، فثمة آخرون يتكلفون بذلك بما يكفي، وإنما بما أفعل أنا فيه.

«أمّا أنا فأستخدمه هكذا
وأمّا أنتم فافعلوا ما طاب لكم»[1].

30. وإني أربط العلاقات الأليفة على مائدة الطعام بالمتعة والهزل لا بالجدّ، أما في سرير النوم فأفضّل الجمال على الطّيبة، وفي المحادثة، الكفاءة حتى من غير نزاهةٍ، وهلمّ جرا.

31. يُقال إن ذلك الذي تمّت مصادفته وهو يمتطي عصًا ويلاعب أبناءه[2] قد توسّل لمن باغته وهو في تلك الحال ألا يحكي ذلك إلا حين يكون له أولاد، معتقدًا أن العاطفة التي ستستبدّ حينئذٍ بنفسه ستمنحه إمكان أن يحكم بعدلٍ وحصافةٍ على تصرفه ذاك. وكذلك أنا، أرغب أيضًا في أن أتوجه إلى أناسٍ جرّبوا ما أقول، لكنني لما كنت أعلم أنّ صداقةً كهذه ما أبعَدها عن العوائد المشتركة وما أندَرها، فإني لا أتوقّع بتاتًا مصادفةً من يمكنه أن يكون حَكمًا يُؤخَذُ بحكمه عليها.

(1) Térence, **Heauton Timorumenos**, I, 1.
(2) Plutarque, **Vie d'Agésilas**, IX.

32. حتى الرسائل التي تركها لنا المؤلفون القدامى في هذا الموضوع تبدو ضعيفةً مقارنةً مع الإحساس الذي يملأ نفسي، وفي هذه النقطة، فإن الوقائع تفوق مبادئ الفلسفة نفسها وتُجاوِزها.

«ما دمتُ سليم العقل، فلا شيء
يمكنني أن أقارنه بصديقٍ لطيف»[1].

33. كان الشاعر القديم ميناندروس يقول: إن السعيد من استطاع أن يُصادف فقط شبح صديقٍ، وما أصْدقَه في قوله ذاك، خاصةً إذا كان قد خبَر ذلك بنفسه. ففي الحقيقة، لو أني قارنت ما عشت من حياتي كله، الذي كان بفضل الله ونعمته رائقًا وميَسّرًا -عدا فقدان أحد الأصدقاء- وخاليًا من المصائب الكبرى ومليئًا بطمأنينة الروح؛ لأني اكتفيت بمواهبي الفطرية والأصلية من غير سعيٍ وراء مواهب أخرى، أقول إذًا لو أني قارنتها بالأربع سنواتٍ التي أُنعم عليّ فيها بالتمتع برفقة تلك الشخصية الرائقة وارتيادها، فلن يكون كلّ ذلك سوى هباءٍ وليلٍ بهيمٍ مملٍّ، وكان اليوم الذي فقدته فيه،

«وهو اليوم الذي سيظل مؤلمًا لي إلى الأبد
والذي سأخلد ذكراه إلى الأبد
فتلك كانت مشيئتك أيتها الآلهة»[2].

34. لا أفعل سوى التسكع فاتر الهمّة، وحتى الملذات التي تأتيني، عوضًا عن أن تعزيني لا تقوم سوى بمضاعفة ألم فقدانه. لقد كان لنا نصفُ كلّ شيءٍ، ويبدو لي أني أغتصب منه قسْطه.

«وقررت ألا أتمتع بأي شيءٍ
فلقد فقدت من أشاطره حياتي»[3].

35. كنت مهيّأً جيدًا ومعتادًا على أن أكون دومًا الثاني في كلّ شيءٍ ومكانٍ، بحيث يبدو لي اليوم أني لست سوى نصف إنسان

(1) Horace, **Satires**, I, 44.

(2) Virgile, **Énéide**, V, 49-50.

(3) Térence, **Heauton Timorumenos**, I, 1, 149-150.

«ما دامت ضربة قَدَرٍ مبكّرةً سلبت مني نفسي
فلماذا أنا، النصف الآخر، أبقى
أنا المشمئزّ من نفسي، والذي لم يبقَ كاملاً على قيد الحياة؟»[1].

36. ليس هناك من فعلٍ أو فكرةٍ لا يأخذني الشوق العارم له فيها، كما سيكون هو أشدَّ لذلك مني، فهو كان يفوقني بمسافة لانهائية في الصداقة كما في مقدُرات وفضائل أخرى غيرها.

«لماذا سيحمر وجهي وأنقهر
وأنا أبكي شخصًا غاليًا جدًا؟»[2].

«يا لشقائي، أخي، بفقدك
معك انطفأت مرة واحدة تلك المسرّات
التي غذّتها في حياتي صداقتك اللطيفة
توفيتَ يا أخي، فانكسرت سعادتي
والقبر معك أخذ نفسَينا معًا
موتك حطّم اليوم كليّةً
مُتع الفكر وملذاته المتواترة
أيها الآخر المحبوب أكثر من الحياة
ألن أراك أبدًا لو أحببتك إلى الأبد؟»[3]

37. لكن، لننصتْ بعض الوقت لهذا الولد ذي الستة عشر ربيعًا.

لما كنت قد وجدت أنّ هذا الكتاب[4] قد وُضع في الواجهة لأغراضٍ خسّيسةٍ، من قِبل أولئك الذين يسعون إلى زعْزعة نظامنا السياسيّ، من غير أن يتساءلوا إن كانوا بذلك سيحسنون صُنعًا، وخلطوه مع كتابات من عجينهم الخاص، فقد تخليت عن إثباته هنا، وحتى لا تتعرض ذكرى المؤلف للتشويه لدى من لم يستطيعوا التعرّف عن كثبٍ على

(1) Horace, **Odes**, II, 17, vv. 5 et sq.
(2) Horace, **Odes**, I, 24, v. 1.
(3) Catulle, **Poésies**, LXVIII-20 ; LXV-9.
(4) يعني كتاب دولابويسي الذي تحدث عنه آنفًا وأخبرنا بعزمه على إثباته كاملاً هنا في المقالات [المترجم].

آرائه وأعماله، فإني أخبرهم أنه في يفاعته تناول هذا الموضوع، تمرينًا منه فقط، وموضوعًا عاديًّا تُنووِل باجترار مئات المرات في الكتب والمصنّفات[1].

38. أنا لا أشك برهةً في أنه كان مؤمنًا بما كتب، إذْ كان من الدقة بحيث لا يكذب حتى وهو يمزح، وأعرف أيضًا أنّه لو كان له الاختيار لكان فضّل أن يولد في مدينة البندقية لا في مدينة سارْلات الفرنسية مسقط رأسه، مع بعض الحق في ذلك، بيد أن ثمّةَ حكمة كانت محفورة بجلال في نفسه، تتمثل في الطاعة التامة للقوانين والشرائع التي عاش في كنفها. فلم يكن هناك من مُواطن أكثر منه اهتمامًا بطمأنينة بلاده وأمانها، ولا من عدوٍّ لدودٍ أكثر شراسةً منه للقلاقل والفتن وبدع زمانه. فهو كان يستخدم بالأحرى مؤهلاته لإخمادها وإضعافها لا لتغذيتها وإشعال فتيلها، وعقله تشكّل على مقاس قرونٍ أخرى غير زمننا هذا[2].

وسأستبدل هذا الكتاب الجدّيّ بكتابٍ آخر كتبه في الفترة نفسها من حياته، غير أنه أكثر مرحًا وبهجة[3].

(1) يبدو في الظاهر هذا القول أشبه بالذم في حق كتاب يمتدحه مونتيني سابقًا ويُعلي من قدره، وقراءة ما سبق يؤكد أن مونتيني يريد بذلك أن يسحبه من تحت بساط من سعوْا لاستغلاله ضد مؤلفه [المترجم].

(2) يبدو هذا المديح هنا غريبًا، فمونتيني يصف فيه لابويسي كما لو كان تقليديًا حذرًا مقدار حذره هو، بيد أنه يبالغ بعض الشيء على ما يبدو؛ لأننا لا يمكن إلا أن تعترينا الدهشة حين نقرأ «خطاب العبودية الطوعية» حين ندرك أن مؤلفه كان «مستسلمًا».

(3) الأمر يتعلق بالقصائد التسع والعشرين لابويسي التي أثبتها مونتيني في طبعة 1588 من «المقالات»، والتي شطبها بيده من نسخة بوردو.

الفصل الثامن والعشرون

تسعٌ وعشرون قصيدةً لإتيان دو لابُويسي

إلى السيدة دو غرامون[1]، كونتيسة دو غيسن[2]

1. سيدتي، أنا لا أهديك هنا شيئًا من عندياتي، فما أقوم به هنا، وما يمكن أن أهديك تملكينه سلفًا، أو إني لا أرى فيه شيئًا يليق بك، بيْد أني أردت أن تكون هذه الأبيات، وفي أيّ مكانٍ يمكن أن نقرأها، حاملة لاسمك في مقدمتها، للشرف الذي ستستقيه هذه الأبيات من أن تكون سيدتها العظيمة كوريساندْي، هذه الهدية بدت لي ملائمةً لك؛ لأنّ ثمّةَ قلّةٌ من النساء النبيلات في فرنسا يحكمن أفضل على الشعر ويتعاطيْن له أكثر، ولأنْ لا أحد يمكنه أن يجعله حيًا رشيقًا كما تفعلين، بفضل التناغم الغني والجميل الذي حبتك به الطبيعة، من بين هباتٍ جميلةٍ عديدةٍ أخرى. سيدتي، هذه الأبيات الشعرية تستحق أن تُعِزّيها أشدّ معزّة، لأنّك ستتفقين معي أنّ منطقة غاسكونيا لم تفرز شعرًا يشهد مثلها على الابتكار والنبل، ويشهد أيضًا على أنّها صادرةٌ عن يدٍ من الغنى والإبداع بمكانٍ.

2. ولا تصيبنّك الغيرة، لأني لم أُهدِك إلا ما تبقى من الأشعار التي طبعتها على يد السيد فْواكس، قريبك النبيل: لأنّ هذه الأبيات المثبتة هنا فيها ما لا أدريه من الحيوية والحرارة اللاهبة، إذ هو كتبها في يفاعته، حين كان يشتعل بحرارةٍ نبيلةٍ وجميلةٍ سأخبرك بفحواها سيدتي في يوم من الأيام مني إليك، أما الأشعار الأخرى فقد نظمها حين كان يفكر في الزواج، تكريمًا لزوجته المقبلة، وفيها ما لا أدري من البرودة الزوجية، وأنا من الذين يلحّون على أن الشعر لا يكون ممتعًا ورائقًا إلا في الموضوعات اللعوب والمتحررة.

هذه القصائد التسع والعشرون لإتيان دو لابويسي التي أثبتها هنا قد نُشِرت مع أعماله الأدبية.

---

(1) كان هذا الفصل في حياة مونتيني يقدم فعلاً القصائد التسع والعشرين للابويسي، وهي موجودةٌ في نسخة بوردو، غير أن مونتيني قام بشطب كافة الصفحات التي تتضمنها، بيد أنه حافظ على هذا التقديم، وأتبعه بهذا التنبيه: «هذه القصائد يمكن الاطلاع عليها في موطنٍ آخر». لذا أحجمت عن إثباتها هنا، فهي لا تشكل في آخر المطاف سوى أشعارٍ للابويسي، لا لمونتيني، وعلينا الاعتراف أنها لا تمنحنا شيئًا يستحق إثباتها هنا، فموضوعها وطبيعتها تقليديان.

(2) ديانا، زوجة الفيكونت لوجيفيني الملقبة «كوريساندي منطقة أندوا الجميلة» تزوجت عام 1567 بفيليبير كونت دو غرامون ودو غيسن، توفيت في حصار مدينة «لافير» عام 1580، وهي معروفة بالأخصّ بالغرام الذي كان يكنّه لها هنري الثالث ملك نافارا، والذي استجابت له، في ما يُروى... وفي هذه الشروط، لا يبدو أن هذا «الإهداء» لا موجب له، لكن، ما دام موجودًا في طبعة سنة 1595، فإني أثبته هنا رغم ذلك.

الفصل التاسع والعشرون

في الاعتدال

1. نحن نفسد باستعمال الأشياء التي بذاتها تكون جميلةً وطيّبةً كما لو أنّ ملْمسنا كان سامًّا. يمكننا أن نجعل الفضيلة رذيلةً لو حضنّاها برغبةٍ بالغةٍ الجموح والعنف. وأولئك الذين يزعمون أن الفضيلة لا تقبل الإفراط أبدًا لأنّها لن تكون أبدًا فضيلةً، لا يقومون سوى باللعب على الكلمات.

«يلزم نعت الحكيم بالعبثي والعادل بالظالم
لو قاموا بجهدٍ كبيرٍ لبلوغ الفضيلة»[1].

2. إنه لتفكيرٌ فلسفيٌّ بالغ اللطف، قدْ نحبّ الفضيلة بشكلٍ بالغٍ واقتراف الغلوّ خلال عملٍ صحيحٍ وعادلٍ. ذلك هو ما جاء في سفر الجامعة: «**لا تكونوا حكماء أكثر مما ينبغي: كونوا حكماء باعتدال**».

3. رأيت رجلًا شهيرًا يضرّ بسمعة ديانته من كثرة ما يُبين عن تديّنه ويظهره أكثر من اللازم لرجل دينٍ من عياره.

4. أحبُّ الناس إليّ ذوو الطبْع المعتدل والمتوسط. والنقص في الاعتدال حتى في فعل الخير لا يُضيرني وإن كان يدهشني. ولا أدري بمَ أسمّي هذا الموقف، وأنا أعتبر أغرب منه لا أصوَبَ موقف أم باوسانيوس التي قدمت المعلومات الأولى عن ابنها المبحوث عنه ورمته بأول حجرِ رجْم عند موته. والأمر نفسه يسري على الطاغية بوستوميوس ألبينوس، الذي كان وراء مقتل ابنه الذي رماه حماس الشباب ضد الأعداء فكان النصر حليفه، بيد أنه جاوز الدور المنوط به. فأنا لا أدعو ولا أتّبع أيضًا فضيلةً تكون من الشراسة بحيث يُؤدّى ثمنها غاليًا.

5. الرامي الذي يرمي بسهمه وراء الهدف يحيد عن هدفه مثله مثل ذلك الذي لا يصل سهمه الهدف، وعيناي يُصيبهما الاضطراب أيضًا سواء أدرتُهما فجأةً نحو ضوءٍ ساطعٍ أو نحو ظلمةٍ بهيمةٍ، لدى أفلاطون[2]

(1) Horace, **Épîtres**, I, 6, v. 15.

(2) في محاورة «جورجياس».

يقول كالّيكليس بأن غلوّ الفلسفة يسبّب التلف، ونراه ينصح بألا يغامر المرء فيه أبعد مما فيه الفائدة، ويضيف أن الفلسفة حين تؤخذ باعتدالٍ تكون ممتعةً ومفيدةً، وأنها في النهاية تجعل الإنسان متوحشًا ومحبًا للرذائل، أيّ جاحدًا للديانات وللشرائع المشتركة ومعاديًا للمحادثة مع الناس وللملذات البشرية، وعاجزًا عن أيّ مسؤولية سياسيّة وغير قادرٍ على نجدة الغير وعن إنقاذ نفسه. وبالجملة، فهو لا يستحق غير صفعةٍ قويّةٍ على الوجنتين. وهو على صوابٍ في ذلك، فالفلسفة بغلوّها تستعبد حريتنا الفطرية، وتجعلنا من خلال دقائق مزعجةٍ نحيد عن السبيل القويم الذي خطته لنا الطبيعة.

مع النساء

6. الإحساس الذي لنا نحو النساء بالغ المشروعية، ومع ذلك فإن اللاهوت لا يكفّ عن لجمه، يبدو لي أني قرأت سابقًا لدى القديس توما الإكويني في أحد المقاطع يدين فيه الزواج بين الأقرباء بدرجاتٍ محرّمةٍ، هذا السبب من بين أسبابٍ أخرى: ثمّةَ خطرٌ في أن هذا الإحساس الذي لنا حيال تلك المرأة يكون غير معتدلٍ، فلو أن العاطفة كما يلزم ذلك كانت تامّةً ومكتملةً، وأثقلناها بالعاطفة الناجمة عن القرابة، فلا شك في أنّ هذا الثقل سوف يحمل الزوج إلى ما يُجاوِز العقل وما لا تُحمد عقباه.

7. المباحث الفكرية التي تنظّم عوائد الناس وأخلاقهم كاللاهوت والفلسفة تزجّ بأنفها في كلّ شيءٍ، فليس ثمّةَ من عملٍ مهْما كان شخصيًا وسرّيًا ينفلت من معرفتهما ولا من قواعدهما. كم هم سُذّجٌ أولئك الذين يدافعون عن حرية النساء، فهنّ أنفسهن يتركننا نُرَجّل امتيازاتهن ما حلا لنا ذلك، فيما أنّ الحياء في الطب يمنعهن من هذا، أريد إذن من لدنهن أن أُعْلم الأزواج، إذا ما وُجد من بينهم من هو بالغ المثابرة، بما يلي: أنّ الملذات التي يحسون بها وهم يقاربون نساءهم مكروهةٌ إذا هم لم يحترموا فيها الاعتدال، وأنّ في ذلك ما يكفي ليجعلهم ينغمسون في الإباحية والإفراط، كما هو الأمر في الملذات المحرمة، تلك المداعبات

غير المحتشمة التي يثيرها فينا الحماس الأول في لعبة الحب ليست فقط وقحةً إزاء نسائنا وإنما هي مثارٌ للمضارّ. فالأحرى بهن أن يتعلمن عدم الحشمة بين أيدٍ أخرى، فهن يملكن ما يكفي من الإثارة لتلبية حاجاتنا، وأنا لم أمارس أبدًا سوى ما يعود لتربيةٍ طبيعيّةٍ وبسيطةٍ[1].

وسَطَ الزواج

8. الزواج رباطٌ دينيٌّ ومقدّسٌ؛ لهذا فإن المتعة التي نستخلصها منه يلزم أن تكون متعةً محتشمةً وجدّيةً وممزوجةً ببعض الصرامة؛ يلزمها أن تكون بالأحرى شهوةً حكيمةً وواعيةً بذاتها، ولمّا كانت غايتها الرئيسة هي الإنجاب، فذلك يوجب التساؤل إن كان مباحًا لنا أن نظل نسعى لممارسة الحب مع زوجاتنا، حين لا نأمل في أن يكون ذلك نتيجةً، إما لأنّهن جاوزن زمن الولادة، وإما لأنّهن في حال حملٍ. فحسب أفلاطون، الأمر يتعلق حينئذٍ بعملية قتل[2]، وبعض الأمم -ومن ضمنها الأمة المحمدية[3]- تعتبر فعلاً شائنًا ومكروهًا مضاجعة المرأة الحامل، وبعضها الآخر يدين المضاجعة وقت الطمث، فزنوبيا كانت لا تستقبل زوجها إلا لعناقٍ واحدٍ، وحين يتمّ لها ذلك تتركه يجري على هواه طول الوقت، لتأذن له فقط بعد ذلك بإعادة الكرّة، إنه مثالٌ رائعٌ ونبيلٌ للزواج.

9. اقتبس أفلاطون من شاعرٍ شعبيٍّ ومأخوذٍ بتلك اللذة الحكاية التالية: غشيتْ الإله يوبيتر يومًا غُلْمةٌ حادّةٌ نحو زوجته بحيث إنه لم ينتظرها أن تبلغ السرير فقلبها على الأرضية، وفي غمرة النشوة الغامرة التي

(1) كان خلّف مونتيني في برلمان بوردو قد سجل على نسخته من «المقالات» اعترافًا من المؤلف بأنه لم ير من عري زوجته إلا يدها ووجهها، بالرغم من أنه كان مع النساء الأخريات ماجنًا وإباحيًا.

(2) الحكم للحرمات التي يصدرها أفلاطون لـ«الأثيني» في كتاب «الشرائع»: «أيها الأثيني، سؤالك جاء في وقته ومحلّه، فلقد قلت أنا أيضًا إن ثمّةَ سبيلًا للتصديق على القانون الذي سيضطر المواطنين إلى التوافق مع الطبيعة في عملية النكاح بقصد إنجاب الأبناء، والامتناع عن وطء الذكور، وعدم السعي عن سبق إصرار وترصُّد إلى إبادة الجنس البشري، وعدم الرمي بالبذور على الصخر لأنها لن تنبت فيه ولن تثمر تبعًا لطبيعتها، والامتناع أخيرًا في مجامعة النساء عن رمي البذرة حيث لا يمكنها أن تثمر».

(3) لا أدري من أين استقى مونتيني هذا الحكم. فالإسلام لا ينهى عن ذلك، وإنما ينهى عن إتيان الحائض؛ كما جاء في القرآن الكريم: {فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ}، البقرة/ 22 [المترجم].

أحسّها نسي القرارات الكبرى والمهمة التي اتخذها مع الآلهة الأخرى في بلاطه السماوي، ومن حينئذٍ وهو يتباهى بأنه أحسّ بنشوة تلك المرة مقدار ما أحسّ به حين افتضّ بكارتها خفْيةً عن أبويه[1].

10. ليس لكافة الملذات وكافة الأفضال النسوية القيمة نفسها لدى كافة الناس، فقد قام إبامينونداس بالأمر باعتقال غلامٍ فاجرٍ، فابتهل منه بّيلوبّيداس أن يطلق سراحه محاباةً له، غير أنه رفض ذلك، ومنح ذلك الفضل لفتاةٍ من معارفه كانت هي أيضًا قد طلبت منه ذلك، قائلةً إنّ ذلك فضلٌ لائقٌ بصديقةٍ لا بقائدٍ عسكريّ. لما كان سوفوكليس زميلًا لبيريكليس في سلك القضاء، حين رأى بالصدفة غلامًا جميلًا يمرّ، صرخ قائلًا: «يا لهذا الغلام الجميل!»، فقال له بريقليطس: «إنه صالحٌ لأي شخصٍ إلا لقاضٍ، إذ لا ينبغي أن تكون يداه عفيفتين فحسب وإنما أيضًا عيناه».

11. كان ملوك الفرس يقبلون حضور نسائهم في مأدباتهم، لكن حين كان الخمر يأخذ بعقولهنّ، وكان من الضروري إطلاق العنان للشهوة، كانوا يعيدونهن إلى سراياهن، كي لا يشاركن في إشباع رغباتهن الجامحة، وكانوا يعوضونهن بجارياتٍ لم يكن لهم إزاءهن واجب الاحترام[2].

12. أجاب الإمبراطور إيليوس فيروس زوجته التي كانت تشتكي من أنه كان ينصاع لحب نساء أخريات، أنه يقوم بذلك بدافعٍ من الضمير ما دام الزواج شرفًا ووقارًا، لا فرصة للبهجة والشهوة الماجنة. وقد احتفظ تاريخنا الكنسي بشرفٍ على ذكرى تلك المرأة التي طلّقت زوجها لأنّه لم يتحمل مداعبات كافة الوقحين والماجنين لها. فليس ثمّةَ بالجملة أيّ شهوةٍ مهما كانت مشروعةً، لا يمكن أن يؤاخذ علينا فيها الغلوّ وعدم الاعتدال.

---

(1) هذا الحدث المقتبس من الإلياذة هوميروس، جاء لدى أفلاطون في الجمهورية.

(2) Plutarque, **Préceptes du mariage**, XIV.

13. لكن -والحق يُقال- أليس الإنسان حيوانًا بائسا؟ فما يكاد يصبح قادرًا، بشرطه الطبيعي، على تذوّق لذةٍ واحدةٍ خالصةٍ وكاملةٍ، حتى يقوم جاهدًا بقمعها بالعقل، كما لو أنه ليس بائسًا بما يكفي، إذ إنّ براعته ومجهوداته تزيد من بؤسه.

«إننا نوظف براعتنا
في زيادة بؤس مصيرنا»[1].

14. تلعب الحكمة الإنسانية بغباءٍ دور الحكمة الحاذقة، بالعمل على الحدّ من عدد الملذات الإنسانية وعذوبتها، بالشكل نفسه الذي تتوصّل به بشكلٍ ناجحٍ وماهرٍ، وبفضل الألاعيب، إلى تجميل المصائب والآلام وصبغها كي تخفّف عنا الإحساس بوطئها. لو كنتُ على رأس حزبٍ دينيٍّ، كنت سأسلك سبيلًا آخر أكثر طبيعيةً بحيث يكون إجمالًا هو سبيل الحقيقة الملائمة والمقدّسة، ولكنت ربما قويًا بما يكفي كي أفرض عليه حدودًا.

15. أطباؤنا الجسمانيون والروحانيون، وكما لو أنهم تآمروا علينا في ذلك، لا يجدون أيّ سبيلٍ آخر للشفاء ولا أيّ دواءٍ لأمراض الجسد والنفس، إلا بالهموم والألم والضنى، فالسهر والصيام وصدريات الوبر والمنافي البعيدة والسجون الدائمة والضرب بالقضيب وغيرها من صنوف العذاب قد سُنّت لذلك الغرض، لكن، بشرط أن تكون عذابًا حقيقيًا، وأن تكون فيها مرارةٌ قارصةٌ. وأن يكون ذلك كما في حال شخص اسمه «غاليو»[2] الذي أُبعد إلى المنفى في جزيرة ليسبوس، فجاء الخبر إلى روما أنه يعيش فيها عيشةً سعيدةً هانئةً وأنّ ما فُرض عليه كعقابٍ قد انقلب لصالحه، وعندئذٍ تُدورك الأمر وأُعيد قرب زوجته وبين أهله وذويه في بيته وفُرضت عليه الإقامة الجبرية فيه كي يكون العقاب ملائمًا لما يلزم عليه أن يحسّه.

16. إذا كان الصوم يقوّي صحة وبهجة شخصٍ، والسمك ألذّ له من

(1) Properce, **Elégies amoureuses** - Cynthia, II, 7, 32.
(2) Tacite, Annales, VI, 3.

اللحم، فإن كلّ ذلك لن يكون له بمثابة الدواء الناجع، وهو ما يسري على الطب الآخر، أيّ طب الجسم، حيث العقارات لا أثر لها لدى من يتناولها بلذةٍ وشهيةٍ، ذلك أن المرارة والصعوبة شرطان لنجاعتها، فمن يتناول نبتة الرّاوند باعتبارها عقارًا مألوفًا سيُفسد استعمالها، إذ عليها أن تكون شيئًا يجرح معدتنا كي يشفيها، وهنا نرى أن القاعدة العامة، التي تفرض أن تكون الأشياء شافيةً بنقائضها، تخيب لأنّ الداء يشفي الداء[1].

17. إن هذه النظرة إلى الأمور تحيل إلى تلك النظرة القديمة التي تتمثل في الاعتقاد بأن السماء والطبيعة تتمتع برؤيتنا ننكّل ببعضنا البعض ونتقاتل، وهي نظرة تتبناها كونيًا كافة الديانات، وفي زمن آبائنا، ضحى السلطان العثماني مراد الأول، خلال استيلائه على برزخ كورنثوس، بستمئة من الشباب اليونانيين ترحّمًا على روح أبيه، كي يكون ذلك الدم مغفرةً لذنوب أبيه. وفي الأراضي الجديدة التي اكتُشِفت في عصرنا، وما أطهرها من أراضٍ بكرٍ مقارنةً بأراضينا، فإنّ استخدام الأضحيات والقرابين أمرٌ شائعٌ. كلّ الأصنام تشرب الدم البشري، وهو ما لا يخلو من أمثلةٍ عديدةٍ على القسوة الرهيبة، إذ تُحرق الضحايا أحياء، وتُخرَج من المحرقة وهي لا تزال حيةً كي يُنتزَع منها قلبها وأحشاؤها، ويُسلخ آخرون ومن بينهم النساء أحياء، ويُلبَسُ آخرون تلك الجلود الدامية وتُصنع منها لهم أقنعة. كما أن ذلك لا يخلو من أمثلة الشجاعة ورباطة الجأش: فهؤلاء الناس المساكين الذين ينتظرون التضحية بهم، من عجائز ونساءٍ وأطفالٍ، يروحون بأنفسهم لجمع الصدقات لتكون أُعطياتٍ لقربانهم، ويتقدمون لتلك المجزرة وهم يغنون ويرقصون مع الحاضرين[2].

18. لكي يجعل مبعوثو ملك المكسيك الغازي الإسباني فرناندو كورتيث يحسّ بعظمة مِلكهم، أخبروه أنه يملك ثلاثين سفينةً يمكن لكل واحدةٍ

(1) يبدو أن مونتيني هنا يعلن الجدل بين الألوباثيا (الطب المغاير أيْ العلاج المحدث لآثار مخلفة لما أنتجه المرض) والهوميوباثيا (الطب التجانسي أو علاج الداء بالداء)، لينتصر الأخيرة التي لن تبلور إلا في القرن التاسع عشر.

(2) Lopez de Gomar, **Histoire générale des Indes**, II, 7.

منها أن تحمل ألف محاربٍ، وأنه يقيم في أجمل مدينةٍ وأكثرها تحصينًا تحت السماء، ثم أضافوا أنه يستطيع أن يقدم خمسين ألف رجلٍ سنويًا قربانًا للآلهة، ويقال أيضًا إنه كان يقوم بالحرب على بعض الشعوب الكبرى المجاورة، لا فقط لتدريب شباب البلد، وإنما كي يُحصل على الأسرى الذين يجعل منهم قرابين، وفي مكانٍ آخر ومدينةٍ أخرى، قتل سكانها، للترحيب بصاحبنا كورتيث، خمسين رجلاً بضربةٍ واحدة قربانًا له.

19. وسأحكي أيضًا ما يلي: بعض الشعوب التي هزمها كورتيث بعثت له برسُلٍ يخبرونه أنهم يعترفون به سيدًا لهم، ويسعون لكسب صداقته، وقد قدّموا له من أجل ذلك ثلاثة أنواعٍ من الهدايا: «سيدنا، إليك خمسة عبيدٍ، إذا كنت إلهًا قاسيًا يتغذى من اللحم والدم فلتأكلْهم، وسنوافيك بعبيدٍ آخرين، وإذا كنت إلهًا رحيمًا، إليك بالبَخور والريش، وإذا كنت من بني البشر فخذْ هذه الطيور والفاكهة».

الفصل الثلاثون

عن أكَلة لحوم البشر

1. حين مرّ الملك بيروس من إيطاليا، ووقف على تنظيم الجيش الذي أرسله الرومان لمحاربته، صرّح قائلًا: «لا أدري أيّ نوعٍ من البرابرة هؤلاء (إذ هكذا كان اليونانيون يسمون كافة الشعوب الأجنبية)، غير أن تنظيم الجيش الذي أرى أمامي ليس البتّة من طبع البرابرة». والشيء نفسه قاله اليونانيون عن جيش فلامينيوس[1] الذي عبر بلادهم. وقاله فيليبّوس[2] نفسه، وهو يراقب من الأعلى التنظيم البارع والترتيب الدقيق لمعسكرٍ رومانيٍ أقامه في مملكته بُوبليوس سولبيكيوس غالْبًا، وهكذا نرى أن من اللازم أن يتفادى المرء تبني الآراء المتداولة، وأن الأجْدى به أن يحكم على الأمور لا تبعًا للآراء الشائعة وإنما من زاوية العقل.

2. لازمني لمدّةٍ طويلةٍ رجلٌ[3] عاش عشرة أو اثنتي عشرة سنةً في ذلك العالم الجديد الذي اكتُشِف في قرننا، في الأرض اليابسة التي رسا بها الأميرال فيلغانيون، والتي سماها فرنسا القطبية. إنّ اكتشاف بلدٍ شاسع الأطراف لأمرٌ بالغ الأهمية، غير أني أتوقّع اكتشافات أخرى في المستقبل، ذلك أن الكثير من الناس المؤهلين أكثر منا قد أخطؤوا الحساب بخصوص هذه الأراضي. وأنا أخشى أن تكون عيوننا أكبر من بطننا، ويكون فضولنا أكبر من مقدرتنا. فنحن نرى بعيوننا كلّ شيءٍ غير أننا لا نعانق سوى الريح.

أطلانطِس

3. يقول أفلاطون على لسان سولون، الذي علم بالأمر من رهبان مدينة سايس بمصر، أنّ في غابر الأزمان قبل الطوفان، كانت توجد جزيرةٌ كبيرةٌ تسمى أطلانطِس، في مضيق جبل طارق، وكانت أكبر من قارتيْ إفريقيا وآسيا معًا، وملوك تلك الجزيرة، الذين لم يكونوا يسودون فقط على الجزيرة وإنما تقدموا بعيدًا في القارة بحيث كان مُلكهم يمتدّ

(1) يتعلق الأمر بالأحرى بفلامينيوس الذي فصل اليونانيين عن سلطة فليبوس الخامس المقدوني.
(2) هو فليبوس الخامس الذي هزمه فلامينيوس في معركة السينوفالهين عام 97م.
(3) لا أحد من المعلقين تساءل عن هوية هذا الرجل، وما يحكيه مونتيني عن عادات وتقاليد أكلة لحوم البشر متوافق إلى حدٍّ ما مع ما قرأه في نصوص الرحالة، بالرغم من أنه يدّعي جهلها.

على عرض إفريقيا حتى مصر، وعلى عرض أوروبا كاملًا حتى توسكانا، قرروا التقدّم نحو آسيا وإخضاع كافة الأمم المحاذية للبحر المتوسط حتى البحر الأسود، ولهذا الغرض، عبروا إسبانيا وغاليا وإيطاليا حتى بلاد اليونان، حيث حاربهم الأثينيون. لكنْ زمنًا قصيرًا بعد ذلك، غمرهم الطوفان هم والأثينيون وجزيرتهم أطلانطِس.

4. لعلّ هذا الدمار الشامل الذي جرّته المياه قد كان وراء التغيّرات المذهلة في تشكيل الأرض، إذ يُعتقد أنّ الماء قد فصل صقلية عن إيطاليا.

«كانت تلك الأراضي قارّةً واحدةً
فانفصلتا، حسب ما زعموا
في تشنّجٍ عنيفٍ للأرض»[1].

وكذلك انفصلت قبرص عن سوريا، وجزيرة وابية عن يابسة بيوتيا، وفي أمكنةٍ أخرى جمع البحر أراضي كانت منفصلة، مغطاة بالطّمْي والرمل الوهاد التي كانت تفصل بينها.

«والمستنقع الذي كان طويلا مستقرًّا تتحرك فيه المجاديف
يغذي اليوم المدن المجاورة
ويتحمل ثقل العربات»[2].

5. لكن لا يبدو أن جزيرة أطلانطِس هذه هي العالم الجديد الذي اكتشفناه مؤخّرًا؛ لأنّها كانت تكاد تلامس إسبانيا، وسيكون أمرًا خارقًا أن تكون المياه قد أبعدتها لأكثر من ألفٍ ومئتي فرسخ، بل بالأخصّ لأنّ البحارة المعاصرين قد صاروا شبه متأكّدين أن هذا العالم الجديد ليس جزيرةً وإنما يابسةً، بل قارة بأكملها مجاورة للهند الشرقية من جهة وللأراضي الموجودة تحت القطبين من الجهة الأخرى، وإذا ما كان منفصلًا عنها، فذلك لن يكون سوى بمضيقٍ صغيرٍ لا يستحق لذلك أن نسميه «جزيرة»[3].

(1) Virgile, **Énéide**, III, v. 414.

(2) Horace, **Art Poétique**, 65.

(3) قد يتعلق الأمر بمضيق بيرينغ الذي سمي باسم ذلك البحار الذي اكتشفه حين أرسل في بعثة على شواطئ جزيرة كامشاتكا، عام 1725 م، فلاحظ أن القارتين الأمريكية والآسيوية لم تكونا متصلتين كما كان الاعتقاد سائدًا في ذلك العصر.

التغرية

6. يبدو أن ثمّةَ حركةٌ كانت في ذلك الجسم العظيم كما هي تحدث في جسمنا، إحداها طبيعية والأخرى بسبب الحمى، حين أتأمل أثر نهرنا «دوردوني» على الضفة اليمنى من جريانه، وألاحظ أنه في عشرين عامًا توسّع مجراه، وأنه حطم أسس العديد من المنازل، أدرك أنّ ذلك عبارةٌ عن حركةٍ هائلةٍ، فلو أنّ النهر سار دومًا على هذا الإيقاع، ولو بقي في المستقبل على تلك الحال، فإنّ مظهر البلد سيتغيّر بالغ التغيُّر، بيْد أن هذه الحركات تخضع للتغيّر، فالنهر يتمدّد طوْرًا من جانب، وطورًا آخر من الجانب المقابل، وقد يكتفي أيضًا بالمكوث بمجراه.

7. لا يستهدف حديثي الفيضانات الفُجائية، والتي ندرك أسبابها؛ ففي منطقة «ميدوك»، على طول البحر، رأى أخي السيد دارساك فجأةً بعض أراضيه وقد غمرتها الرمال التي يرمي بها البحر على شاطئها، ولم يعد سوى رأس بعض البنايات يُرى منها الآن، فزراعته وممتلكاته من الأراضي استحالت اليوم إلى مراعيَ ضحلة، يقول سكان المنطقة إنّ البحر صار منذ مدة يتقدّم بقوة نحو الأرض بحيث إنهم فقدوا أربعة فراسخ من الأراضي، هذه الرمال تشكل طليعته، ونحن نبصر بتلالٍ رمليةٍ هائلةٍ تتقدم بنصف فرسخٍ أمام الموج وتستحوذ على اليابسة.

8. والشهادة الأخرى التي قدمها لنا القُدماء، والتي يمكننا أن نربطها باكتشاف هذا العالم الجديد نجدها لدى أرسطو، إذا اعتبرنا أن هذا الكتيّب المعنون «عن العجائب غير المشهودة» غير منسوبٍ له، فقد جاء فيه أن بعض القرطاجنيين انطلقوا في عبور المحيط الأطلسي، مجاوِزين مضيق جبل طارقٍ، وبعد أن أبحروا في اليمّ لوقت طويل وجدوا أنفسهم أمام جزيرةٍ خصيبةٍ بعيدةٍ كلّ البعد عن الأرض اليابسة مغطاة بتمامها بالغابات وتخترقها الأنهار وتسقي أراضيها، بحيث إنهم من حينئذٍ، هم وغيرهم، استقروا بها هم وزوجاتهم وأبناؤهم، وقد استهوتهم خصوبة أراضيها.

9. وحين أدرك أسياد قرطاج أن بلدهم أضحى سكانه يهجرونه، منعوا للتوّ منعًا باتًّا أيّ واحدٍ يهاجر لهناك، تحت طائلة الموت، وطردوا الوافدين الجدُد منها، خاشين حسب ما قيل أن يتكاثروا عددًا بحيث يأخذون مكانهم وبذلك يخربون دولتهم، وحكاية أرسطو هذه، لا تتناسب أيضًا مع الأراضي التي اكتُشفت مؤخّرًا.

10. ذلك الرجل الذي كان في خدمتي كان رجلاً بسيطًا وغليظ الطبع، وهو ما يُعتبر شرطًا مناسبًا لتقديم شهادةٍ حقةٍ، فالناس ذوو العقل المنفتح يكونون أكثر فضولًا، ويلاحظون الكثير من الأمور، غير أنهم يعمدون دومًا إلى تأويلها، ولكي يمنحوا قيمة لتأويلهم، وإقناع الغير به، لا تراهم يمتنعون عن تحريف القصة شيئًا ما، فهم لا يحكون أبدًا الأمور كما هي على حقيقتها، وإنما يستدعون الوقائع ويحرفونها شيئًا ما عن الطريقة التي بها شهدوها، ولكي يمنحوا صدْقيَّةً ما لحكمهم، ويجعلوك تقتنع به أيّما اقتناعٍ، يضيفون لذلك من عنديّاتهم شيئًا ما، ويطيلون الحكاية ويتوسّعون في وقائعها. على العكس من ذلك، علينا التوقّر على رجلٍ من البساطة بحيث لا يجد هو نفسه ما يبني به الحكاية الزائفة فيمنحها صدْقيتها، والذي لا يكون له عنها أيّ حكمٍ مسبقٍ، وذلك هو حال صاحبي أنا، ومع ذلك فقد أراني لمراتٍ عدّةٍ، بحّارةً وتجّارًا عرفهم خلال رحلته، لهذا أكتفي بهذا الخبر من غير أن أعرف وجهة نظر الرّحالة في المسألة.

11. علينا بطبوغرافيين يمنحوننا وصفًا دقيقًا عن الأماكن التي ارتادوها، لكن، ولأن امتيازهم علينا أنهم رأوا فلسطين، فهم يستغلون الأمر كي يمنحونا أخبارًا عن باقي بلدان العالم! وما أرغب فيه هو أن يكتب كلّ واحدٍ ما يعرف، لا ما لا يعرف، وعن كافة الموضوعات، فهذا قد يكون ذا أخبارٍ أو تجربةٍ معيّنةٍ عن نهرٍ أو عن سقّايةٍ، ولا يعرف أيّ شيءٍ عن الباقي، إلا ما يعرفه جميع الناس، غير أنه للأسف، ولكي يستعرض مجاله الضيق ذاك، يشرع عمومًا في إعادة كتابة كافة مجالات الطبيعة! وهذا العيب يولّد الكثير الجمّ من العيوب غير ذلك.

12. وعَوْدًا لموضوع حديثي -وحسب ما حُكي لي عنه- فأنا لا أجد شيئًا من البربرية والوحشية لدى ذلك الشعب، إلا ما ينعتُه كلّ واحدٍ بربريةٍ ولا يشكل جزءًا من عوائده. فالحقُّ أننا ليس لنا معايير أخرى للحقيقة أو العوائد الجارية في البلد الذي نعيش فيه. فنحن نعتقد أنّ ثمَّ توجد الديانة الكاملة، والحكومة الكاملة، والعوائد الكاملة، التي لا يضاهيها أيّ شيءٍ في الدنيا بأسرها.

أناس هذا الشعب «متوحشون» بالشكل نفسه الذي نسمي «برّية» الفاكهة التي تنتجها الطبيعة بذاتها وفي العادة. والحال أنّ أولئك الذين أفسدنا طبْعهم بتكلُّفنا واصطناعنا، والذين حِدْنا بهم عن سلوكهم العادي، هم الذين يلزمنا أن نسميهم «متوحشين». فالأوائل يحوزون على الخصائص والفضائل الحقيقية المفيدة والطبيعية، في شكلها الحي والقوي، تلك التي شوّهناها في الآخرين، من خلال تكييفها لأجل متعةٍ ذوقنا الفاسد.

13. ومع ذلك فإنّ مذاق وعذوبة مختلف فواكه تلك المناطق التي ليست مزروعةً، ممتازة لذوقنا نفسه، وتضاهي تلك التي ننتجها. فلا مبرِّر إذًا للقول إن الفن يتفوّق على أمنا الطبيعة. من كثرة ما أثقلنا جمال الطبيعة وغنى منتجاتها بابتداعاتنا خنقناها تمامًا، وحيثما ظهرت في طابعها الخالص الكامل تُخْجل خجلاً كبير أعمالنا التافهة والنزقة.

اللبلاب ينبت من تلقاء ذاته.
«وشجر القطْرب ينمو في أجمل في الأماكن القفْراء
والطيور من غير فنّ لها غناء عذب»[1].

14. على الرغم من كافة جهودنا، لا نبلغ حتى محاكاة عشّ أكثر الطيور صِغرًا لا في نسيجه ولا في جماله وفائدته، ولا حتى نسيج أيّ عنكبوتٍ من العناكب. يقول أفلاطون إنّ كافة الأشياء تنتجها إما الطبيعة أو المصادفة أو الفن. وأعظم الأشياء وأجملها تنتجها إما الطبيعة أو المصادفة، أما البسيطة منها والأقل اكتمالاً فينتجها الفن.

(1) Properce, **Élégies amoureuses** - Cynthia, I, 2, 10.

الطبيعيون

15. تبدو لي هذه الشعوب إذًا متوحشةً؛ لأنّها لم تكن عُرضةً للتشكيل من العقل البشري إلا قليلاً، وهي لذلك ظلّت قريبة جدًا من حالها الأصل، إنّها القوانين الطبيعية التي تتحكّم فيهم والتي لا يعْتوِرُها التشوه إلا قليلًا بقوانيننا. فأنا أمام هذا النقاء البالغ أبدأ أحيانًا في الأسف على أننا لم نعرفهم من قبل، في الوقت الذي كان فيه رجال أكثر كفاءةً منا للحكم عليهم. وآسَف لأنّ ليكورغوس وأفلاطون لم تُتح لهما معرفتها، إذْ يبدو لي أنّ ما يمكننا ملاحظته لدى تلك الشعوب يفوق ليس فقط كلّ الصور البيانية التي بها جمّل الشعر بها العصر الذهبي وكل الموهبة التي أبان عنها لتخيّل ظروف السعادة البشرية؛ وإنما أيضًا ولادة الفلسفة والحاجة التي دعت لها. فالقدماء عجزوا عجْزًا عن تخيُّل حالةٍ طبيعيّةٍ لها تلك العذرية والبساطة إلا ذلك الذي نلاحظه بالتجربة، ولم يصدقوا أيضًا أن المجتمع يمكنه أن يحافظ على نفسه بالقليل من الابتكارات وبالأقلّ من الروابط بين الناس.

16. وسأقول لأفلاطون إنه شعبٌ لا يعرف أيّ شكلٍ من أشكال التجارة، وليس له معرفةٌ بالآداب ولا أيّ علمٍ بالأعداد، بل ولا علم له حتى بمصطلح «قضاء»، ويجهل كلّ شيءٍ عن التراتبية، ولا يستخدم الناس خدمًا ولا يعرف لا الغنى ولا الفقر، ويجهل العقود والوراثة والقسمة، ولا انشغال له إلا بالعطالة، ولا احترام يبديه للقرابة إلا المباشِرة منها، وهو شعبٌ لا يرتدي الملابس ولا فلاحة له ولا يعرف المعادن ولا تناول الخمر أو القمح، وكلمات من قبيل الكذب والخيانة والتدليس والبخل والحسد والنميمة والعفو غير معروفةٍ لديه. فهل سيجد أفلاطون جمهوريته التي تخيَّلها بعيدةً جدًا عن هذا الكمال؟

«تلكم هي القوانين الأولى التي منحتها لنا الطبيعة»[1].

17. علاوة على ذلك، فهم يعيشون في بلدٍ بالغ الروعة ومعتدل المناخ، بحيث

(1) Virgile, **Géorgiques**, II, 20.

حسب أقوال شهودي، من النادر أن نرى بينهم مريضًا، بل إنهم أكّدوا لي أنهم لم يروا أبدًا واحدًا منهم يرتعش أو ذا عيونٍ رمداء أو خالي الفم من الأسنان أو محدوْدب الظهر من الشيخوخة. لقد استقروا قرب البحر ومن الوراء تحميهم جبالٌ شاهقةٌ، وبين الاثنين ثمّة مسافة مئة فرسخ. وهم يتمتعون بوفرة من الأسماك واللحوم لا شبه لها بأسماكنا ولا بلحومنا، ويأكلونها من غير إعدادٍ أو طبيخ غير شيّها. وأول من امتطى منهم صهوة حصانٍ، بالرغم من أنهم رأوا مثيل ذلك في ترحالهم، استفزهم استفزازًا في وضعيته تلك بحيث أردوه قتيلاً برميه بالسهام قبل أن يتعرفوا عليه.

18. أكواخهم طويلة جدًا ويمكنها أن تحوي مئتي أو ثلاثمئة نفسٍ، وهي تُفرش بلِحاء الأشجار الكبرى، وأحدها من جهته يأخذ عماده على الأرض بحيث تُسند بقممها بعضها بعضًا، كما بعض مخازن حبوبنا التي ينزل سقفها نحو الأرض فيغدو أشبه بالحائط. ولهم خشبٌ بالغ الصلابة يستعملونه كسكّينٍ قاطعٍ ويصنعون منه سيوفهم وقضبانًا لشيّ طعامهم، وأسرّتهم مصنوعةٌ من نسيج القطن يعلقونها في السقف كما أسرّة سفننا، وكل واحدٍ له سريره؛ لأنّ النساء لا ينمن مع أزواجهن، فهؤلاء يقومون مع شروق الشمس ويتناولون بعد ذلك طعامًا يكفيهم ليومهم بالكامل، إذ لا يلزمهم طعامٌ غير ذلك، وهم لا يشربون الخمر في ذلك الوقت، كما سجلت ذلك موسوعة «سودا» البيزنطية أيضًا لدى شعوب أخرى في المشرق، يشرب أناسها الخمر خارج وجبات الطعام، وهم يتناولون الخمر مراتٍ عديدةً في اليوم ويعبّون منه الكثير، وشرابهم مصنوعٌ من بعض الجذور وله لون بعض خمورنا السمراء، وهم لا يشربون خمورهم إلا دافئةً ويمكن الحفاظ عليها يومين أو ثلاثة، ومذاقها حارٌّ ولا يخدّر الرأس ومفيدةٌ للمعدة، وهو شرابٌ مُسْهِل لمن ليس معتادًا عليه، غير أنه شرابٌ بالغ العذوبة لمن تعوّدوا عليه، وهم يستعملون بمثابة الخبز مادةً بيضاء تشبه الكزبرة المخلّلة، وقد ذقته وطعمه لذيذٌ ويخلو قليلًا من المذاق.

19. وهم يقضون يومهم في الرقص، والشباب منهم يروحون لقنص

الوحوش بأقواسهم، وخلال ذلك، يهتم جزءٌ من النساء بتسخين أشربتهم، وتلك مهمتهن الأساسية، ومن بين العجائز ثمّةَ من يقوم قبل أن يتناولوا طعامهم بالصلوات والمواعظ متنقلًا بين الناس في الكوخ الكبير مكررًا العبارة نفسها العديد من المرات حتى يكمل الدوران فيه، وطوله مئة قدمٍ، وهو لا يطالبهم إلا بأمرين: الشجاعة ضد العدوّ، والحنوّ على نسائهم.

20. وهم لا يكفّون عن التشديد على ذلك الواجب، مردّدين اللازمة القائلة إن النساء هنّ من يحافظ على دفء شرابهم ومذاقه العطر، ويمكن أن نرى في العديد من الأمكنة وخاصة في بيتي شكل أسرّتهم وحبالها وشكل سيوفهم وأساور من الخشب يحمون بها معاصمهم خلال الحرب، والعصي الكبيرة المفتوحة في جانب منها التي ينظمون بصفيرها إيقاع رقصاتهم. وهم يحْلقون لحاهم كليةً، وبشكل أفضل مما نحلق بها لحانا نحن، من غير موسى معدنيٍ غير موسى مصنوعٍ من الخشب أو الحجر. وهم يعتقدون أن الأرواح أزليّةٌ، وتلك التي استحقت مباركة الآلهة تقيم في السماء في المكان الذي تشرق منه الشمس، أما الأرواح الملعونة فهي تقيم في جهة المغرب.

الأنبياء الدجالون

21. ولهم كهنةٌ أو أنبياء لا يظهرون للعموم إلا نادرًا؛ لأنّهم يقيمون في الجبال، لكنهم حين يحلّون بالقرية فتلك مناسبةٌ لعيدٍ كبيرٍ وتجمّعٌ شاملٌ للعديد من القرى -ذلك أن أكواخهم تكاد تكون كما وصفتها آنفًا قريةً كاملةً، وهي متباعدةٌ بفرسخٍ فرنسيٍّ الواحد من الآخر. ويتوجه هذا النبي إليهم أمام الملأ يحثهم على الفضيلة واحترام واجباتهم، بيد أن علم أخلاقهم كله لا يتضمن إلا بنديْن: الشجاعة في الحرب والتعلق بنسائهم، وهو يتكهّن لهم بأمورٍ مستقبلية وما عليهم انتظاره من أعمالهم، كما يقودهم نحو الحرب أو يُثنيهم عنها، لكن بشرطٍ، حين يخفق الرجل في تكهّناته وتأخذ الأحداث مسيرًا غير ذلك الذي تكهّن

لهم به، يعمدون إلى تقطيعه إربًا إربًا إذا ما هم أمسكوا به، ويحكمون عليه كنبيٍّ دجّال، ولهذا فهم لا يرون أبدًا مرة أخرى وجهه إذا ما أخطأ في تكهنه.

.22 الكهانة هِبةٌ من الرب، لهذا فاستخدامها من غير موهبةٍ ضربٌ من الدَّجل يستحق العقاب، فلدى السكوثيين، حين يفشل الكهنة في نبوءاتهم يُمدَّدون وأيديهم وأرجلهم مكبّلةٌ بالحديد على عرباتٍ مليئةٍ بالحشائش يجرها ثوران، ويُحرقون، ومن يتناول شؤونًا يرتهن أمرها بالقدرات البشرية يكون معذورًا في ألا يقوم فيها إلا بما يستطيعه، بيد أن أولئك الذين يخدعون قومهم بأن يزعموا لأنفسهم قدراتٍ خارقةً تنفلت من أفهامنا، أفلا يلزم عقابهم لأنّهم لم يفوا بوعودهم، وعلى وقاحة دجلهم؟

.23 يعلن أكلة لحوم البشر الحرب على الشعوب التي تسكن وراء الجبال، في داخل الأراضي، وهم يسيرون للحرب عرايا لا سلاح لهم غير أقواسهم ونبالهم وسيوف من الخشب المنحوت وذات رأسٍ يشبه رماحنا، ومن المرعب أن نرى هياجهم في المعارك التي لا تنتهي إلا بالموت أو الدم؛ لأنّهم لا يعرفون الهزيمة أو الرهبة، وكل واحدٍ منهم يعود من المعركة حاملاً كتتويج له رأس العدو الذي قتله، ويعلقه في مدخل كوخه. وبعد أن يُعامِلوا معاملةً حسنةً أسراهم خلال وقتٍ طويلٍ، ويمنحوهم كافة وسائل الراحة التي في مُتناولهم، يقوم السيد من بينهم بتجميع الناس الذين يعرفهم في تجمعٍ كبير، ويعقد حبلاً بمعصم أحد الأسرى يجعله به مُبعدًا عنه خوفًا من أن يجرحه، ويمدّ المعصم الآخر لأحد أصدقائه الأعزاء، ثم إنهما ينكلان به معًا بضربات السيف، وما إن يتحققا من موته حتى يعْمدا إلى شيّه وأكله جماعةً، ويبعثا ببعض الأجزاء منه للأصدقاء الغائبين عن الحفل، وليس ذلك كما قد نظنّ لهدف التغذية منه، كما كان يقوم بذلك قديمًا السكوثيون، وإنما لإعلان ثأرٍ مُطلقٍ.

.24 وإليكم الدليل على ذلك: فحين رأوا البرتغاليين حلفاء خصومهم،

يقتلونهم حين يأسرونهم بدفنهم حتى الخصر، ثم يرمون الجزء الظاهر بقوة النبال قبل شنقهم، اعتقدوا أن هؤلاء الناس الآتين من العالم الآخر -الذين كانوا قد نشروا قبْلًا العديد من الرذائل حولهم، والذين كانوا يفوقونهم في مجال الشذوذ والشرّ- لم يكونوا يتّبعون تلك الطريقة ولا هذا النوع من الانتقام إلا عن حقٍ وسببٍ، وأنها طريقةٌ أشد قسوةً من طريقتهم، فتخلّوا شيئًا فشيئًا عن طريقتهم وتبنّوا طريقة البرتغاليين.

وأنا لست بالتأكيد غاضبًا من أن يُدين الناس الرعب والوحشية في سلوكٍ كذلك؛ بيد أني غاضب أشد الغضب من أننا ونحن نحكم على آثامهم، نظل عميانًا إلى هذا الحدّ إزاء آثامنا نحن.

25. أعتقد أن ثمّةَ وحشيةٌ أكثر في أكل إنسانٍ حيًّا على أكله ميتًا، وأن يُمَزَّق جسده الذي لا يزال قابلا للإحساس بالعذاب والتنكيل، وشيّه قطعةً قطعةً ليُرمى به لقمة سائغةً للكلاب والخنازير -كما قرأنا ذلك ورأيناه رؤي العين مؤخّرًا، لا بين أعداء تليدين وإنما بين الجيران والمواطنين من البلد نفسه، وهو أفظع حين تكون ذريعة ذلك الورع والدين- هناك وحشيّةٌ وبربريّةٌ في ذلك أكثر من شيّ جسدٍ بعد الموت وأكلِه.

26. لقد اعتبر خريسيبّوس وزينون، عميدا المدرسة الرواقية، أن لا ضرر من استعمال جثماننا لأي مبتغًى ابتغيناه عند الحاجة لذلك، وأن نستمدّ منه القوت، وهو ما قام به أسلافنا حين حاصرهم يوليوس قيصر في مدينة أليزيا الفرنسية، إذْ قرّروا الكفاح ضد المجاعة التي تسبب فيها ذاك الحصار باستعمال أجساد العجائز والنساء وغيرهم من الأشخاص غير المفيدين في المعركة.

«قيل إن الغاسكونيين بتلك الأطعمة
استمروا على قيْد الحياة»[1].

والأطباء لا يخشوْن من استعمال الجثامين لأمورٍ عدّةٍ تتعلق بصحتنا،

(1) Juvénal, **Satires**, XV, 93.

إما عن طريق الفم أم في شكل مراهم[1]، لكن لم يوجد أبدًا من يكون فاقد العقل لكي يعذر الخيانة والطغيان والوحشية، التي هي آثامنا العادية.

27. يمكننا إذًا أن نسمي أولئك الناس «برابرةً متوحشين» بالعلاقة مع قواعد العقل، لكن لا بالعلاقة معنا نحن، الذين نفوقهم تأكيدًا في كامل أشكال الوحشية والبربرية، فحربهم كاملة النبل والفتوّة، وتحوي مقدارها من المعاذير والجمال مما في ذلك المرض البشري، وهي ليس لها لديهم من أساسٍ غير السعي لبلوغ القيمة والشجاعة. وهم لا ينكرون على الغير البحث عن أراضيَ جديدةٍ لأنّهم لا يزالون يتمتعون بتلك الخصوبة الطبيعية التي تمنحهم من غير عملٍ كلّ ما يحتاجون وبوفرةٍ بالغةٍ، بحيث إنهم لا حاجة لهم لأراضٍ جديدةٍ، فهم لا زالوا في تلك الحال من السعادة التي تتمثّل في أنهم لا يرغبون إلا في ما تفرضه عليهم ضروراتهم الطبيعية، وكل ما يجاوز ذلك يكون نافلًا وضربًا من التّرف.

28. الناس فيهم من العمر نفسه يعتبرون أنفسهم إخوةً، وهم يسمون من هم أصغر منهم سنًا أولادهم، والعجائز هم آباء لكل الآخرين، وهؤلاء يتركون في مشاعٍ لورثتهم الملكية التامة لخيراتهم، من غير صكٍّ غير ذلك الصكّ الخالص الذي تمنحه الطبيعة لمخلوقاتها وهي تخلقهم. وإذا ما عبر الجيران الجبال للهجوم عليهم وحازوا في ذلك على النصر، فإنّ جزاء الغالب يكون المجد وبظل الأكثر شجاعة وبسالة؛ لأنّهم لا يهتمون بالغنائم، ثم إنهم يعودون إلى موْطنهم حيث لا شيء ينقصهم هناك، كما لا تنقصهم مزيّة التمتع بسعادة حياتهم والاكتفاء بها، والآخرون يقومون بالشيء نفسه، بحيث إنهم لا يطلبون من أسراهم من فدية سوى الاعتراف بهزيمتهم.

29. لكن -من بين أولئك الأسرى- قد لا يوجد واحدٌ في التاريخ كله لا يفضل

(1) يعتقد مونتيني على شاكلة بني زمنه في فضائل «للومياء» كدواء.

الموت على الاستسلام، بسلوكه كما بكلامه، مهما كان نصيبه من الشجاعة قليلًا مقارنةً مع الشجاعة التي لا تعرف الهزيمة، ولا نرى منهم واحدًا لا يفضّل طعم المَنون أو أن يُؤكل على أن يُفلت من ذلك. وهم يعاملون بسخاءٍ كي تظل للحياة قيمتها الغالية لديهم، ويُحَدِّثون معهم مرارًا عن موتهم الآجل وعن الأهوال التي تنتظرهم فيه والاستعدادات التي تُقام لذلك الغرض، وعن الطريقة التي ستُقطَّع بها أوصالهم والمأدبة التي سيكونون موضوعًا لها، كلّ هذا كي تُنتزع من أفواههم كلمةٌ واحدةٌ تفصح عن جبنهم أو نذالتهم، أو منحهم الرغبة في الهرب، كي ينالوا امتياز ترهيبهم والانتصار على ثباتهم وعزيمتهم، ففي الواقع، وفي كلّ ذلك، يكمن الانتصار الحق في هذه النقطة بالذات.

«ليس هناك من انتصارٍ حقٍّ سوى ذلك الذي يروّض النفس، ويلزم العدو بالاعتراف بهزيمته»[1].

30. كان الهنغاريون في سالف الزمان محاربْين أشاوس، إذْ متى ما وضعوا العدوّ تحت رحمتهم لا يسيرون أبعد من ذلك، وبعد أن ينتزعوا منه الاعتراف بالهزيمة يسرّحونه من غير معاملةٍ سيئةٍ، ومن غير طلب فديةٍ إلا في أقصى حال، لكي يحصلوا منه على التزامه بعدم التسلح أبدًا ضدهم.

31. لدينا امتيازاتٌ كثيرةٌ على أعدائنا، وهي امتيازاتٌ نستعيرها منهم وليست امتيازاتنا، فأن يكون للمرء أرجلٌ قويّةٌ هي ميزة الحمّال لا الرجل الشجاع، والرشاقة ميزةٌ ثابتةٌ وفطريةٌ، وإنه من قَبيل الصدفة أن نجعل الخصم يتعثّر ويعمى بضوء الشمس في العينين. فأن يكون المرء ماهرًا في فن المسايفة أثرٌ للفن والمعرفة يكون لدى شخصٍ عاديٍّ وجبانٍ. قيمة الرجل توجد في قلبه وإرادته، وثمَّ يكمن شرفه الحقّ. والبسالة هي الحزم، لا حزم الرجلين ولا الساعدين وإنما حزم القلب والنفس، وهي لا تكمن في قيمة جوادنا ولا سلاحنا وإنما في قيمتنا نحن. ومن يسقط ولا تنفلُّ شجاعته لا يضعف، **«فإذا سقط تراه يحارب**

(1) Claudien, **Les Panégyriques, De sexto...**, vv. 248-49.

على الركبتيْن»[1]. ومن يكون في خطر الموت المحْدق، ومع ذلك لا يتخلى عن ثقته بنفسه ويستمر في النظر لعدوّه وهو يُسلم الروح بعينٍ حازمةٍ وشرسةٍ لا يكون مغلوبًا منا وإنما من القدَر، فهو قتيلٌ لا مهزوم. والبواسل من بيننا يكونون أحيانًا هم من لا يحالفهم القدر.

32. لهذا فإنّ بعض الهزائم تكون فوزًا وتضاهي الانتصارات، وحتى تلك الانتصارات الأربعة المتشابهة، والأجمل من بين كافة الانتصارات التي رأتها الشمس بعينها، أيّ معركة سالاميس ومعركة بلاتيا ومعركة ميكالي ومعركة صقلية، لم تجرؤ أبدًا على أن تعارض مجدها مجموعةً بمجد هزيمة الملك ليونيداس وصحْبه في معركة ثرموبيلاي.

33. مَن غير القائد إيسخولاس سار بتلك الرغبة الطموحة والمجيدة لكسب المعركة فخسرها؟ مَن غيره وضع كامل ذكائه وعنايته في ضمان خسارته عِوضًا عن خلاصه؟ فلقد كان مكلّفًا بالدفاع عن معبرٍ من بيلوبونيسوس ضد الأركاديين، وحين أدرك أنه عاجز تمامًا عن ضمان ذلك، نظرًا لوعورة المكان ومسالكه وعدم تكافؤ القوى المتحاربة، ولأنه اعتبر أن كلّ ما يواجه العدوّ يلزم أن يظل في ساحة الوغى، ولأنه اعتبر من ناحية أخرى أنه لا يليق بشجاعته وعظمة روحه وباسمه الإسبرطي أن يفشل في المهمة الموكولة له؛ ها هو يختار موقعًا وسطًا بين هذين الطرفين، بحيث إنه حافظ على الرجال الأكثر شبابًا للدفاع عن بلده وخدمته، ببعثهم للبلد، وبالعدد الباقي الذي لن يؤثر نقصانه على البلد كثيرًا، قرّر الدفاع عن المعْبر، وبالتضحية بهم يجعل الدخول باهض الثمن للعدو، وذلك ما حصل فعلًا.

34. ولقد حاصرهم الأركاديون من كافة الجهات، وبعد أن نكّلوا بهم تنكيلًا، قُتلوا كلهم بحدّ السيف، أليس ثمّةَ فوزٌ مخصَّصٌ للمنتصرين لا يعود أفضل لهؤلاء المهزومين؟ يُحاز النصر المبين بالقتال لا بالخلاص، والشرف والبسالة العسكرية تتمثل في القتال لا في هزْيمة العدو.

(1) Sénèque, **La Vie heureuse, la Providence**, II, VI.

35. وعوْدًا إلى قصتنا عن أكلة لحوم البشر، ما أصعبَ أن يعترف الأسرى لديهم بالهزيمة! بالرغم من كلّ ما يسومونهم من عذابٍ، بل بالعكس، فخلال الشهرين أو الثلاثة أشهر التي يحتفظون بهم فيها كأسرى، تراهم يُشهرون مرحهم، ويحثون أسيادهم على تسريع محنتهم النهائية، ويتحدّونهم ويُكيلون لهم الشتائم ويُعيبون عليهم جبنهم وعدد المعارك التي حلت بهم الهزيمة فيها أمامهم. وأنا أملك أنشودةً ألّفها أسيرٌ نعثر فيها على هذا الملمح الساخر، حيث يقول لهم بأن يأتوا كلهم بشجاعة كبرى، وليجْتمعوا كي يهيئوا عشاءهم من لحمه، لأنهم سيأكلون في الآن نفسه آباءهم وأسلافهم، الذين كانوا طعامًا وغذاءً لجسمه. ويُضيف قائلًا: «هذه العضلات، وهذا اللحم وهذه العروق، هي عضلاتكم ولحمكم وعروقكم، أيها الحمقى المساكين، ألا ترون أن مادة أطراف أسلافكم لا تزال بها؟ تلذّذوا بها جيدًا، فستجدون فيها مذاق لحمكم»، وتلكم فكرةٌ لا علاقة لها بالوحشية والبربرية.

36. ومن رسومهم وهم يُقتلون، وصوروهم وهم يُنزلون بهم الضربة القاضية، يُظهرون الأسير وهو يبصق في وجه من يقوم بقتله مكشّرًا في وجهه، والحقيقة أنهم لا يكفّون حتى آخر رمقٍ فيهم عن كيْل اللعنات لهم وعن تحديهم بكلامهم ورباطة جأشهم. ومقارنةً معنا، ومن غير افتراءٍ ولا كذبٍ، ها هم رجال بالغو التوحش، إذ يلزم عليهم إما أن يكونوا كذلك فعلًا، أو علينا أن نكون نحن كذلك فعلاً. فثمة مسافةٌ باهرةٌ بين طريقة حياتهم وطريقة حياتنا.

37. للرجال في تلك البلدان نساءٌ عديداتٌ، ويكون لهم منهن عددٌ أكثر كلما كانت سمعتهم في الشجاعة أكبرَ وأشدَّ. وذلك أمر مدهشٌ في زواجهم، فإذا كانت غيرة زوجاتنا تحرمنا من حب النساء الأخريات ونِعَمهن، فلدى أولئك الناس بالعكس، تكون الغيرة مشجّعًا على تلك العلاقات. فلما كانت النساء مهتماتٍ بشرف أزواجهن أكثر من أيّ شيءٍ آخر، فهنَّ يعتنين أيّما عنايةٍ بالحصول على أكبر عددٍ من الضرّات؛ لأنّ في ذلك علامةً على شجاعة الزوج.

38. وسوف تندهش نساؤنا لذلك بإعجاب، لكن الأمر ليس معجزةً، إنها فضيلةٌ زوجيّةٌ خاصةٌ، لكنها من مستوى رفيعٍ، ففي التوراة وضعت ليا وراحيل وسارة وصيفاتهن تحت تصرّف زوجيْهن. كما أثارت ليفيا شهوات الإمبراطور أغسطس على حسابها هي. وستراتونيكي، زوجة الملك ديوتاروس، لم تكن توفّر لزوجها فقط وصيفةً حسناء لغرفته تضعها تحت تصرّفه، وإنما ربّت بعنايةٍ فائقةٍ أبناءهما وساعدتهم في وراثة أبيهم.

39. وحتى لا يُعتقد أن ذلك كان بسبب الطاعة العمياء للعوائد، وتحت ضغط سلطة تقاليدهم القديمة، ومن دون تفكيرٍ أو حكمٍ، أو لأنّ لهم أفهامًا بليدة بحيث لا يمكنهم اتخاذ موقفٍ آخر، علينا أن نبيّن بعض ملامح ذكائهم، وذلك المثال الذي حكيت آنفًا مأخوذٌ من إحدى أناشيدهم الحربية، وإليكم أنشودةٌ أخرى عن الحب هذه المرة، هذا مطلعها: «أيتها الحية توقّفي، توقفي أيتها الحية، حتى تأخذ أختي صورتك مثالًا عن حبلٍ مزخرفٍ سأهديه لصديقتي، وبذلك سيكون جمالك ورشاقتك مفضّلَيْن عن جمال ورشاقة كافة الحيات».

40. هذان البيتان هما لازمة الأنشودة، وأنا من كثرة أُلفتي بالشعر أقول إنّ هذا ليس خاليًا من أيّ شيءٍ بربريٍّ فحسبُ، بل هو من نوعٍ من الشعر الماجن، وعلاوةً على ذلك، فإنّ لغتهم لغةٌ عذبةٌ نبرُها رائقٌ وتشبه في قافيتها ورَوِيّها الشعر اليوناني.

41. ولقد جاء ثلاثةٌ من أكَلة لحم البشر هؤلاء إلى مدينة روان[1] حين كان بها الملك الراحل شارل التاسع، وكانوا على جهلٍ تامٍّ بما سيضرّ أيّما ضررٍ في ما بعد بطمأنينتهم وسعادتهم بالاطلاع على أنواع الفساد المستشرية لدينا، ولم يفكروا لحظةً واحدةً في أن ارتيادهم لنا سينجم عنه خرابهم، الذي أخمّن أنه قد سار بعيدًا -إذ من البؤس أن ينصاعوا لفتنة الرغبة في الجديد، وأن يتخلّوا عن عذوبة حياتهم وسمائهم كي

(1) قد يتعلّق الأمر ببوردو، التي دخلها شارل التاسع دخول الفاتح في 9 أبريل 1565م، وحيث قُدم له ممثلون عن الأمم «البربرية»، خاصة منها القبائل الهندية من البرازيل.

يأتوا للاطلاع على حياتنا وسمائنا- خاطبهم الملك طويلاً، وأُطْلِعوا على عوائدنا وبذخنا وعلى ما تعنيه المدينة الجميلة، وبعد ذلك سألهم أحدٌ عن رأيهم في ذلك، راغبًا في معرفة ما أدهشهم أكثر، فأجابوا بثلاثة أمورٍ، نسيت الثالث منها ولا زلت أذكر الأوليْن، وهو ما آسَفُ له: قالوا إنهم وجدوا من الغرابة بمكانٍ أن يكون هذا الكم الهائل من الرجال ذوي اللحية، الأشداء الأقوياء والذين يحيطون بالملك -كانوا يتحدثون ربما عن السويسريين من حرسه- قابِلين لأن يطيعوا صبيًّا[1]، وألا يتم بالأحرى اختيار أحدهم لكي يكون حاكمًا لهم.

42. وقالوا ثانيًا -ففي لغتهم، نراهم يقسمون الرجال إلى نصفين- إنهم لاحظوا بيننا رجالاً موسِرين ومتمتعين بكامل وسائل الراحة، فيما أن الرجال من النصف الآخر، يتسوّلون عند أبواب بيوتهم، هزيلي الأجسام جوعًا وفقرًا؛ فلقد بدا لهم غريبًا أن ذلك النصف يمكنه أن يتحمّل هذا الظلم من غير أن يأخذ بتلابيب النصف الآخر أو يشعل النار في بيوته.

43. تحدثت طويلًا مع أحدهم، بيد أن الترجمان كان يجد صعوبةً في متابعتي، وكان غباؤه يمنعه من استيعاب أفكاري، بحيث لم أستنبط من الحديث شيئًا ذا قيمة تذكر، وإذ إنني سألت الرجل أيّ فائدةٍ يجنيها من التفوق الذي له على أهله -لأنه كان قائدًا، وبحّارونا يسمونه ملِكًا- أجابني أنْ يسير للحرب الأول من بني قومه، ولكي يقول لي كم من الناس يَدينون له بالولاء، أراني مكانًا لكيْ يصوّر لي بذلك مقدار ما يمكن أن يحوي ذلك المكان من بني البشر، وكان تقديري له أربعة أو خمسة آلاف شخصٍ، وحين سألته إن كانت سلطته خارج الحرب تنتهي، أجابني أنّ ما يتبقّى له هو أنه حين يزور القرى الموالية له، كانوا يرسمون له سبُلاً عبر أكمات غاباتهم، كي يمر منها على راحته.

44. كل هذا أمر لا يُستهان به، لكن، ماذا أيضًا؟ إنهم لا يلبسون السّروال.

(1) فعلاً، لم يكن الملك شارل التاسع قد جاوز الخامسة عشرة من عمره.

الفصل الحادي والثلاثون

في لزوم عدم التدخل كثيرًا في الحكْم على المواثيق الربّانية

1. المجال المفضل للدّجَل وموضوعاته المحبَّبة هي الأمور التي لا معرفة لنا بها؛ بحيث إنّ غرابتها تمنحها منذ البداية صدْقية معينة، ولأنها لا تشكل موضوعًا لتفكيرنا العادي، فهي تحرمنا من ثمّ منَ السبيل الذي يمكّننا من محاربته، وذلك هو السبب، كما يقول أفلاطون، الذي يجعل من الأيسر إرضاء الجمهور بالحديث عن طبيعة الآلهة أكثر من الحديث عن طبائع بني البشر. فالجهل يمكّن فعلًا من بلورة موضوعٍ كهذا بحريّةٍ تامّةٍما دام الأمر يتعلق بأمور نجهلها.

2. وما ينتج عن ذلك هو أنْ لا شيءَ يُصَدَّق بحزم أكثر من الأمور التي لا معرفة لنا بها، وأنْ لا أناسَ أكثر وثوقًا بأنفسهم من أولئك الذي يخرّفون، كما هو حال الخيميائيين والعرّافين والمنجّمين وأهل الفراسة والأطباء، «أي كلّ الناس من هذا الصنف»[1]، وسأضيف إليهم إن جرؤتُ على ذلك، العديد من الناس كتراجمة أقدار الربّ ومراقبيها المعروفين، الذين يزعمون معرفة عِلل كافة النوازل، وتبيُّن المقاصد الخفية في أسرار المشيئة الإلهية، ورغم أن تعدُّد النوازل واختلافاتها الدائمة تجعلهم يقفزون مثل البهلوانيين من هذا الطرف لذاك، فلا يتوقفون مع ذلك عن الجري وراء الكرة، فيرسمون بالقلم نفسه الأبيض والأسود.

3. ولدى شعبٌ من شعوب الهنود، حين تسوء أمورهم في التزامٍ ما أو معركةٍ معيّنةٍ، هذه العادة الجديرة بالثناء المتمثلة في طلب العدل من الشمس، وهي إلههم، كما لو كانت تلك المصيبة أمرًا غير عادل، وهكذا فهم يرهنون سعادتهم أو شقاءهم ومصائبهم بالمشيئة الإلهية، التي يودِعونها أحكامهم وأفكارهم.

4. يكفي المسيحي أن يؤمن بأن كافة الأمور تأتيه من الله وأن يعترف بحكمته الربانية التي لا يدركها أحدٌ، وأن يأخذها من جانبها الأمثل، في أيّ شكلٍ جاءته منه، لكني لا أستسيغ ما أرى من عوائد اليوم، كأن

(1) Horace, **Satires**, I, 2.

نسعى لتعزيز ديانتنا وفرضها بازدهار شؤوننا وأعمالنا، فإيمانُنا له أسسٌ أخرى عديدةٌ بحيث ليس من الضروري أن نقيم له سلطانًا على الوقائع. ثمّةَ خطرٌ مُحدِقٌ حين يجد الشعب المتعود على تلك الدلائل الوجيهة، وبذوقه الخاص، إيمانه يهتزّ بسبب وقائع معارضةٍ لتلك الدلائل ومضرّةٍ بها وبه أيّما ضرَر.

5. ذلكم أمر الحروب الدينية التي نحن غارقون فيها، وأولئك الذين كان لهم التفوق والامتياز في معركة لاروش لابيل والذين جعلوا من ذلك الحدث عيدًا، استغلوا ذلك الحظ كما لو أنه يشهد على توكيد حزبهم الديني وقَبوله، لكن حين اضطُروا في ما بعد لتبرير مِحنهم في معركتيْ «مونكوتنور» و«جارناك» كما لو أن الأمر يتعلق بعقابٍ ربّانيٍ، ولمّا كان شعبهم لا يَدين كله بديانتهم، فإنهم يجعلونه يقتنع بسهولةٍ ويُسرٍ أنهم ينهلون من مَعينيْن في آنٍ واحدٍ ويقولون الشيء ونقيضه في الآن نفسه.

6. من اللازم الحديث للشعب عن الأسس الحقَّة للحقيقة، هناك معركةٌ بحريّةٌ ربحناها في الشهور الأخيرة ضد الأتراك تحت قيادة الدون خوان النمساوي، لكن، قد شاء الله في مناسباتٍ أخرى أن يجعلنا نرى انتصاراتٍ باهرةً على حسابنا، من المستهْجن إذًا إخضاع الأمور الإلهية لتقديرنا البشري، من غير أن يضرّ بها ذلك أيّما ضررٍ. وحيث إن آريوس والبابا ليو الأول، وهما زعيما هذه الهرْطقة الآريوسية، ماتا في وقتيْن مختلفين، لكن بميتةٍ مشابهةٍ وغريبةٍ؛ لأنّهما الاثنين تركا حلبة النقاش للتوجّه للمرحاض بسبب مغصٍ في المعدة وأسلما الروح فيه. لكنَّ من يريد أن يعتبر أن هذه النهاية انتقامٌ ربانيٌ بَيّن امتدت مشيئته ليحدث في مثل ذلك المكان، يمكنه أيضًا أن يربط به موت الإمبراطور الروماني هيليوغابالوس، الذي لقي حتفه في المكان نفسه!

7. لكن ماذا أيضًا؟ لقد لقي القديس إيرينايوس المصير نفسه، فمشيئة الله هي أن يُعْلمنا بأن الطيبين والطيبات لهم آمالٌ أخرى، وأن الشريرين والشريرات لهم أن يخشوا أن تقوم الأحداث السعيدة لهذه الدنيا

بترويضهم وإخضاعهم لقوتها الخفية، وتحرمنا من أن نستفيد منها بشكلٍ غبيٍّ، كم هم نزقون أولئك الذين يرغبون في أن يستمدّوا قيمتهم من ذلك تبعًا للعقل البشري، فهم مثل لاعبي المسايفة، لا يصيبون مقتلًا من خصمهم من غير أن يتلقَّوا بالمقابل ضربةً أو ضربتين منه. والقديس أوغسطينوس، في كتاب «مدينة الرب»، يمنحنا عن ذلك دليلاً قاطعًا ضد خصومه، إنه نزاع ينحل بالذاكرة أكثر منها بالعقل، علينا أن نكتفي بنور الشمس التي تمدنا به السماء بأشعتها، ومن سيرفع عينيه مباشرةً نحوها كي يُمنح منها نورًا أكبر، ليس عليه أن يندهش إذا ما كان جزاء غلوّه أن يفقد في ذلك بصره، مَن ذا الذي مِن بين بني البشر يمكن أن يعرف مقاصد الرب؟ «**مَن يستطيع أن يتصوّر مقاصد الرب؟**»[1].

(1) Bible, **Le livre de la Sagesse**, IX, 13.

الفصل الثاني والثلاثون

هل علينا التهرُّب من الملذات بفقْدان الحياة؟

1. لقد لاحظت أن أغلب الآراء القديمة كانت متفقةً على هذه النقطة: لقد حان الوقت للموت حين لا يبقى لنا لا خيرٌ ولا شرٌّ نعيشه، وأن نحافظ على حياتنا دافعين مقابلها ثمن العذاب والانحطاط أمر يعني أن نسير ضد قواعد الطبيعة نفسها، وذلك ما تؤكده هذه القواعد العتيقة:

«إما حياةٌ هانئةٌ أو موتٌ سعيدٌ
من الأفضل الموت حين تصبح الحياة عبئًا
الأحرى بنا ألا نعيش على العيش في العذاب»[1].

2. أما احتقار الموت إلى حدّ استعماله للتخلي عن الثروة والشرف والعظمة وغيرها من الأفضال، أيّ من كافة الخيرات التي نَدين بها لقدَرٍ إيجابيٍّ، كما لو أن القدَر ليس له ما يفعله سوى أن يقنعنا بأن نتركها من غير أن يضيف لنفسه عبئًا جديدًا، فذلك أمر لم أقفْ أبدًا على أحدٍ يوصي به أو يمارسه حتى وقفت على هذا المقطع من سينيكا، ينصح فيه لوكيليوس، وهو شخصيةٌ قويةٌ وتتمتع بسلطةٍ كبيرةٍ لدى الإمبراطور، بتغيير حياة الفخْفخة والمجون التي يعيش والتخلي عن مطامح الدنيا من أجل حياة الزهد الهادئة والفلسفية.

3. ولما زعم لوكيليوس أن في ذلك بعض المصاعب، ردّ عليه سينيكا: «في رأيي إمّا أن تترك تلك الحياة أو أنك ستترك الحياة تمامًا. أنصحك باتّباع السبيل الألطف، وأن تحُلّ لا أن تقطع ما عقدته بطريقةٍ خطأ، وذلك بشرط أن تقطعه إذا عجزت عن حلّه بطريقة أخرى، فليس ثمّةَ إنسانٌ -مهما كان خوّافًا- لا يفضل أن يسقط مرةً على أن يظل في توازنٍ غير مستقرٍ»، كنت سأعتبر هذه النصيحة جديرةً بقساوة الرواقيين، غير أنّ المدهش أكثر أنها مستقاةٌ من إبيقوروس الذي كتب في هذا الموضوع أمورًا من قبيل تلك لإيدومينيوس.

4. أعتقد أني لاحظت شيئًا شبيهًا بذلك لدى الناس من بلدنا، لكن باعتدالٍ مسيحيٍّ واضحٍ، فالقديس هيلاريوس -أسقف مدينة بُّواتيي- ذلك العدو

(1) **Recueil de poètes gnomiques**, éd. Crispin 1564.

اللدود للهرطقة الآريوسية، حين كان في سوريا، بلغه أن أبْرا ابنته الوحيدة، التي تركها هناك مع أمها، كانت مطلوبةً للزواج من النبلاء الأشهر في البلاد، لأنّها كانت ذات تربيةٍ حسنةٍ وفي عزّ شبابها، فكتب لها، كما يمكن أن نقف على ذلك بقراءة قصته، أن تتخلى عن كافة الشهوات والامتيازات التي تغرِّر بها، وأنه خلال رحلته، عثر لها على ما هو أفضل وأكثر استحقاقًا لها، أي زوج له سلطانٌ آخر وجمالٌ وروعةٌ مغايرةٌ، سيهديها فساتين ومجوهراتٍ لا تقدّر بثمنٍ.

5. كان مُبتغاه أن يُفقدها مذاق الملذات الدنيوية كي يوحّدها تمامًا بالله، لكن لذاك الغرض، كان أفضل سبيلٍ وأقصره حسب ما بدا له هو موت ابنته، فلم يفتأ بنذوره ودعواته وابتهالاته يطلب من ربه أن يأخذها من هذه الدنيا أو يدعوها إلى جواره، وذلكم ما حصل: فوقتًا قصيرًا بعد عودته من السفر توفيت البنت، فأظهر لذلك فرحةً عارمةً.

6. يبدو أن هذا الشخص يُزايد على الغير، باعتبار أنه يستعمل هذه الوسيلة من البداية، أما الآخرون فلا يلجؤون إليها إلا بشكلٍ ثانويّ، وأيضًا لأنّ الأمر يتعلق بابنته الوحيدة، لكني لا يمكنني أن أصمت عن نهاية هذه القصة، بالرغم من أنها لا تدخل في صميم حديثي، فحين علمت زوجة القديس هيلاريوس من فِيه كيف أن وفاة ابنتهما كانت نتيجةً لمبتغاه ومشيئته، وكيف أنها ستعرف سعادةً كبرى في أن تُؤخَذ من هذه الدنيا على أن تبقى بها، أحست بجاذبيةٍ كبرى نحو السعادة السماوية الخالدة بحيث إنها لمْ تكفَّ عن الإلحاح على زوجها أن يقوم بالأمر نفسه معها، ولما تقبَّل الله دعاءهما معًا ودعاها إلى جواره بعض الوقت بعد ذلك، فقد كان ذلك موتًا تقبَّلاه بالكثير من البهجة والحبور.

الفصل الثالث والثلاثون

الصدْفة ترافق العقل دومًا

1. تعرف الصدفة الكثير من التغيُّر بحيث تقدّم نفسها لنا في وجوه عديدة، هل ثمّةَ عدلٌ أسرع من هذا؟ بعد أن قرّر دوق فالنتينْوا تسميم أدريانو كاردينال مدينة كورنيتو الذي راح عنده للعشاء في الفاتيكان، مع أبيه البابا أليكسندر السادس، بعث له قبل ذلك بقنينة خمْرٍ مسمومٍ، وطلب من الساقي أن يحتفظ بها بعناية، ولما وصل البابا قبل ابنه وطلب خمرًا، فإنّ الساقي الذي كان يعتقد أن تلك القنينة لم يُطلب منه الحفاظ عليها إلا لجودة نبيذها، سقى البابا منها، والدوق نفسه الذي جاء في وقت الشراب، شرب منها معتقدًا أن القنينة المسمومة لم تُفتح بعد، بحيث كان موت الأب للتوّ، وبحيث إنّ الابن مرض من ذلك وتعذّب كثيرًا، وسيلقى مصيرًا آخر، أسوأ وأدهى من ذلك.

2. يبدو أحيانًا أن الصدفة تتلاعب بنا في الوقت المناسب، وتلك حال الإقطاعي سيّد إستري، وكان حينئذٍ حاملَ علمٍ سيد منطقة فاندوم، وسيد منطقة ليك وهو ملازمٌ في فيلق دوق أسكوت، فحين كانا معًا يطمعان في الزواج من أخت السيد دو فونغيسيل، وإنْ كانا من حزبيْن متعارضيْن -كما يحدث ذلك لدى الناس المجاورين للحدود- فاز بها سيد منطقة ليك، لكن في يوم العرس، والأمرّ من ذلك قبل النوم، انتابت العريس الرغبة في أن يدخل في صراعٍ على شرف زوجته الجديدة، والخروج للمشاركة في معركةٍ صغيرةٍ قرب سانت أومير، لكن سيد منطقة إستري الذي كان مشاركًا وفائزًا فيها قام بأسره[1]، ولكي يزيد من امتيازه، جاءته الزوجة الآنسة.

> **«مضطرةً لتنتزع نفسها من يدي زوجٍ شابٍ**
> **قبل أن يمر شتاءٌ وشتاءٌ آخر أيضًا**
> **لتكون أمامهما ليالٍ طويلة لإطفاء لهيب نارهما»**[2].

وقدمت له بنفسها الطلب، مبتهلةً لأريحيته أن يعيد لها الأسير، وهو ما قام به، لأن النبالة الفرنسية لا ترفض شيئًا للسيدات النبيلات.

---

(1) Mémoires, des frères Du Bellay.

(2) Catulle, **Poésies**, LXVIII, 81-83.

3. ألا تكون الصدفة أحيانًا أشبه بالفنان؟ فقسطنطينوس بن هلينا، أسّس إمبراطورية القسطنطينية، وبعد قرون من ذلك، كان قسطنطينوس بن هلينا هو من قضى عليها!

4. أحيانًا يخْلو للصدفة أن تنافس المعجزات، خلال حصار الملك كلوفيس لمدينة أنغوليم الفرنسية، قيل إنّ الأسوار انهارت من ذاتها بفضل المشيئة الإلهية. وقد اقتبس الشاعر جون بوشيه من مؤلفٍ آخر هذه الحكاية: حين كان الملك روبير يحاصر إحدى المدن، ترك الحصار كي يتجه إلى مدينة أورليون ليشرّف عيد القديس إنيانوس، وحين كان متعبّدًا، وفي لحظةٍ من لحظات الصلاة، انهارت أسوار المدينة المحاصرة من ذاتها[1].

أما في حروب إيطاليا، فما حدث هو العكس تمامًا، فحين كان القائد رانس يحاصر مدينة إيرون، وضع لغْمًا تحت مكانٍ من السور، بيد أن السور انفجر عاليًا ثم نزل على أساسه، بحيث إنّ المحاصرين ظلوا في أمانٍ كما كان أمرهم قبل الانفجار.

5. في أحايين أخرى تلعب الصدفة دور الطبيب، حين أهمل الأطباء الطاغية ياسون طاغية فيراي[2] بسبب ورم كان في صدره، قرَّر أن يتخلّص منه ولو بالموت، فرمى بنفسه بجموح بالغ في المعركة وسط الأعداء، فتلقى ضربة سيفٍ اخترقت صدره في مكان الورم بحيث اجتثت هذا الأخير، فبرئ منه.

6. ألم تتفوق الصدفة على الرسام بروتوجينيس في امتلاك قواعد فنه؟ حين انتهى هذا الأخير من رسم صورة كلبٍ، وكان منهكًا، كان راضيًا عن كافة أجزاء اللوحة سوى الجزء الذي لم يستطع أن يصور فيه كما ابتغى زبَد الحيوان ولُعابه، ومن خيبة أمله الكبرى، أخذ ماسحته الإسفنجية، ولمّا كانت مضمّخة بكافة الألوان، رماها على اللوحة قصْد

(1) اقتبس مونتيني هذه المعجزات من حوليات أكيتين للشاعر الفرنسي جون بوشيه (1476-1557).

(2) يتحدث بلينيوس وسينيكا عن هذه الحال الخارقة.

محو كلّ شيءٍ، ومن حسن حظّه الخارق أنّ الماسحة ضربت اللوحة تمامًا مكان فم الكلب، ووضعت عليه اللمسة الأخيرة، وهو ما كان الفنّ قد عجز عن بلوغه.

7. ألا توجّه الصدفة أيضًا وأحيانًا مشاريعنا لتصحيح مسيرها؟ كانت إيزابيل ملكة إنجلترا عازمة على العودة من زيلاند نحو مملكتها لمعاضدة ابنها ضد زوجها. وكانت ستلقى حتفها لو أنها بلغت المرسى الذي اختارت؛ لأنّ أعداءها كانوا متربّصين بها هناك، غير أن الصدفة سارت بها ضد مشيئتها، فرست في أمان في مرفأ آخر. ولنفكّرْ أيضًا في ذلك الرجل من القدامى الذي وهو يعتقد أنه يرمي بحجر على كلب أصاب زوجة أبيه فأرداها قتيلةً، ألم يكن على حقٍ في التلفظ بهذه الأبيات:

«الصدفة أكثر حكمةً منا»[1].

8. قام إيكيتيس برشوة جنديْن لقتل تيموليون، الذي كان مقيمًا بأدْران بصقلية، وقد قرّرا القيام بفعلتهما حين يكون الرجل بصدد القيام بقُربان، وبما أنهما اختلطا بالحشود، صارا يتبادلان الإشارات التي تعني أن الوقت قد حان لفعْلتهما، لكن، ها هو رجلٌ ثالثٌ يضرب بالسيف أحدهما في الرأس ويُرديه قتيلًا ويلوذ بالفرار، وبما أن الآخر اعتقد أن أمرهما قد كُشف هرع للالتجاء للمذبح طالبًا الحماية وواعدًا بقول الحقيقة بكاملها، وبينما هو يحكي قصة المؤامرة، ها هو الرجل الثالث يُمسَك به، بحيث إنّ الشعب بات يدفعه ويعامله بقسوةٍ وسط الصخب، لاقتياده أمام تيموليون والناس المهمّين في الجمعية.

9. وحين مثُل أمامه، طلب العفو، قال إنه لم يقمْ سوى بما هو عادلٌ، أي بقتْل قاتل أبيه، وهو ما تمت البرهنة عليه، بفضل شهودٍ قدمتهم له الصدفة، بحيث أكدوا أنّ أباه في مدينة ليونتيني قد قتله حقًا الشخص الذي ثأر له منه، وهكذا مُنح مالا كثيرًا لأنّه بالصدفة، وبسبب مقتل

(1) Ménandre, **in Poètes gnomiques**, p. 218.

أبيه، قد أنقذ من الموت «أبا كافة الصقليين»، فهذه الصدفة تفوق في النجاعة أحكام الحكمة البشرية.

10. وفي الختام، ألا نكتشف في ما سيلي مظهرًا من مظاهر أفضالها ومن طيبتها وعنايتها الخاصة؟ كان آلُ إغناطيوس، الأب والابن، المنفيّان من روما بقرارٍ من حكومة روما الثلاثية، قد قررا القيام بهذا الواجب النبيل: بوضع حياتهما بين يديْ بعضهما البعض وبذلك حرمان وحشية الطواغيت من النيْل منها؛ فهجم أحدهما على الآخر والسيف بيديهما، غير أنّ الصدفة وجهت رأس السيفيْن مما نجم عنه ضربتان قاتلتان، لكن الصدفة عملت أيضًا، وتشريفًا لصداقة رائعة مثل تلك، على أنهما قد فضُل لهما فقط الوقت لأنّ ينزعا من الجروح يديهما المسلحتيْن والمضمّختين بالدماء ليتعانقا وهما على تلك الحال بشكلٍ عنيف، بحيث إن الجلادين كان عليهم أن يقطعوا رأسيهما معًا، تاركين جسديهما متحديْن بهذه الرابطة النبيلة، وجراحهما متصلة، يمتص بعضها دماء البعض الآخر ومعها ما بقي فيهما من حياةٍ.

الفصل الرابع والثلاثون

ما ينقُص عوائدنا

1. كان المرحوم أبي شخصًا يتمتع بحِلْمٍ بالغٍ مع أنّه كان رجلاً لا يملك غير تجربته ومزاياه الفطرية. وقد قال لي يومًا بأنّ أمنيته هي أن يكون في كلّ مدينة مكان معلوم ومخصّص لكل من يريد شيئًا بحيث يتوجه إليه ويسجل طلبه لدى المكلف، مثلًا: «أرغب في بيع جواهر، أو أبحث عن جواهر لبيعها»، وآخر يبحث عن أشخاصٍ لمصاحبته إلى باريس، وآخر أيضًا يريد تشغيل شخصٍ له مؤهلات في الأمر الفلاني، وشخص يبحث عن مشغّلٍ، وآخر يريد عاملًا، كلّ واحدٍ حسب حاجته. ويبدو أن هذه الوسيلة في الربط بين بعضنا البعض ستحسّن بشكلٍ واضحٍ من العلاقات بين الناس، فمن البداهة أن ثمّةَ دومًا وضعيات نكون فيها في حاجةٍ بعضنا للبعض الآخر، تترك الناس في حيرةٍ من أمرهم لأنّهم لا يتوصلون إلى التفاهم في ما بينهم.

2. أحسست بالعار الذي يسِم عصرنا حين علمت أن شخصيتين شهيرتين بعلمهما ومعارفهما قد توفيتا من جرّاء الجوع تحت أعيننا، وهما: ليليو جيرالدو في إيطاليا واللاهوتي سيباستيان كسطاليو بالأراضي الألمانية، وأنا أعتقد أن ثمّةَ العديد من الناس لو علموا بالأمر لكان بإمكانهم أن يستقدمانهما لديهما بمنحهما وضعية ممتازة، أو كان بإمكانهم على الأقل مدّ يد العون لهما حيثما كانا. العالم ليس من الفساد إلى هذا الحدّ بحيث لا يوجد شخص يرغب بقوّةٍ في أن تُستعمل الأموال التي يتوفر عليها بفضل أهله، وطالما مكّنه القدر من الاستفادة منها، في حماية الشخصيات النادرة والمتميزة في أيّ ميدانٍ من الميادين من العوز، والتي تلمّ بها المصائب حتى الرمق الأخير، إنه يستطيع على الأقل أن يجعلهم في وضعيةٍ إن لم ترقْ لهم، فذلك سيكون راجعًا لعيْبٍ في عقولهم.

3. كانت لأبي في مجال التدبير المنزلي طريقةٌ أتفق معها، غير أني لا أتمكن من اتّباعها، فإضافةً إلى سجلّ الشؤون المنزلية، الذي يدوّن فيه أدقّ الحسابات والمصروفات والصفقات، التي لا تتطلب اللجوء إلى موثّقٍ والتي يتكلف بها مقتصد، كان يأمر خادمه الذي يُعتبر كاتبه الخاص بأن يحرر مذكّراتٍ يُثبت فيها ما يحدث من أشياء مهمةٍ، ومن ثمّ، يوميًا، كلّ ما يمكن أن يخدم تاريخ بيته. وهذا التاريخ ممتعةٌ إعادة قراءته حين

يبدأ الزمن في محو ذكراه، وهو يكون عادةً مفيدًا في إخراجنا من الحيرة بصدد السؤال: متى بدأ هذا الأمر أو ذاك؟ ومتى انتهى؟ أيّ الشخصيات العظيمة زارتنا في بيتنا؟ وكم مكثت به من وقتٍ؟ أعراسنا ومفقوداتنا وأسفارنا ووفياتنا، والأخبار السّارة أو الحزينة التي تلقيناها، وتغيير أهمّ الخدم لدينا، أيّ بالجملة، كافة هذه الأشياء. إنها عادةٌ قديمةٌ، غير أني أعتقد أنّه من اللازم استعادتها، كلٌّ على طريقته، وأنا أعاتب نفسي عتابًا جمًّا على عدم القيام بذلك.

الفصل الخامس والثلاثون

عن عوائد الملْبس

1. حيثما أردت الترحال، يكون عليّ أن أخرق حاجزًا يتعلق بالعوائد، يغلق عليَّ بإتقان كافة المنافذ. كنت أتساءل في هذا الفصل البارد، إذا كانت تلك الطريقة التي تتّبعها الشعوب المكتشفة مؤخرًا، في التجول عرايا كانت تعود لحرارة الجو، كما نقول ذلك عن الهنود والعرب، أم أنها متأصّلةٌ في البشر. ففي موضوعاتٍ من قَبيل هذه، حيث يلزم التمييز بين القوانين الطبيعية وتلك المبْتدعة، وبما أن كلّ ما هو تحت السماء كما تقول الكتابات المقدسة يخضع للشرائع نفسها[1]، فإن الناس الأذكياء يَعزونها عادة إلى التنظيم العام للعالم حيث لا شيء مصطنع.

ولما كان كلّ شيءٍ متَّصلا متواصلًا كي يظلّ على حاله، فمن غير المحتمل أن نكون الوحيدين الذين كنا في حال خَللٍ وعوَزٍ بحيث لا نستطيع البقاء من غير معونةٍ خارجيّةٍ، لهذا فكل شيءٍ حيّ، كما النباتات والأشجار والحيوان، يتوفّر طبيعيًا على وقايةٍ كافيةٍ يحمي بها نفسه ضدّ عوادي الزمن.

«لهذا أغلب الأجسام مكسوّة
بالجلد والقوقعة أو بالحراشف»[2].

كذلك أعتقد أننا كنا كذلك نحن أيضًا.

2. لكنْ، كما أولئك الذين يطفئون نور الشمس بالنور الاصطناعي، فقد أطفأنا وسائلنا الخاصة بوسائل مستعارةٍ من الغير. ومن السهل أن ندرك أن العادة هي التي تجعل مستحيلًا علينا ما ليس كذلك. فمنْ بين تلك الشعوب التي لا تستعمل الثياب، ثمّةَ مَن يعيشون في أجواءٍ مشابهةٍ لأجوائنا. بالإضافة إلى ذلك فإنّ الشيء الأكثر رقّةً فينا هو ما يوجد دومًا سافرًا، أيّ العينين والفم والأنف والأذنين، ولدى فلّاحينا وأسلافنا، الصدر والبطن أيضًا، ولو كنا وُلدنا مع وجوب ارتداء تنّورةٍ وتبّانٍ على «الطريقة اليونانية»، فليس من شكٍ أن الطبيعة كانت ستحبو ببشرةٍ أكثر سُمكًا ما تركتْه معرَّضًا لعوادي الفصول، كما

(1) كانت هذه العبارة من الكتاب المقدس منقوشةً على ركائز مكتبةِ مونتيني.
(2) Lucrèce, **De la Nature**, IV, 936-37.

فعلت ذلك بأطراف الأصابع أو باطن الأرجل.

3. لماذا يبدو كلّ هذا صعبًا على التصديق؟ فأنا أجد أن بين طريقتي في اللباس وطريقة الفلاح من منطقتنا أكثر من الاختلاف بينه وبين شخصٍ لا يتدثّر إلا بجلدته.

وكم من أناسٍ في تركيا يسيرون عرايا من باب الورع!

4. لا أدري مَنْ[1] سأل أحد متسوّلينا رآه يرتدي قميصًا في عزّ الشتاء، ويبدو مرحًا كمن يتلفّع حتى الأذنين بالفرْو: «كيف يمكن أن تصبر على ذلك؟»، فأجابه: «أنت يا سيدي وجهك سافر، أما أنا فكلّي وجه». يحكي الإيطاليون أن مهرّج دوق فلورنسا، حسب ما أعتقد، الذي طلب منه سيده كيف يتحمّل البرد الذي لا يستطيع تحمّله حتى هو وهو لا يلبس كثيرَ لباس، أجابه قائلًا: «اتَّبعْ وصْفتي، البسْ كافة الملابس التي في ملكك، كما أفعل مع ملابسي، ولن تعاني أكثر مما أعاني من البرد». لم يستطع أحدٌ أن يقنع الملك ماسنسن*[2]، حتى خلال شيخوخته الأخيرة أن يغطّي رأسه، مهما كان البرد والعاصفة أو المطر، ويُقال الأمر نفسه عن الإمبراطور الروماني سيفيروس.

5. يقول هيرودوتس إنه لاحظ خلال المعارك بين المصريين والفرس -ولدى غيرهم أيضًا- أنّ جمجمة المصريين من بين الموتى كانت بلا جدالٍ أقوى من جمجمة الفرس[3]، لسببٍ وجيهٍ أن هؤلاء الأخيرين كانوا يغطون رأسهم بطاقيةٍ أو عمامةٍ، بينما كان المصريون حليقي الرؤوس منذ الطفولة ولا يضعون عليها شيئًا.

6. كان الملك أجيسيلاوس قد فرض على نفسه قاعدة أن يرتدي اللباس

(1) هذا الرجل هو فلوريمون دو ريماند، قاضٍ ومؤرخ ابتاغ من مونتيني مسؤوليته عام 1570م، وقد كتب على هامش نسخته من «المقالات» ما يلي: «كنت أنا الذي الذي قدمت ذلك الطلب لشاب...».

(2) * ماسنسن أو ماسينيسا (238 ق.م تقريبًا – 148 ق.م) هو أول ملوك نوميديا.

(3) Hérodote, **L'enquête,** III, 13.

نفسه صيفًا كما شتاءً. وحسب سويتونيوس، كان يوليوس قيصر يمشي أمام جيوشه غالب الأحيان على القدمين، حاسِر الرأس تحت الشمس أو تحت المطر. ويقال أيضًا الأمر نفسه عن حنبعل.

«وحينئذٍ انهال على رأسه الحاسِر وابلٌ
من المطر وطوفان السماء»[1].

7. أحد سكان البندقية [2] الذي عاش طويلاً في بلاد الهند الشرقية[3] -والتي عاد منها حديثًا- قال إن الرجال والنساء هناك، يغطون أجسامهم، لكنهم يسيرون دومًا حفاة القدميْن حتى وهم على صهوة الجياد، كما أن أفلاطون ينصح بشكلٍ غريبٍ، وفي سبيل صحة الجسد بكامله، ألا نمنح للرأس والقدمين أيّ غطاءٍ غير الغطاء الذي منحتها الطبيعة.

8. وستيفان باتوري، الذي اختاره البولونيون ملكًا عليهم، بعد هنري دونجو الذي صار بعدئذٍ ملكًا علينا تحت اسم هنري الثالث، والذي يُعتبر في الحقيقة أكبر أمراء عصرنا، لا يلبس أبدًا قفازاتٍ، ولا يعمد أبدًا إلى تغيير القبّعة التي يحملها في الداخل حين يخرج، مهما كان الجو في الخارج، وحتى في عزّ الشتاء.

9. إذا كنتُ لا حلّ عُرى سترتي أو أن أكون مُهمل الهندام، فالمزارعون في جوارنا سيحسون بالانزعاج إن لم يكونوا كذلك. يزعم الكاتب الرماني فارّو*[4] أن الرومان حين أمروا بالحفاظ على الرأس حاسرًا في حضرة الآلهة والقضاة، فذلك كان بهمّ الحفاظ على صحتنا ولتقويتنا ضد تقلبات الجوّ، أكثر منه باعتباره سمة احترامٍ وإجلالٍ.

10. وما دمنا في منطقةٍ باردةٍ، وأننا نحن الفرنسيين تعوّدنا على ارتداء

---

(1) Silius Italicus, **La Guerre punique**, I, 250-51.

(2) هذا الرجل من أهل مدينة البندقية، هو غاسبارو بالْبي الذي كان قد نشر عام 1590 رحلة إلى بلاد الهند الشرقية.

(3) Platon, **Lois**, XII.

(4) * هو الكاتب الروماني ماركوس تيرينتيوس فارّو (116 ق.م – 27 ق.م).

ملابس متعددة الألوان -لا أنا، إذْ لا أرتدي إلا الأسود أو الأبيض، مثل أبي- لنضفْ هذا: يحكي القبطان مارتان دو بيليه أنه رأى خلال الحملة على لوكسمبورغ حالات جليدٍ قاسيةٍ بحيث إنّ المؤونة من الخمر كان يُكسر بالساطور، وكان يُوزّع بوزنه على الجنود، وكانوا يحملونه في القفَف. ويقول أوفيديوس شيئًا من القبيل نفسه:

«يحافظ الخمر على شكل القلة
لم يعد مشروبًا، إذ يشربه الناس قطعًا مثلجةً»[1].

11. الصقيع يكون قاسيًا في مصبّ مستنقع ميوتيدا*[2] أكثر منه في المكان الذي خاض فيه ميثريداتس*[3] المعركة ضد العدو حافي القدمين وانتصر عليه، وقد فاز عليهم أيضًا في الصيف في معركةٍ بحريّةٍ.

12. كان امتياز الرومان ضعيفًا في المعركة التي خاضوها ضد القرطاجنيّين قرب مدينة بياتشنزا[4]؛ لأنّهم هاجموهم ودمهم متجمّد وأطرافهم يقطعها الزمْهرير، أما حنبعل فإنه أشعل النار في كافة أطراف معسكره لتدفئة جنوده، ووزّع الزيت على كافة فرقه العسكرية كي يدلكوا بها أطرافهم المتجمّدة ويجعلوا أعصابهم أكثر مرونةً ولحماية مسام بشرتهم من الريح الصّرْصر العاتية التي كانت تهبّ حينئذٍ.

13. كان تراجع الجيوش اليونانية وهي تعود من بابل نحو بلدها[5] تراجُعًا مشهورًا بالمصاعب والمعاناة التي كان عليها التغلب عليها، فلقد استقبلتهم مثلًا في جبال أرمينيا عاصفة ثلج عاتيةٌ بحيث ضلّوا طريقهم ولم يعودوا يتعرّفون على البلاد، وحين باغتتهم العاصفة ظلوا يومًا وليلةً من غير أكلٍ أو شربٍ، وأغلب دوابهم ماتت أو أصابها العماء بسبب تجمد الماء في عيونها كما بسبب النور الباهر للثلوج، والكثير منها تجمدت أطرافها وتصلّبت وأصابتها القُشَعْريرة ولم تعد تحير حراكًا

(1) Ovide, **Tristes**, III, x, 23.

(2) * ذلك هو الاسم القديم لبحر آزوف.

(3) * على الأرجح المقصود هنا هو الملك ميثريداتس.

(4) Tite-Live, **Annales**, XXI, 54.

(5) إنه تراجع (العشرة آلاف) عام 400 ق. م. وقد رواه كسينوفون الذي كان يقوده.

من البرد، مع أنها ظلت على قيد الحياة.

14. وقد رأى الإسكندر الأكبر شعبًا يدفن أشجاره المثمرة في الشتاء لحمايتها من الصقيع، ويمكننا أن نشهَد ذلك أيضًا لدينا.

15. أما بخصوص الثياب، فقد كان ملك المكسيك يبدّل ثيابه أربع مرّاتٍ في اليوم ولا يرتديها بعد ذلك أبدًا[1]، وكان يهب تلك التي يستبدلها سخاءً جزاءً منه للغير، بل لم تكن أيّ آنيةٍ ولا مزهريةٍ ولا صحنٍ من مطبخه ومائدته يُقدَّم له مرتين.

(1) Gomara, **Histoire Générale des Indes Occidentales**..., II, 3.

الفصل السادس والثلاثون

عن كاتو الصغير

1. لا يحدث لي أن أقترف الخطأ الشائع المتمثل في الحكم على الغير انطلاقًا من نفسي، فأنا أمنحه عن طيب خاطرٍ مزايًا وخصالاً مختلفة عني، فإذا ما التزمت بشيءٍ لا أفرض على الغير أن يتَّبعوني فيه كما يفعل ذلك أغلب الناس. فأنا أتصور مئات الطرائق المختلفة في العيش وأعتقد فيها. وخلافا لغالبية الناس أقبل بالاختلاف بسهولةٍ أكبر من التشابه، وأعفي هذا الآخر غيري من قواعدي الخاصة ومبادئي، وأعتبره فقط في ذاته من غير أن أقارنه بنفسي، إذْ أتمثّله حسب أنموذجه هو. ومع أني لست رجلاً عفيفًا، فأنا معجب كثيرًا بعفّة الرهبان، وأعتبر أنّ طريقة عيشهم حسنةٌ، فأنا أضع نفسي مكانهم في الخيال وأحبهم وأكرّمهم خاصةً وأنهم مختلفون عني، وأنا أرغب حقًا في أن يُحكم علينا بشكلٍ شخصي وألا يُحكم عليَّ انطلاقًا من الأمثلة العامة.

2. لا يفسد ضعفي الشخصي أبدًا الرأي الحسن الذي يلزم أن يكون لي عن قوةٍ من يستحقون ذلك. «**فثمة أناسٌ لا يمتدحون إلا ما يعتقدون أن بإمكانهم أن يتخذوه قدوةً**»[1]. وأنا أحبو على طمي الأرض، غير أن ذلك لا يمنعني من أن أنتبه في السماء للسموّ الباهر لبعض النفوس البطولية، وإنه لأمرٌ خارقٌ لديَّ أن يكون لي حكمٌ صحيحٌ إذا لم تكن أفعالي غير قادرةٍ على ذلك، وأن أستطيع على الأقل أن أحافظ على هذا الجزء الأساس من نفسي خاليًا من أيّ فساد، بل إنه لأمرٌ رائعٌ أن تكون مشيئتي في حالٍ جيّدةٍ حين تكون رجلاي خائرتيْ القوى.

3. هذا القرن الذي نعيش هو قرنٌ كثير الفظاظة، خاصةً في منطقتنا، بحيث ليست ممارسة الفضيلة هي ما يغيب فيه وإنما تصورها، وكلمة فضيلة نفسها لم تعد فيه سوى كلمةٍ تُتداول في المدارس.

«... إنهم يعتقدون أنّ الفضيلة ليست سوى كلمةٍ
وأنّ الغابة المقدسة ليست سوى خشب»[2].

(1) Cicéron, **Tusculanes**, II, 1.

(2) Horace, **Épîtres**, VI, 31.

«الفضيلة التي عليهم تشريفها، بالرغم من أنهم عاجزون عن فهمها...»[1].

إنها حلْيةٌ يمكن تعليقها على الحائط أو في طرف اللسان أو في طرف الأذن، للزّينة...

4. نحن لم نعد نشهد أيّ عمل فاضل، والأعمال التي تبدو كذلك ليست فعلًا فاضلًا؛ لأننا مدفوعون بالربح والمجد والخوف والعادة وغيرها من الأسباب التي لا علاقة لها بالفضيلة. فالعدل والشهامة والعناية التي نُبدي عنها يمكن أن تحمل هذا الاسم، بالنظر إلى المظهر الذي تمنحه للغير والتي تفصح عنه لمرأى الناس ومسمعهم، لكنها لدى صاحبها، هي ليست فضيلةً أبدًا، فالهدف من ذلك يحرّكه سببٌ آخر؛ والحال أن الفضيلة لا تعترف بما ينتمي لها إلا بما يُعمَل انطلاقًا منها ومن أجلها وحدها.

5. بعد معركة بّوتيدايا العظمى والشهيرة التي قادها اليونانيون تحت إمرة باوسانيوس وانتصروا فيها على القائد الفارسي مردونيه والفرس، تقاسموا حسب العادة المجد والنصر ومنحوا لشعب إسبرْطة القيمة الأكبر في المعركة. والإسبرطيون أنفسهم، وهم حكام جيّدون في هذه الأمور، حين كان عليهم أن يختاروا من بينهم أيّ واحدٍ عليهم أن يمنحوه شرف السلوك الحسن في الحرب، قرروا أن أرسطوديموس هو من بينهم من أبلى البلاء الحسن في الحرب، غير أنهم لم يمنحوه الجائزة لأنّ بطولته كانت وراءها الرغبة في التخلص من العتاب الذي طاوله في معركة ثرموبيلاي، وبالرغبة العارمة في الموت بشجاعة كي يمحو العار الذي لحقه في المعركة السابقة.

6. أحكامنا لا تزال مريضةً، فهي لا تقوم سوى باتباع فساد عوائدنا، وأنا أرى أن أغلب عقول زمننا تجتهَد في التعتيم على الأمجاد الرائعة والكريمة للأزمان السالفة، مقدمةً عنها تأويلاتٍ منحطةٍ ومُبتدعةٍ لها ظروف وأسباب من غير أساسٍ، يا له من ذكاءٍ حقًا! امنحوني العمل الأفضل والأكثر صفاءً وسأجد له خمسين مقصدًا رذيلًا. ومن يرغب في

(1) Cicéron, **Tusculanes**, V, 2.

التعاطي لذلك. فالله يعرف كم من أنواع الأفكار تعاني إرادتنا الباطنة. وهم بنميمتهم يعتقدون أنهم أذكياء، غير أنهم أغبياء أكثر من كونهم شريرين، بل إنهم فقط ثقلاء ويعانون من الفظاظة الفائقة.

7. بالمقابل، ولمساندة تلك الأعْلام العظيمة، سأبذل الجهد كما الحرية نفسها التي يأخذها الآخرون لاغتيابهم، فتلك الشخصيات الاستثنائية التي أُجمِعَ عليها كي تكون أنموذجًا ومثالاً للعالم، لن أتردّد في إعادة القيمة الاعتبارية الشريفة لها كلما استطعت تأويلها وتصويرها في صورةٍ تليق بها. وعلينا أن نقبل بأن المجهود الذي يتطلبه ذلك من الفكر لا يبلغ شأْوَ ما يستحقون، فواجب الناس الأخيار هي أن يرسموا للفضيلة صورًا رائعةً من قبيل هذه الصورة. وإن ما يقوم به الآخرون، على العكس من ذلك، يقومون به بدافع شرير أو بمنطق الرذيلة ذاك المتمثل في إنزال معتقداتهم إلى مستواهم كما أوضحت ذلك، أو بالأحرى، أن نظرتهم ليست أوضح ولا أجود بما يكفي، ولا هي معتادةٌ على تصور روْعة الفضيلة في صفائها الطبيعي. ويقول بلوتارخوس إنّ البعض في زمنه كان يعزو وفاة كاتو الصغير إلى الخوف الذي كان يحسه من يوليوس قيصر، لقد كان هذا الأمر يقلقه عن حق، ويمكننا أن نقدّر من ذلك كم كان سيُصدَم بقول أولئك الذين نسبوا موته إلى طموحه، كم كان غباء أولئك كبيرًا! فذلك الرجل كان يفضّل أن يتعرض للعار بالقيام بعملٍ عادلٍ وكريمٍ على أن يعمل شيئًا من أجل المجد، كان حقًّا أنموذجًا، اصطَفته الطبيعة كي تبيّن إلى أيّ حدّ يمكن أن تسمو الفضيلة وقوة الأخلاق بالإنسان.

8. بيْد أني لست هنا لأتناول هذا الموضوع الكبير، أريد فقط أن أجعل الأشعار الجميلة لخمسة شعراء لاتينيين التي أنشدوها امتداحًا لكاتو تتفاعل معًا لصالحه. والطفل ذو التربية الحسنة سيجد أن القصيدتين الأوليين، بالمقارنة من القصائد الأخرى، فاترةً أما الثالثة فأكثر حيويةً، غير أنها تعاني من المبالغة في القوة، وسيرى أن الوصول للقصيدة الرابعة يتطلب ثلاثة أو أربعة أنواعٍ من المخيلة، بحيث سوف يشبك يديه إعجابًا بها. أما القصيدة الأخيرة فتتقدم على القصائد الأخرى

بمسافةٍ واضحةٍ سيرى أنها لا يمكن أن يملأها أيّ عقلٍ بشريٍّ، وأمامها سوف يصاب بالدهشة وبالتأثر البالغين.

9. وإليك هذا الأمر المدهش: لدينا من الشعراء أكثر من شرّاح الشعر، إذ إنّ من الأسهل كتابته على فهمه، ففي المستوى الأول يمكننا الحكم عليه تبعًا لقواعد الفن، أمّا الشعر الجيد السامي والإلهي فهو يجاوِز الأفهام وقواعدها، ومن يميّز فيه جمال رؤية حازمة وهادئة، فهو لا يراها فعلاً، مقدار ما لا نرى بهاء البرق، إنه شعر لا يتبع سبُل أفهامنا، فهو يحملها بعيدًا ويُثير فيها القلاقل، وذلك العنف الذي يخِزُ من يستطيع اختراق ذلك الشعر، يصيب أيضًا من نتحدث له عنه أو من ننشده له، مثلما أن المغناطيس لا يكتفي باستجذاب إبرةٍ، وإنما يبْلغها أيضًا بقدرته على استجذاب إبَرٍ أخرى. ويمكننا بوضوح أن نلاحظ في المسرح أن الإلهام المقدس لآلهة الفن، الذي منح للشاعر الغضب والرثاء والكراهية، التي أخرجته من ذاته وسارت به على هواها، يُبَلَّغ أيضًا من خلاله إلى الممثل ومن خلال الممثل إلى الجمهور. إنها أشبه بإبَرٍ ممغنَطَةٍ متعلّقةٍ بعضها ببعضٍ.

10. منذ صباي، كان للشعر فيَّ ذلك الأثر المتمثل في حملي خارج نفسي، بيْد أن هذا الأثر الحاد، الفطري لديَّ، قد تغيّر بطرائق متعددة، عبر تنوع الأساليب، وذلك لا يعني أن ثمّةَ أساليب عاليةٌ وأخرى منحطّةٌ في كلّ نوعٍ، وإنما يبدو الأمر كما لو أنه يتعلق بالعديد من الألوان، ثمّة بادئ ذي بدءٍ سيولةٌ مرحةٌ ومبدعةٌ، ثم دقةٌ حادّةٌ وعاليةٌ، وأخيرًا ثمّةَ قوةٌ بلغت نضجها وتماسكها، لكن الأمثلة توضح ذلك أفضل: أوفيديوس ولوكانوس وفرجيليوس، أولئك هم شعراؤنا في حلبة الشعر.

«كاتو كان في حياته أعظم بكثير من يوليوس قيصر».

هكذا قال أحدهم[1].

«كاتو الذي لا يقهر، بعد أن قهر الموت».

(1) Martial, **Épigrammes**, VI, 32.

هكذا قال الآخر[1].

وقال ثالث، وهو يتحدث عن الحرب الأهلية بين يوليوس قيصر وبّومبيوس:

«قضية المنتصر تروق للآلهة
لكن قضية المغلوبين، كان لها كاتو»[2].

ويضيف الرابع من بين المدائح ليوليوس قيصر:

«كان الكون عند قدميه، إلا روح كاتو المتمرّد»[3].

وأخيرًا، ينتهي هكذا رئيس الجوقة، بعد أن صمَت عن أسماء عظام الرومان:

«عليهم كان كاتو يفتي بالشرائع»[4].

(1) Manilius, **Astronomica**, IV, 87.
(2) Lucain, **La guerre civile ou La Pharsale**, I,128.
(3) Horace, **Odes**, II, 1, 23.
(4) Virgile, **Énéide**, VIII, 70

الفصل السابع والثلاثون

كيف أننا نبكي ونضحك على الشيء نفسه

1. جاء في التاريخ القديم أن أنتيغونوس غضب غضبًا شديدًا من ابنه حين قدّم له هذا الأخير رأس الملك بيروس الذي كان مع ذلك عدوه، بعد أن قُتل لتوّه وهو يحاربه، وهو حين رآه بدأ يبكي بالدمع المدْرار. كما أن رينيه دوق لورين أسف كثيرًا لمقتل شارل دوق بورغونيا الذي انتصر عليه، وجاء للحداد عليه عند دفنه. وفي معركة أوري، التي انتصر فيها كونت مونتفور ضد عدوّه شارل دو بلوا خصمه في دوقية بريتاني، بدت على المنتصر علامات الحزن والأسى أمام جثمان عدوّه المتوفى، حين نقرأ كلّ هذا، علينا ألا نصرخ فجأة.

«وهكذا تخفي النفس أهواءها
في مظهرٍ معاكسٍ
في وجهٍ مرحٍ طورًا، وطورًا سعيد»[1].

2. حين قُدم ليوليوس قيصر رأس بومبّيوس، يقول المؤرخون بأنه أدار وجهه لتفادي رؤية منظرٍ بشعٍ وغير لائقٍ، فلقد كان بينهما ذكاءٌ في العلاقة وتفاهمٌ في تدبير الشؤون العامة، والكثير من الأشياء المشتركة في مجال الحظ، والعديد من الخدمات المتبادلة والتحالفات، بحيث لا يلزم أن نفهم أن ذلك التصرف ضرْبٌ من الزيف أو الافتعال، كما يعتقد ذلك هذا الشخص:

«اعتقدَ من غير خطرٍ أن يكون زوج الأم
والدموع التي ذرف كانت دموع تماسيح
وأنينه كان يصدر عن قلب فرحان»[2].

3. والحقيقة أن أغلب أعمالنا ليست سوى قناعٍ وأصباغٍ، بحيث من الأصحّ أحيانًا أن يكون

بكاء الوريث ضحكات تحت القناع[3].

(1) Pétrarque, **Canzoniere**, LXXXI, 9-11.
(2) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, IX.
(3) Publius Syrus, **in Aulu-Gelle, Nuits Attiques**, XVII,14.

لكننا ونحن نحكم على تلك الأمور، علينا أن نأخذ في الحسبان أن النفس فينا تكون غالبًا عرضةً لأهواءٍ مخالفةٍ، وكما أن جسدنا -كما يُقال لنا- عبارةٌ عن مجموعةٍ من الأمزجة، فقائدها هو ذلك المزاج الذي يقودنا عادةً تبعا لطبْعنا. والأمر يسري على النفس فينا، فبالرغم من أنها تخضع لنوازعَ متنوعةٍ تتنازعها، فلابد أن يكون ثمّةَ تيارٌ أو ميْلٌ يكون سيّد الميدان، بيد أنّ هذه الهيمنة ليست بالتامة، فبالنظر إلى حركية نفوسنا ومرونتها، يحدث أن تسود فيها أحيانًا الميول الأشدّ ضعفًا من بينها، ولفترةٍ قصيرةٍ.

4. لهذا نحن نرى الأطفال، وهم الذين يتّبعون عفويًا الفطرة، يضحكون ويبكون على الشيء نفسه، غير أنهم ليسوا الوحيدين: فلا أحد من بيننا يمكنه أن يتبجّح، حين يسافر سفر المتعة، بأنه حين يفارق عائلته وأصدقاءه، لا يحس برجفة في قلبه، وإذا لم تنفلت منه الدموع تمامًا، فإنه لا يضع رجله على مهماز جواده من غير أن يكون وجهه مطبوعًا بالحزن وملامحه موسومةً بالكآبة، وحتى حين تدفَأ قلوب الفتيات النبيلات بشعلة حبٍ، يلزم اقتلاعهن بالقوة من عنق أمهاتهن لتقديمهن لأزواجهن، مهما قال هذا الرفيق الطيب:

«هل فينوس تكون شريرةً مع العرائس الجدد؟
أم أنهن يتهكّمن من فرح آبائهن
بتلك الدموع الزائفة التي تنهمر منهن مدرارًا
في عتبة غرفة العروسين؟
أقسم بكافة الآلهة، أن تلك الدموع مفتعلة»[1].

ولهذا ليس من المدهش حقًا أن نأسى على من كنا لا نحبه حيًا، حين يموت.

5. حين أوبّخ خادمي، أقوم بذلك من غير افتعالٍ، إذ إنّ لعناتي ليست مصطنعةً، لكن ما إن ينقشع هذا الغيم، فإني أمدّ له يد العون من قلبي إذا كان بحاجة لي، وأقلب الصفحة تمامًا من حينئذٍ. وحين أنعته بالمغفل

(1) Catulle, **Épithalame de Thétis et de Pélée,** LXVI, 15.

أو بالثور فأنا لا أسعى البتّة إلى أن ألصق به تلك الألقاب مرّةً إلى الأبد، ولا أحس بأني أناقض نفسي حين أنعته بعدئذٍ بأنه رجلٌ نزيهٌ. ليس ثمّةَ من لقب يحدِّدنا نهائيًا وكونيًا، فلو لم أخشَ أن أُنعت بالأحمق، لن يكون ثمّةَ من يومٍ ولا من لحظةٍ لن يسمعني فيها الناس أصرخ فيها على نفسي: «تبًا لكَ من غبيٍ!»، ومع ذلك لا أعتقد أني مغفَّلٌ أبدًا.

6. وإذا ما اعتقد الناس، لأني ما دمتُ بشوشًا أنظر بحب لزوجتي وتارة أكون عبوسًا في وجهها، أن ذلك السلوك أو الآخر مفتعل، فإنهم على خطإٍ فادحٍ، فحين ودّع نيرون أمه التي رمى بها إلى البحر، أحس بغمْر ذلك الوداع الأمومي، بحيث إنه أحس تجاهها بالرعب والشفقة.

يُقال إن نور الشمس ليس من طبيعةٍ متّصلةٍ، بل إنها ترسل لنا دومًا بأشعةٍ متقاربةٍ بعضها من البعض بحيث لا يمكننا أن ندرك ما يفصل بينها.

«مصدرٌ شاسعٌ من النور السيّال هي الشمس
تغمر السماء بلمعانٍ يتجدد دومًا
وبنور ينبعث للتوّ من النور»[1].

وكذلك تطلق نفوسنا ملامحها المتنوعة بشكلٍ غير محسوسٍ.

7. عاتب القائد البارثي أردوان الملك خشايرشا ابن أخيه على التغيير الحادث في تحفظه، حين راقبه على غفلةٍ منه، فقد كان هذا الأخير يتأمل العظمة الخارقة لقواه حين مروا بمضيق الدرْدنيل في حملتهم على اليونان، ولقد أحس بدبيبٍ من الراحة أوّلًا وهو يرى تلك الآلاف المؤلَّفة من الرجال في خدمته والبهجة والرضا تنطبعان على مُحياه، لكنه في اللحظة نفسها، حين فكر بأن كلّ تلك الحيوات سوف تنطفئ على الأكثر في قرنٍ من الزمن حتمًا، أظلمت ملامحه وأضحى حزينًا حدّ البكاء.

(1) Lucrèce, **De la Nature**, V, 282-284.

8. لقد تابعنا بحزم الثأر من شتيمةٍ، وأحسسنا بمتعةٍ فريدةٍ بالنصر، ومع هذا نحن نبكي لذلك! نحن لا نبكي من ذلك، إذ لا شيء تغيّر، وإنما نحن نرى الأمر بنظرةٍ أخرى الآن، ونجد لها ملامح أخرى مغايرةً. كلّ شيءٍ ذو جوانب عديدة ووجوه كثيرة، القرابة والصداقات والمعارف القديمة تستبد بمخيّلتنا، وحسب خصائصها المتباينة، تثير فيها للتوّ انفعالاتٍ معينةً. بيْد أن التغيُّر يكون فيها فجائيًّا بحيث إنها تنفلت من بين أيدينا.

9.

«لا شيء أسرعُ مما ننوي فعله
وبداية العقل في الفعل
ذلك لأنّ العقل أكثر حركة من كلّ شيءٍ
وممّا تهبه الطبيعة لحواسنا وعيوننا»[1].

10. ولهذا إذا فكرنا أن نمنح جسمًا وحيدًا لهذا الجمع من الأحاسيس، فسنكون على خطأ. حين بكى تيموليون بعد جريمة القتل التي اقترفها عنوةً وبعد تفكيرٍ، فهو لم يكن يبكي الحرية التي استعادها لبلده، ولم يكن يرثي الطاغية وإنما يبكي أخاه، فالجزء الأول من الواجب قد أُنجز، وعليه الآن أن يتحمل مسؤولية الجزء الآخر.

(1) Lucrèce, **De la Nature**, III, 182-185.

الفصل الثامن والثلاثون

في الوحْدة والخلوة

1. لنتركْ جانبًا المقارنة التقليدية بين حياة الوحدة والعزلة وبين الحياة النشيطة، لكنْ ما القول في هذا التصريح الجميل، الذي مفاده أننا لم نولد لمنفعتنا الشخصية، وإنما للمصلحة العامة، سوى أنه يخفي الطموح والجشع؟ لنجرؤْ على الرجوع في ذلك إلى من يقودون الموكب، ولْيقوموا باختبار ضميرهم: ألا يسعى البعض بالعكس وراء المناصب والوظائف وغيرها من العلاقات العامة؛ لكي يُمنح من الجمهور منفعة شخصية؟ والوسائل المشينة التي من خلالها يُتَوصّل لذلك في عصرنا تفيدُ بالملموس أنّ الهدف لا يستحق الثناء، ولنردَّ على الطموح أنه هو ما يمنحنا الرغبة في الوحدة، أفلا نراه يتهرَّب من شيء أكثر من المجتمع؟ ألا يبحث أكثر عن حرية الفعل والحركة؟

2. يمكننا أن نفعل الخير والشرّ في كلّ مكان، لكن إذا كانت عبارة الحكيم اليوناني بِياس صحيحةً بأن أسوأ حصّةٍ هي الحصة الكبرى، أو ما جاء في التوراة أن «في الألف لا أحد صالح»:

«فنادرون هم الصلحاء، وهم في المجموع
ما لا يكاد يتعدى أبواب طيبة أو مصبات النيل»[1].

حينئذٍ تكون العدوى بين الحشود بالغة الخطر، إذ ينبغي محاكاة الحمقى أو مقتهم، بيد أن الموقفيْن معًا خطيران، إذ إما أننا نشبههم لأنّهم كثيرو العدد، وإما أننا نكره العديدين منهم لأنّهم مختلفون عنا.

3. للتجار الذين يبحرون معهم الحق في الحرص على ألا يكون من يمتطون السفينة لا فاسقين ولا كافرين ولا شريرين؛ لأنّهم يعتبرون أن مجْمعًا كهذا لا يمكن أن يجلب لهم الحظ في تجارتهم.

4. لهذا قال الحكيم بيّاس مازحًا للذين كانوا يشاطرونه خطر عاصفةٍ عاتيةٍ ويدعون الآلهة لنجدتهم: «اصمتوا، حتى لا يعرفوا أنكم هنا معي». وهاكَ مثلًا أكثر إدهاشًا، كان ألفونسو دي ألبوكيرك، نائب ملك البرتغال مانويل الأول على بلاد الهنود، قد وجد نفسه في خطرٍ كبيرٍ من

(1) Juvénal, Satires, XIII, 26-27.

جراء عاصفةٍ، فوضع طفلًا على كتفيه، ولما كان مصيرهما صار واحدًا، فقد كان مقصده استغلال براءته ضمانةً لدى العناية الإلهية حتى تنقذ حياته من الموت.

5. لا يعني هذا أنّ الحكيم لا يمكنه أن يعيش سعيدًا في كلّ مكان، ولو وحيدًا بين حشود قصر، فلو كان الخيار بيده[1] فسيتهرّب، -كما يقول- حتى من رؤيتها، قد يتحمل ذلك لو تطلبه الأمر، لكنه لو كان حرًا فهو سيختار الموقف الثاني، إنه -في ما يبدو له- لن يكون في مأمنٍ تمامًا من الرذائل إذا كان عليه أن يتحمّل أيضًا رذائل الآخرين. فلقد كان المشرّع اليوناني خاروندناس يعاقب من كانوا معروفين بالعيش في رفْقةٍ سيئةٍ باعتبارهم آثمين.

6. ليس هناك أكثر كراهيةً لبني البشر من الإنسان ولا أكثر اجتماعًا منه، إنه يكره بني جنسه من باب الرذيلة، وهو اجتماعي بطبعه، ويبدو لي أن أنتيستينيس لم يُجبْ، كما ينبغي له، ذلك الذي عاب عليه معاشرة رفاق السوء، حين جاء ردّه كما يلي: «الأطباء يعيشون مع ذلك بين المرضى»، ذلك أن الأطباء إذا كانوا يعالجون الناس، فهم يعرّضون صحتهم للتدهور بالعدوى والرؤية الدائمة للمرضى والتماسّ معهم.

الهموم المنزلية

7. يبدو لي أن هدف الوحدة هو أن يعيش المرء في الآن نفسه في هدوءٍ وسكينةٍ وعلى راحته أكثر، غير أننا لا نبحث جيدًا عن سبيل ذلك، إذ نعتقد أننا قد تركنا ممارسة الشؤون الحيوية حين لا نكون قد قمنا سوى بتغييرها فقط، إنّ هموم تدبير عائلةٍ ليست أبدًا بأقل من هموم تسيير دولةٍ بكاملها، فإذا كان العقل غير مشغولٍ بأي شيءٍ فهو يصير مشغولاً بها تمامًا، وحتى حين تكون الانشغالات المنزلية قليلة الأهمية

(1) Sénèque, **Épitres, ou Lettres** à Lucilius, VII.

فهي تكون مع ذلك كثيرة الإزعاج، فإذا كنا قد تخلّصنا من العدالة ومن التجارة فإننا لم نتخلّص مع ذلك من الهموم الأساس لحياتنا.

«الحكمة والعقل هما ما يبدّد همومنا
لا الأماكن التي منها نرى أفق البحر»[1].

8. نحن لا نتخلص من الطموح والجشع والتردّد والخوف والشهوانية حين نغير موطننا:

«الأسى يركب خلف الفارس ويتبعه»[2].

9. قيل لسقراط إن أحدهم لم تتحسَّن حاله بالسفر، فكان جوابه: «أعتقد أنه أخذ معه نفْسه في السفر».

«ما الذي نبحث عنه في مواطن أخرى؟
ألا نهرب من أنفسنا حين نرحل عن الوطن؟»[3].

10. إنْ لم يتخلّص المرء أولاً، هو ونفسه، من العبء الذي يرزح تحته، فإن الحركة والترحال سوف يجعلانه يحس بذلك أكثر؛ فكما هي الحال في السفينة، تعوق الحمَولة حركة هذه الأخيرة أقلَّ حين تكون منظمةً ومثبَّتَة. ونحن نضرّ بالمريض ونؤلمه أكثر حين نغيّره من مكانه، كما أننا نراكم الألم حين نحركه كما في كيسٍ، مثلما ينغرس الوتد أكثر حين نحرّكه. إننا نرى من خلال ذلك أنْ ليس كافيًا أن يكون المرء قد انعزل عن الشعب، وليس كافيًا تغييره للمكان، إذ ما يلزم هو أن ينزاح المرء عن طرائق حياة الشعب؛ فالواجب هو أن يغلق المرء على نفسه ويضع مصيره بين يديها.

«ستقول لي: لقد قمت بتكسير قيودي الحديدية
نعم، مثل الكلب الذي من كثرة الجرّ يكسر سلسلته
وفي هروبه يجرّ وراءه طرفًا طويلًا منها في عنقه»[4].

---

(1) Horace, **Épîtres**, I, II, 25-26.
(2) Horace, **Odes**, III, I, 40.
(3) Horace, **Odes**, II, XVI 18-20.
(4) Perse, **Satires**, V, 158-160.

11. إننا نحمل قيودنا الحديدية معنا، وتلك ليست هي الحرية الحقيقية بحيث إننا نظل نرْنو لما تركنا، ويبقى ذهننا مليئًا بها.

«لكن إذا لم يكن قلبنا طاهرًا، فأي معارك
وأي مخاطر علينا مواجهتها رغمًا عنا؟
وكم من هموم عنيفة تمزق الإنسان
وحين تستبد بناّ هموم الأهواء، يا له من رعبٍ أيضًا!
وكم يستولي علينا الفجور والكبرياء
وكم يتركان فينا من دمار! كما الأبّهة والكسل!
شرّنا يوجد في أنفسنا، وهي لا يمكن أن تنفلت من ذاتها»[1].

12. لهذا على المرء أن يستعيدها ويحبسها في ذاتها، وتلكم هي الوحدة الحقة، تلك التي لا يمكننا أن نتمتع بها وسط المدن وبلاطات الملوك، لكننا نتمتع بها بأنسب شكل حين نكون في معزلٍ عنها.

13. من اللحظة التي نقرر فيها العيش وحيدين، ومن ثمّ لا نكون بحاجة للغير، علينا أن نجعل من رضانا لا يرتهن إلا بنا؛ لنتخلَّ عن كلّ الروابط التي تشدّنا للآخرين؛ ولنعتمدْ على أنفسنا كي نتوصل إلى العيش في عزلةٍ حقّة ولكي نعيش فيها على راحتنا.

14. نجا الفيلسوف اليوناني ستيلبون من الحريق الذي شبَّ في المدينة وفقد فيه عياله وأبناءه وممتلكاته، وحين رأى ديميتريوس محاصر المدن*[2] أنه لم يكن يبدو عليه الرعب من هذه الكارثة التي حلّت ببلده، سأله إن كان لم يتكبّد فيها الخسائر، فأجاب أنْ لا، وأنه يحمد الله أنه لم يفقد شيئًا يخصه. ذلك ما كان يردّده الفيلسوف أنتيسثينيس مازحًا، أيّ أن يتزود المرء بمؤونة قابلة للطفْو فوق الماء وتستطيع معه النجاة من الغرق مع السفينة.

(1) Lucrèce, **De la Nature**, V, 43-48.

(2) * الملك المقدوني ديميتريوس الأول (337 ق.م - 283 ق.م) الملقب باسم «مُحاصِر المدن».

15. من الأكيد أنّ الإنسان الذكي العاقل لا يخسر شيئًا إذا ظل هو نفسه. حين تعرضت مدينة نولا الإيطالية للنهب والسلب على أيدي البرابرة، قام باولينوس الذي كان أسقفها، والذي فقد في ذلك كافة ممتلكاته وسقط أسيرًا في أيديهم، بتوجيه هذا الدعاء لربه: «ربّ، احمني من الإحساس بهذا الخسران، ذلك أنك تعلم أنهم لم يمسوا بعدُ أيّ شيء يخصني». فالخيرات التي كانت تجعل منه غنيًا، والممتلكات التي جعلت منه خيّرًا نجت من النهب والسلب، ذلكم ما يعنيه: اختيار الكنوز التي يمكنها أن تُفلت من الهجمات وإخفاؤها في مكان لا تصله يدُ أحدٍ ولا يمكن الكشف عنها إلا من لدُننا. علينا أن يكون لنا عيالٌ وأبناءٌ وخيراتٌ، والصحة بالأخص ما استطعنا لها سبيلاً، لكن من غير الارتباط بها إلى الحد الذي ترتهن بهم سعادتنا.

16. علينا أن نخصص لنا مكانًا في الخلفية لا يكون إلا لنا، ويكون مكانًا حرًا حقًا يمكننا فيه أن نُرسيَ حريتنا الحقة التي ستكون خلوتنا الأساس في وحدتنا، ثَمَّ علينا أن نحاور يوميًا أنفسنا، وبشكل بالغ الحميمية بحيث لا يمكن أن تجد فيها أيّ علاقةٍ أو رابطةٍ مع الأشياء الغريبة عنا مكانًا لها. علينا أن نتكلم ونضحك كما لو كنا من غير زوجةٍ ومن غير أبناءٍ أو خيراتٍ ومن غير حاشيةٍ وخدمٍ، بحيث حين يأتي الوقت لفقْدهم، لا يكون وجوب التخلي عنهم أمرًا جديدًا. لدينا نفس قادرة على الانطواء على نفسها؛ إذ يمكنها أن تصاحب ذاتها، ولديها ما تهاجم به وما تدافع به عن ذاتها، وما تتلقى به وما تمنح به، لا خوف علينا إذًا في هذه العزلة من أن يصيبنا الفساد في عطالةٍ مملّة.

«كنْ في الوحدة جُموعًا لنفسك»[1].

الفضيلة تكتفي بذاتها، من غير قواعد أو كلامٍ ومن غير فعل أيّ شيءٍ.

17. لا يوجد في أعمالنا المعتادة واحد من بين ألفٍ يخصُّنا حقًا، فهذا الشخص الذي نراه يتسلق خراب ذلك السور غاضبًا وخارجًا عن طوْره، معرَّضًا لطلقات البنادق، وذلك الآخر المليء بالندوب، شاحبًا

(1) Tibulle, **Elégies**, V, XIII, 12.

من الجوع وبالغ الإنهاك، مقررًا الموت على أن يفتح له الباب، هل نعتقد أنهما هناك من أجل نفسيهما؟ إنهما هناك بالأحرى من أجل شخص آخر لم يرياه قطُّ ولا يهتم أبدًا بمصيرهما، منغمسًا في ذلك الوقت في الملذات والكسل والخمول. وهذا أيضًا الذي نراه يخرج من محلّ عمل بعد منتصف الليل، وسخ الثياب ساعلاً وباصقًا، وبعيون منهكةٍ، هل تعتقدون أنه يبحث في الكتب عن السبيل إلى أن يصبح رجلاً خيّرًا أشدّ سعادةً وأبلغ حكمةً؟ أبدًا، سيموت هناك، أو إنه سيدرِّس للخلَف عَروض أبيات الشاعر الروماني بلاوتوس والإملاء الصحيح لكلمة ما باللاتينية، مَن ذا الذي لا يستبدل بنفسه صحته وراحته وحياته بالشهرة والمَجد؟ إنه مع ذلك لأمرٌ غير مُجْدٍ بتاتًا وبالغ اللا جدوى، وهو أكثر النقود زيْفًا من القيم الرائجة بيننا، نحن نتكفّل بموت زوجاتنا وأبنائنا وبموت الناس كما لو أن موتنا لا يخيفنا كفايةً، وتَرانا نتحمل شؤون جيراننا وأصدقائنا على حسابنا كي نصير مهمومين ونكسر أذهاننا، كما لو أن شؤوننا لا تمنحنا ما يكفي من الهموم.

«وكيف يمكن لرجلٍ أن يفكر في
أي شيءٍ آخر غير نفسه؟»(1).

18. يبدو لي أن الوحدة لها من العلَل والمعاني أكثر لدى أولئك الذين نذروا أجمل سنوات عمرهم للمجتمع، كما كان حال طاليس.

19. كفانا عيْشًا من أجل الآخرين، لنعشْ من أجل أنفسنا ما تبقى لنا عيشه من حياتنا، لنوجّهْ نحونا ونحو سعادتنا أفكارنا ومقاصدنا. ليس من الهيّن الخلوة في مكانٍ آمنٍ، وسوف يشغلنا ذلك كفايةً بحيث لن نحشر أنوفنا في أيّ شيءٍ آخر. وما دام الله يسمح لنا بالاهتمام برحيلنا عن هذه الدنيا، فعلينا الاستعداد لذلك، لنجمعْ حوائجنا ولنُودّع الصِّحاب والرفاق، ولنفصمْ العُرى مع تلك الروابط الإلزامية التي تجرنا بعيدًا وتُبعدنا عن أنفُسنا. علينا وقْف تلك الواجبات ذات القوة القاهرة حقًا، وأن نحب من ثمَّ هذا الشيء أو ذاك، لكن علينا ألا نعاشر إلا أنفسنا، وهذا يعني أن نكون على عَلاقةٍ مع كلّ شيء، لا متصلين ولصيقين به

(1) Térence, **Les Adelphes**, I, 1, 38-39.

بحيث لا يمكن أن ننفصل عنه من غير أن نسلخ جلدتنا، أو ننزع جزءًا من لحمنا؛ فأهم شيءٍ في هذه الدنيا هي أن نعرف أن نكون أنفسنا.

20. لقد حان الوقت لنا للانفصال عن المجتمع لأننا لم يعدْ لنا ما نقدمه له، ومن لا يستطيع الإدانة، عليه أن يكفّ عن الاستدانة. قوانا تنهار، فلنحتفظْ بها لأنفسنا، ولنستجمعْها فينا، وإذا ما استطعنا قلب الوضع، وأن نلعب بذواتنا، من أجل أنفسنا، الدور الذي كنا نلعبه من أجل الصداقات والصحبة، فعلينا القيام بذلك. ففي هذا الانحدار الذي يجعلنا غير نافعين، وغير رائقين ومملين للآخرين، يلزمنا الاحتراس من أن نضحى مملين لأنفسنا وغير رائقين لها وبلا جدوًى بتاتًا. علينا بدغدغة أنفسنا وملاطفتها، وبالأخص التصرّف في كلّ شيءٍ تبعًا لعقولنا وضمائرنا، حتى لا نقوم بكبوة في حضرتهما ونحس بالخجل من ذلك، «**فمن النادر فعلًا أن يحترم المرء نفسه بما يكفي**»[1].

21. يقول سقراط إنّ على الشباب التعلم، وإنّ على الناس الناضجين عمل الخير وعلى العجائز الانسحاب من أيّ انشغالٍ مدنيٍّ وعسكريٍّ بحيث يعيشون كما يحلو لهم من غير أن يكونوا ملزَمين بأيّ شيءٍ.

22. ثمة أناسٌ أقدَر من آخرين على تفعيل هذه المبادئ كي يعتزلوا العالم، وأما مَن أنا منهم، أي مَن هم مِن الليونة والضعف بمكانٍ حين يتعلق الأمر بالتعلُّم. والذين يملكون حساسيةً وإرادةٍ صعبةٍ، والذين لا ينبطحون ولا يستسلمون بسهولة لاستغلال الغير، فإنهم يكونون بطبعهم وسلوكهم قادرين على اتباع تلك التوجهات، أكثر من الناس النشطين والمشغولين، الذين يحتوون كلّ شيءٍ في آنٍ واحدٍ، ويشغفون بكلّ شيءٍ، ويمنحون أنفسهم ويقترحونها في كلّ المناسبات. علينا استخدام تلك الامتيازات الخارجية عنا بمقدار ما هي رائقةٌ، من غير أن نجعل منها أساس وجودنا؛ لأنّها ليست كذلك. فلا العقل ولا الطبيعة يفرض ذلك، فلمَ إذًا نسير ضد قوانينهما لوضع سعادتنا تحت رحمة الغير؟

(1) Quintilien, **Institution Oratoire**, X, 7.

23. إنه لغلُوٌّ في سلوك سبيل الفضيلة أن يستشرف المرء ضربات القدر، وأن يحرم نفسه من الامتيازات التي يتوفر عليها، كما يفعل ذلك البعض غلوًّا منهم في الورع، وأحد الفلاسفة عن اقتناعٍ، بحيث يخدم نفسه بنفسه، ويبيت على الطّوى، ويفقأ عينيه ويرمي بخيراته في النهر ويبحث عن الألم بتحمّل عذاب هذه الدنيا كي يحظى بنعيم الغير، أو بأن ينام على الدرج الأخير من السلم كي يتفادى السقوط إلى الدرك الأسفل، فلتجعلِ النفوس الأقوى والأشد حزمًا من خلوَتها شيئًا مجيدًا لا يُضاهى.

«من غير ثروةٍ أتباهى بشيءٍ يسير ثابتًا
وأنا سعيدٌ بهذا القليل؛ لكي يمنحني الغنى
قدْرًا أفضل؛ لذا أقول عاليًا
أنْ لا سعيدَ وحكيمَ في الدنيا إلا أولئك
الذين ينبع مردوُدهم من الأرض الخصيبة»[1].

24. أعتبر أن ثمّةَ الكثير مما يمكننا فعله من غير أن نسير بعيدًا، يكفيني أن أسعَد بنِعم القدَر كي أستعدّ لتقلباته وأن أنتظر المصائب التي قد تُلمّ بي على هواي، متى ما استطاعت مخيلتي أن تتوصّل لذلك، هذا ما نقوم به حين نلعب لعبة الحرب في عزّ السّلْم بعراكنا ومسابقاتنا ودوراتنا البطولية.

25. لا أعتبر أن الفيلسوف أركسيلاوس قليل الفضيلة؛ لأني أعرف أنه استعمل الأواني من الذهب والفضة كما كانت تسمح له بها وضعيته، فأنا بالعكس أكنّ له بالغ التقدير لأنّه استخدمها بشكلٍ معتدلٍ وبسخاءٍ كما لو أنّه كان محرومًا منها.

26. أعرف ما هي حدود الضرورة الطبيعية، فحين أرى المتسوّل المسكين عند باب بيتي كلّ مرةٍ أكثر حبورًا وصحّةً مني، أضع نفسي في مكانه؛ وأحاول أن أشكّل نفسي على ذلك المثال. وأنا ألاحظ هكذا أمثلةً كثيرةً، وبالرغم من أنّ الموت والفقر والمقت والمرض تتقفى أثري، من الأسهل

(1) Horace, **Épîtres**, I, xv, 42-46.

عليَّ ألا أخشى ما يتحمّله شخصٌ أقلّ أهميّةً مني. وإني لا أصدّق أنّ عقلًا محدودًا ينجح أكثر من عقلٍ حيويّ، أو أنّ آثار التعقُّل لا يمكنها أن تضاهي آثار العادة، وحينئذٍ؛ وأنا أعلم كم هي ثانويةٌ وزائلةٌ وسائل الراحة في الحياة، لذا لا أتنكّف وأنا أتمتع بها كليّةً من أن أطلب من الله طلبي الأهم، ألا وهو أن يجعلني راضيًا عن نفسي وعن الخير الذي أستطيع أن أكون مصدرًا له.

27. أرى شبابًا أقوياء البنية يحملون في حقائبهم حبوبًا طبيّةً كي تكون قريبةً منهم إذا أصابهم الزكام، وهو زكامٌ يخشونه أقلّ وهم يتوفّرون على الدواء اللازم له. هكذا عليَّ أن أفعل، بل الأفضل من ذلك، إذا أحسست بأني معرَّضٌ إلى مرضٍ أكثر خطورةً، أن أصطحب معي الدواء الذي يهدّئ من الجانب المريض وينوّمه.

28. الانشغال الذي علينا اختياره لهذه الخلوة في الحياة لا يلزم أن يكون مُضنيًا ولا مُملاً، وإلا سنكون اخترنا الخُلوة سعيًا نحو الراحة بلا جدوًى ولا فائدةٍ تُذكر، وذلك أمرٌ يتعلق بذوق كلّ واحدٍ، وذوقي لا يتلاءم أبدًا مع الشؤون المنزلية، وأولئك الذين يحبون ذلك عليهم التعاطي لها باعتدالٍ=

«عليكم أن تُخضعوا الخيرات، لا أن تخضعوا لها»(1).

=وإلا فإنّ العناية بالبيت مهمة للعبيد كما يقول سالّوستيوس، وهي لها جوانب أكثر شرفًا كالعناية بالحديقة التي ينسبها كسينوفون لكورش. وعلينا أن نجد حالاً وسطًا بين تلك الحركية المنحطة والحقيرة المُلْزِمة التي تكون مصدرًا للهموم، والتي ينغمس فيها الناس الذين يكرسون نفسهم لها كليةً، وتلك اللامبالاة العميقة والبالغة التي تترك كلّ شيءٍ مهجورًا.

«يترك ديموقريطوس للقطيع أن يأكل حبوبه
فيما يحّلق عقله بعيدًا عن جسده»(2).

---

(1) Horace, **Épîtres**, I, 1, 19.

(2) Horace, **Épîtres**, I, 12, 12.

29. لكن لنسمعْ هذه النصيحة التي يقدمها بلينيوس الصغير لصديقه كورنيليوس روفوس في مسألة الوحدة هذه: «أوصيك وأنت في هذه الخلوة الفارهة والتامة التي تنعم بها، أن تترك لأناسك العناية بالبيت، وأن تتعاطى لدراسة الآداب، كي تعمل شيئًا يعود كليةً لك». يتعلق الأمر لديه بالسّمعة، مثلما هو الأمر لدى شيشرون، الذي كان يقول إنه يريد استعمال وحدته وانفصاله عن الشؤون العامة لكي يكسب بكتاباته حياةً خالدةً.

> **«أليست معرفتك لا شيء حين تترك الناس**
> **في جهلٍ بأنك تعلم؟»**[1].

30. يبدو لي من المعقول -ما دمنا بصدد الحديث عن الخُلوة- أن نُمعن النظر في ما وراءها، بيد أن أولئك الذين تحدثت عنهم لا يقومون بذلك إلا جزئيًا، فهم يعتنون بشؤونهم تحسُّبًا لغيابهم، لكنهم من خلال تناقضٍ سخيفٍ يزعمون أنهم يجْنون فاكهة هدفهم في عالم سيكونون غائبين عنه! أما فكرة أولئك الذين، بدافعٍ من الوَرع، يسعون للعزلة مالئين قلوبهم بيقين الوعود الربانية في الآخرة، فهي أكثر انسجامًا مع أنفسهم، إنهم يمنحون أنفسهم لله من غير هدفٍ، هو العليّ القدير، والنفس يمكنها أن تجد لديه ما تُشبع به رغباتها بحريّةٍ تامّةٍ، والألم والعذاب يكون في صالحهم لأنّه يكون بُغيَةَ الحصول على العافية والسعادة الأبدية، والموت يأتي في الوقت المناسب لأنّه يكون سمة المرور إلى حال الكمال، صرامة قواعدهم لا تلبث أن تخّفف منها العادة، وشهوات البدن تُلجَم وتنوَّم بإنكارها، إذ لا شيء يصونهم غير عوائدهم وممارستهم. إنّ هذا الهدف الوحيد المتمثل في حياة آخرة سعيدة في حضن الخلود تستحق فعلًا أن نهجر امتيازات حياتنا وملذّاتها، ومن يستطيع أن يوقِد همّة نفسه بهذا الإيمان وهذا الأمل الحيَّيْن، واقعيًا وأبدًا، يبني لنفسه في العزلة حياةً شهوانيّةً وممتعةً، خارج كلّ حياةٍ ممكنةٍ.

31. وفي آخر المطاف، فلا الهدف الذي رسمه بلينيوس ولا الوسيلة التي يشير إليها يُرضياني، فذلك معناه تعويض الحمى بالقُشَعْريرة، تأليف

(1) Perse, Satires, I, 23-24.

الكتب أمرٌ بالغ الضّنى مثله مثل الأمور الأخرى، وهو مضرٌّ بالصحة، وذلك ما علينا أن نحسب له حسابه، وليس علينا أن ننصاع للمتعة التي نجدها فيه، ذلك أنها متعةٌ تكون سببًا في ضلال من يهتم ببيته كثيرًا، كما في ضياع البخيل والشهواني والطّموح. والحكماء يعلّموننا مع ذلك أن نحْترس من الخيانة التي تسببها لنا شهواتنا وأن نميز الملذات الحقة والكاملة من الملذات المختلطة الممزوجة بالألم، إذ إنّ أغلب ملذاتنا -كما يقولون- تستغلنا وتحتوينا كي تخنقنا بشكلٍ أفضل، كما يفعل قطّاع الطرق الذين كان يسميهم المصريون «الفِلسْتيّين». لو كان صداع الرأس يلمّ بنا قبل أن نشرب الخمر فإننا سنحترس من الإفراط في الشراب، بيْد أن الشهوة -ولكي تخدعنا- تأتي هي الأولى لكي تحجب عنا العاقبة. فالكتب ممتعةٌ، لكن إذا كنا من كثرة التعاطي لها سننتهي إلى فقدان المرح والعافية، باعتبارها أغلى ما لدينا، فلنتركْها؛ فأنا من بين من يعتقدون أن الفائدة منها لا يمكن أن تعوّض تلك الخسارة[1].

32. وكما أنّ من يحس بالوَهن من وقت طويلٍ بسبب مرضٍ ما ينتهي إلى زيارة الطبيب الذي يصف له بعض قواعد الحياة التي عليه احترامها، كذلك من يمارس الخلوة بسبب الاشمئزاز من الحياة في المجتمع، عليه أن يخضع لقوانين العقل، وأن يُعدّ العدّة لها بالتفكير المسبق في سُبُل تنظيمِ هذه الحياة الجديدة، فعليه أن يكون قد قطَع مع كلّ شكلٍ من أشكال الجَهد مهما كان مظهره، وأن يهجر عمومًا كافة الأهواء التي تعكّر على صفْو الجسد والنفس، وأن يختار بعدئذٍ سبيله تبعًا لشخصيته.

33. على المرء، في الدراسة كما في الصيد وفي كلّ نشاطٍ من الأنشطة، أن يتعاطى المتعة حتى أقصاها، وأن يحترس من السير إلى ما وراء ذلك، ثَمَّ حيث تبدو تباشير المعاناة. ليس علينا أن نمنح لعملنا إلا ما هو ضروريٌّ كي نبقى في أحسن حال، والاحتماء من المساوئ التي يحتويها بالمقابل، كالكسل الرخو والعطالة الغافية. ثمّةَ علومٌ عقيمةٌ وصعبةٌ، تكون في

(1) يبدو أن مونتيني هنا يستبق سيرفانتيس، فدون كيشوت رواية لم تُنشر إلا في 1605، ولم تُحرّر إلا حوالي 1597 م.

غالب الأحيان موجهةً للجموع، فلنتركْها لذوي الوظائف في المجتمع، أما أنا فلا أحب إلا الكتب الممتعة أو السهلة، التي تدغْدغني بلذة، أو تلك التي تواسيني وتساعدني على تنظيم حياتي ومماتي.

«أسير في صمتٍ في الغابات الصّحّية
مشغولًا بما ينشغل به الحكيم أو الرجل الطيب»[1].

34. الناس الحكماء ذوو النفوس القوية والصلبة يمكنهم أن يبْتدعوا لأنفسهم راحةً روحيّةً كليةً، أما أنا ذو النفس العادية، فعليَّ أن أعضّد نفسي بعناصر جسمانية، وما دام العمر قد سلب مني اليوم تلك التي كانت تناسبني أكثر، فإني أربّي شهيتي وأشحذها بما فضُل منها مناسبًا لحالي، علينا الكفاح بالأسنان والأظافر للحفاظ على ملذات الحياة التي تسلبها الحياة من بين أيدينا الواحدة تلْو الأخرى.

«لنقطفْ الملذّات، وما نحياه هو لنا
فلن نكون يومًا سوى رمادٍ وظلٍّ وحكايةٍ»[2].

35. أما الهدف الذي يرسمه لنا بلينيوس شيشرون -أيّ المجد- فذلك أمر لا يدخل في حسابي؛ فالاستعداد العقلي الأكثر مُنافاة لحياة الخلوة هو الطموح، والمجد والراحة أمران لا يمكن أن يتعايشا تحت السقف نفسه. وحسب ما أرى، فأولئك الناس ليس لهم غير الأرجل خارج المجتمع، أما نفوسهم ومقاصدهم فإنها تظل مندمجة فيه أكثر من أيّ وقت مضى.

أيها العجوز المخرّف، هل تعيش فقط لكي ترفّه عن آذان الآخرين؟

36. إنهم لم يرجعوا للوراء إلا للانطلاق أفضل، ولكي يشقوا السبيل شقًّا في مجمل الفرقة العسكرية بقوة الانطلاق، هل تريدون أن تروا كيف أنهم لا يستهدفون مرمًى بعيد المدى؟ لنضعْ في الميزان رأي فيلسوفين

(1) Properce, **Élégies amoureuses** - Cynthia, II, 25.

(2) Perse, **Satires**, V, 151-152.

من مدرستيْن فلسفيتيْن مختلفتين، كتب أحدهما لإيدومينيوس[1]، والآخر للوكيليوس[2]، وهما صديقان لهما، لحثهما على ترك شؤون المجتمع والزهد فيه والانسحاب في الخلوة، فقالا: «لقد عشتَ لحد اليوم سابحًا وطافيًا فوق الماء، فلتأتِ الآن للموت في المرفأ، لقد كرستَ أغلب حياتك للنور، فلتمنح الباقي للعتمة، من المحال أن تترك انشغالاتك إذا لم تترك مُنتَجها، لهذا الغرض، اترُكْ همَّ شهرتك ومجدك، فأخشى ما أخشاه ألا يعمل بريق أعمالك السابقة سوى على إنارتك أكثر، ويتبعك حتى القبر، ولْتترك مع الملذات الأخرى اللذة التي تأتيك من موافقة الغير، أما علمك ومقدرتك فلا تقلقْ، فهما لن يفقدا قيمتهما إذا ما أنت استخلصت منهما بنفسك أكثر وأكثر.

37. «لتتذكّرْ ذلك الذي سُئل لماذا يجهد كثيرًا في فنٍّ لا يستجذب أبدًا الكثير من الناس، فكان ردّه: «يكفيني القليل منهم، فمحبٌّ واحدٌ يكفيني، بل حتى لا أحد منهم». لقد كان على حقٍ، فالصديق وأنتَ تشكلان مسرحًا كافيًا أحدكما للآخر، بل وأنت وحدك لنفسك كافٍ، وأن يكون الجمهور لك مثْل واحد والواحد مثل الجمهور، وإنه لطموحٌ سيءٌ أن يرغب المرء في أن يستمدّ المجد من التخلي عن شؤون الدنيا ومن المخبأ الذي اختار لنفسه. ما أفضلَ أن يفعل المرء مثل الحيوانات التي تمحو آثارها في بوابة عرينها! وما يلزم البحث عنه ليس معرفة كيف يتحدث الناس عنك وإنما كيف تتحدث إلى نفسك، اختلِ بنفسك في نفسك، لكن استعدَّ أولًا لاستقبال نفسك في نفسك، إذ سيكون من الحمق أن ترْكن إلى نفسك إذا لم تكن تعرف كيف تتحكم في نفسك.

38. «يمكن للمرء أن يقترف أخطاء في العزلة كما في المجتمع، وحتى تحسّ أنك لا تحرك ساكنًا أمام نفسك، وحتى تحس بالخجل والاحترام لنفسك، املأْ عقلك بالصور الفاضلة، تصوّر دومًا كانتو الأكبر والقائديْن الأثينيّيْن فوكيون*[3] وأرستيديس العادل، الذين في حضرتهم حتى

(1) كتب إبيقوروس لإيدومينيوس الذي كان تلميذًا له.

(2) الأمر يتعلّق بسينيكا في رسائله للوكيليوس.

(3) * فوكيون (402 ق.م تقريبًا – 318 ق.م) قائد عسكري وسياسي إغريقي، من مواليد أثينا.

المجانين يخفون آثامهم، واجعلْ منهم مراقبين لكافة نواياك، فإذا هي اختلّت فإن الاحترام الذي تكنّه لهم سوف يردّها للطريق القويم، إنهم سوف يجعلونك تحافظ على ذلك الطريق ويساعدونك على الاكتفاء بذاتك وعلى ألا تستعير أيّ شيءٍ من أحدٍ إلا نفسك، وأن تحافظ على نفسك في تفكيرٍ متّزنٍ فيه ستكون على راحتها، عارفةً بالخير الحقّ الذي ستتمتع به بمقدار معرفتك لها، والاكتفاء بها، من غير رغبة في تأبيد حياتك ولا اسمك».

39. تلكم هي نصيحة الفلسفة الطبيعية والحقة، لا نصائح الفلسفة التفاخرية والثرثارة كفلسفة بلينيوس الصغير وشيشرون.

الفصل التاسع والثلاثون

تأملات عن شيشرون

1. كلمةٌ أخرى عن المقارنة بين أزواج الفلاسفة الذين تحدثت عنهم آنفًا: يمكننا أن نجد في كتابات شيشرون وبلينيوس الصغير -الذي لا يشبه بتاتًا عمه في رأيي- العديد من العناصر التي تشي لديهما بطبْع متّسم بالطموح بشكلٍ مفرطٍ، فهما -وهو أمر من ضمن أمور أخرى- يطلبان من مؤرخي زمنهما، على مرأًى ومسمعٍ من كلّ الناس، ألا ينسياهما في تواريخهم، وقد جعلت سخرية الأقدار أن يصلنا غرور هذا الطلب فيما غرقت تلك الكتابات التاريخية في النسيان. بيْد أنّ الأسوأ من كلّ هذا، لشخصيتيْن بهذا القدر، أنهما أرادا أن يستخلصا بعض المجد من ثرثرتهما وشقْشقتهما حتى بلغ بهما الطمع استغلال الرسائل التي كتباها شخصيًا لأصدقائهما، وبحيث بلغ بهما الأمر أن ينشرا بعضًا منها من تلك التي لم يستطيعا بعثها لصاحبها، مع هذا العذر اللطيف أنهما لم يريدا هدْر نتيجة عملهما وسهرهما!

2. يا له من انشغال رائع لقنْصلين رومانييْن! كانا قاضيين للجمهورية التي كانت تسيطر على العالم، أن يستغلا ترفيههما لكي يبلورا ويحرّرا رسالةً متقنةً يستجذبان بها السمعة بأنهما يتقنان لغة مربّيتهما! فهل يستطيع معلم مدرسة بسيط يجعل من تلك اللغة مصدرًا للقمة العيش أن يفعل أسوأ من ذلك؟ ولو أن أعمال كسينوفون ويوليوس قيصر لم تفُقْ فصاحتَهما بكثيرٍ، فلا أعتقد أنهما كانا ليروياها أبدًا، وما أرادا التعريف به لم يكن خطابَهما وإنما أعمالهما. ولو أن كمال اللغة بإمكانه أن يقود إلى المجد اللائق بشخصيةٍ عظيمةٍ، لم يكن سكيبيو الإفريقي ولايليوس قد تركا عبدًا إفريقيًا يستخلص المجد من هزلهما ومن كافة دقائق اللاتينية وعذوبتها، فروعة ذلك العمل يوضح جيدًا أنه عملهما، وترنتيوس*(1) يعترف بذلك، وسوف أنزعج كثيرًا لو أراد أحدٌ أن أغيّر فكرتي في هذا الأمر(2).

(1) * بوبليوس ترنتيوس (195 ق.م تقريبًا - 159؟ ق.م) كاتب مسرحي روماني قرطاجي المولد.

(2) سوف يتشبث مونتيني بهذه الفكرة الشائعة في عصره (المقالات، الجزء الثالث، المقالة 13، الفقرة 117)، غير أنه مخطئ في ذلك، فكوميديات ترنتيوس -المولود في قرطاج، وذو الأصول البربرية على ما يبدو- هي من صنيعه، و«العبد الإفريقي»، الذي أعتقه القنصل لوكانوس ترنتيوس ومنحه اسمه، قد صار صديقًا لسكيبيو الإفريقي ولايليوس.

3. إنها لَمهزلةٌ، بل إساءة، أن تُمنح القيمة لشخصٍ وتقديره بمزايا ليست من مرتبته، حتى لو كانت تلك المزايا تستحق الثناء، أو بمزايا لا يمكن أن تكون مزاياه، فالأمر سيكون كما لو أننا نمدح ملكًا لأنّه رسامٌ جيّدٌ أو معماريٌّ ممتازٌ أو يتقن الرمي بالبندقية والعدْو في لعبة الخاتم، إنه مديحٌ لا يشرّفه إلا إذا قُدِّمَت تلك المزايا بعد المزايا الخاصة التي هي من صميمه، أيّ حبه للعدل وقدرته على سياسة شعبه في وقت الحرب كما في وقت السلم. وفي هذه الشروط، فإنّ الفلاحة تشرّف كورش الكبير، والفصاحة ومعرفة الآداب شارلماني، هل تريدون مثالًا أكثر إفحامًا؟ رأيت في زمني أناسًا كانوا يستمدون من الكتابة ألقابهم وسمعتهم ينكرون ما تعلموه، ويفسدون أسلوبهم، ويتظاهرون بجهل تلك المزايا لأنّها كانت شائعةً بحيث لا تُنسب عمومًا للناس العلماء، والحال أنهم كانوا يتوفرون على مزايا أفضل لإبراز قيمتهم.

4. كان رفاق ديموستينيس*[1]، خلال سفارتهم لدى فيليبّوس ملك مقدونيا، يمتدحون هذا الأمير بأنه وسيمٌ وفصيحٌ وشرّابٌ كبيرٌ للخمر، فقال ديموستينيس بأنها أمداحٌ تليق أكثر بامرأةٍ أو محامٍ أو إسفنجةٍ منها بملكٍ[2].

«فليكن قائدًا، منتصرًا على العدو المحارب
لكن كن رحيمًا معه إذا هو سقط أرضًا»[3].

إن أتقن المرء الصيد أو أحسن الرقص فليس ذلك بمهنة.

«إن كان الآخرون يعرفون المرافعة، وبالبركار قياسَ
حركات النجوم والكواكب، وتسميتها
فعليه هو أن يحسن قيادة الشعوب!»[4].

5. يقول بلوتارخوس أيضًا إن المرء إذا بدا لامعًا في هذه المجالات الثانوية،

(1) * ديموستينيس (384 ق.م، 322 ق.م) هو رجل دولة يوناني من مواليد أثينا، اشتهر بالفصاحة والخطابة، ويُعد أعظم خطباء الإغريق.

(2) Plutarque, **Démosthène**, IV.

(3) Plutarque, **Démosthène**, IV.

(4) Virgile, **Énéide**, VI, 849-51.

فإنه يشهد ضد نفسه بأنه لم يستغل جيدًا وقته، بتكريسه لدراسات لا جدوى ولا ضرورة لها. لهذا الأمر فإنّ فيليبّوس ملك مقدونيا حين سمع ابنه الإسكندر الأكبر يغني في حفلٍ مثله مثل الموسيقيين الكبار قال له: «ألا تخجل من هذا الغناء الحسن؟»، ولفيليبوس هذا نفسه، قال له موسيقي كان يتناقش معه حول فنه: «سيدي، فليحفظك الله أن تصيبك يومًا مصيبةٌ كبرى بامتلاك هذه الأمور أفضل مني».

6. إنّ ملكًا عليه أن يجيب كما أجاب إيفيقراطيس للخطيب الذي كان يقدح فيه هكذا: «من أنت إذًا كي تتظاهر علينا بالشجاعة؟ هل أنت فارسٌ أو رامٍ أو رمّاحٌ؟»، فكان جوابه: «أنا لست أيّا من هؤلاء، لكني من يعرف قيادة هؤلاء كلهم». وأنتيستينيس وجد الدليل على ضحالة قيمة إيسيمنياس في أنّ الناس ترى فيه أنه عازف ناي ممتازٍ.

«المقالات»

7. حين أسمع أحدًا يتحدث عن أسلوب كتاب «المقالات»، أودّ لو أنه لزم الصمت، فذلك ليس إعجابًا بالشكل بقدر ما هو تعريضٌ بالمعنى، وذلك بطريقةٍ بالغة الحرية بحيث إنها تكون مضمرةً، ومع ذلك فإما أني مخطئ، أو أن ليس هناك من أحدٍ غيري يمنح مادةً من الثراء بحيث يمكن النهل منها أكثر، ولو أنّ كاتبًا آخر قام بذلك بأي شكلٍ من الأشكال، فلن يكون ذلك أكثر جوهريةً ولا أكثر كثافةً. فأنا لكي أضع في الكتاب الأكثر من الأمور، لا أراكِم هنا إلا الأمور الأساسية، ولو أني طوّرتها وتوسّعتُ فيها، فلن تراني إلا مُضاعفًا كثيرًا حجم هذا المجلّد. وكم من القصص رويتُ فيه من غير أن أكون شارحًا لها أو معلّقًا عليها، بحيث إنّ من يرغب في الغوص فيها بشيءٍ من العناية يمكنه أن يستخلص منها عددًا لا يحصى من «المقالات». فلا هذه القصص ولا شواهدي هي هنا فقط لكي تكون أمثلةً مرجعيّةً أو محسّناتٍ بديعيّةً؛ فأنا لا أعتبرها فقط بالنظر للتوظيف الذي أقوم به لها، إنها -في ما وراء خطابي- تمرّر غالبًا بذور مادةً أكثر ثراءً وأبْلغَ طموحًا، وغالبًا ما يكون لها صدىً شكلٍ

متوازٍ بطريقةٍ دقيقةٍ، في الآن نفسه لي أنا الذي لا يرغب في التعبير أكثر ولأولئك الذين سيكونون حساسين إزاء طريقتي في التفكير.

8. لكن حتى نعود إلى فضيلة اللغة، لا أجد اختلافًا كبيرًا في ألا يعرف المرء سوى سوء القول وأن يعرف فقط حسن القول، «**فالنظْم الجيد للكلام ليس ترصيعًا فيه فحولةٌ**»[1].

يقول الحكماء إنّ في مجال المعرفة ليس ثمّةَ غير الفلسفة، وفي مجال العمل ليس هناك غير الفضيلة، وهما يمكن أن يلائما كلّ الناس مهما كانت مرتبتهم ووضعيتهم.

9. ثمة لدى الفيلسوفين الآخريْن اللذين تحدثت عنهما، أيّ إبيقوروس وسينيكا، شيءٌ ما مشابةٌ للأوليْن؛ لأنّهما منحا الوعد بالخلود للخطابات التي كتباها لأصدقائهما، لكنها بطريقةٍ أخرى تتلاءم مع غرور الفيلسوفين الآخريْن، وذلك لغايةٍ جديرةٍ بالثناء، ولمنْ يخشون الوحدة والخلوة، وهو ما يرغبان في حثّ أصدقائهما عليه. أولئك الأصدقاء الذين ما زالوا متعلقين بالشؤون الحيوية بسبب عنايتهم بشهرتهم ورغبتهم في أن يخْلدوا في ذاكرة التاريخ. هما يقولان للأصدقاء أن لا خوف عليهم من أيّ شيءٍ؛ فهما فيلسوفان متآلفان تآلفًا كافيًا مع المستقبل، بحيث يمكنه أن يضمن لهما بأن الخطابات التي يكتبانها لهم تكفي؛ لكي يغدو اسماهما معروفين ومشهورين مقدار شهرتهما في مجال الأعمال العامة. زدْ على هذا الاختلاف، أنّ الرسائل المعنية ليست فارغةً أو جوفاء، فهي لا تملك قيمتها بالاختيار الماهر للعبارات المتراكمة والمنظَّمة تبعًا لإيقاع اختاره صاحبها لها، بل العكس من ذلك هي مليئة بخطاباتٍ رائعةٍ ومفيدة، بها نغدو ليس أكثر فصاحةً فقط وإنما أوْفَر حكمةً، وتعلِّمنا ليس حسن القول فحسب وإنما حسن العمل.

10. تبًّا للفصاحة التي تُرغِبنا فيها في ذاتها لا في الأشياء! بالرغم مما يمكن

(1) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, CXV, 2.

أن نقوله عن فصاحة شيشرون التي يمنحها كمالُها البالغ تماسكًا حقًّا. سأضيف أيضًا بهذا الصّدد حكاية تتعلق به، كي نلامس شخصيته أفضل، كان عليه أن يتحدث أمام الملأ، ولم يكن له الوقت الكافي كي يستعدّ لذلك على رسْله، فجاءه إيروس، أحد عبيده، ليخبره أن اللقاء الخطابي قد أُجّل إلى اليوم الموالي؛ فمن بالغ فرحه بالخبر السعيد أعتقه للتوّ.

المراسلات

11. سأضيف بخصوص الرسائل ما يلي: إنه نوعٌ من الكتابة يزعم أصدقائي أني أملك فيه موهبةً كبرى[1]، وكنت سأختار هذا الشكل من الكتابة عن طواعيَّة للتعبير عن قريحتي لو كان لي من أكاتب. لقد كنت بحاجةٍ -كما في الماضي- إلى علاقةٍ خاصةٍ[2] تستجذبني وتساندني وتسْندني، فالحديث في الفراغ كما يفعل ذلك الكثيرون، أمر لا أستطيعه إلا في الحلم، تمامًا كما أن أبتدع لنفسي مُراسلين أتحدث إليهم في الأمور الجدّية، ذلك أني العدوّ اللدود لكافّة أشكال الغشّ. كنت سأكون أكثر انتباهًا وأكثر ثقةً في نفسي لو كانت لي علاقة صداقةٍ قويّةٍ، على أن أتأمّل، كما أفعل، الطرائق المختلفة لوجود الناس، وأنا واثقٌ أن ذلك كان سيوافقني بنجاح.

12. لديَّ بطبعي أسلوبٌ مرحٌ ومألوفٌ في حياتي الخاصة، لكنه خاصٌ بي ولا يلائم الشؤون العامّة، مثل لغتي على كلّ حالٍ، فهو أسلوبٌ مكثَّفٌ وغير منظّمٍ وحادٌّ وشخصيٌّ، وأنا لست حاذقًا في رسائل الاحتفاء والتّكريم، التي ليست شيئًا آخر سوى نظْمٍ جميلٍ من العبارات المؤدّبة، فأنا ليس لي لا الذّوق ولا القدرة على تلك الشهادات العاطفية أو شهادات عروض الخدمة، إنه المكوث بعيدًا عن العوائد الحالية، لأننا لم نرَ

(1) نحن نملك مراسلات كتبها مونتيني، وقد نُشرت في طبعة «لابلياد» لأعماله الكاملة عام 1965م.

(2) من المحتمل أن مونتيني يحيل هنا إلى صديقه الكاتب دو لابويسي، وإذا كانا قد تبادلا الرسائل، فلم يصلنا منها أيّ شيء.

سابقًا عهرًا بالغ السفالة والذُّل في عبارات الأدب واللياقة كما اليوم، فالحياة والنفس والورع والتقديس والعبودية، كلها كلماتٌ تُتداول فيه أبلغ التداول، بحيث حين يريدون أن يُبينوا لها عن إرادةٍ أكيدةٍ وتقيّةٍ يعجزون عن التعبير عنها.

13. أكرَه ما أكره هو الإحساس بالمتملّق؛ وهو ما يدفعني إلى أن أتبنى طريقةً في الكلام جافّةً ودائريّةً ونيّئةً، يمكن أن تبدوَ لمن لا يعرفني أنها عدوانيةٌ، ومن أكرّمهم أكثر هم أولئك الذين أحجم أكثر عن تشريفهم، حين تكون نفسي في مرحٍ بالغٍ، أنسى التوافق مع المواضعات الاجتماعية. فأنا أمنح نفسي بشكلٍ هزيلٍ وبكبرياء لمن أرتهن بهم، وأمنح نفسي أقلّ لمن منحتهم الكثير مني في الماضي، يبدو لي أن عليهم أن يقرؤوا في ثنايا قلبي وأن الكلمات لا يمكن إلا أن تخون مشاعري.

14. ولكي أقوم بالترحيب أو الوداع أو السلام أو عرْض خدماتي، وكافة تلك المجاملات اللفظية التي تفترضها القواعد الرسمية لأدبنا، لا يوجد شخصٌ تخونه العبارات أكثر مني، وأنا لم أعرف أبدًا أن أكتب رسائل الإنعام أو التوصية من غير أن يجدها من يتلقوْنها جافةً وغير حارةٍ.

15. الإيطاليون ينشرون الكثير من الرسائل، إذ أعتقد أنّي أملك منها أكثر من مئة مجلّدٍ في مختلف المجالات، ورسائل أنيبالي كارو تبدو هي أفضلها، وإذا بقي شيءٌ مما سوّدتُ من ورق للنساء النبيلات[1]، حين كانت يدي لا تزال محمولة على هوى عشقي، فسيوجد من بينها أوراق تستحق أن نُبلغها للشباب الخامل الممسوس بهذا الحماس. أكتب دومًا رسائلي بسرعة، وبعجلةٍ بالغةٍ بحيث حتى ولو كان خطي سيئًا ومُريعًا أفضّل أن أكتب بيدي على أن أملي ذلك على شخصٍ آخر، إذ لا أجد مَن يمكن أن يتابعني في إملائي، وأنا لا أعمل نُسخًا لما أكتب أبدًا. عوّدت الأشخاص العظام الذين يعرفونني على ورقٍ غير مطويٍّ ومن غير هوامش وعلى تحمّل الشطْب على الكلمات، والرسائل التي تتطلب مني

(1) للأسف الشديد لم تنشر الآنسة دو غورنيه الرسائل التي بعث لها بها مونتيني.

أكثر هي تلك التي تهمني أقلّ. فحين أتمادى في منحها وقتًا فذلك علامةٌ على أني لا أجد فيها نفسي. أبدأ دومًا بالكتابة من غير تخطيطٍ مُسبقٍ دقيقٍ، فالفكرة الأولى تستدرج الثانية، وهلمّ جرّا.

16. رسائل اليوم تتكوّن من تصديرٍ وتمهيدٍ أكثر مما يشكّلها هي نفسها، وأنا أفضّل كتابة رسالتين على أن أطوي وأختم واحدةً، إذ إنّي أترك العناية بذلك لشخصٍ آخر، كما أني حين أنتهي من الأمر الأساسي فيها أترك عن طيب خاطرٍ لشخصٍ آخر ليضيف إليها تلك الخطابات الطويلة والعروض والأماني التي نكتبها في الأخير، وأتمنى أن تأتي تقليعة جديدة لكي تخلصنا منها، ومعها لائحة الألقاب والمزايا التي تخص المُرسل إليه. وحتى لا أخطئ في الأمر، كثيرًا ما تخليت عن الكتابة، خاصة لرجال العدالة والمال، من كثرة الجديد في مسؤولياتهم، ومن صعوبة تراتب وتنظيم الألقاب التشريفية المختلفة، والحال أن هذه الألقاب تُقتنى بثمنٍ غالٍ بحيث لا يمكن تغييرها أو نسيانها من غير أن يكون ذلك ضربًا من الإهانة. بالشكل نفسه، أعتبر أن من غير اللائق أن يملأ بها الكاتب غلاف كتابه والصفحة الداخلية له التي نقوم بطبعها.

الفصل الأربعون

الخير والشرّ يرْتهنان بأفكارنا عنهما

1. يقول مثلٌ يوناني قديم بأنّ بني البشر مهمومون بالآراء التي لهم عن الأشياء، لا بالأشياء في حدّ ذاتها، وسنحقّق قفزةً كبرى فعليةً للتخفيف من قدرنا البشري البائس لو استطعنا أن نؤسس حقيقة هذا الرأيّ في كافة الحالات. فإذا كان حكمنا لوحده الذي يسمح للمصائب بأن تحلّ بنا، فيبدو إذًا أننا يمكننا ازدراؤها أو تحويلها إلى خيرٍ فينا. وإذا كانت المصائب تحت رحمتنا، فلمَ لا نتعامل معها كأسيادٍ ونحوّلها لصالحنا؟ وإن كان ما نسميه شرًّا وهمًّا ليس شرًّا ولا همًّا في ذاته وإنما مخيّلتنا هي التي تسبغُ عليه هذا الطابع، فبمقدورنا تغييره. وما دام لنا الاختيار، فمن الغباء أن نتعلّق بالجانب المملّ أكثر لنا، وأن نمنح للأمراض والعوَز والمقْت مذاقًا مُرًّا وكريهًا بينما يمكننا أن نمنح لها مذاقًا طيّبًا. فما دام القدر يمنحنا المادة فقط، فعلينا يقَع أن نمنح لها الشكل والصورة.

2. إن ما نسميه «شرًّا» ليس شرًا في ذاته، أو على الأقل، ومهما كان في الواقع، إنه قد يرتهن بنا أن نمنحه نكهةً أخرى، أو - وهو ما يعني الأمر ذاته - أن نمنحه وجهًا آخر، ولننظرْ إن كانت تلك فكرةٌ يمكن الدفاع عنها.

3. إذا كان الجوهر الأصل للأشياء التي نخشاها يملك إمكانيةً أن تحُلّ بنا بذاتها، فستحل بكافة بني البشر، لأنّ الناس جميعًا هم من الجنس نفسه، وعدا بعض الاختلافات الطفيفة بدرجاتٍ متفاوتةٍ، نراهم يتوفرون جميعًا على الأدوات نفسها والآلات ذاتها للتصور والحكم، بيْد أن تنوع واختلاف الآراء التي لنا عن تلك الأشياء تبيّن بوضوحٍ أنها لا تتوطّن فينا إلا باتفاقٍ تامٍ معها، فإننا نرى أن فلانًا يوطِّنها لديه بمعناها الأصل، لكن مئات الآخرين يمنحونها في أنفسهم معنًى جديدًا ومخالفًا.

4. نحن نعتبر الموت والفقر والألم أعداءنا اللدودين، بيْد أن هذا الموت الذي يسميه البعض أفظع الأمور، من يدري إن لم يكن آخرون يعتبرونه المرفأ الوحيد لهموم الحياة، والخير العميم للطبيعة، والسنَد

الوحيد لحريتنا، والدواء الطبيعي الناجع والمباشر لكل الأمراض والبلايا والشرور؟ وكما أن البعض ينتظرونه مرعوبين ومزعودين من الوَجل كذلك يتقبّله آخرون ويتحمّلونه بأسهل من الحياة

5. وهذا يشكو من سهولته:

«أيها الموت، هل يمكنك أن تتمنَّع على الجبناء
فلا تمنح نفسك إلا للشجعان؟»[1].

لكن، لنترك هؤلاء الناس الرّابطي الجأش، فقد كان جواب ثيودوروس الملحد على تهديدٍ ليسيماخوس له بالقتل: «سوف تحقق إنجازًا عظيمًا إن أنت ضاهيْت قوة السمّ!»[2]، وإنّ أغلب الفلاسفة قد سبقوا الموت أو استدعوه إليهم.

6. كم نرى من أناس الشعب يُقتادون للموت، لا لموتٍ عاديٍّ وإنما لموتٍ موسومٍ بالعار وأحيانا بعذابٍ رهيبٍ، ويُبينون عن رباطة جأشٍ إما على سبيل العناد أو ببساطة عقلٍ فطريةٍ، بحيث إننا نظن أنْ لا شيء قد تغيّر في سلوكهم العادي! إنهم يُصفّقون شؤونهم المنزلية ويتركون الوصايا لأصدقائهم ويغنون ويعظون ويتحدثون للحشود مازجين أحيانًا خطابهم بالمُزَح ويشربون نخب معارفهم، كما فعل سقراط تمامًا. وذلك الذي كان يُقتاد للمقصلة طلب ألا يمرّروه من زقاقٍ معيّنٍ لأنّه كان يخشى أن يطلب أحد الباعة -له عليه ديْنٌ- من الجلاد أن يضع رأسه في المشنقة. وذلك الآخر طلب من الجلاد ألا يمسّه في الحنجرة خشية من أن يبدأ في الضحك لأنّه كان شديد الحساسية للدغْدغة. وآخر أيضًا أجاب الراهب المتلقّي لاعترافاته، إذْ قال له بأنه سيتعشى تلك الليلة مع الربّ: «رحْ إليه أنت، أمّا أنا فصائم». وأخيرًا ذلك الذي طلب شربة ماء، وحين شرب الجلاد من الكأس أولًا، قال إنه لم تعدْ به رغبة في الماء بعده، خوفًا من عدوى مرض الجدَري!

---

(1) Lucain, **La guerre civile ou La Pharsale,** IV ,580.

(2) Cicéron, V, 40.

كلّ الناس سمعت حكاية بيكارد الذي قُدمت له مومسٌ وهو على خشبة المشنقة، وحين قيل له إنه إذا هو تزوجها فسوف ينجو من الموت، لما كانت عدالتنا تسمح بذلك أحيانًا، تفحّص المرأة قليلًا فأدرك أنها عرجاء، أجاب قائلًا: «ضعْ حبل المشنقة في جيدي، إنها تعرج!».

7. يُحكى أيضًا أنّ رجلاً بالدنمارك كان محكومًا عليه بالموت بالمقصلة، واقتُرح عليه الأمر نفسه، فرفض لأنّ الفتاة التي قُدّمت له كانت ذات وجنتين متدلّيتيْن وأنفٍ حادٍّ جدًّا. وفي مدينة تولوز، اتُّهم خادمٌ بالهرطقة لأنّه تبنّى عقيدة سيّده، وهو طالبٌ شابٌ كان معتقلاً معه، ففضّل الموت على أن يقتنع بأن سيّده كان على خطأ. ويُحكى أن الملك لويس الحادي عشر حين استولى على مدينة آرّاس، قرّر العديدون من بين العامّة الانصياع للأسر على أن يصيحوا «عاش الملك».

8. لا يزال نساء الكهنة لحدّ اليوم في مملكة نارسنغاره بالهند[1] يتعرضْن للوأد ويدفنّ حيات مع أزواجهن، والأخريات يُحرقن حيّات مع أزواجهن، ليس فقط وهن في حال رباطة جأشٍ، وإنما في حال مرحٍ، وحين يُحرق جثمان ملكهم المتوفّى، كلّ نسائه وخليلاته وغلمانه وكافة أنواع ضباطه وخدمه يهرعون جماعاتٍ نحو المحرقة، ليرموا فيها بأنفسهم مع سيّدهم، وفي حالٍ من المرح البالغ بحيث يبدو أن مصاحبَته في الموت شرفٌ لهم.

9. ثمة حتى من بين النفوس الوضيعة مهرّجون، فهناك من بينهم من لا يتخلّون عن هزلهم حتى في الموت. أحدهم دفعه الجلاد فصرخ: «فلتعانقِ السفينة الموج، فذلك قَدرنا»، وهي عبارته المفضّلة. وآخر حين كان على وشْك إسلام النفَس الأخير، وحين مُدِّد على سرير قرب المدفأة، سأله الطبيب أين يحسّ بالألم، فأجاب: «بين السرير والنار»، ولما كان الراهب، لكي يمنحه الدواء الروحي لمرضه، يبحث عن قدميْه المنكمشتين والمتشنّجتين بالمرض، قال له: «ستجدهما في طرف رجْليّ»،

(1) Simon Goulard, **Histoire du Portugal**.

ومن كان يعظه بإسلام نفسه للرب، قال:
- من سيُلاقي ربه؟
- ستكون أنت، لوْ تلك مشيئته.
- آه لو كنت سألاقيه غدًا مساءً.
- أسلمْ فقط نفسك له، وستكون جنبه آجلًا.
- في هذه الحال، سوف أحمل له وصاياي بنفسي[1].

10. خلال حروبنا الإيطالية الأخيرة، وبعد ضمّ العديد من المناطق لفرنسا وإعادة ضمّها لها، قرر الشعب الذي أثارت حفيظته هذه التغيُّرات أن يموت خير ميتةٍ، بحيث إني سمعت أبي يقول إنّ عدد الشخصيات المهمة التي قتلت نفسها في أسبوعٍ واحدٍ فاق خمسة وعشرين فردًا. وهذا الحدث يذكّرنا بحدث الكسانثوسيّين الذين حاصرهم بروتوس، فأبانوا عن حماسٍ باهرٍ للموت رجالاً ونساءً وأطفالاً مجتمعين، بحيث لم يقم أحدٌ بما يُنجّيه من الموت مقدار ما قاموا به للهرب من الحياة، وكان الأمر من الفظاعة بحيث إن بروتوس لم يتوصل إلى إنقاذ سوى نفَرٍ قليلٍ منهم.

11. كل رأيٍ قابلٌ لأن يصل إلى فرض نفسه ولو كان ثمن ذلك الموت، والبند الأول لذلك القَسم الشجاع الذي أقسمت به بلاد اليونان واحترمته خلال الحروب الميدية، يقول إن كلّ واحدٍ قد يستبدل حياته بالموت على أن يستبدل قوانين البلد بقوانين الفُرس.

كم رأينا في حروب اليونانيّين ضد الأتراك من رجال يقبَلون بموتٍ بشعٍ على أن يتخلوا عن الختان ويقبلوا التعميد؟ ذلكم مثال عما تقْدر عليه الأديان.

12. حين طرد ملوك قشتالة اليهود من أراضيهم، باع جواو ملك البرتغال[2]

(1) Bonaventure des Périers, **Nouvelles recréations**.

(2) كان حكم جواو الثاني ملك البرتغال من 1481 إلى 1495.

لهم بثمانية قروش للرأس حقّ اللجوء إلى أراضيه، بشرط أن يهجروها في أمَدٍ محدّدٍ، وهو من جانبه وعدهم بتوفير السفن لهم لعبورهم نحو إفريقيا، وعندما حان الأجل لذلك، ولما كان قد قرّر أن من بقوا منهم بعد ذلك اليوم سيُعتبرون عبيدًا، فقد وفرها لهم بتقْتير كبير، وأولئك الذين امتطوها عومِلوا معاملةً وحشيّةً من طواقمها، فإضافةً إلى كافة أنواع الإهانة، كانوا يتعمدون تأخير بلوغهم أراضي إفريقيا، متلاعبين بالطريق إليها، حتى نفدت مؤونتهم بحيث يكونون مضطرين لاقتنائها منهم بغالي الثمن، حتى بلغوا بهم اليابسة وقد جرّدوهم مما يملكون حتى قمصانهم، وحين بلغ خبر هذه المعاملة غير الإنسانية أسماع من بقوْا منهم بالبرتغال، قرّر أغلبهم أن يقبلوا بالعبودية، بل إنّ البعض منهم تظاهروا بتغيير دينهم.

13. وحين اعتلى مانويل الأول العرش، بدأ يسمح لهم ببعض الحرية، لكنه ما لبث أن بدّل رأيه بعدئذٍ، وحدّد لهم مهْلةً ليرحلوا عن البلد، فارضًا عليهم ثلاثة مرافئ للعبور، وقد كان يأمل، كما قال الأسقف أوسوريوس -أفضل مؤرخٍ لاتينيٍّ في عصرنا- إذْ هو فشل في دفعهم لاعتناق المسيحية بمنحهم الحرية، أنهم سينتهون إلى الارتداد عن دينهم بالمخاطرة في مواجهة أهوال ابتزاز البحارة، والخوف من ترك بلدٍ تعوّدوا العيش فيه في الثراء كي يروحوا لبلادٍ مجهولةٍ في أرضٍ غريبةٍ عنهم.

14. لكنه بعد أن خابت آماله في ذلك، وأدرك أنهم عازمون كلّ العزْم على السفر كلهم، قرر إغلاق مرفأين من الثلاثة المخصّصة لرحيلهم التي وعدهم بها، حتى يثني التأخير الطويل وقساوة الرحلة البعض منهم، أو حتى يجمعهم كلهم في مكانٍ واحدٍ تيسيرًا لإنجاز الخطة التي عزم عليها، وقد تمثلت تلك الخطة في أن ينتزع منهم كافة أطفالهم الذين لا يفوق عمرهم أكثر من أربعة عشر عامًا كي يرحّلهم بعيدًا عن أنظارهم في مكانٍ قصيٍّ يُعلّمون فيه مبادئ ديننا. يُحكى أنّ ذلك كان منظرًا مهولًا، فقد انضافت عاطفة الأبوة الفطرية إلى إيمانهم لإذكاء معارضتهم لذلك القرار الهمجي، ومراتٍ عديدةً، شوهد آباءٌ وأمهاتٌ مكلومون يعمدون

للانتحار، بل الأدهى والأنكى من ذلك، أن منهم من شوهد يرمي بأبنائه في الآبار محبةً فيهم وشفقةً عليهم كي يفلتوا من تطبيق الخطة.

15. وفي نهاية الأمر، وبعد أن انتهى الأجل المحدّد لرحيلهم سقطوا ضحية العبودية، بعضهم اعتنقوا المسيحية، بيد أن القليل من البرتغاليين حتى اليوم يثقون تمامًا في إيمانهم أو في إيمان خَلفهم، بالرغم من أنّ الوقت الذي مرّ على ذلك يكون قد أثّر فيهم أكثر من أيّ إكراهٍ آخر. ففي مدينة كاستيلنوداري، وخلال الحملة الصليبية الألبيجية، قبِل خمسون من الهراطقة بحزمٍ ورباطة جأشٍ أن يُقتلوا حرقًا أحياءً وجماعةً من غير أن يتخلوا عن معتقدهم. يقول شيشرون: «**كم من مرةٍ سعى، لا فقط قادتنا وإنما جيوشنا بكاملها، إلى موتٍ محقَّق؟**»[1].

16. رأيت أحد أصدقائي الحميمين يسعى إلى الموت بشغفٍ بالغٍ وحزمٍ متأصّلٍ فيه لم أستطع أن أجتثه منه، وفي أول فرصةٍ سنحت له، وكما لو كانت تحيط به هالةٌ من المجد، اندفع إليها وقد فقد كامل قواه العقلية، كما لو كان مدفوعًا بشوقٍ قاصمٍ وحماسيٍّ.

17. لدينا في أيامنا هذه أمثلة عديدة لأشخاص بل ولأطفال أيضًا قتلوا أنفسهم خوفًا من مشكلٍ بسيطٍ، وبهذا الصّدد قال مؤلف قديم: «ما الذي سنخشاه إن لم نخْشَ ما اختاره الجبن مكانًا لخلوته؟». ولو أردت هنا أن أجْرد لائحة الرجال والنساء من كافة الشروط الاجتماعية الذين إما انتظروا الموت بثباتٍ أو سعوا إليها إراديًا، لا فقط هروبًا من مصائب هذه الحياة، وإنما بعضهم فقط تعبًا من العيش والبعض الآخر طمعًا في حياة أفضل؛ فإني لن أستطيع بلوغ نهايتها، فعددهم من الكثرة بحيث إني في الحقيقة أفضّل أن أجرّد بسرعة من خافوها.

18. ولْنضِفْ ما يلي: حين وجد الفيلسوف بيرون الإليسي نفسه يومًا في سفينةٍ فاجأتها عاصفة هوجاء، أشار لمَن استبدَّ بهم الخوف استبدادًا

(1) Cicéron, **Tusculanes, I,** 37.

إلى خنزير كان هناك غير عابئٍ أبدًا بالعاصفة، فهل سنجرؤ على القول إن الامتياز الذي يمنحنا إياه العقل، بما نمنحه أهميةً كبرى، والذي باسمه نعتبر أنفسنا أسياد وأباطرة باقي المخلوقات، قد مُنح لنا ليزرع فينا الهموم؟ ما جدوى أن نملك معرفة الأشياء إذا كان ذلك يقلق راحتنا وهدوءنا اللذيْن سنتمتع بهما من دونه، وإذا كان ذلك يجعل من وجودنا أسوأ من وجود خنزير بّيرون؟ فالذكاء الذي حُبينا به لأجل خيرنا العميم، هل سنستخدمه من أجل ضلالنا، بصراعنا ضد مرامي الطبيعة والنظام الكوني للأشياء، الذي يبتغي أن يستعمل كلّ واحدٍ منا مواهبه وقُدُراته لصالحه؟

الألم

19. سيُقال لي، لِتكنْ، مبادئك صالحة للموت، فما قولك في العَوَز؟ وما قولك في الألم، الذي يعتبره أريستبّوس وجيروم الكاردي، على غِرار أغلب الحكماء، الشرّ المطلق؟ -ومَن منهم ينكرونه في الخطاب يقبلونه في الواقع- كان بوسيدونيوس يعاني من مرضٍ حادٍ بالغ الإيلام، جاءه بومبّيوس لعيادته، معتذرًا عن أنه جاءه في وقتٍ غير ملائمٍ لينصت إليه يتكلم في الفلسفة، فردّ عليه بوسيدونيوس: «لا سمح الله أن يستبدّ بي الألم إلى حدٍّ لا أستطيع معه الكلام عنه»، وانقض على موضوع مقت الألم، لكن -في هذا الوقت- كان الألم يلعب دوره، ولا يكفّ عن نهشه مع ذلك، فصرخ: «مهما قمتَ به أيها الألم، فلن أقول إنك شرٌّ». هذه الحكاية التي تُمنح لها عنايةٌ بالغةٌ، ما الذي تعلّمنا إياه عن ازدراء الألم؟ ففيها لا يتعلق الأمر إلا بالكلمة نفسها، ومع ذلك، إذا لم يكن بوسيدونيوس عرضةً للألم، فلماذا يتوقف عن كلامه؟ ولماذا يرى من المهمّ ألا يسميه شرًّا؟

20. ليس كلّ شيءٍ مسألة خيال فقط، فإذا كان الباقي مسألة رأيٍ، فهنا يتعلق الأمر بالمعرفة الموضوعية، وحواسنا شاهدةً على ذلك.

«فإذا كانت الحواس تخدعنا، فالعقل يقوم بالشيء نفسه»[1].

هل سنوهم بشْرتنا أن ضربات السوط تُدغْدغها؟ وأن العلْقم عسل؟ وخنزير بيّرون هنا يقف إلى جانبنا، وما دام لا يهاب الموت، فهو يصرخ ويئن حين يُضرَب. كيف لنا أن نعاكس القوانين العامة للطبيعة التي تسري على كافة المخلوقات الحيّة على الأرض ونهاب الألم؟ الأشجار نفسها تبدو كأنها تئنّ بسبب الضربات التي تُصاب بها، الموت لا يمكن إدراكه إلا بالتفكير؛ لأنّه مسألة بُرهةٍ واحدةٍ.

«لقد جاء أو أنّه آتٍ لا ريب فيه، ولا شيء فيه حاضرٌ أبدًا»[2].
«الموت يتسبّب بألمٍ أقل من انتظار الموت»[3].

مئات الحيوانات ومئات الناس ماتوا بسرعةٍ أكبر مما هدّدهم به بالموت، وفي الحقيقة، فما نهابه أساسًا في الموت هو الألم الذي يكون عمومًا نذيرًا له.

21. ومع ذلك، إن كان علينا أن نصدق أحد الرهبان القديسين: **«فالموت ليس شرًا إلا بما يتبعه»**[4]، وسأضيف بشكلٍ أصحّ، بأن لا ما يأتي قبل ولا ما يأتي بعدُ يشكل جزءًا من الموت، فنحن إذًا نختلق لنفسنا الأعذار السيئة حين نتحدث عن الألم. وأنا أعرف بالتجربة أن استحالة تحمل مجرّد ذكر الموت هو بالأحرى ما يجعل من الألم غير قابلٍ للتحمُّل، بحيث نحسه حادًا بشكلٍ مضاعَفٍ لأنّه يمثل لنا إعلان موتنا، لكن، لما كان العقل يبيّن لنا كم أننا جبناء بخوفنا شيئًا مفاجئًا ولا رادَّ له ولا إحساس له كهذا، فإننا نمسك بتلك الذّريعة الأخرى لأنّها أكثر قابليةٍ للعذر.

22. كل المصائب والشرور التي لا خطر فيها سوى الألم، نقول عنها إنها غير خطِرةٍ، فألم الأسنان أو النقْرس، مهما كان مُضنيًا، ما دام لا يؤدي إلى الموت، من سيفكّر في اعتباره مرضًا؟ علينا إذًا أن نقبل أنّ ما يهمنا

(1) Lucrèce, **De la Nature**, IV, 485.

(2) La Boétie, **Satire, adressée à Montaigne**.

(3) Ovide, **Héroïdes** v. 82.

(4) Saint Augustin, **La Cité de Dieu**, I, 11.

في الموت هو الألم، وقُلِ الشيء نفسه عن الفقر: فما نهابه فيه هو أن العطش والجوع والبرد والحرارة والسهر التي ترمينا بين أحضانها تجعلنا نتعذّب.

23. الألم وحده إذًا يهمنا، وأنا أعترف أنه أسوأ شيءٍ وأشقُّه يمكن أن يصيبنا، فأنا رجل يزْدريه ويفعل كلّ شيءٍ ليتهرّب منه، بالرغم من أني والحمد لله لم أدخل في علاقةٍ عميقةٍ معه، لكننا لنا الإمكان لإبادته أو على الأقل للتخفيف منه بالتعوّد؛ ومع أن الجسد يمكن أن يتأثر بذلك عميقًا إلا أننا نستطيع مع ذلك أن نحافظ على النفس والعقل فينا في حالٍ جيدةٍ.

24. ولو لم يكن الأمر كذلك، من كان سيمنح قيمة للفضيلة والشجاعة والشهامة ورباطة الجأش؟ كيف يمكنها أن تلعب دورها لو لم يكن لها أن تتحدى الألم؟

«الفضيلة لها جشعٌ حيال الخطر»[1].

لو لم يكن علينا أن نبيت على الأرض مدجَّجين من الرأس إلى القدميْن، ونتعرض لشمس الظهيرة، ونقتات من لحم الفرس أو الحمار، ونُصاب بالحزّات من كلّ جانب، وأن نسلّ رصاصة من بين العظام، وأن نتحمل خياطة البشرة والكيّ بالنار ونتحمل آلات الجرّاح، فما سيكون فضلنا على أيٍّ من بني البشر؟

25. بعيدًا عن الهروب من الشر والألم، علينا بالأخص -كما يقول الحكماء- أن نرغب من بين الأشياء الطيبة كلها، في تلك التي تتطلّب الكثير من الجَهد، **«ذلك أننا لا نكون سعيدين في الفرح والملذات، وفي الضحك والألعاب، إذ هي رفيقة النزق»**[2].

لهذا لم يكن بالإمكان إقناع أسلافنا أن الغزوات التي تتم بالقوة، ومعها

(1) Sénèque, **La Vie heureuse, la Providence**, IV.

(2) Cicéron, **De finibus**, II, xx.

مخاطر الحروب، لم تكن مفيدةً مقدار فائدة تلك التي تتمّ بالمكائد وبالمناورات الدبلوماسية.

«ثمّة سعادةٌ أكبر في الفضيلة حين لا تتطلب منا ثمنًا غاليًا»[1].

26. فضلًا عن ذلك، إليكم ما يمكن أن يكون لنا عزاءً: «**إذا كان الألم ضاريًا، فهو يكون سريعًا، وإذا كان طويل الأمد فهو طفيفٌ**»[2]. فنحن لن نحس به طويلًا إذا أحسسنا به ضاريًا، إنه سيتوقّف، أو أننا نحن الذين سنتوقف عن الحياة، والأمران سيان، فإذا ما لم نتحمّل الألم فإنه يحملنا للآخرة، «**تذكّرْ أن الموت يضع حدًّا لكافة الآلام، وأن الصغيرة منها متقطعةٌ، وأننا يمكن أن نسيطر منها على الآلام المتوسطة، وهكذا فحين تكون الآلام طفيفةً نتحمّلها، وحين تكون قاهرةً نتهرّب منها بمغادرة الحياة التي لا نحب، كما لو كنا نخرج من مسرحٍ**»[3].

27. إنّ ما يجعل من الألم شيئًا لا يُحتمل هو أننا لا نكون متعوّدين على أن نجد في أنفسنا المصدر الأساس لرضانا، ولا نتكئ عليها بما يكفي، وهي الوحيدة مع ذلك سيدة سلوكنا. لا يعرف الجسد إلا اختلافات في الدرجة، فهو ليس له غير موقفٍ واحدٍ ومسيرٍ واحدٍ، أما النفس فهي متغيرة بامتياز، وتأخذ كافة الأشكال والصور، وهي تُرجعُ إلى ذاتها وإلى حالها أحاسيسَ الجسد وما يحدث له، كيفما كانت تلك الأحاسيس. علينا إذًا دراستها ومساءلتها وإيقاظ النوابض القوية الموجودة فيها، لا شيء يمكن أن يسير ضدًّا على ميولها واختياراتها، لا بالعقل ولا بأي أوامر ولا حتى بالقوة، ولنأخذْ من بين آلاف التصرفات التي تتوفّر عليها، ذلك الذي يلائم راحتنا وسكينتنا، وسنكون مسلّحين لا فقط ضدّ أيّ جرحٍ، وإنما سنحظى بالجزاء والإطراء بجراحنا ومصائبنا، إذا عنَّ لها ذلك.

---

(1) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, IX, 405.

(2) Cicéron, **De finibus**, II, 29.

(3) Cicéron, **De finibus**, I,15.

28. تستفيد النفس من كلّ شيءٍ من دون تمييزٍ، والخطأ والحلم لهما منفعةٌ لها، لأنّها تجد فيهما مادةً قابلةً لأن تضمن رضانا. ومن السهل أن نتأكد أنّ ما يزيد فينا من حدّة الألم كما اللذة، هو حدّة ذهننا. والحيوانات التي تلجم دومًا ذهنها تسمح لأجسامها بالتعبير عن أحاسيسها بشكلٍ حرٍّ وطبيعيٍّ، وهذه الأخيرة هي نفسها لدى كافة المخلوقات، كما نتأكد من ذلك بتشابه سلوكها.

وإذا لم نخلْخل في أعضائنا الجسمانية القاعدة التي هي قاعدتها، فكل شيءٍ يؤكد بأننا لن نكون إلا في أحسن حال، وأن الطبيعة منحتها مزاجًا معتدلًا وصحيحًا إزاء اللذة والألم، وهو مزاجٌ لا يمكن أن يكون إلا صحيحًا لأنّه المزاج نفسه المشترك بين الكلّ. لكن، لما كنا متحرّرين من قواعده، لنسْلِمْ أنفسنا لحرية شطحاتنا الخيالية، ولْنحاولْ على الأقل أن نجعل هذه الأخيرة تميل أكثر للجانب الممتع فيها.

29. كان أفلاطون يهاب منزعنا الكبير للألم واللذة لأنّه يرى فيه رابطًا وخضوعًا للنفس إلى الجسد، أما أنا فأرى بالأحرى العكس: لأنّ النفس تفصل الجسد عنهما وتنتزعه منهما. فكما أنّ العدو يصير أكثر هياجًا حين يرانا نهرب منه، كذلك الألم يستمد كبرياءه من رؤيتنا ونحن نرتعش أمامه. فهو سيكون أكثر رحمةً مع من يُبدي له رباطة جأشٍ وعنادٍ. علينا إذًا أن نقاوم الألم بكل ما أوتينا من قوة. فحين ننصاع للضغط والتراجع لا نقوم سوى باسْتجذاب الهزيمة المتربّصة بنا. يتحمّل الجسد أفضل الهجومَ وأقواه حين يصبح أصلب وأقوى، والأمر نفسه مع النفس.

30. لكن لنأتِ الآن إلى الأمثلة والنماذج، التي هي بمثابة الخبز المقدس للناس القليلي الصلابة مثلي. فسنجد فيها أن الألم مثل الأحجار الكريمة، التي تستمد لونها من الورقة التي نضعها عليها، والتي لا تأخذ إلا المكان الذي نمنحه لها. «**لقد تعذبوا مقدار ما انصاعوا للألم**»[1]. نحن نحس بألم موسى الجرّاح أكثر من عشر ضرباتٍ بالسيف في حِمى المعركة. ثمّةَ

(1) Saint Augustin, **La Cité de Dieu**, I, x.

شعوبٌ لا تعير أيّ أهميةٍ لآلام الوضْع، التي يعتبرها الأطباء والله نفسه آلامًا عصيبةً، والتي نحتفي بها أيما احتفاءٍ، وأنا أستثني هنا النساء الإسبّرطيات. لكن لدى السويسريين، من بين مُشاة عساكرنا، هل نرى اختلافًا ما في تلك اللحظة؟ إننا نرى النساء يتبعن أزواجهن الجنود، وتراهنّ اليوم يحملن على أظهرهن الطفل الذي كنّ يحملنه البارحة في بطونهن، وأولئك البوهيميات اللواتي يعشن جماعاتٍ بين ظهرانيْنا، يسرْن بأنفسهن لغسل الوليد ويعمن في النهر الأقرب لهن.

31. الكثير من المومسات يخفين كلّ يومٍ أبناءهن خلال الحمل كما خلال الوضع، لكن علينا ذكر الزوجة الجميلة النبيلة للأرستقراطي الروماني سابينوس، التي وضعت توأمين وحيدةً من غير عوْنٍ ومن دون صراخٍ أو أنينٍ، كلّ ذلك خدمةً لمصلحة زوجها[1].

32. بعد أن سرق صبيٌّ إسبّرطيٌّ ثعلبًا وأخفاه تحت سترته، فضّل أن يتركه ينهش بطنه على أن ينفضح صنيعه[2] فلديهم يخشى الناس العار الذي يجلبه عليهم سارقٌ بليدٌ مقدار ما نخشى نحن العقاب على سوْءاتنا. وصبيٌّ آخر حين كان يقدم البَخور خلال قربانٍ، ترك نفسه يحترق حتى العظم بسبب جمرة سقطت داخل كمّه على أن يوقِف سير الاحتفال[3]. ولقد حدث أن الكثير من الأطفال، لكي يُبْدوا عن شجاعتهم تبعًا للتربية الإسبّرطية التي تلقّوها، انصاعوا للجَلد حتى الموت وهم في السابعة من عمرهم، من غير أن يطرَف لهم جفْن أو تنطبع على وجوههم أيّ أمارةٍ للألم. وقد شهد شيشرون جحافل منهم تتعارك بالأيدي والأرجل والأسنان حتى يُغمى عليهم على أن يعترفوا بالهزيمة. «**لم تتغلب العادة أبدًا على الطبيعة لأنّها لا تُغلب؛ لكننا أفسدنا أنفسنا بالرخاوة والملذّات والعطالة والكسل واللامبالاة. لقد أفقدناها صلابتها بأحكامنا المسبقة وبالعادات السيئة**»[4].

(1) كانت حسب بلوتارخوس تقوم، طيلة سنواتٍ، بتأمين مؤونة زوجها في حربه ضد الإمبراطور فيسباسيانوس.
(2) Plutarque, **Vie de Lycurgue**, XIV.
(3) Plutarque, **Vie de Lycurgue**, XIV.
(4) Cicéron, **Tusculanes**, V, 27.

33. كلنا نعرف قصة سكيفولا[1] الذي تسلّل إلى معسكر رومانيٍ ليغتال قائده، وحين فشل في مسعاه، أراد معاودة الكرّة وتبرئة بلده بابتكارٍ أكثر غرابةً؛ فلقد اعترف ليس فقط بغايته في قتل بورسينّا (الملك الإتروسكي) لكنه أضاف أنّ في معسكره عددًا كبيرًا من الرومان مثله متواطئون معه في صنيعه، ولكي يؤكد كلامه ورجولته، طلب مجمرًا متقدةً نارُه وغرس فيه يده التي التهمتها النار حتى ارتعب العدو من فعلته وأمر بإبعاد النار عنه. وما القول في ذلك الآخر الذي تمادى في السخرية والضحك، ما استطاع، من العذاب الذي ساموه، حتى انتصر أخيرًا على فظاظة الجلادين الذين كانوا يمسكون به، وعلى كافة أنواع العذاب التي ابتدعوا وكالوها إياه وضاعفوها له؟ لكن الأمر كان يتعلق بفيلسوفٍ[2].

34. وماذا أيضًا؟ أحد المصارعين الرومان كان تابعًا ليوليوس قيصر، تحمّل ضاحكًا الناس وهم ينظفون جراحه ويلْأمونها، «**متى كان أبسط المصارعين الرومان يئنّ أو تتغير ملامحه؟ وهل أبدى أحدهم الجبن لا خلال المصارعة وإنما أيضًا حين يُطرَح أرضا؟ وهل وُجد واحدٌ من بينهم، حين سقط أرضًا وينتظر الضربة القاضية، أدار وجهه عن حدّ السيف؟**»[3].

35. لنضفْ لهذه الأمثلة أخرى عن النساء، من لم يسمع بباريس بتلك المرأة التي سلخت جلدها فقط لتحصل على لون أكثر طراوة وعلى بشرةٍ جديدةٍ؟ وثمة من بينهن من اقتلعت أسنانًا حيةً وسليمةً فقط لتنتظم الأسنان الأخرى أفضل، أو لكي يصير صوتها أكثر رخامةً ولثْغًا. كم من أمثلةٍ من قبيل هذه يمكننا جردُها تُعتبَر شاهدًا ضد الألم؟ ما الذي لا يمكنهن فعله في هذا المضمار؟ وما الذي سيخشيْنه وهن لهن الأمل في تحسين جمالهن ولو قليلًا؟

«هن يعتنين بنزع الشعر الأبيض
واقتلاع بشرتهن لاكتساب بشرةٍ جديدةٍ»[4].

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, II, 12, 47.
(2) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, 78.
(3) Cicéron, **Tusculanes**, V, 27.
(4) Tibulle, **Élégies**, I, VIII, 45.

وقد رأيت منهن من تبلع الرمل والرماد وكل ما يحطم المعدة لكسب لون بشرةٍ باهتٍ، ولكي يكسبن جسدًا رشيق الخصْر مثل الإسبانيات، كم من أنواع العذاب يتحمّلن مُنطَّقات بإحكام حتى يترك الحزام ندوبًا على خصورهن؟ وهنّ يقمن بذلك حدَّ المخاطرة بحياتهن.

36. من الرائج لدى بعض الشعوب أن يقوم المرء منهم بقطع عضوٍ كي يؤكد على صلابة وعده، وقد لاحظ ملكنا هنري الثالث أمثلةً باهرةً على هذه العادة في بولونيا، وفي بعض الحالات منها كانت تلك العمليات موجّهةً إليه، وأنا أعلم أن بعض الناس في فرنسا قد حاكوْا تلك العادة؛ لكن في ما يخصّني، رأيت قُبيل العودة من «تجمّع بْلوا»[1] فتاةً من منطقة بيكاردي قامت، للشهادة على صحة وعودها وثباتها، بكيْل أربع أو خمس ضرباتٍ لساعدها بمِخْرَز تجمع به شعرها، وهو ما مزق جلدها وأسال منها الغزير من الدماء.

37. الأتراك يحزّون بشرتهم بجروحٍ كبيرةٍ كي يتودّدوا بها لنسائهم، ولكي تكون حزّاتٍ دائمةً، يكْوونها بالنار ويتركونها وقتًا طويلًا عليها كي يكفّ الدم عن النزْف ويترك ذلك نُدْبًا واضحًا، وهناك أناسٌ رأوا ذلك وسجلوه كتابةً وأقسموا لي أن الأمر حقيقة، بل إننا نجد من بينهم من يقوم بجرحٍ عميقٍ في ذراعه أو فخذه من أجل بعض القروش فقط.

38. أنا فرِحٌ أن يكون قريبًا مني الشاهدون الأنموذجيون الذين نعود إليهم باستمرارٍ، والمسيحية تمنحنا منهم ما يكفي، وبعد المثال الذي قدمه مرْشدنا المقدس، كانت هناك أعدادٌ من الناس أرادوا هم أيضًا بدافع الورع أن يحملوا الصليب، فنحن نعلم من شاهد ثقةٍ[2]، أن الملك سان لويس قد لبس قميص الوبَر حتى أتاه راهبُ اعترافاته كي يُعفيه منها، وأنه كان كلّ جمعة يطلب من راهبه أن يجلد منه الكتفين بخمسة سلاسل حديدٍ صغيرة كانوا يحْضرونها له مع حوائج الليل، وغيّوم، آخر دوق لغويانا، وأبو أليونور التي أورثت بيوتَ فرنسا وإنجلترا

(1) تجمّع دعا له ملك فرنسا هنري الثالث عام 1588-1589 وقت الحروب الدينية [المترجم].
(2) مذكرات السيد دو جوانفيل.

تلك الدوقية. ظل خلال العشر أو الاثني عشر عامًا الأخيرة من حياته يرتدي باستمرارٍ درعًا تحت ثيابه الدينية عقابًا منه لنفسه. وفولك، كونت منطقة أنجو، ارتحل حتى القدس كي يجلده خادماه والحبل حول عنقه أمام قبر المسيح. لكن، ألا نرى لحدّ اليوم، في كلّ يوم جمعة مقدّسة، وفي أمكنة مختلفة، عددًا كبيرًا من الرجال والنساء يتعاركون حتى تتمزق جلدتهم ويظهر العظم من تحت اللحم؟ ولقد شهدتُ ذلك مرارًا من أناس ليسوا واقعين تحت تأثير السحر، زعموا -لأنهم يقومون بذلك من تحت قناع- أن من بينهم من يقومون بذلك من أجل المال، كي يشهدوا بذلك على تديّن أشخاص آخرين، وبمقتٍ كبير للألم بحيث إن وخْز الورع يفوق بذلك وخْز الجشع.

39. دفن كوينتوس ماكسيموس ابنه الذي صار قنصلًا رومانيًا، ودفن ماريوس كاتو ابنه أيضًا الذي كان قد عُيّن قاضيًا، ولوكيوس باولوس دفن ابنيه بفارق بضعة أيام بوجه هادئ الملامح لا تظهر عليه آثار الألم. قلت في يومٍ ما عن أحدهم على سبيل المزاح، إنه خدع العدل الإلهي؛ فالموت الفظيع لأبنائه الثلاثة الكبار الذي ألمّ به في يومٍ واحدٍ كضربة مطرقةٍ، كما يمكننا أن نتصور ذلك، كاد أن يجعله يعتبر ذلك فضلاً من المشيئة الإلهية ونعمةً ربانيّةً خاصةً. وأنا ليس من طبعي أن تكون لي أحاسيس قاسيةٌ من قَبيل هذه، لكني أنا أيضًا فقدت ابنين أو ثلاثة أبناء وهم لازالوا رُضّعًا إن لم يكن بأسف فعلى الأقل بغير أسًى كبيرٍ[1]. ومع ذلك فليس هناك من حادثٍ يصيب الناس في العمق أكثر من فقد الأبناء. وأنا أجد أن ثمّةَ مناسباتٍ أخرى مشتركةً في البلْوى والمصائب أكاد لا أحسها لو ألمّت بي، وهناك من بينها ما يمنحه الناس كلهم صورة من القسوة والبشاعة بحيث لن أجرؤ على التباهي بأني ازدريتها حين ألمّت بي من غير أن يتضرّج وجهي بالحمرة. «**نحن نرى من خلال ذلك أن البلاء ليس نتيجةً للطبيعة وإنما للرأي فقط**»[2].

40. الرأي عنصرٌ أقوى وأجْسَر مما نتصور ولا حدود له. مَن مِن الناس

(1) كثيرًا ما عيب على مونتيني هذا الكلام، بيد أن موت الرضع كان أمرًا معهودًا في ذلك الوقت.

(2) Cicéron, **Tusculanes**, III, 28.

سعى بتعطّشٍ إلى الأمان والراحة أكثر مما سعى الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر وراء القلق والمصاعب؟ كان تيريس أبو الملك سيتالكيس يحب القول إنه حين لم يكن يقوم بالحرب كان يبدو له أن لا فرق بينه وبين حلاقه.

41. حين كان كاتو الأوتيكي قنصلًا، ولكي يأمَن جانب بعض المدن الإسبانية، منع على سكانها حمل السلاح، فأقْدَم العديد منهم على قتل نفسه. «إنها **أمّةٌ هوجاء تلك التي لا تعلم أن من الممكن العيش بدون سلاحٍ**»[1]. كم نعرف من بينهم تركوا عذوبة الحياة الهادئة في بيوتهم، وسط أصدقائهم ومعارفهم، سعيًا وراء رعب الصحاري القفْراء، وكم من بينهم وضعوا نفسهم في وضعٍ مقيتٍ وفي حياةٍ حقيرةٍ، مزدرين الدنيا، ومع ذلك وجدوا في ذلك سعادتهم حتى إنهم فضلوا ذلك الوضع؟

42. الكاردينال كارلو بوروميو، الذي توفي مؤخرًا في ميلانو، وسط الفسق والمجون الذي دفعته إليه نبالته وثرواته الهائلة، وأجواء إيطاليا كما شبابه، حافظ مع ذلك على طريقة عيشٍ متقشّفةٍ بحيث كان يلبس السترة نفسها صيفًا كما شتاءً، ولا ينام إلا على التبن، ويقضي الساعات التي تبقى له خارج انشغالات مسؤوليته في الدراسة المستمرة، جالسًا على الركبتيْن، بقليلٍ من الخبز والماء قرب كتابه، وكان ذلك هو طعامه في الوقت الذي يخصصه لدراسة ذلك الكتاب.

43. وأنا أعرف من استفاد عن وعيٍ وارتقى اجتماعيًا من خيانة زوجته له، وهو الأمر الذي يكفي التلفظ باسمه كي يرْهب العديد من الناس، إذا كان البصر ليس الحاسة الأساس من بين حواسّنا فهي الحاسّة الأكثر لطافة، بيد أن الأفْيَد والألطف من بين أعضائنا يبدو أنها تلك التي تصلح لتناسلنا، ومع ذلك، فإن العديد من الناس يزدرونها ازدراءً مميتًا لأنّها بالضبط من اللطافة بمكانٍ، وهم ينكرونها نظرًا لأهميتها، ذلك ما فكر فيه عن عينيه ذلك الذي أقدم على فقْئهما.

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine,** XXXIV, 17.

الأبنـاء

44. أغلب الناس السّليمي العقل من العامة يعتبرون ولادة أبناء كثيرين سعادةً لا تعْدِلها سعادةٌ. أما أنا وبعض الآخرين، فالسعادة الكبرى هي ألا يكون لنا أولادٌ البتّة.

وحين سُئل طاليس لماذا لم يُقدِم على الزواج، أجاب بأنه لا يرغب أن يترك ذريةً بعده.

45. أن يمنح رأيُنا قيمة للأشياء هو أمرٌ نقف عليه من خلال الأشياء التي لا ننظر إليها فقط لقيمتها وإنما ونحن نفكر في أنفسنا. فنحن لا نهتم لا بمزاياها ولا بجدواها وإنما فقط بالثمن الذي ستتطلّبه كي نملكها، كما لو كان ذلك جزءًا من ماهيّتها، وما نسميه قيمة ليس ما تقدّمه لنا وإنما ما نقدمه لها، وتبعًا لذلك فأنا أدرك أننا حريصون جدًا في نفقاتنا، فجدواها يكون مرتهنا بأهميتها، ونحن لا نتركها تتضخّم بلا منفعةٍ. الاقتناء هو ما يمنح للماس قيمته، والصعوبة هي ما يمنح للفضيلة قيمتها، كما الألم للورع والمرارة للدواء.

46. وأحدهم[1] -لكي يبلغ الفقر، رمى بأمواله في البحر- فيما آخرون ينبشونه في كافة الاتجاهات كي يصطادوا منه الخيرات. قال إبيقوروس إن مسألة الغنى لا تشكل تخفيفًا من الهموم وإنما تغيُّرا لها. وصحيح أنّ وفرة المال لا العوز هي ما يولّد البخل، وسأحكي تجربتي في هذا المضمار.

المال

47. مررت بثلاث وضعياتٍ منذ خروجي من الطفولة. المرحلة الأولى التي دامت ما يناهز العشرين سنةً، قضيتها من غير وسائل ماليةٍ إلا نافلةٍ، مرتهنًا بترتيباتٍ اتّخذها آخرون لمعونتي، من غير دخْلٍ مضمونٍ ومن غير دفتر حسابات، وكنت

(1) Aristippe, in **Diogène Laërce, Vies et doctrines...**, II, 77.

أسرف بمرحٍ ومن غير همومٍ لما كانت ثروتي مرتهنةً كليّةً بالصدفة، وكنت أعيش سعادةً لم أعشها أبدًا، لم يكن أصدقائي يغلقون ما يملكون من مالٍ في وجهي، ما دمت قد وضعت قاعدة لنفسي ألتزم بها وهي ألا أتهاون أبدًا في إعادة ما استدنته في الوقت المحدّد، وهم كثيرًا ما أخّروا ذلك الأجل كلما رأوني أجهَد كثيرًا في أن أفي بالتزاماتي، بحيث كنت أُبين بالمقابل عن وفاءٍ مقتصدٍ وفيه بعض الغش. أنا أحس بمتعةٍ فطريّةٍ في تأدية ما عليَّ من مالٍ، كما لو كنت أنزع عن كاهلي عبئًا مُمِلًّا، ومعه صورة العبودية التي يشكلها الدّيْن، كما أن ثمّةَ بعض الرضا يدغْدغني حين أقوم بشيءٍ صائبٍ يكون عنصر سعادةٍ للغير.

48. أستثني من ذلك المصروفات التي تضطرني للمساومة عليها والحساب، فإذا ما وجدت شخصًا يتكفّل بها عني، أهرب منها بشكلٍ مُخجل وعدواني كلما استطعت ذلك، متوجّسًا من ذلك النقاش المساوم الذي لا يلائم طبعي ولا طريقة كلامي. وأكرهُ ما أكرهُ هو المساومة، فثمة علاقة غشٍّ ووقاحةٌ خالصيْن، وبعد ساعةٍ من النقاش والتردّد والمساومة يتخلى أحد الطرفين عن كلمته وقَسمه مقابل حصوله على خمسة قروشٍ، لهذا فإني كنت أسْتدين على حسابي، إذ إنّي لا أملك الشجاعة للمطالبة بشيء في حضور الغيْر، فأؤجل ذلك إلى وقتٍ لاحقٍ أو إلى كتابة خطابٍ، وهو ما ليس دومًا أمرا ناجعا لأنّه يسهل بالأحرى رفض طلب الديْن، لهذا كنت أودع أمر تسيير شؤوني بالأحرى للكواكب، وبحرية أكبر من السابق أودع أمرها للقدَر ولحدْسي.

49. أغلب الناس الذين يتقنون تدبير شؤونهم يعتبرون أن العيش في انعدام اليقين أمرٌ رهيبٌ، غير أنهم لا يدركون أولًا أن أغلب الناس يعيشون هكذا، كم من الناس الشرفاء تخلوا عن يقينياتهم، وكم من واحدٍ يقوم بذلك لنيْل نعمة الملوك وتجريب حظه؟ كان يوليوس قيصر قد استدان مليونًا من الذهب، أيّ أكثر مما يملك لكي يصبح قيصرًا، وكم من التّجار يبدؤون تجارتهم ببيع ملكيتهم الصغيرة، التي يرسلون مبلغها لبلاد الهند الغربية...

«عبر بحرٍ مائج»[1].

(1) Catulle, **Poésies**, IV, 18.

وفي وقتٍ شحيحٍ في الورع والتقوى كوقتنا هذا، نرى آلاف وآلاف المجتمعات التي تعيش حياةً هانئةً تنتظر من سخاء السماء أن يبعث لها بما تسدّ به رمقها.

وثانيًا، هم لا يدركون أن هذا اليقين الذي يعتمدون عليه ليس أبدًا أشدَّ يقينًا ولا أقل خطرًا من الصدفة نفسها. وأنا أشتمّ الفقر عن كثب حين لا يتجاوز دخلي ألفي قرشٍ. فالصدفة أقدَر على أن تفتح عشرات الأبواب للفقر عبر ثرواتنا، بحيث ليس ثمّةَ غير خطوةٍ تفصل الثروة الهائلة عن الفقر المدْقع.

«الثروة من زجاجٍ، كلما علا بريقها كلما انكسرت»[1].

وهي يمكن أن تقلب رأسًا على عقبٍ احتياطاتنا ووسائل دفاعنا.

50. وأنا أعتبر، ولأسبابٍ متعددةٍ، أننا نرى العوَز في الغالب لدى الخيّرين من الناس لا لدى من هم غير خيّرين، وأنه حين يأتي وحيدًا يكون أقلّ ضنى منه حين يظهر بين تراكم الغنى الذي ينتج عن تدبيرٍ جيدٍ للمداخيل الحقة: «**كل واحدٍ صانعٌ لثروته الخاصة**»[2]. والغني الذي لا يكون على راحته بل تحت وطأة هموم المال، يبدو لي أشدَّ بؤسًا من ذلك الذي يكون فقط فقيرًا. «العوَز وسط الغنى هو أسوأ أنواع الفقر»[3]. أعظم الأمراء وأكثرهم غنًى ينتهون إلى الحاجة الشديدة بسبب الفقر والعَوز، أفليس أسوأ الفقر هو ذلك الذي يؤدي بالمرء إلى أن يتحول إلى طاغيةٍ ظالمٍ غاصبٍ لخيرات رعاياه؟

51. أما وضعيتي الثانية فقد حصلت فيها على المال، ولما كنت قد تعلّقت به فقد أقمت لي بسرعةٍ منه احتياطيًا لا يُستهان به تبعًا لوضعيتي الاجتماعية، فقد كنت أعتبر أنّ المرء لا يملك حقًّا إلا ما يُجاوز المصاريف العادية، وأنه لا يمكن أن يكون متيقّنًا من ملْكٍ لا يمثّل إلا ما يأمله من

(1) Publius Syrus, in Juste Lipse, **Politiques**.
(2) Salluste, **Histoires (fragments)**, De rep. ordin. I, 1.
(3) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, LXXIV.

المداخيل مهما كانت أكيدةً، فقد كنت أقول لنفسي: ولو حدث لي حادثٌ مؤسِفٌ من قبيل هذا أو ذاك؟ وبسبب تلك الأفكار النافلة والخبيثة كنت أتصور أني أصدّ كافة المساوئ الممكنة بفضل ذلك المخزون من المال الزائد. ومَن كان يزعم لي أن عدد الأحداث الممكنة لانهائيٌّ، كنت أجد السبيل للردّ بأن ذلك المخزون، إذا لم يكن لتوقُّع كافة الحالات، فسيكون لدرْء العديد منها على الأقلّ، لكن ذلك لم يكن خلُوًّا من بعض القلق، وهو ما جعلت منه سرًّا بيني وبين نفسي، وأنا الذي يجرؤ كثيرًا على الحديث عن نفسه، كنت لا أتحدث عن أموالي إلا بالكذب، كما يفعل أولئك الذين حين يصبحون أغنياء، يتظاهرون بأنهم فقراء، كما يتظاهر الفقراء بأنهم أغنياء، من غير أن يُبين ضميرهم عمّا هم عليه فعلًا، إنه حذرٌ سخيفٌ ومُخزٍ.

52. وحين كنتُ على سفرٍ؟ كان يبدو لي دومًا أني لم أحمل معي ما يكفي من المال، وكلما حملت أكثر من المال معي، كلما كان عبْء الخوف عليّ أكبر وأثْقَل، من عدم أمان الطرقات، ومن خيانة من يحمل أمتعتي، الذين لم يكن بإمكاني أن أتأكّد منهم حقًّا -كما عددٌ من الناس الذين أعرفهم - إلا إذا كانوا أمام عينيّ. هل كنت أترك صندوق مالي في بيتي؟ كان ذلك فقط مصدرًا للشكوك والهواجس والأفكار الحارقة، والأدهى من ذلك أنها تظلّ في بواطننا لا يعلم بها أحدٌ، فلقد كان عقلي يظل مهووسًا بتلك الأفكار والهواجس. وإذا نحن فكّرنا مليًّا فإن الاحتفاظ بالمال أصعب من ربحه، وإذا لم أفعلْ ذلك على قدر ما أقول، فإني كنت أدفع ثمن الإحجام عن ذلك الفعل. أما وسائل الراحة فإني كنت أستفيد منها قليلًا أو نادرًا، فإذا كان الإسراف في المال سهلًا عليّ، فهو كان أمرًا يزعجني، إذ كما قال بيونْ: الرجل ذو شعر الرأس ينزعج إذا نتف شعره مقدار انزعاج الرجل الأصلع. ومتى ما اعتدتَ على ركامٍ معينٍ من الذهب وتصورته في الذهن، فأنت لم تعد تتوفر عليه لأنك لن تجرؤ أبدًا على إسرافه. إنه صرْحٌ يبدو لك أنه سينهار كاملاً إذا ما أنت مسَستَه، لذا على الحاجة والعوز أن يخنقاك كي تقرّر البدء في صرفه. وقبل أن أصل إلى ذلك، كنت أبيع أشيائي البالية، وبعت فرسًا، بأقلّ إحساسٍ بالإكراه والندم من أني لو صرفت بعضًا من ذلك المخزون المالي المفضّل والمحتفظ به،

بيد أن الخطر يكمن في ما يلي: من الصعب وضع حدودٍ لتلك الرغبة في مراكمة المال - إذ من الصعب أن نعثر على تلك الرغبة في الأشياء التي نعتبرها طيبةً - ومن ثم تحديد سقفٍ للمدّخرات المالية، فنحن نثابر في الزيادة في ذلك الركام، مضاعِفين مقداره من رقمٍ لآخر، حتى نبلغ حرمان أنفسنا من التمتع بخيراتنا الخاصة، كي نتمتع فقط بالحفاظ عليها وعدم مساسها أو استعمالها أبدًا.

53. ولهذا -تبعًا لهذه الطريقة في النظر للأمور- يكون الناس الأكثر ثراءً هم من يتحملون حراسة أسوار المدينة، وفي نظري، كلّ شخصٍ غنيٍّ يكون بخيلًا. يصنّف أفلاطون هكذا الخيرات الجسمانية والبشرية: الصحة والجمال والقوة والثروة، والغنى كما يقول ليس أعمى، وإنما هو على العكس من ذلك متبصّرٌ جدًا حين يكون مُستهديًا بالحكمة. وقد أبدى ديونيسيوس الصغير بهذا الصدد عن فعل رائع، فحين أُخطر أن سرقوسيًا قد أخفى كنزًا في الأرض، أمره بأن يُحضره له، فانصاع الرجل للأمر غير أنه احتفظ منه خفيةً بجزءٍ راح به إلى مدينةٍ أخرى، حيث صار يعيش على هواه بعد أن فقد عادته في الادّخار، وحين علم ديونيسيوس بذلك، أمر بإعادة باقي كنزه له قائلًا له بما بأنه تعلّم كيف يستخدمه فهو يردّه له عن طيب خاطرٍ.

54. عشت سنواتٍ وأنا مهووس بالمال حتى أخرجني من تلك الحال ملاكٌ جميلٌ، مثلي مثل السّرقوسي فبذّرت ما راكمت من أموالٍ، فلقد كانت متعة رحلةٍ باهظة الثمن الفرصةَ التي رميت فيها هناك بذلك التصوّر الغبيّ، وهكذا دخلت إلى نوعٍ ثالثٍ من الحياة -وأنا هنا أقول الأمور كما أحسها- كان أكثر إمتاعًا وأحسن تنظيمًا، ذلك أني الآن أصرف من عائداتي المالية، مرةً تكون المصاريف أكثر من المداخيل، ومرةً العكس، غير أنهما يكونان دومًا متقاربيْن يلاحقان بعضهما البعض. أنا أعيش ليومي وأكتفي بالقدرة على الاستجابة لحاجاتي الحاضرة والعادية، فكافة مدّخرات العالم لا يمكنها أن تكفي حاجاتي الخارقة! ومن الجنون أن ننتظر من الصدفة أن تحمينا من أنفسها، علينا محاربتها بأسلحتنا الخاصة، فالأسلحة التي توفرها لنا الصدفة يمكنها دومًا أن تخوننا في

اللحظة الحاسمة، إذا كنت أدّخر بعض المال، فذلك لكي أصرفه في القريب العاجل، لا لأقتني به الأراضي -التي ليس لي ما أفعل بها- وإنما لكي أقتني بها الملذات. «**الغنى هو ألا يكون المرء جشِعًا، وهوس الشراء هو مدخولٌ مهمٌّ**»[1]. أنا لا أخشى أن تفوتني مراكمة الثروة ولا رغبةَ لي في ذلك. «**نحن في الغنى نجد نتيجة الثروات، والكفاف والعفاف هو معيار الغنى**»[2]. وكم أثني على نفسي أن هذه العقلية أتتني في عمرٍ يكون بشكلٍ طبيعيٍّ ميّالًا إلى البخل، وهكذا فأنا قد أفلتت من هذا الجنون الشائع بين العجائز، والأسخف من بين كافة أنواع الجنون البشري الأخرى.

55. كان فيراولاس كما جاء في كتاب «تربية كورش» لكسينوفون، قد مرّ بالوضعتين الأوليَيْن اللتين تحدث عنهما آنفًا، ووجد أن تزايد ثروته لا يزيد فقط سوى في رغبته في الشراب والأكل والنوم ومداعبة زوجته، كما أنه من ناحيةٍ أخرى، كان يحسّ مثلي بعبء الاهتمام بثروته يثقل كاهله، حينئذٍ قرّر أن يقوم بإسعاد شابٍّ فقيرٍ كان له صديقًا وفيًّا يسعى إلى الثروة، وأهداه ثروته الخاصة التي كانت هائلةً، ومنحه حتى من تلك التي كان بصدد مراكمتها يومًا بعد يومٍ، بفضل سخاء كورش صديقه الطّيب، وبفضل غنائم الحرب، كان شرطه الوحيد أن يقوم المستفيد من الهبة بإعالته وبتلبيته لحاجياته بشكلٍ نزيهٍ، كما لو كان ضيفًا أو صديقًا، وبدءًا من ذلك الوقت، عاشا في سعادة، راضيَيْن عن بعضهما وعن تغيّر وضعهما، ذلكم أمرٌ أرغب جدًّا في محاكاته.

56. أنا معجبٌ إعجابًا كبيرًا بمصير أسقف عجوز، بلغني أنه تخلى طواعية عن مدّخراته ومداخيله وعن ملابسه، تارةً لخادم اختاره، وتارةً لشخص آخر، وقضى سنواته الطويلة غير مهتمٍّ بشؤونه كما لو كان غريبًا عنها. إن الثقة في طيبة الغير ليس شهادةً ضعيفةً للمرء على طيبته الخاصة، ومن ثَمَّ فإن الله يحب هذا التصرّف، أما الأسقف الذي تحدّثت عنه، فأنا لا أرى بيتًا أكثر تنظيمًا ولا تدبيرًا من بيته. فالسعيد

(1) Cicéron, Paradoxes, VI, 3.

(2) Cicéron, Paradoxes, VI, 2.

من نظّم حاجاته على قدرها من غير ضيْقٍ ومن غير أن يأتي توزيعها أو اكتسابها ليزعج أو يكدّر على انشغالاته الأخرى التي تكون أكثر هدوءًا وأشدَّ ملاءمةً وتنبع من قلبه.

57. الثراء والعَوَز يرتهنان إذًا برأي كلّ واحدٍ، ولا الثراء ولا المجد ولا الصحة تمنح من الجمال واللذة إلا ما يسبغه عليها من يملكها، كلّ واحدٍ منا في حالٍ جيدةٍ أو سيّئةٍ حسب ما يكون عليه كذلك، ومَن يسْعد ليس هو مَن نصدّق وإنما مَن يكون مقتنعًا بذلك في نفسه، وفي ذلك فقط يغدو الاعتقاد حقيقةً وواقعًا.

58. القدَر لا يريحنا ولا يضرّ بنا، إنه يمنحنا فقط الفرصة بأن تتحرك نفوسنا، وهي أقوى منه، وتدبر الأمور على هواها؛ فهي العلة الوحيدة والسيدة المطلقة لوضعيتها، سواءٌ كانت سعيدةً أو تعيسةً، تمنح التأثيرات الخارجية نكْهتها ولونها من تكويننا الباطن، بل إن الثياب نفسها لا تدفئنا بحرارتها الخاصة وإنما بحرارتنا، إذ هي مصنوعة كي تغلفها وتحافظ عليها، ومن يلبس شيئًا باردًا سيستنتج الأثر نفسه، إذ هكذا يحافظ الثلج والجليد على نفْسيهما.

59. وبالتأكيد، فكما أن الدراسة تكون همّا للكَسول، والإقلاع عن الشرب همًّا للعربيد، والبساطةُ همّا للباذخ، والتمارين البدنية عذابًا للرجل الحسّاس الخامل، كذلك الأمر في ما عدا ذلك. الأشياء ليست في ذاتها مؤلمةً وصعبةً، وإنما هو ضعفنا وجُبننا اللذان يجعلانها كذلك. فلكي يستطيع المرء الحكم على الأمور السامية والمهمة، عليه أن يتوفر على نفْس تكون من الأهمية والسموّ نفسه، وإلا فإننا سنُسبغ على تلك الأشياء العيوب نفسها التي لنا، فالمجداف المستقيم يبدو منحنيًا في الماء، والأهمّ ليس الشيء نفسه وإنما الطريقة التي نراه بها.

60. وإذًا، فلماذا في العديد من الخطابات التي تقنع الناس بأشكالٍ متنوعةٍ بازدراء الموت وتحمُّل الألم، لا نعثر من بينها على ما يلائمنا نحن؟ ولماذا

من بين كافة ضروب الحِجاج الرائعة التي تعطي أكلها لدى الآخرين، لا يطبق كلّ واحدٍ منا بنفسه ذلك الحجاج الحيّ الذي يلائم أفضل مزاجه، بحيث يأخذ من بينها الألطف الذي يواسيه؟ **«ثمة حكمٌ مسبقٌ نسائي ونزقٌ يهيمن في الألم كما في اللذة، وحين تصبح نفوسنا به رخوةً بل وسائلةً، فإن لسعة نحلةٍ لا نستطيع تحمّلها من غير صراخٍ، كلّ شيءٍ يكمن في القدرة على التحكُّم في النفس»**[1]، فعلاوةً على ذلك، نحن لا ننفلت من الفلسفة بمنح قيمةٍ مفرطةٍ لحدّة المعاناة والضعف البشري، نحن حينئذٍ لا نعمل سوى على أن نجعلها تبحث عن ذاتها خلف تلك الردود العنيدة: «إذا كان من المستحسن ألا نعيش في الحاجة، فليس هناك من ضرورةٍ لأنّ نعيش في الحاجة والعوَز»[2]. **«لا أحد تغشاه المصائب طويلًا إلا إذا كان هو المخطئ، ومن لا شجاعة له كي يتحمّل الموت أو الحياة، ولا يريد البقاء حيًا أو الرحيل، فما بيدنا حيلةٌ»**[3].

(1) Cicéron, Tusculanes, II, 22.

(2) Sénèque, Épitres, ou Lettres à Lucilius, XII, 10.

(3) Quintilien, Institution Oratoire, VI, 13.

الفصل الحادي والأربعون

السُّمعة لا تورَّث لشخصٍ آخر

1. أغبى ما في الدنيا وأعمّه انتشارا هو الاهتمام الكبير الذي يوليه الناس لسمعتهم، وهو همّ يبلغ بهم أن يتركوا ثرواتهم وراحتهم ويهملوا صحّتهم، وهي أمورٌ واقعيةٌ وماديةٌ، كي يتجاروا وراء ما ليس سوى صورةٍ وكلمةٍ من غير جسدٍ ولا مادةٍ.

«الشهرة التي تسحر بصوتها الرخيم بني البشر
والتي تبدو جميلةً، ليست سوى صدًى وحلمٍ، فما القول في ذلك؟
إنها ظل حلم يتبدّد ويندثر عند هبوب أول ريحٍ»[1].

وإنّ أشدَّ أنواع السلوك لدى الناس وأغربَه لَهو ذلك السلوك الذي لا يستطيع حتى الفلاسفة أنفسهم أن يتخلصوا منه.

2. إنها أيضًا الغباوة الأكثر ثرثرةً والأشدّ عنادًا: «**لأنها لا تكفّ عن غواية حتى من حققوا تقدّمًا على طريق الفضيلة**»[2]. وليس ثمّةَ من شهرةٍ لا يستخرج منها العقل بوضوحٍ غرورها، غير أنها لها فينا جذورٌ حيةٌ بحيث إني أتساءل إن كان أحدٌ قد استطاع أن يتخلص منها حقًّا، حين تكون قد قلتَ كلّ شيءٍ واعتقدتَ أنك فعلت كلّ شيءٍ للتخلي عنها، تستثير ضدّ حزمك ميلًا عميقًا جدًا بحيث لا تكون لك حظوظ كثيرة لمقاومتها، فكما يقول شيشرون، أولئك الذين يصارعونها لا يزالون يرغبون في أن تحمل الكتب التي ألّفوها اسمهم عاليًا، ويريدون أن يستمدّوا المجد من كونهم قد ازدروْها ازدراءً.

3. كل الأشياء الأخرى يمكن إعارتها، إذ نحن نضع حيواتنا في خدمة أصدقائنا حين يتطلب الأمر ذلك. أما أن نمنح إلى شخصٍ آخر شرفنا وسمعتنا فذلك أمر لم يحدث قطّ. بعد أن قام كوينتوس لوتاتيوس كاتولوس، خلال الحرب الكيمبرية، بما في وسعه لثْني جنوده عن الهرب من أمام العدوّ، تظاهر بأنه هو أيضًا خائف، واندمج في الهاربين حتى يتوهموا أنهم يتبعون قائدهم لا الهرب من العدوّ، كان ذلك عبارةٌ

(1) Le Tasse, Jérusalem délivrée, XIV, 63.

(2) Saint Augustin, La Cité de Dieu, V, 14.

عن رغبته في فقدان سمعته كي يغطّي على عار جيشه.

4. حين بلغ الإمبراطور كارلوس الخامس جنوب فرنسا في 1537م، قيل إن أنطونيو دي ليفا، حين رأى سيده عازمًا كلّ العزم على القيام بتلك الحملة العسكرية ويعتقد أنها ستأتي له بنصرٍ مكينٍ، ساند مع ذلك الرأي المعارض وحاول إثناءه عن القيام بها، كي يُنسب استحقاق وشرف ذلك القرار لسيده، وبحيث يُقال إن رأي سيده وحكمه كان سديدًا إذ إنّه وحده ضد الكلّ استطاع أن يسير بتلك المهمة إلى مآلها المبتغى، كان ذلك تشريفًا له على حسابه.

5. عندما أراد سفراء تراقيا عزاء السيدة أرجليونيس في وفاة ابنها الضابط الإسبرطي براسيداس، رثوه قائلين بأنه لم يكن له من نظيرٍ، فرفضت الأم هذا المديح الشخصي كي تمنح له قيمةً عامّةً حين صرّحت قائلة: «لا، لأني أعرف أن في مدينة إسبرطة، ثمّةَ مواطنون أكثر شجاعةً منه». وفي معركة كريسي[1]، كان أمير بلاد الغال الذي كان حينئذٍ فتى يقود طليعة الجيش، وهو مَن صدّ الهجمة الأولى للمعركة، ولمّا كان النبلاء الذين كانوا يرافقونه كانوا يوجدون في وضعيةٍ حرجةٍ، طلبوا من الملك إدوارد أن يقترب منهم لنجدتهم، استخبر هذا الأخير عن وضعية ابنه، وحين أخبروه أنه حيٌّ ولا يزال على صهوة جواده، صرّح قائلًا: «سوف أضرّ به إن أنا سارعت الآن لسرقة شرفه في الفوز بالمعركة التي كان أهلًا لها، ومهما كان الخطر المحْدق، فإن هذا النصر سيكون من نصيبه». ولم يرغب في الالتحاق به ولا إرسال أيّ أحدٍ لمساندته، عارفًا بأنه لو فعل ذلك فسيزعم الكل أنه كان سيفقد المعركة من غير معونته، وسوف يُنسب له هو مجد هذا النصر. «**ذلك أن الدعم الأخير هو ما يبدو دومًا أنه قد أحرز النصر لوحده**»[2].

6. كان العديد من الناس في روما يعتقدون جهرًا أنّ الأحداث العظيمة الأساس لسكيبّيو الإفريقي كانت تعود أساسًا للايليوس، الذي كرّس

(1) وقعت معركة كريسي عام 1364م، وقد انتصر فيها الإنجليز.

(2) Tite-Live, Annales ou Histoire romaine, XXVII, XLV.

نفسه لتشجيع ودعم مجد سكيبّو، من غير أن يهتم بمجده. كما أن ثيوبّومبّوس ملك إسبرطة أجاب ذلك الذي كان يزعم أن المجتمع يقوم على كتفيْه لأنّه كان يعرف فنّ القيادة: «ذلك بالأحرى لأنّ الشعب كان يعرف كيف يطيع».

7. فكما النساء اللواتي كنّ، عبر حق الوراثة، يصبحن نبيلاتٍ على الرغم من كونهن إناثًا، فإنّ حق الحضور لقانون المحاكمات الإقطاعية، وحقهن في إعطاء رأيهن فيها. كذلك فإن الإقطاعيين الكنسيين، بالرغم من وظيفتهم الدينية كانوا مضطرين لمعونة ملوكنا في حروبهم، لا فقط بأصدقائهم الذين يخدمونهم، ولكن أيضًا بصفتهم الشخصية. فأسقف مدينة بوفي الفرنسية -الذي كان يوجد بقرب فيليبوس أغسطس بمعركة بوفين[1]- كان يبلي البلاء الحسن في المعركة، غير أنه كان يبدو له أنه لا يستحق شيئًا بالمقابل لقاء ذلك التمرين الدموي العنيف، وقد أسَر ذلك اليوم العديد من الأعداء كانوا تحت رحمته فسلّمهم لأول نبيلٍ لاقاه، كي يأسرهم أو يذبحهم، تاركًا له عناية الإجهاز عليهم. وذلك كان أيضًا أمر الكونت غيوم دو سالسبوري، الذي سلّمه للسيد جون دو نيسل، لقد كان يحارب بدقّةٍ تشبه دقة من يرغب في أن يطرح العدو أرضًا لا أن يجرحه، وكان لا يحارب إلا بكتلةٍ من الأسلحة. وفي زمني، اتهم الملك أحدًا بأنه رفع يده على راهبٍ، فأنكر ذلك علنًا، قائلًا إنه لم يصرعه حتى الموت إلا بكثرة الركلات.

(1) كانت وقعة بوفين عام 1214م.

الفصل الثاني والأربعون

عن عدم المساواة بين الناس

1. يقول بلوتارخوس في موطنٍ ما بأنه لا يجد فرقًا كبيرًا بين حيوان وآخر مقدار ما يجد بين إنسانٍ وآخر، وهو يتحدث هنا عن قيمة النفس ومزاياها الباطنة. وأنا في الحقيقة أجد فرقًا كبيرًا بين إبامينونداس كما أتصوره، وأيّ إنسانٍ آخر أعرف أنه مع ذلك مالك للحس المشترك، بحيث إني سأزايد على فكرة بلوتارخوس وأقول إن ثمّةَ فرقًا أكبر بين إنسانٍ وآخر، منه بين أيّ إنسانٍ وحيوانٍ.

«آه، كم من مسافةٍ بين إنسانٍ وآخر!»[1].

وإني لأعتقد أن ثمّةَ مستوياتٍ لا تُحصى في العقول، مقدار ما من مسافة بيننا وبين السماء.

2. لكن، بخصوص تقدير الناس، من المدهش، إذا نحن استثنينا أنفسنا، ألا يكون هناك شيءٌ لا يُقدَّر إلا بالفضيلة ومزاياها الخاصة، ونحن نرغب في جوادٍ لأنّه قويٌّ وبارعٌ=

«نحن نمدح جوادًا لسرعته
وللفوز الذي نحوزه به في السباق
وللنجاح في السرك الذي يُصفَّق له»[2].

=لكننا لا نمتدحه أبدًا لعُدّته، ونحن نمتدح الأرنب لفائق سرعته لا لطوقه، ونمتدح الصقر المروَّض لحسْن تحليقه لا لعدّته.

3. لماذا حين يتعلق الأمر بإنسان، لا نقوم بالشيء نفسه بتقديره بما هو خاصّته؟ نقول عنه إنه مسرفٌ وسخيٌّ، وله قصرٌ جميلٌ ومالٌ كثيرٌ ومداخيل وافرةٌ، وكل هذا شيء خارج عنه، لا يوجد في ذاته، أنت لا تشتري هرًّا إن لم تره، وإذا ما ساومت في جوادٍ تنزع عنه عدّته، وتتفحصه عاريًا منها، وإذا كان مسرجًا مُحلّىً، كما كان ذلك يتم حين تُباع الجياد للأمراء، لا يُهتَم إلا بالأجزاء الأقل أهمية، حتى لا يُهتمّ بشعره أو سعة ظهره، ويُركَّز بالأخص على قوائمه وعينيه التي هي العناصر الأشدّ أهميةً.

---

(1) Térence, L'Eunuque, II, 2.
(2) Juvénal, Satires, VIII.

«العادة لدى الملوك حين يقتنون جوادًا
أن يتفحّصوه بعدّته، حتى يتأكدوا، كما هو معتادٌ
ألا يفتن الرائي برأسٍ جميلٍ وقوائم رخوةٍ
وبرقبةٍ منحوتةٍ ورأسٍ جميلٍ وشعرٍ رائعٍ»[1].

4. وإذًا، للحكم على رجل، فهل تحكمون عليه مرتديًا ثيابه ومتلفّعًا بكامله؟ إنه يحرص على ألا يُبين لنا سوى العناصر التي ليست له، ويُخفي عنا تلك التي بها وحدها يمكننا أن نقدّر قيمته. ما تبحثون عنه هو ثمن السيف لا ثمن غمده، فربما لا تدفعون فيه قرشًا واحدًا حين تسلونه من غمده، وكما قال ذلك أحد القدماء بشكلٍ رائعٍ: «**هل تعرفون لماذا ترونه كبيرًا؟ لأنكم تحسبون أيضًا ما يضعه تحت رجليه من مِزْلَجٍ**»، فقاعدة التمثال ليست جزءًا من التمثال، احسبوا قامة هذا الرجل من غير العصا التي ترفعه كالبهلوان عن الأرض، وليضعْ جانبًا ثروته وألقابه، وليقدمْ نفسه في قميص فقط: فهل جسده قادرٌ على القيام بوظائفه الطبيعية، وسليمٌ ومليءٌ بالحيوية؟ أيُّ نفسٍ له؟ هل هي نفسٌ طيبةٌ وساميةٌ وممتلكةٌ لكافة عناصرها؟ هل هي نفسٌ غنيةٌ بذاتها أم بغيرها؟ وهل للحظ دخْل في ذلك؟ وهل هي تواجه بجرأةٍ الرماح التي توجّه لها؟ وهل هي لا تهتم بمخرج الروح، من الفم أم من المريء؟ هل هي نفس واثقة من ذاتها وهادئة وراضية عن مصيرها؟ ذلك ما ينبغي النظر إليه، ومن ثمَّ يمكننا الحكم على الفوارق بيننا.

5.

«هل هذا الرجل حكيم وسيّد نفسه؟
والفقر والموت والسجن، هل ترهبه؟
هل يمكنه أن يظل رابط الجأش أمام أهوائه، ويزدري التشريف؟
وكرويًا وصقيلًا عليه ينزلق كلّ شيءٍ
وتفشل في مسّه دومًا كافة ضربات القدر؟»[2].

(1) Horace, Satires, I, II, 86.
(2) Horace, Satires, II, VII, 83.

هذا الإنسان يكون إذًا فوق كافة الممالك والدوقيات بمسافة خمسمئة مترٍ، فهو لنفسه إمبراطوريته الخاصة.

«الحكيم صانع سعادته الخاصة»[1].

6. ما الذي بقي له كي يرغب فيه؟

«ألا نرى أن الطبيعة لا تطلب منّا
شيئًا غير جسدٍ خالٍ من الآلام ونفسًا
تتمتع بسعادتها، متحرّرةً من الخوف والهموم؟»[2].

قارنْ هذا الحكيم بأيّ من بني البشر يكون بليدًا وفظًّا ومسكينًا وغير ثابتٍ ودومًا عُرضةً لعواصف الأهواء التي تتلاعب به ومرتهنًا تمامًا بالآخرين، فستجد بينهما مسافةً تضاهي المسافة بين السماء والأرض، ومع ذلك فإنّ عمانا العادي من القوة بحيث لا نهتم به بتاتًا أو بشكلٍ قليلٍ، فمتى ما كان علينا أن نواجه فلاحًا أو ملكًا، ونبيلاً أو عابر سبيل، وقاضيًا أو رجلًا عاديًّا، وغنيًّا أو فقيرًا، نعتقد أننا نواجه تنوعًا مطلقًا، والحال أنهم ليسوا مختلفين إلا ببزّتهم، لو جاز لنا القول.

7. كان الملك في تراقيا بالبلقان يتميّز عن رعاياه بطريقةٍ رائعةٍ وبالغة المعنى، فقد كانت له ديانةٌ مخالفةٌ عنهم، لقد كان له إلهٌ خاصٌ به لم يكن لرعاياه الحق في عبادته، وكان هو ميركوريوس، وكان يزدري آلهتهم، أيْ مارس وباخوس وديانا.

لكن تلك فقط أشياء مصطنعةً ولا تخلق فروقًا جوهرية بين بني البشر، وكما أنك ترى الممثلين على رُكح المسرح يلعبون دور الدوق أو الإمبراطور، ثم يتحولون بعد ذلك مباشرةً إلى خدم بؤساء وحمّالين، وهو ما ليس سوى شرطهم الطبيعي والأصليّ، كذلك فإن الإمبراطور الذي تشدَهك فخامة موكبه أمام الملأ=

«لأن عليه تلمع أحجار الزمرّد

(1) Plaute, Œuvres complètes, Trinummus, II, 2, 84.
(2) Lucrèce, De la Nature, II, 16.

المرصعة بالذهب، ويلبس حلّةً بلون البحر
متشبعة بعرق فينوس»[1].

=وحين تراه وراء الستار فهو ليس غير رجلٍ بين الرجال، وربما أحقر من أتفه رعاياه: «هذا رجلٌ راضٍ عن نفسه؛ وذلك لا يعرف غير المتعة المصطنعة»[2].

8. الجبْن والتردد والطموح والغبطة والحسد تعتمل فيه مثل أيّ شخصٍ آخر=

«لا الكنوز ولا السلطات القنصلية
قادرة على تبديد هموم العقل
والهموم التي تحوم حول التزاويق الخشبية المذهّبة للبيت»[3].

=وتخنقه الرهبة والهموم حتى لو كان وسط جيوشه.

«حقًا، خوف الناس وقلقهم
لا يخشى صليل السيوف ولا الملامح القاتلة
إنهم يعيشون بجرأةٍ بين الملوك والجبابرة
ولا تقدير لهم للذهب وبريقه»[4].

9. الحمى وصداع الرأس وداء النقرس، هل هم يحتمون منها أكثر منا؟ حين سترزح كتفاه تحت عبء الشيخوخة، فهل سيحميه منها الرماة من حراسه؟ حين ستستبدّ به رهبة الموت، هل سيطمئنه حضور النبلاء من ديوانه؟ وحين سيعرف الغيرة أو سيكون ضحية نزوةٍ، فهل ستُعيد له تحياتنا المبجِّلة سكينته؟ إنّ سماء هذا السرير المرصّعة بالذهب واللآلئ لا حول لها ولا قوة أمام عذاب مرض حصاة رهيبٍ.

«والحمى الحارقة لا تنجلي بسرعةٍ

(1) Lucrèce, De la Nature, IV, 1126.

(2) Sénèque, Épitres, ou Lettres à Lucilius, CIX et CXV.

(3) Horace, Odes, II, 16, 9.

(4) Lucrèce, De la Nature, II, 48

إذا أنت كنت ممدّدًا على أثواب مطرزة أو مرجان
أو كنت ترتاح على سرير عادي»[1].

10. كان المتزلّفون للإسكندر الأكبر يريدون أن يجعلوه يصدق أنه ابن الإله يوبيتر، وفي أحد الأيام وقد أصيب بجروحٍ، وهو ينظر لدم جروحه، صرخ فيهم: «ما قولكم في هذا؟ أليس هذا دمًا قانيًا وبشريًا تمامًا؟ وليس له الخاصية التي يجعلها هوميروس تنزف من جروح الآلهة». أنشد الشاعر هيرمودوروس أبيات شعر تكريمًا لأنتيغونوس، نعته فيها «ابن الشمس»، غير أن هذا الأخير ردّ عليه: «حتى ذلك الذي يفرغ كرسيَّ المثقوب[2] يعرف أن ذلك غير صحيح». الإنسان إنسانٌ، فقط لا غير، فإذا كان قد وُلد ذا خصالٍ ضحلةٍ فحتى خالق السماوات لن يغير ما بنفسه.

فلْتتصارع الفتيات عليه.
«ولْتنبت الورود تحت خطوه في كلّ مكانٍ»[3].

وما جدوى ذلك إذا أنت كنت ذا نفسٍ فظّةٍ وغبيةٍ؟ فلا شهوة ولا سعادة من غير قوةٍ ومن غير عقلٍ.

«وقيمة الأشياء في قيمة قلب من يملكها
فهي خيراتٌ لمن يحسن استعمالها، ومصائب لغيره»[4].

11. الخيرات التي تمكّننا منها الصدفة، مهما كانت طبيعتها، ليس علينا سوى الإحساس بها لكي نتمتع بها، فما يجعلنا سعداء هو أن نتمتع بها لا أن نملكها.

«حين نكون مرْضى، ليس بيتٌ أو أراضٍ
ولا قطعة نحاسٍ أو ذهبٍ
هي ما يطرد الحمى من الجسد والهموم من النفس
علينا أن نكون أصحّاء لنتمتع بالخيرات التي لنا

(1) Lucrèce, De la Nature, II, 34
(2) يعني الكرسي المثقوب الذي كان يستعمله الملوك والنبلاء بمثابة مرحاض [المترجم].
(3) Perse, Satires, II, 38.
(4) Térence, Heauton Timorumenos, I, III, 21.

وإذا ما أصابنا الهمّ والغمّ من جراء الرغبة والخوف
البيت والممتلكات لوحات لمن لا يرى فيها النقْرس
ومراهم للمصاب بداء النقْرس»[1].

12. خذوا إنسانًا مغفَّلًا، فستجدون أنّ ذوقَه غامضٌ وكليلٌ، فهو لا يتمتع بخيراته أكثر مما يتمتع شخصٌ مزكومٌ من حلاوة الشراب، ومما يقدّر حصانٌ غنى عدّته التي تحلّى بها. وكما يقول أفلاطون، الصحة والجمال والقوة والخيرات، وكل ما يسمى خيرات، هي معادلةٌ للشر لدى الظالم وللخير لدى العادل، والعكس صحيح. وحيثما كان الجسد والروح في حال يُرثى لها، فما نفعُ هذه الامتيازات الخارجية ما دام مجرّد وخز إبرةٍ وأقل عاطفةٍ أو نزوةٍ تكفي لكي تحرمنا من متعة التمتع بالدنيا؟ فمع أول إصابةٍ بداء النقرس، لا ينفع المرء أن يكون صاحب الجلالة والمهابة، «مهما كان موشًّى بالفضة ومحلًّى بالذهب»[2] . ألا يفقد ذكرى قصوره وعظمته؟ وإذا ما كان غاضبًا فهل يمنعه كونه ملكًا من الاحمرار والشحوب وصك أسنانه مثل عفريتٍ؟ وإذا كان شخصًا ذكيًا ومميّزا، فإن الملَكية تضيف له حينئذٍ إلى سعادته سعادة أخرى:

«إذا كانت المعدة في حال جيدة، ومعها الرئتان والقدم
فإن ثروات الملوك لن تضيف شيئًا لسعادتك»[3].

إنه يرى أنّ كلّ ذلك ليس سوى زيفٍ وخداعٍ، بل إنه قد يكون متفقًا مع الملك سيليوكوس الذي كان يقول إنّ من يعرف ثقل الصولجان لن يهتم بأخذه لو وجده مرميًا على الأرض.

13. صحيحٌ أن تنظيم سلوك الغير ليس بالمهمّة اليسيرة؛ لأنّه ما أعسَره علينا نحن قبل ذلك، أما الحكم فإنه يبدو أمرًا ممتعًا ورائقًا، لكني حين أتملّى في غباوة الحكم البشري، وصعوبة الاختيار بين أمورٍ جديدةٍ مصدرها غير موثوقٍ به فإني أميل بالأحرى لجانب أولئك الذين يعتقدون أن من الأمتع والأسهل الاتباع على القيادة، وأن العقل سيكون بالغ الارتياح

(1) Horace, **Épîtres**, I, II, 47.
(2) Tibulle, **Élégies**, I, II, 71.
(3) Horace, **Épîtres**, I, 12.

ألا يتّبع سوى السبيل المرسوم له وألا يكون مسؤولاً إلا عن نفسه.

«الأجْدى بالمرء إذًا أن يقوم بالطاعة في هدوءٍ
على أن يتحمل مسؤولية الحكم في الدولة»[1].

وزِدْ على ذلك ما قاله كورش، إن لا أحدٌ يمكنه أن يحكم في الغير إلا من كان أفضل قيمةً منهم.

14. لكن الملك هيرون، حسب كسينوفون، يسير إلى أبعد من ذلك، حين يصرّح أن أشباهه أقل حظًا من الناس العاديين في التمتع بملذات الحياة؛ لأنّ السهولة التي يمنحها لهم الثراء تسلب منهم المذاق المرّ والحلو الذي نجده فيها نحن الآخرون.

«الحب المتسم بالإشباع والواثق بنفسه يوقع الاشمئزار في النفس
مثل طبق شهي متى أفرطنا في تناوله يُتعب البطن»[2].

15. هل نعتقد أن أطفال الجوقة (الخورس) يتمتعون فعلًا بالموسيقى؟ فالإشباع بها يجعلها مملّةً لهم. والحفلات والرقصات والمسرحيات الهزلية والمباريات تُمتِع من لا يشهدها دومًا، والذين يرغبون من وقتٍ لآخر في حضورها. أما ذلك الذي تتشكل حياته اليومية منها فإن مذاقها يغدو له فاترًا بل مقزّزًا. والنساء لا يصبحن مثيراتٍ لذلك الذي يتمتع بهن متى شاء، ومن لم يعرف العطش لا يمكنه أن يجد متعةً في الشراب. مقالب البهلوانات تسلّينا، لكنها عبارةٌ عن أعمالٍ شاقةٍ لهم، وإليكم الدليل على ذلك: إنها لمتعةٌ كبرى وعيدٌ كبيرٌ للأمراء أن يتمكنوا من التنكّر والتصعلك والعيش على طريقة بني غبراء.

«أن يغيّر العظماء حياتهم أمرٌ بالغ المتعة:
أكلة بسيطة ونظيفة، من غير بساطٍ ولا زبرجد
وفي كوخٍ، ذلك ما يملؤهم بهجةً وحبورًا
بعد أن كانوا مهمومين»[3].

(1) Lucrèce, **De la Nature**, V, 1526.
(2) Ovide, **Amours**, II, XIX, 25-26.
(3) Horace, I, III, XXIX, 13.

16. ليس ثمّةَ ما هو أكثر مللًا وأكثر إقرافًا من الوفرة، أيّ رغبةٍ لن تنفلّ حين يكون للمرء ثلاثمئة امرأةٍ رهن إشارته، كما السلطان التركي العظيم في سراياه؟ أيّ رغبةٍ وأي نوعٍ من الصيد كان لسالفه الذي لم يكن يقوم بالصيد بأقل من سبعة آلاف صقّارٍ؟[1] أعتقد أيضًا أن هذه العظمة الباهرة مليئةٌ بالمساوئ للمتعة والملذات اللطيفة؛ لأنّها مرئيةٌ من الناس، ومع ذلك، لا أدري لمَ يُطلب منهم التخفّي والتغطية على أخطائهم، ما يوجد لدينا ليس سوى مبالغةٍ، فالشعب يحس بذلك لديهم كما يحس بالطغيان والمقت والكراهية نحو القوانين، علاوةً على ذلك فإنّ النزوع إلى الرذيلة تبدو له أنها تضيف متعة التلاعب بالقواعد العامة ودوْسها بالأرجل. صحيحٌ أن أفلاطون في محاورة «جورجياس» يعرف الطاغية بأنه ذلك الذي له الحق في عمل ما يريد في مدينته، ولهذا فإنّ إظهار مفاسدهم للملأ واستعراضها عليهم يكون غالبًا عملًا جارحًا أكثر من تلك المفاسد الأخلاقية نفسها.

مساوئ العظمة

17. كل الناس يحترسون من المراقبة والترصد لهم، والناس العظام يهابون هذا حتى في تصرّفهم وأفكارهم، ما دام الشعب يعتبر أن له الحق في القيام بذلك، وكما أن الشوائب تبدو أكبر حسب كونها في الأعلى وفي النور الساطع، كذلك فإنّ خالًا أو ثُؤلولًا في الجبين يبدو لهم أسوأ من ندْبٍ لدى الغير، لهذا فإن الشعراء يزعمون بأن الإله يوبيتر كان يقوم بمغامراته العاطفية بوجه غير وجهه[2]، وحسب ما يبدو لي، ليس ثمّةَ من بين المغامرات العاطفية التي تُنسب له سوى واحدةٍ يبدو فيها في كامل جلاله وعظمته.

18. لكن، عوْدًا إلى هيرون، إنه يقول أيضًا إلى أيّ حدّ يجد مملكته متعبة، إذ تحرمه من السفر بحرية كما لو كان أسيرًا في حدود بلده، وفي كلّ لحظة

(1) هذه القصص الغريبة المستقاة من مؤرخين معاصرين، لا يأخذ مونتيني عناء التمحيص فيها وفي صدقيتها ما دامت تؤكد خطابه.

(2) لكي يقوم يوبيتر بغواية ألكمينا تصور لها في هيئة زوجها أمفيتريون، كما أنه تصور في شكل بجع لغواية ليدا، وفي شكل ثور ليختطف أوروبا، إلخ.

متابَعًا من الشعب، حين أرى عظماءنا جالسين لوحدهم إلى المائدة، لكن محفوفين بحشْدٍ من الناس الذين يحادثونهم ويراقبونهم، فإني فعلًا أحس بالرأفة عليهم لا بغبطتهم. كان الملك ألفونسو يقول إنّ الحمير، من وجهة النظر تلك، هي أسعد من الملوك، فأصحابها يتركونها ترعى على هواها، أما الملوك فلا يستطيعون الحصول على حريةٍ كتلك من خدمهم، ولم يطرق ذهني أبدًا أنّ شخصًا مثقفًا شيئًا ما له عشرون مراقبًا حين يكون جالسًا على كرسيٍّ مثقوبٍ يقضي حاجته فيه، يمكن أن يكون امتيازًا في حياته، ولا أن تكون له خدمات رجلٍ استولى على مدينة كازالي مونفيراتو[1] أو دافع عن مدينة سيينّا[2] أفضل وأروَق من خدمات خادمٍ محنّك.

19. الامتيازات التي يتوفّر عليه الأمراء والملوك هي امتيازاتٌ متخيَّلةٌ تمامًا، ففي كلّ درجةٍ من درجات الحياة الاجتماعية نجد تشابها مع وضعية الأمراء والملوك. لقد كان يوليوس قيصر يسمي «مُليْكًا» كلاًّ من النبلاء الذين كان عليهم القضاء بالعدل. والحقيقة أن الكثيرين ممن كان عليهم أن يُسَمّوا «أسيادًا» تسمَّوْا ملوكًا كي يمنحوا لأنفسهم بعض العظمة، لتَنظروا ما هم عليه في المناطق النائية من البلاط، في بريتاني على سبيل المثال، الرعايا والضباط، والانشغالات والخدمات وحفلات نبيلٍ يعيش منعزلًا وملازمًا لمنطقته، نما وترعرع بين خدمه، ولْتنظروا أيضًا إلى مخيلته كيف تشتغل، فليس أكثر ملكيةً منه، إنه يسمع الحديث عن ملكه مرةً في السنة كما لو كان الأمر يتعلق بملك الفرس، وهو لا يعرفه إلا ببنوّة عمّ بعيدة يمسك بسجلها أمين سرّه. والحقيقة أن قوانيننا نزقةٌ، وثقل السيادة الملكية لا يحس به النبيل الفرنسي إلا مرتيْن في حياته، والخضوع الواقعي والفعلي للملك لا يهمّ من بيننا إلا من يخنعون له، والذين يحبون تشريف أنفسهم والإغناء بذلك السبيل، فمن يريد أن يظلّ قابعًا في بيته ويعرف كيف يسيّره من غير نزاعٍ أو محاكمات، حرّ مقدار حرية دوق مدينة البندقية. «**العبودية تقيدّ القليل من الناس، لكن ثمّةَ العديدون الذين يقيدون أنفسهم بها**».[3]

(1) هو الماريشال دو بريساك الذي استولى على تلك المدينة في منطقة بييمونتي الإيطالية عام 1534 م.

(2) دافع موللوك عن سيينا، المدينة التوسكانية عام 1555 م.

(3) Sénèque, Épitres, ou Lettres à Lucilius, XXII.

20. لكن ما يزعج أكثر هيرون، هو أنه يعرف أنه محرومٌ من الفاكهة الأكثر حلاوةً وكمالًا في الحياة الإنسانية، أيّ الصداقة والألفة. ففعلًا أيّ صِدْقية يمكنني أن أمنحها للتعبير عن العاطفة والعناية الآتيَيْن من ذلك الذي يَدين لي بكل ما هو عليه، أراد ذلك أم كرهه؟ فهل أتباهى بأنه يكلمني بتواضعٍ وتبجيلٍ ما دام غير قادرٍ على أن يتصرف معي بطريقةٍ أخرى؟ التكريم الذي نتلقاه ممن يخشوننا ليس تكريمًا، فعلامات الاحترام والتبجيل تكون موجّهةً للملَكية فيَّ لا لي أنا.

«أكبر امتيازٍ للملَكية
هو أنّ الشعب مُكرَهٌ
لا فقط على تحمّل أعمال عاهله
وإنما على امتداحها»[1].

21. ألا نرى أن الملك الظالم مثله مثل العادل، وذلك الذي نحبه وذلك الذي نكرهه، يحظيان معًا بالتبجيل؟ فلهما الأبهة نفسها والاحتفاء ذاته، هكذا عومل سَلفي وكذلك سيعامل خلَفي، فإذا لم يقمْ رعاياي بإهانتي فذلك ليس شهادةً على حبهم لي، فلماذا آخذ الأمر كذلك بما أنهم عاجزون عن فعل ذلك حتى لو أرادوا. لا أحد يصاحبني من باب الصداقة بيني وبينه، إذ لا صداقة تُنسج ثَمَّ حيث لا وجود لعلاقةٍ وتواطؤٍ وتوافقٍ. لقد جعلني وجودي السامي خارج المجتمع، إذ بيني وبين الناس تنافرٌ وعدم توازنٍ بالغان، فهم يتّبعونني احترامًا للمُواضعات والعوائد، ويتبعون ثروتي لا أنا، طمعًا في الزيادة في ثروتهم، كلّ ما يقولون لي أو يفعلونه ليس سوى تصنّعٍ بما أن حريتهم تُلجمها من كلّ جانب السلطة الكبرى التي لي عليهم، لذا لا أرى حولي سوى أناس مقنّعين ومتخفّين.

22. كانت حاشية الإمبراطور يوليانوس تمتدحه على عدله، فقال: «كنت سأحسّ بالفخر من هذه الأمداح لو كانت آتيةً من أشخاص يتجرؤون على اتهام أفعالي أو نقدها حين تكون سيئةً». كلّ الامتيازات الحقة التي للأمراء يتقاسمونها مع الناس من وسطٍ متوسطٍ، إذِ امتطاء أحصنة

(1) Sénèque, **Œdipe**, II, I, 205.

مجنّحةٍ والتغذي من طعام الآلهة أمرٌ مخصوصٌ بالآلهة، فهم لا ينامون ولا يشتهون بشكلٍ مختلفٍ عنا، وحديدهم ليس من نوع جيّد مثل ذلك الذي نستعمل في أسلحتنا، وتاجهم لا يحميهم من الشمس ولا من المطر. وتاج الإمبراطور الروماني ديوكلتيانوس كان مبجّلًا وكان القدَر بجانبه، ومع ذلك فقد تخلى عنه كي يكرّس نفسه لشؤون حياته الخاصة، وبعد ذلك بوقتٍ، وبما أن ضرورات الشؤون العامة فرضت عودته للحكم، فقد أجاب من جاءه طالبًا منه ذلك: «لمْ تكونوا لتحاولوا إقناعي بالعودة للحكم لو كنتم رأيتم ترتيب الأشجار التي غرست بيدي في حديقتي، والبطيخ الجميل الذي زرعت فيها».

23. المجتمع الأسعد حسب أناخارسيس هو ذلك الذي تكون فيه الأشياء متساويةً، ويُحسَب فيه التفوق بمقدار الفضيلة والمقت بمقدار الرذيلة.

24. حين قرر الملك بّيروس العبور إلى إيطاليا، أراد مستشاره الحكيم كينياس أن يشعره بغرور طموحه، فسأله:

- هل لي أن عرف، جلالتكم، لأي غاية ترغبون في الشروع في هذا العمل؟ فأجابه بّيروس للتوّ:

- كي أكون سيد إيطاليا. فتابع كينياس:

- وماذا بعد ذلك؟ فردّ عليه:

- سأمر إلى بلاد الغال وإسبانيا.

- وبعد ذلك؟

- سأروح للاستيلاء على إفريقية، وأخيرًا حين سيكون العالم بأسره تحت إمْرتي، سأرتاح وأعيش سعيدًا على راحتي. فرد عليه كينياس:

- بالله عليك سيدي، قل لي لماذا لا تفعل ذلك من الآن، لو كنت تريد ذلك؟ لماذا لا تخلدُ للراحة من الآن وتقيم حيثما تريد، وتتفادى كافة هذه المتاعب التي ستفرضها على نفسك؟

يبدو أنه لم يكن يعرف حدودًا لرغباته

«ويجهل إلى أيّ مدًى تسير اللذة»[1].

25. وسوف أختم هذا ببيت قديم أجده رائعًا في هذا الموضوع:

«كلّ واحدٍ يمنحه مزاجه قدَره»[2].

(1) Lucrèce, De la Nature, V, 1431.

(2) Cornelius Nepos, Vie d'Atticus, II.

الفصل الثالث والأربعون

عن القوانين المحدّدة للنفقات

1. إن الطريقة التي تسعى بها قوانيننا إلى تنظيم الإسراف المجنون والنافل في المأدُبات والملابس يبدو لي أنه ينتج أثرًا معاكسًا. فالسبيل الأمثل لذلك يتمثل في إثارة مقْت الذهب والحرير لدى الناس باعتبارها أشياء نافلة وغير مفيدةٍ. وعوضًا عن ذلك ترانا نزكّي القيمة التي نمنحها لهما. وهي طريقةٌ ما أغباها في العمل إذا ما أردنا أن نقزّز الناس منهما. فإذا ما قلنا إن الأمراء وحدهم سيتناولون سمك التّرس ويلبسون الفرْو وسبائك الذهب، وأن ذلك أمرٌ محرّمٌ على الشعب، أليس في ذلك تعزيز لحظوة تلك الأشياء وطريقة لتقْوية الرغبة فيها؟ وإذا ما ترك الملوك بجرأة سمات العظمة تلك، فبين أيديهم أشياء أخرى غيرها! وإنّ إفراطًا كذلك الإفراط قابلٌ للعذر لدى كلّ الناس لا لدى الملوك والأمراء.

2. إذا ما نحن اتبعنا مثال العديد من الأمم، فيمكننا أن نتعلم طرائق عديدة أفضل لكي نُبديَ عن تميُّزنا الخارجي، وإظهار مرتبتنا - وهو أمر أعتبره ضروريًا في المجتمع - من غير أن نُذكي ذلك الانحطاط المتباهي.

3. من الغريب أن نرى كيف أن العادة في تلك الأمور التي لا كبير أهمّية لها تنشر سلطتها وتفرضها بأسهل وأسرع من النار في الهشيم. فما كنْا نرتدي الحرير خلال عامٍ في البلاط، حدادًا على وفاة الملك هنري الثاني، حتى صار الحرير بين الشعب أمرًا متداولًا بحيث ما إن نرى أحدًا يرتديه حتى نحسبه من بين البورجوازيين. وهو لم يظلّ موضةً شائعةً إلا بين الأطباء والجرّاحين. ومع أن الناس صاروا يلبسون مثل بعضهم البعض، فإن مرتبتهم تتبدّى بطرائق عديدة ظاهرة للعيان.

4. ألا نرى كيف أن البزّات العسكرية الوسخة لدى جنودنا، المصنوعة من جلد الأيل والجوخ صارت موضةً لدى الناس؟ وكيف أن غنى الملابس صارت تثير اليوم المقت والعيب؟ ولو بدأ الملوك بالتخلي عن ذلك الإسراف، وهو أمرٌ يمكن أن يتمّ في شهرٍ ومن غير مرسومٍ أو أمرٍ ملكيٍّ، فكل الناس سيتّبعونهم في ذلك.

5. على القانون أن ينص بالعكس على أن اللون القِرمِزيَّ والأواني الفضية ممنوعةٌ على كلّ الناس إلا على البحارة ونساء الحاشية، وبهذه الطريقة صحح المشرّع زاليوكوس العوائد الفاسدة قبائل اللوكْريين سكان لوكريس. وإليكم ما كانت أوامره في هذا المضمار: ألا تكون المرأة الحرة مصحوبةً بوصيفةٍ إلا حين تكون في حال سكْرٍ، ألا تخرج ليلًا إلى المدينة، ولا أن تحمل حليًّا ذهبيةً أو ترتدي فستانًا مطرَّزًا إلا إذا كانت بَغيًّا، ولا يُسمح لأي رجلٍ إلا إذا كان قوّادًا أن يحمل في الإصبع خاتمًا من ذهب ولا أن يرتدي لباسًا خفيفًا من جوخ، كذلك المصنوع في مدينة مليتوس، وهكذا، وبفضل هذه الاستثناءات المخزية، استطاع أن يجنب بمهارة مواطنيه من الملذات غير الضرورية والخبيثة.

كانت تلك طريقةً عمليّةً في إعادة الناس إلى واجبهم وإلى سبيل الطاعة، بجاذبية الشرف والطموح.

6. إن ملوكنا لقادرون على كلّ شيءٍ حين يتعلق الأمر بالإصلاحات الخارجية مثل هذه، إذ إنّ تصرفهم الخاص يكون بمثابة قانونٍ. **«كل ما يقوم به الملوك، يبدو أنهم يأمرون به»**[1]، كافة محافظات فرنسا تتبع قواعد البلاط، فليتخلَّ الملوك عن تلك القطعة من الملابس اللعينة التي تبرز علنًا أعضاءنا الحميمة، وتلك السترة الغبية والفظة التي تجعلنا مختلفين عما نحن عليه ولا تلائمنا حين نتمنطق بالسيف، كما عن تلك الضفائر من الشعر المخنثة، وتلك القبلة المتبادلة في التحية، وتقبيل اليد التي كانت في ما مضى مخصوصةً بالملوك والأمراء.

7. وليتخلّوْا عن تلك العادة التي بمقتضاها يلزم على النبلاء أن يتقدموا إلى حفل رسمي من غير سيفهم، بهندام مهمل ومفتوح الأزرار كما لو كانوا خارجين من وكْر دعارة، وعن أن نظلّ حاسري الرأس حتى ونحن بعيدون عنهم في أيّ مكانٍ حللْنا به، بخلاف عادة آبائنا وعلى الحرية المعتادة لنبالة هذا البلد، وهذا، ليس فقط حين يتعلق الأمر بهم، وإنما بغيرهم أيضًا، طالما لدينا أنصاف الملوك وأرباعهم.

(1) Quintilien, **Declamationes**, III, in Juste Lipse.

8. وليتخلوْا أيضًا عن موضاتٍ جديدةٍ أخرى، فإننا سنراها تغيب للتوّ وتسقط في النسيان، تلك أخطاء غير أساسيةٍ، غير أنها نذير شؤم، فنحن نعرف أن السور يتضعْضع حين يتشقَّق طلاؤه وغلافه.

9. يعتبر أفلاطون في كتابه «الشرائع» أن لا شيء أشدَّ مضرَّةً بمدينته أكثر من الإباحة للشباب تغيير ملابسهم وهيئتهم وحركاتهم ورقصاتهم وتمارينهم وأناشيدهم، منتقلين من تقليعة لأخرى، ومتبنّين هذا الحكم وتارة حكمًا آخر، والجرْي وراء الأمور الجديدة وتقديس مبتدعيها، هكذا فعلا تفسُد العوائد وتُنكر المؤسسات القديمة وتُزدرى.

10. علينا الاحتراس من التغيير في كافة الأشياء، كتقلّب الفصول والرياح والطعام والمزاج، إلا ما كان منها فاسدًا، والقوانين الوحيدة التي لها نفوذٌ حقٌّ هي تلك التي منحها الله مصدرًا أزليًّا بحيث لا أحد يعرف متى ظهرت، ولا إن كانت مختلفةً في الماضي.

الفصل الرابع والأربعون

عن النّوم

1. يأمرنا العقل بأن نتّبع دومًا السبيل نفسه لكن ليس بالضرورة بالإيقاع ذاته. وإذا كان على الحكيم ألا يترك الأهواء البشرية تحيد عن الطريق القَويم، يمكنه مع ذلك ومن غير مسّ بواجباته، أن يتنازل لها بأن يسرّع أو يبطئ من خطوه من أجلها، وألا يظل واقفًا بالضرورة مثل تمثال العملاق الشهير[1]، جامدًا ومتكلّس الملامح، ولو كانت الفضيلة مجسدة في حلة بشرية فإني أعتقد أن نبضها سيتسارع حين تكون في معركةٍ أكثر منه حين تكون رائحة للعشاء، والحقيقة أنّ عليها أن تسخّن عضلاتها وتتأثر عاطفيًا. وبهذا الصدد لاحظتُ هذا الأمر النادر: أن الأشخاص العظام، حين يكونون في معْمعة الشؤون العسيرة والمهمة، يحافظون جيدًا على سلوكهم المعتاد بحيث لا يقومون حتى بتقصير ساعات نومهم.

2. في اليوم الموعود للمعركة الرهيبة التي واجه فيها الإسكندر الأكبر داريوش، نام نومًا عميقًا حتى وقت متأخر من الصباح، بحيث إن بارمينيون اضطُرّ لولوج غرفة نومه، واقترب من سريره وناداه مرتيْن أو ثلاث مراتٍ لإيقاظه؛ لأنّ الوقت كان قد حان لبدء المعركة.

3. حين قرّر الإمبراطور الروماني أوتو الانتحار، وبعد أن رتب أموره، وقسم ماله بين خدمه، وشحذ حدّ سيفه الذي كان يريد أن يضرب به نفسه، وبات منتظرًا فقط أن يكون رفقاؤه في أمان، دخل في نومٍ عميقٍ بحيث كان خدمه يسمعون شخيره.

4. لموت هذا الإمبراطور قرابة بموت كاتو الكبير، وخاصةً في هذه النقطة: حين كان على وشك أن يضع حدًّا لحياته، وحين كان في انتظار أن يترك المستشارون الذين أبعدهم مرفأ أوتيكا، دخل في نومٍ عميقٍ بحيث كان يُسمع غطيطه من الغرفة المجاورة، ثم جاءه الرجل الذي أرسَل للمرفأ وأفاقه كي يخبره بأن العاصفة منعت المستشارين من الإبحار بشكلٍ عاديّ، فبعث هناك رجلًا آخر وتابع نومه حتى جاءه هذا الأخير ليطمئنه بأن رحيلهم قد تمَّ بسلامٍ.

(1) العملاق: تمثالٌ هائلٌ في مدخل مرفأ مدينة رودس، وهو إحدى العجائب السبع للدنيا في القديم، وقد دمره زلزال عظيم عام 226 ق.م.

5. يمكننا أيضًا أن نقارن سلوك كاتو بما قام به الإسكندر الأكبر خلال العاصفة الخطيرة التي كانت تهدّده بسبب تحريض الشعب الذي قام به الخطيب ميتيلوس، فقد أراد هذا الأخير خلال مؤامرةٍ كاتيلينا إصدار مرسومٍ يدعو بومبّيوس إلى العودة إلى روما مع جيشه، كان كاتو الوحيد الذي عارض هذا المرسوم، وهو ما أسفر عن اندلاع مواجهاتٍ صاخبةٍ ووعيدٍ في قلب مجلس الشيوخ، لكن تطبيق المشروع كان مقرّرا في اليوم الموالي، أما ميتيلوس الذي كان يحظى بثقة الشعب ويوليوس قيصر -وكان حينئذٍ يتآمر لصالح بومبيوس- فقد راح لمجلس الشيوخ مصحوبًا بعددٍ غفيرٍ من العبيد الأجانب والمصارعين الرومان الأوفياء له حتى الموت. فيما سار إليه كاتو معزَّزًا فقط بحزمه وعزمه، بحيث إنّ أبويه وخدمه والعديد من الأشخاص المرموقين خشوْا عليه كثيرًا، وبعضهم قضى الليل معه من غير نومٍ أو أكلٍ بسبب الخطر الذي رأوا أنه يعرّض نفسه له، وفي بيته، ظلت زوجته نفسها كما أخواته يذرفن الدمع المدْرار مُتوجّسات من الأمر شرًا، فيما كان هو يعمل على طمأنة الجميع، وبعد أن تناول عشاءه على عادته، راح للنوم وغطس في سباتٍ عميق إلى الصباح، حتى جاءه أحد زملائه من محاميّ الشعب ليوقظه كي يروح لمواجهة تلك المحنة. وما نعرفه عن عظمة هذا الرجل وشجاعته، الذي يشهَد عليهما ما عاشه بعد ذلك، يبيّن لنا بالملموس أن ذلك الموقف كان يعود فيه إلى نفسٍ ساميةٍ تتعالى على تلك الأحداث، بحيث لم يخطر بباله حتى أن يقلق، كما لو كان الأمر يتعلق بأحداثٍ عاديّةٍ.

6. خلال المعركة التي خاضها الإمبراطور أغسطس في صقلية ضدّ سكستوس بومبّيوس، وحين كان على أهبة الدخول لساحة الوغى، وجد نفسه ينصاع إلى نومٍ عميق لم يخرجه منه إلا صحْبه كي يعطي الانطلاق للمعركة، وهو ما منح الفرصة في ما بعد لماركوس أنطونيوس لأنّ يعاتبه على أنه لم يكن له حتى الشجاعة في أن ينظر نظرة القائد لترتيبات جيوشه، وأنه لم يجرؤ على تفقدّ جيوشه قبل أن يزفّ له أغْريبّا خبر النصر الذي حازه على العدوّ.

7. أما غايوس ماريوس الصغير فكان فعله أدهى من ذلك، ففي يوم

معركته الأخيرة ضدّ سولّا، وبعد أن سهر على نظام جيشه وأطلق شعار المعركة، استسلم لنومٍ عميقٍ تحت ظلّ شجرة إذْ لم تُنْهضه منه إلا هزيمة رجاله وفرارهم، وبحيث إنه لم يشهد من المعركة شيئًا. وبهذا الصدد، على الأطباء أن يقولوا لنا إن كان النوم ضروريًا إلى درجة أن حياتنا ترتهن به، فقد زعموا أن الرومان قتلوا بّيرسيوس ملك مقدونيا، الذي كان أسيرًا بروما، بحرمانه من النوم، فيما يمنحنا بلينيوس من جهته أمثلةً لأناس عاشوا طويلًا من غير نومٍ.

8. جاء لدى هيرودوتس أن ثمّةَ شعوبًا ينام أهلها نصف السنة ويسهرون نصف السنة الآخر، وأولئك الذين رووا حياة الحكيم لابّيمينيدس زعموا أنه نام خمسًا وسبعين سنةً متوالية.

الفصل الخامس والأربعون

عن معركة مدينة (دْرو)

1. وقعت أحداثٌ بالغة الأهمية لدينا خلال معركة درو بفرنسا[1]، لكن من لا يهتمون بسمعة السيد دو غيز يلحون على أنه لم يكن معذورًا في التوقف عن المعركة وفي التسبّب بذلك في التخفيف من هجومه، في الوقت الذي كان فيه الخصم يتوغّل بمدفعيته في صفوف قوات الحاكم العسكري، قائد الجيش، وأنه كان عليه بالأحرى أن يغامر في مهاجمة العدو من جانبه، على أن يتكبّد خسائر فادحةً بانتظاره لإمكان مهاجمته من الخلف، بيد أن نتيجة المعركة أبانت أنه كان على حقٍ. ومن سيناقش ذلك بعاطفته سيعترف بسهولةٍ أنّ غاية ومرمى قائد الجيش بل كلّ جنديٍ أيضًا تتمثل في الانتصار الكامل، وألا يجب أن يعوق هذا الهدف أيّ حادثٍ من الأحداث مهما كانت أهميته.

2. كان القائد اليوناني فيلوبويمين في إحدى المعارك ضد ماخانيداس طاغية إسبرطة قد أرسل إلى المقدمة عددًا مهمًا من الرُّماة ورماة النار، وبعد أن شقَّ العدو صفوفهم، تسلى بملاحقتهم بأقصى سرعةٍ على طول الفرقة الكبرى لجيش فيلوبويمين، لكنّ هذا الأخير، بالرغم من الانفعال الذي أثاره ذلك بين صفوف جيشه قرر البقاء رابط الجأش في مكانه وألا يبرحه ليهرع لنجدة جنوده، بالعكس، حين تركهم يلاحقون جنوده وينكّلون بهم أمام عينيه، بدأ في الهجوم على العدوّ في مستوى جنوده المشاة، حين رآهم وقد تركهم الخيالة لحالهم، ومع أنهم كانوا إسبّرطيين، ولما كان قد باغتهم في الوقت الذي بدأوا يعتقدون فيه بالنصر، بدأت صفوفهن تنفلّ، فنكّل بهم تنكيلًا، وبعد أن تمَّ له ذلك، بدأ في ملاحقة ماخانيداس، وهذا الحال قريبٌ جدًا من حال السيد دو غيز.

3. في المعركة الضارية التي شنها أجيسيلاوس ضد البيوتيويين، وشارك فيها كسينوفون، والتي يقول هذا الأخير بأنها كانت الأشرس من بين كافة المعارك التي رأى، رفض أجيسيلاوس الفرصة التي منحتها له الصدفة بأن يترك وسط جيش البيوتيويين يُهاجمهم من الخلف،

(1) وقعت هذه المعركة عام 1562م، وقد تواجه فيها الكاثوليكيون والبروتستانتيون، وقد أسفرت عن انتصار الكاثوليكيين.

بالرغم من أن النصر كان يبدو له مكينًا بتلك الطريقة؛ لأنّه اعتبر أن التصرف بتلك الطريقة فيه من المهارة أكثر من الجسارة، ولكي يُبين عن قيمته الحربية، قرّر بالعكس من ذلك أن يهاجمهم وجهًا لوجه، لكنه انهزم في ذلك، بل تعرض للجرح واضطر في الأخير إلى التراجع، ثم حين عاد للطريقة التي رفضها في البداية، شقَّ صفوف جيوشه ليترك البيوتيويين يمرون، وحين لاحظ أنهم يسيرون بغير نظامٍ، كما لو أنْ لا خطر عليهم، لاحقهم من الجوانب، ومع ذلك فإن هذا لم يجعلهم يفرون في اضطرابهم ذاك، بل بالعكس، تراجعوا تدريجيًا، وهم يكشّرون عن أنيابهم، حتى بلغوا مكانًا أمينًا.

الفصل السادس والأربعون

في الأسماء

1. مهما كان تنوع الأعشاب، نحن نعيّنها كلها باسم «السَّلَطة»، كذلك هو أمر الأسماء، وسأقوم هنا بجمع ما يتعلق بذلك.

2. كل مفهوم له أسماء يأخذها الناس، ولا أدري لماذا، بشكلٍ خطأ، وذلك حال «جون»[1] و«غيوم» و«بونوا»[2] لدينا.

3. يبدو أيضًا أن القدر طارد بعض الأسماء في أنساب الحكام، وهكذا كان حال «البطالمة» في مصر، ومن يحملون اسم «هنري» في إنجلترا، واسم «شارل» في فرنسا[3]، واسم «بلدوين» في الإقليم الفلامندي ومنطقة أكيتين الفرنسية القديمة لآل «غيّوم» التي يقال إن اسمهم جاءهم من اسم «غويّين»، لكن بتقاربٍ عارِضٍ، كما الأسماء الفظة التي نجدها لدى أفلاطون[4].

4. وكذلك هذا الأمر التافه، لكن الجدير بالذكْر، الذي حكاه لي شاهد عيان: أقام هنري دوق نورماندي، وهو ابن هنري الثاني ملك إنجلترا، حفلًا كبيرًا دعا له العديد من النبلاء، بحيث لكي تكتمل التسْلية قُسِّموا إلى مجموعاتٍ حسب أسمائهم، ففي اسم «غيوم» كان هناك مئة وعشرة من الفرسان جالسين إلى المائدة ويحملون كلهم ذلك الاسم، عدا النبلاء العاديين والخدم.[5]

5. إنه لأمرٌ ممتعٌ توزيع موائد الحفلات تبعًا للأسماء، مقدار ما كان ممتعًا للإمبراطور الروماني جيتا أن يقدم أطباق مأدباته تبعًا للحرف الأول من اسمها، فقد كانت تُقدم الأطباق التي تبدأ بالخاء، كالخروف والخرشف والخيار وهلمّ جرّا.

---

(1) يعني هذا الاسم من خانته زوجته، وعمومًا كلّ من تعرض للخيانة.

(2) اسم بونوا، يعني أيضًا «الأبله».

(3) بعض من حملوا اسم «شارل» تركوا في التاريخ ذكرًا سيئًا، أو عرفوا نهاية مأساوية، فشارل البسيط توفي سجينًا، وشارل السادس أصيب بالجنون.

(4) في محاورة «كراتيلوس».

(5) حكايةٌ مستقاةٌ، كما غيرها في هذا الفصل، من «حوليات أكيتين» لجون دو بوشي.

6. وكذلك يُقال أيضًا بأنه أمرٌ مفيدٌ أن يكون للمرء «اسمٌ حسنٌ»، أيّ ذو صدْقيةٍ وسمعةٍ طيبةٍ، لكن ما هو ألْيَق بالمرء في الحقيقة هو أن يكون له اسمٌ يسهُل النطق به وتذكّره بسهولة، وبهذا يستطيع الملوك والشخصيات المهمة أن تعرفنا بسهولةٍ وألا تنسانا بسرعةٍ. ومن بين أسماء من يخدموننا ونحكمهم، نستخدم غالبًا تلك التي تبدو لنا أسهل، رأيت الملك هنري الثاني لا يستطيع أن ينطق بشكلٍ صحيحٍ اسم رجلٍ نبيلٍ من منطقة غاسكونيا، وقد منح لإحدى وصيفات الملك اسم عائلتها الكبرى؛ لأنّ اسم بيت أبيها بدا له بالغة الغرابة. كما أن سقراط يقول إنها مهمّةٌ بالغةُ الأهمية للأب أن يمنح لأبنائه أسماء جميلة.

7. يُقال أيضًا بأنّ تأسيس كنيسة نوتردام الكبرى بمدينة بواتييه يجد أصله في أن شابًا فاسقًا كان يسكن هناك، واستقبل في بيته عاهرًا، وحين طلب منها اسمها، أجابته بأنها تُدعى مريم، فأحس فجأة بخشوعٍ دينيٍّ وباحترامٍ كبيرٍ لذلك الاسم المقدس للعذراء مريم أمّ مُخلّصنا، بحيث إنه لم يقم فقط بطرد تلك المومس وإنما وجد حياته كله تتغير بفعل ما وقع، وتقديرًا لتلك الكرامة، شُيدت كنيسةٍ صغيرةٍ تحمل اسم السيدة العذراء «نوتردام» في مكان ذلك البيت، ثم في ما بعد الكنيسة الكبرى التي نراها اليوم.

8. لقد كان ذلك الاسم بمثابة رادعٍ له إذْ وقع موقعًا حسنا في قلبه، وإليكم رادعًا آخر مشابهًا مرّ عبر الحواس: حين كان فيثاغوراس بصحبة شبابٍ، أدرك أنهم -وقد أخذ الشراب منهم مأخذه- يتآمرون على ممارسة العنف على شابٍ نبيلٍ ومؤدّبٍ، فطلب من الموسيقية أن تغير من إيقاع الموسيقى، وبفضل موسيقى ثقيلةٍ وحادةٍ وذات إيقاعٍ بطيءٍ استطاع أن يهدّئ من حماسهم وينوّمه تمامًا بفعل فتنة الموسيقى.

9. لن ترى الأجيال المقبلة في الإصلاح الديني الذي يتمّ اليوم عملًا وجيهًا وحكيمًا؛ ذلك أنه لم يقم فقط بمحاربة الخطايا والرذائل، وملأ الدنيا ورَعًا وخنوعًا وسلامًا وبكافة الفضائل، إنه أيضًا بلغ به المبلغ

إلى محاربة أسماء التعميد من قبيل (شارل، ولويس، وفرنسوا)؛ ليملأ الدنيا بأسماء من قبيل: ماتوزاليم (متوشالح)، وإيزيكيال (حزقيال)، ومالاكي (ملاخي). التي اعتبرَها أكثر تشبّعًا بالإيمان.

أحد النبلاء من جيراني يحكم على الأزمان السابقة بمعايير زمننا، لا تمرّ فرصة من غير أن يشدّد على كبرياء وروعة أسماء النبالة في تلك الفترات، ك (دون غرومِدان، وكيدراغان، وأجيسيلاوس)، ويزعم أن سماعها فقط يوحي بأنها أسماء لأناسٍ مختلفين جدًا عن بطرس وغيّو ومشيل.

10. وأنا ممتنّ حقًّا للمترجم جاك أميوت بأنه حافظ في نصّ ترجمةٍ فرنسيةٍ على الأسماء اللاتينية، من غير أن يحرّفها ويمنحها صورة ملائمة للغة الفرنسية، قد يبدو ذلك متعبًا في البداية، غير أن قيمة ترجمته لبلوتارخوس قد ساعدته قيمتها وجودتها على أن يمحو عن استعمال تلك الأسماء غرابتها تمامًا، غالبًا ما تمنيت أن يترك من يكتبون قصصًا باللاتينية أسماءنا كما هي؛ فهم حين يحوّلون اسم «فوديمون» إلى «فاليمونتانوس»، وبتحويلها وإلباسها صيغةً يونانيةً أو رومانيةً، يجعلوننا نضيع في ذلك وقد نفقد ذكرى تلك الأسماء.

11. وختمًا لهذا الموضوع، فإني أعتبر عادةً سيئةً ذات عواقب وخيمةٍ، أن ننعت كلّ واحدٍ باسم أرضه وإقطاعته، فهو الأمر الوحيد في هذه الدنيا الذي يشوّش على السلالات ويجعلها مجهولةً، فالابن الأصغر من عائلةٍ نبيلةٍ، الذي منحه الملك أراضي سُمي باسمها لا يمكنه أبدًا أن يتخلى عن ذلك الاسم الذي عُرف وكُرِّم به، لكن -بعد عشر سنواتٍ من وفاته- ها هي تلك الأراضي تُمنح لشخصٍ آخر غريبٍ عنه يأخذ هو أيضًا اسمها، فكيف إذًا نميز بينهما؟ وليس ضروريًا البحث عن أمثلةٍ أخرى غير تلك التي تمنحنا إياها الأسرة الملكية، إذ لكل قسمة للأراضي أسماء جديدةٍ! ومن ثمّ، فإن الاسم الأصل، أيّ «اسم السلالة» يضيع من بين أيدينا.

12. ثمة الكثير من التساهل في هذا التغيير للأسماء والألقاب، بحيث إني في الماضي لم أرَ شخصًا حباه القدر بوضعيةٍ راقيةٍ جديدةٍ من غير أن يتمّ للتوّ إسباغ ألقابٍ سلاليةٍ جديدةٍ عليه -لم يكن يحملها أبوه- ومن غير أن يُلصق بفرعٍ سلاليّ نبيلٍ جديدٍ، وطبعًا، فإن العائلات التي لا أصول لها هي تلك التي تستفيد من هذا التزوير. كم من نبيلٍ في فرنسا له أصول ملكية حسب زعمهم؟ إنهم أكثر من أيّ أصولٍ أخرى حسب ما يبدو لي.

13. ما سيأتي ذكره حكاه لي مشكورًا أحد أصدقائي، كانوا نفَرًا مجتمعا للبتّ في نزاع أحد النبلاء مع نبيلٍ آخر. وهذا الآخر كان في الحقيقة ذا امتيازاتٍ تعود لألقابٍ وتحالفاتٍ من مرتبةٍ أعلى من النبالة العادية، وبخصوص هذه الامتيازات، كان كلّ واحد يسعى لأنّ يكون مُضاهيًا له، فبعضهم يزعم لنفسه أصلًا والبعض الآخر أصلًا آخر، والبعض التشابه في الاسم، وآخرون يتباهون بالأسلحة، وغيرهم بوثائق عائليةٍ قديمةٍ، وهكذا فأقلّهم قيمةً يجد نفسه سليل ملكٍ من ملوك الأراضي الفرنسية في ما وراء البحار!

14. في وقت العشاء، عوضًا عن أن يأخذ صديقي مكانه إلى المائدة، تراجع وهو ينحني مراتٍ متواليةً، مبتهلًا للحاضرين أن يعذروه لأنّه تهوّرٌ منه قد عاش بينهم حتى ذلك اليوم كأحد رفقائهم، لكن لما علم مؤخرًا بشرف لقبهم وقِدمه، فهو يرغب اليوم في أن يكرّمه حسب مرتبتهم، وأنه لا يستحق أن يكون له مكانٌ بين هؤلاء الأمراء، وبعد هذه المزحة الساخرة، وبّخهم بقسوةٍ بهذه العبارات: «بالله عليكم، اكتفوا بما اكتفى به آباؤكم وبما نحن عليه؛ فما نحن عليه كافٍ إذا نحن عرفنا كيف نحافظ عليه، ليس علينا أن ننكر قدْر أسلافنا وظروفهم، ولنتخلَّ عن تلك المزاعم التي يمكن أن تضرّ بأي واحدٍ تكون له الوقاحة في التذرّع بها».

الرمز الشعاري لمونتيني

15. الرموز الشعارية لا تشكل ضمانًا، مثلها مثل الأسماء العائلية، وأنا أيضًا لي رمزٌ شعاريٌّ خاصٌّ بي، ما امتياز تلك الصورة الشعارية كي تظل دومًا في بيتي؟ سيأتي زوج ابنتي كي يحملها إلى عائلةٍ أخرى، وسيأتي شارٍ من الناس ليجعل منها رمزه الشعاري الأول، فنحن لا نجد من التحول والخلط ما نجده في هذا المضمار.

16. بيد أن هذا التأمل يؤدي بي بالضرورة إلى تأملٍ آخر: بالله عليكم انظروا عن كثبٍ إلى أيّ أساسٍ نربط هذا المجد وهذه السمعة التي يضطرب بسببها العالم، أين نضع هذه الشهرة التي نلاحقها بالكثير من الثمن والجهد؟ إن من يحملها إجمالًا هو زيدٌ أو عَمْرٌو، وهو من يضعها تحت جناحه وهو من تتعلّق به.

17. الأمل، يا له من فضيلةٍ نبيلةٍ! فهو في لحظةٍ يجعل إنسانًا يمتلك الخلود وشسوع الكون، ويعوض صاحبه عن العوز والفقر بامتلاك أيّ شيءٍ يتخيّله ويرغب فيه، وطالما رغب في ذلك! فلقد منحتنا الطبيعة هنا لعبةٌ ممتعةٌ، وزيدٌ وعمرٌو هذا، أليس مجرّد كلمةٍ أخرى؟ أو ليس هو قبل كلّ شيءٍ ثلاث أو أربع خطوط قلمٍ ومن السهل أن نغيرها فيصبح عمرٌو «عمَر» أو «عمران»، وزيدٌ «زيدان» أو «زيدون»[1]؟

«الجزاء الذي ننتظر
هو ليس نزِقًا وبلا قيمةٍ»[2].

18. الأمر جدّيٌّ، إذ يتعلق الأمر بمعرفة إلى أيّ مجموعة من الحروف يمكننا أن ننسب هذا العدد الهائل من الحصارات والمعارك والجراح والإقامة في السجون، والخدمات المبذولة لعرش فرنسا التي قام بها ذلك القائد العسكري الشهير. فالشاعر نيكولا دينيزو لم يستخدم

(1) نحن طبعًا عمدنا إلى تعريب الأسماء تسهيلاً للفهم وتقريبًا للفكرة من القارئ [المترجم].
(2) Virgile, **Énéide**, XII, v. 764.

غير حروف اسمه، ثم أعاد ترتيبها ليصبح الكونت دالسينوا[1]، الذي منحه شهرة شعره ولوحاته التشكيلية، أما المؤرخ سويتونيوس فلا يحمل إلا معنى اسمه. فبعد أن هجر اسم «لينيس» الذي كان اسم أبيه جعل من لقب «ترانكويلّوس» موطن شهرة أعماله. من يستطيع أن يصدّق أن القبطان بايار لم ينل الشرف إلا بفضل منجزات بّيير تيرّاي؟ وأن السفير أنطوان إسكالان قد رأى أمام عينيه، ومن غير أن يحرك ساكنًا، سرقة العديد من الحروب البحرية والمهمات البرية والبحرية منه على يد القبطان بّولان والبارون لاغارد؟

19. إن خطوط القلم تلك، من ناحية أخرى، هي مشتركةٌ بين آلاف الناس، فكم شخصًا في كلّ عائلةٍ يحمل الاسم واللقب نفسه؟ وكم نجد منهم في كلّ العائلات والقرون والبلدان؟ فلقد ترك لنا التاريخ من اسم «سقراط» ثلاثة، ومن «أفلاطون» خمسة، ومن «أرسطو» ثمانية، ومن «كسينوفون» سبعة، ومن «ديميتريوس» عشرين، ومن «ثيودوروس» عشرين، من غير أن نتحدث عن أولئك الذين ظلوا مجهولين، من سيمنع خادمي من أن يسمي نفسه «بومبيوس الأكبر»؟ وعلى كلّ حالٍ، ما هي الوسائل والقوى التي يمكنها أن تؤثر في خادمي الميت أو في بومبيوس الذي قُطع رأسه في مصر، كي يرتبطا بهذا الاسم المجيد، أيّ خطوط القلم المكرَّمة تلك، والاستفادة منها؟

«هل تعتقدون أن ذلك يمسّ أرواح الموتى في قبورهم؟»[2].

20. ما الذي يمكن أن يشعر به، مما يقال عنهم، أولئك الذين تجعلهم قيمتهم متجاورين في المرتبة الأولى: إبّامينونداس، من هذا البيت الشعري الذي لم يفارق أفواهنا منذ قرون:

«بأعمالي الجليلة انهار مجْد إسبرطة»[3].

وسكيبيو الإفريقي من هذه الأبيات:

---

(1) عمد نيكولا دونيسو إلى تصحيف اسمه وقلب حروفه لصنع اسم جديد هو الكونت دالسينوا ليوقع به أعماله، وهي ممارسة كانت جارية في القرن السادس عشر.

(2) Virgile, **Énéide**, IV, 34.

(3) Cicéron, **Tusculanes**, V, 17.

«في المشرق وراء مستنقع ميوتندا
لا أحد يضاهيني في منجزاتي»[1].

21. ومن عاشوا بعدهم، تفتنهم عذوبة هذه الكلمات، غير أنهم تحت تأثير الغيرة، تراهم بسذاجةٍ يُسقطون على الموتى ما يحسون به هم أنفسهم، ومن خلال أملٍ خائبٍ، يتخيّلون أنهم سيكونون قادرين على أن يشعروا بدورهم بهذه اللذة بعد الممات، والله وحده عليم بذلك، ومع ذلك، كما يقول الشاعر يوفيناليس:

«نحو ذلك اتجه القادة الرومان
واليونانيون والبرابرة، تلك علّة المخاطر
والمحن والمصائب، خاصة وأنّ الإنسان
أكثر تعطشًا للمجد منه للفضيلة»[2].

(1) Ennius, in **Cicéron**, Tusculanes, V,17.

(2) Juvénal, **Satires**, X, v. 137.

الفصل السابع والأربعون

عن عدم اليقين في حكمنا

1. ذلك ما يعنيه هذا البيت:

«ثمة طرائق كثيرة للكلام عن كلّ شيء، ومعه وضده»(1).

ولنأخذْ مثالًا عن ذلك:

«كان حنبعل منتصرًا، غير أنه لم يعرف كيف يستفيد بعد ذلك من نصره»(2).

2. إذا أراد المرء أن يساند جماعةً تَعتبر، كما أناسنا، أن عدم متابعة توغلنا الأخير في مونكونتور كان من قبيل الخطأ، وإذا أردنا أن نوبخ ملك إسبانيا لأنّه لم يعرف كيف يستغل الامتياز الذي كان له ضدنا في سانت كونتان(3)، فيمكننا القول إنّ هذا الخطأ يعود إلى نفسٍ واقعةٍ تحت خَدر حظها، وقلبٍ امتلأ ببداية النجاح تلك ففقد الرغبة في مضاعفته، لأنّه كان منهمكًا جدًا في هضمه، فهو قلبٌ شبعان بحيث لا يمكن أن يزيد على ذلك، ساخطٌ لأنّ القدَر وضع بين يديه خيرًا كهذا، وفعلًا، أيّ فائدةٍ سيستخلصها من هذا النصر إذا ما هو منح العدوّ الوسيلة لاستعادة قواه؟ وأيُّ أملٍ له في أن يجرؤ على الهجوم مُجدَّدًا عليهم حين يكونون قد جمعوا صفوفهم ونظموها، يحركهم الآن الأسى والتعطش للثأر، إذْ هو لم يجرؤ أو لم يقدر على ملاحقتهم حين كانوا مهزومين وخائفين؟

«حين يكون القدر حارقًا وكل شيءٍ ينصاع للرعب»(4).

3. لكن، ما الأفضل الذي يمكنه أن يُنتظَر على كلّ حال سوى ما فُقد؟ الأمر هنا ليس كما في رياضة المسايفة، حيث عدد «اللمسات» هي ما

(1) Homère, **l'Iliade**, XX, 249.

(2) Pétrarque, **Canzoniere**, CIII, 1-2.

(3) تعرضت الجيوش الفرنسية للهزيمة على يد الإسبان وهي تحاول فك الحصار عن سانت كونتان، وقد نصح دوق صافوا الذي كان يقود جيوش فيليب الثاني ملك إسبانيا بأن يزحف على باريس، غير أن فيليب الثاني اكتفى بإنهاء حصار سانت كونتان.

(4) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, VII, 734.

يمنح الانتصار، فطالما ظل العدو واقفًا، علينا أن نضاعف الهجوم، وليس ثمّةَ من نصرٍ إلا حين تنتهي الحرب بالفوز.

في المناوشات العسكرية التي وجد فيها يوليوس قيصر نفسه في حالةٍ حرجةٍ قرب مدينة أوريكوس اليونانية، عاتب جنود بومبيّوس، قائلًا إنه كان سيفقد الحياة لو أنّ قائدهم عرف كيف يفوز بالمعركة، وحين جاء دوره في الغلبة، فرض عليه بطريقةٍ أخرى أن يستخدم مهمازيْه للفرار.

4. لكن، ألا يمكننا أيضًا أن نقول العكس؟ أيّ أنّ المرء حين لا يعرف كيف يضع حدًّا لطموحه، فإن ذلك لا يكون سوى نتيجةٍ روحٍ قلقةٍ لا تعرف الإشباع، وأنه لَمِن استغلال أفضال الرب أن يرغب المرء في إفقادها الاعتدال الذي كتبه لها، وأنّ وضع الطموح مرة أخرى تحت إمرة المصادفة يعني من جديدٍ الرمْي بالنفس أمام المخاطر بعد النصر. وأخيرًا، أنّ إحدى أعظم الحِكم في فن الحرب تتمثل في ألا ندفع بعدوّنا إلى اليأس.

5. خلال «الحرب الاجتماعية» الرومانية حين هزم سولّا وماريوس المارسيين، ولاحظا أن فرقة من هؤلاء الأعداء لا تزال بدافع من اليأس تناوشهما مثل حيواناتٍ مسعورةٍ، رأيا أنّ من الأفضل عدم انتظارهم، ولو أن حماس السيد فْواكس لم تحمله على متابعة بقايا نصر رافين بشكلٍ أهْوج، لم يكن ليدنّسه بموته. لكن ذكرى ذلك التي لا تزال دافئةً هي ما مكّنت السيد كونت أُنجان من أن يحترس من مصيبةٍ مماثلةٍ في تشيريزولي*[1].

6. إنه لأمرٌ محفوفٌ بالمخاطر الهجوم على رجلٍ حرمْتَه من كلّ سبيلٍ للهرب إلا سلاحه، ذلك أن الحاجة مُعلّم حاذق: «**كم هي رهيبةٌ لسعات**

(1) * فرانسوا دو بوربون، كونت أُنجان، هزم ماركيز فاستو، حاكم ميلانو، القبطان في جيش الإمبراطور كارلوس الخامس، في مدينة تشيريزولي الإيطالية سنة 1544م.

الحاجة، حين نستثيرها»[1].

«من يثير العدو مانحًا له عنقه يجعله يؤدي ثمن نصره غاليًا»[2].

7. لهذا منع القائدُ الإسبرطي فاراسيداس ملكَ إسبرطة، الذي كان قد انتصر في المعركة ضدّ المانتينيين (أهل مانتينيا)، من أن يروح لمواجهة آلاف الآرجيّين الذين أفْلتوا من هزيمة جيوشهم من غير خسائر، فبتركهم ينسحبون بحريةٍ كان قد تفادى أن يمتحنهم في شجاعتهم وبأسهم الذي تزداد حدّته بما أصابهم من هزيمة. قام كلودومير ملك أكيتين، بعد النصر الذي حاز عليه، بملاحقة غوندومار ، ملك بورغونيا الذي كان فارًّا، وأرغمه على المواجهة، وهكذا حرمه عناده من نصره، لأنّه هلَك في تلك المعركة.

8. وكذلك، إذا ما كان على المرء أن يختار بين جيشٍ مسلّحٍ بفخامةٍ وغنًى، أو آخر مسلحٍ فقط بالضروري، عليه أن يختار الجيش الأول، وذلكم كان رأي القائد الروماني سيرتوريوس والقائد اليوناني فيلوبويمين والسيناتور الروماني بروتوس والإمبراطور يوليوس قيصر وآخرين غيرهم؛ إذ إنّ الجندي المحلّى بأحسن سلاح وأغناه يكون ذلك له حافزًا ومصدر مجْدٍ، وسببًا في أن يكون أكثر هياجًا في المعارك؛ لأنّ عليه أن ينقذ عدّته الفاخرة التي يعتبرها ملكًا وإرثا له.

9. يقول كسينوفون إن ذلك هو السبب الذي جعل الآسيويين يأخذون معهم نساءهم وخليلاتهم في الحروب، بحليّهن وثرواتهن الثمينة. لكن، يمكننا من جهةٍ أخرى أن نرى بأن الأوْلى أن نحرّر الجندي من همّ البقاء على قيد الحياة على أن نعزّزه؛ لأنّه سوف يخشى أن يغامر بحياته إذا ما كانت عدّته ثمينةً، إضافة إلى ذلك، فإنّ ما يتحلّى به من غنيمةٍ لا يمكن إلا أن يعزّز لدى العدوّ الرغبة في النصر، وقد لاحظنا في بعض الأوقات أن ذلك قد شجع الرومان تشجيعًا في معركتهم ضد قبائل السامنيين.

(1) Portius Latro, Declamationes, in Juste Lipse, V, XVIII.

(2) Lucain, La Guerre civile ou La Pharsale, IV, 275.

10. حين قام أنطيوخوس بتنبيه حنبعل إلى الجيش الذي كان يُعدّ ضد الرومان، بعتاده الغني والرائع، وسأله: «هل سيكتفي الرومان بهذا الجيش؟»، فأجاب حنبعل: «هل سيكتفون به؟ الأمر أكيدٌ حتمًا، مهما كان جشعهم».

11. كان ليكورغوس يمنع عن مواطنيه ليس فقط أن تكون لهم عدَّة حربٍ فاخرةٍ، بل أيضًا أن يسلبوا من العدوّ المهزوم عتاده، كان يقول إنه يرغب «أن يكون للفقر والبساطة شرف مقدار شرف المعركة».

12. خلال عمليات الحصار كما في مناسباتٍ أخرى، حين نستطيع الاقتراب من العدو، نسمح للجنود بتوعّده واحتقاره وشتمه بأقدح الشتائم، وعن حقٍ أحيانًا، فليس بالأمر البسيط أن نسلب منهم كلّ أملٍ في العفو أو التفاهم من خلال إفهامهم أن لا مجال لانتظار ذلك ممن أساءوا لهم، وأن الحل الوحيد هو الآن النصر.

13. لكن ذلك كانت له عاقبةٌ وخيمةٌ على الإمبراطور الروماني فيتليوس، فحين كان في مواجهة الإمبراطور أوتو الذي أضعفته انعدام شجاعة جنوده، الذين فقدوا من زمان العادة على الحرب، والذين أرْختهم ملذات المدينة، أغضبهم كثيرًا بكلماته النابية والجارحة مُعيبًا عليهم جبنهم وأسفهم على نسائهم وحفلات روما، بحيث رفع من همّتهم، وهو ما لا يمكن لأي خطابٍ آخر أن يقوم به، فلقد استجذبهم بنفسه إلى حيث لا يمكن لأحدٍ أن يدفعهم. والحقيقة أن الأمر حين يتعلق بشتائم تمس صميم المرء، يمكنها بسهولة أن تكون أكثر نجاعةً من أمر ذلك الشخص الذي يروح برخاوةٍ للمعركة للدفاع عن قضية ملكه، ويروح لذلك بحماس غير حماسه لقضيته هو.

14. إذا اعتبرنا الأهمية الكبرى للحفاظ على القائد في المعركة، وأنه هو مَن يرتهن به مصير الباقي، وهو الذي يستهدفه العدوّ، فيبدو أننا لا يمكن أن نحتجّ على القرار الذي يأخذه بعض القادة العسكريين

الكبار بالتنكر خلال الاشتباك بين الجيشين. مع ذلك، فإن ما يمكن أن يواجهه المرء من مساوئ في هذه الحال لا يقلّ عما يُسعى إلى تفاديه، بما أن القائد المتنكّر يستعصي على جنوده أن يتعرَّفوا عليه، والشجاعة التي يستمدونها من مثاله ومن وجوده تنقصهم في هذه الحال، إنهم، بما أنهم لا يرون الإشارات والعلامات على حضوره، يعتقدون أنه هَلَك في المعركة أو أنه هرب بنفسه لأنّه لم يجد مخرجًا للمعركة، والتجربة تُبين أنّ موقفًا من الموقفين ينجح تارةً، وتارةً ينجح الآخر.

15. ما حدث لبّيروس في المعركة التي خاض ضد القنصل ليفينوس بإيطاليا يقدم لنا هذا الوجه وذاك لهذا الأمر، فحين أراد التخفّي وهو يحمل سلاح ديموجاكليس*[1] ويمنحه سلاحه، نجا بالتأكيد بنفسه، غير أنه كاد أن يخسر المعركة. والإسكندر الأكبر، ويوليوس قيصر والقائد الروماني لوكولّوس كانوا يحبون أن يثيروا الانتباه لوجودهم في المعركة بسترةٍ وأسلحةٍ باذخةٍ ذات ألوانٍ ناصعةٍ وخاصةٍ. أما الملكان الإسبرطيان أجيس وأجيسيلاوس والقائد الإسبرطي الكبير جيليبوس فعلى العكس من ذلك كانوا يروحون للحرب بمظهرٍ عاديٍّ من غير حُللهم كأباطرة.

16. من بين المآخذ التي أوخذت على بومبّيوس في معركة فارسالوس، أنه أوقف جيوشه لينتظر بأرجلٍ ثابتةٍ قُدوم العدو، وأنا هنا أستعيد كلمات بلوتارخوس التي تفضُل على كلماتي: «لأن ذلك يُضعف من القوة التي يمنحها العَدْو للضربات الأولى، ويحذف في الآن نفسه الانطلاق الذي يرمي بالمقاتلين البعض على البعض الآخر، والذي يملأ صدورهم عادةً بالاندفاع والغضب أكثر من أيّ شيءٍ آخر حين يتصادمون بعنفٍ، بحيث إن شجاعتهم تتقوّى من أثر العدْو والصراخ؛ على العكس من هذا، فإن ذلك التوقف والثبات يجعل حماسهم يخبو ويتجمّد».

17. هذا ما يقول بلوتارخوس عن ذلك الموقف، لكن، ما الأمر لوْ كان

(1) * في الأصل Démogaclès لم نستدل عليه، وغالب الظن أن الكلمة محرفة في الأصل وصوابها «ميجاكليس» Mégaclès.

يوليوس قيصر قد مُني بالهزيمة أمام بومبّيوس؟ أفلن نقول أيضًا، وبالعكس، إن أقوى وضعيةً وأشدّها ثباتًا هي تلك التي يقف فيها الجيش رابط الجأش يستجمع قواه في نفسه ولا يبدّدها، وأنها وضعيةٌ فيها الكثير من الامتياز على وضعية الحركة، والتي تكون قد بدَّدت في العدْو والكرّ نصف نَفَسها؟ هذا عدا أنّ من المستحيل على جيشٍ -وهو جسم مكون من قِطعٍ متنوعةٍ- أن يندفع بغضبٍ في حركةٍ منتظمةٍ، من غير أن يخلخل ترتيبه أو يكسره، وأن الجندي الأكثر رشاقةً من بينهم يدخل في تماسٍ مع العدوّ قبل أن يلحق به رفيقه أو يستطيع إنقاذه.

18. خلال تلك المعركة الرهيبة للأخوين الفارسيّيْن كورش الصغير وأردشير الثاني، قام الإسبّرطي الذي كان يقود اليونانيين المتحالفين مع كورش الصغير بقيادتهم بهدوءٍ للهجوم من غير عجلةٍ، لكن، قبل خمسين خطوةً من الاصطدام جعلهم يعدون آملاً بقِصر المسافة في أن يحافظ على نظامهم ونَفَسهم، مع منْحهم امتياز الاندفاع لهم ولنبالهم ورماحهم. وقد حلّ قادة آخرون هذا الاختيار الصعب بهذه الطريقة: إذا ما هجم عليك العدوّ، انتظرْه ثابتًا في مكانك، وإذا ما انتظرك ثابتًا في مكانه اهجمْ عليه بسرعة.

19. حين استولى الإمبراطور كارلوس الخامس على جنوب فرنسا، كان للملك فرنسوا الأول الاختيار بين أن يسبقه إلى إيطاليا التي كانت في مأْمنٍ من قلاقل الحرب وفتنها، بحيث يحافظ هناك على كامل قواه فيستطيع أن يزود جيشه بالمال والتعزيزات التي يمكن أن يحتاج إليها، كما كان يعلم أن ضرورات الحرب تجبر دومًا على إحداث الدّمار، وهو ما لا يمكن أن نقوم به طوعًا على ما نملك. فالفلاح يتحمل بشكلٍ أسهل الدمار الذي يسبّبه العدو على ذلك الذي يتسبّب فيه معسكره، بحيث يغدو من السهل بذلك اندلاع حركات الانشقاق والفتن. وكان يعلم أيضًا أن السماح بالسلب والنهب، الذي لا يمكن أن يكون مباحًا لجيش على أراضيه، يكون معونةً كبرى للمحاربين في محن الحرب، لأنّ من الصعب على من لا أمل له في الدنيا غير أجْرته أن يظل ملتزمًا بواجبه حين يكون على مقربةٍ جدًا من زوجته وبيته. وأن الهجوم أكثر

إثارةً من الدفاع، وأنّ الرجّة التي تثيرها فينا خسارة معركةٍ من العنف بحيث من المستحيل ألا تمس الجسد بكامله، باعتبار أن ليس ثمّةَ من شعورٍ يكون أكثر عدوًى من الخوف، إذ يستشري لأبسط سببٍ وينتشر بشكلٍ أسرع. وأنّ المدن التي تناهت لها تلك العاصفة وبلغت حتى عتبات أبوابها، والتي استقبلت قادة جيوشها والقشعريرة لا تزال تسري في أوصالهم وقد فقدوا نفَسهم، مؤهلةٌ بقوة في حمّى الفعل لأنّ ترمي بنفسها في أحضان العدوّ.

20. لكن الملك وهو يعلم كلّ هذا، أخذ مع ذلك قراراً بعودة جنوده الذين كانوا وراء الجبال بالعودة وانتظار أن يرى العدو أمامه، فهو قد فكّر بالمقابل أنه وهو بين أهله وذويه لا يمكنه أن يكون في خصاص من الامتيازات، التي ستكون رهن إشارته وبوفرةٍ، بحيث إن المعابر والأنهار سوف تمدّه بالمال والمؤونة بأمانٍ ومن غير حمايةٍ. وأنّ رعاياه سيعبّرون عن تفانٍ أكبر له كلما كان الخطر على مقربةٍ منهم، وأنه إذْ يملك العديد من المدن والأسوار لحمايته، فسيكون عليه هو أن يأخذ المبادرة في المعركة في الوقت المناسب والأكثر حظًا له. وأنه إذا أراد أن يهدّئ الأمور ما دام مقيمًا في أمان، سيراقب العدوّ يفتُر حماسه ويحطّم نفسه بنفسه. فهو كان سيُلاقي على العكس من ذلك العديد من المصاعب لوْ غامر بنفسه في بلدٍ معادٍ له، ولا شيء وراءه أو جنْبه لا يقوم بمحاربته، ولا وسيلة لتجديد قواه إذا ما تفشّى المرض في صفوف جيشه، ولا مكان يضع فيه جرحاه في مأمنٍ، ولا وسيلة لأخذ قسطٍ من الراحة واستعادة أنفاسه، ولا معرفة له بالمكان ولا بالقرى تمكنه من أن يكون في مأْمنٍ من المفاجآت والمزالق، وإذا ما هو خسر الحرب، لن يكون له أيّ طريقةٍ لإنقاذ ما تبقّى من جيوشه.

21. وهكذا لم تنقصه الأمثلة لصالح هذا الحلّ أو ذاك، ولقد اعتبر سكيبّيو الإفريقي أن من الأفضل أن يروح لمهاجمة أراضي عدوه في إفريقيا، على أن يدافع عن أراضيه ويحاربه في إيطاليا، ونعْم القرار كان. لكن بالمقابل، وخلال تلك الحرب نفسها، خسر حنبعل الحرب لأنّه ترك غزو بلدٍ أجنبيٍّ من أجل الدفاع عن بلده، حين ترك الأثينيون العدوّ

فوق أراضيهم للعبور إلى صقلية كان القدر ضدهم. لكن أغاثوكليس ملك سيراقوسة صادفه القدَر بالمقابل حين عبر إلى إفريقيا وترك الحرب وراءه. نحن إذًا على حقّ بالقول إن الحوادث ومخارجها ترتهن في جوهرها، وخاصةً في أوقات الحروب، بالصدفة، التي لا تخضع لعقولنا ولا لحكمتنا، كما تفصح عن ذلك هذه الأبيات:

«غالبًا ما يكون النصر للمُتهّور لا للحذِر
فالصدفة تصم أذنها عن القضايا النبيلة
لتخبط خبط عشواء
لأن قوةً ما تقهرنا حسب قوانينها»[1].

22. لكن إذا أمعنّا النظر في الأمر فيبدو أن مصائرنا وقراراتنا ترتهن أيضًا وتمامًا بالصدفة التي تنفُث في استدلالاتنا العقلية فتنتها وانعدام يقينها.

نحن نتعقَّل بشكلٍ متهوّرٍ محفوف بالمخاطر، كما يقول تيمايوس في محاورات أفلاطون، لأنّ استدلالاتنا العقلية مثلنا تعود بشكلٍ عميقٍ للصدفة.

(1) Manilius, Astronomica, IV, 95-99

الفصل الثامن والأربعون

في الخيْل

1. ها أَنذا قد صرت نحْويًّا، أنا الذي لم يتعلم لغةً ما إلا باستعمالها، والذي لا يعرف بعد ما هو النعت أو الماضي أو الجملة الشرطية أو علامات الجرّ، فأنا سمعت على ما يبدو أن الرومان كانت لهم أنواع من الخيل كانوا يسمونها «المصاحِبة»، التي تُقتاد باليد اليمنى أو من محطات الاستراحة من السفر كي تكون في كامل قوتها عند الحاجة، ومن ثم نقول عن الخيول التي تكون في خدمتنا خيولًا «مصاحبة»، والفرسان الرومان كانوا يسمونها الخيول المروّضة بحيث إنها حين كانت تعدو، تقوم بذلك بكامل قوتها متزاوجةً في ما بينها من غير لجامٍ أو سرجٍ، بحيث كان النبلاء الرومان، حتى وهم بسلاحهم، يقفزون من متن هذا لمتن ذاك في عزّ العدْو.

2. كان رجال الحرب النّوميديون يقودون جوادًا ثانيًا من لجامه كي يغيروا متْنهم في اللحظة الساخنة من المعركة، «**هم الذين كانوا معتادين، كما رجال إسطبلاتنا، على القفز من ظهر جوادٍ لآخر، وقيادة جواديْن والقفز من أحدهما للآخر وهم مدجّجون بالسلاح في وسط المعركة، من الجواد المنهك إلى الجواد المرتاح، إذ إنّ رشاقتهم كانت كبيرةً وجيادهم طيِّعةً**»(1).

3. هناك خيولٌ مروّضةٌ لإنقاذ صاحبها، تهاجم من يشهر سيفه عليه، وتنقض بأقدامها وأسنانها على من يهاجمه ويواجهه، لكن، يحدث لها أن تضرّ بالأصدقاء أكثر من الخصوم، أضفْ إلى ذلك أنك لا يمكنك أن تجعلها تتخلى عمّن تهاجم طالما شرعت في الهجوم عليه، بحيث تظل تحت رحمة المعركة.

4. وكان أرديفيا، قائد الجيوش الفارسية، قد أدّى الثمن غاليًا في منازلته الفردية لأونسيلوس ملك سالاميس، حين امتطى جوادًا من هذا النوع المدرَّب؛ لأنّ ذلك كان سببًا في هلاكه، فقد ضربه مربي خيل أونسيلوس بسيفه المعقوف بين الكتفين بحيث إن الجواد رفع قدميه ضد صاحبه.

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, II, 29.

5. يحكي الإيطاليون أن جواد ملك فرنسا شارل الثامن، خلال معركة فورنوفو تحرر من العدوّ بالركلات والرفس على الأعداء المحيطين به، وأنْ لولا ذلك لكان الملك في عِداد الهالكين، إذ كان ذلك له حظًا سعيدًا.

6. يتباهى المماليك في مصر بأنهم من بين المحاربين من يملكون الخيل الأمهر والأسْرع في العالم، فهي بطبعها وبالعادة تستطيع تمييز العدو الذي عليها الهجوم عليه وركله ورفسه بعد إشارةٍ آمرةٍ من صاحبها، كما أنها قادرةٌ أيضًا على جمع الحراب والنبال خلال المعركة وتقديمها لصاحبها بأمرٍ منه.

7. يقال عن يوليوس قيصر وعن بّومبّيوس الأكبر إنهما كانا، إضافة إلى مزايا أخرى، فارسيْن ماهريْن، فقد قيل عن يوليوس قيصر إنه في شبابه كان يركب الفرس بدون عُدةٍ ولا لجامٍ، ويعدو بمطيته واضعًا يديه خلف ظهره.

8. بما أنّ الطبيعة جعلت من يوليوس قيصر والإسكندر الأكبر عبقريَيْن في فن الحرب، فيبدو أنها جهدَت أيضًا في تسليحهما بطريقةٍ رائعةٍ، فالكلّ يعلم أن بوكيفالاس جواد الإسكندر الأكبر، الذي كانت له رأس ثورٍ، والذي لم يكن يتحمّل أن يمتطيه أحد إلا صاحبه ولا أن يروضه أحدٌ غيره، قد كُرِّم بعد نفوقه وشُيّدت مدينة تحمل اسمه. وكان ليوليوس قيصر جوادٌ كانت له قوائم مثل أقدام البشر مقطوعةً في شكل أصابعه، ولا يتحمل أن يُمتطى أو يروَّض إلا من صاحبه، وقد أهدى تمثالاً أمر بصنعه له إلى الإلهة فينوس.

مونتيني على صهْوة جواده

9. حين أكون على صهوة جوادي لا أترجّل عنه إلا اضطرارًا، فتلك هي الوضعية التي تريحني، سواء كنت صحيحًا أو عليلًا، وأفلاطون ينصح

بركوب الخيل لأنّه أمرٌ صحيٌّ، وبلينيوس يقول أيضًا إنه مفيدٌ غاية الفائدة للمعدة والمفاصل، ولنتابعْ إذًا حديثنا في هذا الموضوع ما دمنا طرقناه.

10. جاء في كتابات كسينوفون أن كورش أصدر قانونًا يمنع من يملك جوادًا من السفر على القدمين، ويقول المؤرخان الرومانيان تروجوس ويوستينوس إن البارثيين كانت لهم عادةً ألا يكتفوا بالحرب على صهوة جيادهم، وإنما يقومون بجميع شؤونهم العامة والخاصة وهم مُمتطينها، كالتجارة والمفاوضات والمناقشات والنزهة، وأنّ الفرق البيّن لديهم بين الأحرار والعبيد هو أن الأوائل يسيرون على جيادهم والآخرين على الأقدام، وهذه المؤسسة كان وراء إرسائها الملك كورش.

11. ثمة في التاريخ الروماني العديد من الأمثلة -وسويتونيوس يلاحظها بالأخص لدى يوليوس قيصر- عن قادة الجيش الذين كانوا يطالبون فرسانهم بالترجُّل عن جيادهم حين يجدون أنفسهم في خطرٍ، حتى يحرموا جنودهم من أيّ أمل في الفرار، وكذلك للامتياز الذي ينتظرونه منهم في هذا النوع من المعركة «**الذي كان الرومان يتقنونه إتقانًا**»، كما يقول تيتوس ليفيوس.

12. ومع ذلك، فإنّ الاحتياط الأول الذي يتخذونه للجْم عصيان الشعوب التي أخضعوا مؤخرًا لهم كان يتمثّل في حرمانهم من سلاحهم وجيادهم، لهذا فإننا نجد يوليوس قيصر يردّد مِرارًا هذه العبارة: «إنه يأمر بتسليم السلاح والجياد والرهائن»، وسلطان الأتراك اليوم لا يسمح لمسيحيٍّ أو يهوديٍّ من أهل الذِّمة في مملكته أن يملك جوادًا.

13. كان أسلافنا، وخاصةً في زمن الحرب مع الإنجليز[1] وخلال المعارك الحاسمة والنظامية، يترجّلون كلهم عادةً عن صهوة جيادهم، كي لا يعتمدوا إلا على قوتهم الذاتية وعلى شجاعتهم وقوة أجسامهم، وهي

(1) في حرب المئة سنة.

أشياء غاليةٌ على النفس مثلها مثل الشرف والحياة. فمهْما كان قوْل خريسانثاس في ما روى كسينوفون، فإنّك إنْ أسلمت قيمتك ومصيرك لجوادٍ، فجروحه ومقتله يؤدي إلى موتك بالنتيجة، ووَجله أو جُموحه يجعل منك شخصًا متهورًا أو جبانًا، وإذا لم يستجب لصوتك أو للمهماز، فشرفك هو ما يتحمل نتيجة ذلك، لهذا ليس من المدهش أن المعارك التي تحدثت عنها آنفًا كانت أكثر حزمًا وضراوةً من تلك التي تتمّ على صهوات الجياد.

«كانوا يكرّون ويفرون
منصورين ومهزومين، إذ لا هؤلاء ولا أولئك
يعرفون الفرار»[1].

14. كانت المعارك في الأزمنة الماضية تمر بشكلٍ أفضل، أما اليوم فهي ليست سوى هزائم: **«الصرخات الأولى والحملة الأولى تقرر مصير المعركة»**[2]، وكل ما نعرّضه لمخاطر كبرى يلزم أن نكون قادرين عليه، وأنا أنصح إذًا أن يختار الجنود الأسلحة الأقلّ طولًا، والتي يتحكمون فيه أفضل، يمكننا أن نعتمد على ضربة السيف أكثر من الرصاصة التي نطلقها من الغدّارة التي تدخل في استعمالها عدة عناصر، من بارودٍ وصوانٍ وحجر النار وزنادٍ، فإذا ما فشل عنصرٌ منها فإن مصيرك يكون في خطرٍ.

15.

«لسنا متيقّنين أبدًا من الضربة التي نقوم بها حين يحملها الهواء
إنهم يُسْلمون للهواء العناية بوصول الطلقة لهدفها
لكن السيف له القوة، وكل شعبٍ محاربٍ
يستعمل السيف في ساحة الوغى»[3].

(1) Virgile, **Énéide**, X, 756.

(2) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXV, 46.

(3) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, VIII, vv. 384 -385.

16. أما الغدّارة، فسأتحدث عنها بتفصيلٍ أكبر حين سأقوم بالمقارنة بين الأسلحة القديمة وأسلحتنا، وعدا الصوت الصاخب الذي تُطلِق والذي تعودتْ عليه اليوم آذاننا، فأنا أعتقد أنها سلاحٌ قليل الفعالية وأتمنى أن نتخلّى يومًا ما عن استخدامها.

17. والسلاح الذي كان يستعمله الإيطاليون، وهو سلاح رمايةٍ ونارٍ في الآن نفسه، كان أرْهب، فهم كانوا يسمّون «فلاريكا» ما يشبه رمحًا بثلاثة أذرعٍ يمكنه أن يخترق جنديًا مُدرّعًا في كلّ مكانٍ من جسمه، وهو كان يُرمى تارةً باليد في المعركة على أرضٍ واطئةٍ، وتارةً بالآلات المستعمَلة في الدفاع عن الأمكنة المُحاصَرة: يغلَّف الرمح بكتّانٍ غليظٍ، ويُدهن بالزيت والقار إذ إنّه يلتهب عند الرماية بحيث إنه حين يخترق الجسد أو الدرْقة يشعله نارًا فيحْرم الجندي من استعمال أطرافه وسلاحه. لكن يبدو لي مع ذلك أن المعركة حين تنتهي بالعراك الجسدي المباشر، تغدو مزعجة للمهاجم، بحيث إنّ تلك الرماح الملتهبة التي تنتشر في ساحة المعركة كانت تشكّل إزعاجًا خلال تشابك الجيوش ومضرّةً للطرفين معًا.

18. وكانوا يستخدمون أيضًا وسائل أخرى صاروا ماهرين في استعمالها، وهي تبدو لنا باهرةً لأننا لم نجربها أبدًا، وهم كانوا بذلك يعوّضون عمّا لنا اليوم من بارود وبُندق، فقد كانوا يرْمون برماحهم بقوة كانت معها تخترق في مرةٍ واحدةٍ رجُليْن يحملان الدرع والدرْقة، كما أن ضربات مقالعهم لم تكن بأقل دقّة ومداها لم يكن بأقلّ بعدًا: «**فلما كانوا يتدربون على رمي الأحجار بالمقلاع على الشاطئ، وهدفهم في ذلك دوائر صغيرةٍ يضعونها في البعيد، فإنهم كانوا يصيبون ليس فقط أعداءهم وإنما يصيبونهم في موضع في الرأس يستهدفونه عَنْوَةً**»[1].

19. وآلاتهم الحربية لم تكن بأقل نجاعةٍ، وكان لها صخبٌ لا يقلّ عن صخب

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXXVIII, 29.

آلاتنا: «**ومع الأصوات الرهيبة التي كانت تطلقها الضربات ضد الأسوار، استبدّ الخوف بل والجزَع بالمحاصَرين**»[1]. أبناء عمومتنا الغاليّون، حين كانوا بآسيا كانوا يكْرهون تلك الأسلحة الجبانة والطائرة، لأنّهم كانوا مدرّبين على المعركة المقرَّبة التي تتطلب شجاعةً ورباطة جأشٍ أكبر. «**ليست سعة الجرح هي ما يخيفهم، خاصةً إذا كانت أكثر سعةً منها عمقًا، فذلك مصدر مجْد لهم. لكن حين يخترق رأس الرمح أو حجر مقلاع جسدهم، من غير أن يترك أثرا بيّنًا، فإنهم حين يفكرون بأن الموت يأتيهم من جرحٍ صغيرٍ كذلك، يستبدّ بهم الغضب والعار ويتدحْرجون على الأرض**»[2]. فذلكم جرحٌ قريبٌ جدًا من الجرح الذي تحدثه طلقة البندقية.

20. كان العشرة آلاف يونانيّ، خلال تراجعهم الطويل الشهير[3]، قد لاقوْا شعبًا كبّدهم خسائر فادحةً بواسطة أقواسٍ كبرى وقويةٍ ونبالٍ طويلةٍ، بحيث إن أمسك بها المرء يمكن أن يرمي بها كرمحٍ ويخرق درقة جنديٍ مسلح، والآلات والمنجنيقات التي ابتكرها ديونيسيوس الأكبر في سيراقوسة لرمي أشياء ثقيلةٍ جدًا وصخورٍ بالغة الضخامة، بقوةٍ كبرى وعلى مدًى طويلٍ، تشبه كثيرًا ابتكاراتنا.

21. عليَّ أن أذكر هنا السلوك المسلّي الذي كان للعالِم اللاهوتي الأستاذ بيير بّول، على ظهر بغلته والذي -حسب ما يروي المؤرخ الفرنسي مونتريليه- كان معتادًا على التجوال بباريس ممتطيًا إياها على طريقة النساء. والمؤلف نفسه يحكي في موطنٍ آخر أيضًا أن الغاسكونيين كانت لهم جيادٌ رهيبةٌ، يروّضونها كي تقف وتعود لتوّها وهي في حال العدْو، وهو ما كان يدهش كثيرًا الفرنسيين والبيكارديين والفلامنديين وقُطّاع الطرق (البْرابَنْسيين) أنفسهم، «لأنهم لم يعتادوا على رؤية ذلك»، حسب قوله.

---

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXXVIII, 5.

(2) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXXVIII, 21.

(3) تراجع العشرة آلاف، الذي رواه كسينوفون في كتابه «أناباسيس» (الحملة).

22. كان يوليوس قيصر يقول عن شعب السّويبيين: «وهم في معركة الفرسان يترجّلون عن جيادهم ليحاربوا راجلين، لأنّهم عوّدوا جيادهم على أن تظل في مكانها خلال ذلك الوقت، ثم تراهم يمتطونها بسرعةٍ عند الضرورة، وليس ثمّةَ -حسب عوائدهم- شيءٌ أكثر جبنًا ولا أشدُّ قبحًا من استعمال صهوة الجواد والدرقة والدرع؛ بل هم يمقتون من يستعملها، وهم حتى ولو كانوا شرذمةً قليلةً العدد لا يهابون الهجوم على عدوٍ أكبر عددًا منهم بكثيرٍ».

23. لقد تملّكني الإعجاب في الماضي بأن يُروَّض جواد بحيث يمكن سياسته بكافة الطرائق، فقط بقضيبٍ والعنانُ موضوعٌ على عنقه، ولقد كان هذا مع ذلك أمرًا عاديًّا لدى شعب الماسيليين، الذين كانوا يمتطون جيادهم من غير سرجٍ أو لجامٍ.

«يمتطي الماسيليون جيادهم عاريةً
ويجهلون اللجام ويوجهونها بعصا»[1].

24. قام الملك ألفونسو، الذي أسّس في إسبانيا طائفة «فرسان الوشاح»، بأن فرض عليهم من بين ما فرض من قواعد، ألا يركبوا لا بغلاً ولا بغلةً تحت طائلة غرامةٍ ماليةٍ. وقد علمتُ ذلك من رسائل غيفارا، وأولئك الذين سمّوا تلك القواعد «حكيمة» كان لهم حكمٌ عليها مخالفٌ لحكمي.

25. في كتاب «رجل الحاشية» نقرأ أنّه في سالف الأزمان كان من العار على رجلٍ نبيلٍ امتطاء تلك الأنواع من الدواب. أما لدى الأحباش، فالأمر كان على العكس تمامًا: فكلما قرُبوا من ملكهم يوحنا الكاهن النَّجشي كلما سعوا إلى امتطاء بِغالٍ عالية طمعًا في الشرف والفخامة.

26. يروي كسينوفون أن الآشوريين كانوا يتركون جيادهم محبوسةً لديهم طالما كانت حرونة وجَموحةً، فقد كان فكّ عقالها وإسراجها يأخذ وقتًا طويلًا، بحيث لكي يتفادوْا مساوئ ذلك البطء لو أنهم هوجموا على

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXXV, 2.

حين بغتةٍ، كانوا لا يُعسكرون إلا في مكانٍ مسيّجٍ بالأسوار والخنادق.

27. كان كورش، وهو معلمٌ عظيمٌ في فن الفروسية يتعامل مع جياده كأنها رفقاء له، ولا يمنحها العلف إلا إذا استحقَّته بعرق تمرينٍ ما.

28. حين كان العوَز يدفع بالسكوثيين إلى الحرب، كانوا يستقون من خيولهم الدم ليرْووا به عطشهم وجوعهم.

«والسكوثي أيضًا الذي يطعَم من دم جواده»[1].

29. أما سكان جزيرة كريت، فحين حاصرهم ميتيلوس ولم يبقَ لهم ما يروون به عطشهم، انتهوْا إلى شرب بوْل جيادهم.

30. إليكم الدليل على أن الجيوش التركية تُقاد وتُرعى بشكلٍ أفضل من جيوشنا: يُقال إن جنودهم لا يشربون إلا الماء، ولا يتناولون غير الأرز واللحم المالح المجفَّف المطحون، وبذلك يسهُل على كلّ واحدٍ منهم حمْل مؤونته على ظهره لمدة شهرٍ كاملٍ، لكنهم يعرفون أيضًا كيف يتغذَّون من دم جيادهم، التي يملّحونها كما التتار وأهل موسكو.

31. حين بلغ الإسبان بلدان الهند الغربية هم وجيادهم، اعتقدت الشعوب الجديدة التي صادفوا، أنهم آلهةٌ أو حيواناتٌ فوق طبيعتهم وأكثر نبلًا منهم، وبعض تلك الشعوب، بعد أن نالت الهزيمة منهم جاء أناسها لطلب الصفْح والسلام منهم مُحمَّلين بالذهب واللحم، وقاموا بالشيء نفسه مع جيادهم، التي وجّهوا لها الخطاب نفسه الذي وجّهوه للجنود، معتبرين أن صهيلها يعتبر كلامًا مستجيبًا لرغبتهم في التفاهم والهدْنة.

32. وفي بلاد الهند الشرقية، كان ركوب الفيل في ما مضى من الأزمان شرفًا ملكيًا ساميًا، يأتي بعده شرف ركوب عربةٍ تجرها أربعة من الخيل، ثم ركوب الجمال، وآخر ذلك وأحطها مرتبةً هو ركوب جوادٍ أو عربةٍ

(1) Martial, **Épigrammes**, II, 4.

يجرها حصانٌ واحدٌ. ويحكي رجلٌ من زمننا أنه رأى الناس بتلك البلاد يمتطون ثيرانًا مُثقلَةً، لها مهمازان ولجامٌ، ويضيف أنه أُعجب بوسيلة النقل تلك.

33. حين كان كوينتوس فابيوس ماكسيموس روتيليانوس يحارب قبائل السامنيين، ورأى أنّ فرسانه لم يستطيعوا فلَّ صفوف جيوش العدوّ بالرغم من قيامهم بثلاث حملاتٍ أو أربع، اتخذ هذا القرار: أطلق العنان لخيولهم بأقصى ما فيها من سرعة هامزًا إياها بقوةٍ، بحيث لا يمكن لأحد أن يوقفها، ثم مرّ بفرسانه وسط الأسلحة والجنود صادِمًا إياهم ومُطيحًا بهم أرضًا، وفتح بذلك السبيل لجنوده المشاة كي يستكملوا النصر.

34. وذلك ما فعله أيضًا القنصل الروماني كوينتوس فولفيوس فلاكّوس ضد الكلتيبيريين: «**ستجعلون الصدام أعنف وأشدَّ إذا ما أنتم أطلقتم العنان للخيل التي ترسلونها على العدوّ، إنها مناورةٌ يا ما نجحت في الماضي بحيث إنها تُعتبر شرفًا للفرسان الرومان، فحين يُطلق العنان للجياد فإنها تفُلُّ مرّتيْن صفوف العدوّ، ذهابًا وإيابًا، مكسرةً رماحه، مُسفِرةً أحيانًا عن مجزرةٍ فيهم**»[1].

35. في سالف الزمن، كان دوق موسكوفيا[2] يَدين بهذه الميزة للتّتار: فحين كانوا يبعثون له بالسفراء، كان عليه أن يسير أمامهم راجلاً ويمنحهم كوبًا من حليب الناقة -وهو شرابٌ يعتبرونه ألذّ شراب- وإذا ما هم عَبّوا منها بعض الجُرْعات ووجدوا فيها شعْر جيادهم، يكون عليه أن يلحسها باللسان.

36. تعرض الجيش الذي قام به السلطان العثماني بايزيد الثاني بالحملة على روسيا إلى عاصفةٍ ثلجيةٍ رهيبةٍ، بحيث لكي يحمي البعض نفسه

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XI, 40.

(2) هو الاسم القديم لمنطقة موسكو وأحوازها، وكان يطلق أيضا حتى القرن السابع عشر على روسيا بكاملها [المترجم].

منها ويقلّل من وقْع البرد جاءتهم فكرة قتل خيلهم وبقْر بطنها لكي يحتموا من ذلك فيها والاستفادة من تلك الحرارة الحيوية.

37. أما بايزيد الأول، وبعد تلك المعركة الضّارية التي هزمه فيها تيمورلنك، ففرّ على فرسه العربي الأصيل لا يلوي على شيءٍ، لكن ما إنْ كان يعبر غديرًا، حتى اضطر إلى أن يتركها تروي عطشها، وهو ما جعل الفرس من الرخاوة بحيث ما لبث أن لحق به رجال تيمورلنك. يُقال أيضًا إننا حين نترك الجياد تتبول نجعلها رخوةً، غير أني أعتقد بالأحرى أنه حين ترك فرسه ترْتوي كان ذلك مصدرًا لتقويتها.

38. حين مرّ الملك كرويسوس قرب مدينة سارديس وجد مراعيَ مليئةً بالثعابين، كانت جياد جيوشه تلتهمها بنَهمٍ، وهو ما اعتبره هيرودوتس فألًا سيّئًا على شؤونه.

39. نحن نسمي «جوادًا كاملاً» ما له عرْفٌ وأذنان، بحيث لا نبيع الجياد الأخرى التي لا تتوفر على ذلك. حين ألحق الإسبرطيون الهزيمة بالأثينيين في صقلية، وعادوا في حفلٍ بهيجٍ إلى مدينة سيراقوسة، قاموا من بين ما قموا به من تحدياتٍ وقحةٍ بقصِّ شعر جياد المهزومين، مُستعرضينها كذلك خلال حفل نصرهم.

40. حارب الإسكندر الأكبر الداهيين، أحد شعوب السكوثيين، وكان جنودهم يروحون إلى الحرب مثنى مثنى بعدتهم وسلاحهم مُمتطين الجواد نفسه، لكن في حِمى المعركة، يترجّل أحدهما ويحاربان هكذا، تارةً راجلَيْن وتارةً ممتطيَيْن الجواد، كلٌّ بدوره.

41. أنا لا أعتقد أنْ ليس ثمّةَ شعبٌ يمكنه أن يحوز النصر علينا في مجال المهارة والرشاقة في ركوب الخيل. ومع ذلك فإن عبارة «فارسٌ جيدٌ» تعني في عوائدنا الفارس الهُمام لا الماهر، والفارس الأكثر علْمًا والأشدّ ثقةً وقدرةً على التحكم في جواده الذي عرفت كان حسب رأيي هو

السيد كارنافاليه، الذي كان في خدمة ملكنا هنري الثاني.

42. رأيت رجلاً يقف على صهوة جواده يتركه يعدو ويرمي بالسرج أرضًا، ثم يعود ليلتقطه ويسرّج الجواد، ويجلس عليه، كلّ هذا وهو مطلقٌ العنان لمطيّته. وحين مرّ فوق طربوش، التقطه من الخلف بسهام قوسه، إذ إنّه كان قادرًا على التقاط أيّ شيءٍ من الأرض ورجله في المهماز، وكان يقوم بحيلٍ مماثلةٍ ويستمدّ منها ما يعيش به.

43. في زمني، شهد الناس في القسطنطينية[1] رجلَيْن حين ينطلق حصانهما يرميان بنفسيهما على الأرض ويعاودان امتطاءه كلّ بدوره باستعمال أسنانهما فقط. وثمة رجلٌ آخر يقف بين جوادَيْن برجلٍ في كلّ سرجٍ منهما حاملًا بين يديه ممثلًا آخر والجوادان في عزّ عدْوهما السّريع، وهذا الأخير منهما، ما إن يقف حتى يقوم بالرّماية بقوسه، والجواد يعدو، على هدف يصيبه دومًا. وآخرون يعدون على متن جوادٍ مطلوق العنان، وأرجلهم في السماء ورأسهم على السرج بين رؤوس السيوف المعقوفة المشدودة إلى عدّة الفرس.

44. رأيت في طفولتي أمير سولمونا في مدينة نابولي الإيطالية يقوم بألعابٍ عديدةٍ على جوادٍ جامحٍ، ممسكًا بين ركبتيْه وأصابع قدميه قطعًا نقديةً، كما لو أنها سُمِّرت هناك، كي يُبين عن ثبات ركوبه.

(1) Lebelski, «*Jeux representés à Contantinople en la solennité de la circoncision du fils d'Amurath*», 1583.

الفصل التاسع والأربعون

في العوائد القديمة

1. أتفهّم جيدًا ألا يكون للناس لدينا إلا عوائدهم وتقاليدهم الخاصة كأنموذجٍ وقاعدةٍ للسلوك؛ ذلك أن العيب الشائع، لا فقط بين أناس «الطبقات الدنيا»، وإنما لدى كلّ الناس تقريبًا، أنهم لا يتصوّرون العيش بشكلٍ آخر إلا تبعًا لما هو جارٍ في مسقط رأسهم. قد أتفق مع من يعتبر أن سلوك القائد الروماني فابريكيوس أو القنصل الروماني لايليوس متوحش لأنّه عريان ولا يتوافق مع موضتنا، لكني آسف أن أرى الناس ينصاعون بسهولةٍ للخداع والعماء بالعوائد الحالية، إلى حدّ أنهم يغيرون رأيهم ووجهة نظرهم كلّ شهر إذا ما اقتضت الموضة ذلك وبالرغم مما يعتقدونه حقًا.

2. حين كان مشدّ الصِّدار لدينا في مستوى الصدر، كان الناس يقدمون كافة العلل لتبرير مكانه. سنوات بعد ذلك ها هو يصير بين الفخذين، بحيث لم يعد الناس يولون بالاً للاستعمال القديم الذي باتوا يعتبرونه بليدًا وغير محتملٍ، فطريقة اللباس الحالية تجعلنا نستنكر القديمة، بيقينٍ كبيرٍ وإجماعٍ عريضٍ بحيث نخال الأمر ضربًا من الجنون الذي يقلب أحوال عقولنا.

3. وكما أن تقلباتنا في هذا المضمار تكون مباغتةً وقصيرة الأمد، وأنّ خيال كافة الخياطين في الدنيا لا يمكن أن تقدم لنا ما يكفي من الجديد، فلا يمكن عادةً تفادي أن تعود الأشكال التي استنكرنا سابقًا لتغدو ذات حظوةٍ، بحيث إن الموضة التي كنا نتّبع تصير موضوعًا للازدراء بعد ذلك للتوّ، إن حكمنا يمر في مدة خمس عشرة أو عشرين سنةً، بثلاث أو أربعة آراءٍ لا تكون فقط مختلفةً، وإنما متباينةٌ تمامًا في ما بينها بنزقٍ وعدم ثباتٍ مدهشيْن، والأكثر ذكاءً من بيننا ينصاع لهذا التقليد المتناقض، ومن غير أن يدري يكون بصره وبصيرته مفتونيْن بها.

4. أريد هنا أن أقوم بجرد للعوائد القديمة التي تختزنها ذاكرتي، بعضها يشبه عوائدنا، وبعضها الآخر مختلف عنها، حتى يكون حكمنا عليها أوضح وأكثر حزمًا، بما أنّ ذلك التنوع المستمر للأمور الإنسانية سيكون حاضرًا في ذهننا.

5. ما نسميه المسايفة كان معروفًا لدى الرومان حسب ما قال يوليوس قيصر: **«إنهم يديرون عباءتهم على ذراعهم الأيسر ويسلون سيوفهم من غمدها»**[1]. وهو يلاحظ أيضًا في وقته ذلك العيب السائد لدينا المتمثل في توقيف المرء للمارة الذين يصادفهم في الطريق، وإكراههم على الإفصاح عن هويتهم، واعتبار رفضهم للجواب شتيمةً وسببًا للنّزال.

6. كان القدماء يأخذون دومًا حمامًا قبل الأكل، وهم كانوا يقومون بذلك باستمرار مقدار ما نغسل نحن أيادينا. كانوا في الأول لا يغسلون إلا سواعدهم وأرجلهم، لكن فيما بعد، وتبعًا لتقليد دام قرونًا عدة في أغلب بلاد الدنيا، صاروا يستحمون عرايا بماء معطَّر، بحيث كانوا يعتبرون من البساطة استعمال الماء لوحده في حماماتهم، والأكثر أناقة وتمدُّنًا من بينهم كانوا يعطّرون أجسادهم على الأقل ثلاث أو أربع مراتٍ في اليوم، وكانوا ينتفون شعر جسمهم مثلما تعودت النساء الفرنسيات على القيام بذلك في جباههن من فترةٍ قصيرةٍ.

«تنتف شعر صدرك وذراعيك ورجليك»[2].

«ورغم أنهن كانت لهن مَراهم لهذا الغرض:
كانت المرأة تطلي بشرتها بالمراهم أو تفركها بالطباشير»[3].

7. كانوا يحبون التمدّد على سُررٍ رخوةٍ[4] ويعتبرون النوم على السرير العادي محنةً، وكانوا يتناولون أطعمتهم ممدّدين على السرُر مثل الأتراك اليوم.

«ثم إن إينياس المبجّل من علياء سريره
بدأ بهذه الكلمات»[5].

- وقيل بأن كاتو الصغير منذ معركة فارْسالوس، زهد في الحياة بسبب الحال

(1) César, **La Guerre civile**, I, LXXV.
(2) Martial, **Épigrammes**, II, LXII, 1.
(3) Martial, **Épigrammes**, VI, XCIII, 9.
(4) Sénèque, **Épitres, ou Lettres à Lucilius**, CVIII.
(5) Virgile, **Énéide**, II, 2.

السيئة للشؤون العامة، وكان يتناول طعامه جالسًا متبنيًا بذلك حياة التقشّف.

8. كان الناس القدماء يقبّلون يد الشخصيات العظيمة تشريفًا وتزلّفًا لها، أما بين الأصدقاء فقد كانوا يقبلون بعضهم بعضًا للتحية مثلهم مثل سكان مدينة البندقية[1].

«ولكي أهنئك، سأمنحك قبلاتٍ وكلماتٍ عذبةً»[2].

9. ولكي يحيّي امرؤٌ شخصًا جليلًا أو يسأله طلبًا كان يقوم أيضًا بلمس ركبته، وكان الفيلسوف بَاسيكليس، أخو الفيلسوف كراتيس، يضع يده على الأعضاء الجنسية عِوَضًا عن الركبة، وحين صدّه الشخص الذي توجّه له بفظاظةٍ، قال له: «ماذا؟ أليس هذا الجزء منك مثل الجزء الآخر؟».

10. كان القدماء مثلنا يتناولون الفواكه في نهاية الطعام، وكانوا يمسحون مؤخرتهم -ولنترك للنساء الاحتراس من الكلمات الفاضحة!- بإسفنجةٍ، لهذا فإن كلمة «إسفنجة» تعتبر كلمةً معابةً في اللاتينية، وكانت تلك الإسفنجة مربوطةً بطرف عصا. كما تشهد على ذلك قصة ذلك الرجل الذي جاؤوا به للسيرْك كي يكون مضغة سائغة للحيوانات المتوحشة أمام الشعب، والذي طلب الإذن في قضاء حاجته، وبما أنه لم يكن له من سبيلٍ لكي ينتحر، حشر العصا والإسفنجة في حلقه فمات اختناقًا، وكانوا أيضًا يمسحون برازهم بصوف معطّر.

«أنت لن أفعل لك شيئًا
لكن حين سأمسح ذكَري بالصوف»[3].

11. وكان في روما، في ملتقيات الطرق، أواني وأحواضٌ خشبيةٌ رهن إشارة المارة حتى يتبوّلوا فيها:

(1) لا يتحدث مونتيني هنا عن سماع، وإنما هو يتحدث انطلاقًا من ملاحظات شخصية، أيّ حوالي 1582، بعد رحلته إلى ألمانيا وإيطاليا.

(2) Ovide, **Pontiques**, IV, 9.

(3) Martial, **Épigrammes**, XI, LVIII, 11.

«وغالبًا ما كان الأطفال يحلمون بأنهم يرفعون ملابسهم أمام الحوض الذي يتبولون فيه»[1].

12. وكانوا يتناولون وجبةً خفيفةً بين أوقات الطعام، وكان هناك في الصيف باعة للثلج لتبريد الخمر، لكن كان هناك من يستعملون الثلج في خمرهم حتى في وقت الشتاء لأنّهم يجدونه غير باردٍ بما يكفي في ذلك الفصل، وكان للناس العظماء غلمانهم كي يسقوهم الشراب، و«خدمهم البتّارون» ليقطعوا لهم لحومهم، كما كان لهم «بهاليلهم» لكي يسلّوهم، وكانوا يقدمون لهم اللحم على مواقد فوق طاولات طعامهم وقت الشتاء، كما كان لهم نوع من المطابخ المتنقلة، كما رأيت ذلك، ومعها تُنقل كافة الأواني الصالحة للطبخ:

«احتفظوا لأنفسكم بهذه الأطباق، أنتم أغنياء الدنيا الجميلة فنحن لا نتحمّل تلك المطابخ المتنقّلة»[2].

13. وكانوا خلال الصيف يقومون في الغرف الواطئة بإسالة الماء الزُّلال البارد، في قنوات كانت تتضمن عددًا هائلًا من الأسماك الحية، يقوم الحاضرون بفرزها والإمساك بها باليد لكي يطهوها كلّ واحدٍ على هواه، والسمك كان له دومًا ولا يزال له حتى اليوم تلك الحظوة المتمثلة في أنّ الشخصيات المهمة والعظيمة تسعى دومًا لمعرفة إعداده، والأكيد أنّ مذاقه ألطف وألذّ من اللحم، على الأقل لديّ.

14. في الحقيقة، نحن لا نفعل فقط سوى السعي إلى مُضاهاة أسلافنا القُدامى في كافة مجالات البهاء والملذات والابتكارات الشهوانية واللطافة والفخامة، فإذا كانت إرادتنا فاسدة فسادَ إرادتهم، فإن إمكاناتنا أقلّ من إمكاناتهم، وقوانا ليست بقادرةٍ على مضاهاة قواهم في مجال الرذيلة كما في مجال الفضيلة، فهما معًا يجدان مصدرهما في قوة الروح التي كانت أكبر وأشدَّ بكثيرٍ مما لدينا بحيث لا سبيل للمقارنة بينهما، فكلما كانت النفوس أقل قوةً كلما كانت وسائلها للقيام بالخير كما بالشر أقلّ وأندَر.

(1) Lucrèce, **De la Nature**, IV, 1020-21.

(2) Martial, **Épigrammes**, VII, XLVIII, 4.

15. كان مركز الشرف في المائدة لدى القدامى في الوسط، وأن يحضر المرء قبل ذلك أو بعده، لم يكن ذا قيمةٍ أو دلالةٍ حين يتكلمون أو يكتبون، كما نرى ذلك بالتأكيد في كتاباتهم، فهم كانوا يقولون: «أوبّيوس ويوليوس قيصر» كما «يوليوس قيصر وأوبّيوس»، كما كانوا يقولون: «أنا وأنت» كما «أنت وأنا» من غير تفضيلٍ.

16. لهذا فقد لاحظت من زمان في كتاب بلوتارخوس «حياة فلامينيوس» بالفرنسية، موطنًا يبدو فيه أنّ المؤلف، وهو يتحدث عن الغيرة التي تولّدت بين الإيتوليين والرومان بسبب المجد الذي يعود لهم من معركةٍ انتصروا فيها معًا، يمنح بعض الأهمية لكون بعض الأناشيد اليونانية تسمي الإيتوليين قبل الرومان، هذا إلا إذا كان ثمّةَ بعض اللَّبس في الترجمة الفرنسية.

17. حين كانت النساء يرخْن الحمامات، كنّ يستقبلن فيها الرجال، بل ويستعملن عبيدهن لتدليكهن ودهنهن بالمراهم.

«ثمة عبدٌ، بوزِرة سوداء، واقفٌ رهن إشارتك
حين في الحمام الساخن تُبينين عن مفاتنك»[1].

وكن يطلين بشرتهن بمسحوقٍ للتخفيف من الحرارة.

18. يقول القديس سيدونيوس أبوليناريس إن الغاليين القدماء كانوا يحلقون من الأمام والخلف الشعر الطويل، وهذه الطريقة هي التي نرى اليوم أن الموضة المتأنّثة والمتحررة قد استعادتها في عصرنا.

19. كان الرومان يؤدون للبحارة ما يَدينون به لهم للعبور حين كانوا يصعدون للسفينة، أما نحن فلا نؤدي الثمن إلا عند الوصول للمرسى.

«ولكي يستخلص البحارة الأداء من الركاب وإسراج البغلة

(1) Martial, **Épigrammes,** VII, 3.

تمرّ ساعةٌ»[1].

20. وكانت النساء تستلقي على طرف السرير المقابل للحائط. لهذا أطلقوا على يوليوس قيصر أنه «**طرف سرير الملك نيكوميديس**»*[2].

21. كانوا يستعيدون نفوسهم وهم يشربون، وكانوا يعمّدون خمرهم.

«أيُّ غلام، سيقوم عاجلا
بتخفيف حرارة النبيذ
بذلك الماء الزلال السائل قربنا؟»[3].

22. وكان السلوك الوقح لخدمنا ملحوظًا أيضًا في ذلك الوقت.

« أيها الإله يانوس، يا من لا تعبث به الأصابع من خلفه
ولا تسخر من ورائه الأيدي مثل أذنيْ حمار بيضاويْن
ولا يهزأ به لسان متدلٍّ لكلب بولياني عطشان»[4].

23. كانت النساء الأرجيليات والرومانيات يرتدين لباس حدادٍ أبيضَ، كما كان ذلك لدينا أيضًا في الماضي، وكما عليهن أن يستمررن في ارتدائه حسب رأيي.

24. لكن ثمّةَ كتبٌ كاملةٌ في هذا الموضوع.

(1) Horace, **Satires**, I, 5.

(2) * إشارة إلى علاقته المثلية بنيكوميديس.

(3) Horace, **Odes**, II, 11, 18-20.

(4) Horace, **Odes**, II, 11, 18-20.

الفصل الخمسون

عن ديموقريطوس وهيراقليتوس

1. الحكم العقلي أداةٌ نافعةٌ في كلّ الموضوعات، وهو يُستخدم في كلّ شيءٍ، لهذا أستغل كافة الفرص كي أمارسه هنا لكتابة «المقالات»، وإذا تعلق الأمر بموضوعٍ لا أعرفه، أقوم باختباره فيه، فأنا أسبر معبر الوادي من بعيدٍ، فإذا ما وجدته أعمق من قامتي، أبقى على الشطّ، وكوني أعترف بعجزي عن العبور هو ميزةٌ من ميزات أثر الحكم، وتلك التي يكون أكثر فخْرًا واعتزازًا بها، وأنا تارةً أجرّبه في موضوعٍ فارغٍ، أيّ موضوعٍ تافهٍ، كي أرى إنْ كان قادرًا على منحه هيئةً وتعزيزه وتفصيله، وتارةً أقوده نحو موضوعٍ نبيلٍ ومطروقٍ لا يمكنه أن يضيف إليه شيئًا مبتكرًا، بما أن الطريق مطروق جدًا بحيث لا يمكنه أن يسير إلا على خطى الغير، فيتسلى حينئذٍ باختيار السبيل الذي يبدو له الأفضل، ومن بين مئات السُّبل يقول إن هذا أو ذاك هو الاختيار الأفضل.

2. أختار أول موضوع يطرق ذهني بالصدفة، فكلها تبدو لي جيدةً، ولا أسعى أبدًا إلى تناولها كاملةً، لأني عاجزٌ عن احتواء كلِّية أيّ شيءٍ كان، بل إن من يعِدوننا بفعل ذلك لا يقومون بأكثر مني، وأنا أمسك من بين مئات أطراف الشيء وأوجهه بطرفٍ ووجهٍ واحدٍ، أحيانًا كي ألامسه، ولكي ألحسه فقط، وأحيانًا كي أقضمه حتى العظم، أغرس فيه مِشْرحي لا عرْضًا وإنما عمقًا، وغالبًا ما أحب الإمساك بالأشياء من جانبها الغريب.

3. كنت سأغامر بمعالجة موضوعٍ ما في العمق لو كنت لا أعرف جيدًا نفسي، ولو كنت أخادع نفسي عن إمكاناتي، فإذا ما أخذت كلمةً من هنا وأخرى من هناك مُبتَسرةٌ من سياقها، من غير هدفٍ ومن غير أن أعد قارئي بأي شيءٍ، لن أكون مضطرًا لأنّ أستنبط منها شيئًا مهمًا، ولا أن ألتزم بها من غير تغيير رأيي حين يحلو لي ذلك، فقد أنصاع للشك وعدم اليقين، بل للجهل، وهي الحال التي تستبد بي عادةً.

4. كل حركة تكشف عنّا. ونفس يوليوس قيصر، التي تُبدي عن ذاتها حين تمارس التنظيم وقيادة معركة فارسالوس، هي التي تبرز في تنظيم لعبٍ لطيفةٍ ومسليةٍ. نحن نحكم على جوادٍ ليس فقط حين يكون في وقت

الترويض، لكن أيضًا حين يمشي بتؤدةٍ وحين يكون في راحةٍ في الإسطبل.

5. من بين وظائف النفس، ثمّةَ وظائف حقيرةٌ، ومن لا يراها أيضًا في هذه الصفة فالأكيد أنه لا يعرفها بتاتًا، وربما حين تسير على هواها نلاحظها أفضل، فريح الأهواء يمسها في نبل استعدادها، وينضاف لذلك أنها تنطبق وترتبط كليةً بكل هوًى من غير أن تهتم بأكثر من هوًى واحدٍ، النفس لا تتعامل مع هوًى بما هو وإنما بالنظر للفكرة التي لها عنه، فالأشياء في ذاتها قد يكون لها وزنها وأبعادها وخصائصها، لكنها في باطننا، تشذبها النفس على هواها.

6. يعتبر شيشرون أن الموت شيءٌ رهيبٌ، وهو لدى كاتو الأوتيكي مرغوبٌ فيه، أما سقراط فلا يهتم به. الصحة والضمير والسلطة والعلم والغنى والجمال -كما مُقابلاتها- تترك لَبوسها في العتبة، وتُلبسها النفس لَبوسًا جديدًا، بالألوان التي تبتغيها: أسمر وأخضر وناصع وغامق وصارخٌ ولطيفٌ وعميقٌ وسطحيٌ، وكل نفسٍ تقرّر على طريقتها ذلك؛ لأنّ النفوس لم تقرر أسلوبها ولا قواعدها ولا نماذجها بالإجماع، فكل نفسٍ سيدةٌ في بيتها.

7. علينا إذًا ألا نعتبر ذريعةً المزايا الخارجية للأشياء، إذ ليس علينا أن نواجه غير ذواتنا، فخيرنا وشرّنا لا يرتهنان بنا، لنوجِّهْ لذواتنا أعطياتنا ونذورنا لا إلى «القدَر»، فهو لا سلطان له على شخصيتنا، إن شخصيتنا بالعكس هي التي تجرّه وراءها وتمنحه شكله.

لعبة الشطرنج

8. لماذا لا أحكم على الإسكندر الأكبر وهو يتجاذب أطراف الحديث على المائدة، أو لاعبًا الشطرنج؟ أيّ حبلٍ في روحه كان يُستثار بهذه اللعبة الغبية؟ إنها لعبةٌ أكرهها وأنفر منها، لأنّها ليست لعبةً بما يكفي، وهي

تسلينا بجديةٍ بالغةٍ، بحيث أخجل من أن أمنحها اهتمامًا يكون أوْلى بشيءٍ آخر خيّر. لم يكن الإسكندر الأكبر منساقًا تمامًا إلا مع لعبة الشطرنج، حين كان يستعد لمروره الشهير إلى بلاد الهند، ومثله ذاك الآخر حين يسعى إلى استشفاف معنًى بيتٍ شعريٍ يرتهن به مصير البشرية.

9. انظروا كيف تتغير النفس فينا وتتضخّم بهذه التسلية السخيفة، وكيف تتمدّد أعصابها؛ كما لو أنها تمنح لكل واحدٍ للتوّ فرصةً أن يعرف نفسه ويحكم عليها حقًّا! ليس ثمّةَ من ظروف أخرى أتفحص فيها نفسي وأمحّص فيها كليةً، أيّ هوًى لا يحركنا؟ الغضب والإحباط والكراهية وفقدان الصبر؟ والشخص العنيف يكون بحاجةٍ للغلبة في مضمارٍ سيكون فيه معذورًا إن صار مغلوبًا؛ ذلك أنّ إبراز التفوق النادر وغير العاديّ في نشاطٍ تافهٍ لا يليق بشخصٍ شريفٍ، وما أقول بخصوص هذه الحال يمكن أن ينسحب على كلّ ظرفٍ من الظروف، فكل جزءٍ من ذات شخصٍ ما، وكل نشاطٍ له، غالبًا ما يكشف له نفسَه مثله في ذلك مثل أيّ شخصٍ آخر.

10. من بين الفيلسوفيْن ديموقريطوس وهيراقليتوس، كان الأول يعتبر قدَر الإنسان سخيفًا وتافهًا، بحيث لا يُبدي أمام الملأ سوى عن وجهٍ ساخرٍ وباسمٍ؛ أما الثاني فكان بالمقابل يُبين عن الشفقة والرأفة على هذا القَدر نفسه، بحيث يُبدي عن وجهٍ دائم الحزن وعينين دامعتين على الدوام.

ما إن يضعا أقدامهما خارج البيت،
«حتى كان أحدهما يضحك والآخر يبكي»[1].

11. وأنا أفضّل الموقف الأول من بينهما؛ لا لأنّ الأرْوق للمرء أن يضحك مِن أن يبكي، ولكن لأنّه موقفٌ أكثر مقتًا ويُدِيننا أكثر من الآخر، يبدو لي فعلًا أننا لا يمكن أن نتعرّض للمقت على قدْر ما نستحق؛ فالشكوى

(1) Juvénal, Satires, X, 28.

والرثاء يفترضان بعض الاعتبار للشيء الذي نرثي له. أما الشيء الذي نسخر منه فهو ما لا قيمة له. وأنا لا أعتقد أن فينا من الأسى مقدار ما فينا من العبث، ومن الشرّ مقدار ما فينا من الغباء. ففينا من الشر أقل ممّا فينا من التفاهة، بحيث إننا أقل تعاسةً وأكثر حقارةً.

12. لهذا فإنّ ديوجينيس الذي كان يتسكع على هواه غير مُبالٍ بأي بشيءٍ ويسخر من الإسكندر الأكبر، حين كان يعتبرنا جميعًا مثل ذبابٍ أو زِقّ مليءٍ بالريح، كان حكَمًا كثير القسوة ومن ثم أكثر عدلًا حَسَبي من الفيلسوف طيمون الفليوسي، الذي كان يُنعت بعدو الناس، فما نكره نأخذه على مَحمل الجدّ. وطيمون كان يريد بنا شرًّا، ويرغب بحماس في دمارنا، ويتهرّب من مجتمعنا باعتباره مجتمعًا خطيرًا، مجتمع الأشرار واللئام؛ أما ديوجينيس فهو على العكس من ذلك كان لا يهتم كثيرًا لأنّ نزعجه أو أن نغيّره بعدْواننا، وإذا كان يتهرّب من رفقتنا، فذلك لأنّه لم يكن يخشاها وإنما يكرهها، فهو لم يكن يرى أننا قادرون على فعل الشر ولا الخير.

13. حين اقترح بُروتوس على ستاتيليوس أن ينضمّ للمؤامرة ضد يوليوس قيصر، كان جوابه من الطبيعة نفسها، فقد اعتبر أن العملية عادلةٌ، لكن الرجال لا يستحقون ذلك. لقد كان يتوافق بذلك مع مذهب هيجيسياس القائل إن الحكيم ليس عليه القيام بشيءٍ إلا لنفسه. وكذلك مع مذهب ثيودور تيرون، الذي كان يزعم أنّ من غير الصحيح أن يخاطر الحكيم بحياته من أجل مصلحة بلده ويعرض الحكمة للخطر من أجل حمقى. فإذا كانت وضعيتنا الفردية سخيفةً فهي التي تسمح لنا أيضًا بأن نسخر منها.

الفصل الحادي والخمسون

عن غرور الكلمات

1. قال أحد بلاغيّي العصور القديمة بأن مهنته تتمثّل في العثور على الأشياء الصغيرة وجعلها تبدو كبيرةً؛ مثله مثل الإسكافي الذي يمكنه صنع أحذيةً كبيرةً لأرجلٍ صغيرةٍ، وفي إسبرطة جُلِد لأنَّه تباهى بأنه يمارس فنًّا خادعًا وكاذبًا. وأعتقد أن أرخيداموس، الذي كان ملك ذلك الفن، لم يكن ليصاب بدهشةٍ كبرى وهو يسمع جواب ثوكيديديس، الذي سأله من كان الأقوى في المصارعة، بيريكليس أو هو، إذْ قال: «من الصعب الحسم في ذلك، فأنا حين أطرحه أرضًا وأنا أصارعه، يُقنع كلّ من رأوه بأنه لم يسقط أرضًا، فيكون هو الفائز».

2. أولئك الذين يخضّبون وجوه النساء ويجمّلونها لا يفعلون سوءًا كبيرًا، لأننا لن نفقد شيئًا إذا نحن لم نرَهن في حالتهن الطبيعية؛ أما الآخرون البلاغيون، فإنهم يجهدون في خداع أفهامنا لا عيوننا وفي إفساد الأشياء في جوهرها ذاته. والدول التي استمرت طويلًا في حكمها ونظامها الجيد كما في كريت وإسبرطة لم تعرْ كبير اهتمامٍ للخطباء والبلاغيين.

3. يعرّف أرسطو البلاغة بشكلٍ جيد بالقول إنها علم إقناع الشعب، أما سقراط وأفلاطون فيعتبرانها فن الخداع والتملّق، وأولئك الذين يزعمون العكس في التعريف العام الذي يقدمونه لها يبرهنون على ذلك في كافة مبادئهم.

4. والمسلمون يمنعون تدريسها لأبنائهم لأنّهم يعتبرونها غير مفيدةٍ[1]؛ أما الأثينيون، فحين أدركوا أن استعمالها ضارٌّ، بالرغم من تعاطي الناس في المدينة لها، فقد أمروا بحذف جزئها الأهم المتمثل في إثارة أهواء الناس، كما استهلالها وخاتمتها.

5. البلاغة أداة ابتُكرت لتحريك جمهورٍ أو شعبٍ في حال عصيانٍ والتلاعب به، وهي لا تُستعمل إلا في الدول المريضة مثل الطب للجسد العليل. ففي البلدان التي تكون فيها العامة والجهلة، أيّ كلّ الناس،

(1) لا أدري من أين جاء مونتيني بهذا الحكم؛ فقد عرف عن العرب اهتمام بالغ بعلوم اللغة والبلاغة والبيان منذ القرن الثامن. ولهم في ذلك مؤلفات وأعلام كثيرة كالجرجاني والجاحظ وغيرهما [المترجم].

تملك السلطة، كما كان الحال في أثينا ورودُس وروما، تكاثر الخطباء، والحقيقة أن في تلك الدول لم يكن هناك أناس كُثُرٌ استطاعوا اكتساب تأثيرٍ كبيرٍ في إنقاذ الفصاحة. فبومبّيوس ويوليوس قيصر وكراسّوس ولوكولّوس ولنتولوس وميتيلّوس نهلوا منها السند الضروري للتسامي إلى المستوى الذي بلغوه في النهاية. وذلك كان لهم أمرًا أجدى من السلاح، على خلاف ما يحدث في أزمنةٍ أقلّ إصابةً بالفتن.

6. إليكم ما قال القنصل الروماني لوكيوس وولومنيوس عن كوينتوس فابيوس وبوبليوس ديكيوس، أمام الملأ لحظة انتخاب القناصل الرومان: «إنهما رجلان وُلدا للقيام بالحرب، عظيمان في الفعل، ومتلعثمان في الكلام، إنهما فعلان عقلان قنصليان. أما اللطفاء والفصحاء والعلماء فصالحون للمدن، إذ هم إن كانوا قضاةً فسُيقيمون العدل بين الناس».

7. لقد ازدهرت الخطابة والفصاحة في روما حين ساءت أحوال الشؤون العامة وهزتها عواصف الحروب الأهلية: فالأعشاب الأكثر قوةً تنبت في الأرض البَوار غير المزروعة. المجتمعات التي يحكمها ملك هي بحاجة أقل إلى الفصاحة والخطابة من المجتمعات الأخرى؛ لأنّ الشعب البليد والضعيف الشخصية له آذان تجعل منه قابلًا للتلاعب وللقلاقل والفتن. فلأنه ينصاع للكلمات المتناغمة التي تُفرَغ فيه نراه لا يجهَد في وزْن حقيقة الأشياء ومعرفتها بشكلٍ معقولٍ، بيد أن هذا الاستعداد لا نجده بسهولةٍ لدى شخصٍ مُنْعزل؛ لأنّ من السهل تحصينه ضدّ ذلك السّم من خلال تربيةٍ جيدةٍ ومبادئ ساميةٍ. فنحن لم نرَ أبدًا خطيبًا شهيرًا بين أناس مقدونيا وبلاد فارس.

8. إذا كنت قد تطرقت للبلاغة: فذلك بسبب رجلٍ إيطاليٍّ تحدّثت معه مؤخرًا، كان قد اشتغل سيد الخدم لدى الراحل الكاردينال كارلو كارافّا حتى وفاة هذا الأخير. دفعته للحديث عن مسؤوليته، فقام بعرضٍ عن فن اللسان هذا بحدّةٍ ووقارٍ باهرين، كما لو كان يحدّثني عن نقطةٍ مهمةٍ في اللاهوت.

9. حدثني الرجل عن الاختلاف في الشهية: من يأتيه صائمًا ومن يأتيه بعد الطبق الثاني أو الثالث في الأكلة، والطرق التي يلزم استخدامها إما لتهدئته وإما لإيقاظه وتحفيزه، وحدثني عن وصْفة أنواع مرقه عمومًا في الأول، ثم عن خصائص مكوناتها وآثارها بعد ذلك، ثم طرق الاختلاف بين السَّلَطات حسب الفصول، وتلك التي علينا تدفئتها، والتي علينا تقديمها باردة، وطريقة تزيينها وتجميلها لجعلها أكثر بهاءً في المنظر، وبعد ذلك، مرّ الرجل لتنظيم الخدمة، بتأملاتٍ جميلةٍ ومهمةٍ.

«ليس من النافل أن نعرف التمييز
بين تقطيع الأرنب وتقطيع الدجاجة»[1].

10. وكل هذا كان ممهورًا بكلمات رائعة وثريّة، الكلمات نفسها التي نستعملها للحديث عن حكومة إمبراطورية! وقد تذكرت لتوّي أمرًا عن هذا الرجل.

«هذا الطبق مالح جدًا، وذاك محروق، وهذا لا مذاق له
وهذا طيب: تذكّرْ ذلك في المرة المقبلة.
أُعلمهم جيدًا، ما استطعت ذلك، وبما أعرف
وأخيرًا يا ديميا، أنصحهم برؤية صورتهم
في أوانيهم كما لو كانت مرآةً
وأُخطرهم بكل ما عليهم فعله»[2].

11. واليونانيون أنفسهم امتدحوا كثيرًا نظام وترتيب المأدبة التي أقامها لهم القنصل الروماني لوكيوس إيميليوس باولوس عند عودتهم من مقدونيا، لكني لا أتحدث هنا عن الأشياء الواقعية وإنما فقط عن الكلمات.

12. لا أدري إن كان ثمّةَ أناسٌ مثلي، فأنا حين أسمع مِعْماريينا يتشدّقون بتلك الكلمات الفخمة من قبيل «الأعمدة»، «الأقواس»، «الأفاريز»، عن العمارة الكورَنثية والدّورية، وبمصطلحات مشابهةٍ لها مستقاة

(1) Juvénal, **Satires**, V, 123.

(2) Térence, **Les Adelphes**, III, 3.

منها؛ لا يسعني إلا أن أتخيّل للتوّ القصر الخيالي لأبّولّيدون[1] بذاته، ثم إني أدرك أن الأمر لا يتعلق سوى بالأجزاء التعيسة لباب مطبخي!

13. أنصتوا للناس تتحدث عن الكناية والاستعارة والتَّورية وغيرها من اصطلاحات النحو من النوع نفسه، ألا يبدو لكم أنهم يصفون بذلك لغةً نادرةً وأجنبيةً؟ مع أن الأمر يتعلق بثرثرة زوجتك!

14. إنها خدعةٌ قريبةٌ من الخدعة السابقة أن يعيّن المرء وظائف دولتنا بالألقاب الفخمة التي كان يصفها بها الرومان؛ لأنّها لا تُبدي عن أيّ تشابهٍ مع المسؤوليات التي كانت تمثلها لديهم، بل هي أقل بكثيرٍ منها في مجال السلطة والنفوذ.

15. وإليكم خدعةً أخرى سوف نعيها إن عاجلاً وإن آجلاً على عصرنا: وهي تتمثّل في أن ننسب عن غير حقٍ ولمن يحلو لنا الألقاب المجيدة، تلك التي شَرَّفت بها مرحلة ما قبل التاريخ شخصيةً أو شخصيتيْن فقط. لقد اكتسب أفلاطون لقب «الإلهي» بإجماعٍ من كافة الناس، ولا أحد سعى إلى التشكيك فيه. وها هم الإيطاليون، الذين يتباهون عن جدارةٍ واستحقاقٍ بأن عقلهم يقظٍ وخطابهم أكثر سلامةً من الأمم الأخرى في عصرهم، يطلقون ذلك اللقب على بييترو أريتينو! ومع ذلك، لو نحن استثنينا أسلوب هذا الرجل المحشو بالمزح الباهرة حقًا، لكن الغريبة والمصطنعة، وعدا فصاحته مهما كانت قيمتها، فأنا لا أرى شيئًا في كتاباته يجعله يفوق مؤلفين عاديّين من عصره، وما أبعده عن «الألوهية» القديمة التي اتصف بها أفلاطون!

16. أما لقب «الكبير»، فنحن نطلقه على الملوك والأمراء الذين لا تفوق قامتهم المستوى العادي!

(1) ذكر القصر الخيالي لأبوليدون في «أماديس» وهي رواية إسبانية عن الفتوة تُرجمت للفرنسية عام 1561 م.

الفصل الثاني والخمسون

عن بُخْل القدماء وتقْتيرهم

1. قام أتّيليوس ريغولوس، جنرال الجيوش الرومانية في إفريقيا، وهو في عزّ مجده وانتصاراته ضد القرطاجنيّين، بالكتابة للسلطات الرومانية بأن خادمًا في الضيعة (وهي في مجموعها خمسة فدادين من الأرض) تركه وحيدًا لتدبير شؤونها قد هرب بعد أن سرق منه أدوات الحرث، وبذلك كان يطلب الإذن بالعودة إلى بلاده للتكفل بالأمر خوفًا من أن يكون ذلك مصدر تعاسةٍ لزوجته وأبنائه. فنصّب مجلس الشيوخ شخصًا آخر لإدارة ممتلكاته واستعاد له ما سُرق منه، كما أمر بأن تتكفل الدولة بإعالة زوجته وأبنائه.

2. قام كاتو الكبير وهو عائدٌ من إسبانيا، حين كان قنصلاً بها، ببيع حصانه كي يوفّر عليه كلْفة إعادته بحرًا إلى إيطاليا، وحين كان عاملاً على سردينيا، كان يقوم بتفقُّد محافظته راجلًا؛ لأنّه لم يكن له من حاشية سوى موظفٍ يحمل أغراضه وإناءٍ مخصّصٍ للقرابين، وكان غالبًا ما يحمل بنفسه محفظته، كما كان يتباهى بأنه لم يملك أبدًا ملابس يفوق ثمنها عشرة قروشٍ، ولا أنه أنفق أكثر من ثلاثة قروشٍ يوميًا، أما بيوته بالبادية فلم تكن واحدةٌ منها مبلَّطة ومصبوغةً من الخارج.

3. وسْكيبّيو إميليانوس، بعد انتصاريْن ووظيفة القنصل، عُيّن سفيرًا برفقة سبعة خدمٍ فقط، وقد زعموا أن هوميروس لم يكن له سوى خادمٍ فقط، وأفلاطون ثلاثة، أما زينون، شيخ المدرسة «الرواقية»، فلم يكن له خادمٌ البتّة.

4. لم يكن تيبيريوس غراكّوس يحصل سوى على خمسة قروشٍ ونصف يوميًا حين كان في مهمة لصالح الدولة، وهو كان مع ذلك أول شخصيةٍ في روما.

الفصل الثالث والخمسون

عن كلمة ليوليوس قيصر

1. لو حاولنا مرةً أن نتفحّص أنفسنا، وأن نستخدم في سبْرِ أغوارنا الوقت الذي نقضيه في مراقبة الآخرين ومعرفة الأمور التي هي خارجنا، فإننا سندرك بسهولةٍ كيف أن نظامنا الباطن مكوَّنٌ من عناصر ضعيفةٍ وغير مكتملةٍ.

2. أليْس عجزنا على الاكتفاء بأي شيءٍ تحت سطوة الهوى والخيال، وعدم قدرتنا على تمييز ما يلزمنا، دليلًا قاطعًا على عدم كمالنا؟ وما يشهد على ذلك هو الجدل الكبير الذي ثار بين الفلاسفة عن الخير المتأصل في الإنسان، وهو جدلٌ لا يزال دائرًا وسيدوم إلى الأبد، من غير أن يتوصلوا إلى إجماعٍ عليه ولا لحلٍ قاطعٍ له.

«هل ينفلت منا موضوع رغبتنا؟ إننا نفضّله على أيّ شيءٍ آخر
وحين نملكه نفكر في موضوعٍ آخر
ويظل تعطُّشنا على حاله»[1].

3. مهما كان ما يدخل في معرفتنا وما نملك، فإننا نحس أن ذلك لا يرضينا البتّة، بحيث نجري دومًا وراء الأشياء المستقبَلة والمجهولة؛ لأنّ أمور الحاضر لا تنجح في إشباعنا. وذلك لَعَمري لأنّها لا تملك ما تستطيع به ذلك، وإنما لأننا نمسك بها على نحو أخرق.

«رأى أنّ كلّ شيءٍ ضروريٍّ للعيش
قد وُهِب لبني البشر، أو تقريبًا
الأقوياء متخمون بالخيرات والمكارم
فخورون بأبنائهم ذوي السمعة الطيبة
لكن لا أحد منهم لا تصيبه القُشَعْرِيرة في دواخله
ولا أحد منهم لا يئنّ قلقًا رغمًا عنه بشكلٍ لاشعوريٍ!
لقد أدرك أن الشرّ يأتي من الإناء نفسه
الذي تفسد عيوبه الداخلية
ما نضع فيه، حتى لو كان جيدًا»[2].

(1) Lucrèce, **De la Nature**, III, 1082-1084.
(2) Lucrèce, **De la Nature**, VI, 9-17.

4. رغبتنا حائرة ومتقلبة؛ فهي لا تحافظ على شيءٍ ولا تتمتّع بشكلٍ لائقٍ بأي شيءٍ، والإنسان يعزو علّة ذلك لعيبٍ في الأشياء التي يملكها، ويتغذى ويحشو نفسه بتلك التي لا يعرف ولا يفهم، والتي ينسب إليها رغباته وآماله، التي يشرّفها تشريفًا ويُجلّها إجلالًا.

5. وكما قال يوليوس قيصر: «إنه لخطأٌ شائعٌ وطبيعيٌّ لدى الإنسان أن يحس بثقةٍ متزايدةٍ أو برهبةٍ أكثر حدّةً إزاء وضعيةٍ مجهولةٍ وجديدةٍ»[1].

(1) César, **La Guerre civile**, II, 4.

الفصل الرابع والخمسون

في دقائق الأمور النّافلة

1. يسعى الناس أحيانًا إلى أن يلفتوا الأنظار لهم بتأدّبٍ نزِقٍ ونافلٍ، وذلك حال شعراء يؤلفون كتبًا كاملة من الأشعار تبدأ بالحرف نفسه، أو حال البيض والكرات والأجنحة بل حتى السواطير التي رسمها الشعراء اليونانيون[1]، وذلك بتقصير أو إطالة أبياتهم بحيث ترسم في النهاية هذه الصورة أو تلك، ولقد برهن عن هذا العلم ذلك الذي تسلّى بحساب كم من طريقة يمكن بها تنظيم وترتيب حروف الأبجدية، بحيث إنه انتهى إلى عددٍ هائلٍ[2] نجده مُثبتًا لدى بلوتارخوس.

2. أعتبر جيدًا رأي ذلك الذي قُدّم له رجلٌ مدرَّبٌ على أن يرمي بيده بذرة الدَّخْن بدقةٍ عاليةٍ بحيث إنها تمر من خلال ثقب إبرةٍ، فحين طُلب منه بعد ذلك أيّ هديةٍ يمكن أن يجازي بها ذلك الإنجاز، أمَر بشكلٍ مرحٍ وعن حقٍ في رأيي، أن يُمنح للرجل كيسان أو ثلاثة أكياس من بذور الدّخْن، كي لا يظل ذلك الفن الجميل خاملاً.

3. حين نمنح قيمة للأشياء تبعًا لندرتها أو جدّتها أو حتى لصعوبتها يكون ذلك دليلاً رائعًا على ضعف حكمنا، إذا هي لم ترتبط بها المنفعة أو الجودة.

4. لقد انتهينا للتوّ في بيتي من القيام بلعبةٍ من يعثر على أكثر الأشياء التي تتلامس بأطرافها من قبيل: «صاحب الجلالة» الذي هو اللقب الذي يُمنح للشخصية السامية الأعلى في مجتمعنا، أيّ الملك، والتي تطلق أيضًا على أناس الشعب كالباعة، ولا تُستعمل بين الاثنين. والنساء المميزات نسميهن «سيدات»، ومَن منهن من مرتبةٍ متوسطةٍ «أوانس»، كما نسمي «سيدات» أيضًا النساء اللواتي هن في أدنى مرتبة من المجتمع، وقطع النرد التي نرميها على الطاولة لا يُسمح بها إلا في بيوت الأمراء وفي الحانات.

---

(1) الشعراء الإسكندرانيون هم الأوائل الذين تعاطوا هذا النوع من المنجز الشعري، وفي نهاية العصور الوسطى قام «البلاغيون الكبار» بمنجزاتٍ في مجال نظم الشعر، ومن المحدثين يمكن القول إن غيوم أبولينير قد استعاد هذا التقليد في ديوانه (قصائد تصويرية).

(2) توجد الحكاية لدى بلوتارخوس، كما نعثر عليها أيضًا لدى رابليه.

5. قال ديموقريطوس إن الآلهة والحيوان لها حواس أكثر رهافة من بني البشر، الذين يوجدون في الفئة المتوسطة. كان الرومان يلبسون بالطريقة نفسها يوم الحداد وأيام الأعياد، ومن الأكيد أن الخوف المفرط والشجاعة المفرطة يروّعان معًا البطن ويصيبان صاحبهما بالإسهال.

6. كنية «الرِّعْديد» التي أطلقت على سانشو[1] الملك الثاني عشر لمملكة نافارا تعلّمنا أن الجسارة تدخل الرعشة لنفسنا مثلها مثل الخوف، ومن كانوا يحبونه، هو أو شخصٌ آخر من الفصيلة نفسها، والذين كانت الرعشة تأخذ بأوصالهم، جهدوا في طمأنته مخفّفين من هول المخاطر التي عليه مواجهتها، قال لهم: «أنتم لا تعرفونني جيدًا، لو أن جلدتي تعرف إلى أيّ مدًى ستحملها شجاعتي بعد لحظةٍ، لانسلخت وسقطت من فوقي كاملة».

7. يجد العجز الذي يعود للبرودة والتقزز من العلاقات الجنسية علّته أيضًا في الرغبة العارمة والعنيفة كما في الحدّة المفرطة، فالحرارة المفرطة كما البرودة المفرطة تطبخ وتشوي أيضًا. يقول أرسطو بأنّ قرس الشتاء يصهر كُتل الرصاص ويُذيبها مثلها مثل الحرارة الحادة، الرغبة والإشباع يملآن ألمًا الحالات التي توجد تحت الشهوة أو فوقها.

8. تلتقي الغباوة والحكمة في النقطة نفسها حين يتعلق الأمر بالموقف الذي علينا اتخاذه إزاء المصائب التي تُلمّ ببني البشر، فالحكماء يكبتون الشر ويتحكمون فيه، والآخرون يتجاهلونه، الأغبياء يوجدون في موطن أدنى من الأحداث المؤسفة والحكماء في ما فوقها، بحيث إنهم بعد وزنها وتقديرها والحكم عليها يقومون بالقفز عليها بفضل شجاعتهم، وهم يزْدرونها ويسْحقونها لأنّ نفسهم صلبةٌ وقويّةٌ، ولأن السهام التي يوجّهها لها القدَر، حين تجد نفسها أمام حاجز لا يمكنها اختراقه، ترتدّ عليه فتنفَلُّ. توجد الوضعية المتوسطة والعادية للناس إذًا بين هذين الطرفين، والحكماء يدركون المصائب ولا يمكنهم تحمّلها.

(1) يجمع كافة الشراح والعلقين أن مونتيني يخلط بين سانشو غارسيا وابنه غارسيا، والأمر هنا يتعلق بالابن لا بالأب، الذي كان ملكه في القرن العاشر الميلادي والذي، كما يقول عنه المؤرخون، كان قبل الذهاب للمعركة يرتعد بحيث كان من حوله يسمعون طقطقة أسنانه.

9. الصبيانية ووَهن العمر يتلاقيان في الضّعف نفسه للدماغ، والجشع والإسراف يعملان في الرغبة نفسها على جذب الأشياء نحو الذات وفي الامتلاك.

10. يمكننا القول أيضًا، بصورةٍ ما، إن ثمّةَ جهلًا أبجديًا، سابقًا على المعرفة، وجهلاً آخر «عالمًا»، بعد المعرفة، والمعرفة نفسها هي ما يولّد هذا الجهل الأخير، من خلال الحركة نفسها التي تفكك بها الأولى وتُبيدها بها.

11. إنهم يصنعون مسيحيين طيبين بعقولٍ بسيطةٍ، قليلي الفضول وقليلي المعرفة، وهم يكتفون بالإيمان من باب الاحترام والطاعة فقط، ويستسلمون للشرائع، فالآراء المغلوطة تولد في العقول المتوسطة الحيوية والموهوبة، إذ هي تتّبع المعنى الأول الذي يتبدّى لها وتعتقد أنّ لها الحق في اعتبار أنّ من السخافة والغباء أن نتشبّث بالتأويلات القديمة؛ لأنّها تعتبر أننا لم ندرس بما يكفي تلك الأمور.

12. أصحاب العقول العظيمة، باعتبارها أكثر حكمةً وتبصُّرًا، تشكل فئةً أخرى من المؤمنين الصالحين، إذْ هم، من خلال بحثٍ ورِعٍ وطويلٍ، يستكْنهون أفضل الكتابات المقدسة في عمقها وغموضها، ويحسّون بالسرّ العجيب والرباني لمؤسستنا الكنسية.

13. البعض وصل مع ذلك إلى هذه المرحلة الأخيرة، مارًّا من الثانية، بثقةٍ ونجاحٍ باهرين، كما لو أنهم بلغوا إلى الحد الأقصى للذكاء المسيحي، وهم يتلذّذون بنصرهم ذاك الذي يوفّر لهم عزاءً كبيرًا وهم يقومون بأعمالٍ خير ويصلحون سلوكهم ويعبرون عن تواضعٍ كبيرٍ. وأنا لا أصنف في هذه الخانة أولئك الذين يبدُون عن غلوٍّ كبيرٍ وتطرّفٍ بالغٍ وغير صحيحٍ في تسيير قضيتنا ويدنّسونها بالعديد من الأفعال البغيضة، وذلك لكي يرفعوا الريبة عن خطاياهم السابقة، ولكي يطمئنوننا.

14. الفلاحون البسيطون مليؤون بالحكمة، وكذلك الفلاسفة، أو كما

نقول اليوم، ذوو الطبائع القوية واللامعة التي اغتنت بمعرفةٍ جيدةٍ بالعلوم المفيدة. ومن يجمعون بين هؤلاء وأولئك، وأنكروا المرحلة الأولى، مرحلة الأميين، لكنهم لم يستطيعوا الالتحاق بالثانية -والذين ظلّت «مؤخّرتهم محجوزةٌ بين سرجين» كما يقال -مثلي ومثل آخرين- هم أناسٌ خطيرون، عاجزون وانتهازيون، فهم يخلخلون نظام الأمور، أما في ما يخصّني، فأفضّل اللجوء ما استطعت ذلك للحال الأول الأكثر طبيعية، الذي سعيت بلا جدوًى إلى الانفلات منه.

15. الشعر الشعبي والفطري له سذاجته وأفضاله التي بها يعزّز المقارنة مع الشعر «المكتمل»، تبعًا لقواعد الفنّ، ويمكن أن نقف على ذلك في الشعر القروي لغاسكونيا، والأغاني التي يُؤتى بها من البلدان التي ليست لها معارف علمية ولا حتى كتابة، والشعر الوسَط، الذي يبقى بين الاثنين، مكروهٌ ولا مجد له ولا قيمة.

مصير المقالات

16. لكن حين انفتحت لي أبواب الروح، أدركت على عادتي أنّ ما كان يُعتقد أنه تمرينٌ صعبٌ ومكرّسٌ لموضوعٍ نادرٍ لم يكن كذلك أبدًا، فحين تحتدّ مخيلتنا تكتشف عددًا لا يُحصى من الأمثلة من العيار نفسه، ولن أقدّم هنا سوى واحدٍ منها: إذا كانت هذه «المقالات» تستحق أن نصدر عنها حكمًا، فهو يمكن أن يكون في نظري صادرًا فقط عن العقول المتفرّدة والممتازة، وإن أزعج ذلك أصحاب العقول العادية والمبتذلة، فهؤلاء لن يدركوها حقَّ إدراكها، وأولئك سيفهمونها أكثر مما ينبغي، ومن ثمّ فإنها ستعيش من العقل في المنزلة بين المنزلتين.

الفصل الخامس والخمسون

عن الرّوائح

1. يُقال عن بعض الرجال، كما الإسكندر الأكبر، بأن عرَقهم كان يعْبق برائحةٍ طيبةٍ، وذلك بفضل بنيةٍ طبيعيةٍ خارقةٍ، سعى بلوتارخوس وغيره إلى معرفة عِللها. أما لدى الناس العاديين فالعكس هو الحاصل، وأفضل ما يمكن أن يطمعوا فيه هو ألا تنبعث منهم أيّ رائحةٍ، وأعذب الأنفاس وأكثرها خلوصًا هي نفسها لا تكون رائقةً إلا حين لا تنبعث منها رائحةٌ كريهةٌ، كما هو نَفَس الأطفال في صحةٍ جيدةٍ.

2. لهذا، كما يقول بلاوتوس:

«أعذب رائحةٍ في المرأة
ألا تشم منها أيّ شيء»[1].

كما يقال أيضًا إنّ أزْكى رائحةٍ لأعمال المرء هي ألا نحس بها وتكون صامتةً.

3. والمرء يكون على حقٍّ حين يشتبه في أمر من يستخدم الروائح الطيبة التي لا تكون طبيعيةً، بحيث يفكر في أنها تُستخدم للتغطية على عيْبٍ طبيعيّ من ذلك الجانب، من ثم تأتي تلك الأمثال المازحة للشعراء القُدامى من قبيل: «أن تطلق رائحةً زكيةً يعني أنك تحدِث».

«أنت تتهكم يا كوراسينوس؛ لأنّ لا رائحة لي
لكني أفضّل ألا تكون لي رائحة على أن تكون لي رائحةٌ عطرةٌ»[2].

وفي موطنٍ آخر أيضًا:

«بوستوموس*[3] تنبعث منه رائحةٌ كريهةٌ، هو الذي لا تكون رائحته إلا طيبةً»[4].

---

(1) Plaute, **Mostellaria**, I, 3.

(2) Martial, **Épigrammes**, IV, 55.

(3) * هذه الكلمة Posthumus قد تحمل معنيين في هذا السياق، فإما أن تكون اسم علم وفي هذه الحالة تكون محرفة Postumus، أو تكون بمعنى الإنسان بعد وفاته.

(4) Martial, **Épigrammes**, II, 12.

4. وأنا أحب الروائح الزكيّة وأمقت الروائح الكريهة، التي أشمها عن بعدٍ أكثر من أيّ رائحةٍ أخرى.

«ذلك أن لي شمًا باهرًا يحس برائحة الوَرم
أو رائحة الإبطين المشعَّرين التي تشبه رائحة التيس
أفضل من كلبٍ وهو يكشف عن خنزيرٍ متوارٍ عن الأنظار»(1).

5. الروائح التي تبدو لي زكيّةً هي التي تكون بسيطةً وطبيعيةً، أما ذلك الاهتمام الكبير بالعطور فيخصّ النساء أساسًا، ففي المناطق الأكثر بُدائيةً، كانت النساء السكوثيات بعد أن يستحممْن يضعن المساحيق ويدهنّ الوجه والجسد بمزْهم عَطِرٍ محليّ، وحين يعاشرْن الرجال ينزعن عنهن تلك المساحيق، التي تجعل من أجسادهن عطرةً ولطيفةً.

6. ومهما كانت الرائحة، فمن الغريب أن ألاحظ كيف أنها تظل لصيقةً بي، وكيف أن بشرتي لها موهبة التشرُّب بها، ومُخطئ مَن يشكو من أنّ الطبيعة قد تركت الإنسان عاجزًا عن حمل الروائح حتى أنفه، فهي تأتيه من حيث لا يحتسب، لكن، في ما يتعلّق بي بشكلٍ خاصٍ، فشواربي الكثّة هي التي تلعب هذا الدور، فإذا ما قرّبت منها قفازي أو منديلي، فإنها تتشرّب الرائحة طيلة اليوم، بحيث إنها تفشي بالمكان الذي كنت به.

7. وإنَّ قُبَلَ الشباب التي كانت لذيذةً وملتهبةً ومخضّبةً بالرُّضاب كانت تعْلق به في الماضي وتظل لصيقةً به لعدة ساعاتٍ فيما بعد، ومع ذلك فأنا لا أتعرَّض إلا نادرًا للأمراض التي تصيب بعدوى التماس مع الآخرين والتي تنتقل بالهواء، وقد أفلتُّ منها في ما مضى، إذ عرفنا منها العديد من الأنواع في مدننا وبين جيوشنا. يُحكى أن سقراط، بما أنه لم يبرَح أثينا أبدًا خلال أوبئة الطاعون التي استشرت بها في العديد من المرات، كان الوحيد الذي لم تمسّه العدْوى.

8. أعتقد أن بمقدور الأطباء أن يستخلصوا من الروائح فوائد أكثر مما

(1) Horace, **Épîtres**, XII, 4.

يفعلون، لأني لاحظت دومًا أن لها تأثيرًا عليّ وتغيّر من مزاجي، وهو ما يدفعني إلى التفكير في أن ما يُقال صحيحٌ، أعني أن صناعة البخور والعطور واستخدامها في الكنائس، وهو ممارسةٌ قديمةٌ ومنتشرةٌ في كافة البلدان، ترمي لأن تجعل منا مرحين، وإلى إيقاظ حواسنا وتطهيرها، كي تجعلنا أكثر أهليةٍ للتأمل.

9. ولكي أستطيع ممارسة حكْمي، أنا أرغب المشاركة في عمل أولئك الطباخين الذين يمْهرون في مزج الروائح الغريبة في نكهة الأطعمة كما نلاحظ ذلك بالأخص في قصر ملك تونس، الذي نزل في أيامنا هذه بنابولي لملاقاة الإمبراطور كارلوس الخامس[1]، فهم يحْشون اللحوم ببهاراتٍ عطرةٍ بطريقةٍ فاخرةٍ، بحيث إن طاووسًا وطائريْ تدْرُج تكون كُلفة إعدادهما باهظةً حسب تقاليد بلدهم، وحين تُقطَّع، تنتشر لا في القاعة الكبرى فحسب، وإنما في كافة غرف القصر والأحياء المجاورة رائحة عَطرة لا تختفي للتوّ.

10. همّي الأساس حين أرغب في الإقامة في مكانٍ ما هو أن أتهرّب من الهواء الخانق والثقيل، فمدنٌ جميلةٌ كالبندقية وباريس تبدّدان الحظوة التي لهما في قلبي بالروائح المزّة التي تنبعث منها، الواحدة من مستنقعاتها والأخرى من طمْيها[2].

(1) شن كارلوس الخامس حملة مظفرة على تونس عام 1535م.

(2) زار مونتيني البندقية عام 1580م.

الفصل السادس والخمسون

في الصلوات والدعوات

1. أقترح هنا أفكارًا عفويةً وغير موثوقةٍ، كما يفعل ذلك من يقدمون للنقاش قضايا تثير الجدل كي تكون موضوعًا للمناقشة، لا لإثبات الحقيقة وإنما للبحث عنها، وأنا أعرضها على أفهام أولئك الذين يمكنهم الحكم ليس فقط على أفعالي وإنما أيضًا على أفكاري، واتّفاقهم معها أو إدانتهم لها سيحظى بالقَبول مني وسيكون مفيدًا لي، وإذا ما صدر مني في هذا الكتاب المرتجل، عن غير شعورٍ أو عن جهلٍ مني، ما هو منافٍ للقواعد المقدسة ولتعاليم الكنيسة الكاثوليكية الرسولية والرومانية التي ولدت وترعرعت وسأموت في كَنفها، فإني أعتبر ذلك ضربًا من العبث وإثمًا لا يُغتفر، ومع أني أضع نفسي بين يديْ سلطة رقابتها، التي أنصاع لقوانينها، فإني أخوض بتهوُّر كما هنا في أيّ نوعٍ من الأمور.

2. أنا أعرف نفسي حين أخطئ، لكن لمّا كان الله بفضل مشيئته يملي علينا حرفيًا طريقة في الصلاة والدعاء فيبدو لي أن علينا تلاوتها باستمرارٍ، ولو صدقني القارئ، فأنا أريد في بداية كلّ وجبةٍ ونهايتها، كما في يقظتنا ونومنا وفي كافة أعمالنا الخاصة، التي نمهرها بالدَّعوات، أن نبتهل بالصلاة «لأبينا»، وهي العبارة التي يستعملها المسيحيون، إن لم يكن حصْرًا، فليكن دوْمًا.

3. يمكن للكنيسة أن تنوِّع من الصلوات والدعوات لحاجة تعليمنا، إذ أعلم جيدًا أن ذلك يكون دومًا المادة نفسها والشيء نفسه، لكن يلزمنا أن نمنح الحظوة والأفضلية لهذه الصلاة؛ كي لا يملّ الشعب من تكرارها على لسانه، فالأكيد أنها تقول كلّ شيءٍ، إنها الصلاة الوحيدة التي أستعملها في كلّ مكانٍ وفي كافة الظروف. ولهذا أيضًا لا أحفظ عن ظهر قلبٍ صلاةً أخرى غيرها.

4. كنت لتوّي أتساءل من أين أتتنا تلك العادة السيئة للّجوء للرب في كافة أعمالنا وشؤوننا وكافة مشاريعنا، وأن نستغيث به بصدد كلّ شيءٍ وبصدد لا شيء، كلّما كان ضعفنا بحاجة لمعونة، من غير أن نتساءل إذا ما كنا محقّين في القيام بهذا في تلك الظروف، ومُصيبين في ذكر اسمه

وقدرته في أيّ وضعيةٍ وُجدنا فيها حتى لو كانت وضعيةً رذيلةً.

5. إنه حامينا الوحيد الأوحد، ولكي يعيننا، هو قادرٌ على كلّ شيءٍ، لكن رغم أنه يسبغ علينا تلك العناية الأبوية، فهو عادلٌ مقدار ما هو خيّرٌ وجبّارٌ، وهو يستعمل عدله مقدار ما يستخدم قوته، إذْ هو يصطفينا تبعًا لكون ذلك أمرًا عادلًا لا تبعًا لرغباتنا.

6. يميز أفلاطون في شرائعه[1] بين ثلاثة أشكال من الأفكار المُعيبة في حق الآلهة: ألا تكون ثمّةَ آلهة، ألا تتدخل في شؤوننا، ألا ترفض شيئًا لنذورنا وأعطياتنا وقرابيننا، وفي رأيه لا يبقى الخطأ الأول ثابتًا لدى أيّ إنسانٍ، من صباه إلى شيخوخته، أما الأخريان، فقد يظلان ثابتيْن.

7. العدل والقوة في الله صفتان متواشجتان؛ إذ لا جدوى من طلب معونته في قضيةٍ فاسدةٍ، على الإنسان أن يكون ذا نفسٍ طاهرةٍ على الأقل في الوقت الذي يتقدم له بصلاةٍ أو دعاءٍ، أعني نفسًا طاهرةً متحررةً من الأهواء الفاسدة.

8. لهذا لا أقدّر أبدًا أولئك الذين أراهم يصلون لله في أغلب الأوقات وبشكلٍ مستمرٍ، إذا ما لم تتغير إثر ذلك أعمالهم ولم تتحسّن تصرفاتهم.

«إذا اقترفت الفاحشة ليلا
فقد اعتمرت برنس أهل الغال»[2].

9. يبدو لي أنّ سلوك شخصٍ يمزج الورع بحياةٍ مُشينةٍ قابلةٍ للإدانة أشنعُ وأشدُّ نفاقًا من سلوك شخصٍ متلائمٍ مع نفسه وحياته في سلوك كلّه مجونٌ وفسقٌ، ومع ذلك فإنّ كنيستنا ترفض كلّ يومٍ فضيلة الانتماء لجماعتها لأولئك الذين يستمر سلوكهم في الإبانة عن فجورهم الواضح.

(1) Lois, **Chap.** X.
(2) Juvénal, **Satires,** VIII, v. 144.

10. نحن نؤدي الصلاة ونقوم بالدعوات بالعادة والتقليد، أو بعبارة أفضل، نحن نقرأ ونتلفّظ بدعواتنا، وذلك ليس في العمق سوى مسخرةٍ، لا أحب أن أرى أحدًا يقوم برسم علامة الصليب ثلاث مراتٍ قبل الأكل أو في نهايته، وأن أراه في باقي الوقت ناذرًا نفسه للحقد والحسد والظلم، ومما يزيد في بُغضي لذلك أنَّ ما أشد احترامي وما أكثر استخدامي لها حتى حين أتثاءب، الأمر يبدو كما لو أن ثمّةَ أوقاتًا مخصوصةً للرذائل وأخرى للرّب، من باب التعويض طبعًا، فمن الغريب أن نرى وبشكل دائم توالي أعمالٍ متباينةٍ لدى المرء، من غير أن يحس بأي قطيعةٍ أو تغيرٍ في نهايتها وفي الانتقال من عملٍ لآخر!

11. كم هو غريبٌ الضمير الذي يعيش في راحةٍ وهو يغذي الجُرْم والحَكَم، في المكان نفسه وبطريقة مطمئنّةٍ ومن غير صدامٍ، الشخص الذي تتحكم فيه الخِسَّة ويحكم عليها بأنها مُشينةٌ إزاء الربّ، ما الذي يقوله لله حين يكلّمه عن ذلك؟ إنه يتّجه للخير ثم يسقط للتوّ في الخطيئة.

12. ولو أن العقَبة التي يشكلها العدل الإلهي ووجوده أصابته كما يقول، وعاقبت نفسه، مهما كانت الكفّارة قصيرة الأمد، فإن الخوف من العقاب سيجعله حاضرًا في ذهنه بحيث إنه سيغدو متحكّمًا في تلك الرذائل التي استوطنت نفسه وتجذّرت فيها، لكن ثمّةَ من يقيمون حياتهم كاملةً على نتائج وفوائد الخطيئة، التي يعرفون مع ذلك أنها قاتلةٌ.

13. كم هناك من المهن والوظائف المقبولة، والتي يكون جوهرها نفسه رذيلةً؟ إليكم واحدًا أسرّ لي بأنه خلال حياته كاملةً اتّبع ومارس ديانةً ملعونةً في نظره ومنافيةً للديانة التي يحملها في قلبه؛ وذلك لكيْلا يفقد موقعه الاجتماعي والشرف المرتبط بوظيفته[1]، كيف استطاع الرّجل التوفيق بين تلك الأمور؟ أيّ خطابٍ يتفوّه به هؤلاء الناس أمام العدل الإلهي؟ إنّ توبتهم يلزم أن تُترجَم بإصلاحٍ عيْنِيٍّ ومحسوسٍ، لكنهم يفقدون أمام الله وأمامنا الحق في الاستفادة منها.

(1) يبدو أن الرجل الذي يشير إليه مونتيني هنا هو «آرنو دو فيرييه» (1505-1585)، أستاذ ثم سفير بروما وبالبندقية، صار مستشارًا لهنري الثالث ملك نافارا بعد اعتناقه البروتستانتية.

14. هل تُراهم يملكون الجرأة لطلب الغفران من غير إعلان توبتهم ومن دون أن يغيّروا ما بأنفسهم؟ أعتقد أن ما يخص الخسّيسين الفاسقين الذين تحدثت عنهم آنفًا يسْري أيضًا على هؤلاء، بيْدَ أن عناد الأوائل ليس من السهل التغلُّب عليه، وهذا التناقض، وذلك التقلُّب المفاجئ والحادّ في آرائهم، كما يُبدونه لنا، يكون له وقع المعجزة عليّ، إنهم التمثيل الواضح لصراعٍ يستحيل فهمه.

15. هناك من يزعَمون، في السنين الأخيرة، بأنهم لا يجدون غير النفاق لدى أولئك الذين يُبدون عن عقلٍ ساطعٍ ويَدْعون في الوقت نفسه للديانة الكاثوليكية، وهذا النظر للأمور يبدو لي زائفًا، إذْ بلغ بهم الأمر حتى الزعم بأنهم يشرفونهم حين يرون أنهم -مهما قالوا في الظاهر- لا يمكن إلا أن يكون لهم في أعماق نفوسهم مُعتقَد الديانة المُصلَحة[1] التي يرغبون في العثور عليها فيهم، إنه لمرضٌ مؤسفٌ أن يعتقد المرء حتى الاقتناع ألا وجود لمعتقداتٍ دينيةٍ متناقضةٍ، والمؤسف أكثر ذلك المرض الذي يجعل المرء يقتنع أنّ عقلاً بشريًّا كذلك يمنح الأولوية لتفوق مصيره الحاضر على الوعد والوعيد بآخرةٍ خالدةٍ. وعلى هؤلاء أن يثقوا بي: لو أن شيئًا ما فتَنني في شبابي، فإنّ حب الصدفة والمصاعب التي تفترضها الديانة الجديدة كانت ستكون من بينها.

16. يبدو أن الكنيسة لها أسبابها الحقة إذْ تحرّم استعمال المزامير المقدسة والإلهية التي أوحى بها الروح القدس لداوود، طوال الوقت ومن غير تبصّرٍ، علينا ألا نحشر الله في أعمالنا إلا بجلالٍ وبانتباهٍ مليءٍ بالتكريم والاحترام، إنّ ذلك الصوت هو صوتٌ بالغ الربانية، بحيث لا يُستعمل فقط إلا في تمرينٍ أوتار حلوقنا وليطرب آذاننا، فليس من المستحسن أن نطلب من صبيٍّ حانوتٍ أن يتكفّل به بمرحٍ ويجعل منه لعبةً له، هو الغارق في أفكاره النزقة والصبيانية.

17. كما ليس من المستحسن أيضًا أن نرى كتابَ الأسرارِ المقدسةِ لعقيدتنا

---

(1) إشارة إلى الديانة البروتستانتية.

مطروحًا هنا وهناك في القاعة الكبرى والمطبخ، كان الأمر يتعلق في الماضي بأسرار، أما اليوم فهي ليست سوى لعبةٍ وتسليةٍ، وليس على المرء، هكذا وبشكلٍ غير منظمٍ، أن يتعاطى دراسةٍ جدّيةٍ وجليلةٍ كهذه، إنه عملٌ يلزم إقراره مسبقًا وبهدوءٍ، وإليه يلزم أن نضيف هذه المقدمة للقُداس الديني: «لنسموَ بقلوبنا»، وبجسد يكون في وضع يشْهد على التركيز والتبجيل البالغيْن.

18. هي ليست دراسةً يمكن لأي واحدٍ أن يتعاطاها، بل هي دراسة الأشخاص الذين ينذرون أنفسهم لها، إذ يصطفيهم الله لها؛ أما الأشرار والجهلة فيصبحون أسوأ وهم يتعاطون لها، إنها ليست قصةً للحكْي وإنما للتبجيل والرهبة والإيمان. ومن يعتقدون أنهم قد جعلوها في متناول الشعب بترجمتها للغة العاميّة يبدون لي مهرجين، وإن إدراك كلّ ما جاء فيها ليس فقط مسألة كلماتٍ، فهم يقرّبونهم منها شيئًا ما بالترجمة تلك يقومون في الواقع بإبعادهم عنها. والجهل الخالص الذي كان يدفع المرء للرجوع للعلماء في أمور الدين، كان أكثر حسمًا بل أكثر علْمًا مما هو عليه علم الكلمات غير المجدي هذا الذي يغذّي الادّعاء والتهور في التأويل.

19. أعتقد أيضًا أن الحرية قد منحت لكل واحدٍ القدرة على نشر كلمة ذات عمقٍ دينيٍ كبيرٍ ومهمٍ، في العديد من اللغات واللهجات، وهو ما يحمل من الخطورة أكثر من المنفعة، لقد تبنى اليهود والمسلمون، وأغلب الآخرين، اللغة التي كتبت بها أسرارهم الربانية في الأصل بحيث إنّ تغييرها وتحويرها محرّمان، وهو ما لهم فيه بعض الحق.

20. هل نحن واثقون أن في بلاد الباسكيين[1] وفي بريتاني ثمّةَ قُضاة قادرون على إقرار ترجمةٍ للكتاب المقدس إلى لغتهم؟ والكنيسة العالمية ليس لها من حكمٍ أعْسر ولا أكثر حسْمًا للنطق به، فحين يقوم المرء بالوعظ أو بالكلام، يكون التأويل ملتبسًا ومتغيّرًا ولا يتعلّق إلا بأمورٍ منعزلةٍ، أما في ترجمةٍ ما فالأمر ليس كذلك.

---

(1) الأمر لا يتعلق هنا لدى مونتيني باختلاق، فقد ظهرت فعلاً ترجمة للعهد الجديد بالباسكية في مدينة لاروشيل عام 1571م.

21. أعاب أحد مؤرخينا اليونانيين[1] فعلاً على عصره أنه قد أشاع في الساحة العامة مكنونات الدين المسيحي، وجعلها في متناول أوْضَع الصناع، بحيث إنّ كلّ واحدٍ منهم صار بإمكانه مناقشتها حسب تأويله الخاص، وقد رأى أن ثمّةَ عارًا كبيرًا لنا، نحن الذين نتمتّع بالأسرار الطاهرة للإيمان، أن يُسمح لأشخاص جَهلة من العامّةبتدنيس تلك الأسرار، ما دام النبلاء منعوا سقراط وأفلاطون ومن كان من طرازهم من الحكماء أن يبحثوا في الأمور التي كان كهنة ديلفوي قيّمين عليها أو الكلام فيها.

22. وقال المؤرخ ذاته أيضًا أنّ فيالق الأمراء إزاء اللاهوت تكون مسلحةً لا بالحماس وإنما بالغضب، وأنّ الحماس الديني، الذي يعود للمشيئة الإلهية ولعدْلها، عليه أن يكون معتدلًا ومنتظمًا، بيد أنه يتغير إلى حقدٍ وحسدٍ، وعوض القمح والعنب نراه ينتج الزّوان ونبات القرّاص، حين يكون بين أيدي النوازع البشرية.

23. ويقول ذلك الذي كان مستشارًا للإمبراطور ثيودوسيوس بأنّ المجادلات اللاهوتية لا تهدئ من الخلافات والانقسامات في حضن الكنيسة، بل إنها بالمقابل تستدعي الهرطقة وتثيرها، وأن من اللازم تفادي كافة النزاعات وأنواع الجدل، وإسلام النفس بشكلٍ بسيطٍ وخالصٍ لإلزامات العقيدة وصيغها كما أرساها القدماء.

24. حين وجد الإمبراطور أندرونيكوس في قصره شخصيّتيْن مهمتيْن كانتا تتهجّمان بالكلام على لابّوديوس، في قضية عَقَدية ذات أهميةٍ بالغةٍ، وبّخهما بشدةٍ بحيث هدّدهما برميهما في النهر.

25. النساء والأطفال هم في أيامنا من يعطون دروسًا للكبار، أي لمن حنّكتهم التجربة، في أمور الشرائع الكنسية، فيما كانت الشريعة الأولى لأفلاطون تمنع عنهم حتى أن يسألوا عن علّةٍ وجود قوانين مدنيّةٍ

(1) هو نيكيتاس خونياتس الملقب أكوميناتوس، مؤرخٌ بيزنطيٌ (1150-1220)، وكان مونتيني يعرف مؤلفاته.

تكون مجالًا للأوامر الإلهية، لقد كان يُسمح للشيوخ الحديث عنها في ما بينهم، كما مع قضاة المدينة، غير أنه يضيف: «على ألا يكون ذلك بحضرة الشباب وكل من لا يفقه فيها شيئًا».

26. كتب أحد الأساقفة أن ثمّةَ في الطرف الآخر من الدنيا جزيرةً كان يسميها القدماء «ديوسكوريديا»[1] معروفة بخصوبة أراضيها وبتنوّع شجرها وثمارها وسلامة هوائها، وأناسها مسيحيون، ولهم كنائس ومذابح مزينةٌ بالصّلبان ومن غير صور، وهم يقومون بدقة بالصيام والأعياد، ويؤدون العُشُر للرهبان، وهم من العفّة بحيث لا يعاشرون إلا امرأةً واحدةً طيلة حياتهم كلها، وهم بذلك راضون بمصيرهم، بحيث مع أنهم يعيشون وسط البحر يجهلون استعمال السفن، ومن البساطة بحيث أن الديانة التي يتّبعون لا يفقهون منها كلمةً واحدةً، إنه لأمرٌ عجيبٌ لمن لا يعرف أنّ الوثنيين وهم مؤمنون ورِعون، لم يكونوا يعرفون من آلهتهم غير الاسم والصنم.

27. تبدأ مأساة يوربيديس «ميلانيبي» هكذا:

«يا يوبيتر أنا لا أعرف عنك شيئًا
إلا اسمك فقط».

28. في الماضي، رأيت أناسًا يشتكون من بعض الكتابات؛ لأنّها كانت إنسانيةً خالصةً وفلسفيةً، من غير أيّ اعتمادٍ على اللاهوت، لكن من سيقول العكس قد لا يكون بالضرورة على خطأ. صحيحٌ فعلًا أن مكانة العقيدة الإلهية هي أن تسود وتهيمن على كلّ شيءٍ، وأن تكون في المرتبة الأولى في كلّ مكانٍ، لا تابعةً أو ثانويةً، لكن ربما كان من الأوْجَه أن نستقيَ الأمثلة للنحو والبلاغة والمنطق من مجالٍ آخر غير مجالٍ مقدّسٍ كهذا. وهو ما يسري على مضامين وحجج المسرحيات والألعاب والعروض العمومية، فأسلوب المراسيم الإلهية يلزم اعتباره أسلوبًا يستحق التّعظيم، وتبجيله باعتباره متفردًا، لا باعتباره قريبًا من الخطابات البشرية.

(1) هي جزيرة سقُطرى بين الصومال واليمن، وهي جزيرة ليست بذلك الوصف الذي يمنحها لها مونتيني، فهي لا تنتج غير التمور والتوابل.

29. نحن نجد مرارًا لدى علماء اللاهوت هذا الخطأ في أن يكتبوا بطريقةٍ إنسيّةٍ بالغةٍ، فيما يكتب المفكّرون الإنسانيون بطريقةٍ لاهوتيةٍ بالغةٍ، يقول القديس يوحنا ذهبي الفم إن الفلسفة ممنوعةٌ من زمان في الدراسة المقدسة؛ لأنّها خادمةٌ غير نافعةٍ وغير خليقةٍ بأن ترى، ولو من شقِّ الباب، معبد كنوز العقيدة السماوية.

30. أما اللغة البشرية، فأشكالها أدنى مرتبةً، ولا يمكنها أن تستفيد من نبل وجلال أو سلطة الكلمة الإلهية، لكني أنا أكتفي باستخدام «المصطلحات غير المؤكدة»[1] من قبيل: «صدفة، قدَر، حدث، سعادة، شقاء، الآلهة، وغيرها من التعابير الجارية».

31. وما أقترح هنا هو أفكارٌ شخصيةٌ وإنسانيةٌ فقط باعتبارها أفكارًا إنسانيةً، منظورًا لها في خاصيتها، لا كما لو أنها مرغوبٌ فيها ومُثبتةٌ بأمرٍ إلهيٍّ، ولا تشكو لا من الشك ولا من الجدال، إنها إذًا مادةٌ للرأي لا تعاليم دينية، وهي ما أفكر فيه أنا لا ما أعتقد حسب مشيئة الله، وذلك ما يصدر عن علمانيٍّ لا عن كهنوتيٍّ، لكن دومًا بطريقةٍ دينيّةٍ جدًا، وأنا أقوم بذلك كما يعرض الأطفال محاولاتهم، لكي يتعلّموا، لا لِكي يعلّموا.

32. يمكننا أيضًا القول عن حق بأنّ حظر الكتابة، إلا بحيطةٍ وحذرٍ، على كلّ الذين ليست تلك وظيفتهم، سيكون بالتأكيد أمرًا أفْيَدَ وأعدلَ، وأنا نفسي أيضًا سيكون عليَّ السّكوت عن الخوض في ذلك!

33. وقد قيل أيضًا بأن أولئك الذين ليسوا منا[2] يحظرون استخدام اسم «الله» في اللغة العادية، بحيث إنهم لا يريدون استعماله في صيغةٍ تعجُّب ولا إشهادٍ أو مقارنة، وأنا أعتبر أنهم على حقٍ في ذلك، وعلى كلّ حالٍ، حين ننادي الرب لمعونتنا فيلزم أن يكون ذلك بجديةٍ وبتديّنٍ.

(1) «verbis indisciplinatis», St Augustin, Cité de Dieu, X, 29.

(2) أي البروتستانتيون.

34. يبدو لي أن لدى كسينوفون مقطعًا يبيّن فيه أن علينا أن نصلي لله ونبتهل له أقلّ ما يمكن، خاصةً وأن ليس من السهل أن نضع أنفسنا في الوضعيات الملائمة التي تتطلب أن نكون متحكمين فيها وجعلناها صالحةً ورعةً، وإلا فإنّ صلواتنا سوف لن تكون فقط نافلةً وغير مُجديةٍ وإنما سيئةٌ، نحن نقول: «اغفر لنا، كما نغفر لمن يهيننونا»، ما الذي نقوله هنا سوى أننا نمنح له نفوسنا خاليةً من الانتقام والضغينة؟ ومع ذلك، نحن نطلب معونة الله على خطايانا، وندعوه بذلك إلى أن يكون ظالمًا!

«تلك الأشياء التي لا يمكننا إيداعها للآلهة إلا سرًّا»[1].

35. يصلي البخيل للربّ من أجل الصيانة العبثية والنافلة لكنوزه، والطّموح من أجل انتصاراته وسيْر أعماله، والسارق كي يعينه على مجاوزة المخاطر والمصاعب التي تعترض إنجازه لمشاريعه المكروهة، أو ليحمده على السهولة التي بها استطاع ذبح أحد المارة! وأمام البيت الذي سوف يقوم الجنود بتسلُّق سوره، نراهم يقومون بصلواتهم، فيما نواياهم وآمالهم مليئةٌ بالوحشية والرذيلة والجشع.

«هذه الصلاة التي تريد القيام بها في أذن يوبيتر
قلْها إذن لستايوس، وسيقول ستايوس:
«يا يوبيتر، يا يوبيتر الطيب!»، فهل سيقول يوبيتر نظيرَ ذلك؟»[2].

36. تحكي مارغريت ملكة نافارا في كتابها، عن أميرٍ شابٍ لا تُفصح عن اسمه، لكن منزلته السامية تجعلنا نتعرَّف عليه[3]، فحين كان الأمير رائحًا إلى موعد عاشقٍ لمجامعة زوجة محامٍ من باريس، صادف كنيسةً في طريقه، وهو لم يكن يمرّ أبدًا من ذلك المكان المقدّس، سواء خلال رواحه أو أوبته من خلوته، من غير أن يقوم فيه بصلواته ودعواته، وأترك لكم أن تفكروا، بالنظر لما يُفعم حينئذٍ نفسه، لأي شيءٍ كان

(1) Perse, **Satires**, II, 4.

(2) Perse, **Satires**, II, 21-23

(3) لا يمكن أن يتعلّق الأمر إلا بمن صار لاحقًا للملك فرنسوا الأول.

يستخدم الفضْل الإلهي، بيْد أنّ الملكة تقدّم ذلك كشهادةٍ على الورع الخاص! لكنّ الأمر لا يشكل دليلًا كافيًا ليؤكد بأن النساء غير قادراتٍ على تناول الأمور اللاهوتية.

37. إنّ صلاةً حقيقيةً، ومُصالحةً حارةً بين الله وبيننا لا يمكنها أن تقوم في نفسٍ غير طاهرةٍ ومستسلمةٍ في الآن نفسه لسلطان الشيطان، مَن يدعو الله لمعونته وهو غارقٌ في الرذيلة يفعل مثل قاطع الطريق الذي يطلب من العدالة أن تعينه، أو مثل أولئك الذين يذكرون الله لتعزيز كذبهم.

«نحن نهمس بصوتٍ خافتٍ
بصلواتٍ مارِقةٍ»[1].

38. ثمة القليل من الناس ممن يجرؤون على الكشف علنًا عن الطلبات التي يوجهونها سرًّا لربهم.

«كل الناس يفضلون الهمس في المعبد
على أن يرفعوا الصوت بدعواتهم»[2].

39. لهذا كان الفيثاغوريون يريدون أن تكون الصلوات والدعوات عامّةً بحيث تتمّ على مرأًى ومسمعٍ من الكلّ، حتى لا يسعى الناس للربّ لأمورٍ وقحةٍ وغير عادلةٍ، كما فعل صاحبنا هذا:

«صرخ بأعلى صوته: «يا أبّولون»».
ثم حرك شفتيه خشية أن يسمعه الناس:
«لافيرنا أيتها الحسناء، اسمحي لي بالخداع وأن أتظاهر بالعدل والطيبة
غلّفي خطاياي بالليل وسرقاتي بغيمٍ»[3].

40. لقد عاقبت الآلهة بقساوةٍ النذور الظالمة التي تفوّه بها أوديب، وذلك من

(1) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale,** V, v. 104.
(2) Perse, **Satires,** II, 6-7.
(3) الإلهة الحامية للسارقين لدى الرومان.

خلال تحقيقها[1]، فقد دعا لأنّ يحلّ أبناؤه بالسلاح الخلاف بينهم على العرش، وكم كانت تعاسته كبيرةً أنّ الآلهة أخذت دعاءهُ حرفيًا، ليس علينا أن نطلب أن تخضع الأشياء لمشيئتنا، وإنما أن تخضع للحكمة.

41. في الحقيقة، يبدو أننا نستخدم صلواتنا كما لو كانت صيغًا بسيطةً، كما أولئك الذين يستخدمون كلماتٍ مقدسةٍ وإلهيةٍ لأغراض السحْر الأسود أو العمليات السحْرِية، بحيث إننا ننتظر أثرًا من نظْمها ونبرتها أو من سلوكنا معها، فبما أنّ لدينا نفسًا مليئةً بالنوازع الشهوانية لا بالتوبة ولا بأي مصالحةٍ مع الربّ، نقدّم له تلك الكلمات التي تمنحها الذاكرة لألسننا، بحيث نطمع في أن ننال من خلالها الغفران عن خطايانا.

42. ليس ثمّةَ شيءٌ أسهل ولا أكثر وداعةً وإيجابيةً من الشريعة الإلهية، فهي تستدعينا مهما كنا آثمين ومكروهين، وهي تمدّ لنا أيديها وتتقبلنا في حضنها مهما كانت حقارتنا ودنسُنا ووَحلنا إن حاضرًا أو في آتينا، لكن علينا بالمقابل أن ننظر لها بنظرةٍ صحيحةٍ، كما علينا أيضًا أن نتلقّى ذلك الصّفح عنّا بأعمالٍ فاضلةٍ، وعلينا على الأقل حين نتوجه إلى الرب أن تكون أنفسنا مفْعمةً بالندم بسبب آثامها، وأن تقف في وجه الشهوات والأهواء التي دفعتنا إلى المروق، يقول أفلاطون بأن لا الآلهة ولا الناس الخيّرون يقبلون بهديةٍ صادرةٍ عن شرٍّ.

«إذا كانت اليد التي تلمس المذْبح المقدّس طاهرةً
فهي قادرةٌ من غير تقديم أضحيةٍ باذخةٍ
للآلهة الخصْم، أن تهدئ من الخصومة
بكعْكةٍ من القمح وبحفنة ملحٍ ناصعة البياض»[2].

(1) يتّبع مونتيني هنا خرافة أوديب في الصيغة التي جاء بها أفلاطون.

(2) Horace, **Odes**, III, 23.

الفصل السابع والخمسون

عن العمْر

1. لا أقبل أبدًا بالطريقة التي بها يُتصوَّر أجل العمر، فالحكماء يقلصون منه كثيرًا مقارنةً مع الفكرة التي لدينا عنه عادةً.

2. قال كاتو الأوتيكي لمن أرادوا منعه من الانتحار: «هل أنا لا زلت في عمرٍ يمكنكم فيه أن تَعيبوا عليَّ أن أهجر فيه الحياة؟»، وهو لم يكن مع ذلك قد جاوز الثامنة والأربعين من عمره، غير أنه كان يعتبر أنه عمر النضج وسنٌّ متقدّمٌ؛ لأنّ القليل من الناس كانوا يبلغونه[1].

3. أولئك الذين يرتكنون إلى فكرةِ «مسيرٍ» للحياة يسمونه «طبيعيًا» يَعِدُهم ببضع سنواتٍ للعيش أكثر، يمكنهم أن يبلغوا ذلك إذا هم استطاعوا أن ينفلتوا من العدد الهائل من الحوادث التي نتعرض لها بطريقةٍ... طبيعيةٍ، والتي قد توقف ذلك «المسير» الذي يَعدون به أنفسهم.

4. يا لها من غباوةٍ أن ننتظر الموت بسبب وَهَن العمر، وأن نجعل من ذلك حدًّا لحياتنا، مع أن ذلك هو الموت الأندر من بين كافة أنواع الوفاة والأقل انتشارًا بين بني البشر، إنه الموت الوحيد الذي نسميه «طبيعيًا»، كما لو أننا نعتبر «أمرًا مُنافيًا للطبيعة» أن نرى شخصًا ينكسر عنقه من أثر سقطةٍ في الفراغ، أو يموت في غَرق سفينةٍ، أو يتعرّض لوباء الطاعون أو داء ذات الجنْب، وكما لو آن وضعيتنا العادية لا تعرضنا بذاتها إلى تلك المخاطر!

5. علينا ألا ندغْدغ نفوسنا بتلك الكلمات الجميلة؛ فربما كان علينا بالأحرى أن نسمي «طبيعيًا» ما هو عامّ ومشتركٌ وكونيٌّ، ولعَمري إن الموت من أثر الشيخوخة هو موتٌ نادرٌ واستثنائيٌ وعجيبٌ، ومن ثم فهو أقل طبيعيةً من أنواع الموت الأخرى، إنه آخِر طريقةٍ للموت، ومهما أمَلْنا فيه فهو بعيدٌ عنا، إذ هو الحدّ الذي لا يمكننا أن نسير أبْعد منه، والذي يمنعنا قانون الطبيعة من مُجاوزته، إنه استثناءٌ تُمنَح

(1) كان مونتيني وهو في التاسعة والثلاثين من عمره يقول إنه قد شاخ وجاوز حدود العيش!

أفضاله الطبيعة لشخصٍ واحدٍ في ظرف ثلاثة أو أربعة قرونٍ، بحيث تمكّنه من الإفلات من العوائق والمصاعب التي زرعتها هي نفسها في طريقه الطويل.

6. علينا، في نظري، اعتبار أنَ العمر الذي بلغنا، قليلون مَن هم يبلغونه؛ ولأنّ الناس -تبعًا للإيقاع العادي للحياة- لا يبلغون ذلك العمر، فذلك علامةٌ على أننا استبقناهم بكثير، وبما أننا قد جاوزنا الحدود المألوفة، باعتبارها المقياس الحق لحياتنا، فليس علينا أن نطمع في مُجاوزة ذلك، ولأنّي أفلتّ في العديد من المناسبات من الموت الحَقيق الذي يصيب العديدين غيري، فعليَّ أن أعترف أنّ الحظ العجيب، كذلك الذي تركني حيًا خارج العادة، لا يمكنه أن يستمر طويلاً.

7. إنه لعيبٌ شائعٌ في شرائعنا أن تُقدَّم لنا مثل هذه الأفكار الخطأ: فهي لا تسمح لشخصٍ بأن يتمتع كليةً بخيراته قبْل سن الخامسة والعشرين، وهو لا يبلغ ذلك العمر إلا بجهْدٍ جهيدٍ. وقد حذف الإمبراطور الروماني أغسطس خمس سنين من هذه الشرائع القديمة الرومانية، وأمر بأن بلوغ الثلاثين سنةً كافية ليحوز المرء على منصب قاضٍ. كما أعفى الإمبراطور سيرفيوس توليوس الفرسان من عبْء القيام بالحرب بعد بلوغهم السابعة والأربعين، أما أغسطس فحدّد ذلك العمر في الخامسة والأربعين.

8. لا يبدو معقولًا إعفاء الناس من وظائفهم وإرسالهم لبيوتهم قبل الخامسة والخمسين أو الستين من عمرهم، وسأكون متفقًا مع تمديد سنوات مِهننا ووظائفنا ما استطعنا ذلك، توخّيًا في ذلك للمصلحة العامة. وفي الطرف الآخر من العمر، أعتبر من غير المعقول ألا يبدأ المرء في العمل في عمْرٍ أسبق، فمن كان وهو ابن التاسعة عشرة الحاكم الأعظم للعالم[1] قد اعتبر أن من اللازم على القاضي الذي يحكم في أمر المكان الذي سيُقام فيه مِزْراب مياهٍ، أن يكون قد بلغ الثلاثين من عمره!

(1) كان الإمبراطور أغسطس، المولود عام 63 ق.م ذا تسعة عشر ربيعًا حين وفاة يوليوس قيصر، لكنه لم يصبح «سيد العالم» إلا بعد عام 30 ق.م.

9. أما أنا فأعتبر أن نفوسنا تكون متطورةً كما ينبغي لها في العشرين من عمرنا، وأنها تمنح حينئذٍ ما تكون قادرةً عليه، والنفس التي لا تمنح في ذلك العمر عربونًا مؤكدًا على قدراتها لا يمكنها أن تقدم دليلًا على ذلك فيما بعد. فالمزايا والفضائل الطبيعية تُبين منذ ذلك العمر ما لها من أمورٍ جميلةٍ وقويّةٍ، أو لا تُبين عنها أبدًا. وثمة مثَلٌ سائرٌ في منطقة الدوفيني يقول:

«إذا لم تخِزنا الأشواك منذ ولادتها
فهي لا يمكن بعد ذلك أبدًا أن تخِزنا».

10. وأنا أعتقد أن أكبر عددٍ من الأعمال البشرية وأجملها التي أعرف، من أيّ نوعٍ كانت، في الأزمنة القديمة كما في عصرنا، قد تحقَّق قبل عمر الثلاثين، لا بعد ذلك. وغالبًا أيضًا في حياة شخصٍ واحدٍ. ألا يمكنني أن أقول ذلك بتاكيدٍ عن حنبْعل وسكيبّيو الإفريقي غريمه الأكبر؟ فقد عاشا نصف عمرهما من المجد الذي جنياه في شبابهما، ثم إنهما كانا رجلَيْن عظيمين مقارنةً مع الآخرين، لا بالعلاقة بما كانا عليه في ذاتهما.

11. أما أنا فإني أعتبر من الأكيد أني منذ ذلك العمر، تدهور عقلي وجسدي أكثر مما تطوّرا، وتراجعا أكثر مما تقدّما، قد تتطور المعرفة والتجربة مع الزمن لدى أولئك الذين يعرفون كيف يستغلون وقتهم؛ لكن الحيوية والسرعة والحزم وغيرها من المزايا الأكثر حميميةً والأهم والأكثر جوهريةً، تذبل ويصيبها الخمول.

«حين تكسِر هجمات الزمن الجسد
وحين تفقد أعضاؤه من قوتها
يبدأ الحكْم في العرَج واللسان والعقل في التّهويم»[1].

12. يكون الجسد تارةً هو من يستسلم أمام الشيخوخة، وتارةً هي النفس، وقد رأيت الكثيرين ممن وَهن منهم العقل قبل المعدة والأرجل، وبما أن الشيخوخة داءٌ لا يحس به كثيرًا من أُصيب به، ولا يُعايِنه بسهولةٍ،

(1) Lucrèce, **De la Nature**, III, v. 451-453

فهو أخطر عليه وأشقُّ.

13. وأنا في الآن نفسه أشكو من القوانين، لا لأنّها تجعلنا نشتغل إلى عمْرٍ متأخرٍ، وإنما لأنّها تجعلنا نبدأه في عمرٍ متأخرٍ، ويبدو لي أننا لو أخذنا بعين الاعتبار ضعْف حياتنا والعدد الهائل من المزالق العادية والطبيعية التي تتعرض لها، فإننا لن نكرِّس وقتًا طويلًا بعد الولادة للخمول والتعلّم.

نهاية الكتاب الأول

المراجع والمصادر التي اعتمدها مونتيني

- Anacréon, *Odes*, http://remacle.org/bloodwolf/poetes/falc/anacreon/oeuvre.htm
- Aristote, *Histoire des Animaux*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, 180 p.
- Aristote, *Morale à Nicomaque*, Œuvres, texte et trad., Les Belles-Lettres, coll. Universités de France, Paris, à partir de 1926.
- Arioste L', *Roland Furieux*, Garnier-Flammarion Poche, 1993, 345 p., Coll. «Poésie étrangère».
- Ariosto Ludovico, *Orlando Furioso*, Einaudi, 2006, 2 t., broché. coll. « Einaudi Tascabili Classici».
- Aristote, *Politique*, Les Belles-Lettres, Coll. Des Universités de France, 2003, 2e tirage-T. I : livres I et II, T. II: livres III et IV.
- Aristote, *Problèmes*, *Œuvres*, texte et trad., Les Belles-Lettres, coll. Universités de France, Paris, à partir de 1926, .
- Augustin Saint, *La Cité de Dieu*, Seuil, 2 tomes, Coll. Points.
- *Sagesse*, 3 vol., traduction de Louis Moreau 1846, revue par Jean-Claude Eslin.
- Aulu-Gelle, *Nuits attiques*, Les Belles-Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, trad. R. Marache.
- Ausone, *Œuvres Complètes*, C. L. F. Panckoucke, 2 tomes, 1843. En ligne à: http://remacle.org/bloodwolf/historiens/ausone/table.htm
- *Bible*, Seuil, 1973, Traduction d'Émile Osty avec Joseph Trinquet.
- Bouchet Jean, Annales d'Aquitaine, faits \& gestes en sommaire des roys de France & d'Angleterre..., Jehan & Enguilbert de Marnef,

Poitiers, 1545, Numérisation BNF: http://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k522330.

- Calpurnius, *Églogues*, Didot, 1860, in Oeuvres complètes de Stace, Martial, Manilius, Lucilius junior, Rutilius, gGatius Faliscus, Nemesianus et Calpurnius avec leur traduction en français publiées sous la direction de M. Nisard.
- Castiglione Baldassare, *Il libro del Cortegiano*, Venise, 1528, Traduit en français par J. Chaperon en 1537.
- Catulle, *Épigrammes*, Les Belles Lettres,2002, Coll. «Classiques poche».
- Catulle, *Épithalame de Thétis et de Pélée*, Les Belles Lettres, 2002, Coll. «Classiques en poche».
- Catulle, *Poésies*, Les Belles Lettres, 2002, Coll. «Classiques en poche ».
- César Jules, *La Guerre civile*, les Belles-Lettres, Paris, 1936, 1987, trad. P. Fabre, livres I-II, réimpr. 1987, livre III, 1982.
- César Jules, *La Guerre des Gaules*, Les Belles-Lettres, Paris, 1926, 19891990-, trad. L. A. Constans, 2 vol.
- Chrétien de Troyes, *Champion*, 1969, Publié par Mario Roques d›après le Ms de Guiot.
- Cicéron, *Académiques*, Les Belles-Lettres, in Œuvres complètes. Collection des universités de France G. Budé, bilingue.
- Cicéron, *De Amicitia*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection des universités de France G. Budé, bilingue.
- Cicéron, *Œuvres complètes* de Cicéron dans: Collection des auteurs latins publiés sous la direction de M. NISARD, Dubochet, Paris, 1841, Sur Gallica.fr et http://agoraclass.fltr.ucl.ac.be/concordances/.
- Cicéron, *De Divinatione*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection des universités de France G. Budé, bilingue.

- Cicéron, *De finibus*, Les Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection des universités de France G. Budé, bilingue.
- Cicéron, *De natura deorum*, Les Belles-Lettre, Œuvres complètes. Collection Universités de France G. Budé, bilingue.
- Cicéron, *De Officiis*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection des universités de France G. Budé, bilingue.
- Cicéron, *Paradoxes*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection des universités de France G. Budé, bilingue.
- Cicéron, *De Senectute*, Les Belles Lettres, Œuvres complètes. Collection des universités de France G. Budé, bilingue .
- Cicéron, *Tusculanes*, Belles Lettres, Œuvres complètes. Collection des universités de France G. Budé, bilingue .
- Cicéron Quintus, *De Petitione consulatus*, Firmin-Didot, 1868, Traduction par Eusèbe Salverte, Auteurs latins supervisée par Charles Nisart, in Œuvres complètes de Cicéron, tome IV, 1868.
- Claudien, *Œuvres*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, série latine, 1936 et 1942, 2 tomes, texte établi et traduit par J.-L. Charlet.
- Commynes Philippe de, *Mémoires*, Les Belles Lettres, 1981, Classiques de l'histoire de France au moyen âge.
- Cornelius Nepos, *Vie d'Atticus*.
- Cotton, *Les Essais de Montaigne*, William Carew Hazilitt, 1877, Translated by Charles Cotton.
- Dante Alighieri, *La Divine Comédie*, La Différence, 2003, bilingue, traduction juxtaliéaire de Didier Marc Garin.
- Diogène Laërce, *Vies et doctrines des philosophes illustres*, Livre de Poche, 2003, 10 tomes.
- Diodore de Sicile, *Sept livres des Histoires de Diodore de Sicile nouvellement traduits de grec en françoys...*, Michel de Vascosan,

Paris, 1574, Traduction Amyot.

- Du Bellay Martin et Guillaume, *Les mémoires de mess. Martin du Bellay, seigneur de Langey...*, 1569,
- Du Bellay Joachim, *Les Regrets/ Les Antiquités de Rome*, Gallimard « Poésie », 1967.
- Erasme, Adages, *Œuvres et correspondance*, coll. Bouquins, Laffont, Paris, 1992, édition de J.-C. Margolin et al.
- Flavius Josèphe, *Autobiographie*, Belles-Lettres, Coll. Des Univ. De France, bilingue français-grec, 155 p., 1984, trad. André Pelletier.
- Froissart, *Chroniques*, Le Livre de Poche, coll. « Lettres Gothiques», 2001, Tome 1, Livres I et II. Gnomiques poètes, *Anonymes*, Editions Crispin, 1569, .
- Gomara Francisco Lopez de, *Histoire générale des Indes Occidentales, et terres neuves, qui jusques à présent ont esté descouvertes composée en espagnol par François Lopez de Gomara* & trad. En françois par le S. de Genille Mart., Fumée, 1605, Texte numérisé sur Gallica 1995, http://gallica.bnf.fr/
- Goulart ou Goulard Simon, *Histoire de Portugal contenant les entreprises, navigations et gestes mémorables des Portugallois, [...] depuis l'an 1496 jusques en l'an 1578*, [...] comprise en 20 livres dont les 12 premiers sont traduits du latin de Jerosme Osorius,... les 8 suivans prins de Lopez de Castagne et d'autres historiens. Nouvellement mise en françois par S.G.S. [S. Goulart.], François Etienne, 1581.
- Guevara Antoine de, *Épistres dorées, moralles et familières de don Antoine de Guevare*, [...] traduits d'espagnol en françoys, Lyon: M. Bonhomme, 15581560-, Guterry, Jean de ....-1581. Traducteur.
- Guichardin, *Histoire des Guerres d'Italie*, traduit de l'italien de François Guichardin [Franceso Guicciardini], Londres, 1738, tome I, lisible et téléchargeable sur Google Livres. Texte original italien sur http://digilander.libero.it/il_guicciardini/index.html
- Hérodote, *L'Enquête*, coll. Folio, Gallimard, Paris, 2 vol., A. Barguet

éd., 1985 et 1990, .

- Homère, *L'Iliade*, Folio Classique, traduction de Paul Mazon, notes par Hélène Monsacré.
- Homère, *L'Odyssée*, Babel, 1995, traduction en vers de F. Mugier.
- Horace, *Art Poétique, Œuvres*, 3 vol., texte et trad. fr. F. Villeneuve, Les Belles Lettres, Paris, 19271934-.
- Horace, *Épîtres*, in Les Belles Lettres, Œuvres, 3 vol., texte et trad.fr. F. Villeneuve, Paris, 19271934-.
- Horace, *Épodes*, Les Belles Lettres, Œuvres, 3 vol., texte et trad. fr. F. Villeneuve, Paris, 19271934-.
- Horace, *Odes*, Les Belles Lettres, Œuvres 3 vol., texte et trad. fr. F. Villeneuve, Paris, 19271934-.
- Horace, *Satires*, in Les Belles Lettres, Œuvres, 3 vol., texte et trad. fr. F. Villeneuve, Paris, 19271934-.
- Horace, *Œuvres*, 3 vol, trad. F. Richard, GF-Flammarion, 19271934- - et 1967.
- Lipse Juste, *De constantia - Traité de la Constance de Just Lipsius auquel, en forme de devis familier, est discouru des afflictions & principalement des publiques, & comme il se faut résoudre à les supporter*, Tours, Claude de Montroeil et Jean Richer, 1594.
- Lipse Juste, *Politiques*, in «Œuvres», Gand, Vyt, 1866.
- Juvénal, *Satires*, Les Belles Lettres, Paris, 1921, 1983, P. de Labriolle et F. de Villeneuve.
- La Boétie Estienne de, *Œuvres complètes*, Ed. William Blake and Co., Coll. « Art et Arts», 1991, Ed. De Louis Desgraves.
- Lactance, *Choix de monuments primitifs de l'Église chrétienne*, Delagrave, Paris, 1882, trad. De J.-A.-C. Buchon; texte numérisé accessible partiellement à: Bibliotheca Classica Selecta Louvain http://bcs.fltr.ucl.ac.be

- Lavardin, *Histoire de Scanderberg, roi d'Albanie*, G. Chaudière, Paris, 1576.
- Le Goff Jacques, *Saint Louis*, Gallimard, 1996.
- Lucrèce, *De la Nature*, Les Belles Lettres, Coll. Des Universités de France, 1972, 2 tomes, bilingue, trad. prose A. Ernout.
- Lucrèce, *De Natura Rerum - De La Nature*, Aubier-Montaigne Bibliothèque philosophique bilingue, 1993, Trad. Juxtalinéaire par José Kany-Turpin.
- Lucien de Samosate, *Philosophes à vendre*, Livre de Poche, Coll. « Classiques d›aujourd›hui», 1996, trad. Odile Zink.
- Lucilius, *Satires*, Les Belles-Lettres, coll. Universités de France, Paris, 3 tomes, 1978, Trad. François Charpin.
- Lucain, *La Guerre civile ou La Pharsale*, Les Belles Lettres, 2003, Coll. Des Universités de France, Trad. Abel Bourgey.
- Macrobe, *Les Saturnales*, Les Belles-Lettres, 1997, Coll. « La roue à livres», traduction Ch. Guittard.
- Marche Olivier de la, *Mémoires*, G. Roville, Lyon, 1562.
- Manilius, *Astronomica*, in œuvres complètes de Stace, Martial, Manilius, Lucilius junior, Rutilius, Gratius Faliscus, Nemesianus et Calpurnius avec leur traduction en français publiées sous la direction de M. Nisard - Didot, Paris, 1860, .
- Martial, *Épigrammes*, Arléa, Paris, 2001.
- Mellin de Saint-Gelais, *Œuvres poétiques françaises*, éd. Par D. H. Stone, STFM, Paris, 1993.
- Nonius Marcellus, *Compendiosa doctrina per litteras*, W. M. Lindsay, 1903.
- Ovide, *Amours*, Les Belles Lettres, Coll. Classiques en Poche, 2002, Bilingue, Trad. Henri Bornecque ; introduction et notes par Jean-Pierre Néraudau.

- Ovide, *L'Art d'aimer*, Belles Lettres, Paris, 2002, Traduction H. Bornecque, édition revue et corrigée par Ph. Heuzé.
- Ovide, Fastes, Œuvres, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, éd. R. Schilling.
- Ovide, *Héroïdes*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, Trad. Henri Bornecque et M. Prévost.
- Ovide, *Les Métamorphoses*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris,1972, éd. G. Lafaye, 3 tomes.
- Ovide, *Pontiques*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris,2000, B.G. Teubner- 1863 Latin seulement.
- Ovide, *Remèdes à l›amour*, éd. Mille et une nuits,1997.
- Ovide, *Tristes*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1988.
- Palissy Bernard, *Discours Admirables des eaux et des fontaines*... chez Martin Le Jeune, Paris, 1580. Édition numérique, avec texte original et modernisé en regard, par G. de Pernon, 2002, http://numlivres.fr/Palissy.html
- Perse Aulus Persius-Flaccus, *Satires*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, éd. A. Cartault.
- Pétrarque, Canzoniere, Gallimard, Coll. «Poésie», 1983, Voir aussi: http://www.italica.it/canzoniere.html
- Pétrone, *Satyricon*, Les Belles Lettres, Traduction A. Ernout. Avec les Fragments attribués à Pétrone.
- Pibrac, Guy du Faur de, *Quatrains*.
- Platon, *Le Banquet*, 1546, traduction latine de M. Ficin.
- Platon, *Gorgias*, in Œuvres complètes, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1985, éd. L. Bodin.
- Platon, *Timée*, in Œuvres complètes, texte et trad., tome X: Timée, Critias, Les Belles Lettres, Coll. Des Univ. De France, 2002, .

- Platon, *Les Lois*, in Œuvrescomplètes, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1976, éd. A. Diès.
- Platon, *Théétète*, in Œuvres complètes, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1976, sous la direction d›Auguste Diès.
- Platon, *Œuvres complètes*, Gallimard, « La Pléiade», 2003, 2 tomes, traduction nouvelle de Léon Robin.
- Platon, *Le Politique*, Garnier-Flammarion, 203, trad. Luc Brisson, 316 p.
- Platon, *La République*, Gallimard Coll.«Folio-Essais », 1993, Traduction de Pierre Pachet.
- Plaute, *Les Captifs*, in Théâtre complet, Gallimard-Folio Classique, 1991, éd. P. Grimal.
- Plaute, *Œuvres complètes*, P. Grimal, trad. et éd., 1971, Paris, Gallimard, La Pléiade.
- Pline Le Jeune, *Correspondance*, Les Belles Lettres, coll. Des Universités de France, 196888-, Tomes I à IV.
- Pline l›Ancien, *Histoire naturelle*, in Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1951, éd. Jean Beaujeu.
- Plutarque, *Œuvres mêlées*, 1572, Traduction Jacques Amyot. Michel de Vascosan, 1572 Paris BNF « Gallica », fac-similé, téléchargeable, 2 tomes.
- Plutarque, *Vies Parallèles*, Gallimard, Coll. «Quarto», 2001, trad. Anne-Marie Ozanam, éd. Sous la direction de F. Hartog.
- *Priapea ou Diversorum veterum poetarum lusus*, Anonyme, Alde, Venise, 1517, Recueil de poésies licencieuses.
- Properce, *Elégies amoureuses* - Cynthia, éd. De l›Imprimerie Nationale, 2003, éd. De Pascal Charvet, bilingue latin-français.
- Prudence, *Oeuvres*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France,

tomes I à IV- Texte établi et traduit par M. Lavarenne.

- Prudence, *Contre Symnaque*, in *Œuvres* Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Tome III, texte établi et traduit par M. Lavarenne. .

- Pseudo-Gallus Maximianus, *Poetae Latini Minores*, Baehrens, Leipzig, 18797 ,1923- vol.-voir aussi: édition numérique http://www.thelatinlibrary.com/maximianus.htm.

- Publius Syrus, *Sentences*, Bibliotheca Augustana, , texte numérisé, http://www.hsaugsburg.de/harsch/Chronologia/Lsante01/Publilius/pub_sent.html#e

- Quinte-Curce, *Histoire d'Alexandre le Grand*, Gallimard Coll. Folio, 2007, éd. Claude Mossé et Annette Flobert.

- Quintilien, *Institution Oratoire*, in Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1979, trad. Jean Cousin, 6 tomes.

- Ronsard, *Poésies choisies*, Classiques Garnier, 1969, introd. par Françoise Joukovsky.

- Salluste, Histoires fragments, Les Belles-Lettres, 1946, 1994, éd. A. Ernout.

- Salluste, *La Guerre de Jugurtha*, Belles Lettres, Coll. « Classiques en poche », 2000, Trad. Alfred Ernout.

- Saxon le Grammairien ou Saxo Grammaticus, *Gesta Danorum ou Danorum regum heroumque historiae*, A. Holder, Strasbourg, 1858.

- Second [Jean Evraerts, dit Jean -], *Elégies*, in Œuvres complètes, H. Champion, Paris, 2005, 2 volumes. Texte latin et français. Édition critique établie et annotée par Roland Guillot.

- Sénèque, Tragédies, Les Belles Lettres, coll. Des Universités de France, Paris, 2002; Tragédies, tome II: Oedipe, Agamemnon, Thyeste; broché, 336 p.

- Sénèque, *Consolation à Polybe*, Les Belles Lettres, Coll. Universités

de France, Dialogues, tome III, 2005, trad. R. Waltz, 219 p.

- Sénèque le Rhéteur, *Controverses et déclamations* latin, Teubner, Fac-sim. De l'éd. De Stuttgart : Teubner 1872., 1967, Texte latin disponible à: http://www.thelatinlibrary.com/seneca.suasoriae.html
- Sénèque, *De Beneficiis, Arléa, Coll. « Retour aux grands textes»,* Poche, 2005, trad. Aude Matignon.
- Sénèque, De clementia, De la clémence, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2005.
- Sénèque, Dialogues, Les Belles Lettres, 1971, t. 1 : De la colère.
- Sénèque, *Épitres, ou «Lettres à Lucilius »,* Texte et trad., Les Belle Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1992, Trad. François Préchac.
- Sénèque, *Hercule furieux*,Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, Tragédies, tome I: Hercule furieux, Les Troyennes, Les Phéniciennes, Médée, Phèdre; broché, 441 p., trad. F. R. Chaumartin
- Sénèque, *Œdipe*, Les Belles Lettres, coll. Des Universités de France, Paris, Tome II : Œdipe Agamemnon - Thyeste.
- Sénèque, *Les Phéniciennes*, Les Belles Lettres, coll. Des Universités de France, Paris, Tragédies, tome I: Hercule furieux, Les Troyennes, Les Phéniciennes, Médée, Phèdre, broché, 441 p., trad. F. R. Chaumartin.
- Sénèque, *La Vie heureuse, la Providence*, Les Belles Lettres, coll. «Classiques en poche», Trad. Abel Bourgey, René Waltz.
- Sénèque, *Les Troyennes*, Les Belles Lettres, coll. Des Universités de France, Paris, Tragédies, tome I : Hercule furieux, Les Troyennes, Les Phéniciennes, Médée, Phèdre; broché, 441 p., trad. F. R. Chaumartin
- Sidoine Apollinaire, *Poèmes et Lettres*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 19601970-, texte établi et traduit par André Loyen, 3 vol.
- Silius Italicus Tiberius, *De bello punico secundo XVII libri La Guerre*

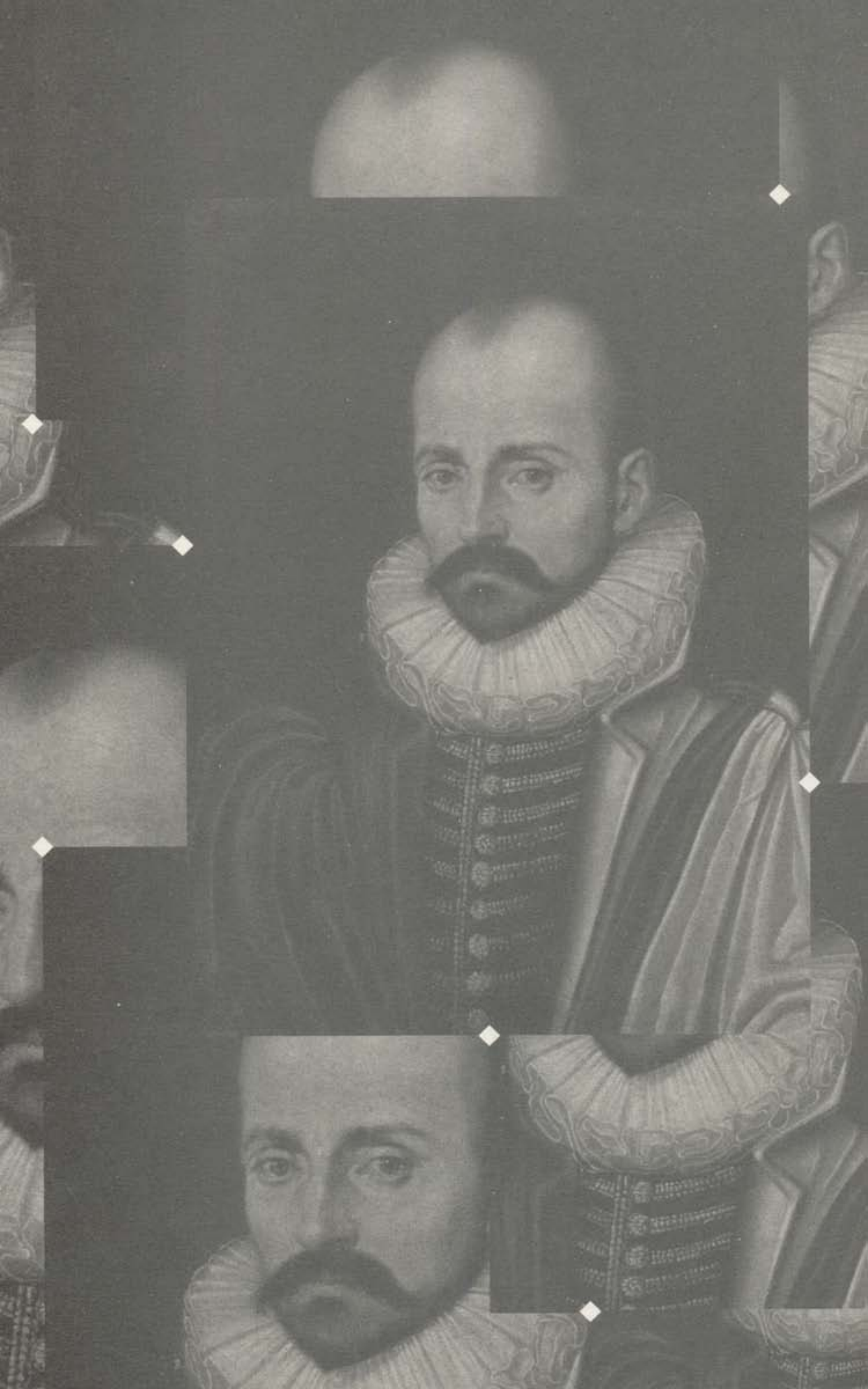
punique, Les Belles Lettres, 1982, Trad. Pierre-Jean Miniconi.

- Sophocle, *Ajax*, Les Belles Lettres, Coll. « Classiques en poche», 2002, édition bilingue, trad. Paul Mazon, texte établi par A. Dain.
- Stace, *Sylves*, *Les Belles Lettres*, coll. Universités de France, Paris, 1992, Texte établi par H. Frère et traduit par H. J. Izaac. 2 tomes.
- Stace, *Thébaïde*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 19913 ,93- tomes.
- Saint Jérôme, *Lettres à Chromatia*, Les Belles-Lettres, Paris, 1949-1963, trad. J. Labourt, 8 vol.
- Stobée, *Fragments de Stobée*, Les Belles Lettres, 1983, présentés par André Festugière, I-XXIII.
- Stoïciens Les, Gallimard, Collection Pléiade, 1962, Trad. Émile Bréhier.
- Suétone, Vies des Douze Césars, Les Belles Lettres, coll. Poche bilingue, 1975, Trad. Henri Ailloud, introd. et notes de Jean Maurin.
- Tacite, Annales, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1976, 3 tomes, éd. de P. P, J. Hellegouarc›h, Paul Jal.
- Tacite, Vie d'Agricola, La Germanie, Les Belles Lettres, Coll. «Classique en poche », 2001, bilingue.
- Tacite, Histoires, in Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1992, 3 tomes, éd. De J. Hellegouarc›h, H. Le Bonniec, Paul Jal.
- Le Tasse Torquato Tasso, Jérusalem délivrée, Gallimard, Folio Classique, 2002, Trad. De Michel Orcel en vers libres non rimés.
- Le Tasse Torquato Tasso, *Rimes* et prose, Ferrare, 1585.
- Térence, *Œuvres complètes*, Gallimard, coll. La Pléiade, 1971, éd. Et trad. P. Grimal.
- Tertullien, *Apologétique*, Les Belles Lettres, coll. «Classiques en

Poche », 2002, Texte établi et traduit par J.-P. Waltzing. Introd. et notes par Pierre-Emmanuel Dauzat.

- Tertullien, *La pudicité*, Le Cerf, coll. «Sources chrétiennes», 1993, .
- Tibulle, *Elégies*, in Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, «Corpus Tibullianum», Coll. Budé des Universités de France, 1924, .
- Tite-Live, *Annales ou Histoire romaine*, Les Belles Lettres, Paris, 1943 sqq. ; é et trad. E. Lasserre, 1934 sq.; éd. Et trad. P. Jal, 1976-197 , éd. Et trad. J. Bayet et G. Baillet, .
- Valère Maxime, *Des faits et des paroles mémorables*, Les Belles Lettres ; Collection des Universités de France, Paris, 2003, 2 tomes, Trad. Robert Combès.
- Virgile, Bucoliques, Gallimard, Coll. «Folio», 1997, Bilingue, trad. Paul Valéry et J. Delille.
- Virgile, *Églogues* in Œuvres, Hachette, Coll. «Classiques Latins», 1969, .
- Virgile, *Énéide*, in Œuvres complètes, tome I, Ed. de La Différence, 1993, texte bilingue juxtalinéaire- trad. J.-P. Chausserie-Laprée.
- Virgile, *Géorgiques*, Gallimard, Coll « Folio », 1997, Bilingue, trad. Paul Valéry et J. Delille.
- Xénophon, *Le Banquet* in Œuvres Complètes, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1967, trad. E. Chambry.
- Xénophon, *Cyropédie*, in Œuvres Complètes, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1970, trad. E. Delbecque, .
- Xénophon, *Mémorables*, in Œuvres Complètes, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1979, Trad. E. Delbecque.

MANA.NET



هذه هي الترجمة العربية الأولى لكتاب «المقالات» للفيلسوف الفرنسي الكبير مشيل دو مونتيني، والذي يُعدّ أحد أبرز كُتب التراث الإنساني، وفيه أولّ ظهور لفنّ المقالة. ظلّ هذا الكتاب على قوائم الفاتيكان للكتب المحظورة زهاء ثلاثة قرون، لكن حظره لم يكبحه عن الذيوع في أوروبا، والتأثير في كبار مفكريها، من عصر التنوير حتى العصر الحديث، ولقد دان العديد منهم لهذا الكتاب بالفضل في أدبهم وفلسفتهم.



ISBN 978-603-91637-1-8

9 786039 163718

الطبعة الأولى: 2021

معنى
MANA